ابو علی مسکویه الرازی

تجارب الأمم

حققه وقدم له

الدکتور ابوالقاسم امامی

الجزء الاول

دار سروش للطباعة والنشر
طهران ۱۳۷۹ ش ۲۰۰۱ م

أبو علي مسكويه الرازي
(٣٢٠-٤٢١)

تجارب الأمم

حققه وقدم له

الدكتور ابوالقاسم امامي

الجزء الاول

دار سروش للطباعة والنشر

سروش
تهران ١٣٧٩

ابن مسکویه، احمد بن محمد، ۳۲۰ - ۴۲۱ق.
تجارب الامم / ابوعلی مسکویه الرازی؛ حققه و قدم له ابوالقاسم امامی. - طهران: دار سروش للطباعه والنشر، ۱۹۸۷=۱۴۰۷ق. = ۱۳۶۶- ج.
ISBN 964-435-331-5(دوره)_ISBN 964-435-327-7(ج.۴)
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
پشت جلد به انگلیسی:
Miskawayh. Tajarib al-umam (experiences of nations).
عربی.
کتابنامه.
ج.۵(چاپ اول: ۱۳۷۷) ISBN 964-435-328-5
ج.۳(چاپ اول: ۱۳۷۹) ISBN 964-435-551-2
ج.۷(چاپ اول: ۱۳۷۹) ISBN 964-435-552-0
ج.۱، ۲، ۳(چاپ دوم: ۱۴۲۱ق. = ۲۰۰۱م. = ۱۳۸۰).
(با جلد شمیز): (ج.۱) ISBN 964-435-592-x
- ۲۷۰۰۰ ریال (با جلد گالینگور): ۳۳۰۰۰ ریال
(با جلد شمیز): (ج.۲) ISBN 964-435-493-8
- ۲۳۰۰۰ ریال (با جلد گالینگور): ۲۹۰۰۰ ریال
(ج.۳) ISBN 964-435-551-2
۱. اسلام -- تاریخ -- متون قدیمی تا قرن ۱۴. ۲. تاریخ جهان -- متون قدیمی تا قرن ۱۴. ۳. ایران -- تاریخ -- متون قدیمی تا قرن ۱۴. الف. امامی، ابوالقاسم، ۱۳۱۳ - مصحح. ب. صدا و سیمای جمهوری اسلامی ایران. انتشارات سروش. ج. عنوان.
۹۰۹/۰۹۷۶۷۱ DS۳۵/۶۳/ت۳ ۵الف
۱۳۶۶
کتابخانه ملی ایران
محل نگهداری
م۶۶-۹۲۴*



طهران، شارع الاستاذ مطهري، مفترق الدكتور مفتح بناية جام‌جم، رقم ۲۲۸
مركز التوزيع: مجمع سروش الثقافي، المعاونية التجارية، رقم التليفون ۶۴۰۴۲۵۵

العنوان: تجارب الامم (المجلد الاول)

المؤلف: ابوعلي مسكويه الرازي

تحقيق: الدكتور ابوالقاسم امامي

تنضيد الحروف والاخراج: دار البصائر للخدمات الثقافية

الطبعة الثاني: ۱۳۷۹ ش / ۱۴۲۲ ق / ۲۰۰۱ م.

عدد النسخ: ۳۰۰۰ نسخة

طبع هذا الكتاب بجميع مراحل الطبع في مطابع دار سروش للنشر.

شابک: X_۵۹۲_۴۳۵_۹۶۴ (جلد اول) ISBN: 964 - 435 - 592 - X (Vol. 1)

شابک: ۵_۳۳۱_۴۳۵_۹۶۴ (دوره ۷ جلدی) ISBN: 964 - 435 - 331 - 5 (7 Vol. SET)



تجارب الأمم

تصدير التصدير

نشر الجزءان الأوّل والثاني من كتاب تجارب الأمم عام ١٩٨٧ م. وحظي عملنا المتواضع بالقبول والتشجيع من قبل الباحثين من ذوي الإختصاص، سواء في ايران أو خارجها، ولكن تأخّر ـ ولظروف طارئة ـ صدور الأجزاء المتبقّية الجاهزة في المطبعة بحيث صدرت عام (١٩٩٧ ـ ٢٠٠١ م) في الوقت الذي نفذت فيه النسخ المنشورة من الجزأين الأوّلين. إذن وعندما عزم الأمر على إصدارها كاملة ومتزامنة، أعدنا النظر في تصديرنا الذي صدّرنا به عملنا يوم ذاك، وأدخلنا فيه بعض ما استجدّ لنا بعد ذلك.

والجدير بالذكر أنّ هذه الطبعة المحقّقة الكاملة الأجزاء من تجارب الأمم لا تقاس إطلاقاً بالطبعة السابقة الناقصة الأجزاء التي نشرها آمِدْ روز (ج ٥، ج ٦ + الذيل، مصر ١٩١٤ ـ ١٩١٦) وترجمها المستشرق مرجليوث إلى الإنجليزية (أكسفورد ٢١ ـ ١٩٢٠) والتي لم تشمل إلّا أقلّ من نصف أجزاء الكتاب من آخره. حيث إن نشرتنا هذه تشمل ولأوّل مرّة في تاريخ النشر ومنذ عهد غوتمبرغ، كلّ أجزاء تجارب الأمم الستة مع ذيله وفهارسه، لتصبح في النهاية ثماني مجلدات.

هذا، وقد شاءت الأقدار أن لايكون فراغنا من هذا العمل إلّا في عامنا هذا بالذات، الذي صادف السنة الألف من وفاة مسكويه من ناحية، والسنة الدولية لحوار الحضارات من ناحية أخرى. لقد سبق أن عمل مسكويه الكثير من أجل هذا الحوار، فإنّه حكيم اسلاميّ غنوصيّ برغماتيّ، فلسف التاريخ ونظر في تاريخ الأمم والشعوب المعتدّة بها في ذلك العصر وحسب مصادر كانت في متناوله، للتعرّف على مناحي حياتهم ولاستخلاص

تجاربهم والتنبيه على مواضع الإعتبار منها، كما درس آداب العرب والفرس واليونان والهند وذلك لإكمال الـ«جاوذان خرد» أي الحكمة الخالدة التي وجد نواتها عند الفرس الأقدمين وألفاها تعمّ الإنسانيّة جمعاء؛ كما خدم الإنسان من حيث هو إنسان ومن دون أيّ انـتماء، وذلك بمحاولته الرائدة المعترف بها لدى الجميع في فلسفة الأخلاق التي لم تكـن مـدوّنة قبله. الفلسفة التي لا تهدف إلّا سعادة الإنسان القصوى، ولا تنشد إلّا رقيّه إلى كماله الأعلى، الخاصّ واللائق به والمتوقّع منه، ولا يقصد إلّا تقويم سلوكه وذلك لإنقاذه ممّا اعـتاد أن يعانيه طيلة حياته.

وفي الختام، نسأل الله تعالى شأنه، وذلك بعد شكره على هذا التـوفيق، أن يـوفّقنا فـي إكمال الترجمة الفارسية لهذا الكتاب أيضاً وفي إتمام ما تبقّى من العمل لسائر مصنفات هذا العالم العَلَم الإيرانيّ الإسلامي نصّاً وترجمةً، وفي نشر دراستي المستقلّة الشاملة، الخاصة بمسكويه ودوره العلمي في عصره، والتي أودّ أن تكون آخر حلقة من هذه السلسلة، وذلك لسدّ الفراغ المشهود على هذا الصعيد، في لغتنا الفارسية.

الدكتور ابوالقاسم امامی

طهران ـ شتاء ١٣٧٩ ش. / ١٤٢١ ق. / ٢٠٠١ م.



تصدير عام
حول مسكويه وتصنيفه تجارب الأمم

مناهل دراسته

لم يرد في المصادر القديمة التي وصلت إلينا حتى اليوم، ذكر بالتفصيل عن حياة مسكويه يجيب على الكثير من الأسئلة المطروحة أمام دارسيه. وكلّ ما لدينا هو نصوص مبعثرة في هذا المصدر أو ذاك، تناقلها أصحاب التراجم ومؤرّخو الحكمة، وهي نزر قليل للغاية. ومن حسن الحظّ أن نرى حكيماً من كبار الحكماء المعاصرين لمسكويه، ممّن يعرف مسكويه عن كثب ويقدّر القيم التي تنطوي عليها شخصيّته، نراه ولم يقنعه ما كتبه عن مسكويه في كتابه والذي ليس إلّا بقدر ما كتبه حول الحكماء الآخرين بالاختصار والتلخيص، بل يعدنا فيه أنّه سيخصّص رسالة بمسكويه يعالج فيها مزيداً من تفاصيل حياته. وهذا الحكيم هو أبو سليمان المنطقي السجستانيّ الذي يعدّ بدوره من أعظم الحكماء في تلك الحقبة. ثم نرى ــ وهذا من سوء الحظّ ــ أنّ ما وعده أبو سليمان لم يصل إلينا، سواء كان لم يوفّق في إنجاز ما وعد، أو لأنّه أنجزه، ولكنّ صروف الدهر هي التي حرمتنا هذه الوثيقة القيّمة التي كان من شأنها أن تغنينا ممّا هو مبعثر هنا وهناك. وليس إلّا ترداداً لقليل من الكثير اللازم في التعرّف على حياة مسكويه. أمّا ما وعده أبو سليمان، فهو ما قاله في كتابه صوان الحكمة :

«... أمّا ما سمعته من مجاري حياته، وشاهدته من سيره الحسنة، وأخلاقه الطاهرة، فسأفرد فيه رسالة أقصرها على ذلك، إذ ليس يحتمل هذا الموضع

أكثر ممّا ذكرته.»

وكان ظهور هذا الوعد الفريد في الصوان، ومصيره المجهول بعد ذلك، بالنسبة للمعنيّين بدراسة مسكويه «غمامة أبرقت ـ كما قال القائل ـ قوماً عطاشاً. فلمّا رأوها، أقشعت وتجلّت» ولم تمطر ما يشفي غليلهم.

وأمّا تصنيفه تجارب الأمم، الذى ضمّنه في الجزأين الأخيرين منه حوادث عصره، ومن خلالها بعض حوادث حياته، فهذا المصدر أيضاً، يتوقّف عند سنة ٣٦٩ هـ، وهذا يعني أنّ مسكويه عاش بعد ذلك حوالى نصف قرن، تاركاً كتابة الحوادث المتبقّية من عصره، الحوادث التى كان من شأنها أن تلقى مزيداً من الضوء على النصف الثانى من حياته أيضاً، وذلك من خلال اتّصاله الوثيق بالشخصيّات الدخيلة في تلك الحوادث، حيث كان مسكويه من وجوه أوساطهم.

ومهما يكن من أمر المصادر،فإننا لا نعمد هنا الخوض في تفاصيل حياة مسكويه، بل نكتفي بإيراد أهمّ المصادر التى فيها ترجمة أو ذكر لمسكويه، نثبتها في أربع فئات:

أ. آثاره كسيرة ذاتيّة:

إنّ مسكويه قد يتحدّث في مطاوى آثاره عن نفسه، بأحاديث لها دلالات مهمّة في معرفة أحواله وبعض نواحي حياته، وأخصّ بالذّكر كتابه: تهذيب الأخلاق، وكتابه الآخر: الهوامل والشوامل، والجزءين الخامس والسادس من تجارب الأمم.

ب. المصادر المعاصرة لمسكويه (٣٢٠ ـ ٤٢١ هـ):

١. أبو حيّان التوحيدى (٣٢٠ ـ ٤١٤ هـ) في الإمتاع، والمقابسات، ومثالب الوزيرين، والصداقة والصديق.

٢. أبو سليمان المنطقى (العقد الأوّل من القرن الرابع ـ ٣٩١ هـ.) في كتابه صوان الحكمة.

٣. أبو منصور الثعالبى (٣٥٠ ـ ٤٢٩ هـ.) في تتمّة اليتيمة. وأمّا ما ذكره عن مسكويه في اليتيمة نفسها فلا يتجاوز نقل بيتين من شعر مسكويه قالهما في ابن العميد.

٤. أبو بكر الخوارزمي (المتوفّى سنة ٣٨٢ هـ.) في رسائله.

٥. بديع الزمان الهمذاني (... ـ ٣٨٩ هـ.) أيضاً في رسائله.

ج. المصادر المتأخّرة عن عصر مسكويه:

١. البيهقي (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ.) في مخطوط كتابه تاريخ حكماء الإسلام، عند كلامه عن الفيلسوف ابن الطيّب وتطاول ابن سينا على علماء عصره. وهو مخطوط يتشابه كما قال عزّت (ص ١٤٦) في هذا الموضوع وغيره مع كتاب آخر مطبوع هو تتمة صوان الحكمة، بل هما كتاب واحد بعنوانين مختلفين، نشر عزت في كتابه (ص ١٤٦) النصّ الخاصّ بمسكويه، كما نشر الكتاب بكامله في دمشق سنة ١٩٤٣.

٢. ابن أبي أصيبعة (٥٧٩ ـ ٦١٦ هـ.) في عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء.

٣. ياقوت (المتوفى سنة ٦٢٩ هـ.) في معجم الأدباء أو إرشاد الأريب.

٤. القفطي (٥٦٤ ـ ٦٥٦ هـ.) في إخبار العلماء بأخبار الحكماء.

٥. الشهرزوري (عاش شطرى القرنين السادس والسابع) في مخطوطة نزهة الأرواح وروضة الأفراح. وتجد النص منشوراً في عزّت (ص ١٤٤). وكلام الشهرزوري في هذا النصّ اقتضاب محرّف من كلام أبي سليمان المنطقي في نشرة بدوي (ص ٣٤٦). والعجيب من أمره أنّك تجد في نصّ الشهرزوري هذه العبارة: «إلى وقتنا هذا» دون إشارة إلى أنّ الكلام لأبي سليمان وأنّ الوقت وقته ووقت مسكويه.

٦. الصفدي (٦٩٦ ـ ٧٦٤ هـ.) في الوافي بالوفيات. ترجم له في هذا الكتاب بترجمة وافقت ترجمته في معجم ياقوت.

٧. حاجي خليفة (١٠١٧ ـ ١٠٦٧ هـ.) في كشف الظنون.

٨. عبدالله أفندي التبريزي الاصفهاني (من أعلام القرن الثاني عشر) في رياض العلماء.

٩. الخوانساري (١٢٢٤ ـ ١٣١٣ هـ.) في الروضات.

١٠. السيد حسن الصدر (١٢٧٢ ـ ١٣٥٤ هـ.) في تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، وفي الشيعة وفنون الإسلام.

١١. محمد علی مدرس (١٢٩٦ ـ ١٣٧٣ هـ.) في ريحانة الأدب.

١٢. الطهرانی (١٢٩٣ ـ ١٣٨٩ هـ.) فی الذريعة، وذلك عند ذكره لآثار مسكويه.

د. الدراسات الحديثة :

أمّا الدراسات الحديثة التی قام بها الباحثون فی الشرق والغرب، فبالإضافة إلی ما نشر منها في دوائر المعارف، أو في تواريخ الفلسفة الإسلامية، أو فی الفهارس، أو فی المجلات العلميّة، أو فی معاجم الأعلام، أو فی مقدمة النشرات لآثار مسكويه، وغيرها؛ فإنّ هناك دراسات أخری مسهبة مستقلة، أنجزت أيضاً، حول مسكويه ونقد آثاره وتقييم أعماله العلمية. وهی حسب تاريخ النشر: الدكتور عزيز عزّت: «ابن» مسكويه وفلسفته الأخلاقيّة ومصادرها (القاهرة ١٩٤٦ م)؛ والدكتور عبدالرحمن بدوی: مقدمته المسهبة على نشرته لجاويدان خرد (الحكمة الخالدة القاهرة ١٩٥٢ م. ، طهران ١٣٥٨ هـ. ش.)؛ والدكتور عبدالحق أنصاري: فلسفة مسكويه الأخلاقية (بالإنجليزية عليكره ١٩٦٤ م)؛ M.S.Khan: مسكويه، حياته وآثاره، بالإنجليزية. أخبرنا بذلك في نشرته لرسالة مسكويه في ماهيّة العدل (ليدن ١٩٦٤ م، ص ١ حاشية ١) ولكنّنا لم نجد أيّ إشارة إلى هذا الكتاب في الدراسات التي أنجزت بعد ذلك؛ والدكتور م. أركون (M. Arkoun): الإنسيّة العربيّة فی القرن الرابع الهجری، مسكويه الفيلسوف والمؤرّخ (باللغة الفرنسيّة، باريس ١٩٧٠ م؛ وباللغة العربيّة: نزعة الأنسنة فی الفكر العربی. جيل مسكويه والتوحيدی، بيروت، دار الساقی ١٩٩٧ م.)؛ وأخيراً فإنّ لنا أيضاً دراسة شاملة عن مسكويه باللغة الفارسية حاولنا من خلالها سدّ الفراغ المشهود هنا فی ايران، مع العلم بأنّه رازیّ، أی إيرانیّ. هذا علاوة على هذا التصدير الذی بين يدی القارئ، والذی نُقل بتمامه وعن طبعته الأولی، فی مستدركات أعيان الشيعة فی مادّة «أحمد مسكويه»؛ ومقدّمتنا لترجمتنا الفارسيّة لهذا الكتاب؛ وما كتبناه فی مادّة «أبو علي مسكويه» فی «دايرة المعارف بزرگ اسلامی» (دائرة المعارف الإسلاميّة الكبری) المعاد نشره في «ذكری ألفيّة أبی علی مسكويه» التی أقيمت فی مدينة قم فی هذا العام.

الفترة التي عاشها

عاش مسكويه حوالي مائة سنة، ووصل إلى أرذل العمر الذي امتدّ من سنة ٣٢٠ هـ على الأقوى، إلى التاسع من صفر سنة ٤٢١ هـ. بالتحديد على ما ذكره ياقوت نقلاً عن يحيى بن مَندة. ويبدو أن مرجليوث هو أوّل من حاول تحديد مولد مسكويه، وذلك في المقدمة التي قدّمها لترجمته الإنجليزية للجزأين الأخيرين من تجارب الأمم وذيل الروذراوري له (أنظر: Ecl., Pref., P. ii). فنراه وقد حدّد مولد مسكويه «مؤقتاً» سنة ٣٣٠ هـ. ، ثم يعود قائلاً: «أو أسبق بقليل». ثم يحاول الدكتور عزّت (ص ٧٩ ـ ٨٠) تقديم هذا التاريخ من ٣٣٠ إلى ٣٢٥ هـ. كما يقدّمه الدكتور عبدالرحمن بدوي (ص ٢٠ ـ ٢١) أكثر من ذلك ويجعله سنة ٣٢٠ هـ. قائلاً: «إن لم يكن قبل ذلك». وأمّا الدلائل أو الأمارات الموجودة لتحديد مولد مسكويه فهي:

١. ما قاله مسكويه نفسه في تجارب الأمم في مقدمة حوادث سنة ٣٤٠ هـ. فصاعداً، ذاكراً مصادره في تقرير تلك الحوادث، قال:

«أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة، [أي بعد سنة ٣٤٠ هـ.] فهو عن مشاهدة وعيان، أو خبر محصّل يجري عندي خبره مجرى ما عاينته. وذلك أنّ مثل الأستاذ الرئيس أبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد ـ رضي الله عنه ـ خبّرني عن هذه الواقعة وغيرها بما دبّره وما اتّفق له فيها، فلم يكن إخباره لي دون مشاهدتي في الثقة والسكون إلى صدقه، ومثل أبي محمد المهلّبي ـ رحمه الله ـ خبّرني بأكثر ما جرى في أيّامه، وذلك بطول الصحبة وكثرة المجالسة. وحدّثني كثير من المشايخ في عصرهما بما يستفاد منه تجربة، وأنا أذكر جميع ما يحضرني ذكره، وما شاهدته وجرّبته بنفسي فسأحكيه أيضاً بمشيئة الله.»

٢. ما قاله مسكويه في تجارب الأمم أيضاً عن نفسه، (أنظر حوادث سنة ٣٤١)، وذلك

عند ذكر معزّ الدولة بالحدّة والبذاءة، وموقف الوزير المهلّبي من أخلاقه. قال مسكويه:

«وكان معزّالدولة حديداً سريع الغضب بذيء اللسان، يكثر سبّ وزرائه والمحتشمين من حشمه، ويفترى عليهم، فكان يلحق المهلّبى ـ رحمه الله ـ من فحشه وشتمه عرضه ما لا صبر لأحد عليه، فيحتمل ذلك احتمال من لا يكترث له وينصرف إلى منزله، وكنت أنادمه في الوقت، فلا أرى لما يسمعه فيه أثراً، ويجلس لأنسه نشيطاً مسروراً....»

أمّا فى الدليل الأوّل فيحدّثنا مسكويه عن «طول الصحبة وكثرة المجالسة» التى كانت بينه وبين الوزير المهلبى، وفى الدليل الثانى يقول: «وكنت أنادمه فى الوقت.»

والمعروف أنّ المهلّبى قد تولّي الكتابة لمعزّالدولة سنة ٣٢٩ هـ. وخوطب بالوزارة سنة ٣٤٥ هـ. وتوفّى فى شعبان سنة ٣٥٢ هـ. (أنظر التجارب، حوادث سنة ٣٣٩، ٣٤٥، ٣٥٢)، والفترة الواقعة بين سنتى ٣٣٩ و٣٥٢ هى التى كانت فيها تلك المنادمة والصحبة والمجالسة التى وصفها مسكويه بالكثرة والطول. نعم صحيح أنّه «قد صحب الوزير المهلّبى فى أيّام شبيبته» ـ كما صرّح به أبو سليمان أيضاً فى الصوان (ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧) ـ ولكنّ مسكويه فى هذه الشبيبة، لايمكن أن تكون سنّه أقلّ من ٢٥ سنة، وخاصّة بالنظر إلى أنّه «كان من خواصّه ووجوه المختصّين به» ـ كما أضاف أبو سليمان ـ وكان من الحنكة والبصيرة على مستوىً جعل المهلّبى يتخذه نديماً له و«يخبره بأكثر ما جرى فى أيّامه»، كما جعل مسكويه بالذات يعدّ نفسه مصدراً من مصادر تاريخ سنة ٣٤٠ فصاعداً، وذلك فى قوله: «وأنا أذكر جميع ما يحضرنى ذكره، وما شاهدته وجرّبته بنفسي، فسأحكيه بمشيئة الله.» فبذلك لايصحّ أن يكون مولده بعد سنة ٣٢٠، كما تكون منادمته وصحبته الطويلة ومجالسته الكثيرة للوزير المهلّبى ابتداء من عام ٣٤٥ أى دون احتساب الخمس السنوات الأولى (٣٣٩ ـ ٣٤٤ هـ.) من وزارة المهلّبى وذلك لبعض الاحتمالات السلبيّة التى قد تعترى هذا الافتراض.

٣. وهناك دليل آخر، وهو دليل على طول عمره أكثر من كونه دليلاً على تحديد سنواته أو تحديد ميلاده، وهو أنّ لمسكويه أبياتاً يشكو فيها «سوء أثر الهرم وبلوغه أرذل العمر»

(أنظر الثعالبي، التتمة ص ٩٦).

فبهذا لا نستبعد أن يكون مسكويه قد عمّر مائة سنة كاملة (٣٢٠ ـ ٤٢١) إن لم نقل أكثر من ذلك، وعاش قرناً كاملاً هو ألمع القرون الإسلاميّة حضارة، وهو عصر النهضة في الإسلام كما سمّاه آدم متز. وإذا عرفنا أنّ دولة البويهيين قد بدأت في سنة ٣٢٠ هـ، فيكون مسكويه والدولة البويهية، تِربَين، أو، لِدَتين، تعاصرا قرناً كاملاً. والسنوات المائة هذه كانت قمّة ازدهار تلك الدولة، وأمّا السنوات المتبقّية من عمر الدولة (٢٧ = ٤٢١ ـ ٤٤٨ هـ.) فهي سنوات تنحدر الأسرة البويهيّة فيها، إلى حضيض الضعف والاضمحلال. فبذلك، يصبح مسكويه وثيقة حيّة من أوثق وثائق تلك الحقبة التاريخية التي لها خصائص وميزات في تاريخ الفكر والعلم الإسلاميين، وإن كانت بالنسبة للخلافة العباسية عصر تفكّك وتعدّد في مراكز الحكم، مع العلم بأنّ هذا بالذات، أدّى إلى تعدّد مراكز العلم أيضاً، كما أدّى إلى ازدهار تلك المراكز، ونبوغ العلماء المنتمين إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي آنذاك، وذلك لتنافس الأمراء وتفاخرهم فيما بينهم باجتذاب العلماء والأدباء إلى بلاطاتهم. فنبغ في غضون ذلك رجال علم وحكمة وأدب وسياسة عاصرهم مسكويه وعاصروه، وكان مسكويه على اتّصال وثيق بكثير منهم.

مسكويه، لا ابن مسكويه

واختلفوا لاسيّما في القرون الإسلامية الأخيرة في أنّه: من هو الملقّب بمسكويه؟ هو، أي أحمد، أو أبوه محمّد، أو جدّه يعقوب؟

والواقع أنّ مسكويه لقبه هو، أي لقب أحمد، وأمّا الاختلاف الموجود بهذا الصدد، فيرجع أولاً، إلى عدم الإنتباه إلى التسمية التي سمّاه بها معاصروه من أصدقائه وزملائه، وثانياً، لأنّ بعض المتأخرين رأوا مسكويه يسمّي نفسه بشكل لايمكن معه البتّ، لو لم نستدلّ بما دعاه به معاصروه. فإنّنا نراه قد يسمّي نفسه «الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد مسكويه» (أنظر التجارب، المخطوطة المصورة 6,182; 5,480 والمطبوعة من نشرتنا، ج ٥ : ١٧٠؛ ج ٦ : ٤١٠ ؛ جاويدان خرد [الحكمة الخالدة]: ٣٧٥)، كما قد يسمّي «أحمد بن محمد بن يعقوب

مسكويه» (أيضاً جاويدان خرد ص ٥؛ ورسالته إلى أبي حيّان في ماهيّة العدل، ص ١٢).

فوقوع «مسكويه» تارة بعد اسمه أحمد، وتارة بعد اسم أبيه محمد، وتارة بعد اسم جدّه يعقوب، كان سبب الخطأ الذي شاع في ما بعد، في ضبط اسم مسكويه، فأوهم بعض الكتّاب أنّ مسكويه لقب لأبيه، أو جدّه، فكتبوه: «أحمد بن مسكويه»، أو: «أحمد بن محمد بن مسكويه» أو بشكل أغرب: «أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه»، بمعنى أنّ «مسكويه» أصبح لقباً لأبي جدّه (أنظر الخوانساري، الروضات ١ : ٢٥٤؛ والطهراني، الذريعة ٣ : ٣٧٤).

والحقيقة أنّه عندما يقال: «أحمد مسكويه» أو «أحمد بن محمد مسكويه»، أو «أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه»، فالقصد أن يجيء اللقب بعد أحمد أي بعد اسمه. فإذا ذكر الاسم وحده فاللقب يتلوه مباشرة. ولكن إذا ذكر الاسم مخصّصاً بذكر اسم الأب، فيجيء اللقب بعد ذكر الأب، وإذا كان هناك تخصيص آخر بذكر اسم الجدّ فيأتي اللقب بعد ذكر اسم الجدّ، وهكذا. لأنّ مسكويه ذاته لم يذكر اسمه متلوّاً باسم أبيه، أو جدّه دائماً، بل نراه أحياناً يذكر لقبه بعد كنيته (أبي علي) فقط، ونراه يفعل ذلك بتكرار مشهود يبدّد كلّ الشكوك بهذا الصدد. ففي شوامله على هوامل أبي حيّان التي يبلغ عددها ١٧٥ مسألة، نراه يذكر اسمه في مستهلّ كل جواب بقوله: «قال أبو علي مسكويه» اللّهم إلّا في الإجابة الأولى، حيث يذكر اسمه متلوّاً باسم أبيه فيقول: «قال أبو علي أحمد بن محمد مسكويه»، أي لمرّة واحدة فقط، وذلك لتخصيص اسمه باسم أبيه كما أشرنا إلى ذلك. فأحمد نفسه هو الملقّب بمسكويه، وهو ليس ابناً لمسكويه، أو سبطاً له.

وأمّا المعاصرون لمسكويه (٣٢٠ ـ ٤٢١ هـ.) الذين سمّوه في كتبهم «مسكويه» فهم: أبو سليمان المنطقي (٣١٠ ـ ٣٩١ هـ.) في صوان الحكمة: ص ٣٢١، وأبو حيّان التوحيدي (٣٢٠ ـ ٤١٤ هـ.) في الإمتاع: ١ : ٣٥، ١٣٦، ٣ : ٢٢٧، وفي الصداقة والصديق: ٦٧ ـ ٦٨، وفي مثالب الوزيرين: ١٨ ـ ١٩؛ وأبو منصور الثعالبي (٣٥٠ ـ ٤٢٩ هـ.) في تتمّة اليتيمة ١ : ٩٦؛ وأبو بكر الخوارزمي (... ـ ٣٨٢هـ.) في رسائله: ١٠٢. وأمّا بديع الزمان الهمذاني (... ـ ٣٨٩ هـ.) فنقل ضبطه ياقوت في معجم الأدباء حيث قال: «وللبديع الهمذاني إلى أبي علي مسكويه» على أنّ هناك طبعة غير محقّقة من رسائل البديع (ص ١٠٠، ٣٢٣) ورد فيها اسم

مسكويه بصورة خاطئة هكذا: «أبو على بن مشكويه» فلو كان ضبط البديع كمصدر لياقوت مخالفاً لضبط ياقوت، أو ضبط أبي حيّان، أو ضبط ابن مندة، من الذين ذكرهم ياقوت فى معجمه؛ لكان ياقوت ذكر هذا الاختلاف.

وأمّا القدماء من غير معاصرى مسكويه الذين سمّوه «مسكويه» فهم: الروذراورى (٤٣٧ ـ ٤٨٨ هـ.) فى مقدمته على الذيل؛ وابن أبي أصيبعة (٥٧٩ ـ ٦١٦ هـ.) فى عيون الأنباء (الطبعات الثلاث: ص ٢٤٥، ص ٢٣٦، ص ٣٣١)؛ وياقوت فى معجم الأدباء (نشرة مرجوليوث ج ٥: ص ٥، ٦، ١٠، ١١)؛ والصفدى (٦٩٦ ـ ٧٦٤ هـ) نقل كلام ياقوت بتمامه (أنظر مرجوليوث فى نشرته لياقوت ٥ : ٥ الحاشية). وقد صرّح ياقوت بأنّ مسكويه لقب لأحمد حيث ذكره فى عنوان كلامه بقوله: «أحمد بن محمد بن يعقوب الملقّب مسكويه» (برفع «الملقّب»). والحقّ مع مرجوليوث حيث ضبط «الملقّبُ» بالرفع نعتاً لأحمد لا ليعقوب، وذلك لأن مرجوليوث شاهد بوضوح أنّ ياقوت نفسه يكرّر ذكر مسكويه فى خمسة مواضع (ناقلاً عن معاصريه) بلفظ مسكويه، فلم يتردّد فى ضبط «الملقّب» بالرفع إذا كان الضبط منه وليس من مخطوطة معجم الأدباء؛ ونحن نعتبر ابن مندة أيضاً من الذين ذكروا مسكويه «مسكويه» حيث نرى ياقوت ينقل عنه بنفس الضبط. ومن هؤلاء القدماء القفطى (٥٦٤ ـ ٦٤٦ هـ) فى تاريخ الحكماء (ص ٣٣١) ونصيرالدين الطوسى (٥٩٧ ـ ٦٧٢ هـ.) فى أخلاق ناصرى (باللغة الفارسية ص ٣٥، ٣٦)؛ وحاجى خليفة (المتوفى ١٠٦٧ هـ.) فى كشف الظنون؛ والسخاوى (القرن التاسع) فى التوبيخ (ص ٣٩).

وأمّا فى الموسوعات ودوائر المعارف، فهو مسكويه أيضاً فى: دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة ١٩٧١ م.، الإنجليزية والفرنسية) انسحاباً من الموقف فى الطبعة القديمة، ففى تلك الطبعة ورد «ابن مسكويه» كما فى الطبعة العربية والطبعة الفارسية (دانشنامه ايران واسلام)؛ وهو مسكويه أيضاً عند دهخدا فى لغتنامه؛ وكذلك فى دائرة المعارف للبستانى؛ كما صرّح العاملى فى الأعيان بقوله: «مسكويه لقب أحمد نفسه كما صرّح به جماعة....»

أمّا الدراسات المستقلّة التى نشرت عن مسكويه، فهو فى كلّها مسكويه كما رأيت من عناوينها التى سبق أن ذكرناها.

ومن بين المستشرقين فإنّ مرجوليوث أيضاً صرّح بقوله: «إنّ مسكويه لقب له بالذات لا لأبيه وهذا يظهر بجلاء كثير من كلام معاصريه...» (أنظر Ecl., Preface, ii) وكذلك برجشتر أيسر الذى أورد مواضع جاء فيها «مسكويه» بدون «ابن» (أنظر: ZDMG, 65,p. 674)؛ كما أخبرنا الدكتور عزت عن مخطوطات رسائل مسكويه (مجموعة راغب باشا) جاء فيها ضبط «مسكويه» بالصورة الصحيحة.

أمّا ما ورد في مخطوطة كتاب تاريخ الحكماء للبيهقي (أنظر عزت: ١٤٦) أو في مخطوطة نزهة الأرواح للشهرزورى حيث جاء «ابن مسكويه» فهو اقتضاب محرّف خاطئ من صوان الحكمة لأبى سليمان، ونحن عرفنا ضبط أبى سليمان سواء فى ما نقله عنه ياقوت، أو في الصوان نفسه فى نشرة بدوي (ص ٣٢١، ٣٤٦). فهاتان المخطوطتان لايمكن الاعتماد عليهما، ولعلّ أخطاء المتأخرين فى ضبط اسم مسكويه إنّما نشأ عنهما.

وأمّا ما جاء فى مخطوطة ابن خلكان (٦٠٨ ـ ٦٨١ هـ) الذى كتبه بخطّ يده (المتحف البريطاني، الإضافات، رقم ٢٥٧٣٥، ورقة ١٠ ب) والذى اعتمد عليه بروكلمن (GAL، الملحق ١ : ٥٨٢ رقم ١) وقال «من المحتمل أن يكون مسكويه ـ وأصله مشكويه ـ لقب جدّه» كما فعل آمِدْ روز (Note on the Hist. P.XVI) فمردود مادام مسكويه ومعاصروه الكبار يشهدون بخلافه.

فبذلك كلّه، وفى نهاية المطاف، فهو: مسكويه، أي هو أبو علي أحمد مسكويه (ابن محمد بن يعقوب) أى اللقب له، لا لأبيه، ولا لجدّه.

مِسكويه : مُشكويه

إنّ الأصل الفارسى لمسكويه هو «مُشكويه» كما جاء فى بعض طبعات رسائل الهمذاني، وعند دولتشاه السمرقندى (القرن التاسع الهجرى) فى تذكرة الشعراء، (ص ٢٤) وعند يوستي فى الأسماء الايرانية (بالألمانيّة، ص ٢١٨)، وعند بروكلمن (الملحق ١ : ٥٨٢ الحاشية) وعند جِب (Gibb) فى دائرة المعارف الإسلامية، وكذلك عند لفيف من الكتّاب الإيرانيين منهم سعيد نفيسى فى ترجمته لابن سينا (ص ١٣١)؛ دانش پژوه على ظهر نشرته

لجاويدان خرد.

أمّا في تاريخ كمبردج فالشكل الفارسي للاسم هو بالسين: مسكويه: Muskuya (أنظر the Camb. Hist. of Iran, vol. 4, p. 429-30). وهذا غريب. لأنّ النطق الفارسي للكلمة منذ عصر مسكويه، أو أسبق من ذلك، لايعترف بوجود حرف السين فيها، مهما يكن من أمر أصلها في اللغات الهندو إيرانية القديمة. فالسين هذه علامة وجود شكلين لتعريب هذا الإسم: مِسكويه، مُسكويه. والأوّل أوفق للنطق العربي والثاني أقرب إلى الشكل الفارسي: مُشكويه.

إنّ كلمة مُشكويه تركّبت من جزأين: مُشك + أويَه (moshk+uyeh) أمّا الجزء الأوّل فهو في الفارسية بضم الميم وكسرها، وأصله في السنسكريتية muska (مصغر: mus بالفارسية موش: الفأرة)، وفي اليونانية moskos، وفي اللاتينيّة muskus، ومعنى الكلمة: المادة العطرة المعروفة المأخوذة من غزال المسك، ولا حاجة إلى القول إنّه عرّب إلى «مِسك». قال الجوهري: المسك من الطيب فارسيّ معرّب. قال: وكانت العرب تسميه «المشموم». أمّا الجزء الثاني (أويَه) فهو لاحقة تلحق بالكلمات لبيان الاتصاف، أو النسبة، أو التصغير، أو الاستعطاف، وأمّا إذا قلنا «مَشك» (mashk) بفتح الميم، فمعناه جلده الغنم مدبوغاً وغير مدبوغ، أو الوعاء الذي يصنع منه ويجعل السقّاء فيه الماء. وتعريبه «مسك» بالسين المهملة وبنفس المعنى (أنظر اللسان، نفس المادّة). وهذا الشكل بمعناه ربما يهمّ الذين ضبطوا «مسكويه» بفتح الميم، كما نجده عند مرجوليوث في نشرته لمعجم ياقوت (٥ : ٥ ـ ١٧) مع العلم بأنّه ذكره بكسر الميم في مقدّمته لترجمة تجارب الأمم.

أمّا المعاني التي أوردها أصحاب القواميس الفارسية لكلمة «مُشكويه» (= مُشكوي moshkuy = مُشكو moshku) فهي: بيت الأصنام. سرادق الملوك. القصر. الطابق الفوقاني من البيت. كما أنّ مشكويي Moshkuyi اسم لنغمة موسيقيّة. (أنظر معين: نفس الموادّ).

وهناك ملاحظة أخرى حول كلمة «مشكويه»، وهي أنّها اسم ـ كما قال المؤرّخون الجغرافيون ـ لبليدة من أعمال الري بينها وبين الريّ مرحلتان على طريق ساوه (أنظر مراصد الاطلاع: نفس المادة؛ والمقدسي: ص ٤٠٠، وأشباههما من المصادر)، ولذلك اعتقد

بعضهم بأنّ مولد مسكويه هو بليدة مُشكويه هذه. (أنظر: ري باستان [الري الأثرية]: ٦٢٥). وقال الدكتور عزّت بهذا الصدد: إنّ مسكويه لقّب بمسكويه ربما لأنّه كان يحبّ هذا العطر، ويفضّله، ويتطيّب به. وهو في بعض أشعاره (أنظر التتمة: ٩٨) يستعمل كلمة المسك للمقارنة الحسنة، فهو يشبّه خيار النّاس وفضلاءهم بالمسك في قوله:

والنـــاسُ فـي العَـينِ أشباهٌ وبـينهمُ مـــا بـــينَ عـامرِ بـيتِ اللهِ والخَـرِبِ
فِي العُود ما يُـقرنُ المسكُ الذكـيُّ بـه طيباً، وفيه لقـىً مُـلقىً مع الحَـطَبِ

وكم كان بودّنا أن نجد دليلاً نعتمد عليه على أنّ مسكويه من بليدة مشكويه من أعمال الري ـ كما قيل ـ حتى يأتي دور التأمل في كيفية استعمال النسبة بهذا الشكـل فـي اللّغة العربية، لأنّها لو كانت نسبة فارسيّة بلاحقة «أُويه»، لكان المنسوب هو «مُشك» ونحن نعلم أنّ البليدة اسمها «مشـكويه»، فيلزم أن تكون النسبة إلى «مُشكويه» بأحد الأشكال التالية: مشكويجي (من الأصل الفارسي: مشكويگي، كخانجي وميانجي) أو: مسكـويي بـحذف ما يشبه تاء التأنيث في النسبة العربية: أو: مسكويهي، على وزن سيبويهي. ثمّ يأتي دور هذا السؤال: لماذا لم يقولوا: أبو علي المسكويهي؟ أي لماذا لم يعرّفوه بأل التعريف في ضبطه العربي؟ إلّا أن يقال: إنّ النسبة في أصلها الفارسيّ كانت على شكل «مُشكويهاي» وكانت تكتب بالصورة التقليدية: «مُشكويهٔ» أي بإثبات ياء صغيرة على شكل همزة على الهاء، ثم حذفت الهمزة استخفافاً بشأنها في نهاية الكلمة. وعلى القاعدة القائلة: «تلك كلمة أعجميّة فالعبوا بها كيف شئتم» فقيل في التعريب: مسكويه علي وزن سيبويه ونسي أمر التـعريب فأصبحت النسبة لقباً له. ثم ابتليت بمصير سائر الكلمات الفارسية المختومة بـ«ويه» التي تنوس بين ضبط «ـ أوَيه» (uyah) و«ـ وَيه» (wayh). ومادمنا لم نتوصل إلى دليل مقنع يدلّ على صحّة أحد هذه الفروض، فلايمكن الإطمئنان إلى أيّ شيء يقال بهذا الصدد.

أوصافه وألقابه الأخرى

لقد وصفه المترجمون له من القدماء والمتأخّرين بقولهم: الحكيم، المتكلّم، الفيلسوف، الأخلاقي، المؤرّخ، الرياضيّ، المهندس، اللغوي، الأديب، الشاعر، الكاتب، الذكيّ، الناقد، النافذ الفهم، الكثير الاطّلاع على كتب الأقدمين ولغاتهم المتروكة. كما كان من ألقابه، علاوة على لقب مسكويه: الخازن، والنديم، كما لقّب بالمعلم الثالث، مع أنّ اللّقب كان قد ترشّح له ابن سينا أيضاً. ويقال إنّ مسكويه لقّب بالمعلم الثالث لدوره الفذّ الذي لعبه في إعادة بناء الفلسفة اليونانيّة في فرعها العملي، أي في فلسفة الأخلاق، وجمع أشتاتها وتمحيصها وترصيص أركانها، بصورة لم يزد عليها أيّ مصنّف صنّف في فلسفة الأخلاق حتى زماننا هذا. أضف إلى ذلك أنّ أبرز كتاب في الأخلاق، ظهر في اللغة الفارسيّة، هو كتاب: أخلاق ناصري، الذي ليس إلّا ترجمة لكتاب مسكويه: تهذيب الأخلاق، نقله إلى الفارسيّة نصيرالدين الطوسي وكان معجباً بمسكويه وكتابه إعجاباً كبيراً يعرب عنه بأبياته المعروفة التي نظمها في زمن سابق وقبل أن يقوم بترجمته، وأوّلها: «بنفسي كتاب حاز كلّ فضيلة...» (أنظر أخلاق ناصري: ٣٦).

إنّ هذه الألقاب والنعوت التي لقّب بها مسكويه ونعت، لهي دليل على تعدّد عناصر شخصيّته وسعة آفاقه في العلم والحكمة، تعزّزه أدلّة أخرى تتمثّل في تلك الآثار الكثيرة القيّمة التي تركها لنا، والتي نوردها هنا باختصار:

آثاره في حقول المعرفة

١. **ترتيب السعادات ومنازل العلوم** (=الترتيب، ترتيب السعادات، ترتيب السعادات ومنازل العلوم. أنظر التهذيب: زريق: ١٥، ٣٩، ٤٩، ٩١، ١٢٤؛ =السعادة. طبعة الطوبجي؛ = ترتيب العادات. أنظر العاملي: ٥ : ١٠)؛ =المسعدة. أنظر: مجلس، ف ٧٠٠١ وفي الصوان هو اسم لكتاب آخر لمسكويه. وقد حقّقنا ونشرنا هذا الكتاب الصغير الحجم تحت عنوان: ترتيب السعادات ومنازل العلوم، وذلك في «مجموعه گنجينۀ بهارستان»: خزانة بهارستان،

حكمت ١، صص ٩٧ ـ ١٢٧، التى صدرت عن مكتبة ومتحف ومركز وثائق مجلس الشورى الإسلامى (طهران ١٣٧٩ هـ. ش / ٢٠٠٠ م.) والكتاب شرح لمراتب السعادة الثلاث وتحديد دقيق لمراتب العلوم حسب مدرسة أرسطو وقيمتها فى الرقىّ بالإنسان نحو السعادة والكمال الإنسى (التهذيب: ١٥).

٢. **الفوز الأصغر** (= الفوز الصغير. أنظر الصوان، بدوى: ٣٤٧؛ والقفطى: ٣٣٢) وقد يسمّى الكتاب باسم آخر هو: كتاب الجواب عن المسائل الثلاث. اختصر إقبال اللاهورى نظام مسكويه الفلسفى من خلال الفوز الأصغر، وقال: «إنّى أطرح الفلسفة الأولى لمسكويه التى لاشك أنّها أكثر انتظاماً من فلسفة الفارابى، كما استبدل الفلسفة الأفلاطونيّة الحديثة لابن سينا، بالخدمة الأصيلة التى أدّاها مسكويه تجاه فلسفة بلاده.» (أنظر: سير فلسفه در ايران: ٣٣).

٣. **الهوامل والشوامل**. وقد استعار أبو حيّان التوحيدى كلمة الهوامل لأسئلته المبعثرة التى تنتظر الجواب (١٧٥ مسألة) واستعمل مسكويه كلمة الشوامل فى الإجابات التى أجابه بها، فضبط بها هوامل أبى حيّان التى كانت كالإبل المسيّبة، لأنّ الشوامل هى الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل فتجمعها (أنظر أمين، المقدمة ص «ج»).

٤. **تهذيب الأخلاق** (= كتاب الطهارة، كتاب طهارة النفس، طهارة الأعراق. أنظر نشرة زريق: ٩١، ١٠٤) أمّا تهذيب الأخلاق اسم أطلقه مسكويه أيضاً على هذا الكتاب فى كتابه الآخر: جاويدان خرد (أنظر نشرة دانش پژوه: ٢٤). وقد اتخذ اسم الكتاب أشكالاً مختلفة فى مخطوطات الكتاب. نقله نصيرالدين الطوسى إلى الفارسية وسمّاه: أخلاق ناصرى؛ كما قال فيه وفى مؤلّفه أبياته الأربعة المعروفة، إعجاباً بهما. ونقله أبو طالب الزنجانى أيضاً وبعده السيدة العالمة نصرت أمين إلى الفارسية، كما نقله زريق إلى الإنجليزية (بيروت ١٩٦٨ م) وأركون (M.Arkoun) إلى الفرنسية (دمشق، المعهد الفرنسى ١٩٦٩ م). والكتاب يتألّف من ستّ مقالات هى: الأولى فى مبادئ الأخلاق؛ والثانية فى الخلق وتهذيبه والكمال الإنسانى وسبيله؛ والثالثة فى الخير وأقسامه، والسعادة ومراتبها؛ والرابعة فى العدالة؛ والخامسة فى المحبّة والصداقة؛ والسادسة فى صحّة النفس وحفظها.

٥. **الفوز الأكبر** (= الكبير) ليس للكتاب أثر في فهارس الكتب المطبوعة. بيد أنّ هناك رأيًا قائلاً بكون الفوز الأكبر وتهذيب الأخلاق كتاباً واحداً. وليس كذلك، لدلائل أقمناها في بحثنا المستقلّ عن مسكويه. ونكتفي هنا بالقول: إنّ أبا سليمان أورد العنوانين لكتابين مختلفين (أنظر الصوان: ٣٤٧).

٦. **فوز السعادة** (= نور السعادة. أنظر العاملي ١٠ : ١٤٦). نرجّح أن يكون الشبه القريب بين «فوز» و «نور» قد أدّى إلى تصحيف جعل صاحب ريحانة الأدب (٨ : ٢٠٨) يعدّهما عنوانين لكتابين مختلفين وهما كتاب واحد. كما أنّ موضوع الكتاب يظهر من عنوانه بجلاء.

٧. **رسائل فلسفية**. محفوظة في مجموعة راغب باشا تحت رقم ١٤٦٣. وهذه الرسائل مختصرة تبلغ صفحاتها ٣٢ صفحة وتتراوح بين صفحة واحدة و١٦ صفحه وعناوينها هي: أ. رسالة في اللّذّات والآلام؛ ب. رسالة في الطبيعة؛ ج. رسالة في جوهر النفس والبحث عنها؛ د. رسالة في العقل والمعقول؛ هـ. رسالة في النفس والعقل؛ و. رسالة في إثبات الصور الروحانية التي لا هيولى لها؛ ز. ما الفصل بين الدهر والزمان.

٨ . **رسالة في ماهيّة العدل**. العنوان الكامل لها كما جاء في مستهلّ المخطوطة الموجودة في مشهد (١ : ٤٣، ٤٤ / ١٣٧) هو: رسالة الشيخ أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه إلى علي بن محمد أبي حيّان الصوفي، في ماهيّة العدل وبيان أقسامه.

٩. **جاويدان خرد**. قال مسكويه عنه:

«... فهذه جمل نحكمها قبل تفصيلها بالجزئيات. ولولا أنّا قد أحكمنا لك الأصول كلّها في كتابنا الموسوم بتهذيب الأخلاق، لأوجبنا لك إيرادها هاهنا. ولكن هذا كتاب غرضنا فيه إيراد جزئيات الآداب بمواعظ الحكماء من كلّ أمّة ونحلة، وتبعنا فيه صاحب كتاب جاويدان خرد [أحد ملوك الفرس الأقدمين]كما وعدنا به في أوّله. ولأنّ موضوع الكتاب الأوّل كتاب فارسيّ، وجب أن نبدأ بآداب الفرس ومواعظهم، ثمّ نتبعها بآداب الأمم الآخرين.»

فإذن، القسم الأوّل للكتاب بُنى على جاويدان خرد من تأليف قدامى الفرس، والقسم الثاني هو آداب الأمم الأخرى، بدأها بآداب الفرس المتأخرين (إلى ما قبل الإسلام). وأمّا آداب الأمم الأخرى فهى: آداب الهند، آداب العرب، آداب الروم (منها لغزقابس)، حكم الإسلاميين.

١٠. **آداب الدنيا والدين.** ذكره العاملى (١٠: ١٤٥) وصاحب الذريعة (١: ٣٨٧) بفارق أنّ الأخير ضبطه «أدب الدنيا والدين» ومصدرهما صاحب الروضات الذى نقل بدوره عن النراقى فى الخزائن. كلّ ما نقله الخوانسارى بشأن هذا الكتاب هو ما أورده فى حاشية الروضات (١: ٢٥٥) وهذا نصّه:

«وقال المحقّق النراقي فى كتابه الخزائن: قال (ابن) مسكويه فى كتاب آداب الدنيا والدين: الفرق بين السرف والتبذير، أنّ السرف هو الجهل بمقادير الحقوق، والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق. انتهى.».

ثم قال صاحب الروضات: «وظنّى أنّ الغالب على كتابه هذا الذى لم نذكره في المتن، متون اللغة، وأصول المعرفة مع شيء من مراسم الشريعة وأحاديث العلم والحكمة. فيلاحظ إن شاء الله منه ره.»

١١. **أنس الفريد.** هذا هو عنوانه عند أبى سليمان فى الصوان: (٢٤٧)، وياقوت (٥: ١٠) والقفطى (٣٣١) والشهرزورى (أنظر عزّت: ١٤٤)، وعنوانه: نديم الفريد، عند كلّ من الخوانسارى (١: ٢٥٥) والعاملى (١٠: ١٤٦).

قال ياقوت: «وله كتاب أنس الفريد وهو مجموع يتضمّن أخباراً وأشعاراً وأمثالاً غير مبوّب».

وقال القفطى: «فمن تصانيفه كتاب أنس الفريد وهو أحسن كتاب صنّف فى الحكايات القصار والفوائد اللّطاف.»

قال آدم متز (١: ٤٦٨)، وذلك بعد أن تحدّث عن تطور القصص المسلّية والأسمار الأجنبيّة الظاهرة فى فنّ القصة منذ القرن الثالث. قال: «وأخيراً جاء دور مسكويه، وكان أكبر مؤرّخي القرن الرابع، فألّف كتاب أنس الفريد وهو أحسن كتاب صنّف فى الحكايات القصار

والفوائد اللّطاف. وهذه القصص الجديدة، هي من نوع يغاير كلّ المغايرة القصص القديمة التي ألّفها ابن قتيبة وصاحب العقد، ففيها نجد ولأوّل مرّة تمام الأسلوب القصصي الإسلامي، أعني طريقة القصص التي ليست عربيّة خالصة.»

١٢. **الخواطر** (= أنس الخواطر؟). ذكره أبو سليمان في الصوان باسم الخواطر ونقل منه نصّاً تدلّ على أن الكتاب في النفس، وأنّها جوهر بجهة وعرض بجهة، وما إلى ذلك.

١٣. **حقائق النفوس**. هكذا ورد عند العاملي (١٠ : ١٤٦) وتبعاً له في ريحانة الأدب (٨ : ٢٠٨) وهو مجال آخر لدراسات مسكويه النفسيّة.

١٤. **كتاب السياسة للملك** (العاملي ١٠ : ١٤٦؛ والخوانساري ١ : ٢٥٥) ذكره مسكويه في التهذيب. ذكر السيد حسن الصدر في كتابه التأسيس (ص ٣٨٤) كتاباً لمسكويه بعنوان: كتاب السياسة السلطانيّة. ونحن نظنّ أنّه ليس غير كتاب السياسة للملك.

١٥. **المستوفى في الشعر**. ذكر هذا الكتاب بنفس العنوان عند كلّ من أبي سليمان (ص ٢٤٧) وياقوت (٥ : ١٠). وذكره الشهرزوري (ص ٧٦؛ عزّت: ١٤٤)، والعاملي (١٠ : ١٤٥). ولكنّ الخوانساري ذكره بوصفه لا بعنوانه. فقال عند إحصاء آثار مسكويه «... كتاب في مختار الأشعار» فأصبح ذلك عنواناً للكتاب عند صاحب الريحانة (٨ : ٢٠٨). ذكره أبو سليمان قائلاً: «المستوفى في الشعر المشتمل على حلّ المختار منه.»

١٦. **الرسالة المسعدة**. ذكره مسكويه في التهذيب بنفس العنوان كما ذكره أبو سليمان (ص ٢٤٧) بعنوان «رسالة المسعدة» دون أيّ شرح له ولكن عنوان الرسالة ـ لو فرضنا أنّه لكتاب غير ترتيب السعادات، (أنظر رقم ١) ـ فإنّه ينطق بكونها دراسة في مسألة السعادة، لاسيّما بالنظر إلى ما نعرفه عند مسكويه من الإهتمام بموضوع السعادة.

١٧. **فوز النجاة**. ذكر الكتاب عند بعض من درس مسكويه هامشيّاً بعنوان: فوز النجاة في الاختلاف (= الأخلاق). يمكن أن يكون عنواناً ثانياً لكتابه الآخر المسمى فوز السعادة. ولكنّنا لا نستبعد أن يكون عنواناً لكتاب على حدة، بالنظر إلى كثرة ما كتبه مسكويه خصيصاً في علم النفس والأخلاق.

١٨. **كتاب السير**. ذكره ياقوت (٥ : ١٠) كما عرّفه باختصار قائلاً: «... وكتاب السير،

أجاده. ذكر فيه ما يسيّر به الرجل نفسه من أمور دنياه. مزجه بالأثر، والآية، والحكمة، والشعر.» هذا كلّ ما أورده ياقوت ونقل عنه العاملي بتمامه (العاملي ١٠: ١٤٦).

١٩. **كتاب الجامع**. ورد بنفس العنوان عند كلّ من ياقوت (٥: ١٠) والعاملي (١٠: ١٤٦). رجّح عزّت (ص ١٤٠) أنّه في الطبّ. إن كان هذا صحيحاً يمكن القول: إنّه أجمع من كتاب الرازيّ المسمّى بالحاوي، لأنّ مسكويه درس الرازي وأكبّ على كتبه، ثم كتب هذا الكتاب في ضوء إجتهاداته بعد تلك الدراسة.

٢٠. **كتاب في تركيب الباجات من الأطعمة** (=كتاب الطبيخ. أنظر ابن أبي أصيبعة ص ٢٤٥). قال القفطي (ص ٣٣٢) وذلك عند إحصائه لكتب مسكويه الطبيّة: «.. وكتاب في تركيب الباجات من الأطعمة، أحكمه غاية الإحكام، وأتي فيه من أصول علم الطبيخ وفروعه بكلّ غريب حسن.» وقد ذكر الكتاب عند البعض بعنوان: كتاب البطيخ! وهو تصحيف لا محالة.

٢١. **كتاب الأشربة**. ذكره ابن أبي أصيبعة (ص ٢٤٥) بنفس العنوان، كما ذكره العاملي (١٠: ١٤٦) بقوله: «كتاب الأشربة وما يتعلق بها من الأحكام الطبّية.» واختصره أمين الدولة ابن التلميذ (ابن أبي أصيبعة ١/٢٧٦).

٢٢. **كتاب في الأدوية المفردة**. هذا الكتاب تفرّد بذكر اسمه القفطي (ص ٣٣٢) فلم يذكره غيره من المترجمين لمسكويه، من أمثال ابن أبي أصيبعة الذي ذكر بعض آثاره في الطبّ والعلاج.

٢٣. **مختصر النبض**. كتاب في الطب، كتب لعضد الدولة البويهي، وهو متنازع فيه بين ابن سينا وبين أبي علي مسكويه، أو أبي علي مندويه. أمّا انتساب الكتاب إلى ابن سينا فمردود، لأنّه كان طفلاً عمره سنتان عندما مات عضد الدولة، ولذلك ذهب فيلسوف الدولة صاحب كتاب مطرح الأنظار إلى أنّ الكتاب لأبي علي مسكويه أو لأبي علي مندويه (أنظر الگود، تاريخ پزشكى ايران ص ٢٨٠).

٢٤. **رسالة في المحرّك والمتحرّك**. ذكرها مسكويه في كتاب العقل والمعقول.

٢٥. **رسالة في الحكمة النادرة**. ذكرها دفّاع في كتاب اسهام العرب (ص ١٤٨).

٢٦. رسالة في ذكر الحجر الأعظم. في الكيمياء، ٤٧ آ ـ ٤٩ آ، دانشگاه طهران ٩٤١ (GAS, 4, 291).

٢٧. رسالة في الكيمياء. اصغر مهدوى ٢٨٠ نشرية ٢ (GAS, 4, 291). ويتحدّث سزگين عن مقارنة تمّت بين هذه الرسالة ورسالة في ذكر الحجر الأعظم، وأنتجت أنّ العنوانين لرسالة واحدة.

٢٨. الكنز الكبير. بشيرآقا ٥٠٥، ١٢٦ آ ـ ١٥٨ آ (GAS, 4, 291).

٢٩. تتمّة كتاب كنز الحكمة. (= الكنز الكبير؟) آستان قدس ١٤١٤٨، مجموعة (١) صص ٢٣١ ـ ٢٧٥. هذه التتمّة قدّمناها. في المؤتمر السنوى العشرين لتاريخ العلوم عند العرب (حلب، ٢٥ ـ ٢٧ سبتمبر ١٩٩٩).

٣٠. تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين. قال في الذريعة : «ذكر هذا العنوان صاحب الريحانة ولم نجد عند غيره. قال صاحب الريحانة [عند ذكره لآثار مسكويه]: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين في الأخلاق، وللراغب الاصفهاني أيضاً كتاب في معرفة النفس بهذا العنوان.»

٣١. أحوال الحكماء وصفات الأنبياء السلف. هكذا ورد العنوان عند الخوانساري (١: ٢٥٦)، وهو عند العاملي: «أحوال الحكماء السلف وصفات بعض الأنبياء السالفين».

٣٢. المختصر في صناعة العدد. إنّ أبا سليمان المنطقي (ص ٢٤٧) وبعده الشهرزوري (عزّت: ١٤١) يشيران إلى أنّ له مصنفات «في جميع الرياضيّات و... والحساب و... ممّا هو متداول في الأيدي يقرأ عليه في أيام مجالسه.» دون ذكر لعنوان واحد من عناوين آثاره الرياضيّة. بيد أنّ مسكويه نفسه ذكر في التهذيب اسم أحدها وهو: المختصر في صناعة العدد.

٣٣. فقر أهل الكتب. ذكره الشهرزوري (ص ٧٦، أنظر عزّت: ١٤١)، وهو كتاب قد يكون طريفاً كما نبّه عليه عزّت. لأنّ مسكويه ربما يعرض فيه نتائج تجربته الخاصّة مع هذه الفئة التي احتكّ بها، والتي ينتمي إليها بحكم كونه خازناً لمكتبات الأمراء والوزراء البويهيين.

٣٤. رسالة فى دفع الغمّ من الموت. هكذا ورد عند سزكين (3,336) حققها لويس شيخو ونشرها تحت عنوان رسالة فى الخوف من الموت (عام ١٩١١ م.). ونسبها خطأً إلى ابن سينا وهى من مسكويه (أنظر أخلاق ناصرى، نشرة مينوى ص ٦٠٦) ونسبت مرّة أخرى إلى ابن سينا عندما نشرت ضمن رسائل ابن سينا فى الحكمة المشرقية (ليدن ١٨٩٤ أنظر محقق ص ٢٠٩، ٤٣٠). كما نقلها إلى الفارسية البرقعي القمى فى ٧٣ صفحة تحت عنوان: چرا از مرگ بترسم: لماذا أخاف من الموت؟ (قم، ط ٢، ١٣٢٧ ش ـ أنظر مشار).

٣٥. تعاليق على الكتب المنطقية. ذكرها أبو سليمان المنطقي (ص ٢٤٧) بقوله: تعاليق حواشى الكتب المنطقية. كما ذكرها الشهرزورى والخوانسارى والعاملى بتغيير طفيف فى الاسم.

٣٦. وصيّة له. أوردها أبو سليمان فى الصوان (ص ٣٤٧ ـ ٣٥٢) ومسكويه نفسه فى جاويدان خرد (نشرة بدوى ص ٢٨٥ ـ ٢٩٢) أولها: «يا طالب الحكمة طهّر لها قلبك...» وختامها: «بلا حاجة إلى تفكير وتمييز وتطلّب.» كما أورد أبو سليمان فصلاً آخر من كلام مسكويه بعد إيراده الوصيّة.

٣٧. وصيّة أبى على مسكويه (عهده مع نفسه). أوردها ياقوت (٥ : ١٧ ـ ١٩) ونقل عنه العاملى (١٠ : ١٩٨ ـ ١٩٩). أولها: «هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد وهو يومئذ آمن فى سربه....» وختامها: «وصرف جميع البال إليه.» أعجب بها التوحيدى ونقلها فى المقابسة ٩٤ (ص ٣٨٣) دون تصريح باسم صاحبها، مع الثناء الجميل الكثير عليه.

٣٨. مراسلة بينه وبين بديع الزمان الهمذانى. للبديع رسالة اعتذار إلى مسكويه، أجاب عليها مسكويه. تجد الرسالة والجواب عند ياقوت (٥ : ١١ ـ ١٧).

٣٩. شعر مسكويه. نقل الثعالبى (التتمة: ٩٦ ـ ١٠٠) ونقل عنه ياقوت (٥ : ٧ ـ ١٧) نماذج من شعره. وأثنى عليه الثعالبى بقوله: «وكان فى الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر.»

٤٠. نزهت‌نامه علائى. ذكره العاملى (١٠ : ١٤٥) وصاحب الريحانة (٨ : ٢٠٨) ونسباه إلى مسكويه. كما ذكره صاحب الذريعة (٢٤ : ١٣٠) ونسبه إلى شهمردان بن أبى الخير

الرازي قائلاً: «وقد نسبه إسماعيل پاشا (هدية ١ : ٧٣) خطأ إلى «ابن» مسكويه وعنه أخذ في أعيان الشيعة وكذلك أخطأنا نحن في النابس ـ ص ٢٨ فإذن الكتاب ليس لمسكويه.

٤١. **تجارب الأمم**. وهو الكتاب الذي بين يدي القارئ. كتاب جليل في التاريخ، ومصدر لا يُستغنى عنه في الدراسات التاريخيّة، لم ينشر حتى الآن ـ مع الأسف ـ لا عندنا في ايران، ولا في غيرها من البلدان الإسلامية وغير الإسلامية، إلّا بعض أجزائه. فأخذنا على عاتقنا تحقيق نصّه ونشره بكامل أجزائه، مشفوعاً بجزئي الذيل والفهارس، كما عزمنا على ترجمته إلى اللغة الفارسيّة، حتي لا يبقى مواطنونا الذين هم مواطنو مسكويه أيضاً، محرومين من قراءته، والتمتع بما يتضمّنه هذا الأثر العظيم، من الفوائد في دراسة الماضي، والاعتبار به.

ولتجارب الأمم من حيث نظرة مسكويه التاريخية، أهميّة بالغة، كما له من حيث عرضه ونشره والاهتمام به، مصير ملتوٍ غريب، نحاول أن نتناوله هنا بقدر ما يتيح لنا المجال في هذا التصدير، فنقول:

التاريخ كما يراه مسكويه

بنظرة إلى مقدمة تجارب الأمم، يتضح أنّ التاريخ في رأي مسكويه، يشتمل على أحداث يمكن للانسان أن يستفيد منها تجربة في حياته الفردية والاجتماعية، في أمور لاتزال يتكرّر مثلها، وينتظر حدوث أشباهها. وإذا عرف الانسان تلك الأحداث وقيمتها التجريبيّة ثم اتّخذها إماماً لنفسه، يقتدي به، فهذا يجعله يحذر ممّا ابتلى به قوم، ويتمسّك بما سعدوا به. والنظرة هذه تبتني على رأيه القائل: إنّ أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة. فباستطاعة الانسان أن يقارن الحاضر بالماضي، ويهتدى بهدى التجارب التي حصلت فيه للأسلاف. ثم إنّ ما يحفظه الانسان من التاريخ، كأنه تجارب له، باشرها بنفسه، فأصبح خبيراً بالأمور التي لم يجرّبها فعلاً في حياته، حتى إنّه يعرفها بعد ذلك قبل وقوعها، فيستقبلها استقبال الخَبِر، فيفعل في علاجها الأنسب والأجدى، فيحلّ مشاكله، وينجح في مشاريعه نجاح الخبير الواعي.

بيد أنّ مسكويه لاحظ أنّ تلك الأخبار التاريخيّة الحقّة مغمورة بالأسمار، متبدّدة في الخرافات والأساطير التي ليست لها فائدة إلّا استجلاب النوم بها، والتأنّس بالمستطرف منها. فأخذها بالنقد واستخراج ذات القيمة منها، وضرب صفحاً عمّا لم يجد فيها قيمة تاريخيّة تجريبيّة وتركها وهو يرى أنّ للأحداث التاريخيّة الحقّة أيضاً أنس السمر الذي يوجد في الخرافات والأساطير. إنّ مسكويه لم يثق بروايات ما قبل الطوفان، لفقدانها القيمة التاريخيّة التي ينشدها هو. كما لم يجد في المعجزات تجربة إنسيّة يستطيع الجميع أن يمارسوا مثلها، أو يعتبروا بها، وهذا لا يعني أنّه ترك ما كان للأنبياء من تدابيرهم البشريّة التي ليست مقرونة بالإعجاز، لأنّ هذا النمط من أخبارهم وارد في صميم ما اهتمّ به مسكويه في كتابة التاريخ. مع العلم بأنّ لمسكويه كتاباً في صفات الأنبياء السالفين تحت عنوان: أحوال الحكماء وصفات الأنبياء السالفين (أنظر التصدير: الآثار). وهذا ردّ على المستشرق كرادي فو (I;106) في ما اتّهمه به من أنّه لم يحترم السنّة. وأخيراً، عمد مسكويه إلى أحداث تجري على البخت والاتّفاق، ممّا هو خارج عن نطاق تدبير الانسان وقدرته، حتي تكون في حسبانه، ولا تسقط من ديوان الحوادث عنده، وما ينتظر وقوع مثله، وإن لم يستطع تحرّزاً من مكروهه.

إنّه لن ينسى ما ضمنه في مقدّمة الكتاب، بل نراه يؤكد هنا وهناك وبمناسبات شتّى، على أغراضه ويصرّ على المضيّ في النهج الذي نهجه لنفسه في عمله. فحيناً نراه يبرّر تركه ذكر بعض الأشياء بقوله: «لخروجها عمّا بنينا عليه غرض هذا الكتاب (1,264)، وحيناً يؤكّد على هذا الغرض حتي في عنوان حدث أراد ذكره. ففي عنوان الحديث عن الشورى يقول: «ذكر ما يجب ذكره من حديث الشورى وما يليق منه بهذا الكتاب.» وكذلك، وبعد أن ينقل الحوار الذي جرى بين الإمام علي بن أبي طالب والزبير: الحوار الذي أثّر في الزبير حتى أقسم لا يحارب عليّاً ـ لولا وسوسة ابنه له واقتراحه التكفير عن اليمين بعتق غلام له يقال له: مكحول ـ وبعد إيراده هذا الحدث نراه يقول: «وإنّما حكينا هذه الحكاية لأنّ فيها تجربة تستفاد. وإن ذهب على قوم فإنّا ننبّه عليه، وذلك أنّ المحنق ربما سكن بالكلام الصحيح، والساكن ربما أحنق بالزور من الكلام، وذلك بحسب تأتّي من يريد ذلك، وإتيانه من وجهه.»

(1,550). ولا يهمّه في ذلك شخصيّة القائل أو الفاعل، ولا ينظر إلى من قال أو فعل، بل يهمّه مغزى ما قال أو فعل، من حيث تلاؤمه وأغراضه في كتابه تجارب الأمم. فنراه يستحسن موقفاً من مواقف الضحّاك الشهير بالسفك والقتل والظلم، وينقل كلاماً منه حيث قال في الإجابة على أمّه البذيئة: «فلمّا هممت بالسطوة بهم (أي: بكابي الاصبهاني وأصحابه عندما زاروه للتأتّي له واستعطافه ـ 1,14-15) وقف الحقّ بيني وبينهم كالجبل، فحال بيني وبين ما أردت.» ثم يعلّق مسكويه على هذا الكلام بقوله: «فهذا ما استحسن من فعل الضحّاك وقوله ولا يعرف له شيء مستحسن غيره.» إنّ هذا الالتزام الواعي الذي يبديه مسكويه تجاه منهجه، هو ما لا نراه عند كثير من المصنّفين. فمسكويه، كما قال روزنتال (١٩٦، ١٩٧) يمثّل مستوىً عالياً في الكتابة التاريخيّة، فهو قلّما يهتمّ بالأمور التافهة، بل يدرك كلّ ما له قيمة تاريخيّة جوهريّة، ويعرض الأحداث الهامّة بشكل معقول متماسك.

إنّ المؤرخين المسلمين ـ ومعظمهم ممّن تأخّر عن مسكويه وتأثّر به بالذات ـ نظروا إلى التاريخ من حيث هو درس وعظة وعبرة، ولكنّ مسكويه، السابق في هذا المضمار، هو المؤرّخ الوحيد الذي نهج منهج الاستدلال الفلسفي مع ما كان له من نظرة أخلاقية عمليّة برغماتية (Pragmatic) إلى حوادث التاريخ (زرياب: ١٨٠ ـ بتصرّف). إنّك لا تجد بين المؤرّخين المسلمين مؤرّخاً عمد إلى التاريخ عن وعي وجدّ، نشداناً للفوائد التي تنطوي عليها أحداثه، بالمستوى الذي عمد إليه مسكويه. إنّه حكيم أخلاقيّ، ومصنّف كتاب حكيم باسم تجارب الأمم، كما هو رائد في الكتابة العلميّة للتاريخ، وأوّل من شقّ الطريق إلى فلسفة التاريخ، ليكون أسوة حسنة فيما بعد، لأمثال رشيدالدين فضل الله (٦٤٥ ـ ٧١٨ هـ) في جامع التواريخ، وابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٦ هـ) في مقدمته، ثم الكافيجي (القرن التاسع) في كتابه: المختصر في علم التاريخ، والسخاوي (٨٣٠ ـ ٩٢٠ هـ) في كتابه: الاعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التاريخ (زرين كوب: ٧١، ٧٤ ـ بتصرف). وهناك ميزة أخرى أشار إليها كيتاني في مقدمته حيث قال: إنّ الأثر الذي بقي لنا من مسكويه، بني على أساس منهج قريب جداً من المبادئ المتّبعة عند مؤرّخي العالم الغربي والمؤرّخين المتأخّرين، ومسكويه خلافاً لسلفه الشهير الطبري الذي استهدف ـ أساساً ـ جمع المواد التاريخيّة،

وعرضها على ترتيب تاريخيّ لائق، عزم على أن يصنّف تاريخه كبناء عضوي يكون الفكر الأساسي المحدّد عنصراً بنّاءًا في الكتاب بأسره، رابطاً كلّ أجزاء التصنيف بعضها ببعض. يرى القارئ على صفحات هذا الكتاب عنصراً شخصياً لا يجده في المصنّفات التاريخيّة الأخرى المؤلّفة في تلك الحقبة.

إنّ تجارب الأمم ـ وبصورة جليّة ـ عمل فكري نتج عن ذهن استدلالي بنّاء، يسوده انطباع سام من غرض المؤرّخ وواجبه، وبهذا، يبدي مسكويه فضلاً كبيراً على من سبقه أو عاصره من المؤرّخين الذين كتبوا آثارهم باللغة العربية. إنّه لا يرضيه مجرّد جمع المادة التاريخيّة وعرضها في ترتيب تاريخيّ، لأنّه يعتقد أنّ أحداث الماضي تترابط في ما بينها بشبكة من المصالح الإنسيّة. وفي الحقيقة، فإنّ التاريخ ـ كما يراه مسكويه ـ ليس غير هذا، كما يرى العاقل في رواية التاريخ الحقّة ينبوعاً من العلم الثمين (كيتاني، المقدمة: XI-XII).

إنّ مسكويه لا يميل إلى أحد في كتابة التاريخ، ولا يحيد به عن المنهج القويم أيّ انتماء. «لقد كتب تاريخه ـ كما نبّه عليه مرجوليوث أيضاً ـ في حياد تامّ، مع أنّه عاش في خدمة الأمراء والوزراء البويهيّين، وكان من المتوقع أن يشيد بهم ويمدحهم، ولا يتعرّض لنقدهم أبداً، في حين نراه لم يمل إليهم في كتابة التاريخ.» ولم يراع جانبهم في ما كتبه عنهم، بل نراه يؤاخذهم على أشياء في سلوكهم وتدابيرهم.

مصادر مسكويه في كتابة التاريخ

صرّح مسكويه بأنّه لمّا قرأ أخبار الأمم، وسير الملوك، وأخبار البلدان، وكتب التواريخ (أنظر مقدّمة المصنّف) وجد فيها ما تستفاد منه تجربة. وهذا دليل واضح على تعدّد مصادره في كتابة التاريخ. بيد أنّه اعتمد اعتماداً كلّياً على الطبري (۲۲٤ ـ ۳۱۰ هـ)، كما اعتمد على المصادر الأخرى التي تتنوّع وتختلف، حسب الفترات التاريخيّة التي أرّخها في تصنيفه، وحسب مصادر كانت في متناوله، بحيث لايمكن عدّها وحصرها إلّا بعدّ المصرّح منها في الكتاب، وحصر غير المصرّح منها بإرجاع نقول مسكويه المختلفة إلى أصولها وأصحابها، وهذا يتطلّب دراسة مستقلة قد تأخذ وقتاً طويلاً. فمصادر مسكويه حسب هذه العجالة هي:

١. **تاريخ الطبري:** عوّل مسكويه، أوّلاً وقبل كلّ شيء، على الطبري. وذلك بحذف كثير من موادّ الطبري، من مكرّره وما لم يدخل في إطار منهج مسكويه في كتابة تاريخه. فمسكويه يوازي الطبري ابتداء من العصر الفيشداذي وذكر أوشهنج بالذات، أو ممّا بعد الطوفان حسب تصريحه؛ إلى سنة ٢٩٥ هـ، مع العلم بأنّ الطبري استمرّ في تاريخه حتى سنة ٣٠٢ هـ. ومسكويه ليس المؤرّخ الوحيد الذي ينهل من مناهل الطبري ويعوّل عليه في تصنيفه. فمن هو الذي لم يعوّل على الطبري؟ فها هو ابن الأثير يصرّح في مقدمته (ص ٣) قائلاً: «فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبري، إذ هو المعوّل عند العامّة عليه، والمرجوع عند الإختلاف إليه. فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، لم أخلّ بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذات عدد، فقصدت أتمّ الروايات، وأضفت إليها من غيرها ما ليس منها... فلمّا فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة [منها تجارب الأمم] فطالعتها، وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه....»

هذه هي الحالة عند جلّ المؤرخين منهم ابن خلدون أيضاً (العبر ٤ : ١١٤٠). إنّهم وجدوا تاريخ الطبري ينبوعاً ثرّاً يتدفّق منه ذلك الحجم الهائل من المواد التاريخيّة، والروايات المختلفة الكثيرة التي أوردها فيه، دون نقد، أو تعليق، واعياً عامداً ما يفعله، كما صرّح به في مقدمته. ولكن المؤرّخين صاغوا ما أخذوه عن الطبري في قوالب ارتضوها لتصانيفهم، كلّ على شاكلته. ومن هؤلاء مسكويه، الذي أخذ بدوره عن الطبري أخذ نقد واختيار وتمحيص وحذف وإضافة من مصادر أخرى، وفقاً لأغراضه التي تحدّث عنها في مقدمة تجارب الأمم.

والجدير بالذكر أنّ هناك مناسبة خاصّة بين مسكويه والطبري يمتاز بها مسكويه من بين سائر المؤرّخين، حيث يعتبر مسكويه تلميذاً غير مباشر للطبري في استماع تاريخه عن صاحبه، وقراءة كتابه عليه، والحصول على الإجازة منه. قال مسكويه بهذا الصدد (تجارب الأمم ٦ : ٢٢٤): «وفيها [أي في سنة ٣٥٠ هـ.] مات أبو بكر أحمد بن كامل القاضي، رحمه الله، ومنه سمعت كتاب التاريخ لأبي جعفر الطبري، وكان صاحب أبي جعفر، قد سمع منه

شيئاً كثيراً، ولكنّى ما سمعت منه عن أبى جعفر غير هذا الكتاب، بعضه قراءة عليه، وبعضه إجازة لى، وكان ينزل فى شارع عبدالصمد، ولى معه اجتماع كثير.»

٢. **نفائس المكتبات:** لم يكتف مسكويه بالطبرى، حتى بالنسبة إلى القسم الذى قلنا إنّه عوّل فيه عليه تعويلاً كليّاً (العصر الفيشداذى إلى سنة ٢٩٥)، بل أورد فى تاريخه نصوصاً إيرانيّة عديمة النظير لا نجدها لا عند الطبرى ولا عند غيره من كبار المؤرخين من أمثال المسعودى وابن الأثير ومن إليهما، ونخصّ بالذكر عهد أردشير الذى يعتبر من أقدم النصوص الإيرانية المدوّنة التى وصلت إلينا، وكذلك السيرة الذاتيّة لأنوشروان، وخطبته المشحونة، اللتين نقلهما مسكويه عن كتاب كتبه أنوشروان نفسه فى سيرته.

من أين أتى مسكويه بهذه النصوص وغيرها ممّا تفرّد بنقلها بين المؤرّخين؟ إنّه كان خازناً لمكتبات البويهيين من أمثال ابن العميد، وابنه أبى الفتح، وعضدالدولة. لقد دامت صحبته أو خزانته سبع سنين لابن العميد فقط (تجارب الأمم ٦ : ٣١٥)، وكان لفهرس مكتبة ابن العميد ١٠٥٦ ورقة (= ٤٤ كراسة لكلّ منها ٢٤ ورقة ـ متز ١ : ٢٩٧) ولم يثبت فى هذا الفهرس إلّا أسماء الكتب، وقد اجتمعت فى تلك المكتبة كلّ أنواع العلوم والحكم والآداب، تحمل على مائة وقر وزيادة (تجارب الأمم ٦ : ٢٦٢). وعن مكتبة عضدالدولة حكى لنا المقدسى (الذى كان يختلف إليها، فلاجرم أنّه زار مسكويه أيضاً) حيث قال عند وصفه لدار عضدالدولة بشيراز وغرفها وعجائبها:

«... وخزانة الكتب، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنّف إلى وقته من أنواع العلوم كلّها إلّا وحصّله فيها. وهى أزج طويل، فى صفّة كبيرة، فيه خزائن من كلّ وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق، عليها أبواب تنحدر من فوق، والدفاتر منضّدة على الرفوف، لكلّ نوع بيوت وفهرستات، فيها أسامى الكتب لا يدخلها إلّا وجيه...» (المقدسى: ٤٤٩).

فلاشكّ أنّ مسكويه استفاد من هذه المكتبات كثيراً من علمه والمواد التاريخيّة التى أوردها فى كتابه ممّا لايوجد عند سائر المؤرّخين سواء ما أضافه فى تاريخ ما قبل الإسلام

مستمداً من مصادر إيرانية قديمة موجودة في تلك الخزانات، أو ما أضافه إلى تاريخ ما بعد الإسلام آخذاً عن مصادر إسلامية كانت فيها.

٣. ثابت بن سنان: هناك فترة تاريخيّة تبدأ من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٤٠ هـ يعتمد مسكويه فيها على مصادر مستقلّة عن الطبري، منها: تاريخ ثابت بن سنان (المتوفى سنة ٣٦٣ هـ) ابن ثابت بن قرّة الصابي الحرّاني (٢٢١ ـ ٢٢٨ هـ) خال أبي إسحق هلال بن محسن الصابي. كتب ثابت بن سنان تاريخه ابتداءً من خلافة المقتدر (من سنة مائتين ونيّف ـ القفطي) إلى سنة ٣٦٠ هـ. فكتب أبو إسحق هلال بن محسّن تتمة لتاريخ ثابت بن سنان وصلت إلى سنة ٤٤٧ (كلود كاهن، دانشنامه ايران واسلام). ومن دلائل كونه مصدراً لمسكويه ما جاء في التجارب ٥ : ٣١٣ حيث قال: «.. وحكي ثابت بن سنان في كتابه أنّ...» فهذا تصريح من مسكويه أنّه أخذ في تاريخ هذه الفترة عن ثابت بن سنان أيضاً.

٤. أبو إسحاق الصابي، إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون (هارون): .... قال الروذراوري في ذيل تجارب الأمم (ص ٣٢):

«وعمل أبو إسحق الكتاب الذي سمّاه: التاجي في الدولة الديلميّة وهو كتاب إذا عمل منه جزءًا حمله إلى عضد الدّولة حتى يقرأه ويصلحه، ويزيد فيه وينقص منه. فلمّا كان تكامل ما أراده حرّر وحمل إلى خزانته. وهو كتاب بديع الترصيف حسن التصنيف، فإنّ أبا إسحاق كان من فرسان البلاغة، الذين لا تكبو مراكبهم ولا تنبو مضاربهم، ووجدنا آخره موافقاً لآخر كتاب تجارب الأمم، حتى إنّ بعض الألفاظ تتشابه في خاتمتهما، وانتهى القولان في التاريخ بهما إلى أمد واحد، والكتاب موجود يغني تأمّله عن الإخبار عنه.»

وللكتاب وصاحبه أبي إسحاق الصابي، وسبب تأليفه إيّاه بأمر من عضدالدولة البويهي حكاية طريفة تجدها عند الروذراوري في ذيل تجارب الأمم (ص ٣٠ ـ ٣٢).

هذا، وقد التبس الأمر علينا في الطبعة الأولى بين إبراهيم الصابي كاتب التاجي وبين حفيده هلال الصابي (٣٨٤ ـ ٣٥٩) الذي ذيّل على تاريخ ثابت بن سنان (٢٨٨ ـ ٢٢١)

حيث أوردنا (ص 34) على الروذراورى صاحب الذيل فيما قاله بشأن الشبه بين آخر كتاب التاجى وبين آخر تجارب الأمم، الأمر الذى كان فى نيّتنا. وذلك بعد صدور الطبعة الأولى ووقوفنا على هذا الإلتباس، أن نشير إليه فى استدراكاتنا التى رجّحنا أن نثبتها فى مجلد الفهارس، أى المجلد الثامن لتجارب الأمم من طبعتنا، غير متوقّعين أنّه سيعاد طبع هذا التصدير قبل أن يطبع مجلد الفهارس. وهنا نشكر زميلنا الدكتور ع. منزوى الذى نبّه بدوره على ذلك في مقدمته الممتعة (ص ٢١) التى وضعها لترجمته للجزئين الأخيرين من الكتاب اللذين نشرهما مع الذيل آمِدْ روز (القاهرة ١٦ ـ ١٩١٤).

٥. مسكويه مصدراً: مهما يكن من أمر الفترة السابقة، أى التى تنتهى إلى سنة ٣٤٠ هـ، فإنّ مسكويه بشهوده وعيانه تارة، وبسماعه من الأصدقاء والزملاء الساسة المشايخ تارة أخرى، يعتبر مصدراً حيّاً لكتابة تاريخه. لقد صرّح مسكويه بذلك فى بداية ذكر الحوادث لتلك السنة حيث قال:

«أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة (٣٤٠ هـ) فهو مشاهدة وعيان، أو خبر محصّل، يجرى عندى خبره مجرى ما عاينته، وذلك أنّ مثل الأستاذ الرئيس أبى الفضل محمد بن الحسين بن العميد ـ رضى الله عنه ـ خبرنى عن هذه الواقعة وغيرها بما دبّره، وما اتفق له فيها، فلم يكن إخباره لى دون مشاهدتى فى الثقة به، والسكون إلى صدقه، ومثل أبى محمد المهلّبى ـ رحمه الله ـ خبّرنى بأكثر ما جرى فى أيّامه، وذلك بطول الصحبة وكثرة المجالسة، وحدّثنى كثير من المشايخ فى عصرهما بما يستفاد منه تجربة، وأنا أذكر جميع ما يحضرنى ذكره منه وما شاهدته وجرّبته بنفسى، فسأحكيه أيضاً بمشيئة الله.»

وهكذا يصل تاريخه إلى سنة ٣٦٩ هـ. مع أنّه عاش حتى سنة ٤٢١ هـ. أى لمدة نصف قرن، تاركاً كتابة تاريخ تلك المدّة. وبالرغم من ذلك، فإنّ تجارب الأمم عرف كمصدر أساس لا يستغنى عنه لدراسة القرن الرابع الهجرى والعصر البويهى الذى يعتبر ألمع العصور الإسلامية علماً وحضارة.

تجارب الأمم : اسمه

اسم الكتاب هو: تجارب الأمم، كما سمّاه مسكويه نفسه في مقدمته حيث قال: «.. فجمعت هذا الكتاب وسمّيته: تجارب الأمم.» وقد ذكره بضبط أمين كلّ من ياقوت ٥ : ١٠؛ وابن الأثير ٧ : ١١٨؛ ٨ : ٨٦؛ وكذلك القفطي: ٣٣١؛ والبيهقي: ١٨ ـ ١٩؛ وابن خلكان ٢ : ١٩؛ وابن خلدون ٣ : ٧٧٢؛ والخوانساري ١ : ٢٥٥؛ وغيرهم. ولكنه ورد بزيادة «عواقب الهمم» عند كلّ من أبي سليمان في الصوان: ٣٤٧؛ والروذراوري في الذيل: ٥؛ والسخاوي نقلاً عن عمر بن الفهد الهاشمي المكي في إتحاف الورى (روزنتال: ٤٤١). والزيادة عند العاملي ١٠ : ١٤٦ هي «تعاقب الهمم» وهي ضبطت عند كيتاني (Caetani) في مقدمته Taáqib بكسر القاف وهو خطأ. والزيادة هذه إنما نشأت عن أسلوب السجع في عنونة المصنفات، الاسلوب الذي طالما ساد أوساط الكتّاب والنسّاخ طيلة القرون ممّن لم يرضوا بما سمّاه المصنفون تصانيفهم، فشفعوا أسماءها بما شاء لهم السجع والصنعة المتكلّفة، بالرغم من تصريح المؤلّفين في ضبط أسماء آثارهم. ولذلك نري الشطر الثاني: «عواقب الهمم أو: تعاقب الهمم» موضوعاً مختلقاً، لأنّ مسكويه وهو صاحب الكتاب، أثبت اسم كتابه في مقدمته بقوله: «تجارب الأمم» لا أكثر ولا أقلّ، حيث قال: «فجمعت هذا الكتاب وسمّيته تجارب الأمم». والغريب في الأمر أنّ الناسخ الذي انتسخ هذه المقدّمة وتصريح المصنّف باسم كتابه، تراه في عبارات الختام والفراغ، وقد أضاف على الاسم شطراً ثانياً تارة، وقدّم الشطر الثاني على الشطر الأوّل تارة أخرى. أي كتب مرّة: «تجارب الأمم وعواقب الهمم»، ومرّة: «عواقب الهمم وتجارب الأمم»!

تجزئة تجارب الأمم

إنّ التجزئة الكاملة الوحيدة التي وصلت إلينا من تجارب الأمم هي تجزئة مخطوطة أياصوفيا وهي ستّة أجزاء. أمّا مخطوطة ملك (مط) فهي في مجلّد واحد كبير، وليس فيه تجزئة، اللّهم إلّا إشارة بسيطة في الهامش تدل على أنّ المخطوطة انتسخت عن نسخة كانت

على ثلاثة أجزاء، دون أيّ إشارة إلى عبارات الإفتتاح من البسملة والتحميد وغير ذلك. وهذا التثليث يبدو أيضاً ممّا بقي من مخطوطة ملك الثانية (مح)، أو مخطوطة آستانقدس (آ)، فهما أيضاً كانتا في الأصل ثلاثة أجزاء.

أمّا تجزئة أياصوفيا فهي تجزئة كمّية، أي لم يعتبر فيها التقسيم التأليفي الذي يبتني عادة على المواضيع الرئيسة، أو الفترات التاريخيّة المحدّدة خاصّة في أثر تاريخيّ مثل تجارب الأمم. لذلك يرى القارئ أنّنا نقلنا ٤٣ صفحة من بداية الجزء الثاني وأضفناها إلى نهاية الجزء الأوّل، أوّلاً لإكمال الفصل الأخير من الجزء الأوّل، ثانياً من أجل إكمال عصر ما قبل الأموي، وسنراعي هذا المبدأ في الأجزاء الباقية أيضاً إذا اقتضى الحال.

ومن ناحية أخرى، قسمنا الجزء الأوّل إلى قسمين: قسم خاصّ بما قبل الإسلام وهو مفصّل بدوره إلى فصول حسب عصور الأسر الحاكمة الإيرانية مثل: الفيشداذية، والكيانيّة، والأشغانيّة، والساسانيّة؛ وقسم آخر خاص بالعصر الراشدي، وفيه فصول حسب أيّام الخلفاء. أمّا بالنسبة للعصر الأموي والعصر العباسي أيضاً سنراعي مبدأ التقسيم والتفصيل مهما أمكن.

أمّا العناوين الفرعيّة التي كانت في أصل المخطوطة لم نجدها كافية لإرشاد القارئ إلى موادّ الكتاب ومواضيعه، ولذلك اخترنا لها عناوين جديدة مناسبة وضعناها في أماكنها. ومما دفعنا إلى ذلك، أنّنا وجدنا بين مخطوطات الكتاب، ومن حيث العناوين الفرعيّة اختلافاً، سواء في وجود عنوانٍ ما، أم في عدمه، أو في صياغة عبارته، ممّا يرهن على أنّ غير المصنف من النسّاخ وغيرهم، هم الذين وضعوا قسماً من هذه العناوين الفرعيّة الّتي لا تؤثّر دون شكّ على نظرة الباحث المدقق الذي ينظر في نصّ الكتاب.

مخطوطات تجارب الأمم

لم يصل إلينا من مخطوطات هذا الكتاب إلّا القليل، لاسيّما إذا كان المراد المخطوط الكامل المشتمل على كل أجزائه. وهذه المخطوطات بغضّ النظر عن كمالها ونقصها هي:

١. **أياصوفيا (الأصل)**: مخطوط كامل في ستة أجزاء محفوظ في أياصوفيا بأسطنبول

برقم ٣١١٦ إلى رقم ٣١٢١. انتسخه محمد بن على بن محمد أبو طاهر البلخى بكامل أجزائه، بحيث فرغ من انتساخ الجزء الأوّل فى شهر ربيع الأوّل سنة خمس وخمسمائة (٥٠٥) ومن انتساخ الجزء السادس والأخير منه فى منتصف شهر ربيع الأول سنة ستّ وخمسمائة (٥٠٦). أى فى مدة سنة واحدة. قطعه صغير، وفى الصفحة الواحدة منه ١٢ سطراً، وفى كل سطر ١٣ كلمة. أوّل هذه المخطوطة أى فى فاتحة الجزء الأوّل وبعد البسملة والتحميد: «قد أنعم الله علينا...» وآخرها أى فى نهاية الجزء السادس: «إلّا أنّه لم يظهر أمره لأحد. هذا آخر ما عمله الأستاذ أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه رضى الله عنه والحمد لله وصلواته على محمد النبىّ وآله أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل.»

أما تجزئة الكتاب فى هذه المخطوطة فهى كما يلى:

الجزء الأول (أياصوفيا، رقم ٣١١٦، ٢٩٦ ورقة: ٥٩١ صفحة). تاريخ النسخ: ربيع الأول سنة خمس وخمسمائة (٥٠٥). يشتمل هذا الجزء على الحوادث التاريخية منذ العصر الفيشداذى الإيرانى حتى سنة ٣٧ هجرية.

الجزء الثاني (أياصوفيا، رقم ٣١١٧، ٢٩٧ ورقة: ٥٩٣ صفحة؛ طهران، المكتبة المركزية، الميكروفيلم رقم ١٢٠، والصورة رقم ٢٩٠). ويشتمل هذا الجزء على حوادث سنة ٣٨ إلى سنة ١٠٣ هجرية.

الجزء الثالث (أياصوفيا، رقم ٣١١٨، ٢٩٧ ورقة: ٥٩٣ صفحة؛ طهران، المكتبة المركزية، المكيروفيلم رقم ١٢١، والصورة رقم ٢٤٤). يتضمن هذا الجزء على حوادث سنة ١٠٤ إلى سنة ١٩١ هجرية.

الجزء الرابع (أياصوفيا، رقم ٣١١٩، ٢٩٠ ورقة، ٥٨٠ صفحة؛ طهران، المكتبة المركزية، الميكروفيلم رقم ١٢٢، والصورة رقم ٢٩٣). يشتمل هذا الجزء على حوادث سنة ١٩١ إلى سنة ٢٣٣ هجرية.

الجزء الخامس (أياصوفيا، رقم ٣١٢٠، ٢٩٣ ورقة: ٥٨٥ صفحة) تاريخ الانتساخ: شهر محرّم سنة ست وخمسمائة (٥٠٦). يشتمل هذا الجزء على حوادث سنة ٢٣٤ إلى ٣٢٦

هجرية.

الجزء السادس (أياصوفيا، رقم ٣١٢١، ٢٦٠ ورقة: ٥٢٠ صفحة) تاريخ الانتساخ: منتصف شهر ربيع الأول سنة ستّ وخمسمائة (٥٠٦). يشتمل هذا الجزء على حوادث سنة ٣٢٦ إلى سنة ٣٩٦ هجرية.

ما نشر من هذه المخطوطة: نشر كيتاني (L.Caetani) الجزء الأوّل، والجزء الخامس، والجزء السادس من المخطوطة (ليدن ١٩٠٩، ١٩١٣، ١٩١٧ م) عن مؤسسة جب (Gibb) التذكارية. طبعة فتوغرافيّة (facsimile edition). إنّه قدّم الجزأين الخامس والسادس على الأجزاء الأخرى (الثاني والثالث والرابع) نظراً لكونهما مكمّلين لتاريخ الطبري. وكان مشروع المؤسسة يقضي بأن يعود كيتاني وأعوانه إلى العمل لنشر الأجزاء الوسطى (٢، ٣، ٤) بعد الفراغ من الجزأين الأخيرين (كيتاني، مقدمة الجزء الخامس: XIV) ولكنّهم لم يوفّقوا فى إنجاز مشروعهم لأسباب قد تكون ظروف الحرب العالمية الأولى منها. فلم تنشر تلك الأجزاء وبقيت بعيدة عن متناول الباحثين.

امّا الملاحق التى ألحقت بهذه الطبعة (طبعة كيتانى الفتوغرافية) فهى فى الجزء الأول: مقدمة لكيتانى (٥ صفحات) وكلمة آمِدْ روز (Amedroz) عن حياة مسكويه (١٣ صفحة) وملخّص لمضمون الجزء الأول بقلم ملونى (G.Meloni) وفهرس أعلام لملُونى أيضاً. كما ألقى لى سترنج (G. Le Strange) نظرة على الملخص والفهرس قبل إرسالهما إلى المطبعة. وفى الجزء الخامس، مقدمة لكيتانى أيضاً (٤ صفحات) مع ملخص وفهرس. أمّا الجزء السادس فليس معه غير مقدّمة كتبها لى سترنج (صفحتان).

أمّا ما نشره آمِدْ روز (مد) فهو الجزءان الخامس والسادس من هذه المخطوطة (القاهرة شركة التمدن ١٩١٤، ١٩١٥ م) بإسقاط ٥٦ صفحة من أوّل الجزء الخامس وضمّ ٢٨ صفحة من الجزء السادس إلى الجزء الخامس، كما نشر معهما جزءاً ثالثاً يتألّف من ذيل تجارب الأمم للوزير أبى شجاع محمد بن الحسين الملقّب بظهيرالدين الروذراورى (من سنة ٣٦٩ إلى سنة ٣٨٩ هجرية)، وجزءاً رابعاً يتشكّل من الجزء الثامن من تاريخ أبى الحسين هلال

بن المحسّن بن إبراهيم الصابي الكاتب (من سنة ٣٨٩ إلى سنة ٣٩٣) وهذان الجزءان صدرا في مجلّد واحد تحت عنوان: ذيل تجارب الأمم (القاهرة شركة التمدن ١٩١٦ م)، مع العلم بأنّ آمِدْ روز لم يوفّق في إكمال تحقيق نصّ الذيل بسبب وفاته، فتابع عمله مرجوليوث، فحقّق النصف الباقي منه (مرجليوث، المقدمة: I). فكلّ ما نشره آمِدْ روز هو مجلدان (٥، ٦) من تجارب الأمم، ومجلد ثالث عرف بذيل تجارب الأمم (= ذيل الروذراوري + الجزء الثامن من تاريخ هلال الصابي). والأجزاء الثلاثة هذه (نشرة آمِدْ روز) نشرت بترجمة إنجليزية (ثلاثة أجزاء) ترجمها مرجوليوث بمقدّمة من ١١ صفحة وفهرس من ١٤٤ صفحة (جزء واحد) والمجموع من النصّ العربي والترجمة الإنجليزية والفهرس سبعة أجزاء، تحت عنوان: the Eclipse of Abbasid Caliphate (أكسفورد ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ م).

أمّا نشرتنا هذه، كما هي بين يدي القارئ، فتشمل أجزاء تجارب الأمم الستّة مع الذيل: الجزء السابع. والفهارس: الجزء الثامن، لنكون قد نشرنا الكتاب ولأوّل مرّة بأجزائه الكاملة (طهران، سُروش ١٩٨٧ ـ ٢٠٠١ م) كما ستشمل ترجمة الكتاب إلى اللغة الفارسيّة التي نُشر الجزء الأوّل منها حتى الآن (طهران، سُروش ١٩٩٠)، وليكتمل العمل وفي نهاية المطاف، في ١٦ جزءًا، فنكون بذلك قد أسهمنا في سدّ الفراغ الذي طالما شغل بال الكثيرين من المعنيّين بالدراسات التاريخية الإسلامية الإيرانية.

٢. **ملك** (مط) برقم ٤١٤٥. نسخة كاملة من حيث الكمّية، في مجلّد واحد من القطع الكبير. عدد صفحاتها ١٠١٤، في كلّ صفحة منها ٢٥ سطراً ولكل سطر ٢١ كلمة. هي مثل أياصوفيا في أوّلها وآخرها. وعبارة الفراغ في الختام هي: «قد تمّ الفراغ من هذه المسودّة في عشر (= العشر) الأوّل من شهر ذي الحجّة الحرام في الليلة (= ليلة) الأضحى منه، من سنة أربع وتسعين ومائتين بعد الألف (١٢٩٤) من الهجرة المقدسة، على يد أقلّ الطلّاب والسادات محمود الطباطبائي الأردستاني الإصفهاني.» خط النسخة نسخيّ جميل مقروء، ولكنّ الهفوات والأخطاء الناتجة عن قلّة الثقافة لدى الناسخ، حطّت من قيمتها كنسخة. وسيأتي الكلام عنها في مكانه.

٣. **ملك الثانية**: (مح) برقم ٤٣٢٤. عدد أوراقها ٢٣١ وعدد صفحاتها ٤٦٢، بالقطع المتوسط، في كلّ صفحة منها ٢١ سطراً. انتسخه محمد بن داود الحسيني المشهدي في سنة ١٣٠٧ هجرية. أولها: «ودخلت سنة إحدى ومائة وفيها ولي يزيد بن عبدالملك الخلافة...» وآخرها: «.. واتصل خبر انصرافه بالمهتدى، فكتب إليه فى ذلك كتاباً (=كتباً) كثيرة، فلم يؤثر (=تؤثّر) شيئاً. فلمّا نظر... ، تمت...». تشتمل المخطوطة هذه على حوادث سنة ١٠١ إلى سنة ٢٥٦ هجرية. فهي مخطوطة ناقصة.

٤. **آستانقدس**: (أ) برقم ٤٠٩٠؛ جامعة طهران، المكتبة المركزية، الميكروفيلم رقم ١٦٣٨ والصورة رقم ٦١٨٨/٣ (ثلاثة أقسام) عدد الأوراق ٢٥٧. وعدد الصفحات فى الأقسام الثلاثة ٥١٤ صفحة. أوّلها بعد البسملة والحمدلة: «ودخلت سنة إحدى ومائة» وآخرها: «وخرج واتصل خبر انصرافه بالمهتدى، فكتب إليه كتاباً [=كتباً] كثيرة، فلم يؤثّر (=تؤثّر) شيئاً. فلمّا نظر...» تشبه فى أولها وآخرها مخطوطة ملك الثانية (مح). يعود تاريخ انتساخ المخطوطة إلى شعبان سنة ١٢٩٧ وهذه المخطوطة ناقصة أيضاً كمخطوطة ملك الثانية.

٥. **باريس**: Paris, Bibl. Nat., Arab, 5838 (Shéfer, A. B1) نسخة ناقصة تشتمل على حوادث سنوات ٢٤٩ ـ ٣١٥ هجرية فقط. (كيتاني، المقدمة : XIII).

٦. **بودلي**: (Marsh, 357; Uri I, No. 804). وهذه النسخة تشتمل على حوادث ٣٤٠ ـ ٣٦٥ هجرية. (كيتاني المقدمة : XIII).

٧. **أمستردام**: مخطوطة ناقصة تشتمل على حوادث سنة ١٩٦ إلى سنة ٢٥١ هجرية (Cat. de Jong, 101 كيتاني، المقدمة: XIII) أوّلها ناقص بأكثر من سطرين، ثم تبدأ هكذا: «.. أمر العراة باتخاذ تراس من البوارى، وبالرمى بالمقاليع ومحمد قد أقبل على اللّهو والشرب، ووكّل الأمر كلّه إلى محمد بن عيسى بن نهيك، وإلى الهرش...» وآخره: «.. ونزل الحسين بالقرب من دممًا. نجز الكتاب... ويتلوه فى الجزء السادس: ذكر رأى أشير به عليه صواب. والحمد لله ربّ العالمين، وصلواته على محمّد النبيّ وآله الطاهرين وسلّم.»

نشر المخطوطة دى خويه (M.J. De Goeje) بترجمة لاتينيّة ومقدمة (بريل ٧١ ـ ١٨٦٩ م) تحت عنوان: Fragmenta Historicorum كما نشرت مرّة ثانية بالأفست وبحذف الترجمة اللاتينية (بغداد، المثنّى، دون تاريخ) تحت عنوان: العيون والحدائق، لمؤلف مجهول (من خلافة الوليد بن عبدالملك إلى خلافة المعتصم) ويليه مجلّد من تجارب الأمم. والعنوان الخاص بقسم تجارب الأمم هو: تجارب الأمم، تأليف أبى على أحمد بن محمد بن يعقوب «بن» مسكويه، الجزء السادس. فالنشرة هذه هى من قسمين: القسم الأوّل هو الجزء الثالث المتبقّى من كتاب «العيون والحدائق فى أخبار الحقائق» (عح) اشترك (يونج P.De Jong) مع دى خويه فى تحقيقه. والقسم الثانى وهو جزء صغير من تجارب الأمم (تد) حقّقه دى خويه وحده. (من صفحة ٤١١ إلى صفحة ٥٨٣، المجموع: ١٧٢ صفحة مطبوعة).

٨ . أسكوريال: Escorial, No. 1704. Cat. 1709. نسخة ناقصة تشتمل على حوادث سنة ٣٦ إلى سنة ٦٧ هجرية (كايتاني، المقدمة، XIII).

تحقيق النصّ

وبمقارنة بسيطة بين هذه المخطوطات التى وصفناها، يتّضح أنّ المخطوطة الكاملة الوحيدة التى عرفت فى العالم حتى الآن، هى مخطوطة أياصوفيا. وهى التى يؤهلّها تاريخها المتقدّم (٦٠٥ ـ ٦٠٦ هـ) وأصالتها وصحتها نسبيّاً لأن تكون أساساً لعملنا فى تحقيق نصّ الكتاب، وإخراجه بجميع أجزائه. لأنّ سائر المخطوطات، كما أشرنا إليه، ناقصة تشمل أجزاء متقطعة من الكتاب، وحتى لو سنح لنا جمع أشتاتها من مكتبات العالم، وضمّ بعضها إلى بعض، لا تعطينا النصف من نصّ الكتاب. لأنّها إمّا تكرار لبعض أجزاء الكتاب وإمّا متقطّعة لا صلة بين بعضها والبعض الآخر (أنظر السنوات التى تشتمل عليها هذه الأجزاء).

وأمّا مخطوطة (مط) فهى برغم اشتمالها على كلّ الكتاب، فهى مخطوطة متأخرة (أنظر

تاريخ الانتساخ) من ناحية، ومليئة بأخطاء الاستنساخ من ناحية أخرى. وأمّا كثرة الأخطاء والتصحيفات فيها فترجع في ما نظنّ، إلى أمرين: أولهما عدم وضوح الخطّ في الأصل الذي نقل عنه الكاتب، وثانيهما عدم الثقافة اللازمة لمثل هذا العمل عند هـذا الكـاتب. ولذلك بالذات، ظهرت في هذه المخطوطة أخطاء فادحة وتصحيفات عجيبة كثيرة تبلغ عشـرين إلى ثلاثين خطأ في صفحة واحدة، وهي وصلت فعلاً حوالي الخمسين في الصفحة الأولى من الكتاب من خطأ وبياض.

وهنا لابأس في أن نذكر نماذج من أخطاء هذه المخطوطة ليقف القارئ عـلى نـوعيّة الأخطاء، ومن ثمّ على قيمة هذه المخطوطة السلبيّة: لقد كتب الناسخ خطأً «عمر بن خان» بدل «غزا بُرجان»، و «عهته»! بدل «عرضه»، و «على حاله مـؤخراً»! بـدل «عـلى خـاله سوخرا»! و «أبوال»! بدل «أموال»! و «يعرضوا السن» بدل «صغير السنّ»! و «فطرر بـن» بدل «وضرار بن»! و «ما قدر جمعاً إنّك في هذا الأمر»! بدل «ما قدر جعالتك في هذا الأمر»، و «قبالة بخطه»! بدل «قبالة لحظه»! و «ناش»! بدل «باشر»، و «وكان سعد هذا تزوّج أمّهُ خدمة لجذيمة»! بدل «تزوّج أمةً تخدم لجذيمة»! و «خر شدن» بدل «خر شيدان»! وأخطاء كثيرة أخرى، لا جدوى لذكر جميعها.

وبالنظر إلى الحالة هذه، فإنّنا اعتمدنا أساساً على نسخة أياصوفيا (الأصل) ثم (مط) كما استعنّا بالأصول التاريخية خاصّة بالطبري، وبالمخطوطات الناقصة الموجودة في متناولنا مثل: مح، آ، تد، (والأخيرة عن طريق نشرة دي خويه) كما استعنّا بصورة غير مباشرة بالمخطوطتين اللتين استفاد منهما الدكتور احسان عباس فيّ نشرته لعهد أردشير التي رمز إليها ب: ر، غ، خصيصا لتحقيق العهد (أنظر مقدمته لنشرته).

ونعني بالأصول التاريخية، تاريخ الطبري، والكـامل لابـن الأثـير، والآثـار البـاقية للبيروني، وسير الملوك للثعالبي، والمروج للمسعودي، وحمزة والدينوري وغيرها. وهذه ـ ما خلا الطبري ـ استفدنا منها في قسم ما قبل الإسلام، أي ما يخصّ بالتاريخ الإيـرانـي القديم، لاسيّما في تحقيق الأعلام الإيرانية.

وأمّا بالنسبة للطبرى (طبعة أوروبا) فانّنا استفدنا منه الكثير سواء بالنسبة للاعلام، أو بالنسبة لإزاحة الشكوك في قراءة الكلمات والعبارات، وملأ الفراغ الناتج عن البياض والسقط والانمحاء والخرم وغيرها. ولاسيما من حواشي الطبري في نشرة دي خويه المليئة باختلاف النسخ، حيث إنّ الطبرى منهل كبير ارتوى منه جلّ المؤرخين الآتين بعده ومنهم مسكويه. وهذا بالنسبة للفترة التاريخية الطويلة التي اشترك فيها الطبرى ومسكويه فى ذكر أحداثها، وأمّا بالنسبة للزمن الزائد عليها (العصر البويهى عند مسكويه) فرأينا أن نقارن النصّ مع أصول أخرى متأخرة عن الطبرى حسب إلحاح الحاجة لأنّ الطريق كان معبّداً فى هذا القسم من العمل وإلى حدّ ما، بعد أن نشر آمِدْ روز الجزأين الخاصّين بهذا العصر مع الذيل، فذلّل لنا بعض الصعاب مشكوراً.

والجدير بالذكر أنّنا ذكرنا صفحات الإرجاع فى كلّ مقارنة عملناها بين الأصل والطبرى، مع ما فى هذه المقارنة من صعوبات، لأنّ المقارنة بين نصٍّ ما، ونصٍّ يخالفه فى الحجم وترتيب الموادّ، تتطلّب أناة، ولكنّها فى نفس الوقت عمل فيه نفع كبير للباحثين.

وفى تاريخ ما قبل الإسلام، أى أوائل الجزء الأول، يوجد كثير من الأعلام الإيرانيّة القديمة ذات جذور فى اللغات الفهلويّة والأفستائيّة وغيرها، ضُبطت وصُحّفت فى الأصول التاريخيّة ومنها تجارب الأمم، بصور شتّى، أوّلاً: بسبب غرابة أشكالها فى أصلها القديم، ثانياً: اللعب الذى لعبته اللغة العربيّة فى تعريبها ثالثاً: عبث الكتّاب والنساخ بها. وهذا هو ما أدّى إلى أشكال غريبة من التحريف والتصحيف. لذلك أرجعنا ـ قدر المستطاع ـ مثل هذه الأعلام إلى أصولها فى الحواشى، بعد إثبات اختلاف صور الضبط فيها، مستفيدين من عمل سابق قمنا به بهذا الصدد، معوّلين على قواميس اللغات الإيرانيّة القديمة ودراسات الإخصائيين فى هذا المجال. وممّا هو جدير بالذكر هنا، أنّه، لمّا كانت الأعلام كثيرة متوالية فى الصفحات الأولى من الجزء الأوّل، وذلك لاختصار تقارير مسكويه لتلك الفترة، لذلك، نرى حواشى تلك الصفحات مكثّفة، مع أنّنا حاولنا ـ قدر المستطاع ـ تلخيص تعاليقنا وإثباتها بأوجز وجه. وكذلك حاولنا شرح الأعلام الجغرافية، أو بعض الكلمات، قدر ما

تيسّر وسنحت لنا فرص البحث والتتبع، أو بدافع حاجتنا فى تحقيق الكلمة وضبطها، دون أن نكون قد وفّقنا فى شرح كلّ تلك الأعلام أو المفردات. كما استعملنا لهذا الغرض الرموز الصوتية الدولية، ولكن بشيء من التغيير الذى دفعتنا إليه الظروف المطبعيّة. فأصبحت الرموز كما يلي:

a = أ	i = إ (الكسرة العربية)	h = هـ	v = (الفارسيّة)
á = آ	Í = اى (بالمدّ)	sh = ش	x = خ
ch = چ	j = ج	th = ث	y = ى
dh = ذ	o = أُ	ú = أو	z = ز
g = گ	gh = غ	w = و	zh = ژ

وقد اتبعنا فى رسم الكلمات وكذلك فى إثبات الحوار الوارد فى النصّ وما إلى ذلك، معدّل الطرق الحديثة المقترحة في تحقيق النصوص، ممّا يتلاءم وطبيعة نصّ تاريخيّ مثل تجارب الأمم، وبالنتيجة، فقد غيّرنا ضبط رهط من الكلمات نثبت هاهنا نماذج منها: أثبتنا: أثنائها بدل أثنايها؛ وبقاؤه، بقاءه، بقائه بدل بقآه؛ والحياة بدل الحيوة؛ وتدنو بدل تدنوا؛ وإساءة بدل إسآة؛ وجاءت بدل جآت؛ وإبنة بدل ابنت؛ وثمانين بدل ثمنين؛ وحارث بدل حرث؛ ورؤوس بدل رؤس، وسبعة آلاف بدل سبعة ألف؛ وأربعة آلاف بدل أربعة ألف؛ وأيّة، بدل أيّت؛ وما إليها.. وأمّا، بشأن إثبات الحوار فقد اتبعنا المناهج المألوفة ليكون النصّ عند القراءة، أوضح وأنطق، ووضعنا العبارات المنقولة بين «»، كما جعلنا كلّ كلمة دخيلة مقحمة ممّا نقلناها عن الأصول الأخرى، أو اقترحناها نحن، جعلناها بين [ ]، حفظاً للأمانة وحرصاً على أصالة النصّ، وأثبتنا رقم صفحات مصورة كيتاني، أى صفحات المخطوطة، بين [ ]، أوّلاً: لتسهل على القارئ المقارنة بين نشرتنا وبين الأصل إن شكّ فى صحّة ما أثبتناه، ثانياً: لسهولة المراجعة حسب الإرجاعات الموجودة فى دراسات الباحثين، ثالثاً: لسهولة

الإرجاعات الداخلية التي احتجنا نحن إليها، خصيصاً بالنظر إلى ثبوت مواضعها قبل الطبع وبعده. ثم يرى القارئ أنّنا أوردنا النصوص الطّويلة الهامّة بسطور أقصر تمييزاً بينها وبين النصّ العادي، وما إلى ذلك من القواعد المألوفة.

وفي الختام أشكر الله على أن وفّقني لإتمام هذا العمل الملتوى المضني، الذى طالما فكّرت في إنجازه، كما أقدّر الجهود التي بذلتها دار سروش للنشر، بمن فيها من أصحاب القرار، والمباشرين، والمتعاملين معهم من خارجها، منذ بدء هذا العمل حتى الآن، أشكرها على تحمّلها أعباء مراحل طبع هذا السفر التراثيّ الكبير، علماً منها بأنّ جهدها هذا سينعكس في إثراء المكتبة العالمية، وذلك في حقل الدراسات الإسلاميّة الإيرانيّة، التاريخيّة، والحضاريّة.

وأشكر أخيراً ـ وهل يبرئ الشكر ذمّة المدين؟ أشكر قرينتي الفاضلة التي وقفت بجانبي في أشدّ اللحظات واستظهرتُ بها وبدورها المشجّع في آناء التواني والفتور، فلولا ذلك لما أمكنني إنجاز هذا العمل، كما أشكر ابنيّ العزيزين آرش ومازيار، الذين حرموا وفي أغلب الأحيان من كامل حضوري بينهم، حيث طال ما انزويت في مكتبتي بمنأى عنهم وعن الإسهام معهم في تفاصيل الحياة العائليّة. فلا أقلّ من أن أهديهم حصيلة هذا الجهد، رمزاً لأداء ما فاتني من الواجب تجاههم، متمنّياً أن يعوّضهم الله حياة طويلة عريضة، ملؤها السلامة والسعادة والهناء. والله وليّ التوفيق.

الدكتور ابوالقاسم امامي

شتاء ١٣٧٩ ش. / ١٤٢١ ق. / ٢٠٠١ م.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدّمة المُصنِّف

الحمدُ لله ربّ العالمين[١] حمد الشاكرين، وصلواته على محمّد النبيّ وآله أجمعين[٢]. قد أنعم الله علينا، معاشر خدم مولانا الملك السيّد الأجلّ، وليّ النعم ـ أطال الله بقاءه، وأكبّ أعداءه، وحرس ملكه، وأعزّ سلطانه ـ لمّا أخرجنا في زمانه، وأنشأنا في أيامه، وبوّأنا ظلّه، وأنزلنا كنفه، وجعلنا من خاص خدمه. فنحن نتقلّب[٣] من نعمه فيما لا شكر له غير الدعاء، ولا ثمن له غير الثناء، فنسأل الله بأخلص نيّة وأصدق طويّة، إدامة أيّامه، والإمتاع بما خوّلناه من إنعامه، إنّه جواد كريم.

وإنّي لمّا تصفّحت أخبار الأمم، وسير الملوك، وقرأت أخبار البلدان، وكتب التواريخ، وجدت فيها ما تستفاد منه [2] تجربة لاتزال[٤] يتكرّر مثلها وينتظر حدوث شبهها وشكلها: كذكر مبادئ الدول، ونشء[٥] الممالك، وذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك، وتلافي من تلافاه وتداركه إلى أن عاد إلى أحسن حال، وإغفال من أغفله واطّرحه إلى أن تأدّى إلى الإضمحلال والزوال، وذكر ما يتّصل

---

١. ربّ العالمين: سقطت من مط.

٢. التصلية في مط: وصلّى الله على نبيّه وآله أجمعين.

٣. تقلّب في الأمر: تصرّف فيها كيف يشاء. يقال: فلان يتقلّب في أعمال السلطان وفي نعمائه.

٤. مط: لايزال.

٥. مط: ونشر.

بذلك من السياسات فى عمارة البلدان، وجمع كلم الرعـيّة، وإصـلاح نـيّات[١] الجند، والحروب ومكائد[٢] الرجال، وما تمّ منها على العدوّ، ومـا رجـع عـلى صاحبه، وذكر الأسباب التى تقدّم بها قوم عند السلطان، والأحوال التى تأخّر لها آخرون، وما كان منها[٣] محمود الأوائل مذموم العواقب، وما كان بضدّ ذلك، وما استمرّ أوّله وآخره على سَنن[٤] واحد؛ وذكر سياسات [3] الوزراء، وأصـحاب الجيوش، ومن أسند إليه حرب وسياسة، أو تدبير أو إيالة، فوفى بـذلك وتـأتّى له[٥]، أو كان بخلاف ذلك.

ورأيت[٦] هذا الضرب من الأحداث، إذا عُرف له مثال مما تقدّم، وتجربة لمن سلف، فاتّخذ إماماً يقتدي به، حذر مما ابتلى به قوم، وتمسّك بما سعد به قوم. فإنّ أمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة، وصار جميع ما يحفظه الانسان من هذا الضرب كأنّه تجارب له، وقد دفع إليها، واحتنك[٧] بها، وكأنّه قد عاش ذلك الزمان كله، وباشر تلك الأحوال بنفسه، واستقبل أموره استقبال الخَبِر[٨] وعرفها قبل وقوعها، فجعلها نصب عينه وقبالة لحـظه[٩]، فـأعدّ لهـا أقـرانـها وقـابلها بأشكالها. وشتّان بين من كان بهذه الصورة وبين من كان غِرّاً[١٠] غُـمراً[١١] لا يتبيّن الأمر إلّا [4] بعد وقوعه، ولا يلاحظه إلّا بعين الغريب منه، يحيّره[١٢] كلّ

١. مط: يثاب.

٢. مط: ومكانة.

٣. مط: ومنها ما كان.

٤. السنن: الطريقة والمثال.

٥. مط: وتأتى له.

٦. الكلمة غير واضحة في الأصل. وما أثبتناه يؤيّده ما في مط.

٧. احتنكت السنّ الرجل: حنكته. أي: أحكمته التجارب وجعلته حكيماً.

٨. مط: بياض. يقال: أخبرني بذلك الخَبِر: العالم بالخبر. وفي ما نقله بعض الباحثين عن هـذه المـقدمة: «الخبير». وما أثبتناه هو الصحيح نصّاً.

٩. مط: «قبالة بخطه»! بدل «قبالة لحظه».

١٠. هو غِرّ: غير مجرّب.

١١. صبيّ غمر: لم يجرّب الأمور.

١٢. مط: ويجبره.

خطب يستقبله، ويدهشه كلّ أمر يتجدّد له.

ووجدت هذا النمط من الأخبار مغموراً بالأخبار التى تجرى مجرى الأسمار والخرافات التى لا فائدة فيها غير استجلاب النوم بها، والاستمتاع بأنس المستطرف منها، حتى ضاع بينها، وتبدّد فى أثنائها، فبطل الانتفاع به، ولم يتصل لسامعه وقارئه اتصالاً يربط بعضه بعضاً، بل تنسى النكتة منها قبل أن تجيء أختها، وتتفلّت[1] من الذهن قبل أن تقيّدها نظيرتها، ويشتغل الفكر بسياقة خبرها دون تحصيل فائدتها.

فلذلك، جمعت هذا الكتاب، وسمّيته تجارب الأمم. وأكثر الناس انتفاعاً به وأكبرهم حظّاً منه، أوفرهم قسطاً من الدنيا، كالوزراء، وأصحاب الجيوش، وسوّاس المدن، ومدبّرى أمر [5] العامّة والخاصّة. ثم سائر طبقات الناس. وأقلّ الناس حظّاً، لا يخلو[2] أن ينتفع به فى سياسة المنزل، وعشرة الصديق، ومداخلة الغريب، ولا يعدم مع ذلك، أنس السمر الذى يوجد فى القسم الآخر الذى اطّرحناه.

وبعد، فلو كان الخادم لا يتقرّب إلّا بما يعزّ وجوده عند سلطانه، ولا يلطف فى الخدمة إلّا بما لا يجد مثله، لانقطعت أسباب الهدايا والتحف، وارتفعت الملاطفات بالآداب والطرف[3]، ولا سيما عند من كان فى علوّ الهمّة، وتوقّد القريحة، وحفظ الآداب، وسياسة الملك والرعيّة فى الخير، على ما عليه الملك السيّد، أدام الله سلطانه[4].

وأنا مبتدئ بذكر الله ومنّته، بما نقل إلينا من الأخبار بعد الطوفان، لقلّة الثقة بما كان منها قبله، ولأنّ ما نقل [إلينا][5] أيضاً لا يفيد شيئاً مما عزمنا على ذكره [6]

---

١. مط: وتنقلت. ٢. رسم الأصل: لا يخلوا.

٣. مط: والطرق. الطرفة: كلّ شيء مستحدث عجيب.

٤. مط: ظلاله. ٥. إلينا: أضفناها عن مط.

وضمنّاه[١] في صدر الكتاب. ولهذا السبب بعينه، لم نتعرّض لذكر معجزات الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ وما تمّ لهم من السياسات بها، لأنّ أهل زماننا لايستفيدون منها تجربة فيما يستقبلونه من أمورهم، اللّهمّ إلّا ما كان منها تدبيراً بشريّاً لا يقترن بالإعجاز.

وقد ذكرنا أشياء ممّا يجرى على الاتّفاق والبخت[٢] وإن لم يكن فيها تجربة، ولا تقصد بإرادة. وإنّما فعلنا ذلك لتكون هي وأمثالها في حساب الانسان وفي خَلَده[٣] ووهمه، لئلّا تسقط من ديوان الحوادث عنده وما ينتظر وقوع مثله، وإن لم يستطع تحرّزاً من مكروهه إلّا بالاستعانة بالله، ولا توقّعاً لمحبوبه إلّا بمسألته التوفيق، وهو ـ عزّ اسمه ـ خير موفّق ومعين.



---

١. هكذا ضبطت في الأصل.

٢. البخت: في اللسان عن الأزهري: لا أدري أهو عربي أم لا. في المعرّب عن ابن دُريد: فارسي معرّب، بالفهلوية: baxt بالأفستائية: baxta بمعنى النصيب المقدّر (حب).

٣. الخَلَد: البال والنفس.

الفيشداذيّة ومن عاصرهم

أوشَهَنج

فأوّل من يحفظ اسمه وسيرته من الملوك أوشهنج[١] [7] وأنا ذاكره[٢] والملوك بعده على توالٍ ونسق. فإن كان لواحد منهم سيرة محمودة أو تدبير مرضيّ، ذكرته وذكرت سائر ما ضمنته في صدر الكتاب، ومن لم يحفظ له سيرة، ذكرت اسمه فقط، ليكون نظام التاريخ محفوظاً، فأقول:

إنّ أوشهنج هذا هو الذي خلف جدّه جيومرت[٣] وجمع الأقاليم السبعة، ورتّب الملك، ونظم الأعمال، ولقّب بـ «فيشداذ»[٤]. وتفسيره بالعربية: أوّل سيرة العدل.[٥] ويقال: إنّه كان بعد الطوفان بمائتي سنة. وهو أوّل من عُرف قطع[٦]

١. في الأصول: أوشهنج، أوشهنك، أوشهنق، هوشنگ. بالأفستائية: Haushyanha أي: واهب المنزلة الحسنة (يو: ١٢٦، حب). بالفهلوية: Hoshyang (ف).

٢. ذاكره: غير واضحة في الأصل وما أثبتناه هو من مط.

٣. في الأصول جيومرت، كيومرث. بالأفستائية: Gaya-Mareta أي: الحيّ الذي يموت، أو: الحياة الفانية. بالفهلوية: Gayo mard, Gayomart (حص: ٣٩٩ ـ ٤١١).

٤. في الأصول: فيشداد، بيشداذ، پيشداد. بالفهلوية: Peshdat (ف). بالأفستائية: Para - Dhata أي: من وضع القانون أمامه وحكم بالعدل (يد ١: ١٧٨).

٥. كذا ضبطت في الأصل: أوّل سيرة العدل.

٦. يشاهد مثل هذا التعبير عند مسكويه في مواضع أخرى أيضاً. قال مثلاً: أول من عُرف ذلّل الفيلة؛ أو: من

الشجر، وبنىٰ به، واستخرج المعادن وبنى مدينتى بابل[١] والسوس[٢]. وكان فاضلاً سائساً محموداً، ونزل الهند، ثم تنقّل فى البلاد، وعقد التاج، وجلس على السرير. وكان من حسن سياسته أن نفىٰ أهل الفساد والدّعارة[٣] من البلدان [8] إلى البرارى، وألجأهم إلى رؤوس الجبال وجزائر البحار، وطهّر منهم الممالك، واستخدم من كان يستصلحه منهم، وسمّاهم الشياطين والعفاريت، وقرّب أهل الصلاح وأحسن رعاية الأمور، إلى أن انتهى مُلكه إلى طهومَرت[٤] بعده.

طهومَرت

وهو من ولد أوشهنج، وبينهما عدّة آباء، وسلك سيرة جدّه، وتنقّل فى البلدان، وبنى الموضع الذى جدّده بعد ذلك سابور[٥] من فارس، ونزله، وطلب الدعّار ونفى الشياطين أعنى الأشرار. وهو أول من كتب بالفارسية. وسلك سبيل جدّه، فاستمرّ نظام الملك على حالٍ واحدة من عموم الصلاح، واستقامة أحوال الجند والرعية، إلى أن ملك بعده جمّشيذ[٦].

←

عُرف خندق الخنادق (أنظر ص ٥١، ٦١).

١. بابل: بالبابليه: Babilu أى: باب إيل، أى: باب الله. بالأفستائية: Bavari . فى نقش بيستون: Babirauv (حب).

٢. فى المصادر الفارسية القديمة: Shusha, Shusa, Susa (حب).

٣. مط: الذعارة.

٤. كذا فى الأصل ومط: طهومرت، وهو تصحيف. وفى الأصول: طهمورت، طهمورث. بالفهلويّة: Taxmurit (ف).

٥. سابور: مدينة منها إلى شيراز خمسة وعشرون فرسخاً، كما هو اسم لكورة بفارس بها مدن أكير من مدينة سابور (يا).

٦. مط: جمشيد. فى الأصول الأخرى: جمّ الشّيذ، جمّ، جمشاسب، جمشيدون. بالأفستائية: Yima-Xshaeta . بالفهلوية: Yimshet أى: جمّ المشرق (ف، حص، لد).

جمّشيذ

وهو أخو طهمورث، وتفسير «شيذ» الشعاع. لأنه كان وضيئاً، جميلاً. وملك الأقاليم، وسلك [9] السيرة المتقدمة، وزاد عليها بأن صنّف الناس وطبّقهم ورتّب منازل الكتّاب، وأمر أن يلزم كل أحد طبقته. وعمل أربعة خواتيم: خاتماً للحروب والشُرَط، وكتب عليه «الأناة»، وخاتماً للخراج، وجباية الأموال، وكتب عليه «العِمارة»، وخاتماً للبريد[١]، وكتب عليه «الوَحا»[٢] وخاتماً للمظالم، وكتب عليه «العدل». فبقيت هذه الرسوم في ملوك الفرس إلى أن جاء الاسلام، وألزم من غلبه من أهل الفساد والشياطين الأعمال الصّعبة، وأذلّهم بقطع الحجارة والصخور من الجبال، وعمل الكلس والجصّ والبناء والطين، وعمل المعادن، وغير ذلك من الأمور الصعبة. فحسنت سيرته، وخافه أهل العيث[٣] والفساد، بما ألزمهم من الأعمال الشاقّة. وأحدث النوروز[٤]، وجعله عيداً وأمر الناس بالتنعم فيه. [10] ثم إنّه بعد ذلك، بدّل سيرته. فكان من نتيجة فعله وسوء عاقبته، أن دخل الوهن في الممالك، وتجاسر أهل الفساد عليه.

فمما حكى من تبديل سيرته، إظهار الكبر والجبرية على وزرائه وكتّابه وقوّاده، وإيثار التخلّي والإغرام باللذّات، وترك مراعاة كثير من السياسيات التي

١. البريد: عربي (ابن دُريد). فارسي معرّب من «دُمِ بُريده» [أي: «محذوف الذّنب» حسب تعبير المؤرخين ـ أنظر ص ٩٣ وما علّقناه على تلك الصفحة]. أو معرّب من «بُردن» أي: الذهاب بالشيء (باللغة الفارسية). أو معرّب للكلمة اليونانية: veredus ومعناها: الحيوان ذو القوائم الأربع، ثمّ تحوّل إلى معنى «فرس البريد»، ثم إلى «البريد» بالذات (لد، حب).

٢. الوحا: السرعة. والمكتوب على الخواتم عند ابن الأثير. * الرفق والمداراة * العمارة والعدل * الصدق والأمانة * السياسة والانتصاف (١ : ٦٤).

٣. وفي مط: أهل العبث (بالباء الموحّدة).

٤. في الطبري: نوروز (١ : ١٨٠). الثعالبي: النوروز (ص ١٤). ابن الأثير: نيروز (١ : ٤٩٧). أبو نوّاس في شعره: النوكروز. بالفهلوية: nok-róch أو noghróz (حب). مف: nik-róch .

كان يتولّاها بنفسه. فأحسّ بذلك بيوراسب[١] ـ وهو الذى تسمّيه العرب الضحّاك[٢] ـ وعلم استيحاش الناس منه، وتنكّر خواص أصحابه له، فدسّ إلى رجاله[٣] من استصلحه[٤] لنفسه، ودبّر عليه حتى قوى، ثمّ قصَده، فهرب منه جمّ وتبعه حتى ظفر به، فنكل به، وأشره بمنشار[٥]. وقد كان جمّ تنقّل فى البلدان قبل ذلك، إلى أن جرى عليه ما جرى.

وكان الضحّاك هذا ـ على ما تزعم الفرس ـ من ولد جيومرت، وبينه وبين جيومرت من الآباء «تاج»[٦] وإليه تنتسب العرب، فيقال لهم: «تاجى»[٧] وهم

---

١. مط: هوراسب.

٢. الضحّاك: معرّب «ده‌آك» (حمزه: ٢٤).

٣. مط: رحاله.

٤. مط: من استخلصه.

٥. فى الطبرى: ونشره بمنشار (١ : ١٨١). أشر الخشبة وغيرها: نشرها. المئشار: المنشار.

٦. فى الطبرى: تاز (١ : ٢٠٢). البيرونى: غار (قار) وهو أبو العرب العاربة (ص ١٠٤). حمزة: تاج، ولذلك قيل لهم: تاجيان (ص ٣٤). ابن الأثير: يارين (١ : ٧٤).

٧. بالفهلوية Tazhik (فم)، Tazik, tajik (ف): المنسوب إلى قبيلة طيء أو العرب. تاجيك، تاجك، تازيك، ـ وبأحد المعانى ـ تازيك: شيء واحد. باللغة التركية: تات (الرعيّة) + چيك (فى الأصل وبأحد المعانى: الولد، أو بمعنى التصغير): ١ ـ غير الترك عامة، ومن ليس بترك أو مغولى. ٢ ـ الايرانى خاصةً. ٣ ـ أهل تاجيكستان (فم).

أما الوجوه التي ذكرها الباحثون فى تسمية العرب بـ«تازى» فهي: ١ ـ أن تكون الكلمة من المصدر الفارسي: «تازيدن» أى: شنّ الإغارة لأن العرب كانت تكثر ذلك فى غابر الزمن. ٢ ـ لفظة «تاز» معناها الخيمة، والعرب كانت تسكن الخيام فسمّاهم الإيرانيون بـ«تازيك» = تازى، ثم تبع الصينيّون الايرانيين في هذه التسمية، فقالوا للعرب: «تاش» (لد). ٣ ـ كان الإيرانيون، في عصر أنوشيروان، على اتصال باليمن، وكانوا يسمون طيّئاً بـ«تاز». فقالوا للمنسوب إلى هذه القبيلة «تازيك»، ثم أطلقوا الاسم على كل العرب (حب)؛ وهذا التعميم نراه أيضاً فى التلمود والموارد اليهودية السريانية الأخرى، حيث أطلق على العرب: طييعه، طييه، طيايه؛ وأصلها: طيء (Obermeyer, s. 233. ff.) نقلاً عن المفصّل ١ : ٦٦٠). ٤ ـ ان لفظة: «تازى» هى الشكل الفارسى للفظة: «طائى» العربية التى تطلق على المنسوب إلى قبيلة «طيء» (لش). ٥ ـ كان الايرانيون منذ القديم يسمون غير الايرانيين بـ«تاجيك» أو «تازيك»، كما سمّت الإغريق غيرهم «بربراً»، وسمّت العرب غيرهم «أعجمياً». فتحول هذا اللفظ إلى «تازى» فى اللغة الفارسية الحديثة، ثم اختص بالعرب قليلاً قليلاً، بينما بقى في بلاد الترك وماوراء النهر بشكله ←

يلقّبون بيوراسب بـ«الأزدهاق»(١). [11] وقوّم منهم يزعمون أن جـمّشيذ زوّج أخته من بعض أشراف أهل بيته وملّكه اليمن، فولدت له الضحّاك. وأما العـرب فينسبون الضحّاك غير هذه النسبة. ورغم قوم أنّه نمرود. وزعم آخرون أنّ نمرود كان عاملاً من قبله على كثير من أعماله، ولا ينبغي أن نذكر من أمره فيما قصدنا له، أكثر من هذا النّبذ، لئلّا ننقطع عن غرضنا.

بيوراسب
وما جرى بينه وبين كابي الإصبهاني

ولما ملك بيوراسب(٢) ظهر منه خبث شديد وفجور كثير، وملك الأرض كلّها، فسار فيها بالجور والعسف، وبسط يده بالقتل والصلب، ليهابه الناس، وليمحو عن صدور الناس سياسة من تقدّمه وذكرهم وسنّتهم. فسنّ العشور، واتخذ المغنّين والملهين. وكان على منكبه سلعتان(٣) يحركهما(٤) إذا شاء، كـما يـحرّك يـديه. فادّعى أنهما حيّتان، تهويلاً على [12] ضعفاء الناس، وأغبيائهم، وكان يسترهما بثيابه.

فلما طالت أيامه وعمّ الناس جوره، كان من سوء عاقبة ذلك أن ظهر بإصبهان

←

القديم وبمعناه العام (مطلق الأجانب)، ثم بعد أن اختلطت الترك الألتائيون والفرس في تلك التخوم، دخلت كلمة «تاجيك» في لغة الترك فسمّت الترك الإيرانيين بـ«تاجيك» فقيل: «ترك وتاجيك» (بس ٣: ٥٠ الحاشية).

١. في الأصول: أزدهاق، أژدهاك، ده‌آك. شا: أژدها، أژدهـافش، بـالأفستائية: Agi-dahaka . بـالفهلوية: Azhi-dahak (ف).

٢. في سائر الأصول: بيوراسب، بيوراسف، بهراسب. بالفهلوية: Bevarasp (ف)؛ أي: من له عشـرة آلاف حصـان (فم).

٣. السلعة: زيادة تحدث في الجسد.

٤. مط: حركهما.

رجل يقال له: «كابى»[١] من أثناء[٢] العامة، وكان الضحّاك قتل له ابنين. فلما بلغ الجزع من كابى هذا على ولديه ما بلغ، أخذ عصاً، فعلّق بطرفها[٣] جراباً[٤]. ـ ويقال: إنّه كان حدّاداً وإنّ الذى علّقه نطع[٥] كان يتوقّى به من النار ـ فجعله علماً ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب[٦]، فأجابه خلق كثير، لما كانوا فيه من البلاء وفنون الجور. فاستفحل[٧] أمره وقوى، وتفأل الفرس بذلك العلم، وعظّموا أمره، وزادوه ورصّعوه بعد ذلك بالجوهر، حتى جعله ملوك العجم علمهم الأكبر الذى يتبرّكون به، وسمّوه «درَفْشِ كابيان». فكانوا لا يسيّرونه إلّا فى الأمور العظام.

ولما استعلى كابى الإصبهانى، وأشرف على بيوراسب، هرب [13] عن منازله. واجتمع أشراف الناس على كابى، وناظروه فى الملك. فقال لهم كابى: إنّه لا يتعرّض للملك، لأنه ليس من أهله. وأمرهم أن يملّكوا بعض وُلد جمّ. وكان أفريذون[٨] بن أثفيان[٩] مستخفياً من الضحّاك فى بعض النواحى، فوافى هو ومن معه إلى كابى، فاستبشر الناس به، لأنّه كان مرشّحاً للملك. فصار كابى أحد أعوان أفريذون حتى احتوى[١٠] على منازل بيوراسب[١١]، وحتى تبعه وأسره

١. كذا فى الطبرى (١ : ٢٠٧)، وابن الأثير (١ : ٧٥)، الثعالبى (ص ٣٤). فى الفارسية الحديثة: كاوه. بالفهلوية: Kavagh (حب).

٢. مط: من أبناء العامة.

٣. فى الأصل: بأطرافها، والتصحيح من مط.

٤. الجراب: الوعاء، أو: المزود من إهاب الشاء.

٥. النطع: بساط من الأدم أى من الجلود المدبوغة.

٦. مط: هوراسب.

٧. استفحل أمره: تفاقم واشتدّ.

٨. فى سائر الأصول: أفريدون، أفريذون، فى بندهش: Fréton . بالأفستائيّة: Thraetaon . فى فيدا: Traitana (يد ١ : ١٨٨).

٩. مط: ايقبان. فى سائر الأصول: أثقابان، أثقيان، أثقيال (حب). يد: آسپيان (١ : ١٨٨) بالأفستائية: Atawya . فى فيدا Aptya (حص: ٤٦٥، يد ١ : ١٩٩). بالفهلوية Asfian, Asvián (ف) Asviyán, Asfiyán (وب: ٣١). بالفارسية الحديثة: آتبين، ثم آبتين.

١٠. احتوى الشيء، وعليه: حواه: استولى عليه وملكه.

١١. مط: هوراسب.

بدُنْباوَنْد[١]، فقتله.

ولم يُسمع من أمور الضحّاك بشيء يستحسن، ولا نُقل من أخباره ما يكتب غير شيء واحد. وهو أنّ بليّته[٢] لما اشتدّت، وطالت أيّامه وتراسل وجوه الناس في أمره، وأجمعوا على المصير إليه من البلدان، وافى بابه العظماء والوجوه من النواحي والأقطار، وتناظروا في الدخول عليه والتأتّي له[٣] واستعطافه، وأجمعوا على تقديم كابي الإصبهاني، وذلك لما رأوا من تحرّقه على ولديه، [14] وجرأته على الكلام. فلما اجتمعوا ببابه أُعلم بمكانهم، فأذن لهم، فدخلوا يقدمهم كابي. فمثل بين يديه، وأمسك عن السلام.

ثم قال:

ـ «أسلّم عليك سلام من يملك الأقاليم كلّها، أم سلام من يملك هذا الإقليم؟»

فقال: «بل سلّم سلام من يملك الأقاليم كلّها، فإنّي ربُّ الأرض.»

فقال له كابي: «فإن كنت مالك الأقاليم كلّها، فما بالك خصصت بتحاملك ومؤنك[٤] وإساءتك ناحية كذا؟ وهلّا قسمت أمر كذا بين الأقاليم؟»

ثم عدّد أشياء، وجرّد له الصّدق، حتى انخزل[٥] له الضحّاك وأقرّ، ووعد الناس بما يحبّون، وأمرهم بالانصراف ليتّدِعوا[٦]، ثم يعودوا إليه ليقضي حاجاتهم.

وكانت له أم فاحشة بذيئة[٧] جبّارة، وكانت تسمع كلامهم لمّا دخلوا عليه، فاغتاظت منهم وأنكرت إقراره للقوم. فكلّمت بيوراسب[٨] منكرة عليه وقالت:

ـ «هلّا دمّرت عليهم وأمرت بهم؟»

---

١. دنباوند، دمباوند، دباوند، دماوند: كورة من كور الريّ. جبل عال جداً، مستدير قرب الريّ. سجن أفريذون بيوراسب في رأسه (مع).

٢. مط: نكبته.

٣. تأتّى للأمر: ترفّق وأتاه من وجهه.

٤. المؤن: جمع مفرده: مؤنه: الشدّة والثقل.

٥. انخزل: انقطع. وفي مط: «تحرك» بدل «انخزل».

٦. ليتّدعوا: لا توجد في مط. اتّدع: سكن واستقرّ.

٧. بذأ: فحش في قوله.

٨. مط: هوراسب.

فقال لها [15] الضحّاك على عتوّه:

ـ «إنكِ لم تفكّري في أمر، إلّا وقد سُبقتِ إليه. إنّ القوم بدهوني[۱] بالحق. فلما هممت بالسطوة بهم، وقف الحقّ بيني وبينهم، واعترض كالجبل، فحال بيني وبين ما أردت.»

فهذا ما استحسن من فعل الضحّاك وقوله، ولا يعرف له شيء مستحسن غيره.

ثمّ ملك أفريذون

وهو من ولد جمّ. ويقال: إنّه كان التاسع من ولده. فردّ مظالم الناس، وأمر بالإنصاف والإحسان، ونظر إلى ما غصب عليه الضحّاك من الأرضين وغيرها، فردّها كلّها على أهلها، إلّا ما لم يجد له أهلاً، فإنّه وقفه على المساكين ومصالح العامة. وكان موثراً للعلم وأهله، وكان صاحب طبّ ونجوم وفلسفة. وكان له ثلاثة أولاد: سَرْم، وطوج، وإيرَج[۲]. فخشى ألّا يتّفقوا بعده. وأن يبغي بعضهم [16] على بعض. فظنّ أنّه إذا قسم المُلك بينهم أثلاثاً في حياته، بقي الأمر بعده على انتظام وصلاح. فجعل الروم[۳] وناحية المغرب لسرم، والترك والصين

---

۱. بدهه: فجأة، بغتة.

۲. في الطبري: سرم (سلم)، طوج، إيرج (۱: ۲۲۲، ۲۳۰). المسعودي: سلم، اطوج، ايراج = ايران (۱: ۲۴۷). الثعالبي: سلم، توز ايرج (ص ۱۴). حمزة: سلم، طوج، ايرج (ص ۲۵). البيروني: سلم (شرم)، طوج (توژ)، إيرج (ص ۱۰۴). شا: سلم، تور، ايرج (۱: ۷۹). تور = تورج (بق) = توژ (لد) = توج (اليعقوبي ۲: ۱۲۴) = طوس (الدينوري ۱: ۹). في الفهلوية: Tutch, (Turch) Sarm, Eretch. بالافستائية: Sairimyana أي: بلاد سرم، أي: الروم. و Tuiryana أي: بلاد الترك. و: Airyana أي: بلاد الإيرانيين (حص: ۴۶۹ ـ ۴۷۴، يد ۱: ۱۹۴، يد ۲: ۵۲).

۳. لقد ذكر انقسام ملك فريدون بين أبنائه الثلاثة في «چهردادنَسك» الذي هو من الأنساك المفقودة لأفستا، وهذا ما نفهمه من «دينكرد» الفصل الثالث الفقرتين التاسعة والعاشرة. وفي «فَرْوَرْدين يَشت» ذكرت خمسة أقوام، فأضيف على الثلاثة المذكورة قومان وهما: «سائي‌ني» و «داهي». وقد أخذت الفرس هذه القصة من الهندوأوروبيين ولا يمكن إرجاع تاريخها إلى أبعد من عصر الأشكانيين الذين ←

لطوج، والعراق والهند لإيرج وهو صاحب التاج والسرير. فلمّا مات أفـريذون، وثب طوج وسرم بايرج، فقتلاه، وملكا الأرض بينهما.

وأفريذون أوّل من تسمّى بـ «كى[١]». فكان يقال له: كى أفـريذون[٢]، وهـى كلمة تعنى التنزيه، أى: روحانى، أى: هو منزّه متصل بالروحانية.[٣] وكان جسيماً وسيماً حسن البهاء، محرباً[٤] عظيم القوة.

ويقال: إنّ بيوراسب[٥] قال له لمّا ظفر به:

ـ «لا تقتلنى بجدّك جمّ.»

فقال له أفريذون منكراً لقوله:

«لقد سمت بك نفسك وهمّتك، وعظمت فى نفسـك، حين قدرتها لهذا. جدّى كان أعظم [17] قدراً من أن يكون مثلك كفؤاً له فى القوَد[٦]، ولكنى أقتلك بثور كان فى دار جدّى.»

وأفريذون أوّل من عُرف ذلّل[٧] الفيلة، وقاتل بها الأعداء. ثم قسم الأرض كما ذكرنا بين أولاده. ولأجل ما صار بين أولاده من العداوة، بقيت الذحول[٨] بين

→

ماكانوا يعرفون القومين Tura و Sairima اللذين ذكرا فى «فروردين يَشت»، ولكنهم كـانوا يـطلقون الإسمين على أعدائهم القاطنين في الشمال وشرقيّ الشمال والمغرب من بلادهم. فـأطلقوا Sairima على اليونان، والروم، واللآن. كما أطلقوا Tura على أقوام، عاشوا في شرقي الشمالي أى قبائل «تخار». و«خيون»، ثم على الهياطلة، وأخيراً على قبائل الترك (حص: ٤٦٩ ـ ٤٧٤).

١. بالأفستائية: Kavi. بالفهلوية: Kay أي: المَلِك (فم) وبمعنى العزيز، والقهار، والجبّار (لد).

٢. مط: أفريذون.

٣. مط: متصل الروحانية.

٤. مط والطبرى: مجرّباً. المحرب: الخبير بالحرب، الشجاع.

٥. مط: هوراسب.

٦. القود: القصاص.

٧. مط: عرف تذليل الفيلة، والأصل هو الأصح نصاً، لأن أسلوب التعبير هذا معهود من مسكويه فى مواطن كثيرة من الكتاب. انظر مثلاً: ص ٥١، ٥٩، ٦١.

٨. الذحول جمع مفرده الذحل: الحقد والثأر.

الترك، وملوك إيرانشهر[١]، والروم، وطلب بعضهم بعضاً بالدماء والترات[٢].

وكان إبراهيم النبي ـ صلى الله عليه ـ في أيام الضحّاك. ولذلك زعم قوم أنّه نمرود وأن نمرود عامل من عمّاله. ولم ينقل من أخباره ـ عليه السلام[٣] ـ شيء من النمط الذي هممنا بايراده في هذا الكتاب، إلّا أشياء حكاها ماني[٤]، وهي بعيدة من الحقّ، فلذلك لم أوردها، ولم أتعرّض لذكرها.

منوشهر

فكان من سوء عاقبة وثوب طوج وسرم بإيرج وقتلهما إيّاه، أن نشأ ابن لإيرج بن أفريذون[٥] يقال له: منوشهر [18] حقد على طوج، فدبّر عليه، إلى أن قاومه، وتغلّب على ملك أبيه إيرج، ثم نشأ ولد لطوج التركي، فنفى منوشهر[٦] عن بلاده. وكانت بينهما حروب لم ينقل منها شيء يستفاد منه تجربة. ثم[٧]

---

١. ايران = ايراج. شهر: المُلك (المسعودي ١: ٢٤٨). بالفهلوية: Érân Shatr أي: أرض ايران كما كان يستعمل في العصر الساساني (فم).

٢. مط: التراب، والترات جمع مفرده التِّرة: الظلم في الذحل عامة؛ الجناية على الغير من قتل ونهب وسبي.

٣. في مط: بدون «عليه السلام».

٤. ماني: بالأفستائية: Namânya. بالفهلوية: Mânik أي: المنسوب إلى البيت: (باروچا: ٣١٢). ماني: الفذّ، عديم النظير (بق). ولد عام ٢١٥ م. في مرديتو ببابل (البيروني: ٢٠٨). ويقال: إنّه ولد في همدان، ثم انتقل إلى بابل، وقُتل ٢٧٤ م. وادّعى بأنه فارقليط، ومزج بين الزرادشتية والمسيحية (حب، لد، فم). له من الآثار: ❊ سابورقان (شاپورگان) في المعاد. ❊ كنز الأحياء. ❊ سفر الأسفار. ❊ فراقماطيا (بنگاهيك). ❊ سفر الجبابرة (كوان). ❊ إنجيل زند (إنجيل ماني) مكتوباً بـ ٢٢ حرفاً من حروف الهجاء التي أبدعها، ملحقاً بمجموعة من الصور سميت باللغات الايرانية: أردهنگ، أرثنگ، أرتنگ، أرژنگ، أرجنگ، وباليونانيّة: أيقون، وبالقبطية: أيقونس (لد، حب، فم).

٥. مط: أفريدون.

٦. في سائر الأصول: منوشهر، منوشجهر، منوجهر. مط: منوچهر، بالأفستائية Manush Chithra (يو ١٩١).

٧. ثم: سقطت من مط.

أُديل[١] منه منوشهر، فنفاه عن بلاده، وعاد إلى مُلكه.

وكان منوشهر موصوفاً بالعدل والإحسان. وهو أوّل من عُرف خندق الخنادق وجمع آلة الحروب، وأوّل من وضع الدّهقنة، فجعل لكل قرية دهقاناً،[٢] وجعل أهلها عبيداً وخولاً[٣]، وألبسهم لباس المذلّة، وأمرهم بطاعته. ولما قوى سار نحو التُّرك وطالب دم جدّه إيرج بن أفريذون، فقتل طوج بن أفريذون وأخاه سرماً، وأدرك ثأره وانصرف.

ثم نشأ فراسياب[٤] بن تُرك الذي ينسب إليه الترك من ولد طوج بن أفريذون، فحارب [19] منوشهر، وحاصره بطبرستان. ثم إن منوشهر وفراسياب اصطلحا، وضربا بينهما حدّاً لا يجاوزه واحد منهما، وهو نهر بلخ ـ والفرس تحكي في ذلك حكايات[٥] لا فائدة في إيرادها ـ فانقطعت الحرب بين فراسياب ومنوشهر.

---

١. قال الحجاج: يوشك أن تدال الأرض منّا، أي: يجعل لها الكرة والدولة علينا، فتأكل لحومنا كما أكلنا ثمارها، وتشرب دماءنا كما شربنا مياهها (لع).

٢. بالفهلوية: dehikán : مالك الأرض ورئيس القرية (حب، فم).

٣. الخَول: عطية الله من النعم، والعبيد، والإماء، والأتباع، والحشم.

٤. مط: أفراسياب. في سائر الأصول: فراسيات، فراسياب، أفراسياب (الطبري ١ : ٤٣٤، ٥٢٨، البيروني: ١٩٤، ٢٢٢، حمزة: ٢٠، المسعودي ١ : ٢٤٩)، بالفهلوية: Frásyák (برتلمه: ٩٨٦).

٥. منها أسطورة آرش شواتير المسمى في الأفستا بـ: Eroxsha Xshwivi-isu أي: آرش الصلب القوس، أو: صاحب السهم السريع (اليشت ٨، الفقرات ٦ ـ ٨). بالفهولية: Erexsha Shepák-Tir (حص: ٥٨٨ لد، حب). ورد اسمه في المصادر كما يلي: إيرش، ارششياطير، ارشسياطير (الطبري ٢ : ٤٣٥)، ارش (الثعالبي: ١٠٧، البيروني: ٢٢٠)، ارسناس (الدينوري ص ١١)، ايرشي (ابن الأثير ١ : ١٦٦).

جاء في الأفستا: «نحمد تيشتريا Tishtrya النجمة الساطعة الرائعة التي تسير إلى بحر فورُوكَشَ: Vouru Kasha [بالفهلوية: فراخ كرت] بسرعة ينطلق بها سهم إرخشّ Erexsha الصلب القوس، ذلك الآريّ الذي كان أصلب الآريّين قوساً، ورمى من جبل خشوثَ Xshutha إلى جبل خَفَنْفَنْت Xvanvant، ومسّته نفحة من أهورا مزدا، وشقّ له الماء والكلأ والشمس صاحبة السهول الفسيحة، منهجاً عريضاً.» والمراد بجبل خشوثَ: جبال «البرز» وبجبل خَفَنْفَنْت: أحد جبال منطقة جيحون (حص: ٥٨٩، ٥٩٠، زند أوستا ٢ : ٤١٦).

←

خطبة منوشهر

فمما حكي ونقل من تدابير منوشهر أنّه لما مضى من مُلكه نحو ثلاثين سنة، تناولت الأتراك أطراف أعماله. فجمع قومه، ووبّخهم، ثم خطب عليهم، وهذه أوّل خطبة[١] عرفناها، ونقلت إلينا. قال:

«أيها الناس: إنّكم لم تلدوا الناس كلّهم. وإنّما الناس ناس ماحفظوا أنفسهم[٢]، ودفعوا العدوّ عنهم. وقد نالت الترك منكم[٣]، ومن

←

وأمّا أبوريحان البيروني فيروي الأسطورة بقوله: «زعموا أنّ أفراسياب لما تغلّب على ايرانشهر، وحاصر منوشجهر بطبرستان، طلب منه أمراً، فأنعم به عليه، على أن يردّ إليه من ايرانشهر رمية نشّابة في مثلها. فحضر ملك من الملائكة اسمه إسفندارمُذ، وأمر أن يتخذ قوساً ونشابةً، على مقدار مقلّه لصانعها على ما بيّن في كتاب الأبستا [= الأفستا، الابستاق، بالفهلوية: Avistak ، Apistak ، بالفارسية الحديثة: أوستا (بالواو الفارسية)]، وأحضر أرش، وكان شريفاً ديّناً حكيماً، وأمر بأخذ القوس ورمي النشّابة. فقام، وتعرّى وقال: أيها الملك، وأيها الناس! أبصروا بدني، فإنّي بريء من كل جراحة وعلة، وإنّي موقن بأنّي إذا رميت بهذه القوس والسهم، تقطّعت قطعاً وتلفت نفسي وقد جعلتها فداءاً لكم. ثم تجرّد، ومدّ القوس بما أعطاه الله من القوة، فرمى بها، وتقطّع قطعاً. وأمر الله الريح حتى اختطفت النشابة من جبل الرويان، وبلغ بها إلى أقصى خراسان بين فرغانة وطبرستان، فأصابت أصل شجرة من شجرة الجوز كبيرة، لم يكن لها في الدنيا شبه من الأشجار كبراً. ويقال: إنّ من موضع الرمية إلى موقع النشّابة ألف فرسخ. فاصطلحا على تلك الرمية، وكانت في هذا اليوم: التيركان. فاتخذه الناس عيداً...» (البيروني: ٢٢٠).

إنّ منطلق السهم كما جاء في الأفستا والمصادر الإسلامية هو أحد هذه الأمكنة: خشوثَ، قمّة دماوند، آمُل، ساري، جرجان، رويان، طبرستان. وموقعه: خَفَنْقَنْت، ساحل جيحون، مرو، نهر بلخ (= جيحون = آمودريا).

١. هذه الخطبة تجدها كاملة عند الطبري أيضاً (١ : ٤٣٧)، كما تجد ملخّصها بنسبة أقل من النصف عند ابن الأثير (١ : ١٦٦). وقد قارنّا في تحقيق نصها بين الأصل ومط والطبري.

٢. أول الخطبة في مط: أيها الناس بئس ماحفظوا أنفسهم. وفي الطبري: ... ماعقلوا من أنفسهم.

أطرافكم، وليس ذلك إلّا من ترككم جهاد عدوّكم، وقلّة المبالاة، وإن الله تعالى أعطانا هذا المُلك ليبلونا: أنشكر فيزيدنا[٤]، أم نكفر فيعاقبنا؟ ونحن أهل بيت خير[٥]، ومعدن [20] المُلك[٦]. فاذا كان غداً، فاحضروا.»

فاعتذر الناس، وواعدوه الحضور. فلمّا كان من غد، أرسل إلى أهل بيت المملكة وأشرافهم، وإلى الأساورة[٧] وكبارهم، فدعاهم، وأذن للرؤساء من الناس ودعا «موبَذان موبَذ[٨]»، وأقعده على كرسي مقابل سريره، ثم قام على سريره خطيباً. فقام أشراف الناس، وأهل بيت المملكة والأساورة، فقال: إجلسوا. فإنّي إنّما قمت لأسمعكم. فجلسوا، فقال:

«أيها الناس، إنما الخلق للخالق، والشكر للمنعم، والتسليم للقادر، ولابدّ مما هو كائن، وإنّه لا أضعف من مخلوق، طالباً كان أو مطلوباً، ولا أقوى من خالق، ولا أقدر ممن طلبته[٩] في يده، ولا أعجز ممن هو في يد طالبه.

«ألا وإنّ التفكّر نور، والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة. وقد ورد الأوّل، ولابدّ للآخر من اللحوق[١٠] بالأوّل، وقد مضت قبلنا [21]

---

٣. منكم: غير موجودة في الطبري.

٤. مط: فنزيد.

٥. في الطبري: عزّ.

٦. في الطبري: الملك لله.

٧. الأساورة: جمع مفرده الإسوار: الرامي، وقيل: الفارس (المعرّب)، القائد (لد)، الحر، العظيم (فاب ١: ٢٢٣). بالأفستائية: asbâray ركوب الفرس، بالفارسية القديمة: asa-bâra، بالفهلوية: aspâvar aspabârâk, الأسوار: الراكب مقابل الراجل (حب).

٨. = موبدان موبد: أعلى درجة في رتب رجال الدين الزرداشتي. (فم) بالفهلوية: magupat (= مغ بَد).

٩. الطَّلْبة والطِّلْبة: المطلوب.

١٠. في الطبري: اللحاق.

أصول نحن فروعها، فما بقاء[1] فرع بعد[2] ذهاب أصله، وإنّ الله ـ عزّوجلّ ـ أعطانا هذا المُلك، فله الحمد، ونسأله إلهام الرشد والصدق واليقين.

«ألا وإنّ للملك على أهل مملكة حقّاً، ولأهل مملكته عليه حقّاً[3]. فحقّ الملك على أهل مملكته، أن يطيعوه ويناصحوه ويقاتلوا عدوّه؛ وحقّهم على الملك أن يعطيهم أرزاقهم في أوقاتها، إذ لا معتمد لهم على غيرها، وإنّه تجارتهم[4] وحقّ الرعية على الملك، أن ينظر لهم، ويرفق بهم، ولا يحمّلهم ما لا يطيقون. فإن أصابتهم مصيبة تنقص من ثمارهم، لآفة أو ضرر من السماء، أو الأرض، أن يسقط عنهم خراج ما نقص وإن اجتاحتهم[5] مصيبة، أن يعوّضهم ما يقوّيهم على عمارتهم[6]، ثم يأخذ منهم بعد ذلك على قدر ما لا يجحف بهم في سنة أو سنتين. والجند للمَلِك بمنزلة جناحي [22] الطير[7]، فهم أجنحة الملك، ومتى قصّ من الجناح ريشة، كان ذلك نقصاناً منه، وكذلك الملك، إنّما هو بجناحه وريشه.

«وإن الملك ينبغي له أن يكون فيه ثلاث خلال[8] : أوّلها أن يكون صدوقاً فلا يكذب، وأن يكون سخيّاً فلا يبخل، وأن يملك نفسه عند الغضب، فإنّه مسلّط[9]، ويده مبسوطة، والخراج يأتيه. فينبغي له أن لا يستأثر[10] عن جنده ورعيته، بما هم أهل له، وأن

---

١. في الطبري: بقي.
٢. مط: مع ذهاب.
٣. سقطت من مط: «حقاً، ولأهل مملكته حقاً. فحقّ الملك على أهل مملكته».
٤. في الأصل ومط: وإنّه تجارتهم. في الطبري: وإنّها تجارتهم. ابن الأثير: إنّه خازنهم.
٥. اجتاحتهم مصيبة أو جائحة: أهلكت مالهم.
٦. في الطبري: عماراتهم.
٧. كذا في الأصل ومط. وفي الطبري: الطائر.
٨. الخلال: جمع الخلّة: الخصلة، الخُلق.
٩. مط: سلط.
١٠. استأثر بالشيء: خصّ به نفسه.

يكثر العفو. فإنّه لا مُلك أبقى من مُلك فيه العفو[١]، ولا أهلك من ملك فيه العقوبة. وإن المرء لأن[٢] يخطئ في العفو، خير له من أن يخطئ في العقوبة. فينبغي له أن يتثبّت[٣] في الأمر الذي فيه قتل النفس وبوارها. وإذا رُفع إليه من عامل من عماله ما يستوجب به العقوبة، فلا ينبغي له أن يحابيه[٤]، وليجمع بينه وبين المتظلّم، فإن صحّ عليه [23] للمظلوم حقّ خرج إليه منه، وإن عجز عنه أدّى[٥] الملك عنه[٦]، وردّه إلى موضعه، وأخذه بإصلاح ما أفسد. فهذا لكم علينا. ألا ومن سفك دماً بغير حقّ، أو قطع يداً بغير حقّ، فإنّي لا أعفو عن ذلك إلّا أن يعفو عنه صاحبه. فخذوا هذا عنّي.

«ألا وإنّ التُرك قد طمعت فيكم فاكفونا[٧]، فإنّما تكفون أنفسكم. وقد أمرت لكم بالسلاح والعدّة وأنا شريككم في الرأي. وإنّما لي من هذا المُلك اسمه مع الطاعة منكم. ألا وإنّ الملك ملك إذا أُطيع، فاذا خولف، فذلك مملوك وليس بملك. ومهما[٨] بلغنا من الخلاف، فإنّا لا نقبله من المُبلغ، حتى نتيقّنه. فإذا صحّت معرفة ذلك، أنزلناه[٩] منزلة المخالف.

«ألا وإنّ أكمل الأداة عند المصيبات، الأخذ بالصبر، والراحة إلى اليقين. فمن قُتل في مجاهدة العدو، رجوت له الفوز برضوان الله. وأفضل الأمور التسليم [24] لأمر الله، والراحة إلى اليقين، والرضا

١. العفو... العقوبة: سقطت من مط.

٢. كذا في مط. في الطبري: أن يخطئ.

٣. تثبت في الأمر والرأي: تأنّى فيه ولم يعجل.

٤. حاباه محاباة: اختصه ومال إليه.

٥. مط: أذى!

٦. مط: عند.

٧. في الأصل: «فاكفوها» والتصحيح من الطبري.

٨. مط: مما.

٩. في الطبري: وإلّا أنزلناه.

بقضائه. أين المهرب مما هو كائن، وإنّما نتقلّب[١] فى كفّ الطالب. وإنّما هذه الدنيا سفر، أهلها لا يحلّون عقد الرحال إلّا فى غيرها[٢]. إنّما بُلغتهم فيها بالعوارى[٣]. فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم لمن قضاء الحق[٤]، ومن أحقّ بالتسليم لمن فوقه ممن لايجد مهرباً إلّا إليه [ولا معوّلاً إلّا عليه][٥]. فثقوا[٦] بالغلبة إذا كانت نيّاتكم أنّ النصر من عند الله. وكونوا على ثقة من درك[٧] الطلبة إذا صحّت نيّاتكم. واعلموا أنّ هذا الأمر لايقوم إلّا[٨] بالاستقامة، وحسن الطاعة، وقمع العدوّ، وسدّ الثغور، والعدل للرعيّة، وإنصاف المظلوم. فشفاؤكم عندكم، والدواء الذى لا داء فيه الاستقامة والأمر بالخير والنهى عن الشرّ، ولاقوّة إلّا بالله.

«أنظروا للرعية، فإنّها مطعمكم ومشربكم، ومتى عدلتم فيهم، رغبوا فى العمارة، فزاد ذلك فى خراجكم، وتبيّن فى زيادة أرزاقكم. وإذا [25] حفتم[٩] على الرعيّة زهدوا فى العمارة وعطّلوا أكثر الأرض، فنقص ذلك من خراجكم، وتبيّن فى نقص أرزاقكم. فتعاهدوا الرعيّة بالإنصاف. وما كان من الأنهار، والبثوق[١٠]، مما نفقته على السلطان، فأسرعوا فيه قبل أن يكبر[١١]. وما كان من ذلك على الرعيّة، فعجزوا عنه. فأقرضوهم من بيت مال الخراج،

---

١. فى الطبرى: يتقلّب.
٢. مط: فى غير بناء.
٣. جمع العارية.
٤. مط: لمن قضاء الحق. فى الطبرى: لمن القضاء له.
٥. زيادة من مط والطبرى.
٦. مط: فتقوّوا.
٧. الدرك: اسم مصدر من الإدراك: الوصول، والبلوغ.
٨. لا: غير موجودة فى مط.
٩. حاف عليه: جار وظلم. وفى مط: جنفتم.
١٠. البثوق: جمع البثق: موضع انبثاق الماء.
١١. الطبرى: يكثر.

فاذا جاءت[١] أوقات خراجهم[٢]، فخذوا من خراج غلّاتهم على قدر ما لا يُجحف بهم. ذلك ربع في كل سنة، أو ثلث، أو نصف، لكيلا يتبيّن[٣] عليهم.

هذا قولي وأمري. يا موبذ موبذان، إلزم هذا القول، وجدّ[٤] في الذي سمعت في يومك. أسمعتم أيّها الناس؟»

قالوا: «نعم.»

وأثنوا عليه، ودعوا له، ثم أمر بالطعام. فوضع، وأكلوا وشربوا، وخرجوا وهم له شاكرون. ثم كان من أمره ما كان مما ذكرناه.

منوشهر والرايش بن قيس

وفي أيّامه غزا الرايش بن قيس بن صيفي بن يشجب بن يعرب بن قحطان [26] من ملوك[٥] اليمن. وكان اسم الرايش الحارث. غزا الهند، فغنم غنائم عظيمة، فأنفذ رجلاً من أصحابه يعرف بشمر بن العطّاف، فدخل الترك من أرض آذربيجان، وهي يومئذٍ في أيديهم، فقتل وسبي وغنم.

وغزا بعده ذومنار بن الرايش بعد أبيه، وانّما سمّي ذامنار لأنّه غزا بلاد المغرب، فوغل فيها برّاً وبحراً، وخاف على جيشه الهلاك عند قفوله[٦]، فبنى المنار ليهتدوا بها. ثم وجّه ابنه إلى أقاصي المغرب، فغنم، وأصاب مالاً، وقدم عليه بسبيٍ لهم خلقة منكرة، فذعر الناس منهم، فسمّوه ذا الأذعار.

---

١. في الطبري: حان.

٢. في مط: اخراجهم.

٣. في مط: يتبيّن ذلك عليهم.

٤. كذا في مط: جدّ. في الطبري: خذ.

٥. ملوك اليمن... بشمر: سقطت من مط.

٦. القفول: الرجوع.

وإنّما ذكرتهم في هذا الموضع، لاتصال ذلك بذكر[١] منوشهر، وأنّ الفرس تدّعي أنّ ملوك اليمن كانت عمّالاً لملوك الفرس بها، وأنّ الرايش كان من قِبَل منوشهر يغزو التُرك وغيرهم. والعرب تنكر ذلك، وتزعم أن ملكهم لم يكن قطّ من قِبَل أحد، وإنّما كانوا برؤوسهم.

ظهور موسى في أيّام منوشهر

وفي أيّام منوشهر [27] ظهر موسى ـ صلّى الله عليه ـ ويقال: إنّ عمره ـ عليه السلام ـ كان مائة وعشرين سنة، منها في أيام أفريذون عشرون سنة، وفي أيام منوشهر مائة سنة. وكان من حديث موسى مع فرعون وما أنزل من الآيات على يده، ماهو مشهور. وقد اعتذرنا من ذكر هذه الأخبار وتركها.

ثم كان من حديث التّيه[٢] ما كان، إلى أن أخرج بني اسرائيل منه يوشع بن نون بعد موت موسى، وغزا الكنعانيين، ونفاهم إلى السواحل، وافتتح مدينة الجبّارين. فيقال إنّ إفريقس بن قيس بن صيفي بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان مرّ بهم متوجهاً إلى إفريقية[٣]، فاحتملهم من سواحل الشام، حتى أتى بهم إفريقية، فافتتحها، وقتل مَلِكها جرجيراً[٤]، وأسكنها البقية التي كانت بقيت من الكنعانيين الذين كان احتملهم من سواحل الشام، فهم البرابرة. وإنّما سمّوا بذلك لأنّ إفريقس [28] قال لهم: «ما أكثر بربرتكم!» فسمّوا بذلك «بربراً»[٥].

وكان إفريقس هذا عاملاً لمنوشهر على ماتزعم الفرس. وكان تدبير يوشع أمر

---

١. مط: بذكر.

٢. التيه: حيث تاه بنو إسرائيل، أي حاروا، ولم يهتدوا للخروج منه.

٣. مط: فريقيّه.

٤. مط: جرجيز. وفي الطبري: جرجير.

٥. بربر: ثرثر، فهو بربار، أي: ثرثار. وفي لغة الإغريق والرومان: barbares الأجنبي (حب).

بني اسرائيل، من لدن مات موسى إلى أن توفّي يوشع في زمان منوشهر، عشرين سنة، وفي زمان فراسياب سبع سنين. ولمّا هلك منوشهر، تغلّب فراسياب على مملكة فارس، وطلب بالذحول. وصار إلى أرض بابل وأقام بمهرجاقذق[١]، وأكثر الفساد، وخرّب ما كان عامراً، ودفن الأنهار والقُنيّ، فقحط الناس في سنة خمس من مُلكه، إلى أن أُخرج، ورُدّ إلى بلاد التُرك. فغارت[٢] المياه في تلك السنين، وحالت[٣] الأشجار المثمرة.

زوّ بن طهماسب

ولم يزل الناس في أعظم بليّة إلى أن ظهر زوّ[٤] بن طهماسب، ويقول بعضهم: زاغ، وبعضهم: زاب، وبعضهم: زاسب، وهو من أولاد منوشهر، وبينه وبينه عدّة آباء.

فلما ظهر زوّ طرد فراسياب عن مملكة فارس، حتى ردّه إلى الترك بعد حروب [29][٥] كثيرة جرت بينهما لم يذكر لنا منها ما نستفيد منه تجربة. وكانت غلبة فراسياب على إقليم بابل اثنتى عشرة سنة من لدن توفّي منوشهر إلى أن طرده زوّبن طهماسب، إلى تركستان.

ثم ابتدأ زوّ في عمارة ما خرّبه فراسياب. فأمر ببناء ماهدم من الحصون وإعادة ما طمّر[٦] وعوّر[٧] من الأنهار والقُنيّ وكرى[٨] ما كان اندفن من المياه

١. مهرجاقذق، مهرجانقذق: معرّب من «مهرگان كذه (=كذك). بالفهلوية: Mitragan-Katak أي: بيت ميترا (حب). ولاية محيطة على صيمرة (لج: ٢١٨) وصيمرة بلدة بين ديار الجبال وديار خوزستان (يا).

٢. غار الماء: ذهب في الأرض وسفل فيها.

٣. حالت النخلة: حملت عاماً ولم تحمل آخر.

٤. بالأفستائية: Uzava ابن Tumáspa (يد ٢ : ٤٦). بالفهلوية: Ozav, Uzav (ف).

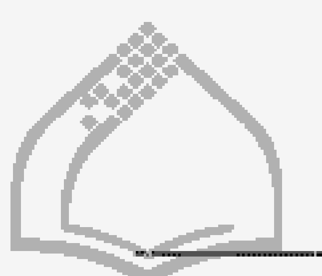
٥. في الأصل (مصورة ليدن): حصل تقديم وتأخير بين صفحتي 29 و 30.

٦. طمّره: بالغ في طمره، أي دفنه.

٧. مط: غور. عوّر عيون المياه: دفنها وسدّها.

٨. كرى النهر: حفر فيه حفرة جديدة.

حتى عاد جميع ذلك إلى أحسن ما كان، ووضع عن الناس الخراج سبع سنين. فعمرت البلاد في أيّامه، وكثرت المياه، ودرّت معائش الناس، واستخرج بالسواد[١] نهراً، وسمّاه: الزاب، وبنى على حافتيه[٢] مدينة، وهي التي تسمى: المدينة العتيقة، وكوّرها كورة[٣]، وجعلها ثلاث طساسيج[٤] : الزاب الأعلى، والزاب الأوسط، والزاب الأسفل، ونقل إليها بذور الرياحين وأصول الأشجار من الجبال. وزوّ هذا أوّل من عُرف [30] اتّخذ[٥] ألوان الطبيخ، وأصناف الأطعمة، وأعطى جنوده مما غنم بالخيل[٦]، ومما أوجف عليه من أموال الترك، وكان وزيره «كرساسف» من أولاد طوج بن أفريذون. وقد حكى أنّ زوّاً وكرساسف[٧]، اشتركا في المُلك. والصحيح من أمره أنّه كان وزيراً لزوّ ومعيناً له. فكان جميع ملك زوّ ثلاث سنين.



١. السواد: رُستاق من رساتيق العراق، وحدّ السواد على قول أبي عبيد: من حديثة الموصل طولاً إلى عبّادان، ومن عذيب القادسية إلى حلوان عرضاً، فيكون طوله مائة وستين فرسخاً (يا).

٢. مط: حافته.

٣. الكورة: لفظ فارسي معرّب، وأصله: «خوره» (= خُره): الناحية. البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال (قم، مو).

٤. طساسيج: جمع مفرده: طسّوج، أى المحلة والناحية، وطسّوج تعريب لـ«تسو». وأصله في الفهلوية: Tasuk (يد ٢ : ٣٣٠).

٥. مط: «أوّل من عرف اتخاذ». أسلوب للكتابة عند مسكويه تجده في مواطن كثيرة من الكتاب، انظر مثلاً: ص ٥١، ٥٩، ٦١.

٦. مط: الجبل.

٧. مط: كركاسب. بالأفستائية keresaspa ، بالفهلوية: Karshasp (حب).

الكييّة ومن عاصرهم

كيقباذ بن زوّ

ثم ملك بعده كيقباذ بن زوّ، وسلك سبيل أبيه. فكوّر الكور، وبيّن حدودها وحريمها، وأمر الناس بالعمارات، وأخذ العُشر من الغلّات لأرزاق الجند. وكان حريصاً على العمارة، ومانعاً لحوزته. والملوك الكييّة من نسله. وجرت بينه وبين الترك حروب كثيرة. وكان مقيماً في الحدّ الذى بين مملكة الفرس والترك بناحية بلخ، يمنع الترك من تطرّف[1] شيء من حدود فارس. فجميع هذه العداوات والحروب سببها سوء نظر من قسم المُلك بين أولاده، ثم وثوب من وثب من الإخوة [31] بأخيه، واستمرار الشحناء بعد ذلك والعداوات.

وأما القيّم بأمر بنى إسرائيل بعد يوشع، فكان كالب بن توفيل[2]، ثم حزقيل الذى يقال له: ابن العجوز ـ وكانت لهما أخبار مشهورة تركنا ذكرها لأنها معجزات لا تستفاد منها تجربة[3] ـ وحزقيل هو صاحب القوم «الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف حذر الموت، فقال لهم الله: موتوا، ثم أحياهم»[4] لأنهم ودّوا لو ماتوا فاستراحوا من بلاء كان أصابهم: إمّا طاعون، أو ما أشبهه، فخرجوا

---

١. مط والطبرى: تطرّق: ابتغى إليه طريقاً. تطرّف الشيء: أخذ من أطرافه.

٢. مط: يوفنا.

٣. أنظر الطبرى ٢ : ٥٣٥.

٤. س ٢ البقرة: ٢٤٣.

فراراً من ذلك.

ثم إلياس، ثم اليسع، ثم إيلاف. وفي خلال هؤلاء، كان يتملّك عليهم قوم من الكنعانيين وغيرهم، فيسومونهم البلايا والعظائم، وليس في ذكرهم فائدة. إلى أن جاءهم شمويل النبيّ. وكان من خبره مع جالوت وطالوت ما ذكره الله تعالى. وملك داود[١] لما كان منه من مبارزة جالوت. والخبر [32] مشهور مقرون بمعجزة الأنبياء. ثم ملك سليمان، وأخباره ومعجزاته مذكورة.

كيقابوس وما جرى على ابنه سياوخش

ثم ملك بعد كيقباذ، كيقابوس[٢] بن كيبنة[٣] بن كيقباذ الملك. فشدّد على أعدائه وقتل خلقاً من عظماء البلاد، ممن كان ينكر أمرهم وسكن بلخ. وولد له ابن لم ير مثله في عصره جمالاً وتمام خلقة، وسمّاه سياوخش،[٤] وضمّه إلى رُستَم[٥] الشديد بن دستان من ولد كرساسف الذي ذكرناه قبلُ، وكان إصبهبذ سجستان وما يليه من قبله، وأمره بتربيته وأوصاه به. فأخذه رستم، ومضى به إلى سجستان وتخيّر له الحواضن والمرضعات، حتى أدرك[٦]. فجمع له المعلّمين، وأدّبه، ثم علّمه الفروسة[٧]، حتى فاق فيها، وقدم على والده رجلاً كاملاً،

١. سقط من مط: داود.

٢. البيروني ص ١٠٧ وحمزة ص ٣٠: كيكاوس. بالفهلوية: Kai Kāyūs (ف). في الأفستا: Kaviusan الملك الثاني من الأسرة الكيية.

٣. مط: كيبه. في الطبري وحواشيه: كسه (مهملة)، كتيبه!، كيبه، كيبيه، وتصحيفات أخرى (٢ : ٥٩٧). أصله حسب الروايات الايرانية القديمة: أئي پيفَنگهو Aipivanghu (فم ٦: ١٦٤١ «كيكاوس»)، والشبه ظاهر بين الأصل وصورة التعريب خاصة إذا أدخلنا عليه: Kavi.

٤. بالأفستائية: Syavarshan. بالفهلوية: Siavaxsh (ف).

٥. بالأفستائية: Rosataxm (-tahm). بالفهلوية: Rostahm.

٦. أدرك الصبيّ: بلغ الحلم.

٧. مط: الفروسية.

فامتحنه كيقابوس والده، فوجده كاملاً نافذاً[١] بارعاً.

وكان لكيقابوس زوجة بارعة الجمال، يقال: إنّها بنت [33] فراسياب ملك الترك، ويقال: إنّها بنت ملك اليمن. فهويت سياوخش، وهويها. والفرس تحكي أموراً طويلة، وتزعم أنّها كانت ساحرة، وأنّها سحرته، إلّا أن آخر أمرها آل إلى أن عَلِمَ كيقابوس بما يجرى بينهما.

فكان من عاقبة ميلهما إلى الهوىٰ، وظنّهما أنّ ذلك ينكتم، أن تغيّر كيقابوس لابنه سياوخش، وأشفق سياوخش على نفسه. فسأل رستم أن يسأل أباه توجيهه لحرب فراسياب. وكان قد تجدّدت وحشة بين كيقابوس وفراسياب. وأراد سياوخش بذلك البُعد من والده، والتنحّي عما تكيده به امرأة أبيه[٢]. ففعل ذلك رستم وخاطب أباه فيه، واستأذن له في جند يضمّهم إليه. فأذن له، وضمّ إليه جنداً كثيفاً وأشخص[٣] سياوخش إلى بلاد الترك. فلما التقى سياوخش وفراسياب، جرى بينهما صلح. وكتب بذلك سياوخش إلى أبيه يُعلمه ما جرى بينه وبين [34] فراسياب.

فكتب إليه أبوه بإنكار ذلك، وأمره بمناهضته ومناجزته الحرب. فرأى سياوخش أنّ في فعله ما كتب به أبوه من محاربة فراسياب ـ بعد الذى جرى بينهما من الصلح والهُدنة، من غير نقض[٤] فراسياب شيئاً من أسباب ذلك ـ عاراً ومنقصة. فامتنع من انفاذ أمر أبيه في ذلك، ورأى أنّه يؤتى في كلّ ذلك من زوجة أبيه[٥]. فمال إلى الهرب من أبيه، فراسل فراسياب في أخذ الأمان لنفسه منه، واللحاق به وفراق والده، فأجابه فراسياب إلى ذلك. وكان السفير بينهما رجلاً من

١. مط: ناقداً.

٢. في الطبرى: كان يقال لها سودابه.

٣. أشخص فلاناً إليه: بعث به إليه.

٤. «الذى... نقض»: سقطت من مط.

٥. الطبرى: من زوجة أبيه التى دعته إلى نفسها، فامتنع عليها (٢: ٥٢٩).

عظماء الترك يقال له: فيران[١]. فلمّا فعل ذلك سياوخش، انصرف عنه من كان[٢] معه من جند أبيه، إلى أبيه. وأكرم فراسياب سياوخش، وزوّجه ابنة له، وهي أمّ كيخسرو، ولم يزل على إكرامه[٣]، إلى أن ظهر له من أدب سياوخش وإربه[٤] وكماله، ونجدته ما أشفق منه، وضرّب[٥] بينهما أخ كان [35] لفراسياب وابنان له حذراً على مُلكهم. وله خبر طويل في ذلك، إلى أن قُتل وامرأة سياوخش ـ وهي ابنة فراسياب ـ حامل منه، بابنه كيخسرو. فطلبوا له الحيلة، لاسقاطها ما[٦] في بطنها، فلم تُسقط.

ثم إن فيران الذي توسّط الصلح بين سياوخش وبين فراسياب، أنكر ما جرى من فعل فراسياب، وحذّره عاقبة الغدر والطلب بالثأر، وأشار عليه أن يدفع ابنته إليه، يعني: زوجة سياوخش، لتكون عنده إلى أن تضع، ثم إن أراد قتْله قتَله[٧]. ففعل فراسياب ذلك. فلما وضعت، امتنع فيران من قتل الولد، وستر أمره حتى بلغ المولود، وهو كيخسرو.

ويحكي: أن كيقابوس بعث بيب[٨] بن جوذرز إلى بلاد الترك، وأمره بالبحث عن أمر المولود الذي لسياوخش، والتأتّي لإخراجه مع أمّه. فـفعل بـيب ذلك، وبقي زماناً طويلاً يبحث عن أمره، إلى أن وقف على خبره. فاحتال [36] فـيه وفي أمّه، حتى أخرجهما من أرض الترك. فاستقبلهما رستم الشـديد فـي جـند عظيم من أولى البأس والنجدة، وطلب الترك أثر كيخسرو، فجرت بـينهم وبـين رستم حروب ظفر فيها رستم.

---

١. بالفارسية: پيران.

٢. «كان... سياوخش»: سقطت من مط.

٣. مط: الكرامة.

٤. الإرب: الدّهاء والفطنة.

٥. ضرّب بين القوم: سعي، أغرى بعضهم ببعض.

٦. في الأصل: وما.

٧. قتله: سقطت من مط.

٨. الطبري: بيّ بن جوذرز. حمزة: ويو بن جوذرز. بالفهلوية: Viv i Gutarzan. شا: گيو (Giv).

فللفرس هاهنا خرافات، وتزعم أنّ الشياطين كانت مسخّرة لكيقابوس. وقوم يزعمون أنّ سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ أمرهم بذلك، في خرافات كثيرة ظاهرة الإحالة، من الصعود إلى السماء، وبناء مدينة كنكرز[1] بأسوار ذهب وفضّة وحديد ونحاس، وأنّها بين السماء والأرض، وأشباه ذلك مما لا فائدة في ذكره.

إلّا أنّ جملة أمره، أنّه تجبّر لما تمّ له أكثر ما كان يقصده. وسار من خراسان حتى نزل بابل، وترك ما كان يسوسه بنفسه، ويباشره برأيه. وأوحش الناس بالحجّاب والتعظّم، وآثر الخلوة. فكان من عاقبة ذلك أن فسد عليه مُلكه، وكثرت الملوك في النواحي، حتى كان يغزوهم بعد ذلك ويغزونه، [37] فيظفر مرّة وينكب أخرى، إلى أن غزا بلاد اليمن والملك يومئذٍ بها ذو الأذعار بن أبرهة بن ذي المنار بن الرايش. فلمّا أظلّه[2] كيقابوس، خرج إليه ذو الأذعار في جموع حمير وولد قحطان، فظفر بكيقابوس، وأسره واستباح عسكره، وحبسه في بئر وأطبق عليها طبقاً.

فخرج من سجستان رستم الشديد في من أطاعه من الناس. وأمّا الفرس فتحكي حكايات لا فائدة فيها عن شدّة رستم وبأسه، وأنّه وغل في البلاد بلاد اليمن، واستخرج كيقابوس من محبسه[3]. وأما اليمن فتزعم أنّه لم يكن من ذلك شيء، وأنّ ذا الأذعار لمّا بلغه إقبال رستم، خرج إليه في جنود عظيمة، وخندق

---

١. مط: كندر. الطبري: كيكدر، قيقدور (٢ : ٦٠٢). الثعالبي. كنك‌دز. التصحيفات والمترافات كما وردت في الأصول هي: كنكرز، كنگ‌دز، گنگ‌دز، گنگ‌دژ، گنگ‌ديز، گندز، بهشت‌گنگ، گنگبهشت، گنگ دژ هوخت (= هخت، هوخ)، دژهوخت: مدينة في الجبال الحدودية الشرقية لإيران القديمة (المصادر الفهلوية)، أو: في ماوراء بحر فراخكرت (بند هش). أو: في أرض الترك (شا)، أو: هي قهندز بخارا (تاريخ بخارا)، أو: مدينة في ماوراء بحر «فوروكش»، أو: هي بيت المقدس (فهرست شا)، أو اسم لقلعة بناها الضحّاك في بابل (بق). انظر أيضاً: حب، لد، كيا: ١٢٣.

٢. أظلّ فلاناً: دنا منه، وأقبل عليه.

٣. مط: من جبسه.

كل واحد منهما على نفسه وعسكره، وأنّهما أشفقا من البوار على جنديهما، وتخوّفا ـ إن تزاحما ـ أن لا يكون لهما بقيّة. فاصطلحا على دفع كيقابوس إلى رستم ووضع [38] الحرب. فانصرف رستم بكيقابوس إلى بابل، فكتب له كيقابوس كتاباً بالعتق، وأقطعه[١] سجستان وزابلستان. وكانت[٢] الكتب يومئذٍ والرسائل يسيرة نزرة الكلام، لا يذكر فيها الأسباب والعلل. ونسخة الكتاب:

«من كيقابوس بن كيقباذ، إلى رستم.

إنّى قد أعتقتك من العبودة، وملّكتك على بلاد سجستان. فلا تقرّنّ لأحد بعبودة. واملك سجستان كما أمرتك، واجلس على سرير من فضّة مموّهة بالذهب. والبس قلنسوة منسوجة بالذهب متوّجة[٣]».

ومما يدلّ على صدق ما حكيناه من أمر كيقابوس، قول الحسن بن هاني:

وقاظَ[٤] قابوس فى سلاسلنا سنين سبعاً وفت[٥] لِحاسبها

ثم ملك كيخسرو[٦] بن سياوخش[٧] بن كيقابوس

فعقد التاج على رأسه، وخطب رعيّته خطبة بليغة، أعلمهم فيها أنّه على الطلب بدم أبيه سياوخش قِبَل فراسياب. ثم كتب إلى [39] جوذرز بإصبهان وكان

---

١. الإقطاع يكون تمليكاً وغير تمليك (لع).
٢. مط: كاتب.
٣. مط: مموهة.
٤. قاظ بالمكان: أقام فيه فى زمن القيظ أى الحرّ.
٥. وفت: تمّت.
٦. بالفهلوية: Kai Husravé (حب).
٧. = سياوش. بالفهلوية: Siávaxsh .

إصفهبذه(١) على خراسان، يأمره بالمصير إليه، وأمره أن يعرض جنده وأن [ينتخب](٢) ثلاثين ألف رجل، وضمّهم إلى طوس،(٣) وكان في من أشخص معه برزافره(٤) عمّ كيخسرو، وابن لجوذرز، وجماعة من إخوته. وتقدّم(٥) كيخسرو إلى طوس أن يكون قصده لفراسياب وطراخنته(٦)، وحذّره من ناحية ببلاد الترك فيها أخ له يقال له: فروذ بن سياوخش، من بعض نساء الأتراك، كان سياوخش تزوّجها أيام صار إلى فراسياب، فولدت له فروذ، وأقام بموضعه إلى أن شبّ.

فكان من غلط طوس أن خالف كيخسرو، وذاك أنّه لمّا صار بالقرب من المدينة التي فيها فروذ، هاجت الحرب، وقُتل فروذ. واتصل خبره بكيخسرو. فكتب إلى برزافره عمّه كتاباً غليظاً يعلمه فيه ماورد عليه من خبر طوس، ومحاربته فروذ، وقتله إيّاه. وأمره بتوجيه طوس إليه مقيّداً مغلولاً. وتقدّم إليه في القيام بالعسكر، [40] والتوجه إليه لوجهه(٧). ففعل برزافره ذلك، وتولّى أمر العسكر، وعبر النهر المعروف بـ«كاسرود»(٨)، وانتهى خبره إلى فراسياب. فوجّه إلى برزافره جماعة من إخوته وطراخنته لمحاربته. فالتقوا وفيهم فيران واخوته. فاقتتلوا قتالاً شديداً، وظهر من برزافره في ذلك اليوم فشل لما اشتدّ الحرب، وكثر القتلى، فهرب وانحاز بالعَلم إلى رؤوس الجبال، واضطرب على ولد جوذرز أمرهم، فقتل منهم في تلك الملحمة، في وقعة واحدة، سبعون رجلاً، وقتل بشر

١. الإصفهبذ: لقب لملوك، جبال طبرستان (البيروني: ١٠٩).

٢. الأصل غير واضح، وما أثبتناه من مط.

٣. قال نولدكه: طوس (= توس)إن كان اسم شخص فأصله: Tus، وإن كان اسم مكان فأصله: Tos. ثم حصل الخلط بينهما في الكتابة، وهذا أدّى إلى وحدة التلفّظ بينهما، فقيل لكليهما: Tus(يد).

٤. شا: فريبرز.

٥. تقدم إلى فلان بكذا: أمره به، أو طلبه منه.

٦. الطراخنة: جمع مفرده طرخان (= ترخان): ملك الترك (لف)، اسم عام لأمراء سمرقند (لد). يقال لملوك سمرقند: طرخون (البيروني ١٠١١).

٧. مط: التوجه لوجهه.

٨. شا: كاسه‌رود. اسم قديم لنهر يسمى: «چرم»، أو: «لاثين» (حب ٥: ٢٥٥).

كثير.

وانصرف برزافره ومن أفلت معه إلى كيخسرو. فرئيت الكآبة في وجهه، وامتنع من الطعام والشراب، إلى أن مضت أيام. ثم راسل جوذرز. ولمّا دخل عليه شكا إليه برزافره، وأعلمه أنّه كان سبب الهزيمة بالعَلَم وخذلانه ولده.

فقال كيخسرو:

ـ «إنّ حقّك لازم لنا لخدمتك أبانا[١]، وهذه جنودنا وخزائننا[٢] مبذولة لك. فاطلب ترتك[٣]، واستعدّ [41] وتهيّأ للتوجّه إلى فراسياب.

فنهض جوذرز، فقبّل يده وقال:

ـ «أيها الملك، نحن رعيّتك وعبيدك. فإن كانت آفة، أو نازلة، فلتكن بالعبيد، دون الملوك. وأولادي المقتولون فداؤك، ونحن من وراء الإنتقام من فراسياب والاشتفاء من الترك.»

وكتب كيخسرو إلى رؤساء أجناده ووجوه عسكره يأمرهم بموافاته في صحراء تعرف بشاه اسطون[٤] من كورة بلخ، في وقت وقّته لهم. فوافت رؤساء الأجناد في ذلك اليوم، وشخص إليه كيخسرو بإصبهبذيه وأصحابهم وفيهم برزافره عمه، وجوذرز وبقية ولده. فتولى كيخسرو بنفسه عرض الجند، حتى عرف مبلغهم، وفهم أحوالهم. ثم دعا بجوذرز وثلاثة نفر معه، فأعلمهم أنه يريد إدخال العساكر على الترك من أربعة وجوه، حتى يحيطوا بهم برّاً وبحراً، وقوّد على تلك العساكر، وجعل أعظمها إلى جوذرز وجماعةً من الإصهبذين [42] كثيرةً. ودفع إليه يومئذ العلم الأكبر الذى يسمونه: درفش كابيان، ولم يكن يدفع قبل ذلك إلى أحد من القواد، وإنّما كانوا يسيّرونه مع أولاد الملوك[٥]، وأمر أحد

---

١. مط: إيانا.

٢. مط: وخزاتننا.

٣. الترة: الثأر.

٤. =شاهستون: كانت ناحية من أعمال بلخ (لد).

٥. وانما... الملوك: سقطت من مط.

القواد[١] بالدخول مما يلي الصين، وضمّ إليه جماعة كبيرة، وأمر آخر بالدخول من ناحية الخزر، وضمّ إلى آخر ثلاثين ألف رجل وأمرهم بالدخول من طريق بين[٢] جوذرز، وبين الذى دخل من طريق الصين.

ودخل جوذرز من ناحية خراسان، وبدأ بفيران. فالتحمت بينهما حرب مذكورة، تحكى فيها الفرس عجائب، بارز فيها بيزن[٣] بن بيب خمان وهو أخو فيران، فقتله مبارزة وقتل جوذرز فيران مبارزة أيضاً. وقصد جوذرز فراسياب، وألحّت عليه العساكر من كل وجه، واتّبع القوم كيخسرو بنفسه، وجعل قصده للوجه الذى كان فيه جوذرز، وصيّر مدخله منه. فوافى عسكر جوذرز، وقد أثخن[٤] [43] في القتل. وقتل فيرانَ إصبهبذ فراسياب والمرشّح للملك بعده، وجماعة كبيرة من إخوته وأولاده، وأسر بروين[٥] قاتل سياوخش، ووجد جوذرزَ قد أُحصى القتلى والأسرى وما غنم من الكراع[٦] والأموال، فوجد مبلغ ما في يده من الأسرى ثلاثين ألفاً ومن القتلى خمسمائة ألف ونيفاً وستين ألفاً على ما تزعم الفرس، وحاز من الكراع والأموال ما لا يحصى كثرة، وأمر كل واحد من الوجوه الذين كانوا معه، أن يجعل أسيره أو قتيله عند علمه، لينظر إليه كيخسرو عند موافاته.

فلمّا وافى كيخسرو العسكر موضع الملحمة، إصطفّت الرجال له وتلقاه جوذرز. فلمّا دخل العسكر، جعل يمرّ بعلم علم. فكان أول قتيل رآه جثّة فيران. فنظر إليه، وخاطبه بما يجرى مجرى الإشتفاء، ولم يزل يفعل ذلك حتى وقف على علم بيب بن جوذرز، ووجد تحته بروين حيّاً أسيراً، فسأل [44] عنه، فأُخبر

١. مط: «وأمره» بدل «وأمر أحد القوّاد».
٢. مط: بني جوذرز.
٣. = بيژن، وبژن، وبجن. الطبري: بيزن بن بيّ خمان (٢: ٦١٠). مط: بيزن بن كيب خمان.
٤. أثخن في الأمر: بالغ فيه.
٥. مط: روبن. الطبري: بروا بن فشنجان (٢: ٦١١).
٦. الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

أنه قاتل سياوخش الذى مثل به بعد قتله. فقرب منه كيخسرو، ثم طأطأ رأسه بالسجود، ثم قال: «الحمد لله الذى أمكننى منك.» ووبّخه طويلاً. ثم أمر بقطع أعضائه حيّاً. فلمّا لم يبق له طابق[١] ذبحه. ثم استقرّ فى مضربه، وأجلس عمّه عن يمينه، ودعا بجوذرز[٢]، فأحسن صلته ومخاطبته، وحمد ما كان منه، وفوّض إليه الوزارة التى يقال لها: بزرج فرمذار[٣]، وهو مرتبة الوزارة، وجعل إليه مع ذلك إصبهان وجرجان، وفعل مثل ذلك من الحباء[٤] والكرامة بكلّ من أبلى[٥] من قوّاده ورجاله.

ثم أتته الأخبار من الوجوه الثلاثة الأُخر: أنّهم قد أحاطوا بفراسياب. وبرز فراسياب، وما كان بقى من ولده إلّا شيذَهْ،[٦] فتوجه نحو كيخسرو بعدّة وعتاد. فيقال: إنّ كيخسرو أشفق يومئذٍ، وهابه، وظنّ أن لا طاقة له به، وإنّ القتال بقى متّصلاً [45] بينهما أربعة أيام، إلى أن انهزم شيذه واتّبعه كيخسرو، فلحقه وضربه بالعمود على رأسه فخرّ ميّتاً، وغنم كيخسرو ماله.

وبلغ الخبر فراسياب، فأقبل فى جمع عظيم. فلمّا التقى مع كيخسرو، نشبت بينهما حرب يقال: إنّه لم يُرَ مثلها قطّ على وجه الأرض، حتى اختلط رجال إيرانشهر برجال الترك. ثم انهزم فراسياب وكثر القتل. فتزعم الفرس أنّه بلغ عدد القتلى أمراً عظيماً، لم أستحسن ذكره لكثرته. وجدّ كيخسرو فى طلبه، حتى لحقه بآذربيجان، فظفر به واستوثق منه بالحديد. ثم وبّخه، وسأله عن سبب قتله سياوخش. فلم تكن[٧] له حجّة، فذبحه كما ذبح سياوخش. ثم انصرف غانماً

١. الطابِق والطابَق: العضو، كاليد والرجل.
٢. مط: ودعا بحق جوذرز.
٣. بالفارسية: بزرگ فرماندار: الوزير الأعظم (لد). بالفهلوية: Vazurg Farmatar (ف).
٤. فى الأصل: الحبا. مط: الحبى. الحباء: العطاء.
٥. أبلى فى الأمر: اجتهد فيه وبالغ.
٦. الطبرى: شيده (٢: ٦١٥).
٧. فلم تكن... ذبح: سقطت من مط.

مسروراً.

وكان لفراسياب أخ يقال له: كي شواسف[١]، صار إلى بلاد الترك بعد أخيه، وكان له ابن يقال له: خرزاسف[٢]، فملك البلاد بعد أبيه كي شواسف، وهو ابن أخي فراسياب الذي حارب منوشهر.

ولما فرغ كيخسرو [46] من المطالبة بوتره[٣]، واستقرّ في ملكه، زهد في الملك، وتنسّك وأعلم الوجوه من أهل بيته ومملكته، أنّه على التخلّي. فاشتدّ جزعهم، وتضرّعوا إليه، وراودوه[٤] على المُقام على تدبير مُلكهم. فأبى عليهم، ولما يئسوا، قالوا:

ـ «فاذا قمت[٥] على ما أنت عليه، فسمّ من يقوم به.»

وكان لهراسف حاضراً، فأشار بيده إليه، وأعلمهم أنّه خاصّته ووصيّه. فقبل لهراسف الوصية، وأقبل الناس عليه، وفقد كيخسرو. فبعض الناس يقول: إنّه غاب للتنسك، ولا يُدرى أين مات. وبعضهم يقول غير ذلك. وكان مُلكه ستين سنة. ثم ملك بعده لُهراسب[٦].

لهراسب وما كان من أمر بُختنصّر

ويقال: إنّه ابن أخي كيقابوس. واتّخذ سريراً من ذهب مكلّلاً بالجوهر، للجلوس عليه، وبنيت له بأرض خراسان مدينة بلخ[٧] وسمّاها: الحسناء. وهو أوّل من دوّن الدواوين، وقوّى ملكه بانتخاب الجنود لنفسه [47] وعمر الأرض.

---

١. مط والطبري: كي شراسف (٢: ٦١٧).

٢. في الطبري أيضاً: خرزاسف. بالفارسية: أرجاسپ. بالفهلوية: Arjasp أو: Archasp . بالأفستائية: Arjataspa أي: مالك الأفراس الثمينة (حص: ٦٢٦، يد ١: ٢٨٥).

٣. الوتر والوَتر: الذحل، الثأر، الانتقام.

٤. راوده على الأمر: طلب منه فعله.

٥. قام على الأمر: دام وثبت. مط: ماذا أقمت عليهم.

٦. بالفهلوية: Luhrasp .

٧. بالفهلوية: Baxl (ف).

وذلك أنّ الأتراك اشتدت شوكتهم في زمانه، فجعل منزله بلخ ليقاتل[١] الأتراك. ووجّه بُختنصَّر[٢] إصبهبذاً لما بين الأهواز إلى أرض الروم من غربي دجلة. ويقال: إن اسمه بالفارسية: بُخت نرسي. فشخص حتى أتى دمشق، فصالحه أهلها. ووجّه قائداً له، فأتى بيت المقدس، فصالح ملك بني إسرائيل، وهو رجل من ولد داود، وأخذ منه رهائن وانصرف. فلما بلغ طبرية وثبت بنو اسرائيل على ملكهم، فقتلوه وقالوا:

ـ «داهنت[٣] أهل بابل وخذلتنا»، واستعدّوا للقتال.

فكان من عاقبة جنايتهم[٤] على ملكهم أن كتب قائد بُختَنَصَّر إليه بما كان. فكتب إليه يأمره أن يقيم بموضعه حتى يوافيه، وأن يضرب أعناق الرهائن الذين معه، وسار بختنصَّر، حتى أتى بيت المقدس، فأخذ المدينة عنوة، وقتل المقاتلة، وسبى الذرية، وهرب الباقون إلى مصر.

فكتب بختنصَّر إلى ملك مصر: [48]

ـ «إنّ عبيداً لي هربوا منّي إليك. فسرّحهم[٥] إليّ، وإلّا غزوتك وأوطأت بلادك الخيل.»

فكتب إليه ملك مصر:

ـ «ماهم عبيدك، ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار.»

فغزاه بختنصَّر، فقتله، وسبى أهل مصر. ثم انصرف بسبيٍ كثير من أهل فلسطين والأردن فيهم دانيال النبيّ وغيره من أبناء الأنبياء، وخرب بيت المقدس

---

١. مط: ليقابل.

٢. الطبري: اسمه بالفارسية: بخترشه، بخت ترسه، بخت سه (٢ : ٦٤٥) بالبابلية: Nabukadurriusur أي: نَبو يحرس التاج (حب) = بنوخذ نصر، بنوخذ راصر (المفصل ١ : ٣٥٠).

٣. الطبري: راهنت (٢ : ٢٤٦).

٤. مط: خيانتهم.

٥. فسرحهم... مصر: سقطت من مط.

منذ ذاك.

وكان لُهراسف بعيد الهمّة، طويل الفكر، شديد القمع للملوك المحيطة بإيرانشهر. وكانت ملوك الروم والمغرب والهند يحملون إليه في كل سنة وظيفة معروفة وإتاوة[١] معلومة، ويقرّون له أنّه ملك الملوك هيبة له. وكان بختنصّر حمل إليه من بيت المقدس خزائن وأموالاً عظيمة. ثم كبرت سنّه، وأحسّ بالضعف. فملّك ابنه بشتاسف[٢]، واعتزل الملك، وكان عمره وملكه فيما ذكر مائة وعشرين سنة. [49]

وقد قيل: إنّ بختنصّر كان في خدمة لهراسف، وتوجّه من قبله إلى الشام وبيت المقدس، ليُجلي اليهود عنها، ففعل، ثم انصرف. ثم كان في خدمة ابنه بُشتاسف، ثم في خدمة ابنه بهمن، وإنّ بهمن أقام ببلخ التي كانت تسمى: الحسناء، وأنفذ بختنصّر إلى بيت المقدس لإجلاء اليهود، وإنّ السبب في ذلك كان وثوب صاحب بيت المقدس على رسل بهمن وقتله بعضهم. فمضى بختنصّر، فسبى وهدم بيت المقدس. وانصرف إلى بابل، وملّك «متنيا»[٣] وسمّاه: «صدقيا»[٤]. فلمّا صار بختنصّر ببابل، خالفه صدقيا. فغزاه بختنصّر ثانياً، وظفر به. فأخربَ المدينة والهيكل وأوثق صِدقيا وحمله إلى بابل، بعد أن ذبح ولده وسمل عينيه، فمكث بنو إسرائيل ببابل، إلى أن رجعوا إلى بيت المقدس. فكانت غلبة بختنصّر ـ وهو بُخت نرسي ـ إلى أن مات، في هذا القول الذي حكيناه آنفاً، أربعين سنة.

ثم قام بعده ابن له يقال له: نمروذ، [50] ثم ابن له يقال له: بُلتنصّر[٥]، فخلّط.

---

١. الإتاوة: الجزية، الخراج، ما يؤخذ كرهاً.

٢. الطبري: بشتاسب (٢: ٦٤٧) = گشتاسپ، ويشتاسب، بالفهلوية: Vishtásp (ف).

٣. الأصل غير واضح. مط: سيبا وما أثبتناه من الطبري المطابق لقاموس الكتاب المقدس. في حواشي الطبري: شيبا، منيثا، مثينا (٢: ٦٤٢، لد).

٤. مط: صندقيا. الطبري صديقيا، صيدقيا (٢: ٦٤٣).

٥. في الأصول الأخرى: بلتشر، بلطشاصر، Besazar, Belsharrasur (المفصل ١: ٦١١). جاء في الطبري

ولم يرتضِ بهمن أمره، فعزله، وملَّك مكانه:

كيرُش [١]

وتقدّم إليه بهمن أن يرفق ببنى اسرائيل، ويطلق لهم النزول حيث أحبّوا، والرجوع إلى أرضهم وأن يولّى عليهم من يختارونه. فاختاروا دانيال النبى ـ عليه السلام ـ فولّا أمرهم. وكان مُلك كيرُش ومدة سنيه معدودة من خراب بيت المقدس، منسوبة إلى بختنصَّر ومبلغها سبعون سنة. ثم ملك بابل وناحيتها من قبل بهمن [٢] رجل من قرابته يقال له:

اخشوارِس [٣]

إبن كيرُش بن جاماسب الملقّب بـ«العالم».

وولد لإخشوارس ولد من امرأة من سبى بنى إسرائيل يقال لها: أشير [٤]، صُنعا من الله لبني إسرائيل، فسمّاه:

كيرُش

فملك بعد أبيه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وعلّمه خالُه التوراة، وفهم أمر دانيال

←

(٢ : ٦٥٢): «فلما ملك بلتشر خلط فى أمره، فعزله بهمن وملَّك مكانه على بابل وما يتصل بها من الشام وغيرها داريوش الماذوى... حين صار إلى المشرق، فقتل بلتشر وملك بابل وناحية الشام ثلاث سنين، ثم عزله بهمن وولى مكانه كيرش الغيلمى...».

١. بالفارسية القديمة: كوروش، كورو. بالعيلامية: Ku-rash . بالبابلية: Ku-ra-ash . بالرومية Cyrus (پاپ، Kent) فترة الحكم: ٥٥٩ ـ ٥٢٩ ق م (فم).   ٢. بالفهلوية: Vahman (ف).

٣. = اخشوارش، اخشويرش = خشايارشا. وفى النقش الخاص به: Xashi-arsha .

٤. الطبرى: اشتر (٢ : ٦٥٣).

ومن كان معه: مثل حنّنيا، وعازَريا، وعُزير[١]. وتأدّب وعلم العلوم. وسأله [51] بنو إسرائيل أن يأذن لهم في الخروج إلى بيت المقدس فأبى وقال:

«لو كان معي منكم ألف نبيّ، ما فارقني [ما فارقني][٢] مادمت حيّا».

وولّى دانيال القضاء، وأمره ان يخرج كل شيء في الخزائن مما كان بختنصّر أخذه من بيت المقدس، فبُنى وعُمر في أيام كيرُش، ومات بهمن لثلاث عشرة سنة خلت من قيام كيرُش ببابل.

وقد حكى أهل التوراة في أمر بختنصّر أقوالاً مختلفة تركنا ذكرها. إلّا أنهم ذكروا أن بختنصّر لما خرّب بيت المقدس، أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم تُرسه تراباً، ثم يقذفه في بيت المقدس. فقذفوا فيه من التراب ما ملأه. ولما انصرف إلى بابل، اجتمع معه سبايا بني إسرائيل، وأمرهم أن يجمعوا من كان في بيت المقدس كلّهم. فاجتمع عنده الكلّ، فاختار منهم سبعين ألف صبيّ. فلمّا خرجت غنائم جنده، سألوه أن يقسم فيهم الصبيان. فقسم في الملوك [52] منهم، فأصاب كلّ رجل منهم أربعة. فكان من أولئك الغلمة: دانيال النبيّ، وحننيا، وميشايل، وسبعة آلاف من أهل بيت داود، وأحد عشر ألفاً من سبط آسر بن[٣] يعقوب، وعلي ذلك سائر أولاد يعقوب الأسباط.

ثم غزا بختنصّر العرب. وذلك في زمن معدّ بن عدنان. فوثب على كلّ من كان في بلاده من تجّار العرب، وكانوا يقدمون عليه بالتجارات، ويمتارون[٤] من عندهم الحبّ والتمر والثياب وغيرها. فجمع من ظفر به منهم، وبنى لهم حَيراً[٥]

---

١. مط: حنينا، وعادنيا، وغرير. الطبري: حننينا وميشايل وعازريا (٢ : ٦٥٤).

٢. التكملة من الطبري (٢ : ٦٥٤). مط: كالأصل.

٣. الطبري: أشر، أشير (١: ٣٥٥، ٣٥٧).

٤. امتار لنفسه أو أهله: جمع الميرة. والميرة: الطعام ونحوه يجمع للسفر ونحوه.

٥. الحير: شبه الحظيرة أو الحمى. مدينة على الفرات غربي بغداد، كانت الفرس تسميها: فيروز سابور، أول من عمرها سابور ذو الأكتاف (يا). بالفارسية: فيروز شاپور، باليونانية: Perisabor (لج: ٧٢).

على النجف، وحصّنه، وضمّهم فيه، ووكّل بهم حرساً. ثم نادى في الناس بالغزو، فتأهّبوا لذلك، وانتشر الخبر في من يليهم من العرب، فخرجت إليهم طوائف منهم مسالمين فأحسن إليهم، وأنزلهم بختنصّر شاطئ الفرات، فابتنوا موضع معسكرهم، وسمّوه: «الأنبار» وخلّي عن أهل الحيرة. فاتّخذوها منزلاً مدّة حياة بختنصّر. فلمّا مات انضموا إلى أهل الأنبار وبقي ذلك الحير خراباً. [53]

وملك كي بشتاسف بن كي لُهراسف

فبنى مدينة فسّا، وهو أول من عُرف بسط دواوين الكتّاب، لاسيّما ديوان الرسائل، وأمر الكتّاب أن يطيلوا كتب الرسائل، ويذكروا فيها الأسباب والعلل. وكان له ديوانان: أحدهما ديوان الخراج، والآخر ديوان النفقات. فكان كلّ ما يرد، فإلى ديوان الخراج، وكل ما يخرج من جيش وغيره، فإلى ديوان النفقات. وكان من رسم الوزير ـ واسمه: «بُرزج فرمذار»[١] ـ أن يكون له خليفة يسمى: «إيرانمارغَر»[٢]، يصل إلى الملك، ويعرض عليه وينوب عن الوزير. فأمّا المتقلّد لديوان الرسائل فيسمّى: «دبيرفَذ»[٣]، وكان له كاتب موكّل بدار المملكة، فان وقع على أحد تقصير في منزلة، أو حطّ في درجة، رجع إلى ذلك الكاتب حتى يبيّن حال مرتبته، فيجري عليه رسمه.

ظهور زردُشت

وظهر في أيامه زردشت[٤]، وأراده على قبول دينه، فامتنع من [54] ذلك، ثم

١. مط: برزج فريدار.
٢. مط: ابدأ مارعن! بالفهلوية: eran-amargar : المحاسب، أو المحصي لإيران (حب).
٣. = دبيربَد. بالفهلوية: Dipir-Pat (حب).
٤. الطبري: زرادشت بن اسفيان (٢: ٦٧٥). بالأفستائية: Zarathushtra : صاحب البعران الصفراء. اسم

صدّقه، وقبل ما دعاه إليه وأتاه به، من كتاب يكتب فى جلد اثنى[١] عشر ألف بقرة، حفراً فى الجلود، ونقشاً بالذهب. وصيّر بُشتاسف ذلك بإصطخر ووكّل بـه الهرابذة[٢]، ومنع تعليمه العامة. وبنى ببلاد الهند بيوتاً للنيران، وتنسّك واشتغل بالعبادة. وهادن خرزاسف بن كي سواسف ابن أخي فراسياب وملك الترك على ضرب من الصلح. وفى شريطة الصلح أن يكـون [بـباب][٣] خـرزاسـف دابّـة موقوفة فى منزلة الدواب التي تكون على أبواب الملوك، فأشار زردشت عـلى بشتاسف، بنقض الهدنة[٤]، ومفاسدة ملك الترك. فقبل مـنه، وبـعث إلى الدابّـة، والموكّل بها، أن ينصرف، وأظهر الغدر. فغضب خرزاسف، وكتب إليه كتاباً غليظاً، وأمره بتوجيه زردشت إليه، وأقسم ـ إن امتنع ـ أن يغزوه حتى يسفك دمه ودماء أهل بيته.

فلما ورد الرسول بالكتاب، كتب كتاباً أغلظ منه [55] جواباً عن كتابه، وآذنه

←

أسرته Spitama. (حب) بالفهلوية: Zaratusht Spitaman (ف). حول مكان الولادة، قيل: الري، وفى الأغلب يقال: الشمال الشرقى لإيران. زمان الولادة: هناك اختلاف أيضاً. دأب أتباعه وأغلب المستشرقين على تحديده بحوالى عام ٦٠٠ ق. م. قُتل زرادشت في الحملة الثانية التي شنها أرجاسب التركي على ايران (حب).

١. فى الأصل: اثنتي. وهو خطأ. في الطبري: في موضع من إصطخريقال له: دربيشت (٢ : ٦٧٦). إنّ كور فارس خمسة، أكبرها وأصلها كورة إصطخر (مع).

٢. جمع هِربَذ = هيربَد. بالأفستائية: Aethrapaiti : المعلم (الجزء الأول بمعنى التعليم، والجزء الثاني لاحقة تفيد معنى الاتصاف والملكية.) واستعمل بمعنى التلميذ أيضاً، ثم استعمل بمعنى موبَد، ثم بمعنى رجل الدين على الاطلاق (كسا: ٤١٧)، وبمعنى عميد الجامعة (دات: ٩٢). بالفهلوية: Ehrpat، وفى النقوش: Herpat أنظر أيضاً (حب).

٣. فى الأصل ومط: ببلاد. في الطبرى: أن يكون لبشتاسف «بباب» خرزاسف دابة موقوفة بمنزلة الدواب التى «تنوب» [وفى نسخة «تكون»] على أبواب الملوك (٢ : ٦٧٦).

٤. الهُدنة: المصالحة بعد الحرب، أو فترة تعقب الحرب يتهيأ فيها العدوان للصلح، ولها شروط خاصة (مر).

بالحرب، وأعلمه أنّه غير ممسك [عنه][١] إن أمسك، فسار بعضهما إلى بعض، ومع كلّ واحد منهما إخوته وأهل بيته. فقتل بينهما خلق كثير، وأحسن الغناء[٢] ابن بشتاسف اسفنديار، وقتل بيدرفش الساحر[٣] بيده مبارزة. فصارت الدبرة[٤] على الترك، فقتلوا قتلاً ذريعاً، ومضى خرزاسف هارباً على وجهه، ورجع بشتاسف إلى بلخ.

فلمّا مضت لتلك الحرب سنون، سعى على اسفنديار رجل يقال له: فرّوخ،[٥] فأفسد قلب بشتاسف عليه. وذاك أنه أعلمه: أنه ينتدب[٦] للملك، ويزعم أنه أحقّ به، وأن الناس مائلون إليه. فصدّق بشتاسف بذلك، وترك الرفق ومعالجة الأمور على تؤدة، وأخذ في أن يندبه لحرب دون حرب[٧]. فكان ينجح فيها كلّها. ثم أمر بتقييده، وصيّره في الحصن الذي فيه حبس النساء. وصار بشتاسف إلى جبل يقال له: «طميذر»[٨]، لدراسة دينه، والتنسك هناك، وخلّف أباه لهراسف [56] في مدينة بلخ شيخاً هرماً قد أبطله الكبر، وترك خزائنه وأمواله على[٩] امرأته.

فكان من عاقبة ذلك، أن حملت الجواسيس خبره إلى خرزاسف، فجمع جنوداً لا يحصون كثرة، وشخص من بلاده نحو بلخ. فلما انتهى إلى تخوم[١٠] مُلك

١. عنه: تكملة من الطبري (٢: ٦٧٧).

٢. مط: وأحسن الفناء. في الطبري: وأحسن الغناء عنه ابنه اسفنديار (٢ : ٦٧٧). بالفهلوية: Espandyaz, Spendat (يد ٢ : ٢٨٨).

٣. بالفهلوية: Vedaratsh (ياز). كان بيدرفش بطل جيش أرجاسب ملك الترك. في الطبري: بيدرفش الساحر (٣: ٦٧٧) = بيدرفش جادو (حب، لد).

٤. الدبرة: الهزيمة في القتال.

٥. بالفهلوية: Farraxv : المُشع، الجميل (حب).

٦. ينتدب: يسرع، يجيب الدعوة إلى الأمر.

٧. كذا في الأصل ومط: لحرب دون حرب. وفي الطبري: لحرب بعد حرب (٢ : ٦٧٧).

٨. طميذر، طميدر: جبل حصين في بلخ (لد).

٩. في الطبري: مع امرأته.

١٠. التخوم: جمع مفرده تخم وتخم: الحد الفاصل بين أرضين.

فارس، قدّم أمامه جوهرمَز[١] أخاه ـ وكان مرشّحاً للملك ـ في جماعة من المقاتلة كثيرة، وأمرهم أن يغذّوا[٢] السير، حتى يتوسطوا المملكة، ثم يوقعوا[٣] بأهلها ويغيروا على المدن والقرى. ففعل جوهرمز ذلك، وسفك الدماء، واستباح الحُرم، وسبى ما لا يحصي كثرة، واتبعه خرزاسف، فأحرق الدواوين، وقتل لهراسف والهرابذة، وهدم بيوت النيران، واستولى على الأموال والكنوز، وسبى ابنتين[٤] لبشتاسف، وأخذ فيما أخذ «درفش كابيان»، وشخص يتبع بشتاسف، فهرب منه بشتاسف، حتى تحصّن في الجبل الذي يُعرف بطميذر مما يلي فارس، ونزل ببشتاسف ما ضاق به ذرعاً [57] وندم على ما صنعه بإسفنديار.

فيقال: إنه وجّه إليه بجاماسف[٥]، حتى استخرجه من محبسه، وصار به إلى أبيه. فلما دخل عليه، اعتذر إليه ووعده عقد التاج على رأسه، وأن يفعل به مثل الذي فعل به لهراسف، وقلّده عسكره، وأمره بمحاربة خرزاسف. فلما سمع اسفنديار كلام أبيه، طابت نفسه، وكفّر[٦] بين يديه، وتولّى الأمر، وتقدم فيما احتاج إليه.

ثم عبّى ليلته أصحابه، فلما أصبح، أمر بنفخ القرون، وسار بالجنود نحو عسكر الترك. فلما رأت الترك عسكره، خرجوا إليه على وجوههم يتسابقون وفي القوم جوهرمَز وأندرمان[٧]، فالتحمت الحرب بينهم، وانقضّ اسفنديار [و][٨] بيده

١. جوهَرمز = گوهرمزد: گو gaw,gow البطل، أي: هرمزد البطل. في الثعالبي وترجمة زوتنبرغ: كُهرم Kohram (ص ٣٣٦).
٢. أغذّ في السير: أسرع.
٣. أوقع بالأعداء: بالغ في قتالهم.
٤. وهما خماني، وباذافره (الطبري ٢ : ٦٧٨) = هماي و بهآفريد (شا).
٥. الطبري: جاماسب العالم (٢ : ٦٨١). بالفهلوية: Jamasp .
٦. كفّر لسيده: انحنى ووضع يده على صدره وطأطأ رأسه تعظيماً له.
٧. = وندريمان، وندريمن. هو أخو جوهرمز وخرزاسف (الطبري ٢ : ٦٧١).
٨. و: زدناها من مط.

الرمح كالبرق، حتى خالط القوم، وأكبّ عليهم بالطعن. فلم تكن هُنيهة حتى ثلم في القوم ثلمة عظيمة. وفشا في الترك: اسفنديار قد أطلق من الحبس، فانهزموا لا يلوون على شيء، وانصرف اسفنديار وقد ارتجع العَلَم الأكبر، [58] وحُمل معه منشوراً.

فلمّا دخل على بشتاسف، استبشر بظفره، وأمر باتّباع القوم وقتل خرزاسف إن قدر عليه، بلهراسف، وبقتل جوهرمز وأندرمان، بمن قُتل من ولده، وبهدم حصون الترك وبحرق مدنها وبقتل أهلها، بمن قتلوا من حملة الدين، وباستنقاذ السبايا، ووجّه معه من القواد والعظماء خلقاً كثيراً. فدخل اسفنديار بلاد الترك، ورام ما لم يرمه أحد، واعترض ـ على ما تزعم الفرس ـ العنقاء المذكورة[١]، ورماها، ودخل مدينة الصُفر[٢] عنوة، حتى قتل ملكها وإخوته ومقاتلته، واستباح أمواله، وسبى ذراريّه ونساءه واستنقذ أُختيه، وكتب بالفتح إلى أبيه.

ياسر أنعُم

فأمّا ملوك اليمن، فقد كتبناهم إلى عهد سليمان وأيّامه، ثمّ صار المُلك إلى ياسر[٣] بن عمرو الذي يقال له: ياسر أنعم،[٤] لإنعامه على العرب. وكان سار غازياً نحو المغرب، حتى بلغ وادياً يقال له: وادي الرمل، ولم يكن [59] بلغه أحد قبله، ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل. فبينا هو مقيم إذ انكشف الرمل. فأمر بعض أهل بيته أن يعبر هو وأصحابه. فعبروا، ولم يرجعوا. فأمر بصنم من نحاس،

١. انظر الثعالبي: ٣٣٢.

٢. من أسماء مدينة بخارا (لد). في الطبري: دزروئين، وتفسيرها بالعربية: الصفرية (٢ : ٦٨٠) = روئين دژ (حص).

٣. مط: ياشر.

٤. مط: ناش نعم! هذه التصحيفات العجيبة نوردها بين حين وآخر للاشارة إلى ما لمخطوطة مط من قيمة سلبية، حتى تكون في حسبان القارئ عند مقارنته بينها وبين الأصل. في المفصل: ياسر يهنعم، ياسر ينعم، ياسر أنعم الحميري ملك سبأ (١ : ٤٨).

فصنع ثم نصب على صخرة عظيمة على شفير الوادی، وكتب في صدره بالمُسند[۱]:

«هذا الصنم لياسر أنعم[۲] الحميرى، ليس وراءه مذهب، فلا يتكلّفن ذلك أحد فيعطب.»

تُبّع

ثم ملك بعد تُبّع. وهو تبان[۳]، وهو أسعد، وهو أبو كرب بن مليكيكرب، تبّع بن زيد بن عمرو بن تبّعٍ ذی الاذعار بن أبرهة تبّعٍ ذی المنار بن الرائش بن قيس بن صيفى بن سبأ.

وكان تبّع هذا فی أيام بشتاسف وأردشير بهمن بن اسفنديار بن بشتاسف. خرج وغزا، وبلغ الأنبار، والموصل، ثم آذربيجان[٤]، ولقى بها الترك، فهزمهم، وقتل بها المقاتلة، وسبى الذريّة، فأقام بها دهراً، وهابته الملوك، وأهدت إليه، وقدم عليه رسول ملك الهند بالهدايا والطرف من الحرير والمسك، [60] وسائر الطرف، فرأى ما لايرى مثله.

فقال: «ويحك! أكلّ هذا فی بلادكم؟»

فقال: أبيت اللعن[٥]، هذا أقلّ ماترى فی بلادنا، وأكثره فی بلاد الصين.»

ووصف له بلاد الصين، وسعتها وخصبها. فآلى ليغزونّها، وسار بحمير، حتى أتى الصين فی جمع عظيم، حتى دخلها، فقتل مقاتلتها، واكتسح ما وجد فيها. ويزعمون أنّ مسيره إليها كان ـ ومقامه بها ورجعته منها ـ فی سبع سنين. وخلّف

---

۱. اسم لخط الحمير باليمن (مو).

۲. مط: ناش النعم!

۳. مهملة النقط فی الأصل، وضبطناها حسب الطبرى (۲: ٦٨٤). وما فی مط: بيان. انظر أيضاً المفصّل ۱: ٥٤٧.

٤. بالفهلوية: Aturpatakan (حب، ف).

٥. أبيت اللعن: من تحيات الملوك فی الجاهلية، معناها: أبيت أن تأتی من الأمور ما تلعن عليه وتذمّ بسببه (لع).

بالتبّت[١] اثنى عشر ألف فارس من حمير، فهم أهل التبت اليوم، ويزعمون أنهم عرب، وخِلَقهم وألوانهم خلق العرب وألوانهم.

أردشير بهمن

وملك بعد بشتاسف أردشير بهمن. وانبسطت يده، وتناول الممالك بقدرة [حتى][٢] ملك الأقاليم. وابتنى بالسواد مدينة وهى المعروفة بـ«هُمينيا»[٣] وهو أبودارا [الأكبر][٤]، وأبو ساسان أبى الفُرس الأخير[٥] أردشير بن بابك وولده. وكان بهمن بن اسفنديار كريماً، [61] متواضعاً، مرضيّاً. وكانت تخرج كتبه: «من أردشير[٦] بهمن[٧] عبدالله، وخادم الله، والسائس لأمركم».

ويقال: إنّه غزا الرومية الداخلة[٨]، فى ألف ألف مقاتل. ولم تزل ملوك الأرض تحمل إليه الإتاوة، إلى أن هلك، وابنه دارا [الأكبر][٩] فى بطن أمه. فملّكوا خُماى بنته شُكراً لأبيها. وكان من أعظم ملوك الفرس شأناً، وأفضلهم تدبيراً. وله كتب ورسائل تفوق كتب أردشير وعهده. وتفسير «بهمن» بالعربية: «الحسن النيّة».

---

١. = Tibet: من بلدان آسيا المركزية فى غربى الصين.

٢. ما فى الأصل غير واضح، وما أثبتناه من مط.

٣. جاء فى الطبرى: وسماها: آباد أردشير، وهى القرية المعروفة بـ«هُمينيا» من الزاب الأعلى (٢: ٦٨٧) = همانيا، همانية، هُمنى: قرية كبيرة فى ضفة دجلة فوق النعمانية (مع).

٤. الأكبر: ليست فى الأصل ومط. فأضفناها من الطبرى.

٥. كذا فى مط. فى الطبرى: «الأخَر»، ضد القدُم: المؤخّر.

٦. بالفارسية القديمة: Artaxshathra : الملك المقدس (شاك: ٤٨). بـلوتارخ: مـاكـروخير Makroxeir، البيرونى: مقروشير: طويل اليدين (ص ١١)، ويقال له: طويل الباع، أيضاً (لد).

٧. بالأفستائية: Vohamana : النصيح، الحسن النية. (يب ١: ٨٨، حب).

٨. الرومية: اسم لمدينتين: مدينة ببلاد الروم وأخرى بالمدائن (مع).

٩. الأكبر: تكملة من مط.

خُماى

ثم ملكت خُماى[١] بنته، لأنّها حملت منه دارا الأكبر، وسألته أن يعقد التاج له فى بطنها، ويوثره بالملك، ففعل بهمن ذلك. وكان ساسان[٢] بن بهمن فى ذلك الوقت رجلاً يتصنّع للملك، [لا يشكّ][٣] فيه. فلما رأىٰ ساسان ما فعل أبوه، شقّ عليه، فلحق بإصطخر، وتزهّد، وخرج من الحلية، واتخذ غنيمة، فكان يتولّى ماشيته بنفسه، واستشنعت العامة ذلك من فعله، وقالوا:

ـ «صار ساسان راعياً».

وسبّوه به. [62] ثم لمّا كبر دارا حوّل التاج إليه. وكانت خماى ضبطت الحكم[٤] بنجدة ورأى وحصافة، وأغزت الروم جيشاً، وأوتيت ظفراً. فقمعت الأعداء وشغلتهم عن تطرّف[٥] شيء من بلادها، ونال رعيّتها فى تدبيرها خفض ورفاهة، إلى أن مُلّك ابنها:

دارا[٦] بن بهمن

فنزل بابل، وكان ضابطاً لملكه، قاهراً لمن حوله من الملوك يؤدّون إليه الخراج. ابتنى بفارس مدينة، وسماها: «دارا بجرد[٧]». وحذف دوابّ البريد[٨]

١. فى الطبرى وحواشيه: خمانى، هماى، خماى (٢ : ٦٨٦). هماى (شا). هماك (ياز، كيا: ٤١). بالأفستائية: Humaya : المباركة (حب).

٢. بالفهلوية: Sasan : الفقير (يو): هو جد الملوك الساسانية. كان من الأشراف ورئيس معبد آناهيذ (= آناهيتا) فى إصطخر وبابك ابنه (سا: ٨٦).

٣. لا يشك: مهملة فى الأصل والإعجام من مط.

٤. مط: الملك.

٥. الأصل والطبرى: كذا. مط وابن الأثير: تطرّق.

٦. فى سائر الأصول: دارا، داريوش، داريوس، داراب، داريوشن.

٧. بالفهلوية: Darap-kart (ف).

٨. قال الثعالبى: هو أوّل من وضع البريد، ورتب له الدواب، وأمر بتحذيف أذنابها علامة لها (ص ٣٩٨).

ورتّبها. وكان معجباً بابنه «دارا»، وبلغ من حُبّه إيّاه أن سمّاه باسم نفسه، وصيّر له المُلك من بعده، وكان له وزير يسمّى: «رُشتين[١]» محموداً في عقله. فشجر بينه وبين غلام تربّى[٢] مع دارا الأصغر يقال له: «بيرى[٣]»، شرّ وعداوة. فسعى رُشتين عليه عند الملك. فيقال: إنّ الملك سقى بيرى شربة فمات، فاضطغن دارا الأصغر على رُشتين، وعلى جماعة كانوا عاونوه.

دارا الأصغر

فلمّا ملك دارا ابن دارا بن بهمن، كان أول ما تكلم به حين عقد التاج [63] على رأسه، قال:

ـ «لن ندفع أحداً في مهوى الهلكة، ومن تردّى فيها، لم نكففه عنها.»

واستكتب أخا بيرى، واستوزره، رعاية لحق أخيه، وأُنساً به، ولم يكن في موضع الوزارة، ولا كان له كفاية رُشتين.

فكان من عاقبة ذلك، أن أفسد قلبه على أصحابه، وحمله على قتل بعضهم، فاستوحشت منه الخاصّة والعامّة، ونفروا عنه، وكان حقوداً جبّاراً. فعرف خبره الإسكندر فغزاه وقد ملّه أهل مملكته، واستوحش جنده، وأحبّ الجميع الراحة منه. فلحق كثير من وجوه أصحابه وأعلام جنده بالاسكندر، فأطلعوه على عورة دارا وقوّوه عليه، فلمّا التقيا ببلاد الجزيرة[٤]، اقتتلا سنة. ثمّ إنّ رجالاً من

←

وقال الطبرى: ... وحذف دوابّ البُرد، ورتّبها (٢: ٦٩٢). حذف الشيء: قطعُه من طرفه. تحذيف الشعر: الأخذ من نواحيه وتسويته (لع).

١. مط: رستين. والكلمة مهملة النقط فى الطبرى مع تصحيفات فى الحاشية.

٢. مط: ربى.

٣. الكلمة مهملة النقط فى الطبرى مع تصحيفات فى الحاشية.

٤. أنظر مراصد الاطلاع ١: ٣٣١.

أصحاب دارا وثبوا به، فقتلوه، وتقرّبوا بذلك إلى الإسكندر، فأمر بقتلهم وقال:
ـ «هذا جزاء من اجترأ على ملكه.»

وتزوّج ابنته: روشنك[١]. ثم غزا الهند ومشارق [64] الأرض، فملكها. ثم انصرف وهو يريد الاسكندرية، فهلك بناحية السواد، فحمل فى تابوت من ذهب إلى أمّه. وكان ملكه أربع عشرة سنة، واجتمع مُلك الروم وكان قبل الاسكندر متفرقاً، وتفرّق مُلك فارس وكان مجتمعاً.

مما يحكى عن الإسكندر وحيله

الإسكندر ودارا

وقد كان فيلفوس أبو الاسكندر، صالح دارا، على خراج يحمله إليه فى كلّ سنة. فلمّا هلك الأب، وملك الاسكندر، وطمع فى دارا، منعه الخراج الذى كان يحمله أبوه إليه. فأسخط دارا، فكتب إليه يؤنّبه بسوء صنيعه فى تركه حمل ما كان أبوه يحمله من الخراج، وأنه إنما دعاه إلى حبس ذلك، الصبى والجهل، وبعث إليه بصولجان وكرة وبقفيز[٢] من السمسم: يعلمه بذلك أنه إنّما ينبغى أن يلعب مع الصبيان بالصولجان[٣]، ولا يتقلّد المُلك، ولا يتلبّس به، ويعلمه أنه إن لم يقتصر على ما أمره به، وتعاطى المُلك، بعث إليه من يأتيه به فى وثاق، [65] وأن عدّة جنوده الذين يبعث بهم، كعدّة حبّ السمسم الذى بعث به إليه.

فكتب الإسكندر فى جواب ذلك، أن قد فهم ما كتب به، ونظر إلى ما أرسله

١. بالفهلوية: Roshanak بالأفستائية: Raoxshana . ابنة دارا وزوجة الإسكندر (يو، حب). إبنة دارا هى Stativa وأما روشنك (باليونانية Roxano) فهي ابنة شريف من شرفاء سغد، تزوجت من الإسكندر (إيب: ١٧٣٦، ١٨٨٣).

٢. القفيز: مكيال كان يكال به قديماً ويختلف مقداره في البلاد (مو).

٣. الصولجان: معرّب چوگان، بالفهلوية: Chopakan (حب).

من الصولجان والكرة، وتيمّن به، لإلقاء الملقى الكرة إلى الصولجان واجترازه[١] إيّاها، وأنّه شبّه الأرض بالكرة، وتفأل بملكه إياها، واحتوائه عليها، وأنه يجترّ مُلك دارا إلى مُلكه، وبلاده إلى حيّزه من الأرض، وأن نظره إلى السمسم الذى بعث به، كنظره إلى الصولجان والكرة، لدسمه وبعده من المرارة والحرافة. وبعث إلى دارا مع كتابه بُصرّة من «خردل»، وأعلمه فى ذلك الجواب: أنّ ما بعث به إليه قليل، غير أنّ ذلك مثل الذى بعث به في القوّة، والحرافة، والمرارة، وأنّ جنوده فيما وصف به منه.

فلما وصل إلى دارا جواب كتاب الإسكندر، جمع إليه جنده[٢]، وتأهّب لمحاربة الاسكندر، وتأهّب له الاسكندر، وسار نحو [66] بلاد دارا. فلمّا التقيا، وجرى ما جرى من أمر القائدين اللذين تقرّبا إلى الاسكندر وطلبا الحظوة عنده والوسيلة، وكان نادى الاسكندر ألّا يُقتل دارا، وأن يؤسر أسراً. فلمّا أعلم الإسكندر بما جرى، سار[٣] حتى وقف عنده، فرآه يجود[٤] بنفسه. فنزل الإسكندر عن دابته، حتى جلس عند رأسه، وأخبره أنه ما همّ بقتله، وأن الذى أصابه لم يكن عن رأيه.

وقال له: «سلنى مابدا لك[٥] فإنى أسعفك به.»

فقال له دارا: «لى حاجتان: إحداهما أن تنتقم لى من الرجلين اللذين فتكا بى ـ وسمّاهما ـ والأخرى أن تتزوج ابنتي: روشنك.»

فأجابه إلى الحاجتين، وأمر بصلب الرجلين اللذين انتهكا من ملكهما ما انتهكا، وتزوّج روشنك وملك الأرض كلها.

ويقال: إن الرجلين اللذين قتلا دارا، إنّما فعلا ذلك بأمر الاسكندر، وكان شرط

---

١. مط: واجتياز.
٢. جنده: سقطت من مط.
٣. سار: سقطت من مط.
٤. مط: يجول.
٥. مط: ما بذلك.

لهما شرطاً. فلما طعناه، دفع إليهما حكمهما، ووفىٰ لهما بشرطهما، [67] ثم قال:
ـ «قد وفيت لكما بالشرط، ولم تكونا شرطتما أنفسكما، وأنا قاتلكما، فإنّه ليس ينبغي[١] لقتلة الملوك أن يستبقوا، إلّا بذمّة لا تخفر[٢]»؛ فقتلهما وصلبهما.

ويقال: إنّ الاسكندر في الأيام التي نازل فيها دارا كان يصير إليه بنفسه على أنه رسول. فيتوسط العسكر، ويعرف كثيراً مما يحتاج إليه. فكان إذا وصله[٣] دارا، أعجب به واستحسن سمته[٤] ومجاراته. إلى أن اتهمه وأحسّ الاسكندر، فهرب.

ذكر حيلة للاسكندر

فلمّا تواقفت[٥] الخيلان يوم الحرب، خرج الاسكندر من صفّ أصحابه وأمر من ينادي:
ـ «يا معشر الفرس! قد علمتم ما كتبنا[٦] لكم من الأمانات، فمن كان منكم على الوفاء، فليعتزل عن العسكر، وله منّا الوفاء بما ضمنّاه.»
واتهمت الفرس بعضها بعضاً. فكان أول اضطراب حدث فيهم.

حيلة أخرى

ومما يحكى من حيله في الحروب: [68] أنه لما شخص عن فارس إلى أرض الهند، تلقّاه فور ملكها في جمع عظيم، ومعه ألف فيل عليها السلاح والرجال، وفي خراطيمها السيوف والأعمدة، فلم تقف دواب الاسكندر وانهزم. فلما حصل

---

١. ينبغي: سقطت من مط.
٢. مط: لا تخف! خفر بالعهد: وفى به. خفر العهد وبه: نقضه (مو).
٣. في الأصل: أوصله. وفضّلنا ضبط مط.
٤. السمت: السكينة والوقار، الهيئة.
٥. مط: تواقف.
٦. مط: ما اتمالكم!

فى مأمنه، أمر باتخاذ فيلة من نحاس مجوّفة، وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها، ثم أمر فملئت نفطاً وكبريتاً، وألبسها الدروع، وجرّت على العجل إلى المعركة، وبين كلّ تمثالين منها[1] جماعة من أصحابه. فلما نشبت الحرب، أمر بإشعال النيران فى أجواف التماثيل، فلما حميت، انكشف أصحابه عنها، وغشيتها[2] الفيلة، فضربتها بخراطيمها، فنشطت وولّت مدبرة راجعة[3] على أصحابها، وصارت الدبرة على ملك الهند.

حيلة أخرى له

ومما يحكى أيضاً عنه: أنه كان نزل على مدينة حصينة. فتحصن منه أهلها وعرف[4] خبرها، فأعلم أنّ فيها من الميرة والعيون المنفجرة كفايتهم. فدسّ[5] تجّاراً [69] متنكرين، وأمرهم بدخول المدينة، وأمدّهم بمال على سبيل التجارة، وتقدم إليهم ببيع ما معهم، وابتياع ما أمكنهم من الميرة، والمغالاة بها. ففعل التجار ذلك، ورحل الاسكندر عنهم. فلم يزل التجار يشترون الميرة، إلى أن حصل فى أيديهم أكثره. فلما علم الاسكندر ذلك، كتب إليهم أن أحرقوا الميرة التى فى أيديكم واهربوا. ففعلوا ذلك، وزحف الاسكندر إليها، فحاصرهم أياماً يسيرة، فأعطوه الطاعة، وملك المدينة.

وكان أيضاً إذا انصرف عن مثل هذه المدينة، شرّد من حولها من أهل القرى[6]، وتهدّدهم بالسبى، حتى خرجوا هاربين معتصمين بالمدينة، فلايزال بذلك حتى يعلم أنّه قد دخلها أضعاف أهلها وأسرعوا فى الميرة، فيرجع حينئذٍ فيحاصرهم، ويفتح المدينة.

---

١. مط: فيها.
٢. مط: وغشّها.
٣. راجعة: سقطت من مط.
٤. مط: وتعرف.
٥. مط: فدبر.
٦. القرى: سقطت من مط.

الإسكندر وأرسطوطالس

ومما يحكي عنه: أنّه كتب إلى أرسطوطالس يخبره: أنّ في عسكره من الروم [70] جماعة من خاصته، لا يأمنهم على نفسه، لما يرى من بعد هممهم وشجاعتهم وكثرة آلتهم، ولا يرى لهم عقولاً تفي بتلك الفضائل، ويكره الإقدام بالقتل عليهم بالظنّة، مع وجوب الحرمة.

فكتب إليه أرسطوطالس:

ـ «فهمت كتابك، وما وصفت به أصحابك. فأمّا ماذكرت من بُعد هممهم فإنّ الوفاء من بُعد الهمة. وأمّا ماذكرت من شجاعتهم ونقص عقولهم عنها، فمن كانت هذه حاله، فرفّهه في معيشته، واخصصه بحسان النساء. فإنّ رفاهة العيش توهي العزم، وتحبّب السلامة، وتباعد من ركوب الخطأ والغَرر[١]. وليكن خلقك حسناً تخلص لك النيات، ولا تتناول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساط إخوتك مثله. فليس مع الاستيثار محبة، ولا مع المواساة بغضة. واعلم أنّ المملوك[٢] إذا اشتُرى لا يسأل عن مال مولاه وإنّما يسأل عنه خُلقه.» [71]

وكان الإسكندر في الأيام التى لقى فيها دارا، وجل من محاربته، ودعاه إلى الموادعة، لما رأىٰ كثرة عُدّته وعتاده وعدد جنده. فاستشار دارا أصحابه في أمره، فغشّوه، وزيّنوا له الحرب، لفساد قلوبهم عليه، وكاتبوا الاسكندر، وأطمعوه فيه. وكان ملك دارا أربع عشرة سنة. فهدّم الاسكندر حصون الفرس، وبيوت النيران، وقتل الهرابذة، وأحرق كتبهم، ودواوين دارا.

وكاتب[٣] معلّمه ووزيره أرسطوطالس يعلمه: أنّه شاهد بإيرانشهر رجالاً ذوى أصالة في الرأى، وجمال في الوجوه، لهم مع ذلك صرامة وشجاعة، وأنه رأى لهم

---

١. مط: الغدر. والغرر: الخطر. التعريض للهلكة. ٢. مط: الملوك!

٣. مط: وكتب إلى.

هيآت وخلقاً، لو كان عرف حقيقتها، لما غزاهم، وأنه إنّما[١] ملكهم بحسن الإتفاق والبخت، وأنّه لا يأمن ـ إن ظعن عنهم ـ وثوبهم، ولا تسكن نفسه إلّا ببوارهم.

فكتب إليه أرسطوطالس:

ـ «فهمت كتابك في رجال فارس. فأما قتلهم فهو من الفساد في الأرض ولو قتلتهم لأنبت البلد أمثالهم [72] لأنّ اقليم بابل يولّد أمثال هؤلاء الرجال، من أهل العقول والسداد في الرأي، والاعتدال في التركيب، فصاروا أعداءك وأعداء عقبك بالطبع، لأنّك تكون قد وترت[٢] القوم، وكثرت الأحقاد على أرض الروم منهم وممن بعدهم، وإخراجك إياهم في عسكرك مخاطرة بنفسك وأصحابك. ولكني أشير عليك برأيٍ هو أبلغ لك في كلّ ما تريد من القتل، وهو أن تستدعي أولاد الملوك منهم، ومن يستصلح للمُلك ويترشح له، فتقلّدهم البلدان، وتوليهم الولايات، ليصير كل واحد منهم ملكاً برأسه، فتتفرّق كلمتهم، ويجتمعوا على الطاعة لك، ولا يؤدّي بعضهم إلى بعض طاعة، ولا يتّفقوا على أمر واحد، ولا تجتمع كلمتهم.»

ففعل الإسكندر ذلك، فتمّ أمره، وأمكنه أن يتجاوز مُلك الفرس، فسار قدماً إلى أرض الهند، حتى قتل ملكها مبارزة، بعد حروب عظيمة هائلة، وفتح مدنها، ثم صار إلى الصين، وصنع بها[٣] كصنيعه بأرض الهند، ثم طاف مما يلي القطب [73] الشمالي، ورجع إلى العراق، وخرج منها بعد أن ملّك ملوك الطوائف، فمات في طريقه بشهرزور[٤]، ويقال: بل في قرية من قرى بابل، وكان عمره ستّاً

---

١. مط: لما!

٢. مط: سرت.

٣. بها: سقطت من مط.

٤. شهرزور: مدينة تقع في ناحية بنفس الاسم في الشمال الغربي من دينور، والمسافة بينهما أربعة منازل (لج: ٢٠٥).

وثلاثين سنة، وملك منها ثلاث عشرة سنة وأشهراً. وقتل دارا في السنة الثالثة من مُلكه.

الإسكندر وملك الصين

وفي الرواية الصحيحة: أنّ الاسكندر لما انتهى إلى بلاد الصين، أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره، فقال:

ـ «هذا رسول ملك الصين بالباب يستأذن في الدخول عليك.» قال: «أدخله.» فأدخله. فوقف بين يدي الاسكندر، وسلّم، ثم قال:

ـ «إن رأى الملك يستخليني.»

فأمر الملك من بحضرته أن ينصرفوا، فانصرفوا كلهم وبقى حاجبه. فقال:

ـ «إن الذي جئت له، لا يحتمل أن يسمعه غيرك.»

قال: «فتّشوه.»

فلم يوجد معه سلاح. فوضع الاسكندر بين يديه سيفاً مسلولاً وقال له:

ـ «قف بمكانك وقل ما شئت.»

وأخرج كلّ من كان بقي عنده.

فقال:

ـ «أنا ملك الصين، لا رسوله، جئت أسألك عما تريده، [74] فإن كان مما أمكن عمله ـ ولو على أصعب الوجوه ـ عملته، وأغنيتك عن الحرب[1].»

فقال له الاسكندر: «ما الذي آمنك مني؟»

قال: «علمي بأنّك عاقل حكيم، ولم تك بيننا عداوة، ولا مطالبة بذحل، وأنّك تعلم، إن قتلتني، لم يكن ذلك سبباً لتسليم أهل الصين إليك ملكهم، ولم يمنعهم

---

١. مط: عن الحروب.

قتلى من أن ينصبوا[1] لأنفسهم ملكاً، ثم يُنسب إلى غير الجميل، وضدّ الحزم.»

فأطرق الاسكندر، وعلم أنه رجل عاقل، ثم قال له:

ـ «الذى أريد منك ارتفاع[2] مملكتك لثلث سنين عاجلاً، ونصف ارتفاع مملكتك لكلّ سنة».

قال: «هل غير هذا؟»

قال: «لا.»

قال: «قد أجبتك، ولكن سلني: كيف تكون حالى بعد ذلك؟»

قال: «قل، كيف تكون حالك؟»

قال: «أكون أول قتيل من محارب، أو أول أكيلة مفترس.»

قال: «فإن قنعتُ منك بارتفاع سنتين، كيف تكون حالك؟»

قال: «تكون أصلح قليلاً وأفسح مدّة.»

قال: «فإن قنعت منك[3] بارتفاع سنة؟»

قال: «يكون فى ذلك بقاء لملكى، وذهاب جميع لذّاتى.»

قال: «فإن قنعت [75] منك[4] بارتفاع الثلث، كيف تكون حالك؟»

قال: يكون السدس للفقراء ومصالح البلاد، ويكون الباقى لجيشي ولسائر أسباب الملك».

فقال: «قد اقتصرت منك على هذا.»

فشكره وانصرف. فلما طلعت الشمس، أقبل جيش الصين، حتى طبّق الأرض، وأحاط بجيش الإسكندر، حتى خافوا الهلاك. وتواثب أصحابه حتى ركبوا الخيل، واستعدوا للحرب بعد الأمن والطمأنينة إلى السلم. فبينا هم كذلك،

---

١. مط: أن يصبوا.

٢. الارتفاع: ما حصل من الزراعة، الخراج.

٣. منك: سقطت من مط.

٤. منك: سقطت من مط.

إذ طلع ملك الصين وعليه التـاج وهـو راكب. فـلما تـراءى[١] الصـفّان، ورأى الاسكندر ملك الصين، قدّر أنه حضر للحرب.

فصاح به: «أغدرتَ؟»

فترجّل، وقال: «لا، والله.»

قال: «فادنُ منى.»

فدنا وقال: «ما هذا الجيش الكثير؟»

قال: «إنى أردت أن أُريك أنّى لا أطيعك من قلّة وضعف، ولكنّى رأيت العالم العلوى مقبلاً عليك، ممكّناً لك ممن هو أقوى منك وأكثر عدداً، ومـن حـارب العالم العلوى غُلب، فأردت طاعته بطاعتك، والتذلل له [76] بالتذلل لك.»

فقال له الاسكندر: «ليس مثلك من يسام الذلّ، ولا من يؤدّى الجـزية. فـما رأيت بينى وبينك من الملوك، من يستحق التفضيل والوصف بالعقل، غيرك. وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك، وأنا منصرف عنك».

فقال ملك الصين: «فلست تخسر.»

ثم انصرف عنه الاسكندر، فبعث إليه ملك الصين بضِعف ما قرّره معه.

□

وبنى الاسكندر اثنتى عشرة مدينة، وسمّاها كلّها «الاسكندرية»، منها: مدينة «جيّ[٢]» بإصبهان، وثلاث مدن أخرى بخراسان، وهي: هراة، ومرو، وسمرقند. وبنى بأرض بابل مدينة لِروشنك، وبنى بأرض يونان سبع مدن[٣].

---

١. مط: رأى!

٢. جيّ: بالفهلوية: Gay (حب) وكانت تسمى شهرستانة (لج: ٢١٩).

٣. وليس لهذا الحديث أصل، لأنه كان مخرّباً ولم يكن بناءاً (حمزة: ٢٩). الروايات الخاصة بالاسكندر تجدها عند الطبرى ٢: ٦٩٢ـ ٧٠٤.

البطالسة

وعُرض على ابن للاسكندر المُلك بعد وفاة أبيه، فأبى واختار النسك. ملّكت اليونانية على رواية أكثر الناس بطليموس. ثم ملك عدة متوالية يقال لكل واحد منهم: «بطلميوس»[1]، كما يقال لملوك الفرس: «الأكاسرة» وتغلّب قوم من اليونانيين بعده على نواحي مصر [77] والشام.



١. باليونانية: Ptalemaios (حب).

الأشغانيّة[١] ومن عاصرهم

واختلف أهل الرواية في عدد ملوك الطوائف الذين ملكوا إقليم بابل، إلى أن قام بالمُلك أردشير بابكان[٢]، فنظم مُلك الفرس. فبعضهم يزعم أنّ آشك[٣] ـ وهو ابن دارا الأكبر ـ جمع جمعاً كثيراً وسار إلى أنطيخس[٤]، وكان مقيماً بسواد العراق من قبل الروم، وزحف إليه أنطيخس. فالتقيا ببلاد الموصل، فقتل أنطيخس، وغلب آشك على السواد، وصار في يده من الموصل إلى الريّ وإصبهان، وعظّمه سائر[٥] ملوك الطوائف لشرفه، وما كان من فعله، وبدأوا به على أنفسهم في كتبهم، وبدأ فيما كان يكتب إليهم بنفسه، وسمّوه ملكاً، وأهدوا إليه، من غير أن يعزل أحداً منهم، أو يستعمله.

ثمّ ملك جوذرز بن أشكان

وهو الذي غزا بني إسرائيل المرّة الثانية. وذلك بعد قتلهم يحيى بن زكريّا.

---

١. فترة الحكم: ٢٥٠ ق م ـ ٢٢٦ م.

٢. أول السلسلة الساسانية. في الأصل: أردشير بن بابكان، فحذفنا «بن» لأن الألف والنون في آخر «بابك» علامة تفيد نسبة البنوّة، فـ«بابكان» أي: ابن بابك. انظر الطبري ٢ : ٧٠٤.

٣. أيضاً الطبري (٢ : ٧٠٩).

٤. Antiochus .

٥. مط: «روابو الملوك» بدل «سائر الملوك»!

فسلّطه الله عليهم، فأكثر القتل فيهم، فلم تعد لهم [جماعة بعد][١] ذلك [78] ورفع الله عنهم النبوّة، وأنزل بهم الذلّ.

وكان من سنّة الفرس بعد الإسكندر، أن يخضعوا لمن ملك بلاد الجبل. فخضعوا للأشغانيّة. وأوّلهم: أشك[٢] بن أشكان، ثمّ سابور بن أشكان ـ وفى أيامه ظهر عيسى بن مريم بأرض فلسطين ـ ثمّ ملك جوذرز بن أشغانان الأكبر، ثمّ بيرى الأشغانى، ثمّ جوذرز الأشغانى، ثمّ نرسى[٣] الأشغانى، ثمّ هرمز الأشغانى، ثمّ أردوان الأشغانى، ثمّ كسرى الأشغانى، ثمّ بلاش الأشغانى، ثمّ أردوان الأصغر الأشغانى، ثمّ أردشير بن بابك.

فكان مدّة هؤلاء إلى أن وثب أردشير على الأردوان، فقتله وجمع أمر الفرس، مائتين وستّاً وستّين سنة. ولم يقع إلينا شيء من تدابيرهم يستفاد منه تجربة إلّا خبر لبعض الروم، وهو:

ذكر حيلة لبعض ملوك الروم

كان أحد ملوك[٤] الفرس وجّه رجلاً من جلّة قوّاده فى جيش إلى ملك الروم، فحاربه، فأجلاه الفارسيّ عن أكثر بلاده، حتّى فتح [79] أنطاكية[٥]، وجاوزها، وأوغل فى بلاد الروم. فجمع ملك الروم رؤساء قومه، فشاورهم. فأشاروا بأمور مختلفة، حتّى انفرد له رجل من أهل مملكته، ولم يكن من أبناء الملوك.

فقال: «إنّ[٦] عندى رأياً أشير به. فإن رزق الله الظفر، فما لى عندك؟»

---

١. ما فى [ ] مطموس فى الأصل، ومأخوذ عن مط.

٢. بالفهلوية: Arshak = أشك: أول الملوك الأشكانيين (حب).

٣. بالفهلوية: Narsah (حب).

٤. ملوك: سقطت من مط.

٥. أنطاكيه: مدينة على شاطئ النهر العاصى [نهر حماة وحمص ويعرف بالميماس ـ يا]، ويقال لها أنتوخيا أيضاً (لد).

٦. إنّ: سقطت من مط.

قال الملك: «سل حاجتك.»

قال: «إنّى أرى الرأى الصحيح، وأخاطر فيه بنفسى، فاجعل لى المُلك من بعدك.»

قال: «نعم»، فوثّق له به.

فقال الرومى: «إنّ الفرس قد طمعت فى مُلكنا، فلم يبق منهم نجد[1] ولا ذو رأيٍ إلّا وجّهوه في وجوهنا، وقد ضعفنا عنهم، وقد حملوا ذراريّهم إلى الشام والجزيرة. فالرأى أن تأذن لى فأنتخب من عسكرك خمسة آلاف رجل، ثم أحملهم في البحر، وأصير من خلفهم، فأوكل بمضائق الطرق، وصعاب العقاب، رجالاً من أصحابى من أهل البأس والنجدة، فإنّ خبرى إذا بلغهم، فتّ فى عضدهم ونخبت[2] قلوبهم، ورجعوا إلى عيالاتهم وأموالهم متقطّعين[3]، فلا [80] يمرّ بالمواضع التي وكّلت بها أحد من الفرس إلّا قُتل، فلا يسلم إلّا القليل الذين إذا صاروا إلى الشام أتيت عليهم[4] وتشرّدهم أنت من خلفهم.»

فأجابه الملك إلى رأيه، وأنفذه إلى الشام. فلما بلغ الفرس أنّ الروم قد خلفتهم في أموالهم، وأهاليهم، خرج أكثرهم على وجوههم متقطّعين لا يلوون على شيء، ومرّوا بمضائق الطرق، فقُتل أكثرهم، وخرج ملك الروم إلى من بقى منهم، فهزمهم، فلم يسلم منهم إلّا القليل. فتحوّل المُلك بذلك السبب من أهل بيت المملكة بالروم، إلى قوم ليسوا من أهل بيتها، بل هم من أهل إرميناقس[5]، فبقى فيهم إلى هذه الغاية.

---

١. النجد: الشجاع.
٢. نخب الحرب فلاناً: جبّنته، أضعفته.
٣. تقطّع أمرهم بينهم: تفرّقوا به. تقطّعت بهم الأسباب: عجزوا، وانقطعت سبلهم.
٤. أتيت عليهم: سقطت من مط.
٥. مط: ارمينافس. وارميناق ناحية من نواحى الروم القديمة (لد).

ذكر سبب طمع العرب في أطراف الفرس

كنّا حكينا من أمر بختنصّر أنّه أنزل الحيرة من العرب جماعة، فانتقلوا بعد موته إلى الأنبار، وبقى الحير خراباً يباباً، زماناً طويلاً، لا تطلع [عليهم] [١] طالعة من بلاد العرب، ولا يطمع [٢] أحد فيهم من الريف، بعدما قصدهم [81] بختنصّر. فلمّا غلب الإسكندر على مملكة الفرس، وجعلها مقسومة فى ملوك الطوائف، ضعف كل واحد منهم فى نفسه، وصار عدوّه بالقرب منه من الأرض، ولكلّ واحد خندق [٣] يقصده الآخر، فيغير بعضهم على بعض، ثمّ يرجع كالخطفة.

وقد كان كثر فى ذلك الزمان أولاد معدّ بن عدنان، ومن كان معهم من قبائل العرب، وملأوا بلادهم من تهامة وما يليهم، وحدثت بينهم أحداث وحروب، فتفرّقوا، وخرجوا يطلبون متّسعاً فى بلاد اليمن ومشار[ف] [٤] الشام، وأقبلت منهم قبائل حتّى نزلوا البحرين وبها جماعة من الأزد، وكانوا نزلوها فى زمان ابن ماء السماء، وتحالف القوم الذين خرجوا من تهامة على التنوخ بالبحرين ـ التُنوخ: المُقام ـ وكان منهم قوم من قُضاعة، وقوم من معدّ، وقوم من إياد. فتعاقدوا على التوازر والتناصر، وصاروا يداً على الناس وصار اسمهم: «تَنوخ».

ثمّ لمّا بلغهم انتشار [82] أمر الفرس واختلاف كلمتهم، تطلّعت نفوسهم إلى ريف العراق، وطمعوا فى الفرس وفيما يلى بلاد العرب من أعمالهم، أو مشاركتهم فيها، واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف، فأجمع رؤساؤهم على

---

١. التكملة من الطبرى. والعبارة فى الطبرى: لا تطلع عليهم طالعة من بلاد العرب ولا يقدم عليهم قادم (٢ : ٧٤٥).

٢. مط: ولا طمع أحد.

٣. معرّب «هندك»، كنده (لد).

٤. فى الأصل: «مشارق، والتصحيح من الطبرى (٢ : ٧٤٥). والمشارف، جمع مشرف: قرى قرب حوران منها بُصرى من الشام، ثمّ من أعمال دمشق. والمشارف من المدن: على مثل مسافة الأنبار من بغداد، والقادسية من الكوفة (يا).

المسير الى العراق. فلمّا ساروا، وجدوا الإرمانيّين ـ وهم القوم الذين بأرض بابل وما يليها إلى ناحية الموصل ـ يقاتلون الأردوانيّين، وهم: ملوك الطوائف، وهم فيما بين نفّر[١] ـ قرية من سواد العراق ـ إلى الأُبلّة[٢] وأطراف البادية. فلم تدن لهم، فدفعوهم عن بلادهم. وإنما قيل: «الإرمانيّين» لأنّه كان يقال لعاد: «إرم»، فلمّا هلكت، قيل لثمود: «إرم»، ثمّ سمّوا: «الإرمانيّين» وهم بقايا «إرم»، وهم نبط السواد. ويقال لدمشق: «إرم».

ثمّ طلع قوم من تيم الله، وغطفان في من تنخ معهم من الحلفاء، والعشائر على الأنبار، على مُلك الإرمانيّين. وطلع قوم من كندة وبني فَهْم مع من حالفهم. وتنخ بعضهم على نفَّر على [83] مُلك الأردوانيّين، فأُنزلوا الحير، فلم تزل طالعة الأنبار وطالعة نفَّر على ذلك، لا يدينون للأعاجم، ولا تدين لهم الأعاجم، حتّى قدمها تُبّع ـ وهو أسعد بن مليكيكرب ـ في جيوشه، فخلّف بها من لم تكن به قوّة ومن لم يقوَ على الغزو معه، ولا الرجوع إلى بلاده. فانضمّوا إلى أهل الحيرة، وخرج تُبّع في حمير سائراً، ثمّ رجع إليهم، فأقرّهم على حالهم، وانصرف إلى اليمن وفيهم من كلّ القبائل من بني لحيان ـ وهم بقايا جُرهُم ـ وطيّء، وكلب، وتميم، وغيرهم، واتّصلت جماعتهم وقووا، وكانوا بين الأنبار والحيرة إلى طفّ[٣] الفرات في المظالّ والأبنية، وكانوا يسمّون[٤]: «عرب الضاحية».

من عاصر الأشغانيّين من ملوك العرب

فكان أوّل من ملك منهم:

مالك بن فهم، وملوك الفرس طوائف، وقد دخل الوهن عليهم، وطمع فيهم.

---

١. نفّر: بلدة على نهر النرس من بلاد الفرس. قال الخطيب: فإن عُني أنّه من بلاد الفرس قديماً جاز. فأمّا الآن فهو من نواحي بابل (مع).

٢. الأُبلّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة (مع).

٣. مط: أطراف.

٤. يسمون: سقطت من مط.

ثمّ ملك أخوه عمرو بن فهم.

ثمّ جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم، فقوى أمره، وكان جيّد الرأى، شديد النكاية فى الأعداء [84] بعيد المُغار. فاستجمع له المُلك بأرض العراق، وضمّ إليه العرب، وغزا بالجيوش، وعظّمته العرب، وكنت ـ عن برص به ـ بـ«الأبرش» وبـ«الوضّاح»، فكان تفد عليه الوفود، وتجبىٰ إليه الأموال.

وكان عنده غلام من إياد يقال له: عدىّ بن نصر بن ربيعة، وضىء، له جمال وظرف، يلى شرابه. فعشقته أخت جذيمة رقاش، ومازالت تحتال، وتواطئه، حتّى زوّجها الملك بعدىّ فى سُكره. فوطئها من ليلته وعلقت[١] منه. فلما أصبح جذيمة وعرف الخبر، ندم ندامة شديدة. وعرف عدىّ الخبر، فهرب، ولحق بإياد حتّى هلك. واشتملت رقاش على حبل، فولدت غلاماً وسمّته عمراً[٢]. فترعرع الغلام وحسن وبرع، فالبسته وحلّته، وأزارته خاله جذيمة، فأُعجب به، وأحبّه، وخلطه بولده، وأمر فطوّق، وهو أوّل عربىّ أُلبس طوقاً. ثمّ تزعم العرب أنّ الجنّ استهوته[٣] زماناً إلى أن عاد إلى [85] جذيمة. وله خبر[٤].

عمرو بن ظَرِب

وكان قد ملك بأرض الحيرة ومشار[ف][٥] بلاد الشام، عمرو بن ظرب بن حسّان العمليقى. فجمع جذيمة جموعه من العرب ليغزوه. وأقبل عمرو بن ظرب بجموعه من الشام. فالتقوا، واقتتلوا قتالاً شديداً، فقُتل عمرو بن ظرب، وفضّت

---

١. علقت منه: أحبّها وشغف بها. علق بها وعلقها: أحبّها. علقت المرأة بالولد: حبلت (لع).

٢. عمرو: يكتب بالواو للفرق بينه وبين عُمَر وتسقطها فى النصب لأنّ الألف تخلفها (لع).

٣. استهوى فلاناً: أثّر فيه حتّى يتقبّل رأيه دون أن يقوم لديه دليل على صحّته.

٤. انظر الطبرى (٢ : ٧٥٢).

٥. فى الأصل ومط «مشارق»، والتصحيح من الطبرى (٢ : ٧٥٦).

جموعه، وغنمه جذيمة وانصرف موفوراً. فملكت من بعده ابنته:

الزبّاء [١]

واسمها نائلة. وكان جنودها بقايا من العماليق، والعاربة الأولى، وقبائل من قُضاعة. فلمّا استحكم حكمها، أجمعت على غزو جذيمة الأبرش تطلب بثأر أبيها. واستشارت أهل الرأي، فأُشير عليها بالعدول عن الحرب إلى المكر، وأعلموها [٢] أنّها امرأة، والحرب سجال [٣] بين الرجال، وأنّها لو قد هُزمت كان البوار، وأعلموها من غبّ [٤] مباشرة مثلها للحرب، ما كرهته.

وأشارت عليها أختها «زنيبة [٥]» وكانت ذات دهاء وإرب ـ أن تأتي الأمر من جهة الخدع والمكر، وأن تكتب إلى جذيمة [86] تدعوه إلى نفسها وملكها. فقبلت ذلك وكتبت إليه:

أنها لم تجد مُلك النساء إلّا إلى قبح في السماع، وضعف في السلطان وقلّة ضبط للمملكة؛ وأنّها لم تجد لمُلكها موضعاً، ولا لنفسها كفوْاً «غيرك. فهلُمّ إليّ، واجمع مُلكي إلى مُلكك، وصِل بلادي ببلادك، وتولّ تدبيري كلّه وأمري، لتموت الضغائن والأحقاد، وتزول عن قلوب الناس ما خامرها من العداوات.»

فلما انتهى كتاب الزبّاء إلى جذيمة، وقدم عليه رسلها بمخاطبات شبيهة بهذا المعنى، استخفّه [٦] ما دعته إليه، ورغب فيما أطمعته فيه. وجمع أهل الرأي من أصحابه، فاستشارهم. فأجمع رأيهم على أن يسير إليها، ويستولي على مُلكها. وكان فيهم رجل يقال له:

---

١. الزبّاء: Zenobia (المفصّل ٣: ٩٩).

٢. في الأصل: أعلموه.

٣. السجال: المباراة، والمفاخرة.

٤. الغِب من كلّ شيء: عاقبته وآخرته.

٥. زنيبة: مهملة في الأصل، والإعجام من الطبري. في مط: «زنيبة» وهي تنطبق على زنوبيا Zenobia أكثر من انطباقها على ما في الطبري (زبيبة).

٦. استخفّه: استفزّه.

قصير بن سعد[١]

وكان سعد هذا تزوّج أمة تخدم لجذيمة[٢]، فولدت له قصيراً، وكان حازماً، أريباً، أثيراً عند جذيمة. فخالفهم في ما [87] أشاروا به عليه، وقال:

ـ «رأى فاتر[٣] وغدر[٤] حاضر.» ـ فذهب مثلاً.

فنازعوه الرأى، فقال لجذيمة:

ـ «أكتبْ إليها: فلتقبل إليك إن كانت صادقة. فإن لم تفعل، لم تسر إليها ممكّناً [إيّاها][٥] من نفسك وقد وترتها، وقتلت أباها.»

فلم يوافق جذيمة ما أشار به عليه قصير، وقال جذيمة:

ـ «أنت امرؤ رأيك في الكنّ[٦]، لا في الضحّ[٧]» ـ فذهبت مثلاً.

دعا جذيمة ابن أخته عمرو بن عديّ، فاستشاره، فشجّعه على المسير، وقال:

ـ «هناك نُمارة[٨] قومي، ولو قد رأوك[٩]، صاروا معك.»

فأطاعه وعصىٰ قصيراً. فقال قصير:

ـ «لا يطاع لقصير أمر.»

وفي ذلك يقول الشعراء ما حذفناه طلب الإيجاز.

واستخلف جذيمة عمرو بن عديّ على مُلكه وسلطانه. وسار في وجوه

١. أنظر الطبرى (٢ : ٧٥٨).

٢. مط: تزوّج أمَة خدمة لجذيمة!

٣. الفاتر: الضعيف.

٤. مط: عذر.

٥. إيّاها: تكملة منّا.

٦. الكنّ: كل ما يردّ الحرّ والبرد من الأبنية والغيران ونحوها.

٧. الضَّحّ: الشمس أوضوؤها إذا استمكن من الأرض. ما أصابته الشمس. البراز الظاهر من الأرض.

٨. نمارة: بطن من إياد من العدنانية (كحّالة).

٩. في الطبري: ولو قدروا لصاروا معك. بدل: ولو قد رأوك صاروا معك (٢ : ٧٥٩).

أصحابه، فأخذ على الفرات من الجانب الغربيّ. فلمّا نـزل رحـبة[١] مـالك بـن طوق ـ وكان تدعىٰ فى ذلك الزمان «الفُرضة» ـ دعا قصيراً، فقال:

ـ ما الرأى؟» فقال:

«ببقّة[٢] تركت الرأى.» ـ فذهبت مثلاً. [88]

واستقبلته رسل الزبّاء بالهدايا والألطاف، فقال:

ـ «يا قصير كيف ترىٰ؟» قال:

ـ «خطر يسير في خطب كبير ـ فذهبت مثلاً ـ وستلقاك الخيل، فإن سارت أمامك فإن المرأة صادقة، وإن أخذت جنبتيك، فالقوم غادرون، فاركب العـصا، فإنّى مُسايرك عليها.»

وكانت العصا فرساً لجذيمة لا تُجارىٰ، فلقيته الخيول والكتائب، فحالت بينه وبين العصا، فركبها قصير مولّياً على متنها، فقال:

ـ «ويلُ أمّه حزماً على ظهر العصا.» ـ فذهبت مثلاً.

ونجا قصير، وأُدخل على الزبّاء. فلما رأته كشفت له عن إسبها[٣]، فـإذا هـو مضفور. فقالت:

ـ «يا جذيمة! أ دأب عروس ترىٰ؟» ـ فذهبت مثلاً.

فقال: «بلغ المدىٰ، وجفّ الثرىٰ، وأمر غدر أرى.» ـ فذهبت مثلاً.

فتمّت حيلتها على جذيمة، حتّى قتلته بأن قطعت راهشيه[٤]، فى خبر طويل، وأمثال محفوظة. فهلك جذيمة، وخرج قصير حتى قدم على عمرو بـن عـدىّ

---

١. رحبة مالك بن طوق: على الفرات بين الرقّة والعانة، أحدثها مالك بن طوق فى خلافة المأمون (مع) = رحبة الشام (لح).

٢. بقّة: اسم موضع قريب من الحيرة، وقيل: حصن كان على فرسخين من هيت كان نزله جذيمه الأبرش (مع).

٣. الإسب: شعر الفرج، وقيل: شعر الإست. الشعر النابت على قُبل المرأة والرجل.

٤. الراهشان: عرقان فى باطن الذراعين.

[89] وهو بالحيرة.

فقال له قصير: «أ داثر[١]، أم ثائر؟» فقال: ـ «بل ثائر سائر.» ـ فذهبت مثلاً.

ذكر حيلة لقصير على الزبّاء تمّت له عليها

كانت الزبّاء قد سألت الكهنة والمنجّمين عن أمرها ومُلكها، فقالوا:

ـ «نرىٰ هلاككِ بسبب غلام مهين غير أمين.»

ووصفوا قصيراً وعمرو بن عديّ، وقالوا:

ـ «لن تموتي إلّا بيده، ولكنّ حتفك بيدك، ومن قبله ما يكون.»

فحذرت عمراً، واتّخذت نفقاً من مجلسها الذى كانت تجلس فيه، إلى حصن لها داخل مدينتها، وقالت: إن فجئني أمر دخلت النفق إلى حصني.

ثمّ دعت مصوّراً حاذقاً فجهّزته، وقالت:

ـ «سِر حتّى تقدم على عمرو بن عديّ متنكّراً فتخلو بحشمه وتخالطهم بما عندك من التصوير، ثمّ أثبت[٢] عمرو بن عديّ معرفة، فصوّره جالساً، وقائماً، وراكباً، ومتفضّلاً[٣]، ومتسلّحاً بهيئته، ولبسته، وثيابه، ولونه. فإذا أحكمت ذلك، فأقبل إليّ.»

فانطلق المصوّر، حتّى قدم على عمرو بن عديّ [90] وبلغ جميع ما وصّته به، ثمّ رجع إليها بما وجّهته له من الصور، فعرفت عمراً على جميع هيئاته، وحذرته.

ثمّ إنّ قصيراً قال لعمرو: «إجدع أنفي، واضرب ظهري، ودعني وإيّاها.»

فقال عمرو: «وما أنا بفاعل، ولا أنت بمستحقّ منّي لذلك.»

فقال قصير: «خلّ عنّي إذاً وخلاك ذمّ.» فذهبت مثلاً.

---

١. الداثر: الغافل. دثر السيف. صدى. دثر القلب: غفل.

٢. أثبته: عرفه حق المعرفة.

٣. تفضّل: لبس الفِضال. والفِضال ما يلبس في البيت.

فقال له عمرو: «فأنت أبصر.»

فجدع قصير أنف نفسه، وأثّر بظهره، وقيلت فيه الأشعار. وخرج قصير كـأنّه هارب، وأظهر أنّ عمراً فعل به ذلك، وأنّه يزعم أنّه مكرَ بخاله جذيمة، وغرّه من الزبّاء.

فسار قصير حتّى قدم على الزبّاء. فقيل لها: «إنّ قصيراً بالباب.»

فأمرت به، فأُدخل عليها، فإذا أنفه قد جدع وظهره قد ضرب.

فقالت: «ما الذى أرى بك يا قصير؟»

قال: «زعم عمرو أنّى غـررت خـاله، وزيّـنت له المسير إليكِ، وغششـته، ومالأتكِ[1] عليه، ففعل بى ما ترين، فأقبلت إليكِ، وعرفت أنّى لاأكون مع أحد هو أثقل [91] عليه منكِ.»

فأكرمته، وأصابت عنده حزماً ورأياً وتجربة ومعرفة بأمور الملوك. فلمّا علم أنّها قد وثقت به، واسترسلت إليه، قال لها:

ـ «إنّ لى بالعراق أموالاً كثيرة، وبها طرائف وثياب وعطر، فابعثنى إلى العراق لأحمل مالى، وأحمل إليك من بزوزها، وطرائف ثيابها، وصنوف ما يكون بها من الأمتعة، والطيب، والتجارات، فتصيبين ما لا غناء للملوك عنه، مع أرباح عظيمة، فإنّه لا طرائف كطرائف العراق.»

فلم يزل بها يزيّن لها ذلك، حتّى سرّحته، ودفعت إليه أموالاً، وجـهّزت مـعه عيراً، وقالت:

ـ «انطلق إلى العراق، فبع بها ما جهّزناك به، وابتع لنا طرائف ما يكون بها.»

فسار قصير، وأتى الحيرة متنكّراً، فدخل على عمرو، وأخبره بالخبر، وقال:

ـ «جهّزنى بالبزّ والطرف من الأمتعة، لعلّ الله يمكّن من الزبّاء، فتصيب ثأرك،

---

١. مالأه: ساعده.

وتقتل عدوّك.»

فأعطاه حاجته، وجهّزه بصنوف الثياب وغيرها. فرجع بذلك كلّه إلى الزبّاء [92] فعرضه عليها. فأعجبها ما رأت، وازدادت به ثقة، وإليه طمأنينة، ثمّ جهّزته بأكثر ممّا كانت جهّزته به. فسار حتّى قدم العراق، ولقى عمرو بن عدىّ، وحمل من عنده ما ظنّ أنّه موافق للزبّاء، ولم يترك جهداً ولا حيلة فى طرفة ولا متاع قدر عليه إلّا حمله إليها.

ثمّ عاد الثالثة إلى العراق. فقال لعمرو:

ـ «اجمع إلىّ ثقات قومك وأصحابك وجندك. وهيّئ لى الغرائر[1] والمسوح[2].»

وحمل كلّ رجلين فى غرارتين، وجعل معقد رؤوس الغرائر من باطنها، وقال:

ـ «إذا دخلنا مدينة الزبّاء، أقمتك على باب نفقها، وخرجت الرجال من الغرائر، فصاحوا بأهل المدينة، فمن قاتلهم قتلوه، وإذا أقبلت الزبّاء تريد النفق، حلّلتها بالسيف.»

ففعل عمرو بن عدى جميع ذلك. فلمّا قرب من المدينة، تقدّم قصير إليها، وبشّرها، وأعلمها كثرة ما حمل إليها من الثياب، وسألها أن تخرج فتنظر إلى قُطُرات تلك الابل، وما عليها من الأحمال. وكان قصير يكمن النهار ويسير بالليل. فخرجت الزبّاء فأبصرت [93] الإبل. فلمّا توسّطت الإبل المدينة أنيخت، ودلّ قصير عمراً على باب النفق، وخرجت الرجال من الغرائر، وصاحوا بأهل المدينة، ووضعوا فيهم السلاح. وقام عمرو بن عدىّ بباب النفق، وأقبلت الزبّاء مبادرة تريد النفق لتدخله. فأبصرت عمراً قائماً، فعرفته بالصورة التى صوّرها المصوّر، فمصّت خاتمها وكان فيه سمّ، وقالت:

---

١. الغرائر: جمع مفرده الغرارة، وهى وعاء من الخيش يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق.

٢. المسوح: جمع المسح: الكساء من شعر.

ـ «بيدى، لا بيدك ياعمرو!»
فحلّلها بالسيف، فقتلها وأصاب ما أصاب، وانكفأ[١] سالماً.

عمرو بن عديّ

وصار المُلك بعد جذيمة لعمرو بن عديّ بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عمرو بن نُمارة بن لخم، وهو أول من اتّخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، وإليه تنسب ملوك آل نصر، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة، لا يدين لملوك الطوائف، ولا يدينون له، حتّى قدم أردشير بن بابك في أهل فارس، فكان من أمرهم ما كان.[٢]

ولم يكن لملوك اليمن نظام قبل آل نصر، وإنّما كان الرئيس يكون ملكاً على مخلافه[٣] ومحجره[٤]، ولا يتجاوزه، [94] فإن نبغ منهم نابغ مثل تُبّع وغيره، فتجاوز ذلك، فإنّما هو عن غير نظام ولا مُلك موطّد [له][٥] ولا لآبائه، ولا لأبنائه، ولكن كالذى يكون من بعض من تشرّد، فيغير عند الغرّة، فإذا قصده الطلب، لم يكن له ثبات. فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد، في قديم الدهر، يخرج من مخلافه ومحجره أيّاماً، فيصيب ما مرّ به، ثمّ يتشمّر عند الطلب[٦] راجعاً إلى موضعه من غير أن يدين له أحد من غير أهل مخلافه ومحجره بالطاعة، أو يؤدّى إليه خرجاً إلّا ما يصيب على جهة الغارة، حتي كان عمرو بن عديّ، إبن أخت جذيمة، فإنّه اتّصل له ولعقبه ولأسبابه المُلك على من كان بنواحى العراق، وبادية الحجاز، باستعمال ملوك فارس إيّاهم

١. انكفأ: رجع، انصرف.
٢. انظر الطبرى ٢ : ٧٦٨.
٣. المخلاف: الكورة، وهي المحافظة، أو المديرية في الإصطلاح الحديث.
٤. المحجر: محجر القيل من أقيال اليمن: حوزته، وناحيته، وحماه.
٥. تكملة أوردناها لما يبدو هنا من نقص.
٦. عند خوف الطلب (الطبرى ٢ : ٧٦٩).

واستكفائهم أمر من وليهم من العرب.

طَسْمٌ وجَديسٌ

وممّن أساء السيرة فاصطلم[١]، طسم وجديس[٢]، وكانوا في أيّام ملوك الطوائف. فأما طسم فكان الملك [95] فيهم، وكانوا ساكني اليمامة، وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً، لهم فيها صنوف الثمار، ومعجبات الحدائق والقصور الشامخة. وكان ملكهم ظلوماً غشوماً راكباً هواه. فكان مما لقوا من ظلمه: أنه أمر ألّا تهدى بكر من جديس إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعها[٣]. فغبر على ذلك دهراً، حتى أنف منهم رجل يقال له: الأسود بن عفار[٤].

فقال لرؤساء قومه:

ـ «قد ترون ما نحن فيه من العار والذلّ، الذي ينبغي للكلاب أن تعافه، وتمتعض منه، فأطيعوني، فإنّي أدعوكم إلى عزّ الدهر ونفي الذلّ.»

قالوا: «وما ذاك؟»

فأخذ عهودهم إلى أن وثق ثم قال:

ـ «إنّي صانع للملك طعاماً، فإذا حضر نهضنا إليهم بأسيافنا، فانفردت به فقتلته، وأجهز كلّ رجل منكم على جليسه.»

فأجابوه إلى ذلك، واجتمع رأيهم عليه. فاتّخذ طعاماً وأمر قومه، فانتضوا سيوفهم ودفنوها في الرمل، وقال:

ـ «إذا أتاكم [96] القوم يرفلون في حللهم فخذوا سيوفكم ثم شدّوا عليهم قبل

---

١. اصطلمهم العدو أو الموت: استأصلهم وأبادهم.

٢. أنظر الطبري ٢ : ٧٧١، وابن الأثير ١ : ٣٥١.

٣. افترع البكر: افتضّها.

٤. الطبري: غفار.

أن يأخذوا مجالسهم، ثم اقتلوا الرؤساء، فإنّكم إذا قتلتموهم لم تكن السفلة شيئاً.»

وحضر الملك، فقُتل وقُتل الرؤساء، ثم شدّوا على البقيّة، فأفنوهم.

حدّة بصر اليمامة

فهرب رجل من طسم يقال له: رياح بن مُرّة، حتى أتى حسان بن تُبّع، فاستغاث به. فخرج حسّان بن تُبّع في حمير، فلمّا كان من اليمامة على ثلاث، قال له رياح:

ـ «أبيت اللعن، إنّ لي أختاً متزوّجة في جديس يقال لها: اليمامة، ليس على وجه الأرض أبصر منها. إنها لتبصر الراكب من مسيرة ثلاث، وإني أخاف أن تنذر القوم، فمُر أصحابك، فليقطع كلّ رجل منهم شجرة فيجعلها أمامه.»

ففعلوا ذلك، فأبصرتهم، فقالت لجديس:

ـ «لقد سارت حمير.»

فكذّبوها وقالوا:

ـ «ما الذي ترين؟»

قالت: «أرى رجلاً في شجر معه كتف يتعرّقها[1] أو نعل يخصفها.»

فلم يستمعوا منها، واستهانوا، فكان كما قالت. وصبّحهم حسّان فأبادهم [97] وأخرب بلادهم، وهدّم قصورهم وحصونهم. وأتى حسّان باليمامة ففقأ[2] عينها، وقالت العرب في ذلك الأشعار، وهي معروفة.

---

١. تعرّق العظم: أكل ما عليه من اللحم نهشاً بأسنانه.

٢. فقأ العين: شقّها فخرج ما فيها.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الساسانيّة[1] ومن عاصرهم

أردشير بن بابك

ثمّ لمّا استولى أردشير بن بابك[2] على الأرمانيّين (وهم ملوك العراق وأنباط السواد، وكان كلّ واحد منهم يقاتل صاحبه، فاستولى أردشير عليهما، وقتل الأردوان ـ ويسمّى «شاهنشاه»)، كره كثير من تَنوخ أن يقيموا في مملكته، فخرجوا، فلحقوا بالشام، وانضمّوا إلى من كان هناك، وكان ناس من العرب يحدثون الأحداث لو تضيق بهم المعيشة، فيخرجون إلى ريف العراق وينزلون الحيرة على ثلاثة أثلاث: الثلث [الأوّل[3]]: «تنوخ»، وهم[4] من كان يسكن المظالّ وبيوت الشعر والوبر في غربيّ الفرات فيما بين الحيرة والأنبار وما فوقها. والثلث الثاني: «العبّاد»، وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا بها. والثلث الثالث: «الأخلاف»، وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيهم ممن لم تكن من تنوخ الوبر [98] ولا من العبّاد الذين دانوا لأردشير. وكانت الحيرة والأنبار جميعاً بُنيتا في زمن بختنصّر، فخربت الحيرة لما تحول أهلها عند هلاك بختنصّر إلى الأنبار، وعمرت الأنبار خمسمائة وخمسين سنة إلى أن عمرت الحيرة في زمن عمرو بن عديّ باتّخاذه إيّاها منزلاً، فعمرت الحيرة خمسمائة وبضعاً وثلاثين سنة، إلى أن

---

١. فترة الحكم: ٢٢٤ ـ ٦٥٢ م (فم).

٢. أنظر الطبرى (٢ : ٨١٣).

٣. الأوّل: تكملة منّا.

٤. فى الأصل: وهو.

وضعت الكوفة، ونزلها المسلمون.

ودبّر أردشير أمر الفرس والعرب، وردّ نظام المُلك، وكان حازماً أريباً كثير الإستشارة طويل الفكر، معتمداً في تدبيره على رجل فاضل من الفرس يعرف بـ «تَنسر»، وكان هربذاً. فلم يزل يدبّر أمره ويجتمع معه على سياسة الملك، إلى أن أطاعه من جاوره من ملوك الطوائف، وعرفوا فضله، ودخلوا تحت رايته رهبة ورغبة، وحارب من امتنع منهم عليه.

وله مكائد وحروب يطول الكتاب بذكرها. فمن أحسن ما حفظ له عهده إلى الملوك بعده، وهذه نسخته: [99]

عهد أردشير

ـ «باسم وليّ الرحمة.[١] من ملك الملوك أردشير بن[٢] بابك، إلى من يخلفه[٣] بعقبه من ملوك فارس، السلام والعافية. أمّا بعد[٤]، فإنّ صيغ[٥] الملوك على غير صيغ[٦] الرعية، فالملك يطبعه[٧] العزّ والأمن والسرور والقدرة، على طباع الأنفة والجرأة والعيث[٨] والبطر. ثم كلّما ازداد في العمر تنفّساً وفي المُلك سلامة، زاده[٩] في هذه الطبائع الأربع[١٠]، حتّى يسلمه[١١] إلى سكر السلطان الذى هو أشدّ من سكر الشراب، فينسى النكبات والعثرات[١٢] والغير

١. ر: بدون بسملة. غ: بسم الله الرحمن الرحيم.
٢. غ: من أردشير ملك الملوك.
٣. غ: يخلف.
٤. غ: بدون «أما بعد».
٥. مط: منع.
٦. مط: منع.
٧. غ: يطبعه.
٨. غ: البطر والعيث.
٩. غ: «ثم له كلما ازداد... زيادة» بدل «ثم كلما ازداد... زاده».
١٠. في الأصل: الأربعة. والتصحيح من غ.
١١. غ: يسلّمه ذلك منه.
١٢. غ: بدون «العثرات».

والدوائر وفُحش تسلّط الأيام، ولؤم غلبة الدهر، فيرسل يده ولسانه بالفعل والقول. وقد قال الأوّلون منّا: عند حسن الظنّ بالأيّام تحدث الغير. وقد كان من الملوك من يذكّره عزّه الذلّ، وأمنه الخوف، وسروره الكآبة، وبطره [السوقة][١]، [وقدرته المعجزة][٢]. ولا حزم إلّا في جميعها.

ـ «اعلموا أنّ الذى أنتم [100] لاقون بعدى، هو الذى لقينى[٣] من الأمور، وهى بعدى واردة عليكم [بمثل الذى وردت به عليَّ][٤]، فيأتيكم السرور والأذى في المُلك من حيث أتيانى، وأن منكم من سيركب المُلك صعباً فيُمنىٰ من شماسه[٥] وجماحه وخبطه واعتراضه بمثل الذى منيت به.[٦] ومنكم من سيرث المُلك عن الكفاة المذلّلين له مركبه، وسيجرى على لسانه ويلقىٰ فيه قلبه[٧] أن قد فُرع[٨] له، وكُفي، واكتفى وفرغ للسعى فى العبث والملاهى[٩]، وأنّ من قبله من الملوك إلى التوطيد له أجروا، وفى التمكين له سعوا، وأن قد خُصّ بما حُرموا، وأُعطى ما مُنعوا، فيُكثر أن يقول مسرّاً ومعلناً: خُصّوا بالعمل وخصصت بالدعة، وقدّموا

١. فى الأصل: بالسوقة، مهملة، فاعجمناها وحذفنا الباء. فى مط أيضاً: بالسوقة.

٢. زيادة من غ. وقدرته المعجزة. فإذا هو قد جمع مهجة («بهجة» ـ رسائل البلغاء) الملوك، وفكرة السوقة («وحذر الرعية ـ رسائل البلغاء) ولا حزم إلّا فى جمعها» بدل: «بطره... جميعها».

٣. غ: لقبته.

٤. زيادة من غ.

٥. الشماس: الإباء.

٦. غ: منيت به منه. يقال: منى الله (يمنى منياً) فلاناً بكذا. أى ابتلاه وأصابه.

٧. غ: أمنيته.

٨. غ: فرغ، بالغين المعجمة. وفَرع (بالعين المهملة) الفرس: كبحه.

٩. غ: فى السعى فى الملاهى واللعب.

قبلي إلى الغرر، وخُلّفت في الثقة.

وهذا الباب من الأبواب التي تكسر سكور[١] الفساد، ويهاج بها قربات[٢] البلاء، ويغني البصيرَ اللطيف ما ينتهك من الأمور في ذلك[٣]. فإنّا قد رأينا الملك الرشيد السعيد المنصور المكفيّ المظفر [101] الحازم في الفرصة، البصير بالعورة، اللطيف [للشبهة][٤] المبسوطَ له في العلم والعمر؛ يجتهد فلا يعدو[٥] صلاحُ ملكه حياتَه[٦]، إلّا أن يتشبّه به متشبّه. ورأينا الملك القصير عمره، القريبة مدّته، إذا كان سعيه بإرسال اللسان بما قال، واليد بما عملت، بغير تدبير[٧] يدرك، أفسد جميع ما قُدّم له من الصلاح قبله، ويخلّف المملكة خراباً على من بعده[٨].

ـ «وقد علمتُ أنكم ستبلون[٩] مع المُلك بالأزواج والأولاد والقرناء والوزراء والأخدان والأنصار والأصحاب والأعوان والمتنصّحين والمتقربين والمضحكين والمزيّنين[١٠]: كلّ هؤلاء ـ إلّا قليلاً ـ أن يأخذ لنفسه أحبّ إليه من أن يعطي منها، وإنّما عمله لسوق يومه وحياة غده. فنصيحته الملوك[١١] فضل نصيحته لنفسه، وغاية الصلاح عنده صلاح نفسه، وغاية الفساد عنده فسادها.

١. جمع مفرده السكر: ما يسدّ به النهر ونحوه.
٢. ر: دواهم، بدل: «قربات».
٣. غ: بدل «تكسر... في ذلك»: يكثر بها فنون البلاء، وتعيي البصر عن لطيف ما ينتهك من الأمور في ذلك».
٤. زيادة من غ.
٥. في الأصل: يعدو.
٦. حياته: مهملة في الأصل والتصحيح من مط.
٧. غ: صواب تدبير.
٨. غ: بدل «أفسد... من بعده»: أفسد واستفسد جميع ما قدّم له من قبله، وخلّف المملكة خراباً من بعده.
٩. غ: ستبتلون.
١٠. المزيّن: الحلّاق. غ: المتزيّنين.
١١. غ: لملوك.

يجعل نفسه هي العامّة، والعامّة[١] هي الخاصّة: فإن[٢] خُصّ بنعمة دون الناس فهي عنده نعمة عامّة، وإذا عَمّ [102] الناس بالنصر على العدوّ، والعدل في البيضة، والأمن على الحريم، والحفظ للأطراف، والرأفة من الملك،والاستقامة من المُلك، ولم يخصص من ذلك بما يرضيه، سمّى تلك النعمة نعمة خاصّة. ثم أكثر شكيّة[٣] الدهر، ومذمّة الأمور. يقيم للسلطان سوق المودّة ما أقام له سوق الأرباح، ولا يعلم ذلك الوزير والقرين أنّ في التماس الربح على السلطان فساد جميع الأمور[٤]، وقد قال الأوّلون منّا: رشاد الوالي خير للرعيّة من خصب الزمان[٥].

ـ «واعلموا أنّ المُلك والدين أخوان توأمان، لا قوام لأحدهما إلّا بصاحبه، لأنّ الدين أُسّ المُلك وعماده،[٦] وصار الملك بعدُ حارس الدين، فلابدّ للمُلك من أُسّه، ولابدّ للدين من حارسه، فإنّ[٧] ما لا حارس له ضائع، وإنّ ما[٨] لا أسّ له مهدوم. وإنّ رأس ما أخاف عليكم مبادرة السفلة إيّاكم إلى دراسة الدين [وتلاوته والتفقّه فيه، فتحملكم الثقة بقوّة السلطان][٩] على التهاون بهم[١٠]، فتحدث في الدين رئاسات مستسرّات في من قد وترتم[١١] وجفوتم [103]

١. غ: ويجعل العامة.
٢. غ: فإذا.
٣. غ: شكاية.
٤. غ: بدل «ولا يعلم ذلك الوزير... فساد جميع الأمور»: «ولا يعلم ذلك الوزير أنّ الوضيعة عنده في التماس الربح على السلطان».
٥. في رسائل البلغاء: رشاد الملك. في كامل المبرّد: عدل السلطان.
٦. غ: بدون «عماده».
٧. غ: لأنّ.
٨. غ: بدون «إنّ».
٩. ما بين [ ] زيادة من ر، غ.
١٠. مط: به.
١١. وتره: قتل حميمه وأدركه بمكروه.

وحرمتم وأخفتم وصغّرتم من سفلة[١] الناس والرعيّة وحشو العامّة، ولم يجتمع[٢] رئيس فى الدين مسرّ، ورئيس في المُلك معلن، فى مملكة واحدة قطّ، إلّا انتزع الرئيس فى الدين ما فى يد الرئيس في المُلك، لأنّ الدين أسّ والمُلك عماد، وصاحب الأسّ أولىٰ بجمع[٣] البنيان من صاحب العماد.

ـ «وقد مضى قبلنا ملوك كان الملك منهم يتعهد الجملة بالتفسير[٤] والجماعات بالتفصيل[٥]، والفراغ بالأشغال، كتعهّده جسده بقصّ فضول الشعر والظفر وغسل الدرَن والغمْر[٦] ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن. وقد كان من أولئك الملوك من صحّة مُلكه أحبّ إليه من صحّة جسده، وكان بما يخلّفه من الذكر [الجميل[٧]] المحمود، أفرح وأبهج منه بما يسمعه بأُذنه فى حياته. فتتابعت تلك الأملاك بذلك كأنهم ملك واحد، وكأنّ أرواحهم روح واحدة، يمكّن أوّلهم لآخرهم، ويصدّق آخرهم أوّلهم بجميع أنباء أسلافهم، ومواريث آرائهم[٨]، وصياغات عقولهم، عند الباقى منهم بعدهم، فكأنّهم جلوس [104] معه، يحدّثونه، ويشاورونه[٩]، حتى كان على رأس دارا بن دارا ما كان، وغلبة[١٠] الاسكندر على ما غلب[١١] من مُلكنا. فكان إفساده أمرنا، وتفريقه جماعتنا، وتخريبه عمران مملكتنا، أبلغ له في ما أراد من سفك دمائنا. فلمّا أذن الله فى

١. السّفله والسّفلة من الناس: أسافلهم وغوغاؤهم.
٢. غ: واعلموا أنه لن يجتمع.
٣. غ: بجميع.
٤. ر. بالتفتيش.
٥. مط: والجماعة بالتحصيل.
٦. الغمر: الحقد والغلّ. نتن العَرَق.
٧. زيادة من غ.
٨. غ: آبائهم.
٩. غ: ويشاورهم.
١٠. غ: من غلبة.
١١. غ: غلب عليه.

جمع مملكتنا ودولة أحسابنا، كان من ابتعاثه[١] إيّانا ما كان، وبالاعتبار[٢] تتّقي الغير، ومن يخلفنا أوجد للاعتبار، منّا، لما استدبروا من أعاجيب ما أتى علينا.

ـ «واعلموا أنّ سلطانكم إنّما هو على أجساد الرعيّة، وأنّه لا سلطان للملوك على القلوب. واعلموا أنكم إن غلبتم الناس على ذات[٣] أيديهم، فلن تغلبوهم على عقولهم. واعلموا أنّ العاقل [المحروم][٤] سالّ عليكم لسانه، وهو أقطع سيفيه، وإنّ أشدّ ما يضربكم[٥] به من لسانه، ما صرف الحيلة فيه إلى الدين: فكأنّ بالدين يحتجّ وللدين ـ فيما يُظهر ـ يغضب، فيكون للدين بكاؤه، وإليه دعاؤه، و[٦]هو أوجد للتابعين والمصدّقين والمناصحين والمؤازرين [105] منكم. لأنّ بغضة الناس هي موكّلة بالملوك، ومحبّتهم ورحمتهم موكّلة بالضعفاء المغلوبين. وقد كان مَن قبلنا من الملوك يحتالون لعقول من يحذرون، بتخريبها. فإنّ العاقل لا تنفعه [جودة][٧] نحيزته[٨] إذا صُيّر عقله خراباً [مواتاً][٩]، وكانوا يحتالون للطاعنين بالدين على الملوك، فيسمّونهم المبتدعين، فيكون الدين هو الذي يقتلهم ويريح الملوك منهم. ولا ينبغي للملك أن يعترف للعبّاد والنسّاك [والمتبتّلين][١٠] أن يكونوا أولى بالدين، ولا أحدب[١١] عليه، ولا أغضب له منه. ولا ينبغي للملك أن يدع

---

١. غ: ابتعاث الله.
٢. غ: العثار.
٣. غ: ما في.
٤. زيادة من غ.
٥. غ: ما يضرّكم.
٦. غ: «ثم» بدل «و».
٧. زيادة من غ.
٨. النحيزة: الطبيعة.
٩. زيادة من غ.
١٠. زيادة من غ.
١١. حدب عليه: عطف.

النسّاك بغير الأمر والنهى لهم فى نسكهم [ودينهم][١] فإنّ خروج النساك وغير النسّاك من الأمر والنهى عيب على الملوك وعيب على المملكة. وثلمة يتسنّمها الناس بنيّة[٢] الضرر للملك ولمن بعده.

ـ «واعلموا أنّ مصير الوالي إلى[٣] غير أخدانه، وتقريبه غير وزرائه، فتح لأبواب [الأنباء][٤] المحجوب[٥] عنه علمها. وقد قيل: إذا استوحش الوالي ممّن لم [106] يوطّن[٦] نفسه عليه، أطبقت عليه ظلم الجهالة[٧]، وقيل: أخوف ما تكون العامّة آمن ما يكون الوزراء.

ـ «اعلموا أنّ دولتكم تؤتىٰ من مكانين: أحدهما غلبة بعض الأمم المخالفة لكم، والآخر فساد أدبكم[٨]. ولن يزال حريمكم من الأمم محروساً، ودينكم من غلبة الأديان محفوظاً، ما عظّمت فيكم الولاة، وليس تعظيمهم بترك كلامهم، ولا إجلالهم بالتنحّى عنهم، ولا المحبّة لهم بالمحبّة لكل ما يحبّون. ولكن تعظيمهم تعظيم أديانهم وعقولهم، وإجلالهم إجلال منزلتهم من الله، ومحبّتهم محبّة إصابتهم، وحكاية الصواب عنهم.

١. زيادة من غ. ٢. غ: بينة الضرر.
٣. مط: علي. ٤. الأنباء: زيادة من غ.
٥. ر: لأبواب محجوب. ٦. ص: مما يوطّن.
٧. قس هذه السطور بما جاء فى رسائل البلغاء: «وإذا أذن الملك للعقلاء من مناصحى دولته، فى إنهاء ما يتجدّد عندهم من النصائح التى لا يعلمها خواصه، أو يعلمونها ويكتمونها، انفتحت له أبواب من الأخبار المحجوبة عنه، فيحذر وزراؤه وخواصه من الاتفاق على أمر يكرهه، خوفاً من أن يطالع به، فيأمن مكائدهم، وتسلم الرعية من ظلمهم؛ ومن غلبت عليه خواصه، حتى منعوا عنه الناس، فلا يصل إليه إلّا من يحبّون، أطبقت ظلم الجهالة عليه».
٨. ص: رأيكم.

ـ «واعلموا أنه لا سبيل إلى أن يعظّم الوالى إلّا بالإصابة فى السياسة، ورأس إصابة السياسة أن يفتح الوالى لمن قبله من الرعية بابين: أحدهما باب رقّة ورحمة [ورأفة وتضرّع وبذل وتحنّن وإلطاف ومواساة ومؤانسة][١] وبشر وتهلل [وعفو][٢] وانبساط وانشراح؛ والآخر: باب غلظة وخشية[٣] وتعنّت [107] وتسدّد وامساك ومباعدة وإقصاء ومخالفة ومنع وقطوب[٤] وانقباض [وتضييق وعقوبة][٥] ومحقرة إلى أن يبلغ القتل. واعلموا أنّى لم أسمّ [هذين البابين][٦] باب رفق وباب عُنف، ولكنّى [سمّيتهما][٧] جيمعاً «بابى رفق»، لأنّ[٨] فتح باب المكروه مع باب السرور هو أوشك لغلقه[٩]، حتّى لا يبتلى به أحد. و[١٠] فى الرعيّة من الأهواء الغالبة للرأى والفجور المستثقل للدين والسفلة الحنقة على الوجوه بالنفاسة والحسد، ما لابدّ معه أن يقرن بباب الرأفة باب الغلظة، وبباب الإستبقاء باب القتل، وقد يُفسد الوالى بعض الرعيّة من حرصه على صلاحها، ويغلظ[١١] عليها من رقّته لها[١٢]، ويقتل[١٣] فيها من حرصه على حياتها.

ـ «واعلموا أنّ قتالكم الأعداء من الأمم قبل قتالكم الأدب من أنفس رعيّتكم، ليس بحفظ، ولكنّه إضاعة. وكيف يُجاهد العدوّ

---

١. زيادة من غ.
٢. زيادة من غ.
٣. غ: وخشنة وتعصب وتشديد وجفاء، بدل «وخشية وتعنّت وتسدد وامساك».
٤. غ: «عبوس» بدل «قطوب».
٥. زيادة من غ.
٦. فى الأصل: هذا الباب، والتصحيح من غ.
٧. فى الأصل: سميتها، والتصحيح من غ.
٨. غ: واعلموا أنّ.
٩. غ: لإغلاقه.
١٠. غ: واعلموا أنّ.
١١. غ: وقد يغلظ.
١٢. غ: من شدة رأفته بها.
١٣. غ: وقد يقتل.

بقلوب مختلفة، وأيدٍ متعادية. وقد علمتم أنّ الذى بنى عليه الناس، [108] وجبلت عليه الطباع[١]، حبّ الحياة وبغض الموت، [وأنّ الحرب تباعد من الحياة وتدني من الموت][٢]، فلا دفع ولا منع[٣] ولا صبر ولا محاماة مع هذا، إلّا بأحد وجهين: إمّا بنيّة، والنيّة ما لن يقدر على الوالى عند الناس بعد النيّة التى تكون فى أوّل الدولة، وإمّا بحسن الأدب وإصابة السياسة.

«واعلموا أنّ بدء ذهاب الدول[٤] من قبل إهمال الرعية بغير أشغال معروفة، ولا أعمال معلومة. فإذا فشى الفراغ [فى الناس][٥]، تولّد منه النظر فى الأمور، والفكر فى الأصول. فاذا نظروا فى ذلك، نظروا فيه بطبائع مختلفة، فتختلف بهم المذاهب، ويتولّد من اختلاف مذاهبهم، تعاديهم وتضاغنهم وتطاعنهم[٦]، وهم فى ذلك مجتمعون ـ فى اختلافهم ـ على بُغض الملوك، لأنّ كل صنف منهم إنما يجرى إلى فجيعة الملك بملكه، ولكنهم لا يجدون سُلّماً إلى ذلك[٧] أوثق من الدين، ولا أكثر أتباعاً، ولا أعزّ امتناعاً، ولا أشدّ على الناس صبراً[٨]. ثم يتولّد من تعاديهم [109] أنّ الملك لا يستطيع جمعهم على هوىً واحد، فاذا انفرد ببعضهم، فهو عدوّ بقيّتهم، ثم تتولّد من عداوتهم [للملك][٩] كثرتهم، فإنّ من شأن العامّة الاجتماع على استثقال الولاة والنفاسة[١٠] عليهم. لأنّ فى

---

١. غ: الطبائع.
٢. ما فى [ ] زيادة من غ.
٣. ليس فى غ: فلا دفع ولا منع.
٤. غ: واعلموا أنّ ذهاب الدول يبدو.
٥. زيادة من غ.
٦. غ: بدون «تطاعنهم».
٧. غ: مع ذلك مجمعون.
٨. غ: صواباً.
٩. زيادة من غ.
١٠. النفاسة: الحسد.

الرعيّة المحروم، والمضروب، والمُقام عليه وفيه وفى حميمه الحدود، والداخل عليه بعزّ الملك الذلّ فى نفسه وخاصّته. فكلّ هؤلاء يجرى إلى متابعة أعداء الملك. ثمّ يتولّد من كثرتهم أن يجبن الملك عن الإقدام عليهم، فإنّ إقدام الملك على جميع الرعيّة تغرير[١] بملكه ونفسه. ويتولّد من جبن الولاة عن تأديب العامة تضييع الثغور التي فيها الأمم من ذوى الدين والبأس، لأنّ الملك إن سدّ الثغور بخاصّته المناصحين له، وخلت[٢] به العامّة الحاسدة المعادية[٣]، لم يعد بذلك تدريبهم في الحرب، وتقويتهم فى السلاح، وتعليمهم المكيدة مع البغضة، فهم عند ذلك أقوى عدو [وأضرّه، وأحنقه][٤]، وأحضره، وأخلقه بالظفر، ولابدّ من استطراد [110] هذا كله إذا ضيّع أوّله.

ـ «فمن ألفىٰ منكم الرعيّة بعدى وهى على حال أقسامها الأربعة التى هى: أصحاب الدين، والحرب، والتدبير، والخدمة ـ من ذلك: الأساورة صنف، والعبّاد والنسّاك وسدنة النيران صنف، والكتّاب والمنجّمون والأطبّاء صنف، والزرّاع والمهّان والتجار صنف ـ فلا يكوننّ بإصلاح جسده أشدّ اهتماماً منه بإحياء تلك الحال، وتفتيش ما يحدث فيها من الدخلات[٥]، ولا يكوننّ لانتقاله عن المُلك بأجزع منه من انتقال صنف من هذه الأصناف إلى غير مرتبته. لأنّ تنقّل الناس عن مراتبهم سريع فى نقل الملك عن ملكه: إمّا إلى

١. غرر به: عرّضه للهلكة. ٢. خلت به: خادعته.

٣. غ: المعادية المنافسة، وإن التمس سدّ الثور بالعامة الحاسدة ولم يعد.

٤. زيادة من غ.

٥. الدخلات: النيات. دخلة الأمر: بطانته. الدخلة: المذهب.

خلع، وإمّا إلى فتك. فلا يكوننّ من شيء من الأشياء أوحش بتّة[١] من رأس صار ذنباً، أو ذنب صار رأساً، أو يد مشغولة أحدثت فراغاً، أو كريم ضرير، أو لئيم مرح. فانّه يتولّد من تنقّل الناس عن حالاتهم، أن يلتمس كلّ أمرئ منهم أشياء فوق مرتبته. [111] فاذا انتقل أوشك أن يرىٰ أشياء أرفع مما انتقل إليه، فيغبط وينافس. وقد علمتم أنّ من الرعيّة أقواماً هم أقرب الناس من الملوك حالاً. وفى تنقّل الناس عن حالاتهم مطمعة للذين يلون الملوك فى المُلك، ومطمعة للذين دون الذين يلون الملوك فى تلك الحال، وهذا لقاح بوار المُلك.

ـ «ومن ألفىٰ منكم الرعيّة وقد أضيع[٢] أوّل أمرها، فألفاها فى اختلاف من الدين، واختلاف[٣] من المراتب، وضياع من العامّة، وكانت به على المكاثرة قوّة، فليكاثر[٤] بقوّته ضعفهم، وليبادر بالأخذ بأكظامهم قبل أن يبادروا بالأخذ بكظمه[٥]، ولا يقولنّ: أخاف العسف[٦]. فإنّما يخاف العسف من يخاف جريرة العسف على نفسه، فأمّا إذا كان العسف لبعض الرعيّة صلاحاً لبقيّتها، وراحة له ولمن بقى معه من الرعيّة، من النغل[٧] والدغل والفساد، فلا يكوننّ إلى شيء بأسرع منه إلى [112] ذلك. فإنّه ليس نفسَه ولا أهل موافقته يعسف، ولكنّما[٨] يعسف عدوّه.

ـ «ومن ألفى منكم الرعيّة فى حال فسادها، ولم ير بنفسه عليها

---

١. بتّة: قطعاً. غ: منه بدل: بتّة. مط: نية.
٢. غ: ضاع.
٣. غ: واختلال.
٤. كاثره: غالبه بالكثرة.
٥. أخذ بكظمه: كربه وغمّه.
٦. العسف: الظلم.
٧. النغل: الإفساد بين القوم. نغلت نيته: ساءت.
٨. غ: ولكنه.

قوّة فى [إ]صلاحها[١]، فلا يكوننّ لقميص قَمِل[٢] بأسرع خلعاً منه لما لبس من ذلك المُلك، وليأته البوار ـ إذا أتاه ـ وهو غير مذكور بشؤم، ولا منوّه به فى دنياه[٣]، ولا مهتوك به ستر ما فى يديه.

ـ «واعلموا أنّ فيكم من يستريح إلى اللهو والدعة، ثم يديم من ذلك ما يورثه خُلقاً وعادة. فيكون ذلك لقاح جدّ لا لهو فيه، وتعب لا خفض[٤] فيه[٥]، مع الهجنة في الرأى والفضيحة فى الذكر. وقد قال الأولون منّا: لهو رعيّة الصدق بتقريظ الملوك، ولهو ملوك الصدق بالتودّد إلى الرعيّة.

ـ «واعلموا أنّ من شاء منكم ألّا يسير بسيرة إلّا[٦] قُرّظت له فعل، ومن شاء منكم بعث العيون على نفسه فأذكاها، فلم تكن الناس بعيب نفوسهم بأعلم منه بعيبه.

ـ «ثم إنه ليس منكم [113] ملك إلّا كثير الذكر لمن يلى الأمر بعده، ومن فساد الرعيّة[٧] نشر أمور ولاة العهود. فإنّ فى ذلك من الفساد أنّ أوّله دخول عداوة ممضّة[٨] بين الملك، وولى عهده، وليس يتعادىٰ متعاديان بأشدّ من أن يسعىٰ كلّ واحد منهما فى قطع سؤل[٩] صاحبه. وهكذا الملك، وولى عهده: لا يسرّ الأرفع أن يعطى الأوضع سؤله فى فنائه. ولا يسرّ هذا الأوضع أن يعطى الآخر سؤله فى البقاء، ومتى يكن فرح أحدهما فى الراحة من صاحبه،

---

١. الهمزة، زدناها.

٢. القميص قمل إذا كثر عليه القمل.

٣. غ: دناءة.

٤. الخفض: لين العيش وسعته.

٥. غ: معه.

٦. مط: بدون «إلّا».

٧. غ: الملك.

٨. أمضّه الأمر: أحرقه وشقّ عليه.

٩. غ: شوكة.

تدخل كل واحد منهما وحشة من صاحبه في طعامه وشرابه، ومتى تداينا[١] بالتهمة، يتّخذ كلّ واحد منهما [أحبّاء واخداناً وأهلاً، ثم يدخل كلّ واحد منهما][٢] وغر[٣] على أحبّاء صاحبه. ثم تتساق الأمور إلى هلاك أحدهما لما لابدّ منه من الفناء، فتُفضى الأمور إلى الآخر وهو حنق على جيل من الناس، يرى أنه موتور إن لم يحرمهم ويضعهم، وينزل بهم التي كانوا يريدون إنزالها به لو وَلُوا. فإذا وضع بعض الرعية وأسخط بعضاً على هذه الجهة، [114] تولّد من ذلك ضغن وسخط من الرعيّة، ثم ترامىٰ ذلك إلى بعض ما أحذر عليكم بعدي. ولكن ليختر الوالي منكم لله، ثم للرعية، ثم لنفسه، وليّاً للعهد من بعده، ثمّ ليكتب اسمه في أربع صحائف، فيختمها بخاتمه، فيضعها عند أربعة نفر[٤] من خيار أهل المملكة. ثم لا يكوننّ[٥] منه في سرّ ولا في علانية أمر يستدلّ به على وليّ ذلك العهد، لا في إدناء وتقريب يعرف به، ولا في إقصاء وتنكّب يستراب له، وليتّق ذلك في اللحظة والكلمة. فإذا هلك، جمعت تلك الكتب التي عند الرهط الأربعة، إلى النسخة التي عند الملك، فـفضض جميعاً، ثم نوّه بالذي وضع اسمه في جميعهن. فيلقى المُلك ـ إذا لقيه ـ بحداثة عهده بحال السوقة[٦]، فلبس ذلك المُلك ـ إذا لبسه ـ ببصر السوقة، وسمعها، ورأيها. فإنّ في سكر السلطان الذي

---

١. تداينا: تحاكما.
٢. زيادة من غ.
٣. الوغر والوغر: الحقد والضغن والعداوة.
٤. النفر: الجماعة من الرجال من ثلاثة إلى عشرة أنفار. ويقال: ثلاثة نفر، أو: ثلاثة أنفار.
٥. في الأصل: لا يكون. ونون التأكيد من غ.
٦. السوقة للمفرد والجمع: الرعية. ويقال للجمع: سوق كغرف.

سيناله[١]، ما يكتفي به له[٢] من سكر ولاية العهد مع سكر المُلك. فيصمّ ويعمىٰ قبل لقاء المُلك لصمم الملوك وعماهم، ثم يلقى المُلك، فيزيده صمماً وعمىً مع ما يلقى في ولاية [115] العهد من بطر السلطان، وحيلة العتاة، وبغي الكذّابين و [ترقية][٣] النمّامين وتحميل الوشاة بينه وبين من فوقه.

ـ «ثم اعلموا أنّه ليس للملك [أن يبخل، لأنه لا يخاف الفقر، وليس له][٤] أن يكذب، لأنه لا يقدر أحد على استكراهه، وليس له أن يغضب، لأنّ الغضب والعداوة لقاح الشرّ والندامة، وليس له أن يلعب ولا يعبث، لأنّ العبث واللعب من عمل الفرّاغ، وليس له أن يفرغ، لأنّ الفراغ من أمر السُّوَق، وليس له أن يحسد إلّا ملوك الأمم على حسن التدبير، وليس له أن يخاف، لأنّ الخوف من المعور[٥]، وليس له أن يتسلّط، إذ هو مُعور[٦].

ـ «واعلموا أنّ زين الملوك، في استقامة الحال: أن لا تختلف منه ساعات العمل والمباشرة، وساعات الفراغ والدعة، وساعات الركوب والنزهة، فإنّ اختلافها منه خفّة، وليس للملك أن يخفّ.

ـ «اعلموا أنّكم لن تقدروا على ختم أفواه الناس من الطعن والإزراء عليكم، ولا قدرة بكم[٧] على أن تجعلوا القبيح حسناً [116].

---

١. غ: «بيناّه»، بدل «سيناله». مط: نسبنا له. ٢. غ: بدون «له».
٣. رقى في الحديث: زاد فيه. مط: «وتتبع الكذابين» بدل «وترقية النمامين».
٤. ما بين [ ] زيادة من غ، ورسائل البلغاء.
٥. مط: المعوز. غ: من أمر المعور. رجل معور: قبيح السيرة. أعور الرجل والمرأة: بدت عورتهما.
٦. غ: إن هو أعور. مط: إذ هو معوز. ٧. غ: لكم.

ـ «واعلموا أنّ لباس الملك ومطعمه مقارب للباس السوقة ومطعمهم، وبالحريّ أن يكون فرحهما بما نالا من ذلك واحداً. وليس فضل الملك على السوقة إلّا بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم. فإنّ الملك إذا شاء أحسن، وليس السوقة كذلك.

ـ «واعلموا أنّه يحقّ على الملك منكم أن يكون ألطف ما يكون نظراً، أعظم ما يكون خطراً، وألّا يذهب حسن أثره في الرعيّة خوفه لها، وألّا يستغني بتدبير اليوم عن تدبير غد، وأن يكون حذره للملاقين أشدّ من حذره للمباعدين، وأن يتّقي بطانة السوء أشدّ من اتّقائه عامّة السوء، ولا يطمعنّ ملك في إصلاح العامّة إذا لم يبدأ بتقويم الخاصّة.

ـ «واعلموا أنّ لكل ملك بطانة، وأنّ لكل رجل من بطانته بطانة، ثم لكلّ امرئ من بطانة البطانة بطانة، حتى يجتمع في ذلك [جميع][1] أهل المملكة! فإذا أقام الملك بطانته على حال الصواب، أقام كل امرئ منهم بطانته [117] على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامّة الرعيّة.

ـ «اعلموا أنّ الملك منكم قد تهون عليه العيوب، لأنّه لا يستقبل بها إن[2] عملها حتى يرى أنّ الناس يتكاتمونها بينهم كمكاتمتهم إيّاه تلك العيوب. وهذا من الأبواب الداعية إلى طاعة الهوى، وطاعة الهوى داعية إلى غلبته. فاذا غلب الهوى اشتدّ علاجه من السوقة المغلوب[3] فضلاً عن الملك الغالب.

ـ «اتّقوا باباً واحداً طالما أمنته فضرّني، وحذرته فنفعني: احذروا

---

١. ما في [ ] زيادة من غ.
٢. في الأصل: وإن (بزيادة الواو).
٣. يبدو أنّ تذكير الصفة باعتبار معنى «السوقة» المفرد. في مط أيضاً: المغلوب.

إفشاء السرّ عند الصغار من أهليكم وخدمكم، فانّه لا يصغر أحد منهم [عن][1] حمل ذلك السرّ كاملاً! لا يقول منه شيئاً حتى يضعه حيث تكرهون. إمّا سقطاً وإما غشّاً[2]. والسقط أكثر ذلك. إجعلوا حديثكم لأهل المراتب، وحباءكم[3] لأهل الجهاد، وبشركم لأهل الدين، وسرّكم عند من يلزمه خير ذلك وشرّه وزينه وشينه. [118]

«واعلموا أنّ صحة الظنون مفاتيح اليقين، وأنكم ستستيقنون من بعض رعيّتكم بخير وشرّ، وستظنّون ببعضهم خيراً وشرّاً. فمن استيقنتم منه بالخير والشرّ، فليستيقن منكم بهما، ومن ظننتموهما به[4]، فليظنّهما بكم فى أمره، فعند ذلك يبدو من المحسن إحسانه، فيخالف الظنّ فيغتبط[5]، ومن المسيء إساءته، فيصدق الظنّ به فيندم.

«واعلموا أنّ للشيطان فى ساعات من الدهر طمعاً فى السلطان عليكم، منها: ساعات الغضب والحرص والزهو، فلا تكونوا له فى شيء من ساعات الدهر أشدّ قتالاً منكم عندهنّ حتّى يتقشّعن. وكان يقال: إتّق مقارنة الحريص الغادر، فإنّه إن رءاك فى القرب، رأىٰ منك أخبث حالاتك، وإن رءاك فى الفضول، لم يدعك وفضولك.

أسعدوا[6] الرأى على الهوى، فإنّ ذلك تمليك للرأى. واعلموا أنّ

١. فى الأصل: «علي» ولم نجد لها وجهاً من الصحة.

٢. الغشّ: اسم للغش.

٣. الحباء: العطاء.

٤. مط: منه.

٥. مط: فيسقط.

٦. أسعدوا: ساعدوا. غ: استعدوا: استعينوا. (الأول من الاسعاد والثانى من الاستعداء).

من شأن الرأى الإستخذاء[١] للهوىٰ، إذا جرى الهوى على عـادته. وقد عرفنا [119] رجالاً كان الرجل منهم يؤنس من قوّة طـباعه، ونبالة رأيه ما تريه نفسه أنّه على إزاحة الهوى عنه، وإن جرىٰ على عادته، ومعاودته الرأى، وإن طال به عهده قادر، لثقة يجدها بـقوّة الرأى. فاذا تمكّن الهوى منه، فسخ عزم رأيه، حتى يسمّيه كثير من الناس ناقصاً في العقل. فأمّا البصراء فيستبينون من عقله عند غلبة الهوى عليه ما يستبان من الأرض الطيّبة الموات.

ـ «واعلموا أنّ فى الرعية صنفاً من الناس هم بإساءة الوالى أفرح منهم بإحسانه، وإن كان الوالى لم يترهم، وكان الزمان لم ينكبهم، وذلك لاستطراف حادثات الأخبار، فإنّ استطراف الأخبار معروف من أخلاق حشو الناس. ثمّ لا طرفة عندهم فيما اشتهر، فجمعوا في ذلك سرور كلّ عدو لهم ولعامّتهم مع ما وتروا به أنفسهم وولاتهم. فلا دواء لأولئك إلّا بالأشغال. وفى الرعية صنف وتروا[٢] النـاس [120] كلّهم وهم الذين قووا على جفوة الولاة، ومن قـوى عـلى جفوتهم فهو غير سادّ ثغراً ولا مناصح[٣] إماماً، ومن غشّ الإمـام فقد غشّ العامّة وإن ظنّ أنه للعامة مناصح، وكان يقال: لم يـنصح عملاً من غشّ عامله.

ـ «وفي الرعيّة صنف تركوا إتيان الملوك من قبل أبوابهم وأتوهم من قبل وزرائهم. فليعلم الملك منكم أنّ من أتاه من قبل بابه فـقد آثره بنصيحته[٤] إن كانت عنده، ومن أتاه من قبل وزرائه فهو موثر للوزير على الملك فى جميع ما يقول ويفعل.

---

١. استخذى له: انقاد واتّضع.
٢. غ: ضروب وتروا.
٣. غ: بدون «لا».
٤. غ: بنصيحة.

ـ «وفي الرعيّة صنف دعوا إلى أنفسهم الجاه، بالإباء والردّ له، ووجدوا ذلك عند المغفّلين نافقاً[١]، وربما قرّب الملك الرجل من أولئك لغير نبل في رأي، ولا إجزاء[٢] في العمل، ولكن الإباء والردّ أغرياه به[٣].

ـ «وفي الرعيّة صنف أظهروا التواضع، واستشعروا الكبر. فالرجل منهم يعظ الملوك زارياً عليهم بالموعظة، يجد ذلك أسهل طريقي طعنه عليهم [121] ويسمّي هو ذلك ـ وكثير ممن معه ـ تحرّياً[٤] للدين. فإن أراد الملك هوانهم لم يعرف لهم ذنباً يهانون عليه[٥]؛ وإن أراد إكرامهم فهي منزلة حبوا بها أنفسهم على رغم الملوك، وإن أراد إسكاتهم كان السماع في ذلك أنّه استثقل ما عندهم من حفظ الدين؛ وإن أمروا بالكلام قالوا [ما يفسد ولا يصلح][٦]. فأولئك أعداء الدول وآفات الملوك. فالرأي للملوك تقريبهم من الدنيا، فإنّهم إليها أجروا[٧]، وفيها[٨] عملوا، ولها سعوا، وإيّاها أرادوا. فإذا تلوّثوا[٩] فيها بدت فضائحهم، وإلّا فإنّ فيما يحدثون ما يجعل للملوك سلّماً إلى سفك دمائهم. وكان بعض الملوك يقول: القتل أقلّ للقتل.

ـ «وفي الرعيّة صنف أتوا الملوك من قبل النصائح لهم، والتمسوا صلاح منازلهم بإفساد منازل الناس. فأولئك أعداء الناس وأعداء

---

١. مط: نافعاً. نفقت السوق: قامت وراجت تجارتها.

٢. الإجزاء: الكفاية والإغناء.

٣. به: الأصل مطموس، والمثبت من غ.

٤. غ: محرزاً.

٥. وفي غ: به.

٦. الضبط من غ، وفي الأصل: إنما نفسد ولا نصلح. وفي رسائل البلغاء: وإن أطلق لسانه، قال بوعظه بين الملأ ما أفسد حال الدولة.

٧. أجرى إلى الشيء: قصده.

٨. غ: لها.

٩. مط: تكونوا.

الملوك، ومن عادى الملوك وجميع الرعيّة، فقد عادىٰ نفسه.

ـ «واعلموا أنّ الدهر [122] حاملكم على طبقات، منهنّ: حال السخاء حتى تدنو من السرف، ومنهن: حال التقتير[١] حتى تقرب من البخل، ومنهنّ: حال الأناة، حتى تصير إلى البلادة، ومنهنّ: حال المناهزة للفرصة حتى تدنو من الخفّة، ومنهنّ حال الطلاقة في اللسان حتى تدنو من الهذر، ومنهنّ: حال الأخذ بحكم الصمت حتى تدنو من العيّ. فالملك منكم جدير أن يبلغ من كلّ طبقة في محاسنها حدّها، فاذا وقف على الحدود التى ماوراءها سرف، ألجم نفسه عمّا وراءها.

ـ «واعلموا أنّ الملك منكم ستعرض له شهوات في غير ساعاتها. والملك إذا قدّر ساعة العمل، وساعة الفراغ، وساعة المطعم، وساعة المشرب، وساعة الفضيلة[٢]، وساعة اللهو، كان جديراً ألّا يعرف منه[٣] الإستقدام بالأمور، ولا الإستيخار عن ساعاتها. فإنّ اختلاف ذلك يورث مضرّتين: إحداهما السخف، وهى أشدّ الأمرين، [123] والأخرى نقص الجسد، بنقص أقواته وحركاته.

ـ «واعلموا أنّ من ملوككم من سيقول: لى الفضل على من كان قبلى من آبائى وعمومتى ومن ورثت عنه هذا الأمر، لبعض الإحسان يكون منه. فاذا قال ذلك، سوعد[٤] عليه بالمتابعة[٥] له.

١. غ: حال الإقتصاد. قتّر على عياله: بخل، وضيّق عليهم في النفقة.

٢. غ: الفضلة.

٣. مط: بدون «منه».

٤. غ: وسوعد.

٥. مط: بالمبايعة.

فليعلم ذلك الملك والمتابعون[١]: إنما[٢] وضعوا أيديهم وألسنتهم في قصب[٣] آبائه من الملوك وهم لا يشعرون. ولبالحريّ أن يشعر بعض المتابعين له فيغمّض[٤] على ما لا يحزنه من ذلك.

ـ «واعلموا أنّ ابن الملك وأخاه وعمّه[٥] وابن عمّه كلّهم يقول: كدت أن أكون ملكاً، وبالحريّ ألّا أموت حتى أكون ملكاً. فإذا قال ذلك، قال ما لا يسرّ الملك. فإن كتمه، فالداء في كلّ مكتوم. وإن أظهره كلم[٦] في قلب الملك كلماً[٧] يكون لقاحاً للتباين والتعادي. وستجدون[٨] القائل ذلك من المتابعين والمحتملين[٩] والمتمنّين، ما تمنّى لنفسه ما يريده[١٠]، إلّا[١١] [124] ما اشتاق إليه شوقاً. فإذا تمكّن في صدره الأمل، لم يرج النيل له، إلّا في اضطراب من الحبل[١٢]، وزعزعة تدخل على الملك وأهل المملكة. فإذا تمنّى ذلك فقد جعل الفساد سلّماً إلى الصلاح، ولم يكن الفساد سلّماً إلى صلاح قطّ. وقد رسمت لكم في ذلك مثالاً لا مخرج لكم منه إلّا به. اجعلوا أولاد الملك من بنات عمومتهم. ثمّ لا يصلح من أولاد بنات الأعمام، إلّا كامل غير سخيف العقل، ولا عازب الرأي، ولا ناقص الجوارح، ولا معيوب عليه في الدين. فإنّكم إذا فعلتم ذلك، قلّ طلّاب الملك، وإذا قلّ طلّابه استراح كلّ امرئ على جديلته، وعرف

١. مط: المبالغون.
٢. مط: بدون «إنما».
٣. قصبه: شتمه.
٤. غ: فيغضي.
٥. مط: «وابن أخي الملك» بدل «عمه وابن عمه».
٦. الكلم: الجرح.
٧. غ: كلّ ما.
٨. في الأصل: وستجد. غ: وستجدون.
٩. غ: «والمخيلين له» بدل «المحتملين والمتمنين».
١٠. غ: ما يزيده.
١١. في الأصل ومط: إلى، والتصحيح من غ.
١٢. الحبل: العهد والذمة.

حاله[١]، وغضّ بصره، ورضي بمعيشته واستطاب زمانه.

ـ «واعلموا أنّه سيقول قائل من عُرض[٢] رعيّتكم، أو من ذوى قرابتكم: ما لأحد عليّ فضل و[٣] لو كان لي مُلك.. ، فإذا قال ذلك فإنّه قد تمنّى المُلك [125][٤] وهو لا يشعر، ويوشك أن يتمنّاه بعد ذلك وهو يشعر. فلا يرى ذلك من رأيه خطلاً[٥]، ولا من فعله زللاً، وإنّما يستخرج ذلك فراغ القلب واللسان ممّا يكلّف أهل الدين والكتّاب والحسّاب، أو فراغ اليد ممّا يكلّف الأساورة، أو فراغ البدن مما يكلّف التجّار، والمهنة، والخدم. واعلموا أنّ الملك ورعيّته جميعاً يحقّ عليهم ألّا يكون للفراغ عندهم موضع، فإنّ التضييع فى فراغ الملك، وفساد المملكة فى فراغ الرعيّة.

ـ «واعلموا أنّا على فضل قوّتنا، وإجابة الأمور إيّانا، وحدّة دولتنا، وشدة بأس أنصارنا، وحسن نيّة وزرائنا، لم نستطع إحكام تفتيش الناس، حتى بلغنا من الرعيّة مكروهها، ومن أنفسنا مجهودها.

ـ «واعلموا أنّه لابدّ من سخط سيحدث منكم على بعض أعوانكم المعروفين بالنصيحة لكم، ولابدّ من رضىً سيحدث لكم من بعض أعدائكم المعروفين بالغشّ لكم، فلا تحدثوا، عندما يكون من ذلك، إنقباضاً عن المعروف [126] بالنصيحة، ولا استرسالاً إلى

---

١. غ: «واقتصر على ما يليه، واستكثر كل امرئ حاله» بدل «على جديلته وعرف حاله». الجديلة: الطريقة، والشاكلة.

٢. هو من عرض الناس: من العامة.

٣. غ: بدون «و».

٤. حصل تقديم وتأثير بين صفحتى 125 و 126 من مصورة ليدن. فصححناه.

٥. الخطل: الحمق. المنطق المضطرب الفاسد. الكلام الكثير الفاسد. الطول والإضطراب يكون في الإنسان والرمح والفرس.

المعروف بالغشّ.

ـ «قد خلّفت لكم رأيي، إذ لم أستطع تخليف بدني، وقد حبوتكم بما حبوت به نفسي وقضيت حقّكم فيما آسيتكم به من رأى. فاقضوا حقّي بالتشفيع لي في صلاح أنفسكم والتمسك بعهدي إليكم. فإنّي قد عهدت إليكم عهدي، وفيه صلاح جميع ملوككم وعامّتكم وخاصّتكم. ولن تضيعوا ما احتفظتم بما رسمت لكم ما لم تصنعوا[١] غيره. فإذا تمسّكتم به، كان علامة في بقائكم ما بقي الدهر.

ـ «ولولا اليقين بالبوار النازل على رأس الألف من السنين[٢]، لظننت أنّي قد خلّفت فيكم ما إن تمسّكتم به، كان علامة في بقائكم الدهر. ولكن القضاء إذا جاءت أيّامه، أطعتم أهواءكم، واستثقلتم ولاتكم، وأمنتم وتنقّلتم عن مراتبكم وعصيتم خياركم [وأطعتم شراركم][٣]، وكان أصغر ما تخطئون فيه سلّماً إلى أكبر منه حتى تفتقوا ما رتقنا، [وتوهوا ما وثّقنا][٤]، وتضيعوا ما حفظنا. والحقّ[٥] علينا وعليكم [127] ألّا نكون[٦] للبوار أغراضاً، وفي الشؤم أعلاماً. فإنّ الدهر إذا أتى بالذي تنتظرون، اكتفى بوحدته[٧]. ونحن ندعو الله لكم بنماء المنزلة، وبقاء الدولة، دعوة لا يفنيها فناء قائلها حتّى المنقلب[٨]، ونسأل الله الذي عجّل بنا وخلّفكم، أن يرعاكم رعاية يرعىٰ بها ما تحت أيديكم [وأن يرفعكم رفعة يضع بها من

١. مط: ما لم تضعوا.
٢. غ: ألف سنة.
٣. زيادة من غ.
٤. زيادة من غ.
٥. غ: ويحق.
٦. نكون: من غ. وفي الأصل: ألّا تكونوا.
٧. غ: حدّته (بالتشديد).
٨. المنقلب: المعاد.

عاداكم][١]، ويكرمكم كرامة يهين بها من ناوأكم. ونستودعكم الله وديعة يكفيكم بها الدهر الذى يسلّمكم إلى[٢] زياله[٣] وغيره [وعثراته][٤] وعداوته، والسلام على أهل الموافقة ممّن يأتى عليه العهد[٥] من الأمم الكائنة بعدى[٦].»

ثم انتهى المُلك إلى سابور بن أردشير[٧]

فمن وجوه المكائد الغريبة[٨] ما تمّ على رجل من الجرامقة[٩] يقال له: الساطرون، وهو الذى تسمّيه العرب: الضيزن، وكان ينزل بجبال تكريت بين دجلة والفرات فى مدينة يقال لها: الحضر[١٠]. وزعم هشام بن الكلبى أنّه من العرب من قضاعة، وأنّه ملك أرض الجزيرة، وكان معه من قبائل قضاعة [128] ما لا يحصى، وبلغ مُلكه الشام.

ثم إنه تطرّف[١١] بعض السواد فى غيبة لسابور إلى ناحية خراسان. فلمّا قدم من غيبته، شخص إليه حتى أناخ على حصنه، وتحصّن الضيزن، كما قال الأعشى ميمون بن قيس، سنتين، لا يقدر سابور على الوصول إليه، وهو قوله:

أَلَمْ تَرَ لِلحَضْرِ إذْ أهلُه بنُعمى، وهَلْ خالدٌ مَن نَعِمْ

١. زيادة من غ.
٢. من مط. وما فى الأصل: إلاّ.
٣. غ: زواله. الزيال: الفراق.
٤. زيادة من غ.
٥. غ: هذا العهد.
٦. غ: بعدى إلى يوم القيامة.
٧. أنظر الطبرى (٢ : ٨٢٣).
٨. فى الأصل ومط: «القريبة».
٩. جمع مفرده: الجرمقانى. قوم من العجم هبطوا الموصل أوائل الاسلام.
١٠. الحضر: باليونانية حترا (= هترا): شيّدها الفرثيون على بعد أربعة كيلومترات من وادى الثرثار بين دجلة والفرات فى القرن الأول، كانت حصناً دفاعياً لهم ضد التوسع الرومانى ومركزاً تجارياً (لج، مع، أم).
١١. مط: تطرق. فى الطبرى: تطرّف السواد.

أقـــامَ بِـــهِ شـــاهبورُ الجُـــنو دِ[١] حَولَين يَضربُ فيهِ القُدُمْ[٢]

وكان للضيزن هذا ابنة يقال لها: النضيرة، عـركت[٣] فـأخرجت إلى ربـض المدينة ـ وكذلك كان يفعل بالنساء إذا عركن ـ وكانت من أجمل نساء زمـانها، وكان سابور أيضاً من أجمل رجال زمانه. فاطّلعت عليه يوماً، فرأتـه، فـعشقته، وأرسلت إليه:

ـ «ما تجعل لي، إن دللتك على ما تهدم به سور هذه المدينة، وتقتل أبـي؟»

قال:

ـ «حكمكِ، وأرفعكِ على نسائي، وأخصّك بنفسي دونهن».

فاحتالت للحرس حتى سقتهم الخمر وصرعتهم، وأظهرت علامة ذلك لسابور. فنصب للسور حتى [تسوّر][٤] وفتحها عنوة [129]، وقتل الحرس والضـيزن، وأباد قضاعة الذين كانوا مع الضيزن، فلم يبق منهم باقٍ يُعرف إلى اليوم، وأخرب سابور المدينة، وفي ذلك يقول عمرو بن إله:

أَلَـمْ يَـحزنْكَ والأنـباءُ تَـنمى بِـما لاقَتْ سُراةُ بَـنى العَـبيدِ
ومَـصرعُ ضَـيْزنٍ وبـنى أبـيه وأحلاسُ الكتائبِ مِن تَـزيدِ[٥]
أتـاهمْ بـالفُيولِ مـجلّلاتٍ وبـالأبطال سـابورُ الجُـنودِ
فهدّم من أواسي الحصنِ صَخراً كـأنّ ثِـقالَهُ زبَـرُ الحـديدِ

---

١. والعرب تلقّبه: سابور الجنود (المسعودي ١ : ١١٣).
٢. في بعض الأصول: القمم. والأبيات تجدها ستة في الطبري (٢ : ٨٢٨).
٣. عركت: حاضت.
٤. في الأصل غموض، وما أثبتناه من مط. تسوّر السور أو الحائط: صعد عليه.
٥. من تزيد بن حلوان (الطبري ٢ : ٨٢٩).

واحتمل سابور النضيرة بنت الضيزن، فأعرس بها بعين التمر. فذكر أنّها لم تنم، وتضوّرت[١] ليلتها من خشونة فُرُشها وهى من حرير محشوّة بالقزّ. فالتمس ما كان يؤذيها. فاذا ورقة آس، ملتزقة بعكنة[٢] من عكنها قد أثّرت فيها من لين بشرتها.

فقال لها سابور: «ويحكِ! بأىّ شىء كان يغذوكِ أبوكِ؟»

فقالت: «بالزبد، والمخّ، وشهد الأبكار من النحل، وصفو الخمر.»

قال: «وأبيكِ لأنا أحدث عهداً بكِ، وأوتر[٣] لك من أبيك، الذى غذّاك بما تذكرين.»

فأمر رجلاً، فركب فرساً جموحاً، ثم عصب غدائرها بذنبه، ثم استركضها، فقطّعها قطعاً. [130] وقد أكثر الشعراء فى ذكر الضيزن هذا، وإيّاه عنى عدىّ بن زيد بقوله:

وأخو الحَضْرِ[٤]، إذ بناهُ وإذ دِجْـ ـلَةُ تُجبىٰ إليه، والخابورُ
شادهُ مَرمَراً، وجَلّلهُ كِلْـ ـساً، فَللطّيرِ فى ذُراه وُكورُ
لم يَهبهُ ريبُ المَنونِ فبادَ الْـ ـمُلكُ عنهُ، فبابُهُ مهجورُ[٥]

توالى ستة ملوك

ومضت أيّام سابور، وهى ثلاثون سنة، حميدة. وفى أيّامه ظهر مانى

١. تضوّر: تلوّى وصاح من وجع الضرب والجوع ونحوهما.

٢. العكنة: ما انطوى تثنى من لحم البطن.

٣. الطبرى: أوثر، آثر.

٤. مط: الحصن.

٥. تجد الأبيات فى الطبرى (٢: ٨٣٠)؛ وفى الوفيات (٧: ٢٤٥)؛ وفى ديوان عدىّ: (٨٤).

الزنديق،[١] وكذلك أيّام ابنه هرمز الملقّب بالبطل والجرىء. وكان عظيم الخلق جريئاً. له حكايات عظيمة جدّاً، وكوّر مدينة «رامهُرمُز» وملك سنة. ثم مضت أيّام ابنه بهرام بن هرمز كذلك، وقتل ماني وسلخه. ومضت أيّام ابنه بهرام بن بهرام، ثمّ [أيّام][٢] ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام، ثم [أيّام][٣] نرسى بن بهرام أخي[٤] بهرام الثالث، ثم أيّام هرمز بن نرسى، وكان فظّاً، إلّا أنّه رفق بالرعيّة، وسار بأعدل سيرة فيهم، وحرص على العمارة وانتعاش الضعفاء، ثم هلك وببعض نسائه حبل. فبعض الناس يزعم أنه وصّى بالمُلك لذلك الحمل في بطن أمّه، وبعضهم زعم أنّ الناس لما شقّ عليهم موت هرمز، سألوا عن نسائه. فلمّا عرفوا [131] أنّ ببعضهنّ حبلاً، عقدوا التاج عليه في بطن أمّه، ثم وُلد:

سابور الملقّب بذى الأكتاف[٥]

وهو سابور بن هرمز بن نرسى بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير. فكتب إليه الناس الكتب من الآفاق، ووجّه البُرُد إلى الأطراف، وقلّد الوزراء والكتّاب، والعمّال، الأعمال التى كانوا يعملونها فى مُلك أبيه.

فممّا حدث في أيّامه: أنّ خبره لمّا فشا وشاع، وعلم أصحاب الأطراف أنّ ملك الفرس صبيّ يدبّر، ولا يدرى ما يكون منه، طمع فيهم وفى مملكتهم الروم، والترك، والعرب، وكانت أدنى بلاد الأعداء إلى فارس بلاد العرب، وكانوا من

١. الزنديق: المخالف لأوامر زند وپازند (بق). بالفهلوية Zandik. فى المانوية: فاسد العقيدة. فى الأفستائية: قاطع الطريق، الساحر، ناقض العهد، الخادع. وفى العربية: المرتد، الدهرى، من لا دين له (حب).

٢. ما فى [ ] تكملة منّا.

٣. ما في [ ] تكملة منّا. وتجد أخبار هؤلاء الملوك فى الطبرى (٢: ٨٣١ـ٨٣٦).

٤. فى الأصل: أخو بهرام.

٥. لقبه: هوبه سُنبا (البيرونى: ١٢١؛ والطبرى ٢: ٨٣٦؛ والمسعودي ١: ٢٧٩).

أحوج الأمم إلى تناول شيء من المعايش، لسوء حالهم وشظف عيشهم. فسار جمع عظيم منهم في البحر، من ناحية بلاد عبدالقيس والبحرين وكاظمة[١]، حتى أناخوا براشهر[٢] وسواحل أردشير خُرّه، وأسياف[٣] فارس، وغلبوا أهلها على [132] مواشيهم وحروثهم ومعايشهم، وأكثروا الفساد في تلك البلاد، ومكثوا بذلك حيناً لا يغزوهم أحد من الفرس لقلّة الهيبة، وانتشار الأمر، وكثرة المدبّرين، ولأنّ الملك طفل، حتى ترعرع سابور، وجعل الوزراء يعرضون عليه أمر الجنود التي في الثغور، ووردت الأخبار بأنّ أكثرهم قد أخلّ. وعظّموا عليه الأمر بعد الأمر. وكان ممّن عُرض عليه، أمر الجنود التي في الثغور، ومن كان منهم بإزاء الأعداء، وأنّ الأخبار وردت بإخلال أكثرهم. وهوّلوا عليه الخطب في ذلك.

فقال لهم سابور: «لا يكبرنّ عليكم هذا، فانّ الحيلة فيه يسيرة».

وأمر بالكتاب إلى أولئك الجنود بأنه:

ـ «انتهى إليّ طول مكثكم في النواحي التي أنتم فيها، وعظم غنائكم عن إخوانكم وأوليائكم، فمن أحبّ منهم الانصراف إلى أهله، فلينصرف مأذوناً له في ذلك، ومن أحبّ أن يستكمل الفضل بالصبر في موضعه عُرف له ذلك.»

وتقدّم إلى من اختار الانصراف، في لزوم أهله وبلاده إلى وقت [133] الحاجة إليه.

فلمّا سمع الوزراء ذلك من قوله ورأيه، استحسنوه وقالوا: «لو كان هذا قد أطال تجربة الأمور وسياسة الجنود، ما زاد رأيه على ما سمعنا منه.» ثم تتابعت آراؤه في تقويم أصحابه وقمع أعدائه، حتى إذا تمّت له ست عشرة سنة، وأطاق حمل السلاح وركوب الخيل، واشتدّ عظمه، جمع إليه رؤساء أصحابه وأجناده،

---

١. كاظمة: جوّ على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان (مع).

٢. راشهر (= ريشهر): مدينة إزاء بوشهر (لج). ناحية من كورة أرجان (مع).

٣. الأسياف: جمع مفرده السيف: ساحل البحر، ساحل الوادي.

ثمّ قام فيهم خطيباً. فذكر الله عزّوجلّ، وذكر ما أنعم به عليه وعليهم بآبائه، وما أقاموا من إربهم، ونفوا من أعدائهم، وما اختلّ من أمورهم في الأيّام التي مضت من أيّام صباه، وأعلمهم: أنّه يستأنف العمل في الذبّ عن البيضة. وأنّه يقدّر الشخوص[١] إلى بعض الأعداء لمحاربته، وأنّ عدّة من يشخص معه من المقاتلة ألف رجل. فنهض إليه القوم داعين متشكرين، وسألوه أن يقيم بموضعه ويوجّه القواد والجنود ليكفوه ما قدّر من الشخوص فيه. فأبى أن يجيبهم إلى المقام. فسألوه الإزدياد على العدة التي ذكرها، فأبى. ثم انتخب ألف فارس من صناديد [134] جنده وأبطالهم وأغنيائهم، وتقدّم إليهم في المُضيّ لأمره. ونهاهم عن الإبقاء على العرب وعلى من لقوا منهم، ووصّاهم ألّا يعرّجوا[٢] على مال ولا غنيمة ولا يلتفتوا إليه.

ثم سار بهم، حتى أوقع بمن انتجع بلاد فارس من العرب وهم غارّون[٣]. فقتل منهم أبرح القتل، وأسر أعنف الأسر، وهرب بقيّتهم. ثم قطع البحر في أصحابه فورد الخطّ[٤]، واستبرى بلاد البحرين. فجعل يقتل أهلها ولا يقبل فداءاً ولا يعرّج على غنيمة. ثم مضى على وجهه، فورد هجر[٥] وبها ناس من تميم وبكر بن وائل وعبدالقيس. فسفك فيهم من الدماء سفكاً سالت كسيل المطر، حتى كان الهارب منهم يرىٰ أن لن ينجيه غار ولا جبل ولا بحر ولا جزيرة. ثم عطف إلى بلاد عبدالقيس، فأباد أهلها إلّا من هرب منهم. فلحق بالرمال، ثم أتى اليمامة[٦]،

---

١. يقدّر الشخوص: ينوي الخروج.

٢. عرّج: مالَ.

٣. مط: غازون. الغارّون: الغافلون.

٤. أرض تنسب إليها الرماح، وهو خطّ عمان في سيف البحرين. والسيف كلّه الخطّ، وفيه: القطيف، والعقير، وقطر (مع).

٥. هجر: ناحية البحرين، وقيل: مدينة هي قاعدة البحرين (مع).

٦. اليمامة: بلد كبير فيه قُرىً وحصون ونخل، وكان اسمها أولاً جوّا (مع).

فقتل بها مثل تلك المقتلة. ولم يمرّ بماء من مياه العرب إلّا عوّره[١] ولا جبٍّ من جبابهم إلّا طمّه. ثمّ أتى قرب المدينة، فقتل من وجد هنالك من العرب وأسر. ثمّ عطف نحو [135] بلاد بكر وتغلب وفيما بين مملكة فارس ومناظر الروم بأرض الشام. فقتل من وجد بها من العرب وسبى وطمّ مياههم.

ثمّ أسكن قوماً من بني تغلب ومن سكن منهم البحرين، دارين[٢] والخطّ؛ ومن كان من عبدالقيس وطوائف تميم، هجر؛ ومن كان من بكر بن وائل، كرمان؛ ـ وهم الذين يدعون بكر إياد ـ ومن كان منهم من بني حنظلة، بالرميلة من بلاد الأهواز. وبنى بالسواد مدينة بُزُرج سابور[٣]، وبني الأنبار، وبنى السوس والكرخ. وغزا بعد ذلك أرض الروم، فسبى سبياً كثيراً. وبنى بخراسان نيسابور. ثمّ هادن قسطنطين[٤] ملك الروم الذى بنى قسطنطينيّة[٥]، وهو أوّل من تنصّر من ملوك الروم.

ذكر حيلة لقسطنطين

كان قسطنطين لمّا ملك الروم كبرت سنّه، وساء خُلقُه، وظهر به وضح. فأرادت الروم خلعه، وكاشفته وقالت:

---

١. عوّر: عيون المياه: طمّها، دفنها، سدها، كبسها بالتراب.

٢. فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند فينسب إليها (مع).

٣. بُزُرج سابور: من طساسيج بغداد، حدّه من أعلى العلث من شرقي دجلة (مع).

٤. Constantinus.

٥. قسطنطينيّة = Constantinople = اسطنبول، استانبول (تغيّر هذا الاسم فى العصر العثماني إلى إسلامبول، أى: مدينة الإسلام، وإلى الآستانة). وهو معرّب من الأصل اليوناني: Eis ten bolin أو من اليوناني البيزنطي: Estin bolin. أي: إلى المدينة. = بوزنطيا، بوزنطة، بيزنطه، من الأصل اليوناني: Byzantion لا. ، إنجلـ. : Byzantioum؛ فر: Byzance. ويطلق هذا الاسم، من باب تسمية الكل بالجزء (العاصمة)، على امبراطورية الروم الشرقية التي تأسّست في الفترة الواقعة بين ٣٣٠ إلى ٣٩٥ م، فى القطاع الشرقي من الامبراطورية الرومية الكبرىٰ ودامت حتي عام ١٤٦١ م (لد، فم، .Col. New Age Enc).

ـ «اعتزل المُلك، فإنّ لك من المال ما لا تفقد معه شيئاً ممّا أنت فيه من نعمتك.»

فشاور نصحاءه [136] فقالوا له:

ـ «لا طاقة لك بالقوم، فقد اجتمعت كلمتهم على خلعك.»

قال: «بما الحيلة؟»

قالوا: «تحتال بالدين ـ وكانت النصرانية قد ظهرت وهي خفيّة ـ وذلك بأن تستأذن في زيارة بيت المقدس، وتستمهلهم مدّة ما تعود. فإذا حصلت بها دخلت في هذا الدين النصراني تحمل الناس عليه، فأنّهم يفترقون فرقتين، فتقاتل بمن أطاعك من عصاك، وما قاتل قوم على دين قط إلّا غلبوا.»

ففعل قسطنطين ذلك، فظفر بالروم. فأحرق كتبهم وحكمتهم، وبنى البيع، وحمل الناس على النصرانية، ونقلهم من الرومية وكانت دار مملكتهم، وبنىٰ قسطنطينية ولم يزل المُلك محروساً بالنصرانية، وغلب على الشام، إلى أن ظهر الإسلام.

ثم ملك من الروم لليانوس[١]

وكان يدين بملة اليونانية القديمة[٢] التى كانت قبل النصرانية. فلمّا ملك، أظهر ملّته، وأعادها كهيئتها، وأمر بهدم البيع، وجمع جموعاً من الروم والخزر ومن كان فى مملكته من العرب. [137]

عاقبة سرف سابور فى القتل

فكان من عاقبة ذلك السرف الذى أقدم عليه سابور من قتل العرب: أن اجتمع

١. لليانوس: Julian، جوليان، يوليان (المفصّل ٢ : ٦٤٢).

٢. فى الطبرى بملّة الروم القديمة (٢ : ٨٤٠).

في عسكر لُليانوس من العرب مائة وسبعون ألف مقاتل. فوجّههم مع بطريق[١] له في مقدمته. وأقدموا على فارس حنقين موتورين. وذلك أنّ سابور لم يقتصر على الانتقام ممّن أذنب وتجاوز حدّه، حتى قتل البرىء، وسفك من الدماء ما لا يُحصى.

فلما انتهى إلى سابور كثرة من مع لليانوس من الجنود، وشدّة بصائرهم، وحنق العرب، وعدد الروم والخزر، هاله ذلك، ووجّه عيوناً تأتيه بأخبارهم، ومبلغ عددهم، وشجاعتهم، وعدّتهم. فاختلفت عليه أقاويل العيون في ما أتوه من الأخبار عن لليانوس وجنده. فتنكّر سابور، وسار في ثقاته ليعاين عسكرهم.

تخلّصه بحسن الإتّفاق

فكان مما جنى فيه على نفسه وتخلّص منه بحسن الإتفاق: أنّه لمّا قرب من عسكر البطريق الذى كان على المقدمة وكان اسمه [138] يوسانوس[٢] ومعه العرب والخزر، وجّه قوماً ليتجسّسوا الأخبار ويأتوه بحقائقها. فنذرت[٣] بهم الروم، فأخذوهم ودفعوهم إلى يوسانوس. فأقرّ من جملتهم رجل واحد، وأخبر بالقصة على وجهها وبمكان سابور، وسأله أن يوجّه معه جنداً فيدفع إليهم سابور.

فأرسل يوسانوس رجلاً من بطانته إلى سابور يعلمه[٤] ما ألقى إليه من أمره وينذره. وإنّما فعل ذلك لميله إلى النصرانية التي قصدها لليانوس. فارتحل سابور من الموضع الذى كان فيه وصار إلى عسكره. ثم زحف لُليانوس بمسألة العرب إيّاه، فقاتل سابور وفضّ جمعه، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وهرب سابور في من

---

١. بطريق: معرّب أصله اليوناني البيزنطي: Patrikios، معناه بالرومية: أمير الجيش، وفي المسيحية: القسيس، باللاتينية: patricus (لد، فم).

٢. مط: يوسابوس. وهو Jovian (المفصّل ٢: ٦٤٢).

٣. نذر به: علمه، فحذره.

٤. في الأصل ومط: ويعلمه. فحذفنا الواو، كما يتطلّبه السياق.

بقي من جنده، واحتوى لليانوس على مدينة طيسبون محلّة سابور، وظفر ببيوت أمواله وخزائنه فيها. ثم اجتمع إلى سابور من آفاق بلاده جنوده، وحارب لُليانوس، واستنقذ منه طيسبون، واختلفت الرّسل بينه وبين لُليانوس.

سوء تحفّظ لُليانوس

فكان من سوء تحفّظ لليانوس في تلك الحال واسترساله: [139] أن كان يوماً جالساً في حجرة من فُسطاطه، والرسل تختلف بينه وبين سابور، فجاءه سهم غرب فأصاب مقتله من فؤاده، فسقط ومات، وأُسقط[١] في روع جنده وهالهم ما نزل به، ويئسوا من التقضّي في بلاد فارس، فصاروا نشراً لا ملك عليهم. فطلبوا إلى يوسانوس أن يتولّى المُلك لهم ليملّكوه عليهم. فأبىٰ ذلك، وألحّوا عليه، فأعلمهم أنّه على ملّة النصرانية، وأنّه لا يلي قوماً هم له مخالفون في دينه. فأخبرتهم الروم أنّهم على ملّته، وأنّهم كتموها مخافة لُليانوس. فأجابهم حينئذٍ، فلمّا ملّكوه[٢] أظهروا النصرانية.

ثم إنّ سابور لما علم بهلاك لُليانوس، أرسل إلى قوّاد جنوده الروم يقول:

ـ «إنّ الله قد أمكننا منكم، وأدالنا عليكم، ونرجو أن تهلكوا ببلادنا جوعاً من غير أن نهزّ لقتالكم سيفاً، أو نشرع له رمحاً، فسرّحوا إلينا رئيساً إن كنتم رأستموه عليكم.»

فعزم يوسانوس على إتيان سابور لما كان بينه وبينه، لما أنذره ومنّ عليه. فلم يتابعه أحد [140] من قوّاد جنده. فاستبدّ برأيه، وجاء إلى سابور في ثمانين رجلاً من أشراف من كان في عسكره وجنده، وعليه تاجه. فبلغ سابور مجيئه إليه، فتلقّاه، وتساجدا، فعانقه سابور شكراً لما كان منه في أمره، وطعم عنده

---

١. أُسقط في روعهم: فزعوا، خافوا.

٢. في الأصل ومط: ملّكوا بدون «ه».

يومئذٍ ونعم. وإنّ سابور أرسل إلى قوّاد جند الروم وذوى الرئاسة فيهم يعلمهم: أنّهم لو ملّكوا غير يوسانوس، لجرئ هلاكهم في بلاد فارس، ولكن تمليكهم إيّاه ينجيهم من سطوته. ثم قوّى أمر يوسانوس بكلّ جهدٍ، وقال له عند منصرفه:

ـ «إنّ الروم قد شنّوا الغارة على بلادنا، وقتلوا بشراً كثيراً، وقطّعوا بأرض السواد من الشجر والنخل ما كان بها، وخرّبوا عمرانها، فإمّا أن تدفعوا إلينا قيمة ما أفسدوا وخرّبوا، وإمّا أن تعوّضونا من ذلك نصيبين وحيّزها.»

فأجاب يوسانوس وأشراف جنده سابور إلى ما سأل من العوض، ودفعوا إليه نصيبين. فبلغ ذلك أهلها، فجلوا عنها الى مدن للروم، خوفاً على أنفسهم من ملك مخالف ملّتهم. فبلغ ذلك سابور، فنقل اثنى عشر ألف [141] أهل بيت من أهل إصطخر وإصبهان وكور أُخر، من بلاده إلى نصيبين، فأسكنهم إيّاها. وانصرف يوسانوس إلى الروم وملكها يسيراً ثم هلك.

وضرى سابور على قتل العرب، ونزع أكتاف رؤسائهم زماناً طويلاً، فسمّته العرب «ذاالأكتاف». ثم إنّه استصلح العرب وأسكن من بعض تغلب وعبدالقيس وبكر، كرمان وتوّج[1] والأهواز. وبنى مدينة نيسابور ومدائن أُخر بالسند وسجستان[2]، ونقل طبيباً من الهند، فأسكنه السوس، فورث طبّه أهل السوس. وهلك سابور بعد اثنتين وسبعين سنة من ملكه.

أردشير بن هرمز[3]

وقام بالمُلك بعد سابور، أخوه أردشير بن هرمز بن نرسى بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك. فلمّا استقرّ به المُلك ظهر منه شرّ، وقتل

١. مط: نوخ. وتوّج: مدينة بفارس على شاطئ نهر سابور خربت في القرن السادس (لج: ٢٨٠).
٢. سجستان = سگستان = سيستان (لج: ٣٨٥).
٣. انظر الطبرى ٢: ٨٤٦.

[من][١] ذوى الرئاسة والعظماء خلقاً كثيراً. فخلعه الناس بعد أربع سنين من مُلكه، وملّكوا:

سابور بن سابور ذي الأكتاف

فاستبشرت الرعية به وبرجوع مُلك أبيه إليه. فأحسن السيرة ورفق بالرعية، إلى أن سقط عليه فسطاط كان ضرب عليه، فمات ومُلّك بعده [142] أخوه:

بهرام بن سابور ذي الأكتاف

وكان يلقّب بكرمان‌شاه، لأن سابور ولّاه «كرمان»، فمضت أيّامه محمودة، وكان جميل السياسة محبّباً[٢]. ثم قام بالملك:

يزدجرد المعروف بالأثيم ابن بهرام بن سابور ذي الأكتاف[٣]

ومن الفرس من يقول: هو أخو بهرام وهو يزدجرد بن سابور ذي الأكتاف. وكان فظّاً غليظاً ذا عيوب كثيرة، وكان من أشدّ عيوبه وضعه ذكاء ذهن وحسن أدب كانا فيه، غير موضعهما. وذلك أنّه كان كثير الرؤية في الضارّ[٤] من الأمور، واستعمل علمه الذي أوتيه، في الدهاء والختل، واستخفّ بكلّ علم كان عند الناس، واحتقر آدابهم واستطال بما عنده، وكان من ذلك معجباً، غلقاً، سيئ الخُلق، رديء الطعمة[٥]، حتى بلغ من شدة غلقه وحدّته أن يستعظم صغير الزلّات ولا يرضى فى عقوبتها إلّا بما لا يستطاع أن يبلغ مثلها. ثم لم يقدر أحد من بطانته ـ وإن كان لطيف المنزلة منه ـ أن يشفع لمن ابتلى به، وإن كان ذنب

١. ما فى [ ] تكملة من مط.
٢. مط: مجيباً.
٣. أنظر الطبرى ٢ : ٨٤٧.
٤. مط: الصغار من الأمور.
٥. رديء الطعمة: رديء السيرة فى الأكل.

المبتلى [143] به يسيراً. ولم يكن يأتمن أحداً على شيء من الأشياء. ولم يكن يكافئ على حسن البلاء. وكان يعتدّ بالخسيس من العُرف إذا أولاه ويستجزل ذلك. فإن جسر على كلامه أحد فى أمر قال له:

ـ «ما قدر جعالتك[١] فى هذا الأمر الذى كلّمتنا فيه، وما الذى بُذل لك؟»

وما أشبه ذلك. فلقى الناس منه عنتاً. فلما اشتدّت بليّته، وكثر إهانته للعظماء، وحمل على الضعفاء، وأكثر من سفك الدماء، اجتمعوا وتضرّعوا إلى ربّهم فى تعجيل إنقاذهم منه.

فتزعم الفرس: أنه كان مطّلعاً من قصره ذات يوم إذ رأى فرساً عائراً[٢] لم ير مثله قطّ فى الخيل، حسن صورة وتمام خلق، حتى وقف على بابه، فتعجّب الناس منه، لأنه كان متجاوز الأمر[٣]. فأمر يزدجرد أن يسرج ويلجم ويدخل عليه. فحاول ساسته وأصحاب مراكبه إلجامه وإسراجه، فلم يمكّن أحداً منهم من نفسه. فخرج بنفسه إلى الموضع الذى فيه الفرس، فألجمه بيده وأسرجه وليّنه[٤] فلم يتحرّك. فلمّا استدار به [144] ورفع ذنبه ليثفره[٥]، رمحه الفرس على فؤاده رمحة هلك منها مكانه، ثم لم يعاين ذلك الفرس. فأكثرت الفرس فى حديثه وظنّت الظنون. وكان أحسنهم مذهباً من قال: «إنما استجاب الله دعاءنا».

ثم ملك بعد يزدجرد الأثيم ابنه:

بهرام جور[٦]

وكان أسلمه يزدجرد إلى المنذر بن النعمان ليربّيه فى ظهر الحيرة، لصحّة

١. مط: جمعاً إنك! بدل: جعالتك.
٢. عار: ذهب وجاء متردّداً.
٣. فى الطبرى: متجاوز الحال.
٤. مط: وكتبه!
٥. أثفر الدابة: شدها بالثفر: سير فى مؤخر السرج يشدّ على عجز الدابة تحت ذنبها.
٦. أنظر الطبرى ٢: ٨٤٥.

التربة والهواء، وليتعلّم هناك الفروسية. وتكفّله النعمان وعظّم يزدجرد المنذر بن النعمان وشرّفه، وملّكه على العرب، وسار به المنذر، فربّاه، واستدعى له الحواضن من الفرس والعرب، ثم أحضره المؤدّبين، وحرص بهرام على الأدب.

فتحكيٰ عنه حكايات من النجابة في صغره، فمنها أنّه قال للمنذر بن النعمان وهو ابن خمس سنين:

ـ «أحضرني مؤدّبين ليعلّموني الكتابة والفقه والرمي والفروسية.»

فقال له المنذر: «إنّك بعدُ صغير السنّ، ولم يأن لك ذلك بعد.»

فقال له بهرام: «أما تعلم أيّها الرجل، أنّي من ولد الملوك، وأنّ المُلك [145] صائر إليّ، وأوليٰ ما كلّف به الملوك وطلبوه، صالح العلم، لأنّه زين لهم وركن، وبه يفوقون؟ أما تعلم أنّ كلّ ما يتقدّم في طلبه ينال وقته، وما لا يتقدّم فيه، بل يطلب في وقته، ينال في غير وقته، وما يفرّط فيه وفي طلبه، يفوت فلا ينال؟ عجّل عليّ بما سألتك!»

فوجّه المنذر ساعة سمع مقالة بهرام، إلى باب الملك من أتاه برهط من المعلّمين والفقهاء ومعلّمي الرمي والفروسية، وجمع له حكماء الروم وفارس ومحدّثي العرب، فألزمهم إيّاه، ووقف أوقاتاً لكل قوم منهم. فتفرّغ بهرام لتعلّم كل ما سأل أن يعلّم، واستمع من أهل الحكمة، ووعيٰ ما سمع، وثقف كل ما عُلّم بأيسر سعي، وبلغ أربع عشرة سنة وقد فاق معلّميه، واستفاد كل ما أفيد وحفظ وفاق. ثمّ حرص على انتخاب الأفراس العربيّة وركوبها واحضارها والرمي عليها، فبرع في ذلك. وتحكي الفرس عنه حكايات عظيمة جدّاً[1].

ثمّ أعلم المنذر أنّه على الإلمام بأبيه، فشخص، [146] وكان أبوه لا يحفل بولد له، فاتّخذ بهرام للخدمة، ولقي بهرام من ذلك عنتاً. واتفق أن ورد على يزدجرد

١. أنظر الطبري (٢: ٨٥٦) والثعالبي: ٥٣٩ وابن الأثير (١: ٤٠١).

وفد من قيصر ـ وفيهم أخو قيصر ـ في طلب الصلح والهدنة، فسأله بهرام أن يكلّم يزدجرد في الإذن له في الانصراف إلى المنذر. فأذن له أبوه وانصرف إلى بلاد العرب وقد عرّض بأبيه ورأى قلّة نفاق[١] أدبه عليه، ولقي شدّة وهواناً. فأقبل على التنعم والتلذّذ، إلى أن هلك أبوه يزدجرد وبهرام غائب.

فتعاقد قوم من العظماء ألّا يملّكوا أحداً من نسل يزدجرد، وأظهروا: أنّ ولد يزدجرد لايحتملون المُلك، وليس فيهم نجيب غير بهرام، وبهرام لم يتأدّب بأدب الفرس، وإنّما أدبه أدب العرب، وأخلاقه أخلاقهم، لنشئه في ما بينهم وبين أظهرهم، واجتمعت كلمة العامّة معهم على صرف المُلك عن بهرام إلى رجل من عترة أردشير بن بابك يقال له:

كِسرىٰ

فملّكوه، وانتهى هلاك يزدجرد وما كان من تمليكهم كِسرىٰ إلى بهرام. [147] فدعا بالمنذر وبالنعمان ابنه وناس من علية العرب. فذكّرهم إحسان والده إليهم وإنعامه عليهم مع فظاظته وشدّته على الفُرس، وأخبرهم بموت والده وما كان من الفُرس من تمليك غيره، ومنّاهم من نفسه ووعدهم بما أنسوا به. فقال المنذر:

ـ «لا يهولنّك ذلك حتى ألطف للحيلة.»

ثمّ إنّ المنذر جهّز عشرة آلاف من فرسان العرب مع ابنه إلى طيسبون وبهأردشير[٢] مدينتي المُلك، وأمره أن يعسكر قريباً منهما، وأن يغير على ما والاهما، وإن تحرّك أحد لقتاله قاتله. وأذن له في الأسر والسبي، ونهاه عن القتل.

---

١. كذا في مط والأصل: «قلّة نفاق». والظاهر أنّ إحدى الكلمتين زائدة لأنّ النفاق بمعنى النفاد، والفناء، والقلّة.

٢. مهملة في الأصل وأعجمناها كما في مط والطبري. أصلها: وِه أرتخشر. صور التعريب: بهرسير، بردسير، بردشير، گواشير، جواسير، جواشير. وبهادرشير هي كرمان (لج: ٣٢٥).

فسار النعمان حتى نزل قريباً من المدينتين، ووجّه طلائعه إليهما واستعظم قتال الفُرس. فاجتمع رأى العظماء وأهل البيوتات على إنفاذ حُواى[١] على تأدية رسالة ـ وحواى هذا صاحب رسائل يزدجرد ـ إلى المنذر ويستكفونه أمر النعمان ابنه، ويخوّفونه من عقبىٰ جنايته عليه.

فلمّا ورد حواى على المنذر قال له: «إلق الملك بهرام.» [148]

ووجّه معه من يوصله إليه. فلمّا دخل عليه راعه منظر بهرام وما رأى من وسامته. فكلّمه بهرام ووعده ومنّاه وردّه إلى المنذر، ورسم له أن يجيب عمّا كتب إليه.

فقال المنذر لحواى: «قد تدبّرتُ ما جئتنى به، وقرأتُ الكتاب ولستُ صاحب النعمان، وإنّما صاحبه الملك بهرام، وهو الذى وجّهه إلى ناحيتكم، ورسم له ما هو لا محالة متمثّلة، لأنّ المُلك صار له بعد أبيه، ولا حظّ لغيره فيه.»

فلمّا سمع حواى مقالته، وتذكّر ما عاين من بهاء بهرام وروائه[٢] وحسن كلامه، علم أنّ جميع من يشاور فى صرف المُلك عنه مخصوم[٣] محجوج. فقال للمنذر:

ـ «إنى لست محيراً[٤] جواباً، ولكن سر ـ إن رأيت ـ إلى محلّة الملوك فيجتمع إليك من بها من العظماء وأهل البيوتات، وأتِ فى الأمر ما يجمل، فإنّهم لن يخالفوك فى شىء ممّا تشير به.»

فردّ المنذر حواى، واستعدّ وسار بعده بيوم مع بهرام فى ثلاثين ألف رجل من فرسان العرب [149] وذوى البأس والنجدة منهم إلى مدينتى الملك. فلمّا

---

١. حوابى، فى الطبرى: جوانى، جوابى، حوانى (٢ : ٨٥٩).

٢. الرواء: حسن المنظر.

٣. المخصوم: المغلوب فى الخصومة؛ والمحجوج: المغلوب فى الحجة.

٤. أحار الجواب: ردّه، ومنه: لم يحر جواباً.

وردهما، جمع الناس وجلس بهرام على منبر من ذهب مكلّل بالجوهر، وجلس المنذر عن يمينه، وتكلّم عظماء الفرس، وفرشوا[١] للمنذر بكلامهم فظاظة يزدجرد كانت[٢] وسوء سيرته[٣]، وأنّه أخرب الأرض وأكثر القتل ظلماً حتى قلّ الناس. وذكروا أموراً فظيعة، وذكروا أنّهم إنّما تعاقدوا على صرف الملك عن ولد يزدجرد لذلك. وسألوا المنذر ألّا يجبرهم في أمر المُلك على ما يكرهونه.

فقال المنذر لبهرام:

ـ «أنت أولى بإجابة القوم.»

فقال بهرام:

ـ «إني لست أكذّبكم في شيء مما نسبتم إلى يزدجرد لما استقرّ عندي من ذلك. ولقد كنت منكراً سوء هديه متنكّباً طريقته، ولم أزل أسأل الله أن يفضى بالمُلك إليّ فأُصلح كلّ ما أفسد، وأرأب ما صدع، وسأُعيد الأمور بمشيئة الله إلى أتمّ ما كانت عليه في وقت من الأوقات انتظاماً، وأعمر البلاد، وأرفّه الرعيّة، [150] وأوسع لهم، وأوطّئ جانبي[٤]، وأُدرّ أرزاق الجنود وأهل الطاعة، وأسدّ الثغور، وأنفي أهل الفساد. فإن أتت لمُلكي سنة ولم أف لكم بهذه الأمور التي عددت عليكم، تبرّأتُ من المُلك طائعاً، وأُشهد الله بذلك وملائكته وموبذان موبذ.»

فسمع أكثر الناس ورضوا، وتكلّمت طائفة كان رأيها مع كسرى.

فقال بهرام:

ـ «فإنّي على ما ضمنته لكم، واستيجابي[٥] للمُلك، وأنّه حقّ لي. قد رضيت

---

١. فرشوا: بسطوا: شرحوا. ٢. كذا في مط والطبري.

٣. ابن الأثير: فذكروا فظاظة يزدجرد أبي بهرام وسوء سيرته (١: ٤٠٣).

٤. مط: بدون «جانبي». وطأ جانبه: كان سهل الأخلاق، كريماً، مضيافاً.

٥. كذا في مط. وما في الأصل غير واضح.

أن يوضع التاج والزينة بين أسدين مشبلين، فمن تناوله فهو الملك.»

بهرام يتناول التاج والزينة من بين أسدين مشبلين

فلمّا سمع القوم هذه المقالة، مع ما وعد من نفسه، سكنوا، وأظهروا الإستبشار والرضاية، وقالوا:

ـ «إنّا إن تمّمنا صرف الملك عن بهرام، لم نأمن هلاك الفُرس على يده بمن يرىٰ رأيه ولكثرة من استجاش من العرب. وقد عرض علينا ما لم يدعُهُ إليه أحد، لولا ثقته ببطشه وجرأته. فإن يكن على ما وصف به نفسه، فليس الرأى إلّا تسليم المُلك إليه والسمع والطاعة، [151] وإن يهلك ضعفاً وعجزاً فنحن برءاء منه، آمنون لشرّه وغائلته.»

فتفرّقوا على هذا الرأى، وجلس بهرام من الغد فى مثل مجلسه بالأمس، وحضر من كان يحادّه فقال:

ـ «إمّا أن تجيبونى عمّا تكلّمت به أمس، وإمّا أن تسكتوا باخعين لى بالطاعة.»

فقال القوم: «قد رضينا بحكمك، وأن يوضع التاج والزينة بين الأسدين كما ذكرت بحيث رسمت، وتنازعاهما أنت وكسرى.»

فأتي بالتاج والزينة، وتولّى موبذان موبذ الذى كان يعقد التاج على رأس كلّ ملك يملك، فوضعهما ناحية، وجاء إصبهبذ مع ثقات القوم بأسدين ضاريين مجوّعين مشبلين. فوقف أحدهما عن جانب الموضع الذى وضع فيه التاج والزينة، والآخر بحذائه، وأرخى وثاقهما.

ثم قال بهرام لكسرى:

ـ «دونك التاج والزينة!»

فقال كسرى:

ـ «أنت أولى بالبدء منّى، لأنّك تطلب المُلك بوراثة، وأنا فيه دخيل.»

ولم يكره بهرام قوله لثقته بنفسه، وحمل جرزاً وتوجّه نحو التاج والزينة.

فقال له موبذان موبذ:

ـ «استماتتك في هذا الأمر الذي تقدم عليه [152] هو تطوع منك، لا عن رأيي، ولا عن رأي أحد من الفرس، ونحن برءاء إلى الله من إتلافك نفسك.»

فقال بهرام:

ـ «نعم أنتم برءاء، ولا وزر عليكم.»

ثم أسرع نحو الأسدين. فلمّا رأى موبذان موبذ جدّه، هتف به وقال:

ـ «بُحْ بذنوبك وتُبْ منها، ثمّ أقدم إن كنت لا محالة مقدماً.»

فباح بهرام بما سلف من ذنوبه، ثم مشىٰ نحو الأسدين، فبذر أحدهما، فلمّا دنا من بهرام، وثب وثبة، فإذا هو على ظهر الأسد، وعصر جنبى الأسد بفخذيه حتى أثخنه[1]، فجعل يضرب على رأسه بالجرز، ثم قرب من الأسد الآخر. فلمّا تمكّن منه قبض على أذنيه وعركهما[2] بكلتي يديه، ولم يزل يضرب رأسه برأس الأسد الذي كان ركب ظهره، حتى دمغهما، ثمّ قتلهما ضرباً على رأسهما بالجرز، وذلك كلّه بمشهد من جميع من حضر ذلك الموضع وبمرأى من كسرى. فتناول بهرام التاج والزينة، وكان كسرى أوّل من هتف به وقال:

ـ «عمّرك الله بهرام، الذي يسمع له من حوله ويطيع، ورزقه الله مُلك [153] أقاليم الأرض السبعة.»

ثم هتف الناس وجميع من حضر ذلك المجلس، وقالوا:

ـ «أذعنّا للملك بهرام ورضينا به ملكاً.»

وكثر الدعاء والضجيج.

ولقى الرؤساء المنذر بعد ذلك وسألوه أن يكلّم بهرام في التغمّد لاساءتهم

---

١. أثخنه: تكاثر عليه وغلبه.

٢. عرك الشيء: حكّه حتى محاه.

والصفح عنهم. فسأله المنذر وأسعفه الملك. ثم جلس بهرام ـ وهو ابن عشرين سنة ـ سبعة أيّام متوالية للجند والرعيّة، يعدهم الخير من نفسه ويحضهم على تقوي الله وطاعته، وغبر زماناً يحسن السيرة ويعمر البلاد ويدرّ الأرزاق.

ثم آثر اللهو على ذلك، وكثرت خلواته بأصحاب الملاهی والجواری، حتى كثرت ملامة رعيّته إيّاه على ذلك، وطمع من حوله من الملوك فی استباحة بلاده والغلبة على بلاده.

خاقان يغزو بهرام

وكان أوّل من سبق إلى مكاثرته ومغالبته خاقان ملك الترك. فإنّه غزاه في مائتين وخمسين ألفاً من الأتراك. فبلغ الفُرس إقبال خاقان فی هذا الجمع العظيم فهالهم وتعاظمهم، ودخل إليه من عظمائهم قوم من أهل الرأی [154] فقالوا:

ـ «أيها الملك، قد أزفك[1] من بائقة[2] هذا العدوّ ما يشغلك عمّا أنت فيه من اللهو والتلذّذ، فتأهّب له، كی لا يلحقك منه أمر يلزمك فيه مسبّة وعار.»

فكان بهرام لثقته بنفسه ورأيه، يجيب القوم: بأن الله ربّنا قوی ونحن أولياؤه، ثم يقبل على المثابرة واللزوم لما فيه من اللهو والصيد.

حيلة بهرام جور على خاقان[3]

إلى أن أظهر ذات يوم التجهّز إلى آذربيجان لينسك فی بيت نارها ويتوجّه منها إلى أرمينية ويطلب الصيد فی آجامها، ويلهو فی مسيره، فی سبعة رهط من العلماء وأهل البيوتات وثلاثمائة رجل من رابطته، ذوی بأس ونجدة. واستخلف أخاً له يقال له: «نرسی»، على ما كان يدبّر من مُلكه. فلم يشكّ الناس حين بلغهم

---

١. أزف: إقترب ودنا، ومنه أزفت الآزفة، وأزفت الساعة.

٢. البائقة: الشرّ.

٣. أنظر الطبری ٢: ٨٦٣.

مسير بهرام فى من سار بهم، واستخلافه أخاه على ما استخلف، فى أنّ ذلك هرب من عدوّه، وإسلام لمُلكه. وتوامروا[١] فى إنفاذ وفد إلى خاقان، والإقرار له [155] بالخراج، ومخافة منه، لاستباحة بلادهم، واصطلامه[٢] مقاتلتهم ووجوههم، إن هم لم يفعلوا ذلك ويبادروا إليه. فبلغ خاقان الذى أجمع عليه الفرس من الإنقياد والخضوع. فأمنهم وتودّع وترك كثيراً من الجدّ والاستعداد، وآثر جنده أيضاً ذلك. وأتى بهرام عين له من جهة خاقان، فأخبره بحاله، وحال جنده وفتورهم عن الجدّ الذى كانوا عليه.

فسار بهرام في العدّة الذين كانوا معه، فبيّت خاقان وقتله بيده، وانهزم من سلم من القتل منهم، وخلّفوا عسكرهم وأثقالهم. فأمعن بهرام فى طلبهم يقتلهم، ويحوى الغنائم ويسبى الذراريّ، وانصرف هو وجنده سالمين، وظفر بتاج خاقان وإكليله، وبخع له أهل البلاد المتاخمة لما غلب عليه، بالطاعة. وسألوه أن يحدّ لهم حدّاً بينه وبينهم فلا يتعدّوه.

ثم بعث قائداً له إلى ماوراء النهر، فأثخنهم وأقروا له بالعبوديّة وأداء الجزية. وانصرف بهرام بالغنائم العظيمة والتاج والإكليل [156] وما فيهما من الياقوت الأحمر وسائر الجواهر فنحلها[٣] بيت النار بآذربيجان.

ورفع الخراج عن الناس ثلاث سنين، وقسم فى الفقراء مالاً عظيماً، وفى البيوتات وأهل الأحساب عشرين ألف ألف [٢٠,٠٠٠,٠٠٠] درهم.

وكتب كتباً إلى الآفاق يذكر فيها أنّ الخبر كان ورد عليه بورود خاقان بلاده وأنه مجّد الله وتوكّل عليه، وسار في سبعة رهط من أهل البيوتات، وثلاثمائة فارس من نخبة رابطته على طريق آذربيجان، وجبل القَبق[٤]، حتى نفذ إلى برارى خوارزم ومفاوزها، وأبلاه الله أحسن بلاء، وذكر فى الكتاب ما وضعه عن

---

١. توامروا = تآمروا.
٢. اصطلمه: استأصله. صلمه: قطعه من أصله.
٣. نحل: أعطى وتبرّع.
٤. جبال قفقاز (لد).

الناس من الخراج، وهذا الكتاب كان بليغاً، والفرس يحفظونه.

ويقال: إنّ بهرام ترك من حقّ بيت المال من الخراج سبعين ألف ألف [٧٠,٠٠٠,٠٠٠] درهم بقسط تلك السنة، وكان هذا مقدار ما بقى منه، ثمّ [أمر بترك][١] الخراج ثلاث سنين أخر.

قصدُهُ الهند والروم والسند والسودان

ثم إنّ بهرام لما انصرف من غزوه خاقان مظفّراً قصد الهند، فيحكى له حكايات عظيمة وأمور كبار تولّاها، وغلب عليها، وزوّجه [157] ملك الهند ابنته ونحله الديبُل[٢] ومُكران وما يليها، فضمّها بهرام إلى أرض الفرس، وحمل خراجها إلى بهرام.

ثم أغزى بهرام «مهرنرسى» إلى بلاد الروم في أربعين ألف مقاتل، وأمره أن يقصد عظيمها ويناظره في أمر الإتاوة وغيرها. فتوجّه مهرنرسى في تلك العدّة، ودخل قسطنطينية، ومُقامه مشهور هناك، فهادنه ملك الروم، وانصرف بجميع ما أراد بهرام ـ وكان مهرنرسى هذا من ولد يهمن بن اسفندياذ بن بشتاسف، وربما خفّف اسمه، فقيل: «نرسى» ـ وبلغ مبلغاً، وكلّ ذلك بهيبة بهرام وما تمكّن له فى قلوب الملوك وأهل الأطراف والجند من جودة الرأى وحسن التدبير والشجاعة ونفاذ العزيمة، وقلّة الاتّكال على غيره.

وذكر أنّ بهرام بعد فراغه من أمر خاقان وأمر ملوك الروم والسند، مضى إلى بلاد السودان[٣] من ناحية اليمن، فأوقع بهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وسبىٰ منهم خلقاً، وانصرف إلى مملكته.

---

١. كلمة مطموسة في الأصل، وما أثبتناه من مط.

٢. ديبُل: كرسي ارمينية فى الحكم الإسلامي (لج: ١٩٦). أنظر الطبري ٢ : ٨٦٨، وابن الأثير ١ : ٤٠٦.

٣. ما فى الأصل يشبه «السردان»، وما أثبتناه يؤيده مط والطبرى ٢ : ٨٧١.

ارتطام بهرام في سبخة

وهلك بعد ذلك في «ماه»[١] وذلك أنه توجّه إليها للصيد [158] فشدّ على عير وأمعن فيْ طلبه فارتطم في ماء في سبخة[٢] وغرق هناك. فسارت والدته إلى ذلك الموضع بأموال عظيمة، فأقامت قريبة منها، وأمرت بإنفاق تلك الأموال على من يخرجه. فنقلوا طيناً عظيماً وحمأة كثيرة، وجمعوا منه إكاماً عظاماً، ولم يقدروا على جثة بهرام. وكان مُلكه ثلاثاً وعشرين سنة.

ثم ملك بعده:

يزدجرد بن بهرام جور

فكان يسير بسيرة أبيه ولم يزل قامعاً لعدوّه رؤوفاً برعيّته وجنوده. وكان له ابنان: أحدهما يسمّى هرمز، والآخر فيروز. فغلب هرمز على المُلك بعد أبيه يزدجرد، وهرب فيروز منه ولحق ببلاد الهياطلة[٣]، وأخبر ملكها بقصّته وقصّة أخيه هرمز، وأنّه أولى بالمُلك منه، وسأله أن يمدّه بجيش يقاتل بهم أخاه. فأبى عليه ملك الهياطلة وقال:

ـ «سأعلم علمه، ثم أُمدّك إن كنت صادقاً.»

فلما عرف ملك الهياطلة أنّ هرمز ملك ظلوم غشوم، قال:

ـ «إن الجور لا يرضاه الله، ولا يصلح عليه المُلك، ولا تقوم به سياسة، ولا

---

١. بالفارسية القديمة: Mada. بالفهلوية: May: البلاد، بلاد ماد (ميد)، عراق العجم وآذربيجان، أرض الجبل (حب). ماه البصرة: الدينور. ماه الكوفة: نهاوند (حب، نقلاً عن جماهر البيروني: ٢٠٥).

٢. السبخة: أرض ذات سباخ، والسباخ ما يعلو الماء من طحلب ونحوه.

٣. الهياطلة: المنسوبون إلى هيطل وهو معرّب Heptal أو Heftal. وفي بندهش: Heftalan (انكساريا: ٢١٥). بالفارسية: هيتال (حب).

يحترف[١] [159] الناس في مُلك الملك الجائر إلّا بالجور، وفي هذا هلاك الناس وخراب الأرض.»

فأمدّ فيروز، ودفع إليه الطالقان[٢]. فأقبل فيروز من عنده بجيش طخارستان[٣] وطوائف خراسان[٤]، وسار إلى أخيه هرمز بن يزدجرد وهو بالريّ، وكانت أمّهما واحدة، وكانت بالمدائن تدبّر ما يليها من المُلك، فظفر فيروز بأخيه، فحبسه وأظهر العدل وحسن السيرة، وكان يتديّن، إلّا أنه كان محارفاً[٥] مشؤوماً على رعيته، وقحط الناس في زمانه سبع سنين، فأحسن فيها إلى الناس، وقسم ما في بيوت الأموال وكفّ عن الجباية، وساسهم أحسن سياسة.

ويقال: إنّ الأنهار غارت في مدّة هذه السبع السنين، وكذلك القنيّ والعيون، وقحلت[٦] الأشجار والغياض[٧]، وتماوتت الوحوش والطيور، وجاعت الأنعام والدوابّ، حتى كانت لا تطيق أن تحمل حمولة، وعمّ أهل البلاد الجهد[٨] والمجاعة.

حُسن سياسة من فيروز

فبلغ من حُسن سياسة فيروز لذلك الأمر [160] أن كتب إلى جميع أهل رعيّته: أنّه لا خراج عليكم ولا جزية ولا سخرة، وأنّه قد ملّكهم أنفسهم وأمرهم

١. مط: لا يحترق.

٢. الطالقان مدينة على ثلاث منازل من مرو الروذ من جهة بلخ، وكانت مدينة ذات أهمية في القرن الثالث الهجري (لج: ٤٤٩).

٣. طخارستان: ولاية في شرقي بلخ على الساحل الجنوبي من جيحون تمتد إلى بدخشان (لج: ٤٥٣).

٤. مط: خوارسان.

٥. المحارف: المجازى على الخير والشرّ.

٦. قحل: يبس.

٧. الغيضة: الأجمة: الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتفّ.

٨. الجهد: المشقّة والفقر.

بالسعي فيما يقوتهم[١] ويصلحهم. ثم كتب إليهم في اخراج الهُوىٰ[٢] والطعام والمطامير[٣] لكلّ من كان يملك شيئاً من ذلك مما يقوت[٤] الناس، والتآسي فيه، وترك الاستيثار به، وأن يكون حال أهل الفقر والغنىٰ وأهل الشرف والضعة في التآسي واحدة، وأخبرهم أنّه إن بلغه أن إنسيّاً مات جوعاً، عاقب أهل تلك المدينة أو القرية أو الموضع الذي يموت فيه ذلك الإنسي، ونكّل بهم أشدّ النكال.

ويقال: إنّه لم يهلك في تلك اللزبة[٥] والمجاعة أحد من رعيّته إلّا رجل من رُستاق كورة أردشير خُرّة.

ثم إنّ فيروز لما حييت بلاده، وأغاثه الله بالمطر، وعادت المياه، وصلحت الأشجار، واستوسق[٦] له المُلك، أثخن[٧] في الأعداء وقهرهم، وبنى مدناً: إحداها بالريّ، والأخرى بين جرجان وصول،[٨] والأخرى بناحية آذربيجان.

ثم سار بجنوده نحو خراسان مريداً حرب أُخْشُنواز[٩] [161] ملك الهياطلة، لأشياء كانت في نفسه، ولأنّ هؤلاء القوم كانوا يأتون الذكران ويرتكبون الفواحش، فتأوّل بها وسار إليهم. فلما بلغ أُخشنواز خبره اشتدّ منه رعبه وعلم أن لا طاقة له به.

حيلة تمت لملك الهياطلة على فيروز

فكان مما تمّ له على فيروز من الحيلة حتى قهره وقتله وقتل عامّة من كان

---

١. مط: يقويهم.
٢. الهوىٰ: جمع الهوّة: الحفرة، البئر المغطاة.
٣. المطامير: جمع المطمورة: مكان تحت الأرض قد هيئ ليطمر فيه البرّ والفول ونحوه.
٤. مط: يفوت! أنظر إلى كاتب مط كيف يعامل مع كلمتين من أصل واحد فيكتبهما: «يقويهم» و«يفوت».
٥. اللزبة: الشدة، الأزمة، القحط.
٦. استوسق: انتظم.
٧. أثخن في الأعداء: بالغ في قتالهم.
٨. صول: معرّب «چول» مدينة في بلاد الخزر في نواحي باب الأبواب وهو الدربند (يا).
٩. الطبري: أُخشنواز، خوشنواز (٢ : ٨٧٥). بالفهلوية: Xshunvaz (فم).

معه: أنّ رجلاً من أصحاب أُخشنواز، لما علم أنّ ملكه قد بعل[١]، وأنه قد أشرف على الهلاك هو وأهل بلاده، تنصّح إليه وقال:

ـ «إنّي رجل كبير السنّ قريب الأجل، وقد فديت الملك وأهل مملكته بنفسي[٢] فاقطع يدىّ ورجلىّ وأظهر فى جسمى وجنبى آثار السياط والعقوبات، وألقنى فى طريق فيروز، وأحسن إلى ولدى وعيالى بعدى، فإنّى أكفيك أمر فيروز.»

ففعل ذلك أُخشنواز بذلك الرجل، وألقاه فى طريق فيروز. فلمّا مرّ به أنكر حاله ورأى شيئاً فظيعاً. فسأله عن أمره، فأخبره: أنّ أُخشنواز فعل به ذلك، لأنّه قال له: «لا قوام لك بالمَلك فيروز وجنوده»، وأشار عليه بالانقياد [162] له والعبودة.

فرقّ له فيروز، ورحمه، وأمر بحمله معه. فأعلمه على وجه النصح، أو فى ما زعم، أنه يدلّه على طريق قريب مختصر لم يدخل أحد منه قطّ إلى أُخشنواز على طريق المفازة، وسأله[٣] أن يشتفى له منه. فاغترّ فيروز بذلك منه وأخذ الأقطع[٤] بالقوم فى الطريق الذى ذكره له، فلم يزل يقطع بهم مفازة[٥] بعد مفازة. فلما شكوا عطشاً أعلمهم أنّهم قد قربوا من الماء، ومن قطع المفازة، حتى بلغ بهم موضعاً علم أنهم لا يقدرون فيه على تقدّم ولا تأخر، بيّن لهم أمره.

فقال أصحاب فيروز لفيروز:

ـ «قد كنّا حذّرناك، أيها الملك، فلم تحذر، فأمّا الآن فلابدّ من المضىّ قُدماً، فإنّه لا سبيل إلى الرجوع، فلعلّك توافى القوم على الحالات كلّها.»

فمضوا لوجوههم وقتل العطش أكثرهم، وصار فيروز بمن نجا معه إلى

---

١. بعل بأمره: دهش وتحيّر.
٢. مط: بنفسه.
٣. وسأله... ومن قطع المفازة: سقطت من مط.
٤. الأقطع: المقطوع اليد أو الرجل.
٥. المفازة: الصحراء، المهلكة.

عدوّهم. فلمّا أشرفوا عليهم ـ وهم بأسوأ حال من الضرّ والضعف ـ دعوا أُخشنواز إلى الصلح، على أن يخلّي سبيلهم حتّى ينصرفوا إلى بلادهم، على أن يجعل له فيروز عهد [163] الله وميثاقه ألّا يغزوهم ولا يروم أرضهم ولا يبعث إليه جنداً يقاتلونهم، ويجعل بين المملكتين حدّاً لا يجوزه. فرضي أُخشنواز بذلك، وكتب له كتاباً مختوماً وأشهد له على نفسه شهوداً، ثمّ خلّى سبيله وانصرف. فلما صار إلى مملكته حمله الأنف على معاودة أُخشنواز.

عاقبة غدره

فكان من عاقبة غدره: أنّه غزاه بعد أن نهاه وزراؤه وخاصّته عن ذلك، لما فيه من نقض العهد، فلم يقبل منهم وأبىٰ إلّا ركوب رأيه. وكان في من نهاه عن ذلك رجل يخصّه ويجتبى رأيه يقال له: مربوذ[١]. فلمّا رأىٰ لجاجته، كتب ما دار بينهما في صحيفة، وسأله الختم عليها. ومضى فيروز لوجهه نحو بلاد أُخشنواز.

فلمّا بلغ فيروز منارة كان بناها بهرام جور في ما بين تخوم[٢] بلاد خراسان وبلاد الترك ـ لئلّا يجوزها الترك إلى خراسان، لميثاق كان بين الترك والفرس على ترك الفريقين التعدّي لها، وكان فيروز عاهد [164] أُخشنواز أن لا يجاوزها إلى بلاد الهياطلة ـ أمر فيروز فصُمد[٣] فيها خمسون فيلاً وثلاثمائة رجل، فجُرّت أمامه جرّاً واتّبعها، وزعم أنّه يريد بذلك الوفاء، وترك مجاوزة ما عاهد عليه.

فلمّا بلغ أُخشنواز ذلك من فعل فيروز، أرسل إليه يقول له:

ـ «إنّ الله عزّوجلّ لا يخادع ولا يماكر، فانته عمّا انتهى عنه أسلافك، ولا تقدم على ما لم يقدموا عليه».

---

١. مط: مرديو. الطبري: مزدبوذ، مربود.
٢. جمع التخم: الحد الفاصل بين أرضين. الحدّ.
٣. صُمد: قُصد.

فلم يحفل فيروز لقوله، ولم يكترث برسالته، وجعل يستطعم محاربة أُخشنواز ويدعوه إليها، وجعل أُخشنواز يمتنع من محاربته ويتكرّهها، لأنّ جُلّ محاربة الترك إنّما هو بالخداع والمكر والمكائد.

ثم إنّ أُخشنواز أمر فحُفر[١] خلف عسكره خندق عرضه[٢] عشرة أذرع وعمقه عشرون ذراعاً، وغمّى بخشب ضعاف، وألقى عليه التراب، ثم ارتحل في جنده ومضى غير بعيد. فبلغ فيروز رحلة أُخشنواز بجنده من معسكره، فلم يشكّ أنّ ذلك هزيمة منهم وأنّه قد انكشف[٣] وهرب. فأمر بضرب الطبول، وركب في جنده في [165] طلب أُخشنواز وأصحابه وأغذّوا[٤] السير. وكان مسلكهم على ذلك الخندق. فلمّا بلغوه اقتحموه على عماية، فتردّىٰ فيها فيروز وعامّة جنده، وهلكوا من آخرهم[٥]. وعطف أُخشنواز إلى عسكر فيروز واحتوى على كلّ شيء فيه، وأسر موبذان موبذ، وصارت فيروزدُخت بنت فيروز في من صار في يده من نساء فيروز.

ثم قام بالمُلك بعد فيروز بن يزدجرد، ابنُه:

بلاش بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور[٦]

وكان حسن السيرة، حريصاً على العمارة. وبلغ من حسن نظره أنّه كان لا يبلغه أنّ بيتاً خرب وجلا أهله عنه، إلّا عاقب صاحب القرية التي فيها ذلك البيت، على تركه إنعاشهم وسدّ فاقتهم، حتى لا يضطروا إلى الجلاء عن أوطانهم.

---

١. مط: أن يخفف!
٢. مط: عهته!
٣. انكشف: انهزم في الحرب.
٤. مط: أعدوا. أغذّ السير: أسرع.
٥. أنظر الطبري ٢: ٨٧٦.
٦. نفس المصدر ٢: ٨٨٢.

ثم ملك قباذ بن فيروز أخو بلاش[١]

وكان صار إلى خاقان يستنصره على أخيه بلاش ويذكر أنّه أحقّ بالمُلك منه. فبقي هناك أربع سنين، ثمّ جهّزه خاقان. فلمّا عاد وبلغ نيسابور [166] بلغه موت أخيه بلاش[٢]. وكان في وقت اجتيازه تزوّج ابنة رجل من الأساورة متنكّراً، وواقعها، فحملت بأنوشروان[٣]. ولما عاد في هذا الوقت الذي ذكرناه، سأل عن الجارية، فأُتي بها وبابنه أنوشروان. فتبرّك به وبها. ولما بلغ حدود فارس والأهواز بنى مدينة أرجان[٤]، وبنى حُلوان، وبنى قباذ خُرّة[٥]، وعدة مدن أُخر.

من آرائه الجيّدة

فكان من آرائه الجيّدة وعزائمه النافذة، قبضه على خاله «سوخرا[٦]». وكان سبب ذلك أنّ فيروز لما جرى عليه ما جرى من الهياطلة كان سوخرا يخلفه على مدينة المُلك بالمدائن. فجمع جموعاً كثيرة من الفرس، وقصد أُخشنواز ملك الهياطلة وحاربه وانتقم منه وتحكّم عليه. وكان وقع في يده دفاتر الديوان الذي صحب فيروز. فتقاضىٰ بجميع ما كان في خزائنه وخزائن قوّاده وأهله، وطلب الوجوه من الأسارى الذين بقوا في يد أُخشنواز. ولم يزل يحارب أُخشنواز ويكيده ويبلغ منه [167] ما يتحكّم به عليه، حتى استنقذ من يده عامّة الفرس، وأكثر ما احتوى عليه من خزائن فيروز.

---

١. نفس المصدر ٢ : ٨٨٣.
٢. مط: بلاس.
٣. بالفهلوية: Anoshakruvan .
٤. أرجان: ولاية في أقصى غربي فارس، خرائبها قريبة من بهبهان (لج : ٢٩٠).
٥. قُباذ خرّة: ولاية في فارس، ومدنها: كارزين، قير، أبرز (لج: ٢٧٤).
٦. Sukhray من الأصل الأفستائي: سوخره، وهو في الفارسية «سُرخ» أي: الأحمر (وب).

فكان له أثر حسن عند الفرس وعند ابنى فيروز، أعني: بلاش وقباذ. فعظّموه ورفعوا منزلته إلى حيث ليس بينه وبين الملك إلّا مرتبة واحدة. فتولّى سياسة الأمر بحنكة وتجربة، واستوى على الأمر، ومال إليه الناس واستخفّوا بقباذ، وتهاونوا به. فلم يحتمل قباذ ذلك، وكتب إلى سابور الرازي[1] ـ الذي يقال للبيت الذي هو منه مهران، وكان اصبهبذ البلاد ـ فى القدوم عليه فى من قِبَله من الجند، فقدم بهم سابور، فواضعه قتال خاله سوخرا، وأمره فيه بأمره، على لطف وكتمان شديد خفيّ. فغدا سابور على قباذ، فوجد عنده سوخرا جالساً. فمشىٰ نحو قباذ مجاوزاً له، وتغفّل سوخرا. فلم يأبه سوخرا لإرب سابور، حتى ألقىٰ وهقاً كان معه فى عنقه، ثم اجتذبه، فأخرجه، وأوثقه، واستودعه السجن. فحينئذٍ ضربت الفرس المثل بأن قالوا:

ـ «نقصت ريح سوخرا، وهبّت ريح مهران».

ثم قتل قباذ سوخرا. فكان هذا رأياً تمّ على سكون، ولم يضطرب فيه أمر.

[168]

سوء تدبير قباذ عند ظهور مزدك وزوال مُلكه

وكان ممّا أساء فيه التدبير والرأى حتّى اجتمعت كلمة موبذان موبذ وجماعة الفرس على حبسه وإزالة مُلكه عنه، أنّه اتّبع رجلاً يقال له «مَزدَك»، مع أصحاب له يقال لهم: «العدليّة».

قالوا: «إنّ الله جعل الأرزاق فى الأرض مبسوطة ليقسمها عباده بينهم بالتآسي، ولكن الناس تظالموا.»

---

١. مط: بدون «الرازي».

وزعموا: أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء ويردّون من المكثرين على المقلّين؛ وأنّه من كان عنده فضل في المال والقوت، أو النساء والأمتعة، فليس هو أولىٰ به من غيره.

فافترص السفلة ذلك واغتنموه، وكانفوا مزدك وأصحابه حتى قوى أمرهم. فكانوا يدخلون على الرجل في داره، فيغلبونه على ماله ونسائه، فلا يستطيعون الامتناع منهم. وقوّاهم قبول الملك رأيهم، ودخوله معهم. فلم يلبثوا إلّا قليلاً حتى صار الرجل لا يعرف أباه، ولا الأب ولده، ولا يملك أحد شيئاً ممّا يتّسع به. وصيّروا قباذ في مكان لا يصل إليه غيرهم فيه. فأجمعت الفرس ـ حين رأوا فساد المُلك ـ على تمليك أخيه جاماسف بن فيروز.

وقد حُكي أيضاً: أنّ المزدكيّة [169] هم الذين أجلسوا جاماسف ليكون الملك من قِبلهم لا منّة لغيرهم عليهم، إلّا أنّ الحكاية الأولى أشبه بالحقّ.

ذكر حيلة تمّت لأُخت قباذ حتّى أخرجته من الحبس

ثم إنّ أختاً لقباذ أتت الحبس الذي كان فيه قباذ. فحاولت الدخول إليه، فمنعها الموكّل الذي كان ثقة عليه، وطمع أن يفضحها بذلك السبب وألقى طمعه فيها. فأخبرته أنّها غير مخالفة له في شيء مما يهواه منها. فأذن لها حتّى دخلت السجن وأقامت عند قباذ يوماً. ثم أمرت فلفّ قباذ في بساط، وحمل على عاتق غلام قويّ ضابط كان معه في الحبس. فلمّا مرّ الغلام بوالي الحبس، سأله عمّا يحمله. فأفحم، فاضطرب. فلحقته أخت قباذ فأخبرته أنّه فراش كانت افرشته في عِراكها[١]، وأنّها إنّما خرجت لتتطهر وتنصرف. فصدّقها ولم يمس البساط، ولم يدنُ منه استقذاراً له على مذهبهم، وخلّى عن الغلام الحامل لقباذ. فمضىٰ به،

١. العِراك: الحيض.

وخرجت في أثره، وهرب قباذ، فلحق بأرض [170] الهياطلة، ليستمدّ ملكها فيحارب من يخالفه.

فيقال: إنّه نزل في مسيره بـ«أبرشهر[١]» على رجل من عظمائها. فتزوّج ابنة له معصراً[٢]، وإنّها أمّ كسرى أنوشروان وإنّ نكاحه لأمّ أنوشروان في سفره هذا. ثمّ إنّ قباذ رجع من سفره هذا بابنه أنوشروان. وغلب أخاه جاماسف بعد أن ملك اخوه ستّ سنين. ثم غزا الروم وافتتح آمد[٣] وبنى مدناً منها: أرجان وغيرها، وملّك ابنه كسرى أنوشروان وأعطاه خاتمه.

وهلك قباذ وكان ملكه بسني مُلك[٤] أخيه ثلاثاً وأربعين سنة.

سبب هلاك قباذ

وكان سبب هلاكه سوء رأيه، وفساد عقيدته، وضعف ملكه. وذلك أنّه لمّا التقى الحارث بن عمرو بن حجر الكندي والنعمان بن المنذر بن إمرئ القيس، قتله، وأفلت المنذر بن النعمان الأكبر، وملك الحارث بن عمرو الكندي ما كان يملك النعمان. فبعث قباذ بن فيروز ملك فارس إلى الحارث بن عمرو الكندي أنّه:

ـ «قد كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلك عهد وإنّي أحبّ لقاءك». [171]

وكان قباذ زنديقاً يظهر الخير، ويكره سفك الدماء، ويداري أعداءه في ما يكره من سفك الدماء، وكثرت الأهواء في زمانه واستضعفه الناس.

فخرج إليه الحارث بن عمرو في عدد وعدّة، حتى التقيا بقنطرة الفيّوم. فأمر

---

١. مط: ايرانشهر. وأبرشهر اسم لنيسابور في أوائل الحكم الاسلامي، وكان يقال لها ايرانشهر أيضاً (لج: ٤٠٩).

٢. أعصرت المرأة: أدركت وكأنّها دخلت شبابها فهي معصر.

٣. آمد: أكبر مدن ديار بكر على الدجلة العليا (لج: ٩٣).

٤. الأصل ومط: بملك سني أخيه. والباء بمعنى مع. أنظر الطبري ٢: ٨٨٨. وابن الأثير ١: ٤١٤.

قباذ بطبق من تمر، فنُزِع نواه، وأمر بطبق آخر، فجعل فيه تمر بنواه. ثم وُضعا بين أيديهما، وجُعل الذى فيه النوى بين يدى الحارث بن عمرو، والذى لا نوىً فيه بين يدى الملك قباذ. فكان الحارث يأكل التمر ويلقى النوىٰ، والملك يأكل التمر ولا يحتاج إلى إلقاء النوىٰ.

فقال الحارث: «ما لك لا تأكل كما آكل؟»

فقال الحارث: «إنّما يأكل النوي إبلنا وغنمنا.»

وعلم أنّ قباذ يهزأ به. ثم افترقا على الصلح وعلى أن لا يتجاوز الحارث وأصحابه الفرات.

إلّا أنّ الحارث استضعفه وطمع فيه، فأمر أصحابه أن يعبروا الفرات ويغيروا على قرى السواد. فأتي قباذ الصريخ وهو بالمدائن، فقال:

ـ «هذا من تحت كنف ملكهم».

ثم أرسل إلى الحارث بن عمرو: أنّ لصوصاً من العرب قد أغاروا على السواد [172] وأنه يحبّ لقاءه.

فلقيه، فقال قباذ كالعاتب:

ـ «لقد صنعت صنيعاً ما صنعه أحد قبلك.»

فطمع الحارث فى لين كلامه فقال:

ـ «ما علمت ولا شعرت، ولا أستطيع ضبط لصوص العرب، وما كلّ العرب تحت طاعتى، وما أتمكّن منهم إلّا بالمال والجنود.»

فقال له قباذ: «فما الذى تريد؟»

قال: «أريد أن تطعمني من السواد ما أتّخذ به سلاحاً[١].»

فأمر له بما يلي جانب الغرب من أسفل الفرات وهى ستّة طساسيج.

---

١. مط: ملاجأ!

فأرسل الحارث بن عمرو الكندى إلى تبّع وهو باليمن:
ـ «إنّى قد طمعت فى مَلك الأعاجم، وقد أخذت منه ستّة طساسيج، فأجمع الجنود وأقبل، فانّه ليس دون مُلكهم شيء، لأنّ الملك عليهم لا يأكل اللحم، ولا يستحلّ هراقة الدماء، وله دين يمنعه من ضبط المُلك، فبادر بعدّتك وجندك.»

فجمع تُبّع الجنود، وسار حتى نزل الحيرة، وقرب من الفرات، فآذاه البقّ، فأمر الحارث بن عمرو أن يشقّ له نهراً إلى النجف، ففعل وهو نهر الحيرة، فنزل عليه، ووجّه ابن أخيه[١] شمراً ذاالجناح [173] إلى قباذ. فقاتله، فهزمه شمر، حتى لحق بالريّ، ثم أدركه بها فقتله.

ذكر ما تمّ لتُبّع وابن أخيه شمر وابنه حسّان بعد احتوائهم على مملكة الفرس

ثمّ إنّ تُبّعاً أمضى شمراً ذا الجناح إلى خراسان، ووجّه ابنه حسّان إلى السغد[٢] وقال:
ـ «أيّكما سبق إلى الصين فهو عليها.»

وكان كلّ واحد منهما فى جيش عظيم يقال: إنهما كانا ستمائة ألف وأربعين ألفاً. وبعث ابن أخيه الآخر واسمه: «يعفر» إلى الروم.

فأمّا يعفر فإنّه سار حتى أتى قسطنطينية. فأعطوه الطاعة والإتاوة. ثم مضى إلى روميّة فحاصرها. ثم أصابهم جوع، ووقع فيهم طاعون فرقّوا[٣]. وعلم الروم بذلك، فوثبوا عليهم فلم يفلت منهم أحد.

وأمّا شمر ذوالجناح فانّه سار حتّى انتهى إلى سمرقند، فحصرها، فلم يظفر

---

١. مط: ابن أخته.
٢. مط: السفه. الطبرى: الصغد.
٣. رقّ: نحف ولطف.

منها بشيء. فلمّا رأى ذلك، أطاف[1] بالحرس حتى أخذ رجلاً من أهلها، فاستمال بقلبه، ثم سأله عن المدينة وملكها.

فقال: «أمّا ملكها فأحمق الناس ليس له همّ إلّا الشرب والأكل والجماع، ولكن له بنت [174] هي التي تقضى أمر الناس.»

فمنّاه ووعده حتى طابت نفسه. ثم بعث معه هديّة إليها وقال:

ـ «أخبرها أنّي إنّما جئت من أرض العرب للذى بلغني من عقلها، لتنكحني نفسها، فأصيب منها غلاماً يملك العرب والعجم، وأنّي لم أجئ التماس المال، وأنّ معى من المال أربعة آلاف تابوت ذهباً وفضّة هاهنا، وأنا أدفعها إليها وأمضى إلى الصين، فإن كانت لى الأرض، كانت امرأتي، وإن هلكت كان المال لها.»

فلمّا انتهت رسالته إليها قالت:

ـ «قد أجبته، فليبعث بالمال.»

فأرسل إليها بأربعة آلاف تابوت، وفي كلّ تابوت رجلان. وكان لسمرقند أربعة أبواب، على كلّ باب منها أربعة آلاف رجل. وجعل شمر العلامة بينه وبينهم أن يضرب لهم بالجُلجُل. وتقدّم في ذلك إلى رسله الذين وجّه معهم. فلمّا صاروا في المدينة ضرب لهم بالجلجل. فخرجوا، فأخذوا بالأبواب ونهد[2] شمر في الناس فدخل المدينة، وقتل أهلها وحوى ما فيها[3].

ثم سار إلى الصين، فلقى زحوف الترك [175] فهزمهم، وانتهى إلى الصين، فوجد حسّان [بن][4] تبّع قد كان سبقه إليها ثلاث سنين. فأقاما بها ـ في بعض الروايات ـ حتى ماتا، وكان مقامهما إحدى وعشرين سنة. وفي بعض الروايات ـ وهو المجمع عليه ـ: أنّ شمراً وحسّاناً انصرفا في الطريق التي كانا أخذا فيه.

---

١. مط: أطاق. أطاف بالشيء: ألمّ به، وأحاط به، طرقه ليلاً.

٢. نهد: نهض ومضى. نهد لعدوه: صمد، وشرع في قتاله.

٣. أنظر الطبرى ٢: ٨٩٠.

٤. زيادة من الطبرى ٢: ٨٩٢.

حتّى قدما على تُبّع بما حازا من الأموال بالصين وصنوف الجوهر والطيب والسبى، ثم انصرفوا جميعاً إلى بلادهم. وذلك أنّه كانت همّة ملوك العرب الغزو والغنيمة ولم يطمعوا في الملك الثابت. وكان أحدهم إذا ملأ يده من الغنائم وأرضى جنده وظفروا بما فى نفوسهم، انكفأوا إلى بلادهم.

وكانت وفاة تُبع باليمن ولم يخرج أحد من ملوك اليمن بعده غازياً إلى شىء من البلاد. وكان ملكه مائة وإحدى وعشرين سنة.

وأمّا فى الرواية الأخرى: فإنّه أقام تُبّع وواطأ ابن أخيه شمراً وابنه حسّاناً أن يملكا الصين، ويحملا إليه الغنائم، ونصب بينه وبينهم المنار. فكان إذا حدث [176] حدث أوقدوا النار، فأتى الخبر في ليلة. وكان جعل آية ما بينه وبينهم [أنه][1]:

ـ «إن أنا أوقدت نارين من عندى فهو هلاك يعفر، وإن أوقدت ثلاثاً فهو هلاك تُبّع. وإن كانت من عندهم نارفهو هلاك حسّان، وإن كانت نارين فهو هلاكهما».

فمكثوا بذلك. ثم إنه أوقد نارين فكان هلاك يعفر، ثم أوقد ثلاثاً فكان هلاك تُبّع.

وقد ذكر بعض الرواة: أنّ الذى سار إلى المشرق من التبابعة، تُبّع الآخر وهو: تُبّع تبان أسعد أبو بكر بن مليكيكرب بن زيد بن عمرو ذى الأذعار وهو أبو حسّان.

وقام بالمُلك بعد قباذ ابنه كسرىٰ أنوشروان

فاستقبل الأمر بجدّ وسياسة وحزم. وكان جيّد الرأى، كثير النظر، صائب التدبير، طويل الفكر ثم الاستشارة. فجدّد سيرة أردشير، ونظر فى عهده[2]، وأخذ

---

١. تكملة يقتضيها السياق. وفي الطبرى: أن إذا أوقدت.

٢. أنظر العهد فى ص ١٢٢ ـ ١٤٤.

نفسه به، وأدّب به رعيته وبطانته، وبحث عن سياسات الأمم، واستصلح لنفسه منها ما رضيه، ونظر في تدابير[١] أسلافه المستحسنة [177] فاقتدى بها.

وكان أوّل ما بدأ به أن أبطل ملّة زرادشت الثاني الذي كان من أهل فسّا، وكان ممّن دعا إليها مزدك بن فامارد[٢]، وكان ممّا آمن به الناس ـ لما زيّنه لهم وحثّهم عليه ـ التآسي في أموالهم وأهاليهم. وذكر أنّ ذلك من البرّ الذي يرضاه الله ويثيب عليه أحسن الثواب، وأنّه لو لم يكن الذي أمرهم به من الدين، لكان مكرمة في الفعال ورضىً في التفاوض. فحضّ السفلة بذلك على الأشراف واختلط أجناس اللؤماء بعناصر الكرماء، وسهّل سبيل الظلمة إلى الظلم، والعهّار[٣] إلى قضاء نهمتهم وإلى الوصول إلى الكرائم. فشمل الناس بلاء عظيم.

فلما أبطل الملك أنوشروان ملّة هذين، وقتل عليه بشراً كثيراً، وسفك من الدماء ما لا يحصى كثرة ممن لا ينتهي، وقتل قوماً من المانوية وثبت ملة المجوسية القديمة؛ كتب[٤] في ذلك كتباً بليغة إلى أصحاب الولايات والاصبهبذين، وقوّى المُلك بعد ضعفه بإدامة النظر، وهجر الملاذّ وترك اللهو إلّا في أوقات. [178] حتى نظّم أموره وقوّىٰ جنوده بالأسلحة والكراع، وعمر البلاد، وحفظ الأموال، وفرّق منها ما لا يسع حفظه من الأرزاق والصلات

---

١. في الأصل ومط: تدبير. فأثبتناها «تدابير» لظهور كون «المستحسنة» صفة لِ«تدابير» لا لِ«الأسلاف».

٢. كذا في مط: مزدك بن فامارد. بالفهلوية: Mazdak. في الطبري: مزدق بن بامذاد (٢: ٨٩٣). في البيروني: مزدك بن همدادان من أهل نسا (الآثار: ٢٠٩). وقيل: هو من اصطخر فارس. ونسا Nesa من نواحي شيراز، تغير اسمها إلى بيضاء، لقلعة بيضاء كانت فيها على حد قول الاصطخري (فم). وعلى ما في الطبري: كان من مدريه Madhraya أي كوت العمارة حالياً. دعا إلى دين زردشت بونده (=بوندس) المسمى «دريست دين» والذي كان في إصلاح الدين المانوي. وزردشت بونده (الزرادشت الثاني ـ مسكويه) كان من أهل فسّا (معرّب Pasa وهي ناحية في فارس شرقي شيراز مركزها مدينة بنفس الاسم ـ فم). كان ظهور زردشت بونده قبل ظهور مزدك بقرنين (C.R.K، والطبري ٢: ٨٨٥، ٨٩٣).

٣. أي سبيل العهّار.

٤. في الأصل ومط: «وكتب» فحذفنا الواو.

الموضوعة مواضعها، وسدّ الثغور، وردّ كثيراً من الأطراف التى غلب عليها الأممُ بعلل وأسباب شتّى، منها: السّند، والرُّخج[١]، وزابلستان، وطخارستان[٢]، ودَرِوستان[٣] وغيرها. وقتل أمّة يقال لها: البافرز[٤] واستبقى منهم من فرّقهم واستعبدهم واستعان بهم فى حروبه. وأُسرت له أمّة يقال لهم: صول، وقُدم بهم عليه، فقتلهم واستبقى ثمانين رجلاً من كماتهم، وعمل أعمالاً عظيمة منها: بنيانه الحصون والآطام[٥] والمعاقل لأهل بلاده، يكون حرزاً لهم يلجأون إليها من عدوّ إن دهمهم.

من ثمرة أعماله

فكان من ثمرة هذه الأعمال: أنّ خاقان ـ واسمه سنحوا[٦] ـ كان فى ذلك الوقت أمنع الترك وأشجعهم. وهو الذى قاتل «وَزْز[٧]» ملك الهياطلة. غير هائب كثرة الهياطلة ومنعتهم، وبأسهم. [179] فقتل وَزْز[٨] وعامّة جنده، وغنم أموالهم واحتوى على بلادهم إلّا ما كان كسرى غلب عليه منها. وأقبل فى جموعه من أمم استمالهم، وهم: أبجَر، وبنْجَر، وبَلَنْجَر. وبلغت عدّة الجميع مائة ألف وعشرة آلاف مقاتل أنجاد.

فأرسل إلى كسرى يتوعّده ويطلب منه أموالاً، وأنّه إن لم يجعل بالبعثة إليه ما سأله، وطئ بلاده وناجزه[٩]. فلم يحفل كسرى به ولم يجبه إلى ما سأل، لتحصينه

---

١. مط: الزنج. والرخج ولاية فى أطراف قندهار وشرقىّ بُست (لج: ٣٧١).

٢. طخارستان: ولاية واسعة فى شرقى بلخ (لج: ٤٥٣).

٣. فى الطبرى وحواشيه: دردستان، دروستان، دورستان. مط: روستان.

٤. الطبرى: البامرز، البارز.

٥. الآطام: جمع مفرده الأطم، والأطم: الحصن.

٦. مط: مسحوا ا فى الطبرى: سنجبوا، سحنوا سحبوا (٢: ٨٩٥).

٧. مط: وزر. فى الطبرى: ورز، ورد.

٨. مط: وزرة.

٩. مط: فاخره.

نواحيه لا سيما ناحية صول التى أقبل منها خاقان، ولمناعة السبل والفجاج، ولمعرفته بمقدرته على ضبط ثغر أرمينية. فأقدم خاقان على ناحية صول من نواحي جرجان، فرأى من الحصون والرجال الذين أعدّهم كسري ما لا حيلة له فيه، فانصرف خائباً.

فأما تدبيره للمزدكية وردّه المظالم وما دبّر فى أمر النساء المغلوبات على أنفسهن وتدابيره الأخرى

فإنّه ضرب أعناق رؤسائهم،وقسم أموالهم فى أهل الحاجة، وقتل جماعة كثيرة ممن كان دخل على الناس فى أموالهم وأهاليهم ممن عرف، [180] وردّ الأموال إلى أربابها، وأمر بكل مولود اختلف فيه، أن يلحق بمن هو فى سيما ذلك منهم إذا لم يُعرف أبوه، وأن يُعطى نصيباً من مال الرجل الذى يسند إليه، إن قبله الرجل، وبكلّ امرأة غلبت على نفسها أن يؤخذ الغالب لها حتي يغرم لها مهرها ويرضى أهلها، ثم تُخيّر المرأة بين الاقامة عليه وبين تزويج غيره، إلّا أن يكون لها زوج أوّل فتردّ إليه. وأمر بكل من كان أضرّ برجل في ماله، أو ركب أحداً بمظلمة أن يؤخذ منه الحقّ ثم يعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه. أمر بعيال ذوى الأحساب الذين ماتت قيمهم فكتبوا له، فأنكح بناتهم الأكفاء، وجعل جهازهم من بيت المال، وأنكح بنيهم من بيوتات الأشراف، وأغناهم وأمرهم بملازمة بابه ليستعان بهم فى أعماله. وخير نساء والده أن يقمن مع نسائه فيُواسَين ويُصيّرن[1] فى الإجراء أمثالهن، أو تُبتغى لهن أكفاؤهن من البعولة. وأمر بكرى الأنهار وحفر القُنىّ [181] وإسلاف [أصحاب][2] العمارات وتقويتهم. وأمر بإعادة كلّ جسر أو

١. فى الطبرى: ويصرن فى الأجر أمثالهن (٢ : ٨٩٧).
٢. مزيد من الطبرى.

قنطرة خرّبت أن تردّ إلى أحسن ما كانت عليه. وأمر بتسهيل سبل الناس، وبنى في الطرق القصور والحصون، وتخيّر الحكام والعمّال وتقدّم[1] إلى من ولّى منهم أبلغ التقدّم، وتقدّم بكتب سير أردشير ووصاياه، فاقتدى بها وحمل الناس عليها[2].

فتوح أنوشروان

فلما انتظمت له هذه الأمور واستوسق مُلكه ووثق بجنده وقوّته، سار نحو أنطاكية فافتتحها وأمر أن تصوّر له المدينة على ذرعها وطرقها وعدّة منازلها، وأن يبنىٰ على صورتها له مدينة إلى جانب المدائن، فبنيت المدينة المعروفة بالروميّة. ثم حمل أهل أنطاكية حتى أسكنهم إيّاها. فلمّا دخلوا باب المدينة مضى أهل كلّ بيت منهم إلى ما يشبه منازلهم التي كانوا فيها بأنطاكية. ثم قصد لمدينة هرقل فافتتحها، ثم الاسكندرية، وأذعن له قيصر، وحمل إليه الفدية.

ثم انصرف من الروم وأخذ نحو الخزر، فأدرك فيهم تبله[3]، وما كانوا وتروه به [182] في رعيّته، ثم نحو عدن، فسكر[4] هناك ناحية من البحر بين[5] جبلين بالصخور وعُمد الحديد. ثم سار إلى الهياطلة مطالباً لهم بدم فيروز، بعد أن صاهر خاقان واستعان به. فأتاهم، فقتل ملكهم، واستأصل أهل بيته، وتجاوز بلخ وماوراءها، وأنزل جنوده فرغانة[6]. ثم انصرف إلى المدائن، وبعث قوماً إلى الحبشة في جند من الديلم. فقتلوا مسروقاً الحبشي باليمن. وأقام مظفّراً منصوراً

١. تقدم إليه: أمره.
٢. ومن وصاياه، عهده الذي تركه للملوك الآتين بعده. أنظر: ص ١٢٢ إلى ١٤٤.
٣. التبل: الحقد والعداوة.
٤. سكره: سدّه.
٥. في الطبري: بين جبلين مما يلي أرض الحبشة بالسفن العظام والصخور وعُمد الحديد والسلاسل (٢: ٨٩٨).
٦. فرغانة: ولاية على ساحل جيحون (لج: ٥١٩).

يهابه جميع أمرائهم، ويحضر بابه وفود الترك والصين والخزر ونظرائـهم. وكـان مكرماً للعلماء. وقد كان غزا بُرجان[١]. ثم رجع فبني الباب[٢] والأبواب.

وفي زمانه ولد عبدالله أبو النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ. والنبي أيضاً ـ عليه السلام ـ وملك ثماني[٣] وأربعين سنة. أمّا عبدالله بن عبدالمطلب فانّه ولد لأربع وعشرين سنة من مُلكه. وبعث إلى المنذر بن النعمان ـ وأمّه ماء السماء امرأة من اليمن[٤] ـ فملّكه الحيرة وما كان يليه آل الحارث بـن عـمرو، وردّ الأمـر إلى نصابه.

تدابير أنوشروان لاستغزار الأموال وتثميرها

ومن أحسن ما دبّره أنوشروان في استغزار الأموال وتثميرها [183] أنّه بـعد فراغه من الثغور وملوك الأطراف، وتوظيفه الوظائف على أقاصي المـلوك مـن الترك والخزر والهند وغيرهم، وبيعه مدن الشام ومصر والروم على مـلك الروم بأموال عظيمة، وإلزامه جزية يحملها في كلّ سنة على ألّا يغزو بلاده، نظر فـي الخراج وأبواب المال التي كان يستأديها الملوك قبله من بلاده. فإذا رسوم الناس كانت جارية على الثلث من الارتفاع خراجاً، ومن بعض الكور الربع، ومن بعضها الخمس، ومن بعضها السدس، على حسب شـربها[٥] وعـمارتها، ومـن جـزية الجماجم[٦] شيئاً معلوماً.

وكان الملك قباذ بن فيروز تقدّم ـ في آخر مُلكه ـ بـمسح الأرض سـهلها

---

١. في مط: «عمر بن خان» بدل «غزابرجان»! برجان، بالفهلوية: Varjan : بلد من نواحـي الجـزر (مـع)، والجزر: مصحّف الجرز، والجرز: معرّب كُرج. بالفارسية: كُرجستان (مت).

٢. الباب والأبواب، باب الأبواب، الدربند، دربند نوشروان: مدينة على بحر الخزر (مع).

٣. في الطبري: سبعاً (٢ : ٨٩٩).

٤. في الطبري: من النمر.

٥. الشرب: الماء. النصيب من الماء. وقت الشرب.

٦. الجماجم: جمع مفرده الجمجمة: البئر تحفر في السبخة، أو ضرب من المكاييل (مو).

وجبلها، ليصحّ الخراج عليها، فمسحت. غير أنّ قباذ هلك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة. فلمّا ملك أنوشروان أمر باستتمامها وإحصاء النخل والزيتون وغير ذلك، والجماجم. ثم أمر الكتّاب فأخرجوا جمل ذلك غير مفصّلة. وأذن للناس إذناً عامّاً، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ [184] عليهم الجمل المستخرجة من أصناف الغلّات وعدد النخل والزيتون والجماجم. فقرأ ذلك عليهم.

ثم قال لهم كسرى:

ـ «إنّا رأينا أن نضع على ما أحصى من جريان هذه المساحة ومن النخل والزيتون والجماجم وضائع، ونأمر بإنجامها[1] في السنة في ثلاثة أنجم. ونجمع في بيوت أموالنا من الأموال ما لو أتانا عن ثغر من الثغور، أو طرف من الأطراف، فتق أو شيء نكرهه واحتجنا إلى تداركه أو حسمه ببذلنا فيه مالاً؛ كانت الأموال عندنا معدّة موجودة، ولم نُرد استيناف اجتبائها على تلك الحال. فما ترون في ما رأينا من ذلك وأجمعنا عليه؟»

فلم يُشر عليه أحد منهم بمشورة ولم ينبس بكلمة. فكرر كسرى هذا القول عليهم ثلاث مرات.

فقام رجل من عرضهم وقال لكسرى:

ـ «أتضع أيّها الملك ـ عمّرك الله خالداً ـ من هذا الخراج على الفاني من كرم يموت، وزرع يهيج[2]، ونهر يغيض، وعين أو قناة ينقطع ماؤها؟»

فقال له كسرى: «ياذا الكفلة المشؤوم! من أيّ طبقات الناس أنت؟»

قال: «أنا رجل من الكتّاب.» [185]

فقال كسرى: «إضربوه بالدويّ[3] حتى يموت.»

فضربوه بها الكتّاب خاصّة تبرّياً منه إلى كسرى من رأيه وما جاء منه حتّى

---

١. الإنجام: تعيين مواقيت تأدية الدَّين. والنجم: الوقت المضروب، أو القسط من الدَّين (مو).

٢. يهيج: ييبس ويصفر.

٣. الدويّ جمع الدواة: المحبرة.

قتلوه.

وقال الناس:

ـ «نحن راضون أيّها الملك بما أنت ملزمنا من خراج.»

وإنّ كسرى اختار رجالاً من أهل الرأى والنصيحة. فأمرهم بالنظر فى أصناف ما ارتفع إليه من المساحة وعدد النخل والزيتون ورؤوس الجزية، ووضع الوضائع على ذلك بقدر ما يرون أنّ فيه صلاح الرعية ورفاغة[١] معايشهم، ورفع ذلك إليه.

فتكلّم كل امرئ منهم بمبلغ رأيه فى ذلك وفى قدر الوضائع، وأداروا الأمر بينهم، فاجتمعت كلمتهم على وضع الخراج على ما يعصم الناس والبهائم وهو:

الحنطة، والشعير، والأرز، والكرم، والرطاب[٢]، والنخل، والزيتون. وكان الذى وضعوا على كل جريب أرض من مزارع الحنطة والشعير درهماً، وعلى كل جريب كرم ثمانية دراهم، وعلى كلّ جريب أرض رطاب سبعة دراهم، وعلى كلّ [186] أربع نخلات فارسية درهماً، وعلى كلّ ستّ نخلاتّ دقل[٣] مثل ذلك، وعلى كلّ ستّة أصول زيتون مثل ذلك. ولم يضعوا إلّا على كلّ نخل فى حديقة، أو مجتمع غير شاذّ[٤]، وتركوا ما سوى ذلك من الغلّات السبع.

١. مط: رفاهة. فى الطبرى: رفاغة. نقطة الغين مطموسة فى الأصل. الرفاغة: لين العيش وسعتها وبهذا المعنى تلائم ما فى مط (رفاهة).

٢. الرطاب: جمع رطبة (رطب): ما نضج من البسر قبل أن يصير تمراً. كل ما يؤكل من النبات غضّاً طرياً.

٣. الدقل: أردأ التمر.

٤. الشاذّ: المنفرد الخارج عن الجماعة.

فقوى الناس فى معايشهم، وألزموا الناس الجزية ما خلا أهل البيوتات، والعظماء، والمقاتلة، والهرابذة، والكتّاب، ومن كان فى خدمة الملك. وصيّروها على طبقات:

إثني عشر درهماً، وثمانية، وستّة، وأربعة، على قدر إكثار الرجل وإقلاله. ولم يلزموا الجزية من كان أتئ له من السنين دون العشرين، أو فوق الخمسين.

عمر يقتدي بوضائع كسرى

ورفعوا هذه الوضائع إلى كسرى. فرضيها، وأمر بإمضائها، والإجتباء عليها فى ثلاثة أنجم كلّ سنة، وسمّاها «أبراسيار»[١] ـ وتأويله: الأمر المتراضئ به ـ وهي الوضائع التى اقتدى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بها حين افتتح بلاد الفرس، وأمر باجتباء الناس من أهل الذمّة عليها. إلاّ أنّه وضع على كلّ جريب[٢] غامر[٣] على قدر احتماله مثل الذى وضع على الأرض المزروعة، [187] وزاد على كلّ جريب أرض ـ مزارع حنطة أو شعير ـ قفيزاً من حنطة إلى القفيزين، ورزق منه الجند. ولم يخالف بالعراق خاصّة وضائع كسرى على جربان الأرض وعلى النخل والزيتون والجماجم، وألغى ما كان كسرى ألغاه فى معايش الناس.



١. أبراسيار: مهملة فى الأصل ومط. والإعجام من الطبرى. فى هامش الطبرى: ابن ابسار، ابرسيار (٢: ٩٦٢). أبراسيار تحريف للكلمة الفارسية «همداستانى» [أى: اتفاق النظر والتصميم]، ويؤيّد ذلك أن الكلمة وردت فى ترجمة البلعمى (ص ٢٥٠) بمعنى التراضى والإصلاح الضرائبى من قبل أنوشروان. أنظر الدكتور محمدى: «نظرة فى المرجع»، الدراسات الأدبية، السنة الخامسة، العدد الثانى، ص ١١٢، الحاشية ٢.

٢. الجريب: معرب «گرى» = عشرة آلاف ذراع (حب).

٣. أعجمنا العين كما فى الطبرى: غامر. والغامر خلاف العامر. الأرض الخراب.

ذكر قطعة من سيرة أنوشروان وسياساته
كتبتها على ما حكاه أنوشروان نفسه في كتاب[1] عمله في سيرته
وما ساس به مملكته

وقرأت فيما كتب أنو شروان من سيرة نفسه قال:

رجل اخترط السيف وأراد الوثوب علينا

«كنت يوماً جالساً بالدّسكرة[2] وأنا سائر إلى همذان لتصيف هناك وقد أُعدّ طعام للرسل الذين بالباب من قبل خاقان، والهياطلة، والصين، وقيصر، وبغبور، إذ دخل رجل من الأساورة مخترطاً سيفه حتى وصل إلى الستر[3]. فقطع الستر في ثلاثة أماكن، وأراد الدخول حيث نحن، والوثوب علينا. فأشار عليَّ بعض خدمي أن أخرج إليه بسيفي. فعلمت أنّه إن كان إنّما هو رجل واحد، فسوف يحال بيننا وبينه، وإن كانوا جماعة فانّ سيفي لا يغني شيئاً، فلم أخف ولم أتحرّك من مكاني. فأخذه بعض الحرس، فإذا هو رجل رازي من حشمنا وخاصتنا [188] فلم يشكّوا أنّ من هو على رأيه كثير، فسألوني ألّا أجلس ولا أحضر الشرب في جماعة حتى أستبين الأمر. فلم أجبهم إلى ذلك لئلّا يرى الرسل منّي جبناً،

---

١. هو نفس ما ذكره ابن النديم باسم: «كتاب التاج في سيرة أنوشروان» أو: «الكارنامج في سيرة أنوشروان» نقله ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية (الفهرست: ١١٨، ٣٠٥؛ مت: ٤٣).

٢. الدسكرة = دستگرد Dastgard = دستگرد خسرويه، دسكرة الملك: على طريق طيسفون ـ همدان (حب) على ١٠٧كم. من الشمالي الشرقي لطيسفون (C.I.S، مت: ٥٣).

٣. الستر: ماكان يسدل بين الملك والندامى (التاج: ٤٨).

فخرجت لشربى، فلمّا فرغنا هدّدت الرازى بقطع اليمين والعقوبات، وسألت أن يصدقني عن الذي حمله على ذلك، وأنّه إن صدقنى لم تنله عقوبة بعد ذلك. فذكر أنّ قوماً وضعوا من قِبل أنفسهم كتباً وكلاماً، وذكروا أنّه من عند الله، أشاروا عليه بذلك وأخبروه أن قتله ـ إن قتلنى ـ يدخله الجنّة. فلمّا فحصت عن ذلك وجدته حقّاً، فأمرت بتخلية الرازى وبردّ ما أُخذ منه من المال، وتقدّمت بضرب رقاب اولئك الذين انتحلوا الدين، وأشاروا به عليه حتّى لم أدع منهم أحداً.»

وقال أنو شروان:

استحلال قتلي

«إنّى لمّا أحضرت القوم الذين اختلفوا[1] فى الدين وجمعتهم للنظر فيما يقولونه، بلغ من جرأتهم وخبثهم وقوّة شياطينهم أن لم يبالوا بالقتل والموت فى إظهار [دينهم][2] الخبيث، حتّى إنّى سألت أفضلهم رجلاً، على رؤوس الناس، عن استحلاله [189] قتلى فقال:

ـ «نعم! أستحلّ قتلك وقتل من لا يطاوعنا على ديننا.»

«فلم آمر بقتله حتّى إذا حضر وقت الغذاء، أمرت أن يحتبس للغداء، وأرسلت إليه بظرف من الطعام، وأمرت الرسول أن يبلّغه عنّى: أنّ بقائى أنفع له ممّا ذكر. فأجاب رسولى:

ـ «أنّ ذلك حق، ولكن سألنى الملك أن أصدقه ذات نفسى ولا أكتمه

---

١. اختلفوا فى الدين: سقطت من مط.

٢. دينهم من مط، والأصل غير واضح.

شيئاً مما أدين به، وإنّما أدين بما أخذته من مؤدّبى[١].»

وقال أنوشروان:

تصدّقت على مساكين الروم

«لمّا غدر بى قيصر وغزوته فذلّ وطلب الصلح وأنفذ إليّ بمال وأقرّ بالخراج والفدية، تصدّقت[٢] على مساكين الروم وضعفاء مزارعيها مما بعث إليّ قيصر بعشرة آلاف دينار، وذلك في ما وطئته من أرض الروم دون غيرها.»

وقال:

تخفيف الخراج لعمارة الأراضى

«لما هممت بتصفّح أمر الرعية بنفسي، ورفع البلاء والظلم عنهم، وما ينوبهم من ثقل الخراج ـ فإنّ فيه مع الأجر تزيين المملكة، وغناهم، وقدرة الوالى على ما يجب أن يستخرج منهم، إن هو احتاج إلى ذلك، وقد كان في آبائنا من يرى أنّ وضع الخراج [190] عنهم للسنة والسنتين والتخفيف أحياناً، ممّا يقوّيهم على عمارة أرضيهم ـ فجمعت العمال ومن يؤدّى الخراج، فرأيت من تخليطهم ما لم أر له حيلة إلّا التعديل والمقاطعة على بلدة بلدة، وكورة كورة، ورستاق رستاق، وقرية قرية، ورجل رجل، واستعملت عليهم أهل الثقة والأمانة فى نفسي، وجعلت فى كلّ بلد مع كلّ عامل أمناء يحفظون عليه، وولّيت قاضي كلّ كورة النظر فى أهل كورته،

---

١. مؤدّبى: الياء ليست واضحة فى الأصل. مط: مودى. وهو من الايداء بمعنى المحسن والمنعم.

٢. فى الأصل: «صدقت» وما أثبتناه من مط.

وأمرت أهل الخراج أن يرفعوا ما يحتاجون إلى رفعه إلينا، إلى القاضي الذي ولّيته أمر كورهم، حتى لا يقدر العامل أن يزيد شيئاً، وأن يؤدّوا الخراج بمشهد من القاضي، وأن يُعطى به البراءة[١]، وأن يرفع خراج من هلك منهم، ولا يراد الخراج ممن لم يدرك[٢] من الأحداث، وأن يرفع القاضي وكاتب الكورة وأمين أهل البلد والعامل، محاسبتهم إلى ديواننا، وفرّقت الكتب بذلك.»

وقال:

ما رفع إلينا موبَذانْ موبَذ

«رفع إلينا موبذان موبذ: أنّ قوماً سمّاهم من ذوي الشرف ـ بعضهم بالباب كان شاهداً[٣] [191] وبعضهم ببلاد أُخر ـ دينهم مخالف لما ورثنا عن نبيّنا وعلمائنا، وأنّهم يتكلّمون بدينهم سرّاً ويدعون إليه الناس، وأنّ ذلك مفسدة للمُلك، حيث لا تقوم الرعيّة على هوىً واحد: فيحرّمون جميعهم ما يحرّم الملك ويستحلّون ما يستحلّ الملك في دينه. فإنّ ذلك إذا اجتمع للملك، قوى جنده لأجل الموافقة بينهم وبين الملك، فاستظهر على قتال الأعداء. فأحضرتُ أولئك المختلفين في الأهواء [ثمّ أمرت][٤] أن يخاصموا[٥] حتّي يقفوا على الحقّ ويقرّروا[٦] به، وأمرت أن يُقصَوا عن مدينتي وعن بلادي ومملكتي، وبتتبّع كلّ من هو على هواهم،

---

١. الهمزة في «البراءة» من مط. وفي الأصل: البراة.

٢. أدرك الصبي: أدرك الحُلم. ٣. مط: محاضراً.

٤. ما بين [ ] لم يكن لا في الأصل ولا في مط، فزدناه بوحي السياق.

٥. خاصمه: جادله، ونازعه. ٦. تقرير الانسان بالشيء: جعله في قراره.

فيفعل به ذلك.»

وقال:

ما سألته الترك ومسيرنا إلى باب صول

«إنّ الترك الذين فى ناحية الشمال، كتبوا إلينا بما قد أصابهم من الحاجة، وأنهم لا يجدون بُدّاً ـ إن لم نعطهم شيئاً ـ من أن يغزونا، وسألوا خصالاً، أحدها: أن نتّخذهم في جندنا ونجرى عليهم ما يعيشون به، وأن نعطيهم من أرض الكَنج[١] وبَلَنْجَر[٢] وتلك الناحية، ما يتعيّشون منه. فرأيت أن أسير فى ذلك الطريق إلى باب صول[٣]، [192] وأحببت أن تعرف الملوك من قبلنا هناك نشاطنا للأسفار وقوّتنا عليها متى هممنا، وأن يروا ما رأوا من هيبة[٤] الملوك، وكثرة الجنود، وتمام العدّة، وكمال السلاح ما يقوون به على أعدائهم ويعرفون به قوّة من خلفهم إن هم احتاجوا إليه، وأحببنا ـ بمسيرنا ـ أن يجرىٰ لهم على أيدينا الجوائز والحُملان[٥] والقُرب من المجلس واللطف فى الكلام، ليزيدهم ذلك مودّة لنا، ورغبة فينا، وحرصاً على قتال أعدائنا. وأحببت أيضاً التعهّد لحصونهم، وأن أسأل أهل الخراج عن أمرهم فى مسيرنا، فسرت فى طريق همذان وآذربيجان. فلمّا بلغت باب الصول ومدينة فيروز

١. الكَنج: معرّب «گنجه»: مدينة عظيمة هى قصبة بلاد أرّان، وأهل الأدب يسمّونها: جنزة (مع).

٢. بلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف الباب والأبواب (مع).

٣. صول: مدينة في بلاد الخزر في الباب والأبواب (مع).

٤. في الأصل: هيئة. وهو تصحيف.

٥. الحُملان: ما يُحمل عليه من الدوابّ في الهبة خاصة.

خُسرُه[۱]، رمّمت تلك المدائن العتيقة والحدود، وأمرت ببناء حصون أخر.

«فلمّا بلغ خاقان الخزر نزولنا هناك، تخوّف أن نغزوه. فكتب: أنّه لم يزل ـ منذ ملكتُ ـ يحبّ موادعتی، وأنّه يرى الدخول فی طاعتی سعادة، ورأى بعض قوّاده لما شاهد حاله تركه، فأتانا فی [193] ألفين من أصحابه، فقبلناه، وأنزلناه مع أساورتنا فی تلك الناحية. وأجريت عليه وعلى أصحابه الرزق، وأمرت لهم بحصن هناك، وأمرت بمصلّی لأهل ديننا، وجعلت فيه موبذاً وقوماً نسّاكاً، وأمرتهم أن يعلّموا من دخل فی طاعتنا من الترك، ما فی طاعة الولاة من المنفعة العاجلة فی الدنيا، والثواب الآجل فی الأخرى، وأن يحثّوهم على المودّة والصحّة والعدل والنصيحة ومجاهدة العدوّ، وأن يعلّموا أحداثهم رأينا ومذهبنا. وأقمت لهم فی تلك التخوم[۲] الأسواق وأصلحت طرقهم، وقوّمت السكك، ونظرنا فيما اجتمع لنا هناك من الخيل والرجال، فإذا بحيث لو كان فی وسط فارس، لكان منزلنا بها فاضلاً.»

قال:

تجديد النظر فی أمر المملكة

«ولمّا أتى لمُلكنا ثمان وعشرون سنة جدّدت[۳] النظر في أمر

۱. كذا في الأصل ومط. وفيروز خسرو: مدينة بالقرب من باب الأبواب باسم فيروز قباد. بنى هناك أنوشروان قصراً وسمّاه باب فيروز قباد (يا). وبعد أن بنى هناك كسرى قصراً وعمرها سمّيت باسمه: فيروز خسرو، ثمّ غلب عليه الاسم الأوّل: فيروز قباد (مت: ٦٤).

۲. مط: النجوم.

۳. في الأصل: حدّدت. ونقطة الجيم من مط.

المملكة والعدل على الرعية، والنظر في أمرهم وإحصاء مظالمهم وإنصافهم، وأمرت موبذ كلّ [ثغر][١] ومدينة وبلد وجند[٢] بإنهاء ذلك إليّ، وأمرت بعرض الجند من كان منهم بالباب، [194] بمشهد منّي، ومن غاب في الثغور والأطراف، بمشهد القائد وباذوسبان[٣] والقاضي وأمين من قبلنا، وأمرت بجمع أهل كور الخراج في كلّ ناحية من مملكتي إلى مصرها، مع القائد وقاضي البلد والكاتب والأمين، وسرّحت مَن قِبلي من عرفت صحّته وأمانته ونسكه وعلمه، ومن جرّبت ذلك منه إلى كلّ مصر ومدينة، حيث أولئك [الغلمان و][٤] العمال وأهل الأرض، ليجمعوا بينهم وبين أهل أرضيهم وبين وضيعهم وشريفهم، وأن يرفع الأمر كلّه على حقّه وصدقه: [فما][٥] نفذ فيه لهم أمر ـ لو صحّ فيه القضاء ورضي به أهله ـ فرغوا منه هنالك، وما أشكل عليهم رفعوه[٦] إليّ. وبلغ

---

١. الكلمة غير واضحة في الأصل فأثبتناها حسب مط.

٢. جُند: معرّب «گُند» سمي المسلمون كل صقع جنداً، بجند عيّنوا له يقبضون أعطياتهم فيه منه. فكانوا يقولون: هؤلاء جند كذا، حتى غلب عليهم وعلى الناحية (يا) والجند معرب Gond : إحدى وحدات الجيش الساساني. ورئيسها «گُند سالار»، ويليها «درفش» Drafsh، ثم «وشت» Vasht بالواو الفارسية (مت: ٦٦ C.I.S., P. 205).

٣. باذوسبان، پادوسبان، پادگسپان Padgospan : درجة من درجات أصحاب المناصب. وقد كان هذا اللقب يختلف ارتفاعاً وانخفاضاً حسب العصور المختلفة. ففي بعضها، كان البادوسبان معاوناً لحاكم القضاء، وكان تابعاً للإصفهبذ، وفي بعضها الآخر، كانت للباذوسبان صلاحية المرزبان. وكان كل ناحية من نواحي الشمال والجنوب والشرق والغرب تسمى في بعض العصور پادگُش (C.I.S,. P.46) Padgosh، ودام هذا الترتيب إلى أوائل حكم أنوشروان، إلّا أنّ أنوشروان استبدل الباذوسبانين الأربعة، بأربعة إصفهبذين (مت: ٦٧).

٤. ما بين [ ] تكملة من مط.

٥. ما في الأصل ومط: «فيما» وهو خطأ نظراً لسياق العبارة.

٦. ما في الأصل ومط: «ورفعوه» بالواو، فرأيناها زائدة مقحمة فحذفناها بوحي من السياق.

اهتمامى بتفقّد ذلك ما لولا الذى أدارى من الأعداء والثغور، لباشرت أمر الخراج والرعيّة بنفسى قرية قرية، حتى أتعهّدها وأكلّم رجلاً رجلاً من أهل مملكتى، غير أنّى تخوّفت أن يضيع بذلك السبب أمر هو أعظم منه، والأمر الذى لا يغني فيه غنائى [195] ولا يقدر على إحكامه غيرى، ولا يكفينيه كاف، مع الذى فى الشخوص إلى قرية قرية، ومن المؤونة على الرعيّة من جندنا، ومن لا نجد بُدّاً من إشخاصه معنا. وكرهنا أيضاً إشخاصهم إلينا، مع تخوّفنا أن يشغل أهل الخراج عن عمارة أرضيهم، أو يكون فيهم من يدخل عليه فى ذلك مؤونة في تكلف السير إلى بابنا، وقد ضيّع قُراه وأنهاره وما لا يجد بُدّاً من تعهّده فى السنة كلّها فى أوقات العمارة. ففعلنا ذلك بهم، ووكّلنا موبذان موبذ وكتبنا به الكتب وسرّحنا من وثقنا به ورجونا أن يجرى مجرانا، وشخّصنا وقلّدناه ذلك.»

قال:

جلوسنا مع أهل الكور للفحص عن الرعيّة وأمناء الخراج

«ولمّا آمن الله جميع أهل مملكتنا من الأعداء. فلم يبق منهم إلّا نحو من ألفي رجل من الديلم الذين عسر افتتاح حصنهم لصعوبة الجبال عليها؛ لم نجد شيئاً أنفع لمملكتنا من أن نفحص من الرعيّة وأولئك الأمناء الذين وصّيناهم بإنصاف أهل الخراج، وكان بلغنا أنّ أولئك الأمناء لم يبالغوا على قدر رأينا في ذلك، فأمرت بالكتب [196] إلى قاضى كورة كورة: أن يجمع أهل الكورة بغير علم عاملهم وأولى أمرهم، فيسألهم عن مظالمهم وما استخرج منهم، ويفحص عن ذلك بمجهود رأيه، ويبالغ فيه، ويكتب حال رجل

رجل منهم، ويختم عليه بخاتمه وخاتم الرضا من أهل تلك الكورة، ويبعث به إليّ، ويسرّح ممن يجتمع رأى أهل الكورة عليه بالرضا نفراً، وإن أحبّوا أن يكون في من يشخص، بعض سفلتهم أيضاً؛ فُعل ذلك.

«فلمّا حضروا جلست للناس وأذنت بمشهد من عظماء أرضنا وملوكهم، وقضاتهم وأحرارهم وأشرافهم، ونظرت في تلك الكتب والمظالم. فأيّة مظلمة كانت من العمّال ومن وكلائنا، أو من وكلاء وكلائنا، ونسائنا، وأهل بيتنا، حططنا عنهم بغير بيّنة، لعلمنا بضعف أهل الخراج عنهم وظلم أهل القوّة من السلطان لهم، وأية مظلمة كانت لبعضهم من بعض ووضحت لنا، أمرت بإنصافهم قبل البراح[1]، وما أشكل، أو وجب الفحص عنه، بشهود البلد [197] وقاضيها، سرّحت معه أميناً من الكتّاب، وأميناً من فقهاء ديننا، وأميناً ممن وثقنا به من خدمنا وحاشيتنا. فأحكمتُ ذلك إحكاماً وثيقاً، ولم يجعل الله لذوى قرابتنا وخدمنا وحاشيتنا منزلة عندنا دون الحقّ والعدل، فإنّ من شأن قرابة الملك وحاشيته أن يستطيلوا بعزّة وقوّة. فإذا أهمل السلطان أمرهم هلك من حاوروه[2] إلّا أن تكون فيهم متأدّب بأدب ملكه، محافظ على دينه، شفيق على رعيّته، وأولئك قليل. فدعانا الذى اطّلعنا عليه من ظلم أولئك، إلى أن لا نطلب البيّنة عليهم في ما ادُّعى قِبَلهم، ولم نُرد ظلم أحد ممن كان عزيزاً بنا، ومنيعاً بمكانه ومنزلته عندنا. فانّ الحق واسع للضعفاء والأقوياء، والفقراء والأغنياء، ولكنّا لمّا أشكلت الأمور في

---

١. برح المكان براحاً: زال عنه وغادره.

٢. في مط: حاوزوه. حاوروه: جادلوه.

ذلك علينا، كان الحمل على خواصّنا وخدمنا، أحبّ إلينا من أن نحمل على ضعفاء الناس ومساكينهم وأهل الفاقة والحاجة منهم. وعلمنا أنّ أولئك الضعفاء لا يقدرون على ظلم من حولنا [198] وعلمنا مع ذلك أنّ [الذين](١) أعدينا(٢) عليهم من خاصّتنا يرجعون من نعمتنا وكرامتنا إلى ما لا يرجع إليه أولئك الضعفاء. ولعمرى، إنّ أحبّ خواصّنا إلينا، وأبرّ خدمنا فى أنفسنا، الذين يحفظون سيرتنا فى الرعيّة، ويرحمون أهل الفاقة والمسكنة، وينصفونهم، فإنّه قد ظلمنا من ظلمهم، وجار علينا من جار عليهم، وأراد تعطيل ذمّتنا التى هى حرزهم وملجأهم.»

قال:

ما كتبه إلينا أربعة أصناف من ترك الخزر

«ثم كتب إلينا على رأس سبع وثلاثين سنة من مُلكنا أربعة أصناف من الترك من ناحية الخزر، ولكلّ صنف منهم ملك، يذكرون ما دخل عليهم من الحاجة، وما لهم من الحظّ فى عبودتنا، وسألوا أن نأذن لهم فى القدوم بأصحابهم لخدمتنا والعمل بما نأمرهم به، ولا نحقد عليهم ما سلف منهم قبل مُلكنا، وأن نُنزلهم منزلة سائر عبيدنا، فإنّا سنرىٰ فى كلّ ما نأمرهم به من قتال وغيره، كأفضل ما نرىٰ من أهل نصيحتنا.

«فرأيت فى قبولى إيّاهم عدّة منافع، منها: [199] جلدهم وبأسهم، ومنها: أنّي تخوّفت أن تحملهم الحاجة على إتيان قيصر أو

١. فى الأصل ومط: الذى.

٢. أعدينا عليهم: ظلمناهم.

بعض الملوك فيقووا بهم علينا. وقد كان في ما سلف يستأجر قيصر منهم لقتال ملوك ناحيتنا بأغلى الأجرة، فكان لهم في ذلك القتال بعض الشوكة بسبب أولئك الأتراك، ولأنّ الترك ليس عندهم لذّة الحياة، فهو الذي[١] يجرّيهم مع شقاء معيشتهم على الموت.

فكتبتُ إليهم: أنّا نقبل من دخل في طاعتنا ولا نبخل على أحد بما عندنا. وكتبت إلى مرزبان الباب آمره أن يُدخلهم أوّلاً فأولاً.

«فكتب إليّ أنّه: قد أتاه منهم خمسون ألفاً بنسائهم وأولادهم وعيالاتهم، وأتاه من رؤسائهم ثلاثة آلاف بأهل بيتهم ونسائهم وأولادهم وعيالاتهم.

«ولمّا بلغني ذلك أحببت أن أقرّبهم إليّ، ليعرفوا إحساني إليهم في ما أكرمهم به وأعطيهم، وليطمئنّوا إلى قوّادنا حتّى إذا أردنا تسريحهم مع بعض قوّادنا، كان كلّ واحد بصاحبه واثقاً. فشخصت إلى آذربيجان. فلما نزلت آذربيجان أذنت لهم في القدوم، وأتاني عند [200] ذلك طرائف من هدايا قيصر، وأتاني رسول خاقان الأكبر ورسول صاحب خوارزم، ورسول ملك الهند، والداور[٢]، وكابُلشاه، وصاحب سَرَنديب[٣]، وصاحب كَلَه[٤]، وكثير من الرسل، وتسعة وعشرون ملكاً في يوم واحد، وانتهيت إلى أولئك الأتراك الثلاثة والخمسين الألف، فأمرت أن يصفّفوا هناك، وركبت

---

١. فهو الذي: كذا في الأصل ومط.

٢. الداور: ولاية واسعة مجاورة لولاية رُخج وبست والغور، وهي ثغر الغور من ناحية سجستان. ومدينة الداور تل وغور، وهما على نهر الهندمند (مع).

٣. سرنديب: جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند. (مع).

٤. كله: فُرضة بالهند، وهي منتصف الطريق بين عمان والصين في وسط خطّ الاستواء (مع) من جزر الخليج الثاني من بحر الهند (لد).

لذلك، فكان يومئذ من أصحابى، ومن قدم عليَّ، ومن دخل فى طاعتى وعبودتى، من لم يسعهم مرج كان طوله نحو عشرة فراسخ. فحمدت الله كثيراً، وأمرت أن يصنّف أولئك الأتراك فى أهل بيوتاتهم على سبع مراتب ورأّست عليهم منهم، وأقطعتهم، وكسوت أصحابهم، وأجريت عليهم الأرزاق، وأمرت لهم بالمياه والأرضين، وأسكنت بعضهم مع قائد لى بِبُرجان، وبعضهم مع قائد لى باللّان[١]، وبعضهم بآذربيجان، وقسمتهم في كلّ ما احتجنا إليه من الثغور، وضممتهم إلى المرزبان. فلم أزل أرىٰ من مناصحتهم واجتهادهم فى ما نوجههم له، ما [201] يسرّنا فى جميع المدائن والثغور وغيرها.»

خاقان الأكبر يعتذر إليَّ ويسأل التجاوز

«وكتب إليَّ خاقان الأكبر يعتذر إليَّ من بعض غدراته، ويسأل المراجعة والتجاوز، وذكر فى كتابه ورسالته: إنّ الذى حمله على عداوتي وغزو أرضى من لم ينظر له، وناشدنى الله أن أتجاوز عنه، ويوثق لى بما أطمئن إليه، وذكر أنّ قيصر قد أرسل إليه، وزعم أنّه يستأذننى في قبول رسله، وأنّه لا يعمل فى قبول رسل أحد إلّا بما أمرته، ولا يجاوز أمرى، ولا يرغب في الأموال ولا فى المودّات لأحد إلّا برضاى. وكان دسيس لى فى الترك كاتبنى بندم خاقان وندم أصحابه على غدره وعداوته إيّاى.

«فأجبته : إنّى لعمرى لا أبالى أبطبيعة نفسك وغريزتك غدرت

---

١. اللّان (=آرّان، أران): بلاد واسعة منها كنجه، بينها وبين آذربيجان نهر الرس [=أرس](مع).

بنا، أم أطعت غيرك في غدرك بنا، وما ذنبك في طاعة من أطعت في ذلك إلّا كذنبك في ما فعلته برأى نفسك، وإنّك قد استحققت أشدّ العقوبة. ـ وكتبت[١] : ـ إنّي لا أظنّ شيئاً مما وجب بيني وبينكم إلّا وقد كنت صنعته، ولا أظنّ شيئاً من الوثيقة بقى لكم إلّا وقد وثّقت [202] لنا[٢] به قبل اليوم ثمّ غدرتم، فكيف نطمئنّ إليك ونثق بقولك، ولسنا نأمنك على مثل ما فعلت من الغدر ونقض العهد والكذب في اليمين؟ وذكرتَ أنّ رُسل قيصر عندك، ووقفنا على استيذانك إيّانا فيهم، وإنّي لست أنهاكَ عن مودّة أحد. وكرهتُ أن يرىٰ أنّي أتخوّف مصادقته وأهاب ذلك منه، وأحببتُ أن أعلمه أنّي لا أبالي بشيء ممّا يجري بينهما.

« ثمّ سرّحت لمرمّة المدائن والحصون التى بخراسان وجمع الأطعمة والأعلاف إليها ما يحتاج إليه الجند، وأمرتهم أن يكونوا على استعداد وحذر، ولا يكون من غفلتهم ماكان في المرّة الأولى وهم على حال الصلح.»

قال:

المقاتلة وأهل العمارة سواء

«وكان شكرى لله تعالى لمّا وهب لى وأعطاني متّصلاً بنعمه الأُوَل[٣] التى وهبها لى في أوّل خلقه إيّاى، فإنّما الشكر والنعم عدلان ككفّتى الميزان، أيّهما رجح بصاحبه احتاج[٤] الأخفّ إلى

---

١. الكلمة مطموسة في الأصل قرأناها بقرينة ما في مط.

٢. لنا به: في الأصل غموض وما في مط: لما به.

٣. مط: الأولى.

٤. احتاج.. صاحبه: سقطت من مط.

أن يزاد فيه حتّى يعادل صاحبه. فإذا كانت النعم كثيرة والشكر [203] قليلاً، انقطع الحمل وهلك ظهر الحامل، وإذا كان ذلك مستوياً استمرّ[١] الحامل. فكثير النعم يحتاج[٢] صاحبها إلى كثير الشكر، وكثير الشكر يجلب كثير النعم. ولمّا وجدت الشكر بعضه بالقول، وبعضه بالعمل؛ نظرت في أحبّ الأعمال إليه، فوجدته الشيء الذي به أقام السماوات والأرض، وأرسى به الجبال، وأجرى به الأنهار، وبرأ به البريّة، وذلك الحقّ والعدل فلزمته، ورأيت ثمرة الحقّ والعدل عمارة البلدان التي بها معاش الناس والدوابّ والطير وسكّان الأرض.

«ولمّا نظرت في ذلك، وجدتُ المقاتلة أُجراء لأهل العمارة، ووجدت أيضاً أهل العمارة أجراء للمقاتلة. وأمّا المقاتلة فإنّهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكّان البلدان لمدافعتهم عنهم، ومجاهدتهم من ورائهم. فحقّ على أهل العمارة أن يوفوهم أجورهم. فإنّ عمارتهم تتمّ بهم، وإن أبطأوا عليهم بذلك أوهنوهم، فقوي عدوّهم. فرأيت من الحقّ [204] على أهل الخراج ألّا يكون لهم من عمارتهم إلّا ما أقام معايشهم، وعمروا به بلدانهم. ورأيت أن لا أجتاحهم وأستفرغ ذات أيديهم للخزائن[٣] والمقاتلة، فإنّي إذا فعلت ذلك ظلمت المقاتلة مع ظلم أهل الخراج، وذلك أنّه إذا فسد العامر فسد المعمور، وذاك أهل الأرض والأرض، فإنّه إذا لم يكن لأهل الخراج ما يُعيشهم ويعمرون به بلادهم، هلكت المقاتلة الذين

---

١. الكلمة غير واضحة في الأصل وخاصة في الحرف الأخير منها بحيث يمكن أن نقرأها «استم» لولا قرينة ما في مط: «استمر».

٢. يحتاج... كثير الشكر: سقطت من مط.

٣. مط: للخزان.

قوّتهم بعمارة الأرض وأهل العمارة. فلا عمارة للأرض إلّا بفضل ما في يد أهل الخراج، فمن الإحسان إلى المقاتلة، والإكرام لهم أن أرفق بأهل الخراج وأعمر بلادهم وأدع لهم فضلاً في معايشهم. فأهل الأرض وذوو الخراج أيدى المقاتلة والجند، وقوّتهم، والمقاتلة أيضاً أيدى أهل الخراج وقوّتهم.

«ولقد فكّرت وميّزت ذلك جهدى وطاقتي، فما رأيت أن أفضّل هؤلاء على أولئك ولا أولئك على هؤلاء، إذ وجدتهما كاليدين المتعاونتين[1]، وكالرّجلين المترافدتين. ولعمرى ما أعفىٰ أهلَ [205] الخراج من الظلم من أضرّ بالمقاتلة، ولا كفّ الظلم عن المقاتلة من تعدّى على أهل الخراج، ولولا سفهاء الأساورة لأبقوا على الخراج والبلاد إبقاء الرجل ضيعته التى منها معيشته وحياته وقوّته. ولولا جهّال أهل الخراج لكفّوا عن أنفسهم بعض ما يحتاجون إليه من المعايش إيثاراً للمقاتلة على أنفسهم.»

قال:

أقبلنا بعد ذلك على السير والسنن

«ولمّا فرغنا[2] من إصلاح العامّة والخاصّة بهذين الركنين من أهل الخراج والمقاتلة، وكان ذلك ثمرة العدل والحقّ الذى به دبّر الله العظيم خلائقه، وشكرت الله على نعمه فى أداء حقّه على مواهبه، وأحكمنا أمور المقاتلة وأهل الخراج ببسط العدل؛ أقبلنا بعد ذلك على السير والسنن. ثم بدأنا بالأعظم فالأعظم نفعاً لنا والأكبر

---

۱. فى الأصل ومط: المتعاونين، المترادفين. فأثبتناهما.

۲. مط: ما عرفنا.

فالأكبر عائدة على جندنا ورعيّتنا. ونظرنا في سير آبائنا من لدن بُشتاسف، إلى مُلك قباذ أقرب آبائنا منّا، ثم لم نترك صلاحاً في شيء إلّا أخذناه، ولا فساداً إلّا أعرضنا عنه، [206] ولم يدعنا إلى قبول ما لا خير فيه من السنن حبّ الآباء، ولكنّا آثرنا حبّ الله وشكره وطاعته.

«ولمّا فرغنا من النظر في سير آبائنا ـ وبدأنا بهم وكانوا أحقّ بذلك، فلم ندع حقّاً إلّا أكثرناه، ووجدنا الحقّ أقرب القرابة ـ نظرنا في سير أهل الروم والهند، فاصطفينا محمودها، وجعلنا عيار ذلك عقولنا، وميّزناه بأحلامنا[١]. فأخذنا من جميع ذلك ما زيّن سلطاننا، وجعلناه سنّة وعادة، ولم تنازعنا أنفسنا إلى ما تميل إليه أهواؤنا، وأعلمناهم ذلك وأخبرناهم به، وكتبنا إليهم بما كرهنا لهم من السير ونهيناهم عنه، وتقدمنا إليهم فيه، غير أنّا لم نُكره أحداً على غير دينه وملّته ولم نحسدهم ما قبلنا، ولا مع ذلك أنفنا من تعلّم ما عندهم، فإنّ الإقرار بمعرفة الحق والعلم، والإتّباع له، من أعظم ما تزيّنت به الملوك، ومن أعظم المضرّة على الملوك الأنفة من التعلّم، والحميّة من طلب العلم، ولا يكون عالماً من لا يتعلّم. [207]

«ولمّا استقصيت ما عند هاتين الأمّتين من حكمة التدبير والسياسة، وصلت[٢] بين مكارم أسلافي، وما أحدثته برأيي، وأخذت به نفسي، وقبلته عن الملوك الذين لم يكونوا منّا وثبتُّ على الأمر الذي نلت به الظفر والخير. ورفضت سائر الأمم، لأنّي لم

---

١. جمع مفرده الحِلم: العقل.

٢. في الأصل ومط: «ووصلت» بواو العطف. فحذفنا الواو لوجود «لما» في بداية الجملة.

أجد عندهم رأياً ولا عقولاً، ولا أحلاماً، ووجدتهم أصحاب بغي وحسد وكلب وحرص وشحّ وسوء تدبير وجهالة ولؤم عهد وقلّة مكافأة. وهذه أمور لا تصلح عليها ولاية، ولا تتمّ بها نعمة.»[١]

□ □ □

وقرأت مع هذه السيرة فى آخر هذا الكتاب، الذى كتبه أنوشروان في سيرة نفسه، أنّ أنوشروان لمّا فرغ من أمور المملكة وهذّبها، جمع إليه الأساورة مع القوّاد والعظماء والمرازبة والنسّاك والموابذة وأماثل الناس معهم، فخطبهم فقال:

خطبة أنوشروان

«أيّها الناس! أحضروني فهمكم، وأرعوني[٢] أسماعكم، وناصحوني أنفسكم، [208] فانّي لم أزل واضعاً سيفي على عنقي ـ منذ وليت عليكم ـ غرضاً للسيوف والأسنّة، كل ذلك للمدافعة عنكم والإبقاء عليكم، وإصلاح بلادكم مرة بأقصى المشرق، وتارة فى آخر المغرب، وأخرى فى ناحية الجنوب، ومثلها في جانب الشمال. ونقلت الذين اتهمتهم إلى غير بلادهم، ووضعت الوضائع فى بلدان الترك، وأقمت بيوت النيران بقسطنطينية، ولم أزل أصعد جبلاً شامخاً وأنزل عنه، وأطأ حزونه[٣] بعد سهوله، وأصبر على

١. قال ابن الأثير، بعد ذكر كلمات من أنوشروان فى الحكمة واصلاح أمر الخراج: فانظر إلى هذا الكلام الذى يدلّ على زيادة العلم وتوفر العقل والقدرة على منع النفس، ومن كان هذا حاله استحق أن يضرب به المثل فى العدل إلى أن تقوم الساعة (١: ٤٧٥).

٢. أرعوني: أرعى فلاناً سمعه: أصغى إليه واستمع لكلامه.

٣. الحزون: جمع الحزن: ما غلظ من الأرض.

المخمصة والمخافة، وأكابد البرد والحرّ، وأركب هول البحر وخطر المفازة، إرادة هذا الأمر الذى قد أتمّه الله لكم من الإثخان فى الأعداء، والتمكين فى البلاد، والسعة فى المعاش ودرك العزّ، وبلاغ ما نلتم. فقد أصبحتم بحمد الله ونعمته على الشرف الأعلى من النعمة والفضل الأكبر من الكرامة والأمن، وقد هزم الله أعداءكم وقتلهم. فهم بين مقتول هالك، وحيّ مطيع لكم سامع.

«وقد بقى لكم عدوّ عددهم[١] قليل، وبأسهم شديد، وشوكتهم [209] عظيمة، وهؤلاء الذين بقوا، أخوف عندى عليكم، وأحرىٰ أن يهزموكم ويغلبوكم، من الذين غلبتموهم من أعدائكم أصحاب السيوف والرماح والخيول. فإن أنتم ـ أيّها الناس ـ غلبتم عدوّكم هذا[٢] الثانى غلبَتَكم لعدوّكم الذين قاتلتم وحاصرتم، فقد تمّ الظَفر والنصر، وتمّت فيكم القوّة وتمّ لكم العزّ، وتمّت عليكم النعمة، وتمّ لكم الفضل، وتمّ لكم الاجتماع والألفة والنصيحة والسلامة. وإن كنتم قصّرتم ووهنتم، وظفر هذا العدو بكم، فإنّ الظفر الذى كان منكم على عدوّكم بالمغرب والمشرق وفى الجنوب والشمال، لم يكن ظفراً منكم. فاطلبوا أن تقتلوا من هذا العدوّ الباقى مثل الذى قتلتم من ذلك العدوّ الماضى، وليكن جدّكم فى هذا واجتهادكم واحتشادكم أكبر وأجلّ وأحزم وأعزم وأصحّ وأسدّ. فإنّ أحقّ الأعداء بالاستعداد له أعظمهم مكيدة وأشدّهم شوكة، وليس الذى كنتم تخافون من عدوّكم الذى قاتلتم، بقريب [210] من هؤلاء الذين آمركم بقتالهم الآن. فاطلبوه، وصلوا ظفراً بظفر، ونصراً بنصر،

١. عدو عددهم: بضمير الجمع.

٢. مط: «هذا الآتي عليكم لعدوكم الذين قاتلتم» بدل «هذا الثانى غلبتكم لعدوكم الذين قاتلتم.»

وقوّة بقوّة، وتأييداً بتأييد، وحزماً وعزماً بحزم وعزم، وجهاداً بجهاد. فإنّ ذلك اجتماع صلاحكم، وتمام النعمة عليكم، والزيادة فى الكرامة من الله لكم، والفوز برضوانه فى الآخرة.

«ثم اعلموا أنّ عدوّكم من الترك والروم والهند وسائر الأمم، لم يكونوا ليبلغوا منكم ـ إن ظهروا عليكم وغلبوكم ـ مثل الذى يبلغ هذا العدوّ منكم، إن غلبكم وظهر عليكم، فإنّ بأس هذا العدوّ أشدّ، وكيده أكبر، وأمره أخوف من ذلك العدوّ.

«يا أيّها الناس، إنّى قد نصبت[١] لكم كما رأيتم، ولقيت ما قد علمتم بالسيف والرمح والمفاوز والبحار والسهولة[٢] والجبال أقارع عدوّاً عدوّاً، وأكالب جنداً جنداً، وأكابد ملكاً ملكاً، لم أتضرع إليكم هذا التضرع فى قتال أولئك الجنود والملوك، ولم أسألكم هذه المسألة فى طلب الجدّ والاجتهاد والاحتفال [211] والإحتشاد[٣]، وإنّما فعلت هذا اليوم لعظم خطره، وشدّة شوكته ومخافة صولته بكم، وإن أنا ـ أيّها الناس ـ لم أغلب هذا العدوّ وأنفِهِ[٤] عنكم، فقد أبقيت فيكم أكبر الأعداء، ونفيتُ عنكم أضعفها. فأعينونى على نفى هذا العدوّ المخوف عليكم، القريب الدار[٥] منكم. فأنشدكم الله ـ أيّها الناس ـ لمّا أعنتمونى عليه حتى أنفيه عنكم وأخرجه من بين أظهركم، فيتمّ بلائى عندكم، وبلاء الله فيكم عندى، وتتمّ النعمة علىّ وعليكم، والكرامة من الله لى ولكم، ويتمّ هذا العزّ[٦] والنصر وهذا

---

١. نصب نصباً: أعيى وتعب.
٢. السهولة: جمع السهل.
٣. الكلمة غير واضحة فى الأصل وما أثبتناه من مط.
٤. الكلمة غير واضحة فى الأصل وما أثبتناه من مط.
٥. مط: القريب الدانى.
٦. كذا فى مط: العز، وفى الأصل غموض.

الشرف والتمكين، وهذا الثروة والمنزلة.

«يا أيّها الناس! إنّي تفكّرت بعد فراغي من كتابي[١] هـذا ومـا وصفت من نعمة الله علينا في الأمر الذي، لما غلب «دارا» الملوك والأمم، وقهرها واستولىٰ على بلادها، ثم لما لم يسحكم أمـر هـذا العدو، هلك [بسببه][٢] وهلكت جنوده، بعد السلامة والظفر والنصر والغلبة. وذلك أنّه لم يرض بالأمر الذي تمّ له به المُلك، واشتدّ به له السلطان وقوى به على [212] الأعداء، وتـمّت عـليه بـه النـعمة، وفاضت عليه من وجوه الدنيا كلّها الكرامة، حتى احتيل له بوجوه النميمة: البغي، فدعا البغي، والحسد، فـتقوّىٰ بـه وتـمكّن، ودعـا الحسد بعض أهل الفقر لأهل الغنىٰ، وأهل الخمول لأهل الشرف. ثم أتاهم الاسكندر على ذلك من تفرق الأهـواء، واخـتلاف الأمـور، وظهور البغضاء، وقوة العداوة فيما بينهم، والفساد منهم. ثم ارتـفع ذلك إلى أن قتله صاحب حرسه وأمينه على دمه، للذي شمل قلوب العامّة من الشرّ والضغينة، وثبت فيها من العداوة والفـرقة، فكـفى الاسكندر مؤنة نفسه. وقد اتّعظت بذلك اليوم فذكرته.

«يا أيّها الناس! فلا أسمعنّ في هذه النعمة تـفرّقاً ولا بـغياً ولا حسداً ظاهراً ولا وشاية ولا سـعاية، فـانّ الله قـد طـهّر مـن ذلك أخلاقنا ومُلكنا وأكرم عنه ولايتنا. وما نلت ما نلته ـ بـنعمة ربـنا وحمده ـ بشيء من هذه الأمور الخبيثة التي نفتها العلماء، وعافتها الحكماء، ولكنّي نلت هذه الرتب [213] بالصحّة والسلامة، والحبّ للرعيّة، والوفاء والعدل والإستقامة والتؤدة. وإنّما تركنا أن نأخذ عن

١. أصبحت الخطبة كتاباً بعد تدوينه.

٢. تكملة اقتضاها السياق، فأضفناها.

هذه الأمم التي سميناها أعني: من الترك والبربر والزنج والجبال وغيرهم مثل ما أخذنا عن الهند والروم، لظهور هذه الأخلاق فيهم وغلبتها عليهم. ولم تصلح أمّة قطّ ولا ملكها على ظهور هذه الأخلاق فيها. وإنّ أول ما أنا ناف وتارك من هذه الأمور، هذه الأخلاق التي هي أعدى أعداءكم.

«أيّها الناس! إنّ فيما بسط الله علينا بالسلامة والعافية والإستصلاح، غنىً لنا عمّا نطلب بهذه الأخلاق المردية المشؤومة. فاكفوني في ذلك أنفسكم فإنّ قهر هذه الأعداء أحبّ إليّ وخير لكم من قهر أعدائكم من الترك والروم. فامّا أنا ـ يا أيّها الناس ـ فقد طبت نفساً بترك هذه الأمور ومحقها وقمعها ونفيها عنكم، لا حاجة لي بما فيها، ولا بالذي عليّ منها، فطيبوا أنفساً بالذي طبت [214] به نفساً منكم.

«يا أيها الناس! إنّي قد أحببت أن أنفي عنكم عدوّكم الباطن والظاهر. فأمّا الظاهر منهما، فإنّا بحمد الله ونعمته، قد نفيناه وأعاننا الله عليه وخضد[1] لنا شوكته، وأحسنتم فيه وأجملتم وآسيتم وأجهدتم. فافعلوا في هذا العدوّ كما فعلتم في ذلك العدوّ، واعملوا فيه كالذي عملتم في ذلك، واحفظوا عني ما أوصيكم به، فانّي شفيق عليكم ناصح لكم.

«أيّها الناس! من أحيى هذه الأمور فينا، فقد أفسد بلاءه عندنا بقتاله من كان يقاتلنا من أعدائنا. فإنّ هذه أكثر مضرّة وأشدّ شوكة وأعظم بليّة وأضر تبعة. اعلموا أنّ خيركم ـ يا أيّها الناس! ـ من

---

١. خضد الشيء: كسره من غير فصل، خضد الشجر: نزع الشوك عنه.

جمع إلى بلاءه السالف عندنا، المعونة لنا على نفسه فى هذا الغابر. واعلموا أنّ من غلبه هذا غلب عليه ذاك، ومن غلب هذا فقد قهر ذاك. وذلك أن بالسلامة، والألفة، والمودّة، والاجتماع، والتناصح منكم يكون العزّ والقدرة [215] والسلطان، ومع التحاسد، والبغى، والنميمة، والتشتّت، يكون ذهاب العزّ وانقطاع القوّة، وهلاك الدنيا والآخرة. فعليكم بما أمرناكم به، واحذروا ما نهيناكم عنه، ولا قوّة إلّا بالله. عليكم بمواساة أهل الفاقة وضيافة السائلة. وأكرموا جوار من جاوركم، وأحسنوا صحبة من دخل من الأمم فيكم، فإنّهم فى ذمّتى. لا تجبهوهم[1] ولا تظلموهم، ولا تسلّطوا عليهم، ولا تحرجوهم، فإنّ الإحراج يدعو إلى المعصية، ولكن اصبروا لهم على بعض الأذى. واحفظوا أمانتكم وعهدكم، واحفظوا ما عهدت إليكم من هذه الأخلاق. فإنّا لم نر سلطاناً قطّ ولا أمّة هلكوا إلّا بترك هذه الأخلاق، ولا صلحوا إلّا معها. وبالله ثقتنا فى الأمور كلّها.»

□ □ □

ثم هلك أنوشروان بعد ثمان[2] وأربعين سنة من ملكه، وملك ابنه:

هرمز بن أنوشروان

[216] وكانت أمّه بنت خاقان الأكبر، وكان كثير الأدب، حسن النيّة فى الإحسان إلى الضعفاء والمساكين، إلّا أنّه كان يحمل على الأشراف، فعادوه وأبغضوه، فعلم بذلك منهم، فكان فى نفسه منهم مثل ما فى أنفسهم منه.

---

١. لا تجبهوهم: لا تقابلوهم بما يكرهون.

٢. فى الأصل ومط: ثمانية.

من سيرته المرتضاة

وكان من سيرته المرتضاة: أنّه تحرّى الخير والعدل على الرعيّة، وتشدّد على العظماء المستطيلين على الضعفاء، وبلغ من عدله أنّه كان يسير إلى الـ«ماه» ليصيف هناك، فأمر فنودي في مسيره ذلك في مواضع الحروث أن يتحامىٰ، ولا يسير فيها الراكب لئلّا يضرّوا بأحد ووكّل بتعهّد ما يجري في عسكره، ومعاقبة من تعدّى أمره، وتغريمه عوضاً لصاحب الحرث.

وكان ابنه كسرى في عسكره، فعار[١] مركب من مراكبه، ووقع في محرثة من المحارث التي كانت على طريقه، فرتع فيها، وأفسد منها. فأُخذ ذلك المركب، ورُفع إلى الرجل الذي وكّله هرمز بمعاقبة من أفسد [217] هو أو دابّته شيئاً من المحارث وتغريمه، ولم يقدر الرجل على انفاذ أمر هرمز في كسرى ابنه، ولا أحد من حشمه. فرفع ما رأى من إفساد ذلك المركب إلى هرمز، فأمره أن يجدع[٢] أذنيه، ويبتّر ذنبه، ويغرّم كسرىٰ. فخرج الرجل لإنفاذ الأمر. فدسّ له كسرى رهطاً من العظماء ليسألوه التغبيب[٣] في أمره، فلقوه وكلّموه في ذلك، فلم يجب إليه، فسألوه أن يؤخّر ما أمر به هرمز في المركب حتى يكلّموه. فأمر بالكفّ عنه، ففعل. فلقي أولئك الرهط هرمز، وأعلموه أنّ بذلك[٤] [المركب][٥] الذي عار، زعارة، وأنه أخذ للوقت. وسألوه أن يأمر بالكفّ عن جدعه وتبتيره لما فيه من سوء الطيرة. فلم يجبهم إلى ما سألوه، وأمر بالمركب، فجدع أذناه وبتّر ذنبه وغرّم كسرى كما يغرّم غيره في هذا الحد، ثم ارتحل.

---

١. عار يعير عيراً: ذهب وجاء متردداً.
٢. جدعه: قطع أنفه أو طرفاً من أطرافه.
٣. غبّب فلان في الأمر: لم يبالغ فيه.
٤. مط: أنّ بتلك الدابة التي غارت غازة وأنه أخذ للوقت!
٥. في الأصل: «الدابة» فاستبدلناها بـ«المركب» مراعاة لتذكير ما يرتبط به من موصول وضمير.

وأيضاً: ركب ذات يوم فى أوان إيناع الكرم إلى ساباط[١] المدائن [218] وكان ممرّه على بساتين وكروم. فاطّلع[٢] بعض أساورته فى كرم، فرأى فيه حصرماً فأصاب منها عناقيد، ودفعها إلى غلامه وقال:

ـ «اذهب بها إلى المنزل، واطبخها بلحم، واتخذ منها مرقة. فأنّها نافعة فى هذا الإبان.»

فأتاه حافظ ذلك الكرم، فلزمه وصرخ. فبلغ اشفاق الرجل من عقوبة هرمز على تناوله من ذلك الكرم، أن دفع إلى حافظ الكرم منطقة[٣] محلّاة بذهب كانت عليه، عوضاً له من الحصرم الذى رزأه[٤] من كرمه، وافتدى بها نفسه. ورأى أنّ قبض الحافظ إيّاها منه، وتخليته عنه، منّة منّ بها عليه[٥].

فهذه كانت سيرة هرمز فى العدل والضبط والهيبة. وكان مظفّراً منصوراً لا يمدّ يده إلى شىء إلّا وأتاه. وكان مع ذلك أديباً، داهياً، إلّا عرقاً قد نزعه[٦] أخواله من الترك. فكان لذلك مقصياً للأشراف وأهل البيوتات والعلماء.

وقيل: إنّه قتل ثلاثة عشر ألف رجل وستمائة رجل. ولم يكن [له رأى][٧] إلّا فى [تألّف][٨] السفلة واستصلاحهم. وحبس خلقاً من العظماء، وحطّ [219] مراتب خلق، وقصّر[٩] بالأساورة. [ففسدت][١٠] عليه نيات جنده من الكبراء، [واتصل][١١] ذلك بما جناه على بهرام شوبين مما سنحكيه. فكان ذلك سبب

١. ساباط: قرية كانت قريبة من المدائن وهى ـ حسب معجم البلدان ـ ساباط كسرى، بناها الملك بلاش (= ولاش)، ولذلك قد يسمى: بلاش آباذ.

٢. إطّلع: مالَ. وفى مط والطبرى: اطّلع.

٣. المنطقة والمنطق: ما يشدّ به الوسط.

٤. رزأه ماله: أصاب منه شيئاً فنقصه.

٥. أنظر الطبرى ٢: ٩٩٠.

٦. نزعه عرق: أشبه أصله.

٧. الأصل غير واضح وما أثبتناه من مط.

٨. الأصل غير واضح، وقرأناه بصعوبة. مط: ألف السفلة! تألّفه: تكلّف ألفته وداراه.

٩. قصّر عن الأمر: تركه. قصّر فى الأمر: تهاون فيه. قصّر فى العطيّة: قلّلها.

١٠. الأصل غير واضح، وما أثبتناه من مط.

١١. الأصل غير واضح وما أثبتناه من مط.

هلاكه.

ذكر سوء اختياره
جنده وبهرام جوبين[١] حتى هلك

خرج على هرمز خوارج منها: «شابة[٢] ملك الترك الأعظم فى ثلاثمائة ألف مقاتل. وصار إلى باذغيس[٣]. وذلك بعد إحدى عشر سنة من مُلكه، وخرج عليه ملك الروم فى ثمانين ألف مقاتل قاصداً له، وخرج عليه ملك الخزر حتى صار إلى باب الأبواب، وخرج عليه من العرب خلق نزلوا في شاطئ الفرات، وشنّوا الغارة على أهل السواد واجترأ عليه أعداؤه، وغزوا[٤] بلاده.

فأمّا شابة ملك الترك فإنّه أرسل إلى هرمز وإلى عظماء الفرس يؤذنهم بإقباله ويقول:

ـ «رمّوا لى قناطر أنهار وأودية أجتاز عليها إلى بلادكم، واعقدوا القناطر على كلّ نهر لا قنطرة له، وافعلوا ذلك فى الأنهار والأودية التى عليها مسلكى من بلادكم إلى بلاد الروم، فإنّى مجمع على [220] المسير إليها من بلادكم.

فاستفظع هرمز ما ورد عليه من ذلك، فشاور فيه، فأجمع له على قصد ملك الترك وصرف العناية إليه. فوجّه إليه رجلاً من أهل الريّ يقال له: بهرام بن بهرام جُشنَس[٥] ويعرف بـ«جوبين». فاختار بهرام من الجند اثنى عشر ألف رجل على عينيه من الكهول دون الشباب، وكانت عدّة من يشتمل عليه الديوان سبعين ألف

١. بالفارسية: چوبين. وقد تكرر هذا الاسم فى النص، فتارة ورد «جوبين» وأخرى «شوبين» فوحدناهما فى الاثبات على الصورة الأولى: جوبين.

٢. مط: شانه.

٣. باذغيس، بادغيس. بالفهولية: Vatgis : ولاية بين هراة ومروالرود (لج).

٤. أنظر الطبرى (٢: ٩٩١).

٥. جُشنس: معرّب گُشنَس، وهو مخفف گُشنَسب، بالفهلوية : Vushnasp, Gushnasp (حب).

مقاتل.

فمضى بهرام بجدّ وإغذاذ، حتى حاز هراة وباذغيس، ولم يشعر شابة ببهرام حتى نزل بالقرب منه معسكراً. فجرت بينهما حروب ورسائل، إلى أن قتل بهرام شابة برمية رماها إيّاه، فاستباح عسكره، وأقام موضعه، فوافاه برموذة[1] بن شابة، وكان يعدل بأبيه، فحاربه، فهزمه، وحصره في بعض الحصون، ثم ألحّ عليه حتى استسلم له، فوجّهه أسيراً إلى هرمز، وغنم كنوزاً عظيمة.

فيقال: إنّه حمل إلى هرمز من الأموال والجواهر والأواني وسائر الأمتعة ممّا غنمه وقر مائتين وخمسين ألف بعير في مدّة تلك الأيّام. فشكره هرمز على [221] ذلك، إلّا أنّه أراد منه أن يتقدّم بمن معه إلى بلاد الترك، وكاتبه في ذلك، فلم ير بهرام ذلك صواباً. ثم خاف بهرام سطوة هرمز، وحكي له: أنّ الملك يستقلّ ما حمله إليه من الغنائم في جنب ما وصل إليه وأنّه يقول في مجالسه:

ـ «بهرام قد ترفّه، واستطاب الدعة».

وبلغ ذلك الجند، فخافوا مثل خوفه.

فيقال: إنّ بهرام جمع ذات يوم وجوه عسكره، فأجلسهم على مراتبهم، ثم خرج عليهم في زيّ النساء، وبيده مغزل وقطن، حتى جلس في موضعه، وحُمل لكلّ واحد من أولئك القوم مغزل وقطن، فوُضع بين أيديهم، فامتعضوا من ذلك وأنكروه. فقال بهرام:

«إنّ كتاب الملك ورد عليّ بذلك، ولابدّ من امتثال أمره إن كنتم طائعين.»

فأظهروا أنفة وحميّة، وخلعوا هرمز، وأظهروا أنّ ابنه أبرويز[2] أصلح للملك منه، وساعدهم على ذلك خلق كثير ممّن كان بحضرة هرمز.

وأنفذ هرمز جيشاً كثيفاً مع آذينجُشنَس لمحاربة بهرام، وأشفق أبرويز من

---

١. مط: رموز بن شانه.

٢. بالفهلوية: Aparvej : المنتصر (حب).

الحديث وخاف سطوة [222] بهرام، فهرب إلى آذربيجان. فاجتمع إليه هناك عدّة من المرازبة والإصفهبذين، فأعطوه بيعتهم. ولم يظهر أبرويز شيئاً، وأقام بمكانه إلى أن بلغه قتل آذينْجُشْنَس الموجّه لمحاربة بهرام جوبين، وانفضاض الجمع الذى معه، واضطراب أمر أبيه هرمز.

وكتبت إليه أخت آذينجشنس ـ وكانت تربه ـ تخبره بضعف أبيه هرمز، وأعلمته أنّ العظماء والوجوه قد أجمعوا على خلعه، وأعلمته أنّ جوبين ـ إن سبقه إلى المدائن ـ احتوى على المُلك. ولم تلبث العظماء بذلك أن وثبت على هرمز وفيهم بندويه[١] وبسطام خالا أبرويز. فخلعوه وسملوا عينيه وتركوه تحرّجاً من قتله. فلمّا بلغ ذلك أبرويز، بادر بمن معه إلى المدائن وسبق إليها بهرام جوبين، وتتوّج وجمع إليه الوجوه والأشراف، وجلس لهم على سريره، ومنّاهم ووعدهم وقال:

ـ «إنّ هرمز كان لهم قاضياً عادلاً، ومن نيّتنا البرّ والاحسان، فعليكم بالسمع والطاعة.»

فاستبشر له الناس، ودعوا له.

فلمّا كان اليوم [223] الثاني، أتى أباه، فسجد له وقال:

ـ «عمّرك الله أيّها الملك. إنّك تعلم أنّى برىء مما آتاه إليك المنافقون، وإنّما هربت خوفاً منك.»

فصدّقه هرمز وقال له:

ـ «يا بُنيّ! لى إليك حاجتان، فأسعفنى بهما: إحداهما أن تنتقم ممّن عاون على خلعى والسمل لعينى، ولا تأخذك بهم رأفة، والأخرى أن تؤنسنى كلّ يوم بثلاثة نفر لهم أصالة رأى، وتأذن لهم في [الوصول][٢] إليّ.»

---

١. في الطبرى: بندى.

٢. الأصل غير واضح. مط والطبرى: في الدخول عليّ (٢: ٩٩٦).

فتواضع له أبرويز وقال:

ـ «عمّرك الله أيّها الملك، إنّ المارق بهرام قد أظلّنا[١] ومعه الشجاعة والنجدة، ولسنا نقدر أن نمدّ يداً إلى من أتي إليك ما أتى، فإنّهم وجوه أصحابك. ولكن إن أدالنى الله من المنافق، فأنا خليفتك وطوع أمرك.»

ذكر الحيلة التي تمّت لأبرويز حتّى أفلت من بهرام بعد ظفره به ورجوعه بعد ذلك وقتله إيّاه ببلاد الترك واستيلائه على المُلك

إنّ أبرويز خرج إلى النهروان لما وردها بهرام، وواقفه[٢] وجعل النهر بينه وبينه، ودار بينهما كلام كثير[٣]، كلّ ذلك يدور على استصلاح بهرام، فلا يردّ [224] عليه بهرام إلّا ما يسوءه، حتّى يئس منه وأجمع على حربه. ولهما أخبار كثيرة وأحاديث طويلة آخرها: أن أبرويز ضعف عنه بعد أن قتل بيده ثلثة نفر من الأتراك كانوا وثّقوا بهرام من أبرويز، وضمن لهم عليه مالاً عظيماً، وكان هؤلاء الثلاثة من أشدّ الأتراك وأعظمهم أجساماً وشجاعة. ثم رأى أبرويز من أصحابه فتوراً وحرّض أصحابه فتبيّن منهم فشلاً. فصار إلى أبيه وشاوره، فرأى له المصير إلى ملك الروم فأحرز نساءه وشخص فى عدّة يسيرة فيهم: بُندويه، وبسطام، وكُردى[٤] أخو بهرام. لأنّ كُردي هذا كان ماقتاً لأخيه، معادياً له، شديد الطاعة والنصيحة لأبرويز. فلمّا خرجوا، من المدائن خاف القوم من بهرام وأشفقوا أن يردّ هرمز إلى المُلك، ويكاتب ملك الروم عن هرمز فى ردّهم فيتلفوا. فأعلموا أبرويز ذلك واستأذنوا فى إتلاف هرمز فلم يُحر[٥] جواباً. فانصرف بندوية وبسطام

---

١. أظلنا: دنا منّا. أقبل علينا، غشينا.

٢. واقفه فى حرب أو خصومة: وقف معه.

٣. أنظر الطبرى ٢: ٩٩٦.

٤. أنظر الطبرى ٢: ٩٩٨.

٥. أحار الجواب: ردّه.

وطائفة معهما إلى هرمز حتى أتلفوه خنقاً، ثم رجعوا [225] إلى كسرى وقالوا:
ـ «سر على خير طائر.»

فحثّوا دوابّهم، وصاروا إلى الفرات، فقطعوه، وأخذوا طريق المفازة، بدلالة رجل يقال له: خُرشيذان[١]، وصاروا إلى بعض الديارات فى أطراف العمارة. فلمّا أوطنوا الراحة، لحقتهم خيل بهرام. فلمّا نذروا بهم، أنبه بُندويه أبرويز من نومه وقال له:

ـ «إحتل لنفسك، فإنّ القوم قد أظلّوك.»

فقال كسرى: «ما عندى حيلة.»

فقال بُندويه: «فإنّى سأحتال لك بأن أبذل نفسى دونك.»

قال: «وكيف ذلك؟»

قال: تدفع إلىّ بزّتك[٢] وزينتك لأعلو الدير وتنجو أنت ومن معك من وراء الدير، فإنّ القوم إذا وصلوا إلىّ ورأوا هيئتك علىّ، اشتغلوا عن غيرى وطاولتُهم[٣] حتى تفوتهم.»

ففعلوا ذلك وبادروهم حتى تواروا بالجبل. ثمّ وافاهم خيل بهرام وعليهم قائد له يقال له: بهرام بن سياوَش. فاطّلع عليهم بُندويه من فوق الدير وعليه بزّة أبرويز، وأوهمه أنّه هو، وسأله أن يُنظره[٤] إلى غد ليصير فى [226] يده سلماً، ويصير به إلى بهرام جوبين. فأمسك عنه وحفظ الدير بالحرس ليلته.

فلمّا أصبح اطّلع عليه فى بزّته وحليته وقال:

ـ «إنّ علىّ وعلى أصحابى بقيّة شغل من استعداد لصلوات وعبادات، فأمهلنا.»

---

١. مط: خرشندان.
٢. البزة: الثياب، السلاح، الهيئة. البزّ: السلاح، الثياب من الكتّان والقطن.
٣. طاولتهم: ماطلتهم.
٤. أنظره: أمهله.

ولم يزل يدافع حتّى مضى عامّة النهار. وأمعن أبرويز وعلم أنّه قد فاتهم. ففتح الباب حينئذٍ، وأعلم بهرام بأمره. فانصرف به إلى جوبين، فحبسه في يد بهرام بن سياوش.

فأمّا بهرام جوبين فإنّه دخل المدائن، وجلس على سرير المُلك، وجمع العظماء، فخطبهم وذمّ أبرويز، ودار بينهم كلام. فكان كلّهم منصرفاً عنه إلّا أن بهرام تتوّج وانقاد له الناس خوفاً.

ثمّ إنّ بهرام بن سياوش واطأ بُندويه على الفتك بجوبين وظهر[۱] جوبين على ذلك فقتله، وأفلت بُندويه ولحق آذربيجان. وسار أبرويز حتى أتىٰ أنطاكية، وكاتب ملك الروم منها[۲] وراسله بجماعة ممّن كان معه، وسأله نصرته، فأجابه إلى ذلك [227] وانساقت الأمور بالمقادير، إلى أن زوّجه ابنته مريم وحملها إليه، وبعث إليه بـ «تياذوس»[۳] أخيه ومعه ستّون ألف مقاتل، عليهم رجل يقال له: سرجس[٤] يتولّى تدبير أمرهم، ورجل آخر يقال له: «الكميّ»[٥] ـ كان يُعدل بألف رجل ـ معظّم في الروم، وسأله ترك الإتاوة التي كان آباؤه يسألونها ملوك الروم، إذا هو مُلّك. فاغتبط بهم أبرويز، وأراحهم خمسة أيّام، ثم عرضهم[٦] وعرّف[۷] عليهم العرفاء، وفي القوم تياذوس، وسرجس، والكميّ الذي وصفناه، وسار بهم حتى نزل من آذربيجان في صحراء تدعى الدَّنَق، فوافاه هناك بُندويه ورجل من إصبهبذي الناحية ـ ويقال له: موسيل ـ في أربعين ألف مقاتل وانفضّ

---

١. ظهر على الأمر: اطّلع عليه.
٢. في الأصل ومط: عنها، والتصحيح من الطبري (۲ : ۹۹٦).
٣. تياذوس: كذا في الطبري ۲ : ۹۹۹ Theodosius (C.I.S).
٤. Sergius (C.I.S).
٥. الكميّ: الشجاع، أو لابس السلاح لأنه يكمي نفسه أي يسترها بالدرع والبيضة.
٦. عرض الجند: أمرّهم عليه، واحداً واحداً.
٧. عرّف عليهم عريفاً (أي سيداً، قيّماً): أقامه ليعرف فيهم من صالح أو طالح.

إليه الناس بالخيل من إصبهان وخراسان وفارس، وانتهى إلى بهرام مكانه بصحراء الدنق، فشخص نحوه من المدائن، فجرت بينهما حرب شديدة قتل فيها الكميّ الرومي[١] بضربة ضربه بها بعض الفُرس على رأسه. فقدّ رأسه ويده، وعار[٢] فرسه بنصف بدنه الباقي إلى معركة أبرويز ومعسكره. [228] فاستضحك أبرويز، وعظم ذلك على الروم حتى كثر الكلام فيه، وعوتب أبرويز، وقيل له:

ـ «هذا جزاؤنا منك، يُقتل كميّنا وواحد عصره في طاعتك، وبين يديك، فتضحك؟»

فاعتذر بأن قال:

ـ «إني والله ما ضحكت لما تكرهون. ولقد شقّ عليّ أن فقدت مثله أكثر ممّا شقّ عليكم، ولكنّي رأيتكم تستصغرون شأن بهرام جوبين، وتنكرون هربي منه، فذكرت ذلك من قولكم الآن، وعلمت أنكم برؤيتكم هذه الضربة وأثرها على هذا الكميّ تعذرونني وتعلمون يقيناً أنّ هربي إنّما كان من أمثال هؤلاء القوم الذين هذا مبلغ نكايتهم في الأبطال.»

ويقال: إنّ أبرويز حارب بهرام منفرداً عن العسكر بأربعة عشر رجلاً منهم كُردى أخو بهرام، وبُندويه وبسطام حرباً شديدة وصل فيها بعضهم إلى بعض، والمجوس تحكي حكايات عظيمة لا فائدة في ذكرها مع امتناعها، وجملتها: أنّ أبرويز استظهر استظهاراً أيس معه بهرام جوبين. [229] وعلم أنّه لا حيلة له فيه، فانحاز عنه نحو خراسان، ثم صار إلى الترك، وصار أبرويز إلى المدائن بعد أن فرّق في الجنود من الروم أموالاً عظيمة وصرفهم إلى ملك الروم.

ولبث بهرام في الترك مكرّماً عند الملك، حتى احتال عليه أبرويز بتوجيه رجل يقال له هرمز: إلى الترك بجوهر نفيس وغيره، حتى احتال لخاتون امرأة

---

١. أنظر الطبري ٢: ١٠٠٠.

٢. مط: عاد فرسه.

الملك، ولاطفها بذلك الجوهر وغيره من الهدايا حتى دسّت لبهرام من قتله. فاغتمّ خاقان لموته، وأرسل إلى أخته كُردية وامرأته يعلمها[١] بلوغ الحادث ببهرام منه، ويسأل أن يتزوّجها وطلّق امرأته خاتون بهذا السبب، فأجابته كُردية جواباً ليّناً، وضمّت من كان مع أخيها من المقاتلة إليها، وخرجت بهم من بلاد الترك إلى حدود مملكة فارس فأتبعها ملك الترك أخاه بُطراً[٢] في اثني عشر ألف فارس.

فيقال: إنّ كُردية قاتلت، وقتلت بطراً بيدها، ومضت لوجهها [230]، حتى تلقّتها خيول الفرس من الحدود. وكتبت إلى أخيها كُردى، فأخذ لها أماناً من أبرويز. فلمّا قدمت عليه اغتبط بها، وتزوّج بها أبرويز.

ذكر سوء سياسة
اتّفق على أبرويز في جنده حتى ظهر الروم عليه

لم يزل أبرويز يلاطف ملك الروم، الذى كان نصره، ويهاديه[٣]، إلى أن وثبت الروم عليه في شيء أنكروه منه، فقتلوه وملّكوا غيره. فبلغ ذلك أبرويز، فامتعض، وأخذته الحفيظة، فآوى ابن الملك المقتول اللاجئ إليه، وتَوَّجَهُ، وملّكه على الروم، ووجّه معه جنوداً كثيفة مع شهربراز[٤]، فدوّخ بهم البلاد، وملك صاحب كسرىٰ بيت المقدس، وأخذ خشبة الصليب، وبعث بها إلى كسرىٰ في أربع وعشرين سنة من ملكه. ثم احتوى على مصر، والإسكندرية، وبلاد نوبة، وبعث مفاتيح مدينة الإسكندرية إلى كسرىٰ في سنة ثمان وعشرين من ملكه. وقصد قسطنطينية، فأناخ على ضفّة الخليج القريب منها، وخيّم[٥] هناك. فأمر كسرىٰ فخرّب بلاد الروم، غضباً مما انتهكوا من ملكهم وانتقاماً له، ولم يخضع لابن

١. كذا في مط والطبري: يعلمها بلوغ الحادث ببهرام منه (٢: ١٠٠١).
٢. كذا في مط: بطر. نظر، بطو.
٣. يهاديه: يهادنه (مل).
٤. مط: شهريرار. Shahrvaraz (J.S. حب).
٥. مط: وجشم.

ملكهم [231] المقتول أحد، ولا منحوا الطاعة، غير أنّهم قتلوا الملك الذى ملّكوه بعد أبيه المسمّى فوقا[١] لما ظهر من فجوره وسوء تدبيره، وملّكوا عليهم رجلاً يقال له: هرقل[٢]. فلمّا رأى هرقل عظيم ما فيه بلاد الروم من تخريب جنود فارس إيّاها، وقتلهم مقاتلتهم، وسبيهم ذراريّهم، واستباحتهم أموالهم؛ تضرّع إلى الله، وأكثر الدعاء والإبتهال.

فيقال: إنّه رأى فى منامه رجلاً ضخم الجثّة رفيع المجلس، عليه [بزّة، قائماً فى ناحية عنه][٣]، فدخل عليهما داخل، فألقى ذلك الرجل عن مجلسه وقال لهرَقْل:

ـ «إني قد سلّمته فى يدك.»

فلم يقصص رؤياه تلك فى يقظته على أحد حتى توالت عليه أمثاله. فرأى بعض لياليه: كأنّ رجلاً دخل عليهما وبيده سلسلة طويلة، فألقاها فى عنق صاحبه، أعنى صاحب المجلس الرفيع عليه[٤]، ثم دفعه إليه وقال له:

ـ «ها قد دفعت إليك كسرىٰ برمّته.»

فلمّا تتابعت هذه الأحلام، قصّها على عظماء الروم وذوى العلم منهم، فأشاروا [232] عليه أن يغزوه. فاستعدّ هرقل، واستخلف ابنه على مدينة قسطنطينية، وأخذ عن الطريق الذى فيه شهريار صاحب كسرى، وسار حتى وغل فى بلاد أرمينية، ونزل نصيبين سنة، وقد كان صاحب ذلك الثغر من قبل كسرى قد استدعى لموجدة كانت من كسرى عليه. وأمّا شهربراز فقد كانت كتب كسرى ترد عليه فى الجثوم على الموضع الذى هو به [وترك البراح منه][٥]. ثم بلغ

---

١. فى الأصل والطبرى: قوفا، وما أثبتناه من مط. وهو معرّب Phocas (C.I.S).

٢. Heraclius.

٣. العباره سقطت من الأصل، فأضفناها من الطبرى.

٤. الرفيع عليه: كذا فى الأصل ومط.

٥. فى الأصل ومط: «ونزل البراح» وما أثبتناه من الطبرى.

كسرىٰ تساقط(١) هرقل في جنوده إلى نصيبين. فوجّه لمحاربة هرقل رجلاً من قوّاده يقال له: راهزاذ(٢)، في اثنى عشر ألف رجل من الأنجاد، وأمره أن يقيم بنينوىٰ ـ وهي التي تدعى الآن الموصل ـ على شاطئ دجلة، ويمنع الروم أن يجوزوها.

وكان كسرىٰ بلغه خبر هرقل، وأنه مُغذّ، وهو يومئذ مقيم بدسكرة الملك. فنفذ راهزاذ لأمر كسرى، وعسكر حيث أمره. فقطع هرقل دجلة في موضع آخر، إلى الناحية التي كان فيها جند فارس. فأذكى راهزاذ [233] العيون عليه، فانصرفوا إليه، فأخبروه أنّه في سبعين ألف مقاتل، فأيقن راهزاذ ومن معه من الجند، أنّهم عاجزون عن مناهضته. فكتب إلى كسرىٰ غير مرّة دهم هرقل إياه بمن لا طاقة له ولمن معه بهم، لكثرتهم وحسن عُدّتهم. كل ذلك يجيبه كسرىٰ بأنّه إن عجز عن الروم فلن يعجز عن استقتالهم(٣) وبذل دمائهم في طاعته.

فلمّا تتابعت على راهزاذ جوابات كسرىٰ بذلك، عبّى جنده وناهض الروم بهم. فقتلت الروم راهزاذ وستة آلاف رجل، وانهزمت بقيّتهم وهربوا على وجوههم. وبلغ كسرىٰ قتل الروم راهزاذ وما نال هرقل من الظفر، فهدّه ذلك، وانحاز من دسكرة الملك إلى المدائن، وتحصّن بها لعجزه كان عن محاربة هرقل، وسار هرقل حتّى كان قريباً من المدائن. فلما تساقط إلى كسرى خبره واستعدّ لقتاله انصرف إلى أرض الروم. وكتب كسرىٰ إلى قوّاد الجند الذين انهزموا، يأمرهم أن يدلّوه [234] على كلّ رجل منهم ومن أصحابه، ممن فشل في تلك الحرب ولم يرابط مركزه فيها؛ فأمر بأن يعاقب بحسب ما استوجب. فأحوجهم(٤) بهذا الكتاب إلى الخلاف عليه وطلب الحيل لنجاة أنفسهم منه. وكتب إلى شهربراز

---

١. تساقط وسقط إليه القوم: نزلوا.

٢. في الطبرى: راهزار (٢: ١٠٠٤).

٣. مط: استقبالهم.

٤. في الطبرى: فاخرجهم.

يأمره بالقدوم عليه ويستعجله في ذلك، ويصف له ما نال هرقل منه ومن بلاده[۱].

وقد حكي: أنّ كسرى عرف امرأة في فارس لا تلد إلّا الملوك الأبطال، فدعاها وقال:

ـ «إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً، وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك، فأشيري عليّ: أيّهم أستعمل؟»

فوصفت أولادها فقالت:

ـ «هذا فرّخان أنفذ من سنان، وهذا شهربراز أحكم من كذا، وهذا فلان أروغ من كذا.»

فاستعمل شهربراز. فسار إلى الروم، فظهر عليهم وهزمهم وخرّب مدائنهم. فلمّا ظهرت فارس على الروم، جلس فرّخان يشرب، فقال لأصحابه:

ـ «لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرىٰ.» [235]

فبلغت كسرىٰ، وكتب إلى شهربراز:

ـ «إذا أتاك كتابي هذا، فابعث إليّ برأس فرّخان.»

فكتب إليه:

ـ «أيّها الملك، إنّك لن تجد مثل فرّخان، فانّ له نكاية في العدوّ وصوتاً. فلا تفعل.»

فكتب إليه:

ـ «إنّ في رجال فارس خلفاً منه، فعجّل عليّ برأسه.»

فراجعه، فغضب كسرىٰ ولم يجبه، وبعث بريداً إلى أهل فارس:

ـ «إني قد نزعت عنكم شهربراز، واستعملت عليكم فرّخان.»

ثمّ دفع إلى البريد صحيفة صغيرة وقال:

۱. مظانّ نزول «آلم. غلبت الروم...» أنظر الطبري ۲: ۱۰۰۵.

ـ «إذا ولى فرّخان المُلك، وانقاد له أخوه، فأعطه.»

فلما قرأ شهربراز الكتاب قال:

ـ «سمعاً وطاعة.»

ونزل عن السرير، وجلس فرّخان، ودفع الصحيفة إليه، فقال:

ـ «ايتونى بشهربراز.»

فقدّمه ليضرب عنقه، فقال:

ـ «لا تعجل، حتى أكتب وصيّتى.»

قال: «افعل!»

فدعا بسفط وأعطاه ثلاث صحائف، وقال:

ـ «كلّ هذا راجعت فيك كسرى وأنت أردت أن تقتلنى بكتاب واحد!»

فردّ المُلك على أخيه.

فكتب شهربراز إلى قيصر [236] ملك الروم:

ـ «إنّ لى حاجة لا تحملها البُرد ولا تبلّغها الصحف. فالقنى، ولا تلقنى إلّا فى خمسين رومياً، فإنّى[1] أيضاً ألقاك فى خمسين فارسياً.»

فأقبل قيصر فى خمسمائة رومىّ، وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق، وخاف أن يكون قد مكر به حتّى أتاه عيونه أنه: ليس معه إلّا خمسون رجلاً. ثمّ بسط لهما، والتقيا فى قبّة ديباج ضُربت لهما، واجتمعا ومع كلّ واحد منهما سكّين، ودعوا ترجماناً بينهما.

فقال شهربراز:

ـ «إنّ الذين خرّبوا مدينتك، وبلغوا منك ومن جندك[2] ما بلغوا أنا وأخى بشجاعتنا وكيدنا، وإنّ كسرى حسدَنا، فأراد أن أقتل أخى فأبيتُ، ثمّ أمر أخى أن

١. فإنّى... فارسيا: سقطت من مط.

٢. مط: جدك.

يقتلني. فقد خلعناه جميعاً، فنحن نقاتله معك.»

قال: «قد أصبتما ووُفّقتما.»

ثمّ أشار أحدهما[١] إلى صاحبه: أنّ السرّ إنّما يكون بين اثنين، فإذا جاوز اثنين فشا.

قال صاحبه: «أجل!»

فقاما جميعاً إلى الترجمان بسكّينهما، فقتلاه، واتّفقا على قتال كسرىٰ. [237]

فممّا اتفق في أيّام كسرىٰ من الحوادث التي تستفاد منها تجربة ما كان من يوم ذى قار وحرب العرب والفرس

وكان سبب ذلك قتل النعمان بن المنذر اللخمى، قتله كسرىٰ لأسباب نذكر جملها إن شاء الله:

كان عديّ بن زيد العباديّ وابنه زيد بن عديّ سبب ولاية النعمان وسبب هلاكه جميعاً.

قتل النعمان بن المنذر وأسبابه

وذلك أنّ عديّاً وأخويه ـ وهما: عمار، وعمرو، ويُعرف عمار بـ«أُبيّ»، وعمرو بـ«سُمَيّ» ـ كانوا فى خدمة الأكاسرة[٢]، ولهم من جهتهم قطائع. وكان قابوس الأكبر عمّ النعمان وإخوته، بعث إلى كسرى أبرويز بعديّ بن زيد وأخويه، ليكونوا فى كتّابه يترجمون له.

فلمّا مات المنذر بن المنذر ترك من أولاده اثنى عشر رجلاً، وهم الأشاهب،

---

١. أحدهما... صاحبه: غير واضحة في الأصل، وما أثبتناه من مط.

٢. في الطبرى: ... وكان عديّ من تراجمة أبرويز كسرى بن هرمز (٢: ١٠١٦).

سمّوا بذلك لجمالهم، وفيهم يقول الأعشى:

فبنو المنذرِ الأشاهبُ بالحيـ ـرَةِ يمشونَ غُدوةً كالسيوفِ[١]

فجعل المنذر ابنه النعمان في حجر[٢] عديّ، وجعل ابنه الأسود في حجر رجلٍ [238] يقال له: عديّ بن أوس بن مرينا. وبنو مرينا قوم لهم شرف وهم من لخم، وبنو المنذر الباقون، وهم عشرة، مستقلّون بأنفسهم.

وكان المنذر جعل على أمره كلّه، إياس بن قبيصة الطائي، فكان في مكانه أشهراً يدبّر أمر العرب كلّه. وطلب كسرىٰ من يُملّكه على العرب، فدعا عديّ بن زيد فقال له:

ـ «من بقي من بني المنذر، وماهم، وهل فيهم خير؟»

فقال: «بقيتهم من ولد هذا الميت ـ يعني المنذر بن المنذر ـ وهم رجال نجباء.»

فكتب إليهم، فقدموا عليه، فأنزلهم على عديّ بن زيد. فكان عديّ يفضّل اخوة النعمان عليه في النُزل[٣]، ويُريهم أنّه لا يرجوه، ويخلو بهم رجلاً رجلاً، ويقول لهم:

ـ «إن سألكم الملك: أتكفونني العرب؟ فقولوا: نكفيكهم إلّا النعمان.»

وقال للنعمان:

ـ «إن سألك الملك عن إخوتك، فقل: إن عجزتُ عنهم فإنّي عن غيره أعجز.»

وكان عديّ بن أوس بن مرينا داهية أريباً. فكان يوصي الأسود بن المنذر ويقول له:

١. في الطبري: بالسيوف (٢ : ١٠١٧).

٢. في حجره: في كنفه وحمايته.

٣. مط: المنزل.

ـ «قد عرفت [239] أنّى لك راجٍ، وأنّ طلبتى ورغبتى إليك أن تخالف عدىّ بن زيد فى ما يشيربه عليك، فإنّه والله لا ينصح لك أبداً.»

فلم يلتفت الأسود إلى قوله. فلمّا أمر كسرى عدىّ بن زيد أن يُدخلهم عليه، جعل يُدخلهم رجلاً رجلاً فيكلّمه. فكان الملك كسرىٰ يرىٰ رجالاً قلّ ما رأى مثلهم. فإذا سألهم:

ـ «هل تكفوننى ما كنتم[١] تلون؟»

قالوا: «نكفيك العرب إلّا النعمان.»

فلمّا دخل النعمان عليه، رأى رجلاً دميماً[٢] قصيراً أحمر، فكلّمه، وقال:

ـ «أتستطيع أن تكفينى العرب؟»

قال: «نعم.»

قال: «وكيف تصنع بإخوتك؟»

قال: «أيّها الملك، إن عجزت عنهم، فأنا عن غيرهم أعجز.»

فملّكه، وكساه، وألبسه تاجاً قيمته ستّون ألف درهم فيه اللؤلؤ، والذهب. فلمّا خرج وهو ملك على العرب، قال عدىّ بن أوس بن مرينا للأسود:

ـ «دونك، فإنّك خالفتَ الرأى.»

ثم إنّ عدىّ بن زيد صنع طعاماً فى بيعة، وأرسل إلى ابن مرينا أن: إئتنى مع من أحببت، فإنّ لى حاجة. فأتاه فى ناس، فتغدّوا فى البيعة غداءهم المعدّ، وشربوا. [240] فقال عدىّ بن زيد لعدىّ بن أوس:

ـ «يا عدىّ! إنّ أحقّ من عرف الحقّ ثمّ لم يَلُمْ عليه، من كان مثلك. إنّى عرفت أنّ صاحبك الأسود بن المنذر كان أحبّ إليك من أن يملك من صاحبى النعمان، فلا تلمنى على شىء كنتَ على مثله، وأنا أحبّ ألّا تحقد علىّ شيئاً لو قدرت

---

١. مط: ماكنت تكون!

٢. مط: ذميماً، والدميم: قبيح الوجه.

عليه ركبته، وأحبّ أن تعطيني من نفسك ما أعطيك من نفسي، فإنّ نصيبي من هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك.»

فقام عديّ بن زيد إلى البيعة، فحلف ألّا يهجوه، ولا يبغيه غائلة أبداً، ولا يزوى عنه خيراً. فلمّا فرغ عديّ بن زيد، قام ابن مرينا فحلف على مثل يمينه ألّا يزال يهجوه[١] أبداً، ويبغيه الغوائل ما بقي.

وخرج النعمان حتى نزل منزله بالحيرة، وافترق العديّان على وحشة كما ذكرت.

حيلة لعديّ بن أوس على عديّ بن زيد

فقال عديّ بن مرينا للأسود:

ـ «وإذا لم تظفر[٢]، فلا تعجز أن تطلب بثأرك من هذا المعدّى الذى عمل بك ما عمل. فقد كنت أخبرك أنّ معدّاً لا ينام مكرها، وأمرت أن تخالفه فعصيتني.»

قال: «فما تريد؟»

قال: «أريد أن لا [241] تأتيك فائدة من مالك وأرضك إلّا عرضتها عليّ.»

ففعل. وكان ابن مرينا كثير المال واسع الضيعة. فلم يمرّ به يوم إلّا بعث فيه إلى النعمان هديّة أو تحفة. فلمّا توالى ذلك وكثر عند النعمان هدايا ابن مرينا صار من أكرم الناس عليه، وكان لا يقضي فى مُلكه شيئاً إلّا بأمر ابن مرينا، وكان إذا ذكر عديّ بن زيد عنده أحسن ابن مرينا الثناء عليه، وذكر فضله وقال:

ـ «إنّه لا يصلح المعديّ إلّا أن يكون فيه مكر وخديعة.»

فلمّا رأى من يطيف بالنعمان منزلة ابن مرينا عنده، لزموه وتابعوه[٣]، فجعل

---

١. في الأصل ومط: «ألّا يزال يهجوه»، في الطبرى: ألّا يهجوه (٢: ١٠١٩).

٢. غير واضح في الأصل، وما أثبتناه يؤيده ما فى مط والطبرى: (٢: ١٠١٩).

٣. مط: وبايعوه.

يقول لمن يثق به من أصحابه:

ـ «إذا رأيتمونى أذكر عدىّ بن زيد عند الملك بخير، فقولوا: إنّه لكما يقول، ولكنّه لا يسلم عليه أحد، وإنّه يقول: إنّ الملك ـ يعنى النعمان ـ إنّما هو عامله، وإنّه هو الذى ولّاه ما ولّاه.»

ولم يزالوا بهذا وأشباهه، حتى أضغنوه عليه. ثمّ إنّهم كتبوا كتاباً عن عدىّ إلى قهرمان[١] كان له، ودسّوا له حتّى أُخذ الكتاب، وأُتي به النعمان، فقرأه وأغضبه. [242]

فأرسل إلى عدىّ بن زيد:

ـ «عزمت عليك إلّا زرتنى، فإنّي قد اشتقت إليك.» وهو عند كسرىٰ.

فاستأذن كسرىٰ، فأذن له. فلمّا أتاه، لم ينظر إليه، حتى حُبس فى محبس لا يدخل عليه فيه أحد. فجعل عدىّ بن زيد يقول الشعر، ويبلغه النعمان، وكان أوّل ما قاله في السجن:

ليتَ شِعرى عَنِ الهُمامِ ويَأتيـ ـكَ بخُبرِ الأنباءِ عَطفُ السّؤالِ[٢]

وقال أشعاراً كثيرة[٣]، وكان كلما قال عدىّ من الشعر شيئاً بلغ النعمان وسمعه، فندم على حبسه إيّاه، وعلم أنّه كيد فيه. فكان يرسل إليه، ويعده ويمنّيه، ويَفرق[٤] أن يُرسله[٥] فيبغيه الغوائل. فلمّا طال سجن عدىّ وأعياه التضرّع إلى النعمان بالأشعار التى يستعطفه فيها مرّة ويخبره فيها بما كيد به مرّة، ومرّة يذكّره

١. القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه.

٢. تجد البيت عند الطبرى ٢ : ١٠٢٠، وفي أيّام العرب : ١٥.

٣. أنظر الطبرى ٢ : ١٠١٩، وأيام العرب: ١٤.

٤. يَفرق: يخاف، يفزع.

٥. يُرسله: يطلقه من السجن.

بالموت، ويخبره بهلاك من هلك قبله، كتب إلى أخيه أُبيّ وهو مع كسرى:

أَبْــلِغ[١] أُبَــيّاً عـلىٰ نـأيِهِ فهلْ ينفعُ المرءَ ما قد عَلِمْ [243]
بِـأنَّ أخـاكَ شـقيقُ الفُـؤا دِ كـنتَ بـه واثـقاً[٢] ما سَلِمْ
لدىٰ مـلكٍ مـوثقٌ فـي الحديـ ـدِ إمّـا بـحقٍّ وإمّـا ظُـلِمْ
فَـلا أعـرِفَنْكَ كَـذاتِ الغُـلا مِ[٣] ما[٤] لم تَجِدْ عارماً[٥] تَعْتَرِمْ
فَـأرضَك أرضَك إن تَـأْتِنا تَـنَمْ نَـومةً ليسَ فـيها حُـلُمْ

فكتب إليه أخوه:

إن يَكُـنْ خـانكَ الزَّمـانُ فلا عا جـزُ قَـومٍ ولا أَلَـفٌ[٦] ضَـعيفُ
ويـمينُ الإلـهِ لَـوْ أنَّ جَـأْوا[٧] ءَ طَحوناً[٨] تُضيءُ فيها السيوفُ
ذاتَ رِزٍّ[٩] مـجتابةً غَمرةَ المو تِ صحيحٌ سِربالُها[١٠] مكفوفُ[١١]

١. في الأصل والنصوص المختلفة وكذلك في أيّام العرب: «أبلغ» وما في مط: «أبلّغ» بتشديد اللّام من باب التفعيل. فالهمزة إذن للنداء بتقدير المنادى، أي: «أصاحبي بلّغ» من باب «يا تُرى» أي: «يا رجل هل ترى» وهذا أوفق للوزن. ٢. الطبري: والهاً.

٣. ذات الغلام: الأمّ المرضع.

٤. مط والأصل: «إذا لم تجد» وما أثبتناه من الطبري.

٥. العارم: الراضع، يقال: اعترمت المرأة: تبغت من يعرمها أو يمصّ ثديها، والمراد: إن لم تجد من ترضعه درّت هي فحلبت ثديها. قال ابن الأعرابي: يقال هذا لمن يتكلّف ما ليس من شأنه.

٦. الألفُ: البطيء الثقيل.

٧. الجأواء: الكتيبة التي يعلو لونها السواد لكثرة الدروع.

٨. الطحون: التي تطحن ما لقيت. ٩. الرزّ: الصوت.

١٠. السربال: القميص.

١١. المكفوف: الثوب الذي خطّت حاشيته، ولعلّه يريد أنّها كتيبة سالمة.

كنتُ فى حَميِها لَجِئتُك أسعىٰ فَاعْلَمَنْ لو سمعتُ إذ تستضيفُ[۱]
إن تَفُتني واللهِ أُلفَ جَزوعاً لا يُعَفِّيكَ ما يصوتُ الخريف
فَلَعَمْري لَئِنْ جَزِعتُ عَليهِ لَجَزوعٌ على الصَّديق أسوفُ
ولعمرى لئن ملكتُ عزائى لقليلٌ شَرواكَ[۲] فى ما أطوفُ

كسرىٰ يكتب فى إرسال عدىّ وعدىّ يُقتَل

ويقال: إنّ عديّاً لما كاتب أبيّاً، قام أُبيّ، فدخل على كسرىٰ، فكلّمه، فكتب له وبعث معه رجلاً، وأذن له فى المسير لاستنقاذ أخيه. فكتب خليفة النعمان المقيم بباب الملك إليه أنّه: قد كتب إليك فى أمر عديّ. فأتاه أعداء [244] عديّ من غسّان، فأشاروا على النعمان بقتل عديّ.

وقالوا: «افرُغ منه الساعة.»

فأبىٰ عليهم، وجاء الرجل، وكان تقدّم أخو عديّ إليه فرشاه، وأمره أن يبدأ بعديّ. فدخل عليه وهو محبوس وكان قال له:

ـ «ابدأ بالدخول إليه فى الحبس فانظر ما يأمرك به.»

فلمّا دخل الرسول على عديّ قال له:

ـ «إنّى قد جئتك بإرسالك[۳] فما عندك؟»

قال: «عندى الذى تحبّ.»

ووعده، وسأله ألّا يخرج من عنده، وقال:

ـ «أعطنى الكتاب حتى أرسل به أنا، فإنّك إن خرجتَ من عندى، قُتلت.»

فقال الرسول: «لا أستطيع إلّا أن آتى النعمان بالكتاب فأوصله بنفسى إليه.»

---

۱. تستضيف: تستجير.
۲. شرواك: مثلك. شرح الأبيات من أيّام العرب: ۱۷.
۳. بإرسالك: بإطلاقك.

فانطلق مخبر[١]، فأتى النعمان، فقال:

ـ «إنّ رسول كسرى قد دخل على عديّ وهو ذاهب به، وإن فعل لم يستبق[٢] منّا أحداً، ولم تنج أنت ولا غيرك.»

فبعث إليه النعمان بأعداءه، فغمّوه حتى مات، ثم دفنوه.

ودخل الرسول على النعمان بالكتاب.

فقال: «نعم وكرامة وسمعاً وطاعة.»

وبعث إلى الرسول بأربعة آلاف مثقال [245] ذهباً، وجارية، وقال له:

ـ «إذا أصبحت فادخل عليه وأخرجه أنت بنفسك.»

فلما أصبح ركب، فدخل السجن، فقال له الحرس:

ـ «إنّه قد مات منذ أيام، فلم نجترئ على أن نخبر الملك النعمان فرقاً منه، لعلمنا بكراهيته لذلك.»

فرجع الرسول إلى النعمان فقال:

ـ «إنّي كنت بدأت به، فدخلت إليه وهو حيّ.»

فقال النعمان: «يبعثك الملك إليّ فتدخل إليه قبلي! كذبتَ ولكنّك أردت الرشوة والخبث.»

وتهدّده. ثمّ إنه استدعاه بعد ذلك، وزاده جائزة وكسوة، وأكرمه واستوثق منه أن لا يخبر الملك، إلّا أنّه قد مات قبل أن يقدم عليه. فرجع الرسول إلى كسرى، فقال:

ـ «إنه مات قبل أن أدخل عليه.»

---

١. الأصل غير واضح، وما أثبتناه من الطبري. مط: بخبر.

٢. مط: لم يسبق أحد.

زيد بن عدىّ يخلف أباه عند كسرىٰ

وندم النعمان على قتل عدىّ ندامة شديدة، واجترأ أعداء عدىّ على النعمان، وهابهم النعمان هيبة شديدة، فخرج النعمان فى بعض صيده ذات يوم، فلقى ابناً لعدىّ يقال له: زيد. فلمّا رآه عرف شبهه، فقال:

ـ «من أنت؟»

فقال: «أنا زيد بن عدىّ بن زيد.»

فكلّمه، فإذا [246] غلام ظريف، ففرح به فرحاً شديداً، وقرّبه، واعتذر إليه من أمر أبيه، ثمّ جهّزه وكتب إلى كسرىٰ :

«إنّ عديّاً كان ممن أُعينَ به الملك فى نصحه ولُبّه، فأصابه ما لابدّ منه وانقضت مدّته وانقطع أجله، ولم يصب به أحد أشدّ من مصيبتي، وأمّا الملك فلم يكن ليفقد رجلاً من عبيده إلّا جعل الله له منه خلفاً لما عظم الله من ملكه وشأنه، وقد أدرك له ابنٌ ليس دونه وقد سرّحته إلى الملك. فإن رأى أن يجعله مكان أبيه ويصرف عمّه إلى عمل آخر فعل.»

فكان هو الذى يلي ما يكتب إلى أرض العرب وخاصّةِ الملك، وكانت له من العرب وظيفة فى كلّ سنة من الأفراس المهارة[1]، ومن الكمأة الرطبة واليابسة، والأَقِط[2]، والأُدُم، وسائر تجارات العرب. وكذلك كان عدىّ بن زيد له هذه الرسوم.

فلمّا وقع عند الملك هذا الموقع سأل عن النعمان، فأحسن الثناء عليه، فمكث سنوات بمنزلة أبيه، وأعجب به كسرىٰ وكان يكثر الدخول إليه.

---

١. المهارة: جمع المهر: ولد الفرس.
٢. الأقط: الجبن.

فرصة انتهزها زيد

فلمّا كان بعض [247] دخلاته على كسرى جرىٰ حديث النساء[١]، وطلب الملك امرأة لها صفات ونعوت مكتوبة عند الملوك. وكان من رسم الملوك أن يطلب لهم جارية تجمع تلك النعوت في ممالكهم، فكُتبت تلك الصفة. فدخل زيد على كسرىٰ فكلّمه في ما دخل فيه، ثم قال:

ـ «إنّي رأيت الملك كتب في نسوة يُطلبن له، فقرأت الصفة، وأنا خبير بآل المنذر، وعند عبدك النعمان من بناته وبنات عمّه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة.»

قال: «فتكتب فيهنّ.»

فقال: «أيّها الملك، إنّ شرّ شيء في العرب وفي النعمان أنهم يتكرّمون ـ زعموا في أنفسهم ـ عن العجم. فأنا أكره أن يغيّبهنّ، وإن قدمت أنا عليه على معرفتي، لم يقدر على تغييبهنّ، فابعثني وابعث معي رجلاً يفقه العربية.»

فبعث معه رجلاً جلداً حصيفاً، فخرج به زيد، فجعل يكرم ذلك الرجل ويلطفه حتى بلغ الحيرة. فلمّا دخل عليه، أعظم الملك وقال:

ـ «إنّه قد احتاج إلى نساء لأهله وولده، وأراد كرامتك [248] وبعث إليك.

فقال: «وما هؤلاء النسوة؟»

فقال: «هذه صفتهنّ قد جئنا بها.»

صفة جارية أهداها المنذر الأكبر إلى أنوشروان

وكانت الصفة أنّ المنذر الأكبر أهدى إلى أنوشروان جارية كان أصابها لمّا

---

١. أنظر الطبري ٢: ١٠٢٥.

أغار على الحارث الأكبر الغسانيّ ابن أبي شمر، فكتب إلى أنوشروان يصفها له:

«هي معتدلة الخلق، نقيّة اللون والثغر، بيضاء، قمراء، وطفاء[١]، دعجاء[٢] حوراء[٣]، عيناء[٤]، قنواء[٥]، شمّاء[٦]، زجّاء[٧]، بَرجاء[٨]، أسيلة الخدّ[٩] [شهيّة المُقبَّل] [١٠] جَثلة[١١] الشعر، عظيمة الهامة، بعيدة مَهوى القُرط، عيطاء[١٢]، عريضة الصدر، كاعب الثدي، ضخمةُ مُشاشة[١٣] المنكب والعضد، حسنة المعصم، لطيفة الكفّ، سبطة[١٤] البنان، لطيفة طيّ البطن، خميصة[١٥] الخصر، غرثى[١٦] الوشاح، رداح[١٧] القُبُل، رابية الكفل، مفعمة الساق، لفّاء[١٨] الفخذين، ريّا[١٩] الروادف، ضخمة المأكمتين[٢٠]، عظيمة الركبة، مشبعة[٢١] الخلخال، لطيفة الكعب والقدم، قطوف[٢٢] المشي، مكسال[٢٣]

---

١. الوطفاء: غزيرة الأهداب وشعر الحاجبين.
٢. الدعج: شدّة سواد العين، وشدّة بياض بياضها.
٣. الحور: اسوداد العين كلها مثل الظباء.
٤. العيناء: هي المرأة التي عظم سواد عينها في سعة مشهودة.
٥. القناء: ارتفاع في أعلى الأنف، واحديداب في وسطه، وسبوغ في أعلاه.
٦. الشمم: ارتفاع القصبة في الأنف.
٧. الزجّاء: دقيقة الحاجبين في طول.
٨. البرجاء: جميلة العين، والتي بياض عينها محدق بالسواد كله.
٩. الخد الأسيل: اللين الأملس الطويل المسترسل.
١٠. زيادة من الطبري وابن الأثير.
١١. الجثل من الشعر: الكثيف الأسود.
١٢. العيطاء: الطويلة العنق.
١٣. المشاشة: رأس العظم الممكن المضغ.
١٤. سبطة البنان: الكريمة.
١٥. خميصة الخصر: من خصرها ضامر دقيق.
١٦. الغرثى: الجوعى، وغرثى الوشاح: دقيقة الخصر.
١٧. الرداح: العجزاء الثقيلة الأوراك التامة الخلق، والقُبُل: ما استقبلك من مشرف.
١٨. اللفّاء: مكتنزة الفخذين.
١٩. ريّا الروادف: من كثر لحم أردافها.
٢٠. المأكمتان: اللحمتان اللتان على رؤوس الوركين. [وفي ابن الأثير: المنكبين].
٢١. مشبعة الخلخال: كناية عن السمن.
٢٢. قطوف المشي: تقارب الخطو.
٢٣. المكسال: المرأة التي لا تكاد تبرح مجلسها وهو مدح عندهم!

الضحى، بضّة[١] المتجرَّد، شموع[٢] للسيّد، ليست بخنساء[٣] ولا سعفاء[٤] ذليلة الأنف، عزيزة النفس، لم تغذ في بؤس، حييّة، وزينة، حليمة، ركينة، كريمة الخال، تقتصر بنسب أبيها دون فصيلتها، وبفصيلتها دون [249] جماع قبيلتها، قد أحكمتها التجارب في الأدب، فرأيها رأي أهل الشرف، وعملها عمل أهل الحاجة، صَناع الكفّين، قطيعة اللسان[٥]، رهوة[٦] الصوت، تزين البيت وتشين العدوّ، إن أردتها اشتهت، وإن تركتها انتهت، تحملق عيناها، وتحمرّ وجنتاها، وتذبذب شفتاها وتبادرك الوثبة».

فقبلها أنوشروان، وأمر بإثبات هذه الصفة في ديوانه، فلم يزالوا يتوارثونها حتّى أفضى ذلك إلى كسرىٰ بن هرمز.

فقرأ عليه زيد هذه الصفة، فشقّ عليه، فقال لزيد وللرسول:

ـ «أما في عِين السواد وفارس ما تبلغون به حاجتكم!»

فقال الرسول لزيد: «ما العين؟»

فقال: «البَقر.»

فقال زيد للنعمان: «إنّما أراد كرامتك، ولو علم أنه يشقّ عليك لم يكتب به إليك.»

فأنزلهما يومين، ثمّ كتب إلى كسرى:

---

١. البضّة: الناعمة.

٢. الشموع: المزّاحة الضحوك اللعوب.

٣. الخنس: قريب من الفطس.

٤. السعفاء: السوداء.

٥. ليست سليطة.

٦. رهوة الصوت: رقيقة الصوت. (جلّ هذه الشروح منقولة عن أيّام العرب).

ـ «إنّ الذى طلب الملك ليس عندى.»

وقال لزيد:

ـ «أعذرنى عنده.»

فلما رجعا إلى كسرى، قال زيد للرسول الذى جاء معه:

ـ أُصدق الملك، الذى سمعت منه، فإنّى سأحدّثه بحديثك، ولا أخالفك فيه.»

فلمّا دخلا [250] على كسرىٰ قال زيد: «هذا كتابه.» فقرأه عليه.

فقال كسرى: «فأين ما كنت خبّرتني به؟»

فقال: «قد كنت أخبرتك بضنّهم بنسائهم على غيرهم، وإنّ ذلك من شقائهم: اختيارهم الجوع والعرى على الشبع والرياش، واختيارهم السّموم والرياح على طيب أرضك هذه، حتى إنّهم ليسمّونها السجن. فسل هذا الرسول معى عن الذى قال، فإنّي أكره أن أحكى للملك قوله أو أردّ عليه ألفاظه.»

فقال للرسول: «ما قال؟»

قال: «انّه قال ـ أيّها الملك ـ: أما فى بقر السواد ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا؟»

فعُرف الغضب فى وجهه، ووقع فى قلبه منه ما وقع، ولكنّه قال:

ـ «ربّ عبد قد قال هذا، فصار أمره إلى التباب.»

كسرىٰ يدعو النعمان وهو يحمل السلاح

وشاع هذا الكلام، فبلغ النعمان وسكت كسرى على ذلك أشهراً، وجعل النعمان يستعدّ ويتوقّع حتّى أتاه كتابه أن:

ـ «أقبل، فإنّ للملك إليك حاجة.»

فانطلق حين أتاه كتابه، فحمل سلاحه وما قوى عليه، ثمّ لحق بجبلى طيّء، وكانت عنده فرعة بنت سعد بن حارثة بن لأم [251] وقد ولدت له رجلاً وكانت

عنده أيضاً زينب بنت أوس بن حارثة. فأراد النعمان طيّئاً على أن يُدخلوه ويمنعوه، فأبوا ذلك وقالوا:

ـ «لولا صهرك لقاتلناك، فإنّه لا حاجة لنا في معاداة كسرىٰ.»

فأقبل ليس أحد من الناس يقبله، حتى نزل بذي قار، في بني شيبان سرّاً، فلقي هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود، وكان سيّداً منيعاً، وكان كسرى قد أطعم قيس بن مسعود الأُبلّة. فكره النعمان لذلك أن يدفع إليه أهله، وعلم أنّ هانئاً مانعه ممّا يمنع منه نفسه، فأودعه سلاحه، وتوجّه بنفسه إلى كسرىٰ، فلقي زيد بن عديّ على قنطرة ساباط.

فقال: «انجُ نُعيم!»

فقال: «أنت يا زيد فعلت هذا، أما والله لئن انفلتُّ لأفعلنّ بك ولأصنعنّ.»

فقال له زيد: «امض نُعيم! فقد ـ والله ـ وضعت لك عنده آخيّة[1] لا يقلعها المُهر[2] الأرن[3].»

فلما بلغ كسرى أنه بالباب، بعث إليه، فقيّده، وأنفذه إلى خانقين، فلم يزل في السجن حتى وقع الطاعون، فمات فيه. والناس يظنّون أنّه [252] مات بساباط، لبيت[4] قاله الأعشى. والصحيح ما قلناه.

إياس وما أدّىٰ إلى يوم ذي قار

وأمر كسرى إياس بن قبيصة الطائي أن يضمّ ما كان النعمان ينظر فيه، ويجمع ماله ويبعث به إليه. فبعث إياس إلى هانئ أن:

١. الآخية: عروة تثبت في الأرض أو الحائط لربط الدابة بها. الحرمة والذمة.

٢. المُهر: أول ما ينتج من الخيل والحُمُر الأهلية وغيرها.

٣. الأرن: النشط. يقال: شددت له آخيه لايحلُّها المُهر الأرن.

٤. والبيت كما في الطبري (٢ : ١٠٢٨):

فذاكَ وما أنجىٰ من الموتِ ربُّهُ بساباطَ، حتّى ماتَ وهو مُحَرْزَقُ

ـ «أرسل ما استودعك النعمان من السلاح وغيره.»
وكان ثمانمائة درع. فأبىٰ هانئ أن يسلّم خفارته.
فلمّا منعها هانئ غضب كسرىٰ، وأظهر أنّه يستأصل بكر بن وائل وعنده يومئذٍ النعمان بن زُرعة التغلبى ـ وهو يحبّ هلاك بكر بن وائل ـ فقال لكسرى:
ـ «يا خير الملوك، أدلّك على غرّة بكر بن وائل؟»
قال: «نعم.»
قال: «أمهلها حتّى تقيظ[١]، فإنّهم يجتمعون إلى مآلهم يقال له: ذوقار، فيتساقطون عليه تساقط الفراش في النار، فتأخذهم كيف شئت، وأنا أكفيكهم.»
فترجم له، فأقرّهم، حتى إذا قاظوا جاءت بكر بن وائل، فنزلت حِنو ذى قار، وهو على ليلة من ذى قار[٢]. فأرسل إليهم كسرى النعمان بن زُرعة أن: اختاروا واحداً من ثلاث خصال. فنزل النعمان على هانئ وقال:
«أنا رسول الملك إليكم، أخيّركم فى ثلاث [253] خصال: إمّا أن تُعطوا بأيديكم فيحكم الملك فيكم بما شاء، وإمّا أن تدعوا الديار، وإمّا أن تأذنوا بحرب.»
فتآمروا، فولّوا أمورهم حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العجلى، وكانوا يتيمّنون به، فقال:
ـ «لا أرى إلّا القتال، لأنّكم إن أعطيتم بأيديكم، قُتلتم، وسبيت ذراريكم، وإن هربتم قتلكم العطش، وتلقّاكم تميم فتهلككم، فآذنوا الملك بحرب.»
فبعث الملك كسرىٰ إلى إياس، وإلى الهامُرز[٣] التسترى، وكان مَسلحه[٤]

---

١. قاظ اليوم: اشتدّ حره. قاظ القوم بالمكان: أقاموا به أيام الحرّ.
٢. ذوقار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة (مع).
٣. Hamerz = .
٤. المسلح، والمسلحة: كلّ موضع مخافة يقف فيه الجند بالسلاح للمراقبة والمحافظة. القوم المسلّحون ←

بالقُطقُطانية[١] وإلى جلابزين[٢] وكان مسلحه ببارق. وكتب إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذى الجدّين ـ وكان كسرىٰ استعمله على طفّ سفوان[٣] ـ أن يوافوا إياساً، فاذا اجتمعوا، فإياس على الناس. وجاءت الفرس ومعها الجنود والفيول عليها الأساورة، وقد بعث النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ.

فقال ـ عليه السلام ـ:

ـ «اليوم انتصفت العرب من العجم[٤].»

فحُفظ ذلك اليوم، فإذا هو يوم الوقعة.

رأى جيّد رآه قيس بن مسعود لهانئ [254]

لمّا دنت جيوش الفرس بمن معهم انسلّ قيس بن مسعود ليلاً، فـأتىٰ هـانئاً فقال:

ـ «أعط قومك سلاح النعمان فيقووا، فإن هلكوا كان تبعاً لنفوسهم وكنت قد أخذت بالحزم، وإن ظفروا ردّوه عليك.»

ففعل، وقسم الدروع والسلاح فى ذوى القوى والجلد من قـومه، فـلمّا دنـا الجمع من بكر بن وائل، قال لهم هانئ:

ـ «يا معشر بكر، إنّه لا طاقة لكم بجنود كسرىٰ ومن معهم من العرب، فاركبوا الفلاة.»

فتسارع الناس إلى ذلك، فوثب حنظلة بن ثعلبة بن سيّار. فقال:

← فى ثغر، أو مخفر للمحافظة. ترجمة لكلمة «زينستان» الفارسية المركبة من «زين» (بالفهلوية: Zen) أى السلاح، و «ستان» أى المكان (حب).

١. القطقطانية: موضع قرب الكوفة (مع).

٢. ما فى الأصل ومط غير واضح وما أثبتناه يوافق الطبرى (٢ : ١٠٣٠).

٣. طفّ سفوان: ماء على قدر مرحلة من المربد بالبصرة به ماء كثير (مع).

٤. أنظر الطبرى (٢ : ١٠٣١)، والعقد (٥ : ٢٦٢).

ـ «إنّما أراد نجاتنا، فلم يزد على أن ألقانا في الهلكة.»

فردّ الناس، وقطع وضُن الهوادج لئلّا تستطيع بكر أن تسوق نساءها إن هربوا[١]، فسمّي: «مُقطّع الوضُن[٢].»

فضرب حنظلة على نفسه قبّة ببطحاء ذي قار، وآلىٰ: لا يفرّ حتى تفرّ القبّة. فمضى من مضى من الناس ورجع أكثرهم، واستقرى[٣] ماء لنصف شهر. فأتتهم العجم، فقاتلتهم بالحِنْو، فجزعت العجم من العطش، ولم تقم لمحاصرتهم فهربت إلى الجُبابات[٤] فتبعتهم[٥] بكر وعجل أوائل بكر، [255] فتقدّمت عجل، وأبلت يومئذٍ بلاءً حسناً، واضطمّت عليهم جنود العجم، فقال الناس: هلكت عجل. ثمّ حملت بكر، فوجدت عجلاً ثابتة تقاتل، وامرأة تقول:

إن يظفروا يجوّزوا[٦] فينا الغُرَلْ[٧] إيهاً[٨] فداءً لكم بني عِجِلْ

وتقول أيضاً:

إن تهزموا نُعانِق ونفرشِ النّمارق[٩]

---

١. الأصل غير واضح، وما أثبتناه يؤيده مط والطبري.

٢. في الطبري (٢ : ١٠٣١) : الوضُن: حُزم الرحال. ويقال: مقطّع البُطن. والبُطن: حُزم الأقتاب.

٣. مط: واستقى. في الطبري: واستقوا.

٤. الجبابات: موضع قريب من ذي قار كان بها يوم العرب (مع).

٥. مط والطبري: وتبعتهم.

٦. في الطبري: يحرّزوا.

٧. الغُرَل: جمع غُرلة: جلدة الصبي التي تقطع في الختان.

٨. إيهاً: اسم فعل معناه: لا تحدّث. وقد ترد بمعنى التصديق والرضا بالشيء. إيه: اسم فعل معناه الاستزادة من حديث أو عمل. أو الإسكات والكفّ بمعنى: حسبك.

٩. النمارق: جمع النمرقة، وهي الوسادة الصغيرة، أو الطنفسة فوق الرحل.

أو تـــــهربوا نُـــفارِق فـــراقَ غـيرِ وامـق[١]

فقاتلوهم بالجبابات يوماً، فعطش العجم، فمالوا إلى بطحاء ذى قار.
فأرسلت إياد إلى بكر سرّاً ـ وكانوا مع إياس عوناً على بكر ـ :
ـ «أيّ الأمرين أعجب إليكم: أن نطير تحت ليلتنا فنذهب، أو نقيم، ونفرّ حين تتلاقون؟»
قالوا: «بل تقيمون، فإذا التقى القوم انهزمتم بهم.»
فصبّحتهم بكر بن وائل والظُّعُن[٢] واقفة يذمُرن[٣] الرجال على القتل. فقال يزيد بن حمار السكوني وكان حليفاً لبني شيبان:
ـ «يا بني شيبان، أطيعوني واكمنوا[٤] لهم كميناً.»
ففعلوا، فكمنوا في مكان من ذى قار يسمّى إلى اليوم «الخَبْء[٥].» فاجتلدوا على[٦] ميمنة إياس بن قبيصة وفيها[٧] الهامُرز، وعلى ميسرته وفيها[٨] الجلابزين [256]، وعلى ميمنة هانئ بن قبيصة رئيس بكر يزيد بن مُسهر الشيباني، وعلى ميسرته حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العجلى وحنظلة يرتجز ويقول:

قد شاع أشياعُكُمُ فَجِدُّوا ما عِلّتي وأنا شيخٌ جَلْدُ[٩]

١. الوامق: المحبّ.
٢. الظُّعُن: جمع الظعينة: الراحلة، الهودج، الزوجة!
٣. ذمر: حضّ على الأمر.
٤. الأصل ومط والطبري: «واكمنوني لهم» فحذفنا «ني» وفقاً لابن الأثير (١: ٤٩٠).
٥. في الطبري: الجبّ، الحب. مط: حب. وفي الأصول: الخبيّ.
٦. في الطبري: وعلى.
٧. فيها: سقطت من الطبري.
٨. فيها: أيضاً سقطت من الطبري.
٩. في الطبري: مؤدٍ. أي: ذو أداة من السلاح تامة، أي: لا عذر لي.

والقوسُ فيها وَتَرٌ عَرُدٌّ[1]   مثل ذراعِ البكرِ أو أشدُّ

ثمّ صيّروا الأمر بعد هانئ إلى حنظلة. فمال إلى مارية ابنته وهي أمّ عشرة نفر، فقطع وضينها، فوقعت على الأرض، وقطع وضُن النساء، فوقعن على الأرض. ونادت بنت القرين الشيبانيّة حين وقعت النساء إلى الأرض:

وَيهاً بَني شيبانَ صفّاً بعد صفّْ   إن تُهزموا يُصبّغوا[2] فينا القُلَفْ[3]

فقطع سبعمائة من بني شيبان أيدي أقبيتهم من قبل مناكبهم، لتخفّ أيديهم بالضرب، فجالدوهم، ونادى الهامُرز لمّا رأى جدّ القوم وثباتهم للحرب وصبرهم للموت:

ـ «مَرْد وَمَرْد!»

فقال بُرد بن حارثة اليشكري: «ما يقول؟»

قال: «يدعو إلى البراز ويقول: رجل ورجل.»

فقال: «وأبيكم لقد أنصف.» [257]

وبرز له بُرد، فلم يلبث بُرد أن تمكّن من الهامرز فقتله، ونادى حنظلة بن ثعلبة:

ـ «يا قوم، لا تقفوا لهم فيستغرقكم النشّاب.»

---

۱. عردٌ: صلب شديد.

۲. مط: «يصنعوا» وقد زالت نقطتا الياء. ما في الأصل: «يضيّعوا» وقد يكون له معنى!. وما أثبتناه من الطبري (۲: ۱۰۳۳)، وابن الأثير (۱: ٤۹۰).

۳. القُلَف: جمع القلفة: الجلدة التي يقطعها الخاتن من ذكر الصبي. وقوله: يصبّغوا فينا القُلَف، أي: إن هزمتم افتضّوا أبكارنا.

فحملت ميسرة بكر ـ وعليها حنظلة ـ على ميمنة الجيش، وقد قتل الهامرز رئيسهم، قتله بُرد، وحملت ميمنة بكر ـ وعليها يزيد بن مسهر ـ على ميسرة الجيش، وعليهم الجلابزين، وخرج الكمين من خبء ذى قار من ورائهم [وعليهم][١] يزيد بن حمار، فشدّوا على قلب الجيش، وفيهم إياس بن قبيصة وولّت إياد منهزمة كما وعدتهم. وانهزمت الفرس واتّبعوهم يسعون، لم ينظروا إلى سلب ولا إلى شيء حتّى تعارفوا «بأدَم» ـ موضع قريب من ذى قار ـ فوجد ثلاثون فارساً، من عجل ومن سائر بكر ستون فارساً وقتلوا جلابزين، قتله حنظلة بن ثعلبة، وذلّت الفرس بعد ذلك، وذلّ أمرهم.

ذكر حيلة لأبرويز على ملك الروم

كان أبرويز وجّه رجلاً من جلّة أصحابه في جيش جرّار إلى بلاد الروم [258] فنكا فيهم، وبلغ منهم، وفتح الشامات وبلغ الدرب فى آثارهم فعظم أمره وخافه أبرويز. فكاتبه بكتابين أمره فى أحدهما أن يستخلف على جيشه من يثق به ويقبل إليه، ويأمره فى الآخر أن يقيم بموضعه، فإنّه لما تدبّر أمره وأجال الرأى، لم يجد من يسدّ مسدّه، ولم يأمن الخلل، إن غاب عن موضعه، وأرسل بالكتابين رسولاً من ثقاته وقال له:

ـ «أوصل الكتاب الأول بالأمر بالقدوم، فإن خفّ لذلك فهو ما أردتُ، وإن كره وتثاقل عن الطاعة، فاسكت عليه أيّاماً، ثمّ أعلمه أنّ الكتاب الثانى ورد عليك، وأوصله إليه ليقيم بموضعه.»

فخرج رسول كسرىٰ حتى ورد على صاحب الجيش ببلاد الشام، فأوصل الكتاب إليه، فلمّا قرأه قال:

---

١. فى الأصل ومط: «من ورائهم الجلابزين» فحذفنا «الجلابزين» وأثبتنا مكانها «وعليهم» كما فى الطبرى.

ـ «إمّا أن يكون كسرى قد تغيّر لى وكره موضعى، أو يكون قد اختلط عقله بصرف مثلى وأنا فى بحر العدوّ.»

فدعا الأصحاب وقرأ عليهم الكتاب فأنكروه. فلمّا كان بعد ثلاثة أيّام، أوصل الكتاب الثانى بالمُقام، وأوهمه أنّ رسولاً [259] ورد به. فلمّا قرأه قال: «هذا تخليط.» ولم يقع منه موقعاً، ودسّ إلى ملك الروم من ناظره فى إيقاع صلح بينهما، على أن يخلّى الطريق لملك الروم، حتّى يدخل بلاد العراق على غرّة من كسرى، وعلى أنّ لملك الروم ما تغلّب عليه من دون العراق، وللفارسى ماوراء ذلك إلى بلاد فارس.

فأجابه ملك الروم إلى ذلك وتنحّى الفارسى عنه فى ناحية من الجزيرة، وأخذ أفواه الطرق، فلم يعلم كسرى حتّى ورد خبر ملك الروم من ناحية قرقيسياء[1]، وكسرى غيرمعدّ، وجنده متفرّقون في أعماله. فوثب من سريره مع قراءة الخبر وقال:

ـ «هذا وقت حيلة لا وقت شدّة.»

وجعل ينكت فى الأرض مليّاً. ثمّ دعا برقّ، وكتب فيه كتاباً صغيراً بخطّ دقيق إلى صاحبه بالجزيرة يقول فيه:

ـ «قد علمتَ ما كنتُ أمرتك به من مواصلة صاحب الروم، وإطماعه فى نفسك وتخلية الطريق له حتّى إذا تولّج فى بلادنا أخذتُه من أمامه وأخذته أنت ومن ندبناه لذلك من خلفه، فيكون ذلك بواره. وقد تمّ فى هذا الوقت ما دبّرناه، وميعادك [260] فى الإيقاع به يوم كذا!»

ثمّ دعا راهباً كان فى دير بجانب مدينته وقال له:

ـ «أيّ جار كنت لك؟»

---

١. فى الأصل: ترقيسا. وقرقيسياء: بلد على الخابور عند مصبه، وهى على الفرات، جانب منها على الخابور، وجانب آخر فوق رحبة مالك بن طوق (مع) = Circesium (C.I.S).

قال: «أفضل جار.»

قال: «قد بدت لنا إليك حاجة.»

قال الراهب: «الملك أجلّ من أن يكون له حاجة إلى مثلي، ولكن عندي بذل نفسي في الذي يأمر به الملك.»

قال كسرى: «تحمل لي كتاباً إلى فلان صاحبي؟»

قال: «نعم.»

قال كسرى: «فإنّك تجتاز بأصحابك النصارىٰ، فأَخْفِه.»

قال: «نعم.»

فلمّا ولّىٰ عنه الراهب قال له كسرى:

ـ «أ علمت ما في الكتاب؟»

قال: «لا.»

قال: «فلا تحمله حتّى تعلم ما فيه.»

فلمّا قرأه أدخله في جيبه ثمّ مضى.

فلمّا صار في عسكر الروم ونظر إلى الصلبان والقسيسين وضجيجهم بالتقديس والصلوات احترق قلبه لهم وأشفق ممّا خاف أن يقع بهم. وقال في نفسه:

ـ «أنا شرّ الناس إن حملت بيدي حتف النصرانية، وهلاك هؤلاء الخلق.»

فصاح: «أنا لم يحمّلني كسرى رسالة ولا معي كتاب.»

فأخذوه ووجدوا الكتاب معه.

وقد كان كسرى وجّه رسولاً قبل ذلك اختصر الطريق حتّى مرّ بعسكر الروم وكأنّه رسول إلى كسرى [261] من صاحبه الذي طابق[1] ملك الروم ومعه كتاب

---

١. طابق: وافق، عاون.

فيه:

«إنّ الملك كان قد أمرني بمقاربة ملك الروم وأن أختدعه وأخلّى له الطريق، فيأخذه الملك من أمامه، وآخذه أنا من خلفه وقد فعلتُ ذلك، فرأيُ الملك في إعلامي وقت خروجه إليه.»

فأخذ ملك الروم الرسول وقرأ الكتاب وقال:

ـ «قد عجبت أن يكون هذا الفارسي أدهن[١] على كسرى.»

ووافاه أبرويز في من أمكنه من جنده، فوجد ملك الروم قد ولّى هارباً، فاتّبعه يقتل ويأسر من أدرك، وبلغ صاحب كسرى هزيمة الروم، فأحبّ أن يجلّى نفسه ويستر ذنبه لما فاته ما دبّر، فخرج خلف الروم الهاربين، فلم يسلم منهم إلّا القليل[٢].

ذكر سبب هلاك أبرويز وقتله

كان سبب هلاك أبرويز وقتله تجبّره، واحتقاره العظماء، وعتوّه. وذاك أنّه استخفّ بما لا يستخفّ به الملك الحازم. [262] وكان قد جمع من المال ما لم يجمعه أحد من الملوك/ وبلغت خيله قسطنطينية وإفريقية، وكانت له اثنتا عشرة ألف امرأة وجارية، وألف فيل إلّا فيل واحد، وخمسون ألف دابّة، ومن الجواهر، والآلات والأواني ما يليق بذلك. وأمر أن يحصى ما اجتبي من خراج بلاده وسائر أبواب المال سنة ثماني عشرة من ملكه. فرفع إليه: أنّ الذى اجتبي في تلك السنة من الخراج وسائر الأبواب ستمائة ألف ألف [٦٠٠،٠٠٠،٠٠٠] درهم، وأمر فحوّل إلى بيت مال بُني بمدينة طيسبون، من ضرب فيروز بن يزدجرد وقباذ بن

١. أدهن: أظهر خلاف ما أضمر، أو خدع وغشّ. أدهن عليه: أبقى. أدهن فلاناً: داراه ولاينه.

٢. إنّ ما ذكره مسكويه تحت عنوان «حيلة لأبرويز» لم نعثر على ذكر له عند كلّ من الطبري، والمسعودي، والدينوري، والثعالبي، وابن الأثير.

فيروز اثنتا عشرة ألف [١٢،٠٠٠] بدرة في أنواع من الجواهر والكُسيّ وغير ذلك. فعَتا واستهان بالناس والأحرار.

ويلغ من جرأته أنّه أمر رجلاً كان على حرس بابه الخاصّة يقال له: زاذانُفرّوخ، أن يقتل كلّ مقيّد في سجن من سجونه. فأحصوا، فبلغوا ستّة وثلاثين ألفاً. فلم يقدم زاذانفرّوخ على قتلهم، وتقدّم بالتوقّف عمّا أمر به كسرى وأعدّ عللاً له في ما أمر [263] به فيهم.

فكان هذا أحد ما كسب به كسرى عداوة أهل مملكته.

والثاني: احتقاره إيّاهم واستخفافه بعظمائهم.

والثالث: أنّه سلّط عِلجاً[١] يقال له «الفرّخان زاذ» عليهم، حتّى استخرج بقايا الخراج بعنف وعذاب، وكان ضمن من ذلك مالاً عظيماً، فسلّطه على الناس.

والرابع: إجماعه على قتل الفَلّ[٢] الذين انصرفوا إليه من قبل هرقل.

فمضى قوم من العظماء إلى عُقر بابل وفيه شيرى[٣] بن أبرويز مع إخوته بها، وقد وكّل بهم مؤدّبون وأساورة يحولون بينهم وبين براح ذلك الموضع، فأقبلوا به، ودخلوا مدينة بَهُرسير ليلاً. فخلّى عمّن كان في سجونها وأخرج من كان فيها، واجتمع إليه الفلّ الذين كانوا عملوا بأمر كسرى بقتلهم. فنادوا:

ـ «قباذ شاهنشاه».

وصاروا حين أصبحوا إلى رحبة كسرى، فهرب الحرس من قصر أبرويز، وانحاز كسرى بنفسه إلى باغ له قريب من قصره يدعى: «باغ الهندوان» فارّاً[٤]. فأُخذ وحُبس خارجاً [264] عن دار المملكة في دار رجل يقال له: مارِسْفَند[٥].

---

١. العلج: الجافّ الشديد.
٢. الفلّ: المنهزم. (للواحد والجمع).
٣. شيرى = شِيرَويَه، واسمه قباذ (الطبري ٢ : ١٠٤٣، ١٠٤٥) = قباذ الثاني (C.I.S).
٤. مط: هارباً.
٥. مط: ماراسفند.

إلى ان قتل، بعد حديث طويل[1] ومراسلات بينه وبين شيرى بمواطأة العظماء، وبعد تقريع كثير وتوبيخ على ما كان منه فى أشياء عدّدوها عليه. فأجاب عن الكلّ بجوابات مقنعة صحيحة لم نذكرها لخروجها عما بنينا عليه غرض هذا الكتاب.

وكان هلاكه بعد ثمان وثلاثين سنة، ولمضيّ اثنين وثلاثين سنة وخمسة عشر يوماً من ملكه، هاجر النبي ـ صلى الله عليه ـ من مكّة إلى المدينة.

وخلّف فى بيت المال يوم قتل من الورق أربعمائة ألف [٤٠٠،٠٠٠] بدرة، سوى الكنوز والذخائر والجواهر وآلات المُلك، وفى تلك الكنوز «كَنْزِباذْ آوَرْد»[2].

ثمّ ملك شيرويه بن أبرويز.

ذكر عاقبة شِيرُويَه بن أبرويز

قتل شيرويه أباه، وقتل سبعة عشر أخاً له ذوى آداب وشجاعة، [265] بمشورة وزرائه، فابتلى بالأسقام، وانتقض عليه بدنه، فلم يلتذّ بشيء من لذّات الدنيا، وجزع بعد قتل إخوته جزعاً شديداً، وكان يبكى إلى أن رمى بالتاج عن رأسه، وعاش ما عاش مهموماً حزيناً مدنفاً. وكان الطاعون فشا فى أيّامه، فأهلك أكثر الفرس. وكان ملكه ثمانية أشهر.

---

١. أنظر الطبرى ٢ : ١٠٤٤.

٢. گَنج يِ واذ آوَرْد، گنج باد آوَرْد (C.I.S). وگنج بادآورد [أى كنز أتت به الريح] اسم للحنِ من ألحان باربد. قيل: إنّ الموسيقار باربد (Barbad) لحّنه بعد أن أتى أبرويز بذلك الكنز (فم).

ثم ملك أُردشير بن شِيرُويَه

وكان طفلاً. وقيل: إنّه كان ابن سبع سنين، لأنّه لم يوجد غيره من أهل بيت المملكة. وحضنه رجل يقال له: مهاذَرجُشنَس[١]، فأحسن سياسة المُلك فبلغ من إحكامه ذلك أنه: لم يحسّ بحداثة أردشير سوى أنّه غلط في أمر شهربراز المقيم بثغر الروم.

ذكر غلطه في ذلك واستهانته بأمره حتي كان سبب هلاكه

كان شهربراز في جند ضمّهم إليه كسرى، وكان كسرى وشيرويه لايزالان يكتبان إليه في الأمر يهمّهما ويستشيرانه. فلمّا لم يشاوره عظماء [266] الفرس في تمليك أردشير، ولم يكاتبه أيضاً مهاذَرجُشْنَس، تعنّت الفرس، وتبغّىٰ عليهم، وبسط يده، وجعله سبباً للطّمع في المُلك، واستطال، واحتقر أردشير لحداثة سنّه، ودعا الناس إلى التشاور في المُلك. ثمّ أقبل بجنده وقد عمد مهاذرجشنَس، فحصّن سور مدينة طيسبون وأبوابها، وحوّل أردشير ومن بقي من نسل الملوك ونسائهم، وما كان في بيت مال أردشير من مال وخزائن وكراع، إلى مدينة طيسبون.

فلما ورد شهربراز أناخ إلى جانب مدينة طيسبون، وحاصر من فيها، ونصب المجانيق عليها، فلم يصل إليها. فلمّا رأى عجزه عن افتتاحها أتاها من قبل المكيدة، فلم يزل يخدع رجلاً يقال له: نِيوْخُسْرُو[٢]، ورجلاً كان اصبهبذ نيمرُوزْكان[٣]، حتى فتحا له باب المدينة، فدخلها، وأخذ جماعة من الرؤساء،

---

١. وجاء في الطبري: كانت مرتبته رئاسة أصحاب المائدة (٢ : ١٠٦٢).

٢. الأصل مهمل النقط. في الطبري: نيوخسرو. كان رئيس حرس أردشير (٢ : ١٠٦٢).

٣. في الأصل: نيمروذكان، بالذال المعجمة. في الطبري: نامدار جشنس بن آذرجشنس اصبهبذ نيمروز

فقتلهم، واستصفى أموالهم، وقتل أردشير بن شيرويه. وكان ملكه سنة وستة أشهر. [267]

ثم ملك شَهْرَبُراز

ولم يكن من أهل بيت المملكة ودعا نفسه ملكاً، ولمّا جلس على سرير المُلك ضرب عليه بطنه، وبلغ من شدّة ذلك عليه أنّه لم يقدر على اتيان الخلاء، فدعا بالطّست، فوُضع أمام ذلك السرير، ومُدّ فى وجهه ما ستره، فتبرّز فى الطّست!

ثم امتعض رجل يقال له «بُسفرُّوخ[١]» وأخوين له، من قتل شهربراز أردشير بن شرويه، وغلبته على المُلك، فتحالفوا على قتله. وكان من السنّة إذا ركب الملك أن يقف له حرسه سماطين عليهم الدروع، والبيض، والترسة، والسيوف، وبأيديهم الرماح، فإذا حاذاهم الملك وضع كل رجل منهم ترسه على قربوس سرجه، ثمّ وضع جبهته عليه كهيئة السجود. وإنّ شهربراز ركب بعد أن ملك بأيام، فوقف له بُسفرّوخ، ثم طعنه أخواه، فسقط عن دابته. [268] فشدّوا فى رجله حبلاً وجرّوه إقبالاً وإدباراً ساعة، وساعدهم قوم من العظماء، وقتلوا عدّة عاونوا فى الفتك بأردشير، وملّكوا بوران بنت كسرىٰ. وكان جميع ما ملك شهربراز أربعين يوماً.

وملكت بوران بنت كسرى أبرويز

فأحسنت السيرة، وبسطت العدل، وأمرت برمّ القناطر والجسور وإعادة العمارات، ووضعت بقايا الخراج، وكتبت إلى الناس عامّة كتباً تعلمهم ماهي عليه

← (نفس الصفحة).

١. في الطبري: فسفرّوخ بن ماه خُرشيدان (٢: ١٠٦٣) = Pus Farrukh (C.I.S).

من الاحسان، وأنّها ترجو أن يريهم الله من الرفاهة والاستقامة بمكانها، ومن العدل وحفظ الثغور ما يعلمون به أنه ليس ببطش الرجال تدوّخ البلاد، ولا ببأسهم تستباح العساكر، ولا بمكائدهم ينال الظفر، وتطفأ النوائر، ولكنّ ذلك كلّه بالله عزّوجلّ، وحسن النيّة، واستقامة التدبير. وأمرت بالمناصحة وحسن الطاعة، وردّت خشبة الصليب على ملك الروم. وكان ملكها سنة وأربعة أشهر. [269]

ثم ملك بعدها رجل يقال له: جُشْنَسْبَنْدَه(١)

وكان ملكه أقلّ من شهر، ولم يظهر له أثر تستفاد منه تجربة.

ثم ملكت آزرمی‌دُخت إبنة كسرى أبرويز

كانت آزرمی‌دُخت من أجمل نساء دهرها، وكان عظيم فارس يومئذ «فرّخ هُرْمُز» إصهبذ خراسان، وأرسل إليها: يسألها أن تزوّجه نفسها، فأرسلت إليه:

ـ «انّ التزويج للملكة غير جائز، وقد علمت أنّ إربك فيما ذهبت إليه، قضاء حاجتك منّي، فصرْ إليّ ليلة كذا وكذا.»

ففعل [فرّخ هرمز](٢)، وركب إليها في تلك الليلة، وتقدّمت آزرمی‌دخت إلى صاحب حرسها أن يترصّده في الليلة التي تواعدا الالتقاء فيها، حتّى يقتله. فنفذ صاحب حرسها لأمرها، وأمر به فجرّ برجله، وطرح في رحبة دار المملكة. فلمّا أصبح الناس ورأوه، علموا أنّه لم يقتل إلّا لعظيمة. فأمرت بجثّته فغيّبت.

وكان رستم بن فرّخ هرمز هذا عظيم البأس قويّاً في نفسه وهو [270] رستم صاحب القادسية الذي تولّى قتال العرب من قبل يزدجرد في ما بعد، وسنحكي

---

١. في الطبري: جُشْنَسده (٢ : ١٠٦٤)، وابن الأثير: خشنشبنده (١ : ٤٤٩)، والصحيح: جشنسبنده، معرّب گُشْنَسب بَنْدَك Gusnasp Bandak. وجاء في بعض الأصول: جشنسفنده.

٢. في الأصل: «خره هرمز» وما أثبتناه يؤيده الطبري ومط.

خبره هناك. فلمّا بلغه ما صنع بأبيه، أقبل في جند عظيم، حتى نزلوا المدائن، وسمل عيني آزرمي‌دُخت، وقتلها، وكان ملكها ستة أشهر. واختلف[١] فيمن ملك بعد آزرمي‌دخت، فقيل: أتي برجل من عقب أردشير بن بابك، كان ينزل الأهواز يقال له:

كسرى بن مِهْرجُشْنَس

فلبس التاج وقُتل بعد أيّام. ويقال: بل كان رجلاً يسكن ميسان[٢] يقال له:

فيروز

فلملّكوه كرهاً، وكان ضخم الرأس. فلما تُوّج قال:

ـ «ما أضيق هذا التاج!»

فتطيّر العظماء من افتتاح كلامه بالضيق، وقتلوه.[٣] ثم أتي برجل من أولاد كسرى كان لجأ إلى موضع من المغرب قريب من نصيبين يقال له: «حصن الحجارة» حين قتل شيرويه بن كسرى، يقال له:

فرّخ‌باذخُسْرُو[٤]

فانقاد له الناس طوعاً زمناً يسيراً، ثم استعصوا عليه وخالفوه [271] وكان

---

١. أنظر الطبري (٢ : ١٠٦٥).

٢. كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان (مع).

٣. وقتلوه بعد أن ملك أياماً (الطبري ٢ : ١٠٦٧).

٤. يذكر هذا الإسم هنا في ثلاثة مواضع. ففي مط: فرخ‌باذ خسرو، فرخ‌زاد خسرو، خره‌داد خسرو. في الطبري (٢ : ١٠٦٦): فرخ‌زاد خسروا (في المواضع الثلاثة). وأما عند البيروني وحسب الجداول الأربعة: فرخ‌زاد خسرو، خرّه‌زاد خسرو، خره‌داذ خسرو، فرخزاد خسرو (ص ١١٢ ـ ١٢٨) ـ وأما في الأصل فكما يراه القارئ. لأننا آثرنا إثباتها كما هي مع العلم بأنّ الصحيح هو أحد هذه الأشكال.

ملكه ستة أشهر، وكان أهل إصطخر ظفروا بيزدجرد بن شهريار بن أبرويز بإصطخر، قد هرب إليها حين قتل شيرويه إخوته، فلمّا بلغ عظماء إصطخر أنّ من بالمدائن خالفوا فرّخزادخسرو، أتوا بيزدجرد بيت نار يدعىٰ: «بيت نار أردشير»، فتوّجوه هناك وملّكوه وكان حدثاً. ثم أقبلوا به إلى المدائن، وقتلوا «خُرّهداد خُسرو» بحيل احتالوها له وساغ الملك ليزدجرد.

ملك يزدجرد بن شهريار بن أبرويز

فملك يزدجرد. غير أنّ ملكه كان عند ملك آبائه كالخيال وكالحلم، وكانت العظماء والوزراء يدبّرون ملكه لحداثة سنّه، وكان أشدّهم نباهة فى وزرائه[١] وأذكاهم رئيس الخَوَل[٢]. وضعف أمر مملكة فارس، واجترأ عليه أعداؤه من كلّ وجوه، وتطرّفوا[٣] بلاده، وأخربوا منها، وغزت العرب بلاده بعد أن مضىٰ من ملكه ثلاث أو أربع سنين، [272] وكان عمره كلّه إلى أن قتل بمرو عشرين سنة.

وله أحاديث وسير، سنذكرها بعد فراغنا من الأحوال التى تمّت من جهة الرأى والتدبير فى أيام النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ والخلفاء من بعده، إلى أن يتصل بذكر يزدجرد، وما كان منه[٤].

١. فى الأصل: «وزارته» وما أثبتناه من مط والطبرى.

٢. الخول: عطية الله من النعم، والعبيد، والإماء، وغيرهم من الأتباع والحشم.

٣. فى الطبرى أيضاً: تطرّفوا. مط: تطرّقوا.

٤. أنظر الطبرى ٢: ١٠٦٧.

عصر النبيّ (ص) والخلفاء الراشدين


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ممّا جرىٰ في غزوات الرسول (ص)

من تدابيره البشرية في غزوة الخندق

فممّا جرىٰ فى غزوات رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ من التدابير البشرية والحيل الإنسانية[1] ما كان منه ـ عليه السلام ـ فى غزوة الخندق. وذلك أنّ النبى ـ صلّى الله عليه ـ لمّا أجلى اليهود من بنى النضير عن ديارهم، اجتمع رؤساؤهم، وفيهم سلام بن أبى الحقيق وحييّ بن أخطب وغيرهما، فقدموا مكّة، ودعوهم إلى حرب رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وحزّبوا الأحزاب التى ذكرها الله تعالى وطمعوا فى استيصال النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ فنشطت قريش لذلك، وتذكّروا أحقادهم ببدر، فخرجوا وقائدهم أبوسفيان بن حرب. وخرجت غطفان وقائدهم عُيينة بن حصن [273] بن حذيفة بن بدر، وبنو فزارة[2] وغيرهم من الأحزاب.

فأشار سلمان على رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ لمّا رآه يهمّ بالمُقام بالمدينة، ويدبّر[3] أن يتركهم[4] حتّى يردوا، ثمّ يحاربهم على المدينة وفى طرقها، أن

١. فاستشار رسول الله (ص) سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا: «شيء تحبّ أن نصنعه، أم شيء أمرك الله به، أم شيء تصنعه لنا؟» قال: «بل [أصنعه]لكم، والله ما أصنع ذلك إلّا أنّى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالّبوكم من كلّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم...» (الطبرى ٣: ١٤٧٤؛ ابن الأثير ٢: ١٨١).

٢. مط: بنو قراوة.

٣. مط: بدو!

٤. مط: بتركهم!

يخندق. ففعل ذلك، ووردت قريش بعددها وعدّتها، ووردت الأحزاب، وكثر الناس والأعداء على رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وكان قد وادع بني قريظة وهم أصحاب حصون بالمدينة، وصاحب عقدهم وعهدهم كعب بن أسد القرظيّ.

احتيال حُيَيّ بن أخطب لكعب بن أسد

فاحتال حييّ بن أخطب لكعب بن أسد، حتى وصل إلى حصنه. فأغلق كعب دونه باب الحصن، وقال:

ـ «بيني وبين محمّد عقد، ولن أنقض ما بيني وبينه.»

قال: «افتح الباب أكلّمك.»

فقال: «ما أنا بفاعل.»

فقال: «والله إن أغلقت دوني الباب إلّا على جشيشتك[١] أن آكل معك منها.»

فأحفظ[٢] الرجل حتى فتح له. فقال:

ـ «ويحك يا كعب! جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنختهم بالمدينة. وجئتك [274] بغطفان على قادتها وسادتها، وقد عاهدوني ألّا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.»

فتأبّى كعب، ولم يزل به، يفتله[٣] في الذروة والغارب، حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً أن يكون معه. ونقض كعب ما بينه وبين رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وبرئ مما كان عليه له[٤].

---

١. الجشيشة: طعام مطبوخ من الحنطة المطحونة طحناً جليلاً، بلحم أو تمر.

٢. أحفظه: أغضبه.

٣. مط: يقبله! قوله: «لم يزل به يفتله في الذروة والغارب» أي مازال يخادعه ويتلطّفه حتى أجابه. وأصله أن الرجل إذا أراد تأليف البعير الصعب يمرّ يده عليه ويمسح غاربه ويفتل وبره حتى يستأنس ويوضع فيه الزمام (أيام العرب: ٦٠).

٤. مط: عليه وله.

فلما صحّ عند رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ ذلك، ضاق ذرعاً وخشي أن يفتّ ذلك في أعضاد المسلمين. فعظُم البلاء، واشتدّ الخوف، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظنّ المؤمنون كلّ ظنّ ونجم النفاق من المؤمنين، وكثر الخوض.[١]

ما كان من نُعيم بن مسعود من تخذيل وخداع

وأقام رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وأصحابه في ما وصف الله من الخوف والشدّة، لتظاهر الأعداء عليهم، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى أتاه نعيم بن مسعود بن عامر بن أُنيف[٢] بن ثعلبة الغطفاني مسلماً، فقال:

ـ «يا رسول الله، إنّي قد أسلمت وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي، فأمرني بما شئت، أنته إليه.»

فقال رسول الله [275] ـ صلّى الله عليه ـ:

ـ «إنّما أنت رجل واحد فينا، وإنّما غناؤك[٣] أن تخذّل[٤] عنّا ما استطعت، وعليك بالخداع، فإنّ الحرب خدعة.»

فخرج نعيم بن مسعود حتّى أتىٰ بني قريظة وكان نديماً لهم، فقال:

ـ «يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إيّاكم وخاصّة ما بيني وبينكم.»

قالوا: «صدقت، لست عندنا بمتّهم.»

فقال لهم:

ـ «إنّ قريشاً وغطفان ومن التفّ معهم، جاءوا لحرب محمد، فإن ظاهرتموهم

---

١. الخوض: التفاوض في الحديث.

٢. مط: أسف.

٣. غناؤك: نفعك وكفايتك.

٤. مط: تخدل. تخذّل عنّا: أي تدخل بينهم حتى يخذل بعضهم بعضاً.

عليه، فليسوا [كهيئتكم] [١]، وذاك أنّ البلد بلدكم، به أموالكم وأولادكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحوّلوا إلى غيره. فأمّا قريش وغطفان فإنّ أموالهم وأبناءهم ونساءهم ببلاد غير بلادكم، فإن رأوا نُهزة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل، والرجل [٢] ببلادكم لا طاقة لكم به إن [٣] خلا بكم فلا تقاتلوا القوم حتّى تأخذوا منهم رُهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن يقاتلوا معكم محمداً حتي يناجزوه [٤].»

قالوا: «لقد أشرت علينا [276] برأى ونُصح.»

ثمّ خرج حتى أتىٰ قريشاً. فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه:

ـ يا معشر قريش! قد عرفتم ودّى إيّاكم وفراقى محمداً، وقد بلغنى أمر رأيت حقّاً عليّ أن أبلغكم، نصحاً لكم، فاكتموا عليّ.»

قالوا: «نفعل.»

قال: «اعلموا أنّ معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على ما صنعنا [٥]، فهل يرضيك عنّا أن نأخذ من القبيلتين: من قريش وغطفان، رجالاً من أشرافهم وكبرائهم ونعطيكم [٦] فتضرب أعناقهم، ثمّ نكون معك [٧] على من بقى منهم. فإن بعثت إليك [٨] يهود يلتمسون منكم رُهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً.»

فوقع ذلك من القوم.

١. مط: كهيئاتهم، وفى بعض الأصول: فليسوا مثلكم. ابن الأثير (٢ : ١٨٣): ليسوا كأنتم. في الأصل: «كهيتهم» وصححناها كما فى الطبرى ٣ : ١٤٨.

٢. والرجل: غير موجود فى مط.

٣. فى الأصل: وإن. والواو ليست لا فى مط ولا فى الطبرى.

٤. مط: تناجزوه. المناجزة: المنازلة والمقاتلة.

٥. وفى الأصل: «ما صنعوا» وما أثبتناه من مط.

٦. مط: ونعطيك إياهم.

٧. مط: معكم.

٨. مط: تبعث إليكم.

وخرج حتّى أتىٰ غطفان. فقال:

ـ «يا معشر غطفان! أنتم أصلي وعشيرتي، وأحبّ الناس إليّ، ولا أراكم تتّهموني.»

قالوا: «صدقت.» قال: «فاكتموا عليّ.» قالوا: «نفعل.»

ثمّ قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذّرهم مثل ما حذّرهم.

إتّفاق جيّد

فكان من الإتّفاق الجيّد [277] أن أرسل بعد ذلك أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمةَ بنَ أبي جهل في نفر من قريش وغطفان. فقال لهم:

ـ «إنّا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخفّ والحافر[١]. فاغدوا[٢] للقتال حتّى نناجز محمداً ونفرغ ممّا بيننا وبينه.»

فأرسلوا إليه:

ـ «إنّ اليوم السبت ـ وكان اتّفق ذلك ـ وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ومع ذلك فلسنا نقاتل معكم حتّى تعطونا رُهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتّى نناجز محمداً. فإنّا نخشىٰ ـ إن ضرستكم الحرب واشتدّ عليكم القتال ـ أن تشمّروا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك من محمد.»

فلمّا رجعت الرسل بالذي قالت بنو[٣] قريظة، قالت قريش وغطفان:

ـ «والله إنّ الذي حدّثكم نعيم بن مسعود لحقّ.»

فأرسلوا إلى بن قريظة:

ـ «إنّا والله ما ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا. فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.»

---

١. الخفّ والحافر: الإبل والخيل (لغ).

٢. في الأصل: «فأعدّوا» في مط والطبري: فاغدوا.

٣. «بنو»: سقطت من الأصل ومط.

فقالت بنو قريظة[١] حين أدّت إليهم الرسل:

ـ «إنّ الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود [278] لحقّ. ما يريد القوم إلّا أن يقاتلوا. فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا[٢] إلى بلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل.»

فأرسلوا إلى القوم:

ـ «إنّا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُناً.»

وتخاذل القوم. واتّهم بعضهم بعضاً، وذلك فى زمن شات[٣] وليال باردة كثيرة الرياح تطرح[٤] أبنيتهم، وتكفأ[٥] قدورهم. وضاق ذرع القوم وبلغ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ اختلاف القوم وما هم فيه من الجهد. فدعا حذيفة بن اليمان، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً. فذهب حذيفة بن اليمان، حتّى دخل فى القوم. قال حذيفة: فذهبت فرأيت من الرياح أمراً هائلاً لا يقرّ لهم ناراً ولا بناءاً.

فقام أبو سفيان ابن حرب، فقال:

ـ «يا معشر قريش، لينظر امرؤ جليسه.»

قال: فبادرت وأخذت بيد الرجل الذى إلى جانبى، فقلت: «من أنت؟» قال: «أنا فلان بن فلان.»

ثم قال أبو سفيان:

ـ «إنكم يا قوم ما أصبحتم بدار مُقام. لقد هلك الكراع[٦] والخفّ، وأخلفتنا [279] بنو قريظة، وبلغنا عنهم ما نكره، ولقينا من الجهد والشدّة وهذه الريح ما

---

١. وفى الأصل: «بنو قريظ» وما أثبتناه يوافق مط.

٢. مط: تشمّروا.

٣. شتا اليوم، أو الشتاء: اشتدّ برده.

٤. مط: طرح.

٥. تكفأ: تقلب.

٦. الكراع: الخيل.

ترون. فارتحلوا، فإنّي مرتحل.»

ثم قام إلى جمله، وقام الناس معه. وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانصرفوا إلى بلادهم، وتفرّق ذلك الجمع من غير قتال، إلّا ما كان من عدّة يسيرة اتّفقوا على الهجوم على الخندق، يحكى أن فيهم عمرو بن عبد ودّ، فقُتلوا. أما عمرو فقتله عليّ بن أبى طالب مبارزة لما اقتحم[١] عليه الخندق. وانتقض ذلك الجمع والتدبير كلّه.

ومن ذلك ما كان يوم حنين
وفيه ذكر لدُريد بن الصِّمّة وبعض آرائه

ومن ذلك أنّه لما افتتح رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ مكّة، وأقام خمسة عشر يوماً، جاءت هوازن وثقيف لمحاربته، فنزلوا بحنين. وذاك أنّهم كانوا قبل ذلك قد جمعوا له حين سمعوا بمخرجه من المدينة، وظنّوا أنه يريدهم. فلمّا قصد مكّة أقبلوا عامدين إليه، ومعهم الأموال والنساء والصبيان، ورئيس هوازن يومئذ مالك بن عوف. وأقبلت معهم ثقيف، ونصر[٢]، وجُشَم. [280] ولم يشهد معهم من هوازن كعب ولا كلاب. وفى جُشم دريد بن الصمّة [وهو][٣] شيخ كبير، لا شيء فيه إلّا أنّهم يتيمّنون برأيه ومعرفته بالحرب ودُربته بها.

فلما نزل بأوطاس، اجتمع الناس إلى رئيسهم مالك بن عوف وفيهم دريد بن الصمّة يقاد به وهو فى شجار له. فقال:

ـ «بأىّ وادٍ أنتم؟»

قالوا: «بأوطاس.»

---

١. كذا في مط: «اقتحم عليه الخندق». (أنظر: الطبرى ٣: ١٤٧٥).

٢. مط: مضر!

٣. ما بين [ ] تطلّبه السياق فزدناه.

قال: «نعم، مجال الخيل، لا حَزن[١] ضَرِس، ولا سهل دَهِس[٢]. مالى أسمع رُغاء[٣] البعير، ونُهاق الحمير، ويُعار[٤] الشاء، وبُكاء الصغير؟»

فقالوا له: «ساق مالك بن عوف مع الناس أبناءهم، ونساءهم، وأموالهم.»

فقال: «أين مالك؟»

فدُعى له، فقال:

ـ «يا مالك، إنّك قد أصبحت رئيس قومك، وإنّ هذا يوم له ما بعده من الأيام، مالى أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟»

قال: «سقت مع الناس أبناءهم، ونساءهم، وأموالهم.»

قال: «ولِمَ؟»

قال: «أردت أن أجعل خلف كلّ رجل أهله وولده وماله، ليقاتل عنهم.»

قال: فأنقضَ[٥] به. ثم قال:

ـ «راعي ضأن [281] والله. ويحك! هل يردّ المنهرم شيء؟ إنّها إن كانت لك، لم ينفعك إلّا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك، فضحت فى أهلك ومالك. ما فعلتْ كعب وكلاب؟»

قالوا: «لم يشهدها منهم أحد.»

قال: «غاب الجدّ والحدّ؛ لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب. فمن شهدها منكم؟»

١. الحزن من الأرض ما غلظ وخشن. والضرس منها ما فيه الحجارة كأنها أضراس.

٢. الدهِس والدهْس: المكان اللين ليس برمل ولا تراب ولا طين (لع).

٣. الرغاء: صوت الإبل.

٤. وفى مط والأصل: النعار، وهو تصحيف وما أثبتناه هو من سائر الأصول. اليعار: صوت الغنم أو المعزى وقيل: الشديد من أصوات الشاء (لع). والنعار: التصويت بالخيشوم.

٥. فأنقض به: زجره، من الانقاض، وهو أن تلصق لسانك بالحنك الأعلى، ثم تصوت فى حافتيه من غير أن ترفع طرفه عن موضعه.

قالوا: «عمرو بن عامر، وعوف بن عامر.»

قال: «[ذانك][١] الجذعان من بني عامر لا ينفعان ولا يضرّان. يا مالك إنّك لن تصنع بتقديم البيضة، بيضة هوازن، إلى نحور الخيل شيئاً. إرفعهم إلى متمنع بلادهم وعليا قومهم[٢]، ثمّ الق هؤلاء الصبّاء[٣] على متون الخيل، فإن كانت لك، لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك قد أحرزت أهلك ومالك.»

قال: [والله لا أفعل ذلك، إنّك قد كبرت وكبر علمك][٤]، والله لتطيعنّي يا معشر هوازن، أو لأتّكئنّ على سيفي هذا حتي يخرج من ظهري».

وكره أن يكون فيها لدريد ذكر ورأي.

فقال دريد: «هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.»

يا ليتني فيها جَذَعْ [282] أخُبُّ فيها وأضَعْ[٥]
أقودُ وَطْفاءَ الزَّمَعْ كأنّها شاةٌ صَدَعْ[٦]

وكان دريد رئيس قومه بني جُشم وسيّدهم وأوسطهم مع شجاعته ودربته وتجاربه، ولكن السنّ أدركته حتى فني.

ثم قال مالك للناس:

١. في النص وفي مط: «ذلك» وهو خطأ. وما أثبتناه من الطبري.

٢. مط: وعلياء قريهم.

٣. الصبّاء: جمع الصابئ. يريد المسلمين، كانوا يسمونهم بهذا الاسم لأنهم عندهم صبئوا عن دينهم، أي خرجوا من دين الجاهلية إلى الاسلام (العقد الفريد ١: ١٣٣ ـ الحاشية).

٤. تكملة من الطبري والعقد.

٥. الجذع: الشاب. أخُبّ: أعدو. أضع: أسرع في سيري.

٦. الوطفاء: الطويلة الشعر. والزمع: الشعر الذي فوق مربط قيد الدابة. يريد فرساً صفتها هكذا. والشاة (هنا): الوعل. والصدع من الأوعال والظباء والحمر: الفتىٰ الشاب القوى (العقد ١: ١٣٢ ـ الحاشية).

ـ «إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون[١] سيوفكم، وشدّوا شدّة رجل واحد عليهم.»

فلمّا استقبل خيل رسول الله، صلّى الله عليه ـ وكان يومئذ اثنى عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف فتحوا مكة، وألفان ممن أسلم وانضاف إليهم بوادى حنين ـ انحدروا فى وادٍ من أودية تهامة أجوف، إنّما ينحدرون[٢] فيه انحداراً، وذلك فى عماية[٣] من الصبح، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادي[٤]، فكمنوا فى شعابه وأحنائه ومضايقه، وتهيّأوا وأعدّوا. فما راع خيلَ رسول الله ـ عليه السلام ـ وهم منحطّون، إلّا الكتائب، قد شدّت عليهم، فانشمروا[٥] لا يلوى أحد على أحد. وانحاز رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ ذات اليمين وصاح:

ـ «أيّها الناس، أين؟ هلمّوا إليّ، أنا رسول الله، [283] أنا محمد بن عبدالله.»

وبقى مع النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ نفر من أهل بيته، فيهم عليّ بن أبى طالب، والعباس، وابنه الفضل، وجماعة من المهاجرين[٦].

فقال رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ للعباس:

ـ «اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمُرة[٧].»

فأجابوه من كل ناحية وحملوا على الناس فكانت إيّاها.[٨] وقتل عليّ بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ صاحب الراية، وقُتل خيل مالك بن عوف كلّ مقتلة، وغنم المسلمون تلك الأموال، وسبوا النساء والأولاد، وقتل دريد. وكان عدّة السبى يومئذ من هوازن ستّة آلاف من النساء والأولاد.

فلمّا قدمت وفود هوازن على النبيّ ـ عليه السلام ـ مسلمين، أعتق لهم

١. الجفون: جمع الجفن والجفن، أى: الغمد.

٢. مط: انحدورا.

٣. فى عماية من الصبح: فى ظلام منه.

٤. مط: وادٍ.

٥. إنشمر: مرّ جاداً ومضى: هرب.

٦. وفى بعض الأصول: والأنصار.

٧. مط: الشجرة. والسمرة: الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية.

٨. الضمير فى «كانت» يرجع إلى «الحملة» المفهومة من «حملوا» أى كانت هى هى، وانتهى كلّ شىء (أنظر اللسان. «إيّا»).

أبناءهم ونساءهم كلّهم، فى حديث طويل.

ومن ذلك
ما كان بعد ظهور العنسيّ الكذّاب

ومن ذلك: أنّه لما ظهر الأسود العنسي الكذّاب متنبّئاً باليمن وحضرموت وصنعاء، حاربه شهر بن باذام[١]، وكان رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ استخلفه بعد أبيه باذام على الأبناء[٢] وعلى بعض أعمال [284] أبيه. فهزمه الأسود، وفرّق الأبناء عنه، وظفر به بعد، فقتله وغلب على صنعاء، وهرب عمّال رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وجعل أمر الأسود الكذّاب يعلو ويستطير استطارة الحريق. وكان جعل عمرو بن معديكرب خليفته فى مَذحِج بعد أن ارتدّ عمرو، وجعل أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الديلمي وداذويه، وكان شهر قد تزوّج بنت عمّ فيروز، وكانت جميلة، فلمّا قتل شهر تزوّج بها الأسود.

فأنفذ رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ إلى فيروز، وإلى جُشْنَس، وغيره من الأبناء يأمرهم بالقيام على دينهم، وأن ينهضوا فى الحرب والعمل فى الأسود، إما غيلة وإمّا مصادمة. فألقى كتاب[٣] رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ إلى أصحابه، تغيَّرَ[٤]

١. مط: بالخام! وباذام (=باذان) كان عامل كسرى على اليمن وأسلم فى السنة العاشرة من الهجرة.
٢. الأبناء: أبناء فارس، أو أبناء اليمن، اسم أطلق على أخلاف جنود الفرس الذين بعثهم أنوشروان إلى اليمن، ليدفعوا الأحباش من الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، ثم أقاموا فى اليمن بأمر من أنوشروان.
٣. غير واضح فى الأصل وفى مط أيضاً.
٤. مط: «بغير»! وفى الطبري: قال عبيدالله عن جشيش بن الديلمي (كذا) قال: قدم علينا وبر بن يُحنّس بكتاب النبى (ص) يأمرنا فيه بالقيام على ديننا والنهوض فى الحرب والعمل فى الأسود إمّا غيلة وإمّا مصادمة، وأن نبلغ عنه من رأينا أن عنده نجدة وديناً. فعملنا فى ذلك، فرأينا أمراً كثيفاً ورأيناه قد تغيّر لقيس بن عبد يغوث وكان على جنده، فقلنا: يخاف على دمه، فهو لأوّل دعوة. وأنبأناه الشأن وأبلغناه عن النبيّ (ص) فكأنما وقعنا عليه من السماء وكان فى غمّ وضيق، فأجابنا إلى ما أحببنا..» (الطبرى ٤:١٨٥٦).

الأسود لقيس بن عبد يغوث.

فقال أصحاب[١] رسول الله ـ عليه السلام ـ:

ـ «إنّ قيساً يخاف على دمه، وهو لأوّل دعوة، فهلمّ ندعوه[٢].»

فاجتمعوا لذلك [285] ثم دعوه، وأبثّوه أمرهم، وأبلغوه عن النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ وكأنّما وقعوا عليه من السماء، لأنّه كان فى غمّ وضيق بأمره، فأجابهم إلىٰ ما أحبّوا.

ثمّ إنّ عامر بن شهر بن باذام[٣] اعترض[٤] في قوم منهم: ذو مرّان، وذو الكلاع، وذو ظليم. فكاتبوا أصحاب النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ وبذلوا لهم النصر. وكان النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ قد كاتبهم، فكان أصحاب النبيّ فى سرّ قد اتّفقوا عليه، فأجابوا القوم بالتوقّف. وذاك أنّ الأمر كان استتبّ للأسود واستفحل، فهابوه هيبة شديدة.

ثمّ إنّه دخل جُشْنَس الديلمى على آزاذ ـ وهى امرأة الأسود التى خلف عليها شهرَ بن باذام ـ فقال:

ـ «يا ابنة عمّ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك. قتل زوجك وطأطأ[٥] في قومك القتل، وسفك بالإباحة[٦] دماء من بقي منهم، وفضح النساء، فهل عندك

١. مط: «فقال رسول الله» بدون «أصحاب».

٢. والكلمة مهملة فى كلتا النسختين وقرأناها حسب السياق.

٣. مط: «بالخام» وهو خطأ.

٤. وفي الطبري: ... إذ جاءنا اعتراض ذى زود، وذى الكلاع، وذى ظُليم عليه، وكاتبونا وبذلوا لنا النصر.. (٤ : ١٨٥٧).

٥. طأطأ فى قتلهم: بالغ فيه.

٦. مط: بالاجابة!

ممالأة[١] عليه؟»

فقالت: «وعلى أيّ أمره؟»

قال جُشْنَس: فقلت: «إخراجه.»

فقالت: «أو قتله؟»

قلت: [286] «أو قتله.»

قالت: «نعم. والله، ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه، ما ينتهي عن حرمة لله[٢]. فإذا عزمتم فأعلموني أخبركم بمأتى هذا الأمر.»

قال جُشْنَس:

فأخرجُ فإذا فيروز وداذويه ينتظراني، وإذا قيس قد دعاه الأسود، فدخل إليه في عشرة من مذحج وهمدان.

فقال له الأسود: «يا قيس! ألم أفعل بك، ألم أصنع؟»

يعتدّ عليه بنعمته.

فقال: «بلى.»

قال: «فإنّه يقول ـ يعني الشيطان الذي معه ـ:

ـ «إنّ قيساً على الغدر بك، إيه، يا سوءة، يا سوءة، إلّا تقطع من قيس يده، يقطع قنّتك العليا.»

حتى ظنّ أنه قاتله. فقال:

ـ «كذبك وذي الخمار، فإمّا قتلتني، فإنّها موتة مريحة أهون عليّ من موتات أموت بها كلّ يوم، خوفاً وفرَقاً، وإمّا صدّقتني. فوالله لأنت أهيب وأجلّ في نفسي، من أن أحدّثها بغدر لك.»

فرقّ له، وأخرجه.

---

١. الممالأة: المعاونة والمساعدة.

٢. في الطبري: ما يقوم لله على حقّ، ولا ينتهي له عن حرمة (٤ : ١٨٥٨).

قال:

فخرج قيس علينا وطوانا، غير أنّه قال: [287]

ـ «اعملوا عملكم.»

ثمّ خرج الأسود علينا، فقمنا مثولاً بين يديه بالباب، فقال:

ـ «يا فيروز، أحقّ ما بلغني عنك؟ ـ وهيّأ له الحربة ـ لقد هممت أن أنحرك.»

فقال فيروز:

ـ «إخترتنا أيها الملك لصهرك، وفضّلتنا على الأبناء، ولو لم تكن نبيّاً ما بعنا نصيبك ونصيبنا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر آخرة وأولىٰ، لا تقبلنّ علينا أمثال ما يبلغك، فإنّا بحيث تحبّ.»

ثمّ ذبح الأسود مئة من بين بقرة وبعير غير محبّسة ولا معقّلة، بحربته، وقال لفيروز:

ـ «اقسمْ هذه، فأنت أعلم بمن هاهنا.»

قال فيروز[1]:

ففعلت هذا ولحقته قبل أن يصل إلى داره، فإذا رجل يسعى إليه بي، فأستمع له وهو يقول:

ـ «أنا قاتله غداً وأصحابه، فاغد عليّ.»

ثمّ التفت فإذا هو بفيروز، فقال:

ـ «مه؟»

---

١. وفي الطبري مكان «قال فيروز» إلى «بهزيمتنا»: «فاجتمع إليّ أهل صنعاء، وجعلت آمر للرهط بالجزور، ولأهل البيت بالبقرة، ولأهل النخلة بعدّة، حتى أخذ كلّ ناحية بقسطهم. فلحق به قبل أن يصل إلى داره وهو واقف على رجل يسعى إليه بفيروز. فاستمع له، واستمع له فيروز وهو يقول: أنا قاتله غداً وأصحابه فاغدُ عليّ. ثم التفت فاذا به. فقال: مه! فأخبره بالذى صنع. ثم ضرب دابته داخلاً. فرجع إلينا. فأخبرنا الخبر. فأرسلنا إلى قيس فجاءنا. فأجمع ملؤهم أن أعود إلى المرأة، فأخبرها بعزيمتنا...» (الطبري ٤: ١٨٥٩ـ١٨٦٠).

قال: «قد قسمتها كما أمرتنى.»

قال: «أحسنت».

وضرب دابّته ودخل. فرجع فيروز إلى أصحابه، فأخبرهم بالخبر.

قال جُشْنَس:

فأرسلنا إلى قيس فجاءنا. فاجتمع [288] مَلَؤهم أن أعود إلى المرأة فأخبرها بعزيمتنا لتشير علينا برأيها. فأتيت المرأة وقلت:

ـ «ما عندك؟»

قالت: «هو متحرّز محترس، وليس من القصر شيء إلّا والحرس محيطون به غير هذا البيت، فإنّ ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه، فإنّكم من دون الحرس، وليس دون قتله شيء.»

وقالت: «إنّكم ستجدون فيه سلاحاً وسراجاً وهو علامة لكم.»

فخرجت من عندها وتلقّانى الأسود خارجاً من بعض منازله، فقال:

ـ «ما أدخلك عليّ؟»

ووجأ رأسى حتى سقطتُ، وكان شديداً، وصاحت المرأة ـ فأدهشته عنّى، ولولا ذلك لقتلنى ـ وقالت:

ـ «ابن عمّى جاءنى زائراً، فقصّرتَ بى.»

فقال: «اسكتى لا أبا لكِ! فقد وهبتُه لكِ.»

فتحاملتُ وأتيت أصحابى فقلت:

ـ «النجاء، الهرب.»

وأخبرتهم الخبر. فإنّا على ذلك حيارىٰ إذ جاءنى رسولها يقول:

ـ «لا تدعنّ ما فارقتك عليه، فإنّى لم أزل به حتى اطمأن [289] واعتذر.»

فقلنا لفيروز: «إيتها وتثبّت، فأمّا أنا فلا سبيل لى إلى الدخول بعد النهى.»

ففعل، وكان فيروز أفطن منّا، فلما أخبرته الخبر قال:

ـ «وكيف ننقب[١] على بيوت مبطّنة الأبواب؟ ينبغى لنا أن نقلع بطانة الباب.»

فدخلا، فاقتلعا البطانة، ثمّ أغلقاه وجلسا عندها كالزائر. فدخل عليها فاستخفّته غيرة، وأخبرته برضاع وقرابة مثلُها[٢] محرّم. فصاح به وأخرجه وجاء بالخبر. فلمّا أمسينا عملنا فى أمرنا وقد كنّا واطأنا أشياعنا، ولكن عجّلنا عن مراسلتهم. فنقبنا البيت من خارج، ثمّ دخلناه، وفيه سراج تحت جفنة[٣]، واتّقينا بفيروز لأنّه كان أنجدنا وأشدّنا، فقلنا:

ـ «انظرْ ماذا ترىٰ وأين موضعه؟»

فدخل ونحن بينه وبين الحرس الذين معه فى مقصورته. فلمّا دنا من باب البيت سمع غطيطاً شديداً، فاذا المرأة جالسة. فلمّا قام على الباب فتح عينيه فقال أيضاً:

ـ «مالى ومالك يا فيروز!»

فخشى أن يرجع لأخذ السلاح وإعلامنا فنهلك وتهلك المرأة. فعاجله ـ وكان مثل الجمل ـ فأخذ برأسه فدقّ [عنقه][٤] [290] ووضع ركبته فى ظهره فدقّه، ثم قام ليخرج. فأخذت بثوبه وهى ترى أنّه لم يقتله، وقالت:

ـ «أين تدعنى؟»

قال: «لا بأس، أخبر أصحابى وأعود معهم.»

فأتانا وقمنا معه فأردنا حزّ رأسه. فتحرّك واضطرب فلم نضبطه. فقلت:

ـ «اجلسوا على صدره.»

فجلس الإثنان على صدره وأخذت المرأة بشعره، وسمعنا بربرة، فألجمته

---

١. مط: «ينقب». ٢. فى الطبرى: منها.

٣. نقطة الجيم غير واضحة. فتقرأ «جفنة» و«حفنة» مط: «حفنته»! وما أثبتناه يؤيده الطبرى.

٤. فى الأصل: فدقّ، فى مط: فدققة. و«عنقه» من ابن الأثير.

بميلاة[١]، وأمرّ الشفرة على حلقه، فخار كأشدّ خوار من ثور سمعته قطّ.

فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة:

ـ «ما هذا، ما هذا؟»

فقالت المرأة: «النّبى يوحىٰ إليه، إهدأوا!»

[فخمد[٢]]. ثم سهرنا[٣] ليلتنا ونحن نأتمر: كيف نخبر أشياعنا ليس[٤] غيرنا ثلاثتنا: أنا وفيروز وقيس، فأجمعنا على النداء بشعارنا الذى بيننا وبين أشياعنا، ثم ننادي الأذان. فلما طلع الفجر فعلنا ذلك، فتجمّع الحرس فناديتهم:

ـ «أشهد أنّ محمداً رسول الله وأنّ عبهلة كذّاب.»

وألقينا إليهم برأسه، وخلصت صنعاء والجَنَد[٥]، وأعزّ الله الإسلام، وتنافسنا الإمارة، وتراجع أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ إلى أعمالهم [291] فاصطلحوا على معاذ، فكان يصلّى بنا. وكتبنا إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ بالخبر، وذلك فى حياته فقدمت رسلنا وقد مات النبىّ ـ صلّى الله عليه ـ صبيحة الليلة التى فتكنا فيها بالأسود فأجابنا أبو بكر رضى الله عنه.

أسماء كتّاب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم

كان علىّ بن أبى طالب وعثمان بن عفّان يكتبان الوحى، فإن غابا كتبه أبىّ بن

١. مط: ميلاء. المئلاة: خرقة الحائض: الخرقة تمسكها النائحة وتشير بها.

٢. فى الأصل ومط: «فحمد» بالهاء المهملة. في الطبري: «فخمد» بالخاء المعجمة. وما لا يناسب السياق: «فخمدوا» كما فى ابن الأثير ٢: ٣٤٠.

٣. «سهرنا» من مط. وفى الأصل «شمّرنا». شمّر للشيء: تهيّأ. وفى الطبرى: «سمرنا» أي: لم نتم وتحدثنا ليلاً.

٤. مط: «ليس ثلاثتنا» وما أثبتناه يوافق الطبرى (٤: ١٨٦٢).

٥. أعمال اليمن فى الإسلام مقسومة على ثلاثة ولاة: فوال على الجَنَد ومخاليفها، ووال على صنعاء ومخاليفها، ووال على حضرموت ومخاليفها (يا).

كعب وزيد بن ثابت، فإن لم يشهد هؤلاء كتبه سائر الكتّاب، وهم: عمر بن الخطّاب، وطلحة، وخالد بن سعيد، ويزيد بن أبى سفيان، والعلاء الحضرمى، وأبو سلمة بن عبد الأشهل، وعبدالله بن أبى سرح، وحويطب بن عبد العُزّىٰ، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية، وعثمان، وأبان: إبنا سعيد، وحاطب بن عمرو، وجُهيم بن الصلت.

وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتبان بين يديه فى حوائجه. وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان بين الناس وينوبان عن خالد ومعاوية، إذا غابا. وكان عبدالله بن الأرقم ربما كتب [292] إلى الملوك عن النبى ـ عليه السلام. وكان زيد بن ثابت مع ما يكتبه من الوحى، يكتب إلى الملوك، وكان يحسن بالفارسية وبالرومية وبالحبشية. وكان حنظلة بن الربيع خليفة كلّ كاتب من كتّاب النبىّ ـ عليه السلام ـ غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب من بينهم. وكان النبىّ ـ عليه السلام ـ يضع عنده خاتمه، وقال له:

ـ «الزمنى وأذكرنى بكلّ شىء لثالثة.»

فكان لا يأتى على مال ولا حاجة ثلاثة أيام إلّا ذكّره به، فلا يبيت ـ عليه السلام ـ وعنده منه شىء.

فأمّا عبدالله بن سعد بن أبى سرح، فإنّه ارتدّ بعد كتابته للنبىّ ـ عليه السلام، وكان يتكلّم، فسمعه رجل من الأنصار، فحلف بالله: لئن أمكنه الله منه ليضربنّه بالسيف. فلمّا كان يوم فتح مكة، جاء به عثمان ـ وكان بينهما رضاع ـ فقال:

ـ «يا رسول الله، هذا عبدالله، أقبل تائباً.»

فأعرض عنه، والأنصارى حاضر بيده السيف. فأعاد عليه عثمان القول، فأعرض عنه. فلمّا أعاد الثالثة مدّ ـ صلّى الله عليه ـ يده، فبايعه وقال للأنصارى:

ـ «لقد تلوّمتُ [١] أن توفّى بنذرك.»

فقال: «فهلّا [293] أومضتَ [٢] إليَّ؟»

فقال: «إنّه لا ينبغى للنبىّ أن يومض.»

□ □ □



---

١. تلوّم على الأمر وفيه: تلبّث عليه وانتظر وتمكّث (مو).

٢. أومض: أومأ. أشار إشارة خفيّة رمزاً أو غمزاً. أومضت المرأة: سارقت النظر.

مما حدث في خلافة أبي بكر

ومن صرامة الرأى وحصافته ما كان من أبي بكر رضى الله عنه

وذلك أنّه لمّا مات النبى ـ صلّى الله عليه ـ ارتدّت العرب واضطرمت الأرض واشتغل الناس بالمرتدّين وتروخى[1] عن مُسليمة وطُليحة. فاستغلظ أمرهما وارتدّت من كل قبيلة عامّة وخاصّة إلّا قريشاً وثقيفاً. فتشدّد أبوبكر وكان فيه لين، إلّا أنّه حزم وحصف وخالف الناس، وكانوا أشاروا عليه بالمقاومة. وذلك أنّ أسامة بن زيد كان غائباً بالجيش الذى جهّزه رسول الله ـ عليه السلام ـ معه إلى حيث قتل فيه أبوه زيد، وكان أهل المدينة فى قلّة، وكان طُليحة قد قوى بأسد وغطفان وطيّء. فبعثوا وفوداً إلى أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ من كلّ قبيلة، ونزلوا على وجوه الناس على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة. فجرّد أبو بكر العزيمة وقال:

ـ «لو منعونى عقالاً لجاهدتهم عليه.»[2]

فرجعوا فأخبروا عشائرهم [294] بقلّة من[3] أهل المدينة وأطمعوهم فيها.

فكان من حصافة أبي بكر أن جعل على أنقاب المدينة بعد خروج الوفد عليّاً

---

١. فى الطبرى: وتوحّى مسيلمة وطليحة (٤: ١٨٧١). وتوحّىٰ: أسرع.

٢. ويضيف الطبرى هنا: وكان عقل الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة (٤: ١٨٧٢).

٣. مط: بدون «من».

والزبير وطلحة ونفراً معهم. وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد، وقال لهم:

ـ «إنّ الأرض كافرة، وقد رأىٰ وفدهم منكم قلّة، وإنّكم لا تدرون أليلاً تؤتون، أم نهاراً؟ وأدناهم منكم على بريد[١] وقد كان القوم يأملون أن نوادعهم، ونقبل منهم وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم[٢] فاستعدّوا وأعدّوا.»

فما لبثوا إلّا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارّة[٣] مع الليل وخلّفوا رِدْءاً[٤] لهم بذى حسىً، فوافوا الأنقاب[٥] وعليها المقاتلة ودونهم أقوام[٦] يدرجون. فنهنهوهم[٧] وأرسلوا إلى أبى بكر بالخبر. فخرج أبو بكر فى أهل المسجد على النواضح إليهم فانهزموا واتّبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حسىً. فخرج عليهم الردء بأنحاء قد نفخوها وجعلوا فيها الحبال، ثم دهدهوها[٨] بأرجلهم فى وجوه الإبل فتدهده كل نَحْيٍ فى طِوَله[٩] فنفرت الإبل إبل المسلمين وهم عليها، ولا تنفر [295] من شيء نفارها من الأنحاء. فعاجت بهم ما يملكونها[١٠] حتى دخلت بهم المدينة، إلّا أنّه لم يُصرع مسلم ولم يُصَب، وظنّ القوم بالمسلمين الوهن فبعثوا إلى الناس بالخبر فقدموا عليهم أعماراً[١١].

وبات أبو بكر ليلته يتهيّأ. فعبّى الناس، ثم خرج فى تعبئته من أعجاز[١٢] ليلته يمشى، فما طلع الفجر إلّا وهم مع العدوّ فى صعيد واحد. فما سمعوا لأحد من

---

١. البريد: الرسول، ثم استعمل في المسافة التى يقطعها بين كل منزلين وهى اثنا عشر ميلاً (الأقرب) أنظر تعاليقنا على ص ٥٢.

٢. نبذ إلى العدو: رمىٰ إليه بالعهد.

٣. فى مط والطبرى (٤: ١٨٧٤) غارة. ويمكن أن نقرأ ما فى الأصل «غارّة» أو «عارّة».

٤. مط: أزداً. والردء: العون والناصر.

٥. الأنقاب: جمع مفرده النقب: الطريق فى الجبل.

٦. مط: بدون «أقوام».

٧. نهنهه: كفّه وزجره. نهنه الدابة: صاح به لتكفّ.

٨. دهدهه: دحرجه. تدهده: تدحرج.

٩. الطِوَل: الحبل يربط فى وتد ونحوه للدابة، فترعى مقيدة (مو).

١٠. فى الأصل ومط: «ما يملكوها».

١١. جاء عمراً: جاء بطيئاً. فى الطبرى: اعتماداً فى الذين. فى حاشيته: اعتماراً فى الدين.

١٢. وفي الطبرى: ثم خرج على تعبئة من أعجاز ليلته.

المسلمين همساً ولا حسّاً حتّى وضعوا فيهم السيوف. فما ذرّ[١] قرن الشمس حتّى ولّوهم الأدبار وغلبوهم على عامّة ظهرهم، وقتل رئيسهم حبال وكان صاحب طليحة، واتبعهم أبو بكر ـ فكان أول فتح ـ فلما بلغ ذا القصة وضع بها النعمان بن مقرّن في عدد، ورجع إلى المدينة، فذلّ المشركون وعزّ المسلمون بوقعة أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ فوثب بنو ذُبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كلّ قتلة، وفعل مَن وراءَهم فعلهم. فحلف أبو بكر ليقتلنّ في كل قبيلة قتلة من قتلوا وليزيدنّ وليفعلنّ وليصنعنّ[٢].

فوفيٰ بذلك، فازداد المسلمون ثباتاً على دينهم وتفرّق [296] أمر المشركين، وطرقت المدينة صدقات صفوان والزبرقان وعديّ. فاستبشر لذلك أبو بكر والمسلمون، وذلك لستّين يوماً من خروج أسامة.

ثم قدم أسامة واستخلفه أبو بكر على المدينة وقال له ولجنده: «أريحوا واستريحوا.»

ثم خرج بنفسه مع الذين كانوا على الأنقاب، فقال له المسلمون:

ـ «ننشدك الله أن تعرّض نفسك، فإنّك إن تصب لم يكن للناس نظام. ومقامك أشدّ على العدوّ. فابعث رجلاً إن أصيب أمّرت آخر.»

فقال: «لا والله حتّى أواسيكم بنفسي.»

فخرج في تعبئته إلى ذي القصة والنعمان وأصحابه على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق. فاقتتلوا، فهُزم القوم وأُخذ الحطيئة أسيراً، وطارت عبس وبنو بكر. فأقام أبو بكر على الأبرق أيّاماً وقد غلب بني ذُبيان على البلاد، وقال:

ـ «حرام على بني ذبيان البلاد أن يطأوها بعد أن غنّمناها الله.»

---

١. فما ذرّ قرن الشمس: فما طلعت.

٢. مط: ولينصحنّ.

فلمّا غلب أهل الردّة ودخلوا فيما خرجوا منه، جاءت بنو ثعلبة ومن كان ينازلهم. فمنعوا منها فأتوه في المدينة [297] فقالوا:

ـ «علام نُمنع من لزوم بلادنا؟»

فقال: «كذبتم، ليست لكم ببلاد.»

عقد أحد عشر لواء لمحاربة أهل الردة

ثمّ حَمِيَ بلاد الربذة كلّها لصدقات المسلمين وجاءت الصدقات الكثيرة. فلمّا أراح أسامة وجنوده ظهورهم وجمّوا، عقد أبو بكر أحد عشر لواء وقطع عليها البعوث:

عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فاذا فرغ منه سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن قام له؛

وعقد لعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة؛

وعقد للمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود الأسود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح ومن أعانه من اليمن عليهم، ثم يمضى إلى كندة بحضرموت؛

وعقد لخالد بن سعيد بن العاص وكان قدم من اليمن، وترك عمله؛

ولعمرو بن العاص إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث؛

ولحذيفة بن محصن، وأمره بأهل دَبا؛

ولعرفجة بن هرثمة، وأمره بمَهرة؛

ولشرحبيل بن حسنة على قضاعة؛

ولطريفة بن حاجز، وأمره ببنى سُليم وهوازن؛

ولسويد بن مقرّن وأمره بتهامة اليمن؛

وللعلاء بن الحضرمي، وأمره بالبحرين.

ففصل الأمرَ من ذى القصّة وقد كتب لهم عهدهم، فلحق بكلّ أمير جنده.

[298] وكتب إلى جميع المرتدّة كتباً بليغة بالإعذار والإنذار والترغيب والترهيب، ونفذت الرسل أمام الجنود بالكتب ونفذ خالد إلى طليحة، فهزمه وفضّ خيله.

وكان طليحة ارتدّ في حياة رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وادعى النبوّة. فوجه النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ ضرار بن الأزور عاملاً على بني أسد وأمرهم بالقيام في ذلك على كلّ من ارتدّ فأشجوا طليحة وأخافوا ونقص أمره، حتى لم يبق إلّا أخذه سلماً. سوى أنّه كان ضرب ضربة بالجُراز، فنبا عنه. فشاعت في الناس وأتى المسلمين ـ وهم على ذلك ـ موت نبيّهم. وقال ناس:

ـ «إنّ السلاح لا يعمل في طليحة.»

فقوى أمره ونقص أمر المسلمين لذلك، حتى إنّهم قالوا عرفنا[1] ذلك في أنفسنا يوم ورد علينا الخبر بوفاة رسول الله ـ صلّى الله عليه.

وقام عيينة بن حصين بنصره، وقام في غطفان فقال:

ـ «ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد، وإنّي مجدّد الحلف الذي كان بيننا في الجاهلية، ومتابع [299] طليحة، والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحبّ إلينا من أن نتبع نبيّاً من قريش.»

وقد مات رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وبقى طليحة، فطابقوه على رأيه. فلمّا قوى أمر طليحة واستفحل، هرب ضرار وأصحاب النبي ـ صلّى الله عليه ـ وطاروا كلّ مطار.

قال ضرار بن الأزور: «فما رأيت أحداً ـ ليس رسول الله ـ أملأ لحرب شعواء من أبي بكر، لجعلنا نخبره ولكأنّما نخبره بما له، لا عليه.»

١. كذا في مط. وما في الأصل: عرقنا. وفي الطبري (٤: ١٨٩٢): حتى عرفوا النقصان.

صرامة عمر وحصافته في هذا الوقت

ومما ظهر من عمر ـ رضى الله عنه ـ في هذا الوقت صرامة وحصافة: أنّ عمرو بن العاص كان بعُمان. فلمّا مات رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ أقبل حتى انتهىٰ إلى البحرين، وسار في بني تميم، وفي بني عامر، حتّى قدم المدينة، فأطافت به قريش وسألوه. فأخبرهم أنّ العساكر معسكرة من دَبا إلى حيث انتهيت إليكم. وأخبرهم من اضطراب الإسلام وقوّة الأعداء ما كسرهم. فتفرّقوا وتحلّقوا حلقاً. وأقبل عمر بن الخطاب يريد [300] التسليم على عمرو. فمرّ بحلقة وهم في شيء مما سمعوامن عمرو، وفي تلك الحلقة عثمان وعليّ وطلحة والزبير وعبدالرحمان بن عوف وسعد. فلمّا دنا عمر منهم سكتوا.

فقال عمر: «فيم أنتم؟»

فلم يخبروه، فقال: «ما أعلمني بالذي خلوتم له.»

فغضب طلحة وقال: «يا ابن الخطاب أتخبرنا بالغيب؟»

فقال: «لا يعلم الغيب إلّا الله، ولكن أظنّ أنكم قلتم: ما أخوفنا على قريش، من العرب وأخلقهم ألّا يقرّوا بهذا الأمر.»

قالوا: «صدقت.»

قال: «فلا تخافوا هذه المنزلة. أنا والله منكم على العرب أخوف منّي عليكم من العرب، والله لو تدخلون معاشر قريش جُحراً[1] لدخلته العرب في آثاركم. فاتقوا الله فيهم.»

ثمّ مضىٰ عمر إلى أبي بكر واجتمع مع عمرو.

---

١. في مط: حجراً.

اسلام طليحة بعد ارتداده وادّعائه النبوّة

فأمّا طليحة، فإنّه لما هزم أصحابه، هرب حتى نزل على كعب على النقع[١]. فأسلم، ولم يزل مقيماً في كلب حتى مات أبو بكر. وإنّما أسلم هنالك حتى بلغه أنّ أسداً وغطفان وعامراً قد أسلموا. فلمّا مات أبو بكر، [301] أتى[٢] عمر للبيعة، فقال له عمر:

ـ «أنت قاتل عكاشة وثابت، والله لا أحبّك أبداً.»

فقال يا أميرالمؤمنين، ما تنقم عليّ من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يُهنّي بأيديهما.»

فبايعه عمر. ثم قال له خُريم[٣]:

ـ «ما بقي من كهانتك؟»

قال: «نفخة أو نفختان بالكير[٤].»

ثم رجع إلى دار قومه، وأقام بها حتى خرج إلى العراق.

ولما أعطىٰ أهل بُزاخة من أسد وغطفان وطيئ بأيديهم على الاسلام، لم يقبل خالد من أحد منهم ولا من هوازن وسُليم، إلّا على أن يأتوا بالذين حرقوا ومثّلوا وعدوا على أهل الإسلام في حال ردّتهم. فأتوه بهم، فقتل منهم إلّا قرّة بن هبيرة ونفراً معه أو ثقتهم، ومثّل بالذين مثّلوا بالمسلمين، وأحرقهم بالنيران، ورضخهم[٥] بالحجارة، ورمىٰ بهم من الجبال، ونكّسهم في الآبار، وخرق بعضهم

---

١. مط: المنع.

٢. ما في الأصل غير واضح، فأثبتنا الكلمة كما في مط.

٣. مط: حريم.

٤. الكير: جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار لإشعالها.

٥. رضخ النوى: كسره بالحجر.

بالنبال، وكتب بخبرهم وما صنع، إلى أبى بكر.

فكتب إليه أبو بكر:

«ليزدك الله ما أنعم به عليك خيراً، فاتق الله، ولا تظفرنّ بأحد قتل المسلمين إلّا قتلته ونكلت به غيره، وإن كنت [302] أحببت ممّن حادّ الله وضادّه فاقتله.»

فأقام خالد شهراً على بزاخة يصعّد ويصوّب ويرجع فى طلب القوم، فمنهم من يحرق، ومنهم من يرضخه، ومنهم من يرمى به من الجبل.

مكيدة للفجاءة تمّت عليه

وقدم الفجاءة[١] بن إياس بن عبد ياليل على أبى بكر، فقال:

ـ «أعنّى بسلاح، ومُرنى بما شئت، ومن شئت من أهل البادية.»

فأعطاه سلاحاً، وأمَره أمْره، فخالفه، وخرج، ونزل الجِواء[٢]، وبعث نُجبة بن أبى الميثاء[٣]، وأمره بالمسلمين، فشنّها[٤] غارة على كلّ مسلم فى سُليم وهوازن، وبلغ ذلك أبا بكر، فأرسل إليه من حاربه بالجواء حرباً شديداً، فقتل نُجبة، وهرب الفجاءة، فلحقه من أسره وبعث به إلى أبى بكر، فأوقد له فى مصلّى المدينة حطب كثير، ثم رمى به فى النار مقموطاً.

قتل مسيلمة فى حديقة الموت ومكيدة لمُجّاعة على خالد

ومن وجوه المكائد فى الحرب أنّ خالداً لما مضىٰ نحو اليمامة قاصداً مسيلمة، فضرب [بها][٥] عسكره، خرج أهل اليمامة مع المسيلمة. ثمّ التقى

---

١. وفى الأصل ومط: الفجاه. وما فى الطبرى «الفجاءة» (٤ : ١٩٠٢).

٢. مط: «وترك الحوى».

٣. مط: «محة» فى الطبرى أيضاً: نجبة وفى ابن الأثير (٢ : ٣٥٠): نُجبة.

٤. كذا فى النسختين والطبرى.

٥. فى الأصل ومط: به.

الناس، ولم تلقهم حرب قطّ مثلها [303] من حرب العرب. فاقتتل الناس قتالاً شديداً حتى انهزم المسلمون، وخاضوا إلى فسطاط خالد، فزال خالد عنه، وأسلم امرأته أمّ تميم، فرعبلوا[١] الفسطاط بالسيوف.

ثم إنّ المسلمين تداعوا وتبرّأوا إلى الله ممن انهزم، وجالدوا حتى قتل زيد بن الخطّاب وعدّة من خيار الناس، وخلصوا[٢] إلى محكّم اليمامة[٣]، وكان سيّداً فيهم، فقاتل قتالاً شديداً حتى قتل، وزحف المسلمون، واشتدّ القتال. فكانت يومئذ سجالاً إنّما يكون مرّة على المسلمين، ومرّة على الكافرين. واستحرّ القتال في المهاجرين والأنصار، وثبت مسيلمة، ودارت رحاهم عليه.

فعرف خالد بن الوليد أنّها لا تركُد إلّا بقتل مسيلمة، ولم تحفل بنو حنيفة بقتل من قُتل منهم. فبرز خالد حتّى إذا كان أمامَ الصفّ دعا إلى البراز، وانتمىٰ وقال:

ـ «أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد.»

فجعل لا يبرز له أحد إلّا حطّمه وقتله. ودارت عليه رحي المسلمين فطحنت.

ثم دنا خالد من مسيلمة، فدعاه منادياً بأعلى صوته [304] ليطلب غرّته[٤]، وذلك لما علم أنّ الحرب لا تزول إلّا بزواله، فأجابه مسيلمة. فعرض عليه أشياء مما يشتهي مسيلمة، ثم قال له:

ـ «إن قبلنا النصف، فأيّ الأنصاف تعطينا؟»

فكان إذا همّ بجوابه، أعرض عنه مستشيراً شيطانه، فكان شيطانه ينهاه أن يقبل، فأعرض بوجهه مرّة من ذلك، فركبه خالد فأرهقه، فأدبر، وزالوا، فذمر خالد الناس، وقال:

ـ «دونكم لا تُقيلوهم.»

---

١. رعبل: قطع، مزّق. ٢. خلص إلى الشيء: وصل.

٣. وفي الطبري: خلّصوا إلى محكّم اليمامة وهو محكّم بن الطفيل (٤: ١٩٤٣).

٤. فدعا مسيلمة طلباً لعورته (الطبري ٤: ١٩٤٨).

فاقتحموا حديقة الموت[١]. فاقتحم الناس عليهم، فقتلوا منهم عشرة آلاف، وقتل مسيلمة. قتله وحشيّ بحربته، وأعانه رجل من الأنصار.

وكان خالد ظفر قبل هذه الوقعة بمُجّاعة مع نفر معه كانوا خرجوا في سريّة لهم، وكان ظنّ أنّهم استقبلوه. فلمّا سألهم صدقوه. ولو عرفوا خبره لقالوا: إنّما استقبلناك، فسلموا. فعرضهم على السيف، فقتلهم عن آخرهم إلّا مُجّاعة. فإنّه استحياه طمعاً في الانتفاع به. فلمّا فرغ من قتل مسيلمة وأخبر به أخرج مجّاعة يرسف في الحديد ليدلّه على مسيلمة، [305] فجعل يكشف له القتلى حتّى مرّ بمحكّم اليمامة، وكان وسيماً حسناً. فلما رآه خالد قال:

ـ «هذا صاحبكم؟»

قال: «لا، هذا والله خير منه وأكرم، هذا محكّم اليمامة.»

ثم مضىٰ خالد يكشف له القتلى. فإذا رويجل أصفر[٢] أُخَينس، فقال مُجّاعة:

ـ «هذا صاحبكم، قد فرغتم منه.»

فقال خالد لمُجّاعة: «هذا فعل بكم ما فعل.»

قال: «قد كان ذلك يا خالد، وإنه والله ما جاءك إلّا سرعان الخيل، وإن الحصون لمملوءة رجالاً، فهلّم أصالحك على قومي.»

يقول ذلك لرجل قد نهكته الحرب، وأصيب معه من أشراف الناس من أصيب، فقد رقّ، وأحبّ الدعة والصلح.

فقال: «هلمّ أصالحك.»

فصالحه على الصفراء والبيضاء والحلقة[٣] ونصف السبي.

ثم قال: «فآتي القوم فأعرضُ عليهم ما قد صنعت.»

---

١. والحديقة: بستان كان لمسيلمة الكذاب، كانوا يسمّونه: «حديقة الرحمان»، وعنده قتل مسيلمة، فسمّوه: «حديقة الموت» (يا).

٢. الطبري: أُصيفر (٤ : ١٩٤٩).

٣. الحلقة: السلاح عامّة والدرع خاصّة.

قال: «انطلقْ إليهم.»

فذهب وقال للنساء ـ وليس في الحصون إلّا النساء والصبيان ومن ليس به طرق[١] من الشيوخ:

ـ «إلبسن الحديد، ثمّ أشرفن على الحصون، وانشرن شعوركنّ.»

ثم كرّ نحو خالد وقال:

ـ «أبوا[٢] ما صالحتك عليه، ولكن صالحني على ربع السبى لأعزم[٣] على [306] القوم.»

قال خالد: «قد فعلت.»

فسرّحه وقال:

ـ «أنتم بالخيار ثلاثاً، والله لئن لم تُتمّوا ولم تقبلوا، لأنهدنّ إليكم، ثم لا أقبل منكم خصلة أبداً إلّا القتل.»

فكان خالد إذا نظر إلى الحصون رآها مملوءة الحيطان بالسلاح والسواد، فيراها رجالاً وإنّما هى النساء.

فلمّا رجع مُجّاعة إليهم قال: «فأمّا الآن فاقبلوا.»

ورجع إلي خالد، وقال: «بعد شرّ ما، قبلوا[٤]، اكتب كتابك.»

فكتب:

«هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مُجّاعة من مرارة وفلاناً وفلاناً، قاضاهم على الصفراء، والبيضاء، وربع السبى، والحلقة، والكُراع، وحائط من كل قرية ومزرعة، على أن تُسلموا، ثم أنتم آمنون بأمان الله ولكم ذمّة خالد بن الوليد، وذمّة أبى بكر خليفة رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وذمم المسلمين على الوفاء.»

١. الطرق: الشحم. القوّة (مو).

٢. في الطبرى وابن الأثير (٢: ٣٦٥) أيضاً: أبوا. مط: ايو. وفى الأصل: آيوا. وهو تصحيف.

٣. عزم على فلان: أمره وشدد عليه (مو).

٤. الطبرى. بعد شرّ ما رضوا (٤: ١٩٥٤).

فلمّا فرغ خالد بن الوليد من هذه الوقعة والصلح، فتحت الحصون، فإذا ليس فيها إلّا النساء والصبيان! فقال خالد لمُجّاعة:

ـ «ويحك، خدعتني!»

قال: «قومي، ولم أستطع إلّا ما صنعت.[١]»

ولمّا فرغ خالد من هذه الوقعة أمره [307] أبو بكر بالمسير إلى العراق، وكان ما كان من أمره مع الفرس، ولم أجد فى تلك الحروب والوقعات مع عظمها وشدتها موضع حيلة، ولا موقع تدبير تستفاد منه تجربة إلّا اليسير مما سنذكره، وباقيه كلّه جهاد من القوم ونصر من الله واجتهاد من المسلمين، وخذلان للفرس، وانصرام لمدّتهم، وانقضاء لملكهم.

وكان شرطنا في أول الكتاب ألّا نُثبت من الأخبار إلّا ما فيه تدبير نافع للمستقبل، أو حيلة تمّت فى حرب، أو غيرها، ليكون معتبراً وأدباً لمن يستأنف من الأمر مثله، فلذلك تركنا إثبات هذه الوقائع، وعلى أنّا سنذكر الجمل التى فيها أدنى تنبيه على موضع فائدة، ولأجل ذلك، تركنا ذكر أكثر مغازى رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ ووقعاته، لأنّها كلّهاتوفيق الله ونصره وخذلان أعدائه، ولا تجربة في هذا، ولا تستفاد منه حيلة، ولا تدبير بشرىّ[٢].

ومن الآراء السديدة ما كان من خالد بالشام يوم اليرموك[٣]

[308] وذلك أنّ خالداً افتتح السواد الذى بينه وبين دجلة، وحاز غربىّ دجلة كلّها بوقائع كثيرة وحروب عظيمة، وشغل الفرس عن أمر الملك. فإنّ أردشير بن

---

١. كذا في الطبرى: (٤: ١٩٥٣).

٢. إنتبه إلى الإصرار الذى يبديه مسكويه على منهجه فى كتابة التاريخ.

٣. أنظر الطبرى ٤: ٢٠٩٠.

شيرى مات وقد كان هلك العظماء وأهل بيت كسرىٰ بما أفناهم شيرى، وبغزوات خالد للعظماء، وتفرّغ أبو بكر للشام، وكان أمر خالداً ألّا يقتحم على الفرس، لأنّ مسالح لهم كانت من وراء المسلمين. فخشى أن يؤتَوا من ورائهم، وقد كان المسلمون أشرفوا على الهلاك بالشام لكثرة جنود الروم.

فكتب أبو بكر إلى خالد يأمره أن يستخلف على جنده، ويسير في عدد وافر إلى إخوانه المسلمين بالشام. ولما اهتمّ بأمر الشام كتب إلى عمرو بن العاص، وإلى الوليد بن عقبة، وكانا على عمل من الصدقات. أمّا عمرو فكان على صدقات هُذَيم وعُذرة ومن لفّ لفّها. وأمّا الوليد فكان على النصف من صدقات قضاعة. فكتب أبو بكر إليهما يرغّبهما في الجهاد ويخيّرهما بين أعمالهما وما ندبهما إليه، فكتبا بإيثار الجهاد، فكتب [309] أبو بكر بأن يندبا من يليهما، ويستخلفا على أعمالهما.

ثم ندب أبو بكر من كان اجتمع إليه، وقوّىٰ بهم عمراً، وأمّره على فلسطين وأمره بطريق سمّاها له. وولّى الوليد الأردن، وأمدّه ببعض من كان اجتمع إليه. ودعا يزيد بن أبي سفيان فأمّره على جند عظيم هم جمهور من انتدب له، وفي جنده سهيل بن عمرو، وأشباهه. واستعمل أبا عبيدة وأمّره على حمص مع جند[1].

وكان قد قدّم خالد سعيد بن العاص، وأمره أن يأتي تيماء، ويقيم بها، فلا تتجاوزها، وينتدب إليه من حوله ويتقوّىٰ به، حتّى تأتيه الجنود. وسمى ليزيد بن أبي سفيان دمشق، ولشرحبيل بن حسنة الأردن،

فتوافى الجند أطراف الشام مع الأمراء الأربعة، وهم سبعة وعشرون ألفاً. وأمّر أبو بكر معاوية وشرحبيل على ثلاثة آلاف، وكان عكرمة بن أبي جهل رِدْءاً[2]

---

١. مط: جنده.

٢. الردء: الذي يتبع غيره معيناً له. قال تعالى: فأرسله معي ردءاً يصدّقني.

لهم فى ستة آلاف. وكان فى ثغر الروم أبو عبيدة، فشجى[١] بالروم وكثروا عليه، فكتب إلى [310] أبى بكر يستمدّ، وأمدّهم بخالد بن الوليد من العراق فى عشرة آلاف، فكانوا ستة وأربعين ألفاً، وكان قتالهم على تساند: كلّ جند وأميرهم، ولا يجمعهم أمير واحد حتّى قدم عليهم خالد بن الوليد من العراق.

تدبير حصيف من خالد

فلمّا قدم خالد، وجد الروم فى جمع عظيم وقد استمدوا المستعربة ونصارى العرب ومسالح[٢] الفرس، فكانوا فى مائتى ألف مقاتل على حنق شديد، وهم يقاتلون بنشاط واجتماع. ورأى المسلمين متساندين يقاتل كل قوم مع أميرهم.

فقال لهم: «هل لكم يا معشر الرؤساء فى أمر يعزّ الله به الدين، ولا يدخلكم منه نقيصة ولا مكروه؟»

قالوا: «وما ذلك؟»

قال:

ـ «إنّ هذا يوم من أيّام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، فإنّ هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة على تساند وانتشار فإنّ ذلك لا ينبغى ولا يحلّ، وإنّ مَن وراءكم لو يعلم علمكم، حال [311] بينكم وبين هذا. فاعلموا فى ما لم تؤمروا به، بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبّته.»

---

١. شجى بقرنه: قهره قرنه. اهتمّ وحزن.

٢. المسالح: جمع مفرده المسلح والمسلحة: كلّ موضع مخافة يقف فيه الجند بالسلاح للمراقبة والمحافظة. القوم المسلّحون فى ثغر أو مخفر للمحافظة.

قالوا: «هات ما الرأي؟»
قال:

ـ «إنّ[١] أبا بكر لم يبعثنا إلّا وهو يرىٰ أنّا سنتياسر، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم. إنّ الذى أنتم فيه أشدّ على المسلمين ممّا غشيهم، وأنفع[٢] للمشركين من أمدادهم. ولقد علمت أنّ الدنيا فرّقت بينكم، فالله الله في دينكم، فقد أفرد كلّ رجل ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيده أن دانوا له. إنّ تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله، هلمّوا، فإنّ هؤلاء قد تهيّأوا، وهذا يوم له ما بعده. إن رددنا القوم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم. وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلمّوا، فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمّر كلّنا. دعونى أَلِكُم[٣] اليوم.»

فأمّروه وهم يرون أنّها كخرجاتهم قبل قدوم خالد [312] وأنّ الأمر طويل والإمارة تصل إلى كلّ واحد منهم.

فخرجت الروم في تعبئة لا يكون أحسن منها، ولم ير المسلمون مثلها قطّ. وخرج خالد في تعبئة لم تعبّ مثلها العرب. وذلك أنّه لمّا رأىٰ كثرة عدد الروم، قال:

---

١. سقط من مط: «إنّ أبا بكر... أشدّ على».
٢. في الأصل: أنقع. وما أثبتناه مطابق لما في مط والطبري ٤: ٢٠٩٢.
٣. مط والطبري: «آليكم» والصحيح ما في الأصل، لأنّ الفعل [ألي] مجزوم هنا جواباً لشرط متصيّد مما قيل كما يقول النحاة.

ـ «إنّه ليس فى التعبئة تعبئة أكثر فى رأى العين من الكراديس[١]. فجعل القلب كراديس كثيرة، وأقام فيها أبا عبيدة؛ وجعل الميمنة كراديس، وعليها عمرو بن العاص؛ وجعل الميسرة كراديس، وعليها يزيد بن أبى سفيان، وجميعها ستّة وثلاثون كردوساً. وفى الجماعة ألف رجل من أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ فيهم نحو من مائة من أهل بدر. وكان أبو سفيان يدور ويحرّض الناس.

فقال رجل لخالد: «ما أقلّ المسلمين وأكثر الروم!»

فقال خالد: «ما أكثر المسلمين وأقلّ الروم، إنّما تكثر الجنود بالنصر، وتقلّ بالخذلان، لا بعدد الرجال. والله، لوددت أنّ الأشقر براء من توجّيه[٢]، وأنّهم أضعِفوا[٣] فى العدد.»

وكان فرسه قد حفى[٤] فى مسيره.

ثمّ أنشب القتال والتحم [313] الناس وتطارد الفرسان. فإنّهم على ذلك، إذ قدم البريد من المدينة. فأخذته الجنود، وسألوه الخبر. فلم يخبرهم إلّا بسلامة، وأخبرهم عن أمداد، وإنّما جاء بموت أبى بكر وتأمير أبى عبيدة، فأبلغوه خالداً، فأخبره الخبر، وأسرّه إليه، وأخبره بما قال للجند، فقال:

ـ «أحسنت، فقف.»

وأخذ الكتاب، فجعله فى كنانته وخاف ـ إن أظهر ذلك ـ أن ينتشر أمر الجند. وجدّ خالد فى القتال، وصلّى الناس الأولى والعصر إيماءاً، وتضعضع الروم، ونهد خالد بالقلب، حتى كان بين خيلهم ورجلهم.

وكان موضعهم الذى اختاروه للقتال واسع المطّرد، وضيّق المهرب. فلمّا وجدت خيلهم مهرباً ذهبوا وتركوا رجلهم فى مصافّهم، وخرجت خيلهم تشتدّ

---

١. الكراديس: جمع مفرده الكردوس والكردوسة: طائفة عظيمة من الخيل والجيش.

٢. التوجّى: رقة القدم أو الحافر أو الخفّ من كثرة المشى (مو).

٣. أُضعِفوا: جعلوا ضعفين.

٤. حفى: مشى بلا نعل ولا خفّ.

بهم في الصحراء. ولما رأى المسلمون خيل الروم توجّهت للهرب، أفرجوا لها ولم يحرجوها. فذهبت متفرّقة في البلاد، وأقبل خالد والمسلمون على الرجل، ففضّوهم. فكأنّما هدم بهم حائط، فاقتحموا في خندقهم [314] فاقتحم عليهم فعمدوا إلي الواقوصة[1] حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم، فمن صبر من المقترنين للقتال هوىٰ به من جشعت نفسه، فيهوى الواحد بالعشرة لا يطيقونه، كلّما هوىٰ اثنان كانت البقية أضعف. فتهافت في الواقوصة عشرون ومائة ألف [١٢٠،٠٠٠] إنسان منهم ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق، سوي من قتل في المعركة من الخيل والرجل، وتجلّل أخو ملك الروم وأشراف من أشرافهم برانسهم وقالوا:

ـ «لا نحبّ أن نري يوم السوء، إذ لم نستطع أن نـرى يـوم السـرور، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية.»

فأصيبوا في تزمّلهم.

وقد كان عكرمة بن أبي جهل في بعض جولات الروم نزل عن فرسه وقال:

ـ «قاتلت عن رسول الله صلّى الله عليه في كلّ موطن وأفرّ اليوم!»

ثمّ نادى:

ـ «من يبايع على الموت؟»

فبايعه ضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه الناس والفرسان، فقاتلوا قدّام فسطاط خالد، حتّى أثبتوا جميعاً جراحاً، وقتلوا إلّا من [315] برأ ومنهم ضرار.

---

١. الواقوصة: وادٍ بالشام في أرض حوران نزله المسلمون أيام أبي بكر الصدّيق على اليرموك لغزو الروم... وفي كتاب أبي حذيفة: أنّ المسلمين أوقعوا بالمشركين يوماً باليرموك، فشدّ خالد في سرعان الناس وشدّ المسلمون معه يقتلون كل قتلة، فركب بعضهم بعضاً، حتى انتهوا إلى أعلى مكان مشرف على أهوية، فأخذوا يتساقطون فيها وهم لا يبصرون وهو يوم ذو ضباب، وقيل كان ذلك بالليل وكان آخرهم لا يعلم بما صار إليه الذي قبله حتي سقط فيها ثمانون ألفاً... وسميت هذه الأهوية بالواقوصة من يومئذ حتى اليوم، لأنهم واقصوا فيها. (يا، والطبري ٤: ٢٠٩٩).

وقاتل النساء يومئذ وجرحت جويرية بنت أبى سفيان، وكانت مع زوجها، بعد قتال شديد، وكان الأشتر ممن شهد هذا اليوم ـ وهو اليرموك ـ فأبلىٰ بلاءاً حسناً.

ولمّا فرغ خالد من حرب القوم نعىٰ إلى الناس أبا بكر وقال:

ـ «الحمد لله الذى قضىٰ على أبى بكر الموت، وكان أحبّ إليّ من عمر؛ والحمد لله الذى ولّىٰ عمرو كان أبغض إليّ من أبى بكر، ثم ألزمنى طاعته.»

وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون حمص، وبلغه قتل أخيه مع الصناديد وعامّة الخيل والرجل، فارتحل وصار الأمر لأبى عبيدة.

من عجيب ما ركبه خالد

ومن عجيب ما ركبه خالد بن الوليد فى سفرته هذه التى خرج فيها من العراق لمعاونة أبى عبيدة على الروم، أنّه: لمّا هزمت الروم خالد بن سعيد بن العاص، وقتلوا ابنه وقتلوا الجيش الذى معه، واجتمعت الروم باليرموك، قالوا:

ـ «والله لنشغلنّ أبا بكر والعرب فى أنفسهم عن تورّد بلادنا.»

ثم نزلوا الواقوصة [316] مستعلين.

فبلغ ذلك أبا بكر، فقال:

ـ «والله لأنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد.»

فكتب إليه أن:

ـ «سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك، فإنّهم قد شجوا بالروم، وإنّه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك[١]، ولم ينزع الشجا من الناس نزعك، فلتهننك[٢] ـ أبا سليمان ـ النية

---

١. فى الأصل ومط: شجيك.

٢. فى الأصل ومط: فلتهنك وما أثبتناه يؤيده الطبرى ٤: ٢١١٠.

والحظوة، فأتمم ـ تمّم الله لك ـ ولا يدخلنّك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدلّ بعمل، فإنّ الله له المنّ وهو وليّ الجزاء، فاستخلف المثنّى بن الحارثة بالعراق، فإذا فتح الله على المسلمين الشام فارجع إلى عملك بالعراق.»

فقال خالد: «كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الناس.»
فجمع الأدلّاء وأهل الخيرة، فكلّهم قالوا:
ـ «لا نعرف إلّا طريقاً لا يحمل جيشاً، يأخذه الفذّ والراكب[1].»
ونهوه أن يغرّر بالمسلمين. فعزم عليه، ولم يُجبه [317] أحد إلّا رافع بن عميرة على تهيّب شديد. فقام فيهم وقال:
ـ «يا قوم لا يخلفنّ[2] هديكم، ولا يضعفنّ يقينكم، واعلموا أنّ المؤونة تأتي على قدر النيّة، والأجر على قدر الحسبة.»
فأجابه نفر، وقالوا لخالد:
ـ «أنت رجل مصنوع لك، فشأنك[3].»
فطابقوه ونووا، واحتسبوا.
فقال لهم رافع:
ـ «تروّوا للشفة لخمس.»
فظمّأ كلّ قائد من الإبل الشرف الجلال ما يكتفي به، ثم سقوها العلّ بعد النهل، ثمّ صرّوا آذان الإبل وكعّموها وخلّوا أدبارها.

---

١. كذا في مط. وفي الطبري: الفذّ الراكب (٤: ٢١١٢).
٢. كذا في مط. وفي الطبري: لا يختلفنّ.
٣. وفي الطبري: أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك.

ثمّ ركبوا من قراقر مفوّزين إلى سوىٰ[١] وهى إلى جانبها الآخر ممّا يلى الشام. فلما ساروا يوماً افتظّوا لكل من الخيل كروش عشر من تلك الإبل فمزجوا ما فى كروشها بما كان من الألبان. ثمّ سقوا الخيل وشربوا للشفة جُرعاً. فعلوا ذلك أربعة أيّام. فلمّا نزلوا بسوىٰ وخشى أن يفضحهم حرّ الشمس نادىٰ خالد رافعاً:

ـ «ما عندك يا رافع؟» [318]

قال: «خير، أدركتم الرىّ وأنتم على الماء.»

وكان يشجعهم وهو متحيّر به رمد.

ثمّ قال: «أيها الناس، انظروا عُليمين[٢] كأنّهما ثديان.»

فأتوا عليهما وقالوا: «علَمان.»

فقام عليهما فقال: «اضربوا يَمنة ويَسرة لعوسجة كقِعدة الرجُل.»

فقالوا: «لا نرىٰ شيئاً.»

فقال: «إنّا لله. هلكتم وهلكت معكم، انظروا.»

فنظروا فوجدوا جذمها، فقالوا:

ـ «جِذم[٣]، ولا نرىٰ شجرة.» فقال:

«احتفروا حيث شئتم.»

فاستثاروا أوشالاً[٤] وأحساءً[٥] رواءً[٦]. فقال رافع:

---

١. سوىٰ: ماء لبهراء من ناحية السماوة.

٢. مط والطبرى: علمين (٤: ٢١١٣). وانظر ابن الأثير (٢: ٤٠٨).

٣. الجِذم والجَذم: الأصل والمنبت.

٤. الوشل: الماء القليل يتحلّب من جبل أو صخر ولا يتصل قطره. والوشل أيضاً: الماء الكثير ـ ضدّ.

٥. والأحساء: جمع مفرده حِسى، وحسى وحِسىٌ: سهل من الأرض يستنقع فيه الماء، وقيل: غلظ فوقه رمل يجمع ماء المطر وكلّما نزحت دلواً اجتمعت أخرى.

٦. الرواء: الماء العذب. الكثير المُروى.

ـ «أيها الأمير، ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة، وما وردته إلّا مرّة وأنا غلام مع أبي.»

فانحاز خالد من سُوىٰ على مُصَيّخ[1] بهراء، وإنّهم لغارّون وناس منهم يشربون خمراً لهم في جفنة قد اجتمعوا عليها ومغنّيهم يقول:

ألا عَلِّلانى قَبلَ جَيشِ أبى بَكْرِ ... لعلَّ مَنايانا قَريبٌ ومَا نَدرى
أظُنُّ خيولَ المسلمينَ وخالداً ... سيطرقُكم قبلَ الصَّباحِ من البِشرِ[2]
فهل لكُمْ فى السَّير قَبْلَ قِتالهمْ ... وقَبلَ خروجِ المُعصراتِ من الخِدرِ

فيزعمون أنّ مغنيهم قُتل، وسال دمه في الجفنة عند الغارة. وقال شاعر المسلمين: [319]

للهِ عينا رافعٍ أنّى اهتَدىٰ ... فوّز[3] من قُراقر[4] إلى سُوىٰ
خِمْساً[5] إذا ما سارها[6] الجيشُ بَكىٰ ... ما سارها قَبلَكَ إنسيٌّ أرىٰ

فلما انتهىٰ خالد إلى سُوىٰ أغار على أهله وقد خلَّف ثغور الروم وجنودها ممّا يلي العراق، فصار بينهم وبين اليرموك، ثمّ صمد لهم الطريقَ حتّى صار إلى

١. مصيّخ بهراء: ماء بالشام.
٢. وما في مط: من النشر. والبِشر من منازل تغلب بن وائل (الأيام: ٢٠٨).
٣. فوّز الرجل: دخل المفازة.
٤. قُراقر: وادٍ لكلب بالسماوة من ناحية العراق، نزله خالد بن الوليد عند قصده الشام. قُراقر، حنو قُراقر، وحنوذي قار، وذات العجرم، والبطحاء، كلها حول ذي قار (يا).
٥. الخِمس: من الفلوات ما بعُد ماؤها حتى يكون ورد الإبل في اليوم الخامس، والخِمس أن ترد الإبل الماء في اليوم الخامس من وردها السابق.
٦. في الأصل: ما ساره.

دمشق، ثمّ مرج الصفر. فلقى غسّان وعليهم الحارث بن الأيهم، فانتسف عسكرهم وعيالاتهم وبعث بالأخماس إلى أبى بكر، ثمّ خرج حتى نزل مياه بُصرىٰ، فكانت أوّل مدينة فتحها خالد من الشام بمن معه من جنود العراق، فخرج منها فوافىٰ المسلمين بالواقوصة فى عشرة آلاف.

ولما تراءى العسكران بعث القيقلار[1] أخو ملك الروم ـ وهو صاحب الجيش ـ رجلاً عربيّاً من قضاعة وقال له:

ـ «ادخلْ فى هؤلاء القوم، فأقم فيهم يوماً وليلة، ثمّ ائتنى بخبرهم.»

فدخل فى الناس رجل عربيّ لا ينكر، فأقام فيهم، ثمّ أتاه.

فقال: «مه، ما وراءك؟»

قال: «هم رهبان بالليل فرسان [320] بالنهار، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنىٰ رجموه إقامة للحدّ.»

فقال القيقلار: «لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها.»

المثني بن الحارثة وشهربراز قائد الفرس

فأمّا المثنى بن حارثة، فكان من حديثه بعد خالد بن الوليد: أنّ الفرس اجتمعوا على شهربراز بن أردشير بن شهريار بن أبرويز، وجدوه بميسان، فوجّه إلى المثنّى جنداً عظيماً عليهم هرمز المعروف بجاذويه في عشرة آلاف، ومعه فيل، فكتبت المسالح بإقباله، فخرج المثنى من الحيرة، وضمّ إليه المسالحَ.

وكتب شهربراز إلى المثنّىٰ:

ـ «إنّى قد بعثت إليك جنداً من وحش أهل القرىٰ، إنّما هم رعاة الدجاج

١. فى الطبرى: القُبُقلار، وفى حواشيه: القنقلال، القنقلار، القيقلان، القلنقار (٤ : ٢١٢٥).

والخنازير، ولست أقابلك إلّا بهم.»

فأجابه المثنّىٰ:

«من المثنّىٰ إلى شهربراز، إنّما أنت أحد الرجلين: إما باغ، فذلك شرّ لك وخير لنا، وإمّا كاذب، فأعظم الكاذبين فضيحة وعقوبة عند الله والناس الملوك، وأمّا الذي يدلّنا عليه الرأى، فإنّكم إنّما اضطررتم إليه، فالحمد لله الذى ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج [321] والخنازير.»

فلمّا وقف الفرس على كتابه جزعوا وقالوا:

ـ «إنّما أُتى شهربراز من لؤم منشأته[1].»

وقالوا له: «جرّأت علينا عدوّنا بما كتبت إليه، فإذا كاتبت أحداً فاستشر.»

ثمّ التقوا ببابل، فاقتتلوا بعدوة الصراة[2] الدنيا قتالاً شديداً.

ثمّ إنّ المثنىٰ وناساً من المسلمين اعتوروا الفيل، وكان يفرّق بين الصفوف والكراديس، فأصابوا مقتله، فقتلوه، وهزموا أهل فارس واتّبعهم المسلمون يقتلونهم حتّى جازوا بهم مسالحهم، وطلبوا الفلّ[3] حتّى بلغوا المدائن. ومات شهربراز منهزم[4] هرمز جاذويه، واختلف أهل فارس بعده، وأبطأ خبر أبى بكر على المسلمين لمرضه.

فخرج المثنىٰ نحو أبى بكر ليخبره خبر المسلمين ويستأذنه فى الإستعانة بمن ظهرت توبته من أهل الردّة ـ وكان أمر أبو بكر ألّا يستعان بهم ـ وليخبره أنّه لم يخلّف أحداً أنشط لقتال فارس ومعونة المهاجرين منهم. فقدم المدينة واستخلف علىٰ عسكره بشير بن الخصاصيّة[5] [322] فوجد أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ

---

١. مط: «متشابه». ٢. انظر الطبرى (٤: ٢١١٧).

٣. الفلّ: المنهزم، للواحد والجمع. انظر الطبرى (٤: ١٨ ـ ٢١١٧).

٤. أى وقت انهزام هرمز. انظر أيضاً الطبرى (٤: ٢١١٩).

٥. الأصل: غير واضح. مط: الحصافة. وما أثبتناه يؤيده الطبرى (٤: ٢١٢٠).

مريضاً مرضه الذى مات فيه، فأخبره الخبر.

فدعا أبو بكر عمر ـ وكان قد عقد له ـ فقال:

ـ «يا عمر، اسمع ما أقول لك، ثم اعمل عليه. إنّى أظنّ أن أموت من يومى هذا ـ وذلك يوم الإثنين ـ فإن أنا متّ، فلا تُمسينّ حتى تندب الناس مع المثنىٰ، ولا تشغلنّكم مصيبة ـ وإن عظمت ـ عن أمر دينكم، ووصية ربّكم، وقد رأيتنى متوفّىٰ[1] رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وما صنعت، ولم يصب الخلق بمثله. وبالله لو أنّى أنى عن أمر الله لخذلنا ولاضطرمت المدينة ناراً. وإن فتح الله على أمرائنا فاردد أصحاب خالد إلى العراق، فإنّهم أهله وولاة حدّه، وأهل الضراوة بهم، والجرأة عليهم.»

ومات أبو بكر رضى الله عنه مع الليل، وندب عمر الناس مع المثنىٰ. وقال عمر:

ـ «كأنّ أبا بكر علم أنّه يسوءنى أن أؤمّر خالداً على العراق حين أمرنى بصرف أصحابه، وترك ذكره.»

وتشاغل أهل فارس فيما بينهم عن إزالة المسلمين عن السواد فيما بين خلافة أبى بكر إلى قيام عمر، ورجوع [323] المثنىٰ مع أبى عبيد[2] إلى العراق، وكان جمهور جند العراق بالحيرة بالسيب[3] والغارات تنتهى بهم إلى شاطئ دجلة، ودجلة حجاز بين العرب والعجم.

١. أي: حين توفي رسول الله.

٢. وقد وردت هذه الكنية بكلا الوجهين: («أبو عبيد»، أبو عبيدة») في مواضع من النصّ.

٣. كورة من سواد الكوفة، وهما سيبان: الأعلى والأسفل من طسّوج سورا عند قصر ابن هبيرة (يا).

أسماء كتّاب أبي بكر رضى الله عنه

كتب لأبي بكر رضى الله عنه: عثمان بن عفّان، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن الأرقم، وحنظلة بن الربيع.

□ □ □



مما حدث في خلافة عمر

عمر يقاسم خالداً ماله

فلمّا استخلف عمر كان أوّل ما تكلّم به عزل خالد بن الوليد. وكتب إلى أبى عبيدة بتأميره عليه، وقال له:

ـ «أدع خالداً، فإن أكذب نفسه فى حديث تكلّم به خالد فهو أمير علىٰ ما هو عليه، وإن لم يكذب نفسه فأنت الأمير. ثمّ انزع عمامته عن رأسه، وقاسمه ماله نصفين.»[١]

فلما ذكر ذلك أبو عبيدة لخالد قال:

ـ «أنظرنى أستشر فى أمرى.»[٢]

ففعل أبو عبيدة. فدخل خالد على أخته فاطمة بنت الوليد، وكانت عند الحارث بن هشام، فذكر لها الحديث، فقالت:

ـ «والله لا يحبّك عمر أبداً، وما يريد إلّا أن تكذب نفسك ثم ينزعك.»

فقبّل رأسها وقال:

ـ «صدقتِ.»

وتمّ على أمره وأبىٰ [324] أن يكذب نفسه.

---

١. تجد الرواية عند الطبرى (٤ : ٢١٤٨).

٢. فى الطبرى: أنظرني أستشر أختي فى أمرى (٤ : ٢١٤٨).

فقام بلال مولىٰ أبى بكر، فقال:

ـ «ما أُمرتَ به في خالد؟»

قال: «أمرت أن أنزع عمامته وأقاسمه ماله.»

ففعل، وقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه. فقال أبو عبيدة:

ـ «إنّ هذا لا يصلح إلّا بهذا.»

فقال خالد: «أجل، وما أنا بالذى أعصى أميرالمؤمنين، فاصنع ما بدا لك.»

فأخذ نعلاً وأحذاه نعلاً.

ثم قدم خالد المدينة على عمر. فكان كلّما مرّ بخالد، قال:

ـ «يا خالد أخرج مال المسلمين من تحت إستك.»

فيقول: «والله ما عندى مال لهم.»

فلمّا أكثر عليه عمر قال له خالد:

ـ «يا أميرالمؤمنين، قيمة ما أصبت فى سلطانكم أربعون ألف درهم.»

قال عمر: «قد أخذت ذلك منك.»

قال: «هو لك».

قال: «وأخذته.»

ولم يكن لخالد مال إلّا عُدّة ورقيق. فحُسب ذلك، فبلغت ثمانين ألف درهم، فناصفه عمر على ذلك وأعطاه أربعين ألف درهم وأخذ ماله.

فقيل: «يا أميرالمؤمنين، لو رددت على خالد ماله.»

فقال: «إنّما أنا تاجر للمسلمين، والله لا أردّه عليه أبداً.»

فكان عمر يرىٰ أنّه [325] قد أشتفىٰ من خالد حين صنع به ذلك.

من حديث خالد وفتح دمشق

وكان خالد قبل أن ينقضى حرب الروم، على مقدمة خيل أبى عبيدة، وهو

الذى فتح دمشق بيت المملكة. وكان من حديثه أن عمر كاتب المسلمين عندما هزموا الروم باليرموك: أن يقصدوا لدمشق، فانّها مقرّ عزّ الروم، وأن يشغلوا أهل فِحل[١] وفلسطين، وأهل حمص بخيل تكون بإزائهم. فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك، وإن تأخّر فتحها حتى تفتح دمشق، فلينصرف أبو عبيدة وخالد الى حمص، وعمرو إلى فلسطين. وكان أبو عبيدة بعث ذا الكلاع ليكون بين دمشق وحمص رِدْءاً. ففعل أبو عبيدة كما أمره، وقدّم خالداً ـ وهرقل يومئذ بحمص ـ فحاصر أهل دمشق حصاراً شديداً نحواً من سبعين ليلة، وقاتلوهم بالمجانيق وهم معتصمون بالمدينة، يرجون الغياث من هِرَقْل. وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق، فأشجتها خيول ذى الكلاع وشغلتها عن الناس.

فلمّا أيقن أهل [326] دمشق أنّ الأمداد لا تصل إليهم فشلوا، وطمع فيهم المسلمون، وكانوا يرون أنّها كالغارات قبل ذلك إذا هجم البرد قفل[٢] الناس، فسقط النَّحم[٣] والقوم مقيمون. فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشق.

إتّفاق جيّد للمسلمين

وكان من الإتّفاق الجيّد للمسلمين: أن ولد للبطريق الذى على أهل دمشق مولود. فصنع طعاماً، فأكل القوم وشربوا، وغفلوا عن مواقفهم، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين إلّا ما كان من خالد، فإنّه كان لا ينام ولا يُنيم، ولا يخفىٰ عليه

١. فِحل: موضع بالشام، كانت للمسلمين مع الروم به وقعة، قتل فيها ثمانون ألفاً من الروم، وهي مشهورة. وتسمى «يوم فِحل»، كما تسمّى «يوم الردغة» و «يوم بيسان» (مع).

٢. مط: فقتل فى الناس. وفى الطبرى أيضاً: قفل (٤ : ٢١٥٢).

٣. النحم: السعال. سقط النحم: أقبل. وهذا من قولهم: «سقط الحرّ أو البرد»: أقبل (مو). وفى الطبرى: النجم (نفس الصفحة). فى مط: فقتل فسقط العجم (!).

شيء من أمورهم، عيونه ذاكية، وجواسيسه مفرّقة، وهو معنيّ بما يليه. وكان كل جانب من المدينة إلى قوم. وكان قد اتّخذ خالد حبالاً كهيئة السلاليم وأوهاقاً. فلمّا أمسىٰ ذلك اليوم وعرف خبر القوم نهد هو ومن معه من جنده الذين قدم بهم، وتقدّمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عديّ [327] وأمثاله من أصحابه في أوّل نومه وقالوا:

ـ «إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا للباب.»

فلما انتهىٰ إلى الباب الذى يليه هو وأصحابه المتقدمون، رموا بالحبال الشُّرَفَ وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم. فلما ثبت لهم وهقان تسلّق فيهما القعقاع ومذعور. ثم لم يدعا أحبولة إلّا أثبتاها والأوهاق بالشُّرَف، وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان بدمشق، أكثره ماءاً وأشدّه مدخلاً. ولم يبق ممن خرج مع خالد تلك الليلة أحد إلّا رقىٰ أو دنا من الباب، حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم، وخلّف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي، وأمرهم بالتكبير. فكبّر الذين على السور، فنهد المسلمون إلى الباب، ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها. وانتهىٰ خالد إلى أوّل من يليه، فأنامهم، وانحدر إلى الباب، فقتل البوّابين، وثار أهل المدينة، وفزع سائر الناس، فأخذوا مواقفهم ولا يدرون [328] ما الشأن، وتشاغل كل ناحية بما يليهم، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف، وفتحوا للمسلمين، فأقبلوا عليهم من داخل، حتىٰ ما بقى مما يلي باب خالد مقاتل إلّا أُنيم.

ولما شدّ خالد على من يليه، وبلغ منهم ما أراد عنوة، وأرز[١] من أفلت إلى أهل الأبواب التى تلى غيره، دعوا المسلمين إلى الصلح. فأجابوهم وقبلوا منهم ولا يدرون بما كان من خالد. ففتحوا لهم الأبواب وقالوا:

١. أرَزَ إلى المكان: لجأ إليه.

ـ «ادخلوا، وامنعونا من أهل ذلك الباب.»

فدخل أهل كلّ باب، بصلح[١] من يليهم، ودخل خالد بما يليه عنوة. فالتقىٰ خالد والقوّاد في وسطها، هذا استعراضاً وانتهاباً، وهذا صلحاً وتسكيناً. فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح.

ولما فرغ المسلمون من فتح دمشق، ساروا إلى فحل وبيسان، ولاقوا حرباً شديداً، وافتتحوها بعد شدائد وبأس كثير.

عمر وانتداب أبي عبيد للخروج إلى فارس

فأمّا خبر فارس، فإن عمر ندب الناس مع المثنىٰ بن حارثة، وقد ذكرنا فيما تقدّم قدوم المثنىٰ على أبي بكر [329] ووصاة[٢] أبي بكر عمر به. فلم ينتدب أحد مع المثنىٰ. وذاك أنّ هذا الوجه أعني فارس كانت أكره الوجوه إلى الناس، لشدّة بأس الفرس وعظم شوكتهم، وقهرهم الأمم.

فكان المثنىٰ يحرّض الناس ويقول:

«أيها الناس، إنّا قد غلبناهم على نصف السواد، وقد ضرى من قبلنا، واجترأنا عليهم، ولنا من بعد ما ينتظره المسلم من الكافر.»

وقام عمر في الناس، وخطبهم، وحضّهم وأذكرهم وعد الله في كتابه أن يورثهم الأرض، وقوله عزّوجلّ: ﴿ليظهره على الدّين كلّه، ولو كره المشركون.﴾[٣] أين «عباد الله الصالحون؟»[٤]

---

١. والعبارة في الطبري: «فدخل أهل كلّ باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة...» وفي حاشية الطبري: «بصلح ما يليهم.» و «بصلح من يليهم» (٤: ٢١٥٣).

٢. مط: وصي. الوصاة: الوصية، جمعها: وصيّ. ٣. س ٩ التوبة: ٣٣.

٤. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذّكر، أنّ الأرض يرثها عبادي الصّالحون.﴾ (س ٢١ الأنبياء: ١٠٥).

فكان أوّل من انتدب أبو عبيد ابن مسعود الثقفي، وقال: «أنا لها.» ثم سليط بن قيس.

فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر:

ـ «أمّر عليهم رجلاً من المهاجرين والأنصار.»

قال: «لا والله لا أفعل. إنّما رفعكم الله بسبقكم إلى الجهاد، وسرعتكم إلى العدو. فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء، واثّاقلتم إلى الأرض، فأولىٰ بالرئاسة منكم من سبق إلى الدفع، وأجاب إلى الدعاء. [330] لا والله، لا أؤمّر عليهم إلّا أوّلهم انتداباً.»

ثم دعا أبا عبيد وقال له:

ـ «اسمع من أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ، وأشركهم في الأمر. ولا تُسرعنّ حتىٰ يتبيّن. فإنّها الحرب، والحرب لا يصلح لها إلّا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة.»

وقال لأبي عبيد:

ـ «إنّه لم يمنعني أن أؤمّر سليطاً إلّا سرعته إلى الحرب، وفي التسرّع إلى الحرب ضياع إلّا عن بيان.»

قدوم أبي عبيد مع المثنّى

بعد استخراج الفرس يزدجرد وتتويج بوران رستم

فقدم أبو عبيد ومعه المثنى بن حارثة، وقد استخرج الفرس يزدجرد. وكانت بوران عدلاً[١] في ما بينهم، لما افتتنت الفرس وقتل الفرّخزاذ بن البندوان. وكان سياوخش قدم، فقتل آزرمي‌دُخت. وذلك في غيبة المثنىٰ. وكان شغل الفرس

١. وفي الطبري (٤: ٢١٦٣): .. وقد كانت بوران أهدت للنبي (ص) فقبل [هديتها].

طول غيبته في ما بينهم. وكانت بوران دعت رستم، وشكت إليه تضعضع فارس، ودعته إلى القيام بأمرهم، وتوّجته.

فقال رستم: «أنا عبد سامع مطيع.»

فولّته أمر فارس وحربها، وأمرت فارس أن يسمعوا له ويطيعوا. فقتل رستم سياوخش، ودانت له الفرس، وذلك بعد قدوم أبي عبيد.

ثمّ إنّ عمر [331] لما فصل المثنىٰ وأبا عبيد[١]، استعجلهما، وقال لهما:

ـ «النجا، النجا، بمن معكم، فإنّي ممدّكم بالناس.»

ثمّ ندب أهل الردّة، وأذن لهم في الغزو، ورمىٰ بهم العراق والشام.

فقدم المثنىٰ قبل أبي عبيد بنصف شهر، ونزل خفّان[٢] لئلّا يؤتىٰ من خلفه بشيء يكرهه. وكتب رستم إلى دهاقين السواد: أن يثوروا بالمسلمين. ودسّ في كل رستاق رجلاً ليثور بأهله. وبلغ ذلك المثنى، وعجل جابان، وكان اجتمع إليه بشر كثير، بالنمارق[٣]، ولحق أبو عبيد، فأجمّ الناس، ثم تعبّىٰ: فجعل المثنىٰ على الخيل، وعبّى الميمنة والميسرة. فنزلوا على جابان بالنمارق، فقاتلهم قتالاً شديداً، ثمّ انهزم جابان، فأُسر. فكان آمنه من أسره، فخلّى عند أبو عبيد. فأخبروه أنه ملك. فأشاروا بقتله. فأبىٰ أبو عبيد، وقال:

ـ «إنّ المسلمين في التوادّ والتناصر كالجسد الواحد، ما لزم بعضهم فقد لزم كلّهم.»

قالوا: «إنّه ملك.»

قال: «وإن كان، لا أغدر.»

فتركه، وقسم الغنائم، وكان فيها مال وعطر [332] كثير، وبعث بالأخماس إلى

---

١. في الأصل: «أبو عبيد» وما أثبتناه يوافق مط.

٢. خفّان (بالفتح والتشديد): موضع قرب الكوفة، فوق القادسية (مع).

٣. النمارق: موضع قرب الكوفة (مع).

عمر.

السّقاطيّة بِكَسكَر

وثار نَرسى بِكَسكر، وكان رستم أمره بذلك. ونرسى هذا ابن خالة كسرىٰ، وكانت كسكر قطيعة له، وكان النَّرسيان له يحميه لا يأكله ولا يشربه ولا يغرسه غير آل كسرىٰ إلّا من أكرموه بشيء منه.

فلما انهزمت الفرس يوم النمارق اجتمعت الفالّة إلىٰ نَرسي، وهو فى عسكره، ونادىٰ أبو عبيد بالرحيل، وقال للمجرّدة:

ـ «اتّبعوا الفالّة حتى تُدخلوهم عسكر نرسى أو تبيدوهم.»

ومضىٰ أبو عبيد حين ارتحل من النمارق حتى ينزل على نَرسى بكسكر ـ ونَرسي يومئذ بأسفل كسكر، والمثنىٰ معه في تعبئته التي قاتل فيها جابان؛ ونرسى على مجنّبتيه ابنا[1] خاله وهما: إبنا خال كسرىٰ بندويه وتيرويه إبنا بسطام؛ وأهل باروسما ونهر جوبر والزوابى معه إلى جنده.

وكان قد أتى الخبر بوران ورستم بهزيمة جابان. فبعثوا الجالنوس[2]، وبلغ ذلك نرسي ومن معه، فرجوا أن يلحق قبل الوقعة، وعاجلهم أبو عبيد. فالتقوا أسفل من كسكر فى مكان يدعىٰ السّقاطية، فاقتتلوا فى صحارى[3] مُلس قتالاً [333] شديداً.

ثم انهزم نرسي، وقتل أصحابه، وغلب على عسكره وأرضه، وجمع أبو عبيد

---

١. كذا في مط: ابنا خاله. وانظر أيضاً الطبرى (٤: ٢١٦٩).

٢. فى الأصل ومط: فبعثوا الجالنوس. وفى الطبرى: فبعثوا إلى الجالنوس.

٣. فى الأصل ومط: «فى صحار» فأثبتناها «فى صحارى» ـ كما فى الطبرى (٤: ٢١٦٩) ـ باثبات الياء. لأن الكلمة ممنوعة من الصرف، فهي مفتوحة في حالة الجر، وغير منوّنة. فلا التقاء لساكنين ولا حذف، ولا يقاس بقولك: «في وادٍ».

الغنائم. وهناك رأى المسلمون من الأطعمة ما لم يروا مثله، وأخذت خزائن نرسي. فلم يكونوا بشيء أفرح منهم بالنَّرسيان. لأنّه كان حميّ، فاقتسموه، وجعلوا يطعمونه الفلاحين، وبعثوا بخُمسه إلى عمر، وكتبوا إليه:

«إنّ الله أطعمنا مطاعم كان الأكاسرة يحمونها، وأحببنا أن تروها، وتشكروا إنعام الله وإفضاله.»

وأقام أبو عبيد، وسرّح المثنىٰ إلى باروسما، وعاصماً إلى نهر جوبَر. فأخربوا، وسبوا، وهرب ذلك الجند إلى الجالنوس. وسار أبو عبيد واستقبله الجالنوس، فنهد إليه أبو عبيد في المسلمين على تعبئته. فهزمهم المسلمون، وهرب الجالنوس، وأقام أبو عبيد[١] قد غلب على تلك البلاد.

ولما رجع الجالنوس إلى رستم ومن أفلت معه قال رستم:

ـ «أيّ العجم أشدّ على العرب؟»

قال: «بهمن جاذويه.»

وهو ذو الحاجب. فوجّهه ومعه فيلة، وردّ معه الجالنوس، وقال له:

ـ «قدّم الجالنوس، فإن عاد لمثلها [334] فاضرب عنقه.»

فأقبل بهمن جاذويه ومعه «درفش كابيان»، وكانت من جلود النمر، عرض ثماني أذرع، وطول اثنى عشر ذراعاً. وأقبل أبو عبيد، ونزل المروحة موضع البرج والعاقول.

فبعث إليه بهمن جاذويه: «إمّا أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإمّا أن تدعونا نعبر إليكم.»

فقال الناس: «لا تعبر يا باعبيد[٢]! ينهاك عن العبور، قل لهم: فليعبروا!»

وكان من أشدّ الناس عليه في ذلك سليط.

---

١. كذا: قد غلب بدون «و» كما في الطبري أيضاً (٤: ٢١٧٢).

٢. كذا في الأصل ومط. وفي الطبري: يا أبا عبيد (٤: ٢١٧٥).

فلجّ أبو عبيد، وقال: «لا يكونون أجرأ على الموت منّا، بل نعبر إليهم.»

فعبروا إليهم فى منزل ضيّق المطّرد. فاقتتلوا يوماً، حتىٰ إذا كان آخر النهار، واستبطأ رجل من ثقيف الفتح، ألّف بين الناس، فتصافحوا بالسيوف فى أهل فارس، وأصيب منهم ستة آلاف فى المعركة ولم يبق إلّا الهزيمة. فحمل أبو عبيد على الفيل، وضربه، فخبط الفيل أبا عبيد، وقام عليه، وجال المسلمون جولة، ثم تمّوا[١] عليها وركبهم أهل فارس. [335]

خطأ فى الرأى

فكان من خطأ الرأى والعجلة فيه[٢] أن بادر رجل من ثقيف الجسر فقطعه. فانتهى الناس إليه، والسيوف تأخذهم من خلفهم، فتهافتوا فى الفرات. فأصابوا يومئذ من المسلمين أربعة آلاف بين غريق أو قتيل، وحمى الناس المثنى وعاصم ومذعور، وقد كان سليط ــ كما قدمنا الخبر عنه ــ يناشد أبا عبيد مع وجوه الناس، ويقولون[٣]:

ــ «إنّ العرب لم تلق مذ كانوا، مثل جنود فارس، وقد حفلوا لنا واستقبلونا من الزهاء والعدّة، بما لم يلقنا به [أحد] قبل، وقد نزلت[٤] منزلاً لنا فيه مجال ومرجع من فرّة إلى كرّة.»

فقال: لا أفعل، جبنت يا سليط.

فقال سليط: «أنا والله أجرأ منك، نفساً، وقد أشرنا عليك بالرأى، فستعلم.»

---

١. كذا فى مط والطبرى (٤ : ٢١٧٥)، وفى الأصل: «نموا». تمّ على الأمر: استمرّ عليه.

٢. «فكان... فيه» سقطت من مط.

٣. فى الطبرى (٤ : ٢١٧٧): «.. فناشده سليط بن قيس ووجوه الناس، وقالوا: إن العرب...».

٤. كذا فى الأصل ومط والطبرى: وقد نزلت. وربما يكون الصحيح: لو نزلت.

رؤيا رأتها امرأة أبي عبيد

وكانت امرأة أبي عبيد رأت رؤيا وهو[١] في المروحة: أنّ رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب، فشرب أبو عبيد وابنه وجماعة من أهل بيته.

فأخبرت أبا عبيد، فقال:

ـ «هذه الشهادة.»

وعهد أبو عبيد إلى [336] الناس، فقال:

ـ «إن قتلت فعلى الناس فلان، فإن قتل فعليكم فلان.»

إلى أن أمّر الذين شربوا من الإناء على الولاء.

ـ ثم قال: «إن قتل أبوالقاسم فعليكم المثنىٰ.»

ثمّ نهد بالناس وعبر، وعضّلت[٢] الأرض بأهلها، والتحمت الحرب. فلمّا نظرت الخيول إلى الفيلة عليها النخل، والخيل عليها التجافيف، والفرسان[٣] عليهم الشُّعُر[٤]؛ رأت شيئاً منكراً لم تر مثله. فجعل المسلمون إذا حملوا لم تُقدم خيلهم، وإذا حملوا على المسلمين بالفيلة والجلاجل فرّقت بين كراديسهم لا تقوم لها الخيل إلّا على نفار. وخرقهم الفرس بالنشّاب، وعض المسلمين الألم، وترجّل أبو عبيد، وترجّل معه الناس، فصافحوهم بالسيوف، فصارت الفيلة إذا حملت دفعتهم.

فنادىٰ أبو عبيد:

---

١. كذا في الأصل ومط: وهو. وفي الطبري: وهي (٤: ٢١٧٨).

٢. في مط: غصّت. عضّلت: غصّت.

٣. الكلمة غير واضحة في الأصل، وما أثبتناه من مط ويؤيده الطبري.

٤. «الشُعُر» غير مشكولة في الأصل وضبطناها حسب الطبري. وجاء ضبطها في بعض الأصول «الشَّعر» أيضاً.

ـ «احتوشوا الفيلة وقطّعوا بُطُنها[١]، واقلبوا عنها أهلها.»

وواثب هو الفيلَ الأبيض، فتعلّق ببطانه فقطّعه، ووقع الذين عليه. وفعل القوم مثل ذلك: فما تركوا فيلاً إلّا حطّوا رحله وقتلوا [337] أصحابه. وأهوى الفيل لأبى عبيد، فنفح مشفره بالسيف، فاتقاه الفيل بيده ووقع، فخبطه الفيل. وأخذ اللواء، الذى كان أمّره بعده. فقاتل الفيل حتىٰ تنحّىٰ عنه، فأجترّه إلى المسلمين، وأحرزوا شِلوه. ثمّ تجرثم الفيل فاتّقاه بيده، دأب أبى عبيد، وخبطه وقام عليه. وتتابع سبعة من ثقيف كلّهم يأخذ اللواء فيقاتل حتى يموت. ثمّ أخذ اللواء المثنىٰ وهرب عنه الناس.

فلما رأى عبدالله بن مرثد الثقفىّ ما يصنع الناس، بادرهم الجسر، فقطعه. فلما توافاه الناس تهافتوا فى الفرات، فغرق من لم يصبر، وقتل من صبر. وهذا الخبر تصديق لدريد حيث قال: «إنّ المنهزم لا يردّه شيء.» ونادىٰ:

ـ «أيّها الناس! أنا دونكم، فاعبروا.»

وعقد لهم الجسر وقال:

ـ «لا تَدهشوا اعبروا على هينتكم، فإنّا لن ندع الموضع ولن نزايل حتى نراكم من ذاك الجانب.»

وأتى بعبدالله بن مرثد، وكان يمنع الناس من العبور. فضربه المثنىٰ وقال:

ـ «ما حملك على ما فعلت؟»

قال: «ليقاتلوا.»

فلمّا ضمّت السفن، وعبر الناس كان آخر [338] من قتل عند الجسر سليط بن قيس. وعبر المثنىٰ، وحمىٰ جانبه، واضطرب عسكره، وارفضّ عنه أهل المدينة، حتى لحقوا بالمدينة، وتركها بعضهم فنزلوا البوادى، وبقى المثنىٰ فى قلّة.

---

١. وفى بعض الأصول: وضنها. والبُطُن جمع مفرده: البطان: حزام يشدّ على البطن. وأما الوضن فمفرده: الوضين: البطان العريض المنسوج من سيور أو شعر، وقيل: إنّ الوضين للهودج بمنزلة الحزام للسرج.

ورامهم ذو الحاجب فلم يقدر عليهم لاعتراض الفرات، وقطع الجسر.

وهلك يومئذ من المسلمين أربعة آلاف من بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقي مع المثنىٰ ثلاثة آلاف، فكأنّ الجميع كانوا تسعة آلاف. وجرح المثنىٰ جراحة شديدة، وأثبت فيه حلق من درعه هتكهنّ الرمح[١].

ولما بلغ عمر ما صنعه أهل المدينة، وأخبر عمّن سار في البلاد استحياءاً من الهزيمة اشتدّ عليه، ورحمهم، وقال:

«اللهم إنّ كلّ مسلم في حلّ منّي، أنا فئة لكل مسلم، يرحم الله أبا عبيد، لو انحاز إليّ لكنت فئة له.»

فبينا ذو الحاجب يروم أن يعبر إلى المسلمين أتاه الخبر باضطراب الفرس، فرجع بعد أن ارفضّ عنه جنده، وأتاه الخبر أنّ الناس في المدائن ثاروا برستم، ونقضوا ما بينهم وبينه، وصاروا فرقتين: الفهلوج على رستم، وأهل فارس على الفيرزان. [339]

ثمّ إنّ جابان ومردانشاه خرجا حتى أخذا بالطريق وهم يرون أنّهم سيرفضّون ولا يشعرون بما جاء ذا الحاجب من فرقة أهل فارس.

وبلغ المثنىٰ فعلة جابان ومردانشاه، فاستخلف على الناس عاصم بن عمرو، وخرج في جريدة خيل يريدهما وظنّا أنه هارب، فأخذهما أسيرين، وخرج أهل أُليس[٢] على أصحابهما، فأتوه بهم أسرىٰ، وعقد المثنىٰ لهم بها ذمّة وقدّمهما وضرب أعناقهما وأعناق الأسرىٰ، ثم رجع إلى عسكره. وكان جرير بن عبدالله البجلي يسأل قديماً في بَجيلة أن تلتقط من القبائل، وكان النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ وعده ذلك، فلمّا ولي عمر دعاه بالبيّنة، فأقامها. فكتب له إلى عمّاله في العرب

---

١. انظر الطبري ٤: ٢١٨٠.

٢. أُليس، مصغّر على وزن فُليس: موضع في أول أرض العراق من ناحية البادية وقيل: قرية من قرى الأنبار وهي بتشديد اللام (مع). وانظر الطبري (٤: ٢١٨٢).

كلّها ممن كان فيه أحد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية، وثبت عليه في الإسلام بغير ذلك فأخرجوه إلى جرير. فلما أعطي جرير حاجته في استخراج بجيلة من الناس وجمعهم، أخرجوا إلى المثنىٰ مدداً له. وكتب عمر يستنفر الناس من أهل الردّة وغيرهم، فلم يَرِدْ عليه أحد إلّا رمىٰ به المثنىٰ. [340]

يوم البويب ويُسمّى يوم الأعشار

وبعث المثنىٰ بعد الجسر في من يليه من الممدّين، فتوافوا إليه في جمع عظيم. وبلغ رستم والفيرزان ذلك، وأتتهم العيون به، وبما ينتظرون من الأمداد، فاجتمعا على أن يبعثا بمهران الهمذاني حتى يريا من رأيهما ويجتمع أمرهما. فخرج مهران في الخيول، وأمره[1] بالحيرة. وبلغ المثنىٰ الخبر وهو معسكر بين القادسية وخفّان في الذين أمدّوه من العرب. فاستبطن فرات بادقلىٰ، وأرسل إلى جرير وعصمة، وإلى كلّ قائد أظلّه أنّه:

ـ «جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتىٰ تقدموا علينا، فعجّلوا اللحاق بنا، وموعدكم البويب.»[2]

وسلك المثني وسط السواد، وسلك جرير على الجوف ومن كان معه، حتى انتهوا إلى المثني وهو على البويب، ومهران من وراء الفرات بإزائه، وكان عمر عهد إليهم ألّا يعبروا بحراً ولا جسراً إلّا بعد ظفر. فاجتمعوا بالبويب، واجتمع العسكر على شاطئ البويب الشرقيّ. وكان البويب مغيضاً للفرات أيام المدود أزمان فارس يصبّ[3] في الجوف [341].

---

١. في الطبري (٤: ٢١٨٤): فأمراه. وفي حواشيه: وأمره، وأمراؤه.

٢. والبويب نهر بالعراق يأخذ من الفرات، وقد يسمي يوم مهران، ويوم الأعشار. كان على المسلمين المثني بن حارثة، وعلى الفرس مهران الهمداني وذلك سنة ١٣هـ.

٣. مط والطبرى أيضاً (٤: ٢١٨٧): يصبّ.

وقدم على عمر غزاة بني كنانة، والأزد، فأمّر على بني كنانة غالب بن عبدالله، وعلى الأزد عرفجة بن هرثمة، وأمرهم بالعراق. فقدموا على المثنىٰ، وقدم عليه هلال بن عُلَّفة فيما اجتمع إليه من الرباب[1]. فأمره عمر وسرّحه، فقدم على المثنّىٰ، وكذلك فعل بغزاة كلّ قبيلة من جشم وخثعم وبنى حنظلة وبنى ضبّة وغيرهم. فاجتمعوا عند المثنىٰ.

واجتمع رستم والفيرزان معاً، واستأذنا بوران ـ وكذلك كانا يعملان إذا أرادا شيئاً استأذنا من حجّابها فكلّماها به ـ فأخبراها بعدد الجيش وكثرة الذين يُنفذون مع مهران، وكانت فارس لا تكثر البعوث.

فقالت بوران: «ما بال فارس لا يخرجون إلى العرب كما كانوا يخرجون قبل اليوم؟»

قالا: «إنّ الهيبة كانت قبل اليوم مع عدوّنا وإنّها اليوم فينا.»

فعرفت رأيهم واستصوبته.

ولما نزل مهران في جنده وراء الفرات ـ والفرات بينهما ـ قال:

ـ «إمّا أن تعبروا إلينا، وإمّا أن نعبر إليكم.»

فقال المسلمون: «اعبروا إلينا.»

فعبروا، وأقبلوا إلى المسلمين [342] في صفوف ثلاثة مع كلّ صفّ فيل، ورجلهم أمام فيلهم، وجاؤوا لهم زجل. فقال المثنىٰ للمسلمين:

ـ «إنّ هذا الزجل وجل!»

قالوا: «أجل.»

---

١. مط: الرياب. وفي الطبري أيضاً الرباب. وكان مجراه إلى موضع دار صالح بن على بالكوفة، ومصبه في الجوف العتيق، وكان مغيضاً للفرات أيام المدود ليزيدوا به الجوف تحصيناً، وقد كانوا فعلوا ذلك الجوف حتى كانت السفن ترفأ إلى الجوف (يا).

قال: «فالزموا الصمت وائتمروا[١] همساً.»

فدنوا من المسلمين وجاءوهم من قبل نهر بني سُليم اليوم. فلما دنوا زحفوا، وركب المثنىٰ فرسه الشموس، وكان لا يركبه إلّا إذا قاتل. ودعى الشموس[٢] للين عريكته وطهارته. فوقف على الرايات يحضّهم ويذكر أحسن ما فيهم ويقول:

ـ «إني أرجو ألّا يؤتى العرب اليوم من قبلكم، والله ما يسرّني اليوم لنفسى شيء إلّا وهو يسرّني لعامّتكم.»

فيجيبونه بمثل ذلك، وأنصفهم المثنىٰ بالقول والفعل، وخلط الناسَ في المكروه والمحبوب، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً ولا عملاً.

ثم قال:

ـ «إني مكبّر ثلاثاً، فتهيّأوا، ثم احملوا مع الرابعة.»

فلما كبّروا أوّل تكبيرة أعجلهم فارس، فعاجلوهم وخالطوهم مع أوّل تكبيرة. وركدت الحرب مليّاً. فرأى المثنى خللاً في بعض صفوفه، فأرسل إليهم:

ـ «الأمير يقرأ [343] السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم.»

فقالوا: «نعم.» واعتدلوا.

وكانوا يرونه قبل ذلك وهو يمدّ بلحيته لما يرىٰ منهم! فلمّا أعتبوه رأوه يضحك فرحاً.

فلمّا طال القتال، نظر المثنى إلى نفر من الثعلبيّين نصارىٰ وفيهم جُلّاب خيل قدموا مع أنس بن هليل. فقال:

---

١. مط: واهتمروا. في الأصل: واتمروا. وفي الطبري (٤: ٢١٩٠): ائتمروا، كما أثبتناه.

٢. والمعروف أنّ «الشموس» معرّب أصله الفارسي: «چموش» ومعناه في اللغتين: الفرس الذى لا يمكّن أحداً من ظهره، ولا من الإسراج والإلجام، ولا يكاد يستقرّ (حب، قب). فكيف يمكن القول: دعى الشموس «للين عريكته»!

ـ «يا أنس، إنّك امرؤ عربيّ وإن لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني قد حملت على مهران، فاحمل معي.»

وقال لابن [مِردَى][١] الفهر مثل ذلك. فأجابوه إليه. فحمل المثنى على مهران حتى أزاله، فدخل في ميمنته. ثمّ خالطوهم واجتمع القلبان، وثار الغبار والمجنّبات تقتتل، لا يفرغون لنصر أمرائهم، ولا يستطيعون ذلك، لا المشركون ولا المسلمون. وقتل غلام تغلبيّ نصراني مهران. ووقف المثنى عند ارتفاع الغبار حتى أسفر وقد فنى قلب[٢] المشركين. فأما المجنّبات فهى بحالها، فجعل المثنى يدعو لهم، ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول:

ـ «المثنى [يقول][٣]: عادتكم في أمثالهم!»

حتى هزموهم. فسابقهم المثنّى إلى الجسر، فسبقهم وأخذ الأعاجم [344] يفترقون بشاطئ الفرات مصعدين ومصوّبين، واعتورتهم خيول المسلمين فجعلهم جُثاءاً.

فما كانت بين العرب والعجم وقعة كانت أبقى رمّة منها، كانوا يحرزونها[٤] مائة ألف، وما عفى عليها إلّا ادّفان البيوت[٥].

فيحكى أهل تلك الناحية: أنهم كانوا يأتون البويب، فيرون في ما بين موضع السّكون اليوم وبنى سُليم عظاماً بيضاً تُلولاً تلوح من هامهم وأوصالهم، يعتبر بها. وسمّي يوم البويب يوم الأعشار: أحصى مائة رجل قتل كل واحد منهم عشرة يومئذٍ.

---

١. مط: «مودن» والأصل غير واضح (مودى؟ نودى؟ نوين؟) وما أثبتناه من الطبرى (٤: ٢١٩٢).

٢. مط: غالب المشركين. ٣. ما بين [ ] تكملة زيدت عن الطبرى (٤: ٢١٩٤).

٤. حرزه: قدّره بالحدس، وخمّنه. ليس في مط: «كانوا يحرزونها مائة ألف».

٥. كذا في الأصل. في مط: ادفان البويب. وفي الطبرى: وما عفى عليها حتى دفنها ادفان البيوت (٤: ٢١٩٣) وفي موطن آخر: وكانت وقعة البويب رمضان سنة ثلاث عشر، قتل الله عليه مهران وجيشه، وأفعموا جنبتي البويب عظاماً حتى استوى وما عفّى عليها إلّا التراب أزمان الفتنة. (٤: ٢١٩٩).

وندم المثنىٰ على أخذه الجسر، وقال:

ـ «قد عجزت عجزة وقى الله شرّها بمسابقتي القوم إلى الجسر حتى أحرجتهم وإنّي غير عائد. فلا تعودوا ولا تعتدوا بى أيها الناس، فإنّها كانت زلّة، ولا ينبغى إحراج أحد إلّا من لا يقوى على امتناع.»

وكان المثنىٰ أصاب نُزل مهران غنماً، وبقراً، ودقيقاً، فبعثوا إلى عيالات الناس، وكانوا خلّفوهنّ بالقوادس مع عمرو بن عبدالمسيح بن بُقيلة. فلما رفعوا للنساء [345] فرأين الخيل، تصايحن وحسبنها غارة. فقمن دون الصبيان بالحجارة والعُمد. فقال عمرو:

ـ «هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش أن يكنّ.» وبشّرهنّ بالفُلح[١].

وعقد المثنىٰ الجسر، وسرّح فى طلب المنهزمين أصحاب الجسر، فأصابوا غنائم كثيرة وتبعوهم. وكتب القوّاد والرؤساء منهم إلى المثنىٰ:

ـ «انّ الله سلّم ووجّه لنا ما رأيت، وليس دون القوم شيء، أفتأذن لنا فى الإقدام.»

فأذن لهم. فأغاروا حتى بلغوا ساباط، وتحصّن منهم أهل ساباط، واستمكنوا من الغارة على من بينهم وبين دجلة، ومخروها لا يخافون كيداً، وانتقضت مسالح العجم، فرجعت إليهم، واعتصموا بساباط.

المثنّى يُغير على قرية بغداد غارةً

ثمّ إنّ المثنىٰ بلغه خبر قرية[٢] يأتيها تجّار مدائن كسرىٰ والسواد، ويجتمعون بها فى كل سنة مرّة ومعهم فيها من الأموال كبيت المال، وتلك أيّام سوقهم. فاستدعى المثنىٰ من وثق به من أهل الحيرة فاستشاره.

---

١. مط: الفلاح. والطبرى: الفتح (٤: ٢١٩٧). ٢. أنظر الطبرى ٤: ٢٢٠٣.

فقال له:

ـ «إن أنت قدرت أن تغير عليهم وهم لا يشعرون، أصبت فيها مالاً فيه غنى المسلمين دهرهم وقووا على أعدائهم أبداً.»

قال: «وكم بينها وبين مدائن كسرى؟» [346]

قال: «بعض يوم أو عامّة يوم.»

قال: «فكيف لى بها؟»

قالوا: نشير عليك أن تأخذ طريق البرّ حتى تنتهى إلى الخنافس، فإنّ أهل الأنبار يضربون إليها ويخبرونك فيأمنون، وتأخذ دهاقين الأنبار بالأدلّاء، وتسير سواد ليلتك حتى تأتيهم صبحاً، فتصبّحهم غارة.»

ففعل المثنىٰ ذلك، فلما انتهى إلى الأنبار، تحصّن منه صاحبها وهو لايدرى من هو، وذلك ليلاً. فلمّا عرفه نزل إليه، فأطعمه المثنىٰ واستكتمه وسأله الأدلّاء إلى بغداد حتى يعبر منها إلى المدائن.

قال: «أنا أجيء معك.»

قال: لا أريدك معى، إبعث معى من هو أدلّ منك.»

فزوّدهم الأطعمة والأعلاف، وبعث معهم الأدلّاء، فساروا.

فلما كانوا بالنصف، قال المثنىٰ:

ـ «كم بينى وبين هذه القرية بغداد؟»

قال: «خمسة فراسخ.»

فندب من أصحابه جماعة للحرس، وبعث طلائع فحسبوا الناس لئلّا يسبق الخبر وقال:

ـ «أيها الناس، اطعموا وتوضّأوا وتهيّأوا.»

ثم سرىٰ آخر الليل فصبّحهم فى أسواقهم، فوضع فيهم السيف، فأخذوا ما شاؤوا.

وقال المثنىٰ:

ـ «لا تأخذوا إلّا الذهب [347] والفضة والحُرّ من كل شيء.»

ثمّ انكفأ راجعاً حتى نزل بنهر السَّيلحين[1] بالأنبار، فسمع همساً في ما بين الناس:

ـ «ما أسرع القوم في طلبنا.»

فخطبهم وقال:

«أيها الناس، احمدوا الله وتناجَوا بالبرّ والتقوى، ولا تناجوا بالإثم والعدوان،[2] انظروا في الأمور وقدّروها، ثم تكلّموا. ما بلغ النذير مدينتهم بعد، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم إنّ للغارات روعات تنتشر عليها يوماً إلى الليل. ولو طلبكم المحامير من رأى العين ما أدركوكم وأنتم على العِراب، حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم؛ ولو أدركوكم لقاتلتهم ورجوت النصر والأجر. فثقوا بالله، وأحسنوا به الظنّ، فقد نصركم الله عليهم في مواطن كثيرة وهم أعدّ منكم، وسأخبركم عنّي أنّ أبا بكر أوصانا أن نقلّل العرجة ونسرع الكرّة في الغارات».

ثمّ أقبل بهم ومعهم الأدلّاء حتى انتهى بهم إلى الأنبار.

ثمّ إنّ المثنىٰ أغار على حيّ من تغلب على دجلة، وعلى قوم كانوا بتكريت، وأصابوا ما شاؤوا [348] من النعم.

١. السيلحين: طسوج قرب بغداد بينه وبينها ثلاثة فراسخ. وقرية وراء عقر قوف تسميها العامة «الصالحين» وهي التي بات بها المثنى بن حارثة، وصبح فأغار على سوق بغداد (مع).

٢. انظر: س ٥٨ المجادلة: ٩.

القادسية وأيّامها[1]

فقال أهل فارس لرستم والفيرزان:

ـ «إنّه لم يبرح منكما الاختلاف حتي أوهنتما أهل فارس، وأطمعتما فيهم عدوّهم، ولم يبلغ من خطركما أن تقرّكما على هذا الرأى وأن تعرّضا فارس للهلكة. ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلّا المدائن، والله لتجتمعان أو لنبدأنّ بكما قبل أن يشمت شامت، ونشفينّ نفوسنا منكما.»

تمليك يَزدَجِرْد

فاجتمع رستم والفيرزان عند بوران وقالا[2] لها:

ـ «اكتبي لنا نساء كسرىٰ وسراريّة.» ـ ففعلت.

فأرسلوا فى طلبهنّ، فلم تبق امرأة إلّا أتوا بها، فأخذوهنّ بالرجال، ووضعوا عليهنّ العذاب يستدلّون على ذكر من أبناء كسرىٰ. فلم يوجد عندهنّ أحد.

فقالت إحداهنّ:

ـ «لم يبق إلّا غلام يدعىٰ يَزْدَجِرد من ولد شهريار بن أبرويز، وأمّه من أهل بادوريا[3].»

---

١. انظر: الطبرى (٤ : ٨-٢٢). أيام القادسية أربعة: الأول يوم أرماث، والثاني يوم أغواث، والثالث يوم عماس، والرابع: يوم القادسية (يا) والليلة التي تلت يوم أرماث تسمى ليلة الهدأة، والليلة التي تلت يوم أغواث تسمىٰ ليلة السواد عند المؤرخين كما سيأتي ذكره.

٢. وفى الأصل ومط: قالوا.

٣. بادُريا (= بادُرِيا، باذُورياء): طسّوج من كورة الاستان بالجانب الغربى من بغداد (يا).

فأرسلوا إليها، فأخذوها به، وكانت قد أنزلته [في أيام شيرى][1] حين جمعهنّ في القصر الأبيض، وقتل الذكور إلى أخواله وكانت واعدتهم، ثم دلّته إليهم في زبيل[2]. فلما أخذت أمّه به، دلّتهم عليه، فأرسلوا، فجاؤوا به، فملّكوه وهو ابن إحدى [349] وعشرين سنة، واجتمعوا عليه واطمأنّت فارس، واستوسقوا، وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته. فسمّى الجنود لكلّ مسلحة كانت لكسرىٰ أو موضع ثغر. فسمّىٰ جند الحيرة وجند الأنبار والأبلّة والمسالح، وأظهروا الجدّ والنصيحة.

وبلغ ذلك من أمرهم واجتماعهم المثنىٰ والمسلمين، فكتبوا إلى عمر بما ينتظرون منهم. فلم يصل الكتاب إلى عمر، حتى كفر أهل السواد كلهم: من كان له عهد ومن لم يكن له عهد.

فكتب عمر إليهم:

ـ «فاخرجوا من بين ظهراني الأعاجم، وتفرّقوا في المياه التي تليهم على حدود أرضهم، ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مُضر ولا حلفاءهم من أهل النجدات، ولا فارساً، إلّا اجتلبتموه، فإن جاء طائعاً، وإلّا حشرتموه. إحملوا العرب على الجدّ إذا جدّ العجم.»

فنزل المثنىٰ بذي قار، ونزل الناس بالحلّ، وبشراف إلى غُضيّ ـ وغضيّ جبل[3] البصرة ـ فكان في أمواه العرب[4] من أولها إلى آخرها مسالح ينظر

١. تكملة زيدت عن الطبري (٤ : ٢٢١١).

٢. في الطبري ومط: زبيل. وفي بعض الأصول: «زنبيل». والزبيل بمعنى الزنبيل.

٣. مط: حدّ البصرة. الطبري: حيال البصرة. وفي حواشي الطبري: جبل البصرة، جبال البصرة (٤ : ٢٢١١).

بعضهم إلى بعض ويعين بعضهم بعضاً إن كان كون. وذلك فى ذى العقدة من سنة ثلاث عشرة [350] للهجرة.

وكتب عمر إلى عمّال العرب على الكور والقبائل أن:

ـ «لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة إلّا انتخبتموه، ثم وجّهتموهم إليّ، والعجل العجل[1].»

فمضت الرسل، ووافاه هذا الضرب من القبائل، وأخبروه عمّن وراءهم بالحثّ والجدّ.

وخرج عمر فى أول يوم من المحرّم سنة أربع عشرة حتى نزل ما يدعىٰ صِراراً، فعسكر به ولا يدرى الناس ما يريد. وكان عثمان أجرأ عليه، فقال له:

ـ «ما بلغك؟ ما الذي تريد؟»

فنادىٰ: «الصلوة جامعة.»

فاجتمع إليه الناس، فأخبرهم الخبر، ثمّ نظر ما يقول الناس.

فقام العامّة: سِر وسِر بنا معك!»

فدخل معهم فى رأيهم، وكره أن يدعه حتى يخرجهم منه فى رفق، فقال:

ـ «استعدّوا، فإنّى سائر، إلّا أن يجيء رأى هو أمثل من ذلك.»

ثم جمع أهل الرأى ووجوه أصحاب النبىّ ـ صلّى الله عليه ـ فقال:

ـ «أحضرونى الرأى.»

فأجمع ملأهم أن يقيم، ويبعث رجلاً من أصحاب رسول الله، ويرميه بالجنود.

فنادىٰ عمر: «الصلوة جامعة.»

---

٤. مط: أقواه العرب! الطبرى: أمواه العراق، وفى حواشيه: أمواه العرب (٤ : ٢٢١١).

١. هذا الكتاب «أول ما عمل به عمر حين بلغه أنّ فارس قد ملّكوا يزدجرد» (الطبرى ٤ : ٢٢١١).

فاجتمع إليه الناس. فأرسل إلى علىّ، وكان استخلفه [351] على المدينة، فأتاه، وإلى طلحة، وكان على مقدمته، فرجع إليه، وإلى الزبير وعبدالرحمان بن عوف، وكانا في المجنّبتين.

ثم قام فيهم، فقال:

ـ «إنّ الله جمع على الإسلام أهله، فألّف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً، فالمسلمون فيما بينهم كالجسد، لايخلو منه شيء مما أصاب غيره، وكذلك يحقّ عليهم أن يكونوا وأمرهم شورىٰ بينهم. فالناس تبع لمن قام لهذا الأمر ما اجتمعوا عليه، ورضوا به، وما رءاه أولوا الرأى لزم الناس، وكانوا له تبعاً. فمن قام بهذا الأمر فهو تبع لأولى الرأى. أيّها الناس! إنّى كنت كرجل منكم، حتى صرفنى ذوو الرأى عن الخروج، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الأمر من قدّمت ومن خلّفت.»

فكان طلحة ممن تابع وعبدالرحمان ممن نهاه وقال:

ـ «بأبى أنت وأمّى...»

قال عبدالرحمان: فما فديت أحداً بأبى وأمّى بعد النبى صلّى الله عليه غيره[١]، وقلت:

ـ «.. اجعل عجُزَها بى[٢]، وأقم، وابعث جنداً، فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك فإن يهزم جيشك [352] فليس كهزيمتك، وإنّك إن تُقتل أو تهزم فى أنف الأمر خشيت على المسلمين.»

---

١. انظر الطبرى (٤: ٢٢١٤).

٢. كذا فى مط والطبرى، وفى حواشيه: «لى» (نفس الصفحة).

قال عمر:

ـ «فأشيروا عليَّ برجل!»

قال عبدالرحمان: «وجدته.»

وكان ورد كتاب سعد بن أبي وقاص وهم في تلك الحال، جواباً عن كتاب عمر:

ـ «إنّي قد انتخبت لك ألف فارس[1] كامل كلّهم له نجدة ورأى وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم، إليه[2] انتهت أحسابهم ورأيهم فشأنك بهم.»

ووافق كتابه مشورتهم.

وقال عبدالرحمان: «وجدته لك[3].»

قال: «من؟»

قال: «الأسد عادياً، سعد بن مالك.»

فأرسل إليه، فقدم، فأمّره على حرب العراق، وأوصاه، وقال:

ـ «يا سعد سعد بني وهيب! لا يغرّنّك من الله أن قيل: خال رسول الله! ليس بينه وبين أحد نسب إلّا طاعته. فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء: الله ربّهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ منذ بعث إلى أن فارقنا ـ عليه، فالزمه، فإنّه الأمر.

١. الطبري: ألف فارس مؤدٍ (٤: ٢٢١٦).

٢. كذا في الأصل ومط: إليه. وفي الطبري (٤: ٢٢١٦): إليهم.

٣. الطبري: فقالوا: قد وجدت بدون «لك».

[353](١) هذه(٢) عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين.»

فسار سعد، ومات المثنى من انتقاض جراحته قبل أن يصل إليه سعد. وذاك أنّ جرحه كان ينتقض ويبرأ حتى مات. وقدم سعد، فأغار فى ما يليه، ولم يزل كذلك، إلى أن ألحّ يزدجرد على رستم، وقال:

ـ «لابدّ أن تلي حرب العرب بنفسك.»

فخرج رستم فى العدّة والعديد والخيول والفيول، وراسله سعد بالمغيرة بن شعبة وغيره من دهاة العرب وأصحابه من ذوى الهيئات والآراء، فجرت بينهم مخاطبات، لا تجربة فيها ولا فائدة فى المستأنف، فتركنا ذكرها.

إلى أن صافّهم رستم وعبر إليهم. وكان في القلب الذى فيه رستم ثمانية عشر فيلاً عليها الصناديق والرجال، وفى المجنّبتين ثمانية وسبعة عليها الصناديق والرجال، وأقام الجالنوس بينه وبين ميمنته، والفيرزان بينه وبين ميسرته، وبقيت القنطرة بين خيلين من خيول المسلمين والمشركين.

تدبير دبّره يزدجرد للإسراع فى تسلّم أنباء الحرب

وكان يزدجرد وضع بينه وبين رستم رجالاً: فأوّلهم على باب إيوانه والآخر [354](٣) على دعوة منه، بحيث يسمعه، والآخر كذلك إلى أن انتظم بينه وبين

١. حصل تقديم وتأخير في الأصل بين الصحفتين 353 و 354 فصححناه. أنظر الطبرى ٤ : ٢٢١٧، السطر الثاني.

٢. كذا فى الأصل ومط: «بعده». وفى الطبرى: «هذه» كما هو الصحيح.

٣. أنظر: الحاشية الخاصة بالصفحة 353 من الأصل.

رستم بالرجال. فلما نزل رستم بساباط قال الرجل الذى بساباط: «نزل» وقال الذى يليه، ثم الذى يليه، حتى يقوله من يلى الإيوان ويسمعه يزدجرد. فكان كلّما ارتحل، أو نزل، أو حدث أمر، جرى الأمر فيه على ما شرحته، وترك البرد. وكان ذلك شأنه إلى أن انقضى الحرب.

وكان بسعد حُبون[١] وخراجات يومئذ لا يستطيع أن يركب. فإنّما هو على وجهه، في صدره وسادة وهو مكبّ عليها، مشرف على الناس من القصر، يرمى بالرّقاع فيها أمره ونهيه إلى خالد بن عرفطة، وكان الصف إلى جانب القصر. فشغّب قوم من وجوه الناس على سعد، ولم يرضوا بما صنع خالد. فهمّ بهم سعد وشتمهم، ثم خطبهم، واعتذر إليهم، فرضوا، وأمر الرؤساء حتى خطبوا في من يلونهم، ففعلوا، وتحاضّوا وتواصوا.

فأما الفرس فإنّهم تعاهدوا، وتواصوا، واقترنوا بالسلاسل. فكان المقترنون ثلاثين ألفاً، وجملتهم مائة وعشرون ألفاً، وثلاثون فيلاً عليها المقاتلة، [355] وفيلة عليها الملوك وقوف لا تقاتل.

يوم أرماث

وأمر سعد فقرئ سورة الجهاد. وقال سعد:

ـ «إنى مكبّر، فإذا سمعتم التكبيرة الأولى فشدّوا شسوع نعالكم، فإذا كبّرت الثانية فتهيّأوا، فإذا كبّرت الثالثة فشدّوا النواجذ على الأضراس واحملوا.»

فلمّا فرغ القرّاء، كبّر سعد وكبّر الناس، ثم ثنّى فتهيّأ الناس، ثمّ ثلّث فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال.

---

١. مط: «جنون» ـ وهو خطأ ـ و «جراحات». وفي حواشي الطبري: حبوب، جنون! (٤ : ٢٢٨٧). والحبون جمع مفرده الحبن: الدمّلة المقيّحة. والخراجات ومفردها الخُراجة: كل ما يخرج بالبدن كالدُمَّل.

وخرج أمثالهم من أهل فارس، فاعتوروا الضرب والطعن. وخرج هـرمز إلى غالب بن عبدالله ـ وكان هرمز من ملوك الباب متوّجاً ـ فأسره غالب أسراً، وجاء به إلى سعد، فأُدخل، وانصرف إلى المطاردة. فبينا النـاس ينتظرون التكبيرة الرابعة، قام صاحب رجّالة بنى نهد، فقال:

ـ «يا بنى نهد، إنّما سمّيتم نهداً لتفعلوا.»

فبعث إليه سعد خالد بن عرفطة:

ـ «والله لتكفّنَّ، أو لأولّينَّ عملك غيرك.»

ولما تطاردت الفرسان خرج رجل ينادى:

ـ «مَرد ومَرد».[١]

فانتدب له عمرو بن معدى كرب، فرماه الفارسى بنشّابة، فما أخطأت سِيَةَ[٢] قوسه ـ وكان متنكّبها ـ فحمل عليه [356] عمرو، فـاعتنقه، ثـم أخـذ مـنطقته فاحتمله فوضعه بين يديه. ثم جاء به حتى إذا دنا منّا كسر عنقه، ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه، ثم ألقاه.

ثم قال: «أنا هكذا، فاصنعوا بهم، إنّما الفارسى إذا فقد قوسه تيس!»

فقلنا: «ياباثور[٣] من يستطيع أن يصنع كما تصنع؟»

وخرج إلى طليحة عظيم منهم، فبارزه، فما لبّثه طليحة أن قتله. وقام الأشعث بن قيس، فقال:

ـ «يا معشر كندة! لله درّ بنى أسد، أىّ فَرْيٍ يفرون[٤]، وأىّ هذٍّ يهذّون!»

وكذلك كانوا، لأنّهم حبسوا الفِيَلة بالضرب والطعن.

---

١. كذا فى مط والطبرى. مَرد: رجُل. أى: رجل ورجل [يتبارزان].

٢. الأصل غير واضح. وفى مط: سئة. والعبارة فى الطبرى (٥: ٢٢٩٧): فما أخطأت «سية» قوسه «وهو» متنكبها. سئة القوس وسؤتها: طرفها المعطوف المعرقب (لع: «سأى».)

٣. أى: يا أبا ثور.

٤. مط: أىّ فرّ يفرّون، وأىّ هذٍّ يهذّون.

ـ «.. يا معشر كندة! أراكم تنتظرون من يكفيكم الناس. العرب منذ اليوم يقاتلون وأنتم جُثاة على الرُّكَب تنتظرون.»

فوثب إليه عدّة، وقالوا:

ـ «عثر جدّك إنّك لتوبّخنا[1] ونحن أحسن الناس موقفاً، ها نحن معك.»

فنهد ونهدوا فأزالوا من بإزائهم. ولما رأى فارس ما تلقى الفيلة من كتيبة أسد، رموهم بحدّهم كلّه، وبدروا الشدّة على المسلمين عليهم ذو الحاجب والجالنوس والمسلمون ينتظرون [357] التكبيرة الرابعة من سعد. فاجتمعت حلبة فارس على أسد ومعهم الفيلة قد ثبتوا لهم. وكبّر سعد الرابعة، فزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد، وحملت الفيول على الميمنة والميسرة على الخيول، فكانت الخيول تُحجم عنها وتحيد.

فأرسل سعد إلى عاصم بن عمر، فقال:

ـ «يا معشر بني تميم. ألستم أصحاب الإبل والخيل، أمالكم لهذه الفيلة من حيلة؟»

قالوا: «بلىٰ والله.»

ثم نادىٰ في رجال من قومه رماة، وآخرين أهل ثقافة، فقال لهم:

ـ «يا معشر الرماة، ذبّوا ركبان الفيلة بالنَّبل.»

وقال: «يا معشر أهل الثقافة استدبروا الفيلة، فقطعوا وُضُنَها.»

وخرج يحميهم والرحى تدور على أسد وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد. وأقدم أصحاب عاصم بن عمرو على الفيلة، فأخذوا بأذنابها وأذناب توابيتها، فقطّعوا وضنها وارتفعت عن ظهورها. فما بقى لهم يومئذ فيل إلّا عرّى وقتل أصحابها، ونُفّس عن أسد، فردّوا عنهم فارس إلى مواقفهم، ولم يزالوا [358]

---

١. في الطبري (٥: ٢٣٠٠)، عثّر الله جدّك، إنّك لتؤبسنا. وفي حواشي الطبري: لتويسنا، لتوبسنا، لبؤسنا.

يقتتلون حتى غربت الشمس، ثم حتى ذهب هدأة من الليل. ثم رجع هؤلاء ورجع هؤلاء، وأصيب في أسد تلك العشيّة خمسمائة، وكانوا ردءاً للناس. وكان عاصم عادية الناس وحاميتهم. فهذا يومها الأوّل وهو يوم أرماث.

يوم أغواث [١]

ولما أصبح القوم على تعبئة من غد وقفوا. ووكّل سعد رجالاً بنقل الشهداء إلى العُذَيب، وإسلام الرثيث إلى النساء، يقمن عليهم، والناس ينتظرون بالجملة نقل الرثيث. فلمّا استقلّت بهم الإبل، وتوجّهت بهم نحو العذيب، طلعت بوادي الخيل من الشام، الذين صرفهم عمر بعد دمشق إلى العراق. وكان أبو عبيدة، لما قدم عليه كتاب عمر: أن يصرف أهل العراق أصحاب خالد بن الوليد ولم يذكر خالداً، ضنّ بخالد، واحتبسه عنده، وسرّح الجيش ـ وهم ستة آلاف ـ [359] وأمّر عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو. فعجّله أمامه. فانجذب القعقاع وطوىٰ وتعجّل، فتقدّم على الناس يوم أغواث، وقد عهد إلى أصحابه وهم ألف، أن يتقطّعوا أعشاراً: فكلما بلغ عشرة مدى البصر، سرّحوا في آثارهم عشرة. فتقدّم القعقاع أصحابه في عشرة، فأتى الناس، فسلّم عليهم، وبشّرهم بالجنود، وقال:

ـ «أيها الناس! إنّي قد جئتكم في قوم والله لو كانوا بمكانكم ثمّ أحسّوكم، لحسدوكم بحُظوتها، وحالوا أن يظفروا [٢] بها دونكم. فاصنعوا كما أصنع.»

فنادىٰ: «من يبارز؟»

فسكن الناس، وتذاكروا قول أبي بكر فيه: «لا يهزم جيش فيه مثل هذا.»

فخرج إليه ذوالحاجب، فقال له القعقاع:

---

١. أنظر الطبري ٥: ٢٣٠٣.

٢. في الطبري: أن يطيروا.

ـ «من أنت؟»

قال: «أنا بهمن جاذويه.»

فنادىٰ: «يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر.»

ثم اجتلدا، فقتله القعقاع.

وجعلت خيل القعقاع ترد قطعاً إلى الليل وينشط الناس، فكأن لم يكن بالأمس [360] مصيبة، وكأنّها استقبلوا قتالهم بقتل الحاجبي وللحاق القِطَع، وانكسرت الفرس لذلك.

ونادى القعقاع أيضاً: «من ينازل؟»

فخرج إليه رجلان أحدهما الفيرزان والآخر البِنْدُوان. فانضمّ إلى القعقاع الحارث بن ظبيان، فبادر القعقاع الفيرزان فضربه، فإذا رأسه مطروح؛ وبادر ابن ظبيان البندوان فضربه، فإذا رأسه كذلك. وتورّدهم فرسان المسلمين، وجعل القعقاع يقول:

ـ «يا معشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنّما يحصد الناس بها.»

فتواصى الناس واجتلدوا بها حتى المساء. فلم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئاً مما يعجبهم، وأكثر المسلمون فيهم القتل، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل، لأنّ توابيتها تكسّرت بالأمس، فاستأنفوا علاجها حين أصبحوا، فلم ترتفع حتى كان من الغد. وفي هذا اليوم حمل بنو عمّ القعقاع عشرة عشرة من الرجّالة على إبل قد ألبسوها، فهي مجلّلة مبرقعة، [361] وأطافت بهم خيولهم فحموهم، وأمرهم أن يحملوها على خيلهم بين الصفّين يتشبّهون بالفيلة، ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث. فجعلت الإبل لا تصمد لقليل ولا كثير إلّا نفرت خيلهم، وركبتهم سيوف[1] المسلمين. فلمّا رأوا ذلك استنّوا بهم، فلقى أهل

---

١. مط: خيول المسلمين. الطبري: إلّا نفرت «بهم» خيلهم وركبتهم «خيول» المسلمين (٥ : ٢٣٠٩).

فارس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقى المسلمون من الفيلة يوم أرماث.

وجعل رجل من بني تميم يتعرّض للشهادة، فأبطأت عليه حتى تعرّض لرستم يريده، فأصيب دونه.

وخرج رجل من فارس ينادي: «من يبارز؟»

فبرز له عِلباء[١]، فأسجده ونفحه الفارسي فأمعاه، فلم يستطع القيام، فعالجها، فلم يتأتّ له حتى مرّ به رجل من المسلمين، فقال:

ـ «يا هذا أعنّي على بطني.»

فأدخله له، فأخذ بصفاقيه، ثم زحف نحو صفّ فارس ما يلتفت على المسلمين، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعاً من مصرعه إلى صفّ فارس، وقال:

أرجُو بِهَا مِنْ ربّنا ثَوابَا قد كنتُ [ممّن][٢] أحسنَ الضِّرابَا [362]

وخرج رجل من أهل فارس ينادي[٣]: «من يبارز؟»

فبرز له الأعرف بن الأعلم العقيلي فقتله، ثم برز له آخر من فارس فقتله، ثم برز آخر فقتله، فأحاطت به فوارس منهم، فصرعوه، وندر سلاحه عنه، فأخذوه، فجعل يغبّر في وجوههم بالتراب حتى رجع إلى أصحابه وقال:

[و][٤] إن تأخذوا بزّي، فإنّي مجرّب[٥] خَروجٌ من الغمّاء، محتضرُ النّصرِ

١. الطبري: علباء بن جحش العجلي فأسحره فنفحه الفارسي.. (٥: ٢٣١٠).

٢. الأصل «كنت مما»، مط: «كنت ما» وما أثبتناه من الطبري (نفس الصفحة).

٣. الأصل: فينادي. فحذفنا الفاء كما في مط.

٤. الأصل ومط بدون «و» فزدناها كما في الطبري (٥: ٢٣١٠).

٥. وفي بعض الأصول: محرب.

وإنّــي لحــامٍ مــن وراءِ عشــيرتي رَكــوبٌ لآثــارِ الهــوى مُحفلُ الأمــرِ

وحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة، كلّما طلعت قطعة من الخيل حمل حملة فيصيب فيها. فقتل في يوم أغواث ثلاثين فارساً، وكان آخرهم بُزُرْجَمِهْر الهمداني، وقال القعقاع فيه:

حَــبَوتُه جــيّاشةً بــالنَّفسِ هــدّارةً مــثلَ شُــعاعِ الشَّــمسِ
في يَومِ أغواثٍ قــليل[1] الفــرسِ أنــخُسُ بــالقومِ أشدَّ النَّــخْسِ
حتي تَفيظَ[2] معشري ونفسي [363]

واقتتل الناس صتيتاً حتى انتصف الليل. فكانت ليلة أرماث تدعى «الهدأة»، وليلة أغواث تدعى «السواد». ولم يزل المسلمون يرون الظفر يوم أغواث في القادسية، وقتلوا عامّة أعلامهم، وجالت فيهم خيل القلب، وثبت رجلهم. فلولا أنّ خيلهم كرّت، لأخذ رستم أخذاً. وانتمى المسلمون لدن[3] أمسوا. فلمّا أمسى سعد وسمع ذلك نام، وقال لبعض من عنده:

ـ «إن تمّ الناس على الإنتماء فلا توقظني، فإنّهم أقوياء على عدوّهم، فإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني، فإنّهم على السواء؛ وإن سمعتهم ينتمون، فأيقظني، فإنّ انتماءهم لشرّ.»

١. في الأصل ومط: «قليل»، وفي الطبري (٥ : ٢٣١١): «فليل» مجروراً. الفليل: الجماعة.
٢. في الطبري ومط: تفيض. تفيظ: تموت.
٣. في الأصل: لدى. في الطبري: لدن أمسوا. مط: الذين أمسوا.

قصّة أبي محجن مع سلمىٰ وسعد

فلمّا اشتدّ القتال بالسواد، سأل أبو محجن سلمىٰ بنت خصفة، وكان محبوساً مقيّداً في القصر. فقال:

ـ «يا ابنة خصفة، هل لكِ إلى خير؟»

قالت: «وما ذاك؟»

قال: «تخلّين عنّي وتعيرينني البلقاء. فللّه عليَّ، إن سلّمني الله أرجع إليكِ حتى أضع رجليَّ في قيدي.»!

فقالت: «وما أنا وذاك؟»

فجعل يرسف في قيده وقال: [364]

كفىٰ حَزَناً أن تَردِيَ الخيلُ بالقنا　　وأُتــركَ مَشْـدوداً عـليَّ وَثـاقيَا
إذا قمتُ عنّاني[1] الحديدُ وغُلّقت　　مصاريعُ من دونى تصمُّ المُنادِيَا

قالت سلمىٰ: «إنّي استخرت الله، ورضيت بعهدك.»

فأطلقته وقالت:

ـ «أمّا الفرس فلا أعيرها.»

فرجعت.

«فاقتادها رويداً، وأخرجها من باب القصر، فركبها. ثم دبّ عليها حتي إذا كان بحيال الميمنة. ثم حمل على الميسرة ميسرة الفرس، يلعب برمحه وسلاحه بين الصفّين ـ وقد حُكى أنّ الفَرس كانت عرياً، وحُكى أنّها كانت بسرجها ـ ثم رجع من خلف صفّ المسلمين إلى الميسرة، فكبّر، وحمل على ميمنة القوم، يلعب بين

---

١. الأصل «غنّاني» وما أثبتناه يؤيده مط والطبري (٥ : ٢٣١٣).

الصّفين برمحه وسلاحه. ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب، فبدر أمام الناس، فحمل على القوم يلعب بين الصفّين برمحه وسلاحه. فكان يقصف الناس ليلتئذ قصفاً منكراً، وتعجّب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه بالنهار.

فقال بعض الناس: «هذا من أوائل أصحاب هاشم، أو هاشم نفسه.» [365]

وانتبه سعد وهو منكبٌّ مشرف من فوق القصر، فقال:

ـ «والله لولا محبس أبی محجن لقلت: إنّه هو وهذه البلقاء.»

وقال بعض الناس: «إن كان الخضر يشهد الحروب فهذا الخضر.»

وقال بعضهم: «لولا أنّ الملائكة لا تباشر [القتال] [١] لقلنا: ملك بيننا!»

فلما انتصف الليل حاجز أهل فارس، وتراجع المسلمون، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر من حيث خرج منه، ووضع عن نفسه وعن دابّته، وأعاد رجليه فی قيده، وقال فی أبيات:

لقد علمتْ ثقيفُ غيرَ فخرٍ ... بأنّا نحنُ أكرمُهمْ سُيوفَا
وأكثرُهمْ دُروعاً سابغاتٍ ... وأصبرُهم إذا كرهوا الوُقوفَا
وأنّا وفدُهم فی كلّ يومٍ ... فإن عميوا فسل بهمُ عَريفاً [٢]
وليلةَ قادسٍ لم يشعروا بی ... ولم أُشعرْ بمَخرجیَ الزُّحوفَا
فإن أُحبَسْ فذلكُمُ بلائی ... وإن أُتركْ أُذيقْهُمُ الحُتوفَا

وإنّما حبس فی أبيات قالها وهی:

---

١. كلمة «القتال» مأخوذة من الطبری ٥: ٢٣١٤.

٢. البيت تكملة من الطبری ٥: ٢٣١٥.

إذا متُّ، فادفنّي إلى أصلِ كرمةٍ ... ...[١]

فلمّا أصبحت سلمىٰ أتت سعداً، وكانت مغاضبة له، وصالحته وأخبرته [366] خبرها مع أبي محجن. فدعا به، وأطلقه، وقال:

ـ «إذهب، فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله، حتى تفعله.»

قال: «لاجَرم والله، لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً.»

يوم عِماس

أصبح الناس اليوم الثالث على مواقفهم وبينهم كالرَّجلة الحمراء ميل في عرض الصفّين، وقد قتل من المسلمين ألفان، ومن المشركين عشرة آلاف، وكان أهل الدين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر ويبلّغون الرثيث إلى النساء والصبيان، و [النساء و][٢] الصبيان يحفرون القبور في اليومين: يوم أغواث ويوم أرماث. وبات القعقاع ليلته كلها يسرّب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم بالأمس. ثم قال لهم:

ـ «إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة، كلّما توارت مائة فليتبعها مائة. فإن جاء هاشم فذاك، وإلّا جدّدتم للناس رجاءاً وجدّاً.»

ففعلوا ولا يشعر بذلك أحد.

---

١. والأبيات كما في الطبري (٥: ٢٣١٦) هي:

إذا متُّ فادفنّي إلى أصلِ كرمةٍ تروّي عظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفنّني بالفلاة فإنّني أخاف إذا ما متُّ ألّا أذوقُها
وتروى بخمر الحصّ لحدي فإنّني أسير لها من بعد ما قد أسوقُها

٢. تكملة من الطبري.

فأصبح الناس على مواقفهم قد أحرزوا قتلاهم: فأمّا [367] قتلى المشركين فقد أضيعوا، لأنّهم لايعرضون لأمواتهم، وكان ذلك مما صنع الله للمسلمين مكيدة ليشدّ بها أعضادهم.

فلمّا ذرّ قرن الشمس والقعقاع يلاحظ الخيل طلعت نواصيها. فكبّر، وكبّر الناس وقالوا: «جاء المدد» وقد كان عاصم بن عمرو أمر أن يصنع مثلها. فجاؤوا من قبل خَفّان. فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى لهم هاشم فى سبعمائة، فأخبروه برأى القعقاع وما صنع فى يوميه، فعبّئ أصحابه سبعين سبعين.

فلما نجز[1] أصحاب القعقاع خرج هاشم فى سبعين معه، فيهم قيس بن هُبيرة، حتى إذا خالط القلب كبّروا، وقد أخذ المسلمين الفرح[2]. فكبّروا جميعاً وقد أصلح المشركون توابيت الفيلة معها الرجّالة يحمونها أن تقطع وضنها ومع الرجّالة فرسان يحمونهم، إذا رأوا كتيبة دلفوا إليها بفيل واتباعه لينفروا به الخيل. فلم يكن ذلك منهم كما كان بالأمس، لأنّ الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد، كان أوحش [368] وأهول، وإذا طاف به الناس كان آنس. فكان القتال كذلك. وكان يوم عماس من أوّله إلى آخره شديداً، العجم والعرب فيه سواء، ولا يكون بينهم لفظة[3] إلّا تعاورها الرجال حتى تبلغ يزدجرد. فكان يبعث إليهم بأهل النجدات ممن بقى عنده فيقوون بهم، وتجيئهم الأمداد على البُرُد. فلولا الذى صنع القعقاع فى اليومين، ومجىء هاشم بعقبه كسر ذلك المسلمين، وما كان عامّة جُنن المسلمين إلّا براذع الرحال، قد أعرضوا فيها الجريد، ومن لم تكن له وقاية

---

١. كذا فى الأصل. مط: نحر. وفى حواشى الطبرى: نجر، نجز. وفى الطبرى: «فلما جاء آخر أصحاب القعقاع» (٥: ٢٣١٩).

٢. مط: وتداخل المسلمون الفرح! وفى الأصل: وقد أخلى المسلمون الفرخ (الفرج؟) وفى عبارة الأصل غموض، وما أثبتناه كان مكتوباً على هامش الأصل فرجّحناه.

٣. مط: لقطة. فى الطبرى: نقطه، وفى هامشه: بقطة.

لرأسه، عصّب رأسه بالأنساع. وأبلىٰ يومئذ قيس بن هبيرة بن مكشوح.

وقال عمرو بن معدى كرب:

ـ «إنى حامل على الفيل بازائهم، فلا تدعوني أكثر من جزر جزور، فإن تأخّرتم فقدتم أبا ثور، وأين لكم مثل أبى ثور، وإن أدركتمونى وجدتموني وفي يدى السيف.»!

فحمل، فما انثنىٰ حتى ضرب فيهم، وستره الغبار. فقال أصحابه:

ـ «ما تنتظرون؟ ما أنتم بخلقاء أن تدركوه، وإن فقدتموه فقد المسلمون فارسهم.»

فحلموا، فأفرج [369] المشركون عنه بعدما صرعوه وطعنوه وإنّ سيفه لفي يده يضاربهم به، وقد طعن فرسه. فلمّا انفرج عنه أهل فارس أخذ برجل فرس عليه فارسي، فحرّكه الفارسي، فاضطرب الفرس. فالتفت إلى عمرو، فهمّ به، فغشيه المسلمون. فنزل عنه، وحاضر إلى الفُرس[1]، وقال عمرو لأصحابه:

ـ «أمكنوني من لجامه.»

فأمكنوه منه فركبه.

اتّفاق جرىٰ يوم عماس ويُحذر أن يقع مثله

ومن الاتفاق الذى جرىٰ في يوم عماس ويحذر أن يقع مثله: أنّ رجلاً من الفرس خرج بين الصفّين فهدر وشقشق ودعا إلى البراز.

قال: فبرز رجل منّا يقال له: شبر بن علقمة، وكان قصيراً دميماً، وقال:

ـ «يا معشر المسلمين! قد أنصفكم الرجل.»

فلم يجبه ولم يخرج إليه أحد.

---

١. الطبرى: وحاضر إلى أصحابه (٥ : ٢٣٢٣). وضبط الأصل: الفَرَس.

فقال: «أما والله، لولا أن يزدروني لخرجت إليه.»

فلمّا رأى أنّ المسلمين لا يمنعونه أخـذ سـيفه وحَـجَفته، وتـقدّم. فـلمّا رآه الفارسي نزل إليه، فاحتمله، وجلس على صدره وأخذ سيفه ليذبحه وقد كان شدّ مقود فرسه بمنطقته. فلمّا سلّ السيف [370] حاص الفرس حيصة، فجذبه المقود، فقلبه عنه. فأقبل عليه وهو يُسحب، فافترشه. وجعل أصحابه يصيحون به، فقال:

ـ «صيحوا ما بدا لكم، فوالله لا أفارقه حتى أقتله وأسلبه.»

فذبحه وسلبه، ثم أتىٰ به سعداً، فقال:

ـ «إذا كان حين الظهر فائتني.»

فوافاه، فحمد سعد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

ـ «إني قد رأيتُ أن أنفّله إيّاه، وكلّ من سلب سلباً فهو له.»

فباعه باثني عشر ألفاً.

ما جرىٰ في يوم عِماس أيضاً

ولما عادت الفيلة لفعلها يوم أرماث تفرّق بين الكتائب، راسل قـوماً مـمن أسلموا من الفرس، فدخلوا عليه، فسألهم عن الفيلة: «هل لها مقاتل؟»

قالوا: «نعم! المشافر والعيون. لا ينتفع بها بعدها.»

فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو: «اكفياني الأبيض.» وذاك أنّ الفيلة كانت تألفه، وكان بإزائهما؛ وأرسل إلى حمّال والربّيل: «إكفياني الأجرب» ـ وكان بإزائهما.

فأما القعقاع وعاصم فانّهما أخذا رمحين أصمّين ليّنين، ثـم دبّـا فـي خـيل ورجل، وقالا:

ـ «اكتنفوه لتحيّروه.»

فنظر الفيل يمنة ويسرة وهما يريدان أن يخبط[١]. فحمل القعقاع وعاصم ـ والفيل متشاغل بمن حوله ـ فوضعا رمحيهما [371] فى عينى الفيل الأبيض، فقبع، ونفض رأسه، فطرح ساسته، ودلّىٰ مشفره، فبادره القعقاع، فنفحه بالسيف، فرمىٰ به، وأقعى الفيل، فقتلوا من كان عليه.

وأما حمّال والربّيل فانّهما قالا:

ـ «يا معشر المسلمين، أىّ الموت أشدّ؟»

قالوا: «أن تشدّا على هذا الفيل.»

قال: «فنزّقا فرسيهما حتى إذا قاما على السنابك ضرباهما على الفيل الذى بازائهم. فطعن أحدهما عينه فوطئ الفيلَ مَن خلفَه، ويضرب الآخر مشفره، فيضربه سائس الفيل ضربة شائنة في وجهه بالطبرزين، فأفلت بها هو والربّيل[٢]، فبقى الفيل متلدّداً بين الصفّين كلّما أتى صفّ المسلمين وخزوه، وإذا أتى صفّ المشركين نخسوه، وصاح الفيلان صياحاً عظيماً. ثم ولّى الأجرب الذى عوّر، فوثب فى العتيق فاتّبعته الفيلة فخرقت صفّ الأعاجم، وعبرت العتيق فى إثره، فبيّتت[٣] المدائن فى توابيتها. وهلك من فيها، وخلص المسلمون بأهل فارس، ومال الظلّ، فتزاحفوا، واجتلدوا بالسيوف حتى أمسوا. فلمّا طعنوا فى الليل اشتدّ القتال [372] وصبر الفريقان، ولم يسمع إلّا الغماغم من هؤلاء وهؤلاء. فسمّيت «ليلة الهرير» لم يكن بعدها قتال بليل بالقادسيّة.

ثمّ إنّ سعداً وجّه طليحة وعمرو بن معدى كرب إلى مخاضة كانت أسفل منهم، وخشى أن يؤتى المسلمون منها بعبور الفرس، ووصّاهما أن يقفا هناك. فإن أحسّا بكيد أنذرا المسلمين. فانتهيا إلى هناك، فلم يجدا أحداً. فأمّا طليحة فرأىٰ

---

١. فى الأصل: يخبط. فى الطبرى (٥: ٢٣٢٥): يتخبّطا.

٢. الأصل ومط: بها وهو الربّيل بتقديم «و» على «هو» وما أثبتناه يؤيده الطبرى (٥: ٢٣٢٥).

٣. وفى الطبرى: فأتت المدائن، وفى حواشيه: فبيّتت (٥: ٢٣٢٦).

أن يعبر، وأمّا عمرو فقال: «ما أُمرنا بذلك.»

فعبر طليحة حتى إذا صار وراء صفّ المشركين كبّر ثلاث تكبيرات، فدهش القوم، وكفّوا عن الحرب لينظروا ماهو، وطلبوه فلم يدروا أين سلك! وسفل حتى غاص، وأقبل إلى العسكر فأتىٰ سعداً خبره، فاشتدّ ذلك على الفرس، وفرح المسلمون. وقال طليحة للفُرس:

ـ «لا تعدموا أمراً ضعضعكم.»

ثم إنّهم عادوا، وجدّدوا تعبئة، وأخذوا فى أمر لم يكونوا عليه فى الأيام الثلاثة والمسلمون على تعبيتهم، فطاردهم فرسان العرب، فإذا القوم لا يشدّون، ولا يريدون إلّا الزحف [373] فقدّموا صفاً له أذنان، وأتبعوا آخر وآخر حتى تمّ صفوفهم ثلاثة عشر صفّاً فى القلب والمجنّبتين. فرماهم فرسان العسكر فلم يعطفهم ذلك. ثم لحقت بالفرسان الكتائبُ، فحمل القعقاع على ناحيته التى رمى بها مزدلفاً. فقاموا على ساق والناس على راياتهم، بغير إذن سعد.

فقال سعد: «اللّهمّ اغفرها له وانصره، واتميماه سائر الليلة.»

ثم قال: «إنّ الرأى ما رءاه القعقاع. فاذا كبّرتُ ثلاثاً فاحملوا.»

فلمّا كبّروا[١] واحدة حملت أسد. فقال: اللّهمّ اغفرها لهم وانصرهم. وا أسداه سائر الليلة.»

ثم حمل الناس وعصوا سعداً. فقام قيس بن المكشوح فى من يليه ـ ولم يشهد شيئاً من لياليها إلّا تلك الليلة، لأنّه كان آخر من ورد مع هاشم ـ فقال:

ـ «إنّ عدوّكم قد أبىٰ إلّا المزاحفة، والرأى رأى أميركم، وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجْل.»

قال القوم: «إذا زحفوا وطاردهم عدوّهم على الخيل لا رجال معهم عقّروا[٢]

---

١. فى الأصل: كبّروا، وما أثبتناه من مط.

٢. فى الأصل: عفروا. وما أثبتناه يؤيده الطبرى ومط (٥ : ٢٣٣١).

بهم، ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم. تيسّروا للحملة، وانتظروا التكبير.» ـ وإنّ نشّاب الأعاجم لتجوز [374] صفّ المسلمين.»

فتكلّم الرؤساء. فقال دريد بن كعب النخعي ـ وكان معه لواء النخع ـ:

ـ «إنّ المسلمين قد تهيّأوا للمزاحفة، فاستبقوا المؤمنين الليلة إلى الله والجهاد، نافسوهم الشهادة، وطيبوا نفساً بالموت، فإنّه أنجىٰ من الموت إن كنتم تريدون الحياة، وإلّا فالآخرة ما أردتم.»

وتكلّم الأشعث بن قيس، فقال:

ـ «لا ينبغى أن يكون هؤلاء أجرأ على الموت منّا، ولا أسخىٰ نفساً عن الدنيا، لا تجزعوا من القتل، فإنّه أمانيّ الكرام، ومنايا الشهداء.»

وترجّل وتكلّم طليحة فقال مثل ذلك، وتكلّم غالب وحمّال وأهل النجدات، فقالوا قريباً من ذلك، وفعلوا فعلهم. وقامت حربهم على ساق، حتى الصباح. فتلك ليلة الهرير.

وحكىٰ أنس بن الحُليس، قال: شهدت ليلة الهرير، فكان صليل الحديد فيها كصوت القُيون ليلتهم حتى الصباح، أفرغ عليهم الصبر إفراغاً، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قطّ، وانقطعت الأصوات عن رستم وسعد. فبعث سعد نجّاراً[1] ـ وهو [375] غلام ـ إلى الصفّ لم يجد رسولاً. فقال:

ـ «أنظر ما ترىٰ من حالهم.»

فرجع، فقال: «ما رأيت يا بنيّ؟»

قال: «رأيت قوماً يلعبون ويجدّون.»

فأوّل شيء سمعه سعد ليلتئذ مما يستدل به على الفتح فى نصف الليل الأخير،

---

١. الأصل: مهمل النقط مع تشديد الثانى. فى مط: زالت نقطة النون. وفى الطبرى: بجاد، وفى حاشيته: نجار (٥: ٢٣٣٤).

صوت القعقاع بن عمرو، وهو يقول:

نحنُ قتلنا معشراً وزائداً أربعةٌ وخمسةٌ وواحدَا
تحسبُ[١] فوق اللّبد[٢] الأساودا حتى إذا ماتوا دعوتُ شاهدَا[٣]
الله ربّي واحتردتُ[٤] جاهدَا

وأصبحوا ليلة القادسية ـ وهى ليلة الهرير. سمّيت بليلة القادسية من بين تلك الليالى والأيّام ـ والناس حسرىٰ لم يغمّضوا ليلتهم كلّها. فسار القعقاع فى الناس، فقال:

ـ «إنّ الدبْرة بعد ساعة لمن بدأ اليوم، فاصبروا فإنّ النصر مع الصبر.»

فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء، فصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه. ولمّا رأت ذلك القبائل قام فيها رجال، فقام قيس بن عبد يغوث المكشوح، والأشعث بن قيس، وعمرو بن معدى كرب، وأشباههم، فحضّوا الناس وحرّضوا.

[376]

فكان أوّل من زال حين قام قائم الظهيرة الهُرمُزان والبِندُوان[٥]، فتأخّرا وثبتا حيث انتهيا. وانفرج القلب، وركد عليهم النقع، وهبّت ريح عاصف، فقلعت طيارة رستم عن سريره، فهوت فى العتيق وهى دَبور، ومال الغبار عليهم. وانتهىٰ القعقاع وأصحابه إلى السرير، فعبروا به، وقد قام رستم حين طارت الريح بالطيارة إلى

١. كذا في الأصل وحواشي الطبري: تحسب، وفي الطبري ومط: «نُحسب».
٢. اللّبد: بساط من صوف، أو ما يجعل على الفرس تحت السرج.
٣. الطبري: جاهداً، وفي حواشيه: شاهداً.
٤. الأصل: «اجتردت» بقرينة مط، لأن نقطة الجيم فيه زائلة تقريباً. في الطبري: «احترزت عامداً» وفي حواشيه: «احتردت جاهداً».
٥. وفي الطبري: «البيرزان» (٥ : ٢٣٣٦).

بغال قدمت عليه بمال يومئذ فهي واقفة. فاستظلّ فى ظلّ بغل وحِمله. فقصده هلال بن علّفة، وولّىٰ عنه رستم، فاتبعه هلال، فرماه رستم، فشكّ قدمه فى الركاب، وقال بالفارسية:

ـ «بِباى[1].» ـ يقول: «كما أنت ارفق.»

فحمل عليه هلال، فضربه ضربة نفحت مسكاً. ومضىٰ رستم نحو العتيق، فرمىٰ بنفسه فيه، واقتحمه هلال عليه، فتناوله وقدم عام وهلال قائم. فأخذ رجله، ثم خرج به، وضرب جبينه بالسيف حتى قتله، ثم جاء به حتى رمى به بين يدى رحله وأرجل البغال، وأخذ سلبه، ثم صعد السرير، ونادىٰ:

ـ «قتلت رستم وربّ الكعبة، إلىّ إلىّ!»

فأطافوا به، وكبّروا وما يحسون السرير، ولا يرونه، وانهزم المشركون. [377]

وقام الجالنوس على الردم ونادىٰ أهل فارس إلى العبور، وأسفر الغبار. فأما المقترنون فإنّهم جشعوا. فتهافتوا فى العتيق، فوخزهم المسلمون برماحهم، فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون ألفاً.

درفش الكابيان وغيره من الأسلاب

وأخذ ضرار بن الخطّاب درفش الكابيان، فعوّض منها ثلاثين ألفاً. [٣٠،٠٠٠] وكانت قيمتها ألفى ألف ومائتى ألف [٢،٢٠٠،٠٠٠]. وجمعت الأسلاب والأموال، فجمع منها شيء لم يجمع قبله ولا بعده.

وأرسل سعد إلى هلال، فدُعى، فقال:

---

١. بباى = بپاى: فعل أمر من المصدر الفارسي: «پاييدن» والباء زائدة في صيغة الأمر. ومعناه: انتبه! (وفى هذا المعنى تشدّد الباء الفارسية. أى حرفه الثاني) أو: إبق، دُم، أو: قاوم، أو: ارصد؛ وفى الطبرى: فشكّها فى الركاب وقال بپايه. وفى الهامش: «بپايه، ببيابه، ببايه»، أى: اصبر. (٥ : ٢٣٤٣). وفيه أيضاً: «فشكها» ورستم يقول بالفارسية: «بپايه» أي: كما أنت، وفي الحاشية: «كما أتت» (٥ : ٢٣٥٦).

ـ «أين صاحبك؟»

قال: «رميت به تحت أبغل كانت هنالك.»

قال: «إذهب، وجئ به.»

فأمضى له سلبه. وبعث زهرة بن الحويّة[1] يتبع الجالنوس ومن لحق به، وأمر القعقاع بمن سفل، وشرحبيل بمن علا. وأمر بدفن الشهداء. فخرج زهرة بن الحويّة في آثارهم. فلمّا انتهى إلى الردم وجده مبثوقاً، ليمنعوهم من الطلب. فقال زهرة:

ـ «يا بكير ـ وكان معه ـ أقدم فرسك!» وكان بكير يقاتل على الإناث، وقال:

ـ «ثبي أطلال!»

فتجمّعت ووثبت. وأوثب زهرة فرسه [378] ـ وكان على حصان ـ فاتبعه وتتابع على ذلك ثلاثمائة فارس. ونادى زهرة حين كاعت[2] الخيل:

ـ «خذوا أيها الناس على القنطرة فعارضونا!»

ففعل الناس ذلك ومضى زهرة، فلحق الفرس، وقد نزلوا الخرّارة وطمعوا، وهم يتعجّبون من رميهم وأنّه لم يعمل في العرب. وكان الجالنوس قد رفع له كُرة[3]، فهو يرميها ويشكّها بالنشّاب. فشدّ زهرة على الجالنوس، فقتله، وانهزمت الفرس. وقد قيل: إنّ الجالنوس كان راكباً يحمي الفُرس حين لحقهم زهرة، فشاوله، واختلفا ضربتين سبقه زهرة، فقتله.

وأمّا القعقاع وشرحبيل فإنّهما خرجا في طلب من ارتفع وسفل، فقتلوهم في كلّ قرية وأجمة وشاطئ نهر، وراجعوا. فتوافوا عند صلاة الظهر، وهنّأ الناس

---

١. في الطبري: الحويه (٥ : ٢٣٣٨). مط: الجويّه.

٢. كاعت الخيل: مشت وتمايلت على أكواعها، من شدة الحرّ، أو لأنها عقرت. الكاع: طرف الزند الذي يلي الإبهام.

٣. وفي الطبري: الكرة وفي حواشيه: الكرّة (٥ : ٢٣٤٢، ٢٣٥٧).

بعضهم بعضاً. وأثنى سعد على كلّ حيّ، وذكر خيراً.

وتدرّع زهرة ما كان على الجالنوس، فبلغ بضعة وسبعين ألفاً. فلمّا رجع إلى سعد نزع سلبه وقال:

ـ «ألا انتظرت إذني؟»

فكتب عمر إلى سعد:

ـ «تعمد إلى مثل زهرة وقد صَلِي بما صلى به [379] وقد بقي من حربك ما بقي، تكسر قوّته[١]، وتفسد قلبه! أمض له سلبه، وفضّله عند العطاء بخمسمائة.»

وقد حكى أنّ عامة من شهد القادسية فضّلوا عند العطاء بخمسمائة. وأمّا أهل الأيام، فإنّهم فضّلوا على أهل القادسية، فإنّهم فرض لهم على ثلاثة آلاف.

فقيل لعمر:

ـ «لو ألحقت بهم أهل القادسية، أو فضّلت من بعدت داره على من قاتلهم بفنائه.»

فقال: «كيف أفضّلهم وهم شجى[٢] العدوّ، فهلّا فعل المهاجرون بالأنصار إذ قاتلوهم بفنائهم مثل هذا.»

فحكى عن رجل من عبس قال:

أصاب أهل فارس يومئذ بعدما انهزموا ما لم يصب الناس قبلهم. لقد كان الرجل من المسلمين يدعو الفارس منهم وعليه السلاح التامّ، فيأتيه حتى يقوم بين يديه فيضرب عنقه ويأخذ سلاحه، وربما قتله بسلاحه، وربما أمر الرجلين أحدهما بصاحبه، وكذلك في العدّة. وكان ممن هرب: الهرمزان، وقارن، وأهود. وكان ممن استقتل: شهريار بن كنارا، وابن الهربذ، والفرّخان، وخُسروشنوم[٣].

[380] وباع هلال بن علّفة سلب رستم ـ وكان تخفّف لما وقع في الماء ـ بسبعين

١. الطبري: تكسر قرنه (٥: ٢٣٤٢). ٢. الطبري: شجن العدو (٥: ٢٣٤٣).

٣. مهمل النقط وبدون الواو الأولى في الأصل ومط، وما أثبتناه هو من الطبري (٥: ٢٣٥٦).

ألفاً. وكانت قيمة قلنسوته مائة ألف [١٠٠،٠٠٠] لو ظفر بها.

وجاء نفر من العباد حتى دخلوا على سعد، فقالوا:

ـ «أيها الأمير، رأينا جسد رستم على باب قصرك، وعليه رأس غيره.»

وكان الضرب قد شوّهه، فضحك.

ومن أنباء الشام

وأما جند الشام فإنّ حمص افتتحت، وتوجّه علقمة إلى غزّة، وتوجّه معاوية إلى قيساريّة، وصمد عمرو بن العاص إلى الأرطبون[١] بأجنادين، وكان الأرطبون أدهى الروم، أبعدها غوراً، وأذكاها فعلاً، وكان على الروم، وقد وضع بالرملة جنداً عظيماً[٢]، وكتب عمرو إلى عمر [بالخبر][٣].

فقال عمر:

ـ «قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عمّا تنفرج.»

ذكر خديعة عمرو لأرطبون

وجعل عمرو يُنفذ إلى الأرطبون رسلاً فلا يشفونه[٤]. ولا يقدرون من أرطبون على سقطة. فعزم على أن يتولّاه بنفسه، فدخل عليه كأنّه رسول. فأبلغه ما [381] يريد، وسمع كلامه، وتأمّل حصونه حتى عرف ما أراد.

وقال أرطبون في نفسه:

ـ «والله إنّ هذا لعمرو، أو الذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت لأصيب القوم بأعظم عليهم من قتله.»

---

١. أرطبون، بالياء المثنّاة (لد). وفي الطبري أيضاً بالباء الموحدة (٥ : ٢٣٩٨).

٢. وزاد في الطبري: وبايلياء جنداً عظيماً.

٣. تكملة من الطبري.

٤. وفي الطبري: فلا تشفيه الرسل (٥ : ٢٣٩٩).

ثمّ دعا حرسيّاً، فسارّه بقتله، وقال:

ـ «اخرج بمكان كذا وكذا، فاذا مرّ بك هذا فاقتله.»

وفطن له عمرو فقال:

ـ «قد سمعت منّى وسمعت منك. فأمّا ما قلت فقد وقع منّى موقعاً، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطّاب مع هذا الوالى لنكاتفه ويُشهدنا أموره. فأرجع، فآتيك بهم الآن. فإذا رأوا فى الذى عرضت مثل رأيى فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، وكنت على رأس أمرك.»

فقال: «نعم.»

ودعا رجلاً، فسارّه وقال:

ـ «اذهبْ إلى فلان فردّه إلىّ.»

فرجع الرجل. وقال لعمرو:

ـ «انطلقْ، فجئْ بأصحابك.»

فخرج عمرو ورأىٰ ألّا يعود لمثلها، وعلم الرومى أنّه قد خدعه. فقال:

ـ «خدعنى الرجل. هذا أدهى الخلق.»

فبلغتْ عمر فقال:

ـ «خدعه عمرو وغلبه. لله عمرو.[١]»

سعد بن أبى وقّاص يقدّم زهرة إلى بهرسير

ثم إنّ سعد بن أبي وقاص [382] قدّم زهرة بهرسير[٢]. فمضىٰ زهرة من كوثىٰ فى المقدّمات حتى نزل بهرسير،فتلقاه شيرزاد بساباط بالصلح وتأدية الجِـزىٰ.

---

١. تجد التفاصيل عند الطبرى (٥: ٢٤٠٠).

٢. فى الأصل ومط: نهرسير. وبهرسير من نواحى بغداد قرب المدائن ويقال: «بهرسير الرومقان»، وقال حمزة: هى إحدى المدائن السبعة التى سميت بالمدائن وهى غربى دجلة (مع).

فأمضاه إلى سعد، فأقبل معه وتبعته المجنّبات. وخرج هاشم وخرج سعد في إثره وقد فلّ زهرة كتيبة كسرىٰ بوران [حول][١] المظلم[٢]، وانتهى هاشم إلى مظلم ساباط، ووقف لسعد حتى لحق به، وكانت به كتائب كسرىٰ تدعى: «الأسـود»، يحلفون بالله كلّ يوم:

ـ «لا يزول مُلك فارس ما عشنا.»

فتنادوا ورئيسهم المقرّط. وقال المقرّط:

ـ «إليّ إليّ.»

وذلك لما انتهى إليه. فنزل إليه هاشم فقتله. فقبّل سـعد رأس هـاشم، وقـبّل هاشم قدم سعد. وقدم سعد إلى بهرسير، فنزل إلى المظلم وقـرأ: ﴿أوَلم تكـونوا أقسمتم من قبلُ مالكُم من زوالٍ﴾[٣] ثم ارتحل فنزل بهرسير. وجعل المسلمون كلّما قامت طائفة على بهرسير، وقفوا، ثمّ كبّروا كذلك، حتى انجرّ[٤] آخر من مع سعد، فكان مقامه على بهرسير شهرين. وعبروا في الثـالث، وذلك أنّـهم أقـاموا شهرين يرمونهم بالمجانيق، ويدبّون إليهم بالدبابات، ويقاتلونهم بكلّ عُدّة. وكان [383] سعد استصنع شيرزاد عشرين منجنيقاً، فشغلوهم بها. وكانت العرب مطيفة ببهرسير والعجم متحصّنة فيها. وربما خرج الأعاجم يـمشون عـلى المسنّيات المشرفة على دجلة في العدّة والعديد لقتال المسلمين، فلا يقومون لهم. فكـان آخر ما خرجوا في رجّالة، وناشبة تجرّدوا للحرب، وتبايعوا على الصبر، فقاتلهم المسلمون ولم يلبّثوهم[٥]، فكذبوا وتولّوا.

---

١. تكملة من الطبري.

٢. المظلم: مظلم ساباط: موضع مضاف إلى ساباط التي بقرب المدائن (مع).

٣. س ١٤ إبراهيم: ٤٦.

٤. الطبري: «نجز» وفي حواشيه: «انجز». (١، ٢٤٢٥).

٥. الطبري: «ولم يثبتوا لهم» (٥ : ٢٤٢٨).

ذكر استهانة في الحرب عادت بهلكة

هكذا وجدت في التاريخ وهو سهو، لأنّ زهرة بن الحويّة عاش بعد هذا، وشهد مواقف كثيرة، وسيرد جميعه على الأثر. ولعلّ هذا زهرة بن خالد، فليُنظر في ذلك.

كان في ذلك اليوم على زهرة بن الحويّة درع مفصومة، فقيل له:

ـ «لو أمرت بهذا الفصم فسُرِد.»

فقال: «ولِمَ؟»

قال: «نخاف عليك منه.»

قال: «إنّي لكريم على الله، إن ترك سهمُ فارسٍ[1] الجندَ كلّهم، ثمّ أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيَّ.»

فكان أول رجل من المسلمين يومئذ أصيب هو [384] بنشّابة ثبتت فيه من ذلك الفصم.

فقال بعضهم: «إنزعوها عنه.»

فقال: «دعوني، فإن نفسي معي مادامت فيَّ، لعلّي أصيب منهم بطعنة، أو ضربة، أو خَطوة.»

فمضىٰ نحو العدوّ، فضرب بسيفه شهربراز من أهل إصطخر، فقتله، وأحيط به فقتل، وانكشفوا. وتنادىٰ أهل بهرسير، فعبروا. فلمّا رآهم سعد والمسلمون يعبرون، زحفوا إلى السور والمجانيق تأخذه. فناداهم رجل:

ـ «الأمان».

فآمنوه، فقال:

---

١. كذا ضبط في الأصل «فارسٍ»، والضبط عند الطبري: «فارسَ» (٥ : ٢٤٢٨).

ـ «أىّ شىء ترمون؟ ما بقى فى المدينة أحد.»

فتسوّروا، ودخلوا بهرسير، وفتحوا أبوابها، وتحوّل العسكر إليها، وحاولوا العبور، فوجدوهم قد ضمّوا السفن إليهم فى ما بين البطائح وتكريت.

بهرسير[١] وأبيض كسرى

ولما دخل المسلمون بهرسير لاح لهم الأبيض، فقال ضرار بن الخطّاب:

ـ «الله أكبر، هذا ما وعد الله ورسوله: أبيض كسرىٰ.»

والله لتتابعوا بالتكبير حتى أصبحوا. وخبّرهم ذلك الرجل الذى نادىٰ بالأمان: أنّكم حصرتم القوم حتى أكلوا الكلاب والسنانير.

ولمّا نزل سعد بهرسير ـ وهى المدينة التى كان فيها منزل كسرىٰ ـ طلب السفن [385] ليعبر بالناس إلى المدينة القصوىٰ، فلم يقدر على شىء، وأقام أيّاماً يصعّد ويصوّب. فأتاه أعلاج يدلّونه على مخاضة تخاض إلى صلب الوادى، فأبىٰ وأبقىٰ على المسلمين وفجئهم المدّ. فرأوا أمراً هائلاً فى سنةٍ جَودُ صيفها[٢] متتابع.

فجمع سعد الناس وخطبهم وقال بعد حمد الله:

ـ «إنّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا فيناوشونكم فى سفنهم، وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه، وقد كفاكموهم أهل الأيام، وعطّلوا ثغورهم، وأفنوا ذادتهم. وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدوّ

١. وهى المدينة الدنيا (الطبرى ٥ : ٢٤٣٢).

٢. فى الأصل: «فى سنة جود صيفيها متتابع» ولكنّا أثبتناه كما فى الطبرى (٥ : ٢٤٣٢) الجود: المطر الغزير.

بنيّاتكم قبل أن تحصدكم[١] الدنيا، ألا إنّى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.»

فقالوا جميعاً:

ـ «عزم الله لنا ولك على الرشد.»

فندب سعد الناس إلى العبور، فقال:

ـ «من يبدأ ويحمى لنا الفراض حتى لا يتلاحقوا[٢] ويلحق الناس، فلا يمنعوا من الخروج من الماء؟».

فانتدب له عاصم بن عمرو وجماعة من ذوى البأس. ثمّ انتدب بعدهم ستمائة من أهل [386] النجدات. فاستعمل عليهم عاصماً، فسار فيهم حتى وقف على شاطئ دجلة، وقال:

ـ «من ينتدب معى لمنع الفراض من عدوّكم لنحميكم حتى تعبروا؟»

فانتدب له ستون، فجعل نصفهم على خيول إناث، ونصفهم على ذكورة. ثمّ اقتحموا دجلة، واقتحم بقيّة الستمائة على أثرهم. فكان أول من فصل من الستمائة، رجل يعرف بأصمّ التيم وشرحبيل وعدّة من معه.

فلمّا رآهم الفرس وما صنعوا، أعدّوا للخيل التى عبرت مثلها، فاقتحموا دجلة فأعاموها إليهم. فقال عاصم وقد لقوه فى السرعان وقد دنا من الفرضة:

ـ «الرماح، الرماح أشرعوها، وتوخّوا بها العيون.»

فالتقوا، وتوخّى المسلمون عيونهم. فولّوا بأجمعهم والمسلمون يشمّصون[٣] بهم خيلهم ما يملك رجالها منع شيء منها، فلحقوهم فى الجدّ فقتلوا عامّتهم، ونجا من نجا منهم عوراناً، وتزلزلت بهم الخيل، وتلاحق الستمائة بأوائلهم الستين

---

١. فى الطبرى: تحصركم، تحصدكم، تخضدكم.   ٢. فى الأصل ومط: لا يتلاحقون.

٣. الطبرى: يشمسون (٥: ٢٤٣٣).

غير متعتعين، وأذن سعد للناس في الإقتحام وأمرهم بالاقتران، فتلاحق عُظم الجند، فركبوا من دجلة اللجّة وإنّها لترمي بالزبد [387] وهي مسودّة، وإنّ الناس ليتحدّثون في عومهم، وقد اقترنوا ما يكترثون، كما يتحدّثون في مسيرهم على الأرض. ففجئوا[١] أهل فارس بما لم يكن في حسابهم، فأعجلوهم عن جمهور أموالهم.

وكان يزدجرد قد قدّم عياله وما خفّ من ذخائره معهم حين نزل المسلمون بهرسير إلى حلوان. وبلغ ذلك سعداً. جاءه بالخبر بعض الأعلاج[٢] وقال:

ـ «ما تنتظر إذا كان بعد ثلاث لم يبق بالمدائن مال لكسرىٰ، ولا لأهله».

فكان ذلك مما هيّج سعداً وحمله على ما فعل. فكان قرين سعد الذي يسايره في الماء سلمان الفارسيّ، وكان سفيرهم، والمترجم لهم وعنهم.

وحكي: أنّ ذلك الخيل عبر بأجمعه، وقد اسودّت منه دجلة حتى ما يرى الماء، فسلموا بأجمعهم، ما فقدوا رجلاً واحداً، ولا أداة. غير أنّ رجلاً كانت له علاقة في قدح رثّة. فانقطعت، وذهب القدح في الماء، والتقطه رجل من الماء كان أسفل، تناوله برمحه، وجاء به إلى العسكر يعرّفه، فأخذه صاحبه.

وزال رجل من بارق يومئذ [388] يدعىٰ غرقدة عن ظهر فرس له شقراء، فنظر إليها المسلمون عُرياً[٣] تنفض أعرافها والغريق طاف، فثنّى القعقاع بن عمرو عنان فرسه إليه، فأخذ بيده، وجرّه حتى عبر، وكان البارقيّ من أشدّ الناس، فقال: أعجزت الأخوات[٤] أن يلدن مثلك يا قعقاع؟» ـ وكان للقعقاع فيهم

١. وفي مط: فعجبوا. في الطبري أيضاً: ففجئوا: (٥: ٢٤٣٤).

٢. جمع العلج: العير، الحمار، حمار الوحش السمين القوي، الرجل الضخم القوي من كفار العجم، وبعضهم يطلقه على الكافر عموماً.

٣. مهملة في مط والأصل. فرس عرى: غير مسرج، ويقال: خيل أعراء. قيل: ولا يقال: فرس عريان، كما لا يقال: رجل عرى (قب).

٤. والضبط في الأصل: أعجزت الأخوات.

خؤولة.

ومازالت حماةَ فارس يقاتلون على الفراض حتى أتاهم آتٍ فقال:

ـ «علامَ تقاتلون، ولِمَ تقتلون أنفسكم؟ فوالله ما في المدائن أحد.»

مبادرة يزدجرد إلى حلوان

وبادر يزدجرد إلى حلوان، وخلّف مهران الرازى والنخيرجان[١] ـ وكان على بيت المال بالنهروان ـ وخرجت الفرس بما قدرت عليه من حرّ المتاع وخفيفه وبالنساء والذرارىّ، وتركوا فى الخزائن من الثياب، والأمتعة والآنية، والفضول، والألطاف، والعطر، ما لا يدرى: ما قيمته. وخلّفوا ما كانوا أعدّوا للحصار من الأطعمة، والأشربة، وأصناف المأكول والحيوان من البقر، والغنم.

دخول المدائن

فدخل المسلمون المدائن، وأخذوا فى سككها لا يلقون فيها أحداً ولا يحسّونه، إلّا من كان فى القصر الأبيض. فأحيط بهم [389] ودعوهم. وكانوا قد اتعظوا بأهل بهرسير. وذلك أنّ المسلمين لما نزلوا عليهم أجّلوهم ثلاثاً، ودعوهم إلى ثلاث خصال: إمّا الاسلام، وإمّا الجزية، وإمّا الحرب. فلما لم يجيبوا فى [اليوم] الثالث أبادوهم. ولما دعوا أهل القصر الأبيض إلى مثل ذلك اختاروا الجزية. وكان المخاطِب لهم سلمان الفارسي.

وملك المسلمون الغنائم، واحتوىٰ سعد على بيوت المال، فوجد فيها ثلاثة آلاف ألف [٣٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠]. فنزل سعد القصر الأبيض، واتّخذ الإيوان مصلّى. وقدّم جيشاً إلى النهروان، عليهم زهرة، وتراجع إلى المدائن أهلها على

١. الأصل ومط: الكلمة مهملة إلّا فى النون الأخيرة. فى الطبرى: النخيرجان (٥: ٢٤٣٩).

الأمان والرضا بالجزية.

ووجدوا بالمدائن قباباً تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص، قالوا: فما حسبناها إلّا طعاماً من حلواء، فإذا هي آنية الذهب والفضّة! وقسمت بعد في الناس.

قال حبيب: لقد رأيت رجلاً يطوف ويقول:

ـ «من معه بيضاء بصفراء.»

ولقد أتينا على كافور كثير. فما حسبناه إلّا مِلحاً، فجعلنا نعجّن به الدقيق حتى وجدنا مرارته في الخبز!

ولما انتهى زهرة في المقدمة إلى النهروان [390] وجدهم قد ازدحموا، فوقع بغل في الماء كلبوا عليه. فقال زهرة:

ـ «إني أقسم بالله انّ لهذا البغل لشأناً ما كلب عليه القوم، ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلّا لأمر.»

وإذا الذى عليه خرزات كسرىٰ ووشائحه، وعليها من الجواهر ما لا تعرف قيمته، وكان يجلس فيها يوم المباهاة.

فترجّل زهرة يومئذ حتى أزاحهم عن البغل، فاحتمله هو وأصحابه، وجاؤوا بما عليه إلى صاحب الأقباض، لا يدرون ما عليه حتى فتح هناك.

تاج كسرىٰ وأدراعه

وحكىٰ هبيرة بن الأشعث عن جدّه قال:

كنت ممن خرج في الطلب، فإذا ببغلين فذاد راكباهما عنهما بالنشّاب[1]، ونظرت، وإذا لم يبق معهما غير نشّابين. فألححت بهما، فاجتمعا، فقال أحدهما

---

١. مط: مكان «فذاد» إلى «بالنشّاب»: «قد أدركناهما عنهما بالنشاب» وفي الطبري: قد ردّاً (ذبّا) الخيل عنهما بالنشاب (٥: ٢٤٤٦).

لصاحبه:

ـ «على ما أرىٰ، إرمه وأحميك، أو أرميه واحمني!»

فحمى كلّ واحد منهما صاحبه حتى رميا بهما. ثمّ إنّي حملت عليهما، فقتلتهما، وجئت بالبغلين ما أدرى ما عليهما، حتى أتيت بهما صاحب الأقباض وإذا هو يكتب ما يأتي به الناس وما يجمع من الخزائن والدور، فقال:

ـ «على [391] رسلك حتى ننظر ما معك!»

فأطلت الوقوف بعدما حصلت عنهما، فإذا سفطان على أحد البغلين فيهما تاج كسرىٰ مفسّخاً[1]، وكان لا يحمله إلّا أسطوانتان، وفيهما الجوهر، وإذا على الآخر سفطان فيهما ثياب كسرىٰ منسوجة بالذهب المنظوم بالجوهر.

وخرج القعقاع بن عمرو يومئذ في الطلب، فلحق بفارسيّ يحمى الناس، فاقتتلا، فقتله، وإذا مع المقتول جنيبة عليها عيبتان وغلافان، وفى أحد الغلافين خمسة أسياف[2]، وفي الآخر ستة أسياف[3]، وإذا فى إحدى العيبتين أدراع: درع كسرىٰ، ومغافره، وساقاه، وساعده، ودرع هرقل، وفى الآخر درع سياوخش، ودرع خاقان، ودرع داهر[4]، ودرع بهرام شوبين، ودرع النعمان، وكان الفرس استلبوها من أربابها أيام خالفوا كسرىٰ.

وحكىٰ عاصم بن الحارث قال:

خرجت فى الطلب، فأخذت طريقاً مسلوكاً، وإذا حمار. فلمّا رآني صاحبه حثّه، فلحق بآخر أمامه، فمالا، وحثّا حماريهما، فانتهيا إلى جدول قد كسر [392] جسره، فثبتا حتى أتيتهما، ثمّ تفرّقا ورماني أحدهما، فألظظت[5] حتى

---

١. كذا فى الطبرى (٥: ٢٤٤٦)، وفي مط: منسّجاً.

٢. مط: أشياف!

٣. مط: أيضاً: أشياف!

٤. كذا فى مط والطبرى، وفى الأصل: كلمة مطموسة لا تقرأ.

٥. ألظّ فى الحرب: ألحّ.

قتلته، وأفلت الآخر، ورجعت إلى الحمارين، فأتيت بهما صاحب الأقباض. فنظرنا، فاذا على أحدهما سفطان، فى أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضّة، علي ثَفَره ولَبَبه الياقوتُ والزمرّد منظوماً على الفضّة، ولجامه كذلك، وفارس من فضّة مكلّل بالجوهر؛ وإذا فى الآخر ناقة من فضّة عليها شليل من ذهب، وبطان من ذهب، ولهما[1] شناق أو زمام من ذهب، وكلّ ذلك منظوم بالجوهر؛ وإذا عليها رجل من ذهب مكلّل بالياقوت كان كسرىٰ يضعهما إلى أسطوانتى التاج.

وحكى غيره: أنّ رجلاً أقبل بحُقّ معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال هو والذين معه:

ـ «ما رأينا مثل هذا قطّ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه.»

ثمّ سألوه عن نفسه، فأبىٰ أن يخبرهم، وقال:

ـ «لا والله، لا أخبركم لتحمدونى، ولا لتقرّظونى، ولكنّى أحمد الله وأرضىٰ بثوابه.»

وقال سعد:

ـ «لولا ما سبق به أهل بدر[2]، لقلت: إنكم أفضل منهم وأكرم [393] وأيم الله، لقد تتبّعت من أهل بدر هنات وهنات فيما أحرزوا، وما أحسّها[3] ولا أسمعها من هؤلاء القوم.

وقال جابر بن عبدالله:

ـ «والله الذى لا إله إلّا هو، ما اطّلعنا على أحد من أهل القادسية أنّه يريد الدنيا مع الآخرة. ولقد اتّهمنا ثلاثة أنفس فما رأينا كأمانتهم وزهدهم وورعهم: طليحة

---

١. كذا فى مط: لهما. وفى الطبرى، لها (٥ : ٢٤٤٨).
٢. كلمة مطموسة فى الأصل، وما أثبتناه يؤيده الطبرى ومط.
٣. كذا فى مط: أحسها، وفى الطبرى: أحسبها، وفى حواشيه. أحسّها (٥ : ٢٤٤٩).

بن خويلد، وعمرو بن معدى كرب، وقيس بن المكشوح.»

عمر وتاج كسرىٰ

ولما قدم على عمر بن الخطّاب بتاج كسرىٰ وبزّته، وزبرجه، ومنطقته، وسلاحه، قال:

ـ «إنّ قوماً أدّوا هذا لذو أمانة.»

فقال عليّ صلوات الله عليه:

ـ «إنّك عففت فعفّت الرعيّة.»

ولما قسم سعد الفيء أصاب الفارس اثنا عشر ألف درهم، وكلّهم كان فارساً يوم المدائن، وليس فيهم راجل، وكانت الجنائب كثيرة. ولما نزل سعد المدائن بعث إلى العيالات، فأنزلهم الدور وفيها المرافق، فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء، وحلوان، وتكريت، والموصل. ثم تحوّلوا إلى الكوفة.

بساط يساوى جريباً

ولما قسم سعد الفيء أخذ يسأل بعد القسم وإخراج الخمس [394] [عن][1] القطف، فلم تعدل قيمته، فقال للمسلمين:

ـ «هل لكم فى أن تطيب نفساً عن أربعة أخماسه ونبعث به إلى عمر، فيضعه حيث يرى، فإنّا لا نراه ينفق بيننا؟»

فقالوا: «نعم، هاء[2] الله إذاً.»

فبعث. وكان ستّين ذراعاً في ستّين ذراعاً، بساطاً واحداً مقدار جريب، فيه: طرق كالصور، وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدير، وفى حافاته كالأرض

---

١. تكملة منّا. والعبارة فى الطبرى: «وفضّلَ بعد القسم ... القِطفُ فلم يعتدل قسمته» (٥: ٢٤٥٢).

٢. هاء بالكسر: هاتِ: أي اعط الله. هاء بالفتح: خذ. وضبط فى الطبرى: هاءَ اللهِ ولم أتته إلى وجه له.

المزروعة المبقلة بالنبات، وعليه ما كانوا يعدّونه في الشتاء، إذا ذهبت الرياحين، وكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه، وكأنّهم في رياض، لأنّ الأرض ـ أرض البساط ـ مذهّب، ووشيه فصوص، وعليه قضبان الذهب، عليها أنوار من الذهب والفضة، وأوراق كذلك من حرير قد أجرى فيه ماء الذهب، وكانت العرب تسميه القطف[١].

فلما قدم به على عمر جمع الناس، وخطبهم، واستشارهم في البساط، وأخبرهم خبره. فاختلف عليه الناس، فمن مشير بقبضه وآخر مفوّض إليه، وآخر مرقّق.

فقام عليّ عليه السلام فقال:

ـ «لم تجعل [395] علمك جهلاً، ويقينك شكّاً؟ إنّك إن تقبله على هذا، اليوم، لم تعدم في غد من يستحلّ به ما ليس له.»

فقال: «صدقتني ونصحتني.»

فقطعه وقسمه. وأصاب عليّاً قطعة منه باعها بعشرين ألفاً. وما هي بأجود تلك القطع[٢].

---

١. وفي الطبري: القِطف، القطيفه (٥ : ٢٤٥٣).

٢. وعند الطبري روايتان:

الاولى: ثمّ قسم [عمر] الخمس في مواضعه، ثم قال: أشيروا عليّ في هذا القطف! فأجمع ملأهم على أن قالوا: «قد جعلوا ذلك لك، فر رأيك»، إلّا ما كان من عليّ، فإنّه قال: «الأمر كما قالوا، ولم يبق إلّا التروية. إنك إن تقبله على هذا، اليوم، لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له». قال: «صدقتني ونصحتني»، فقطعه بينهم.

والثانية: فقام عليٌّ ـ حين رأى عمر يأبى ـ حتى انتهى إليه، فقال: «لِمَ تجعل علمك جهلاً، ويقينك شكّاً؟ إنه ليس من الدنيا إلّا ما أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت». قال: «صدقتني ونصحتني»، فقطعه، فقسمه بين الناس. فأصاب عليّاً قطعة منه، فباعها بعشرين ألفاً، وماهي بأجود تلك القطع. (الطبري ٥ : ٢٤٥٢).

زيّ كسرى على محلّم

ولما عرض على عمر ـ رضى الله عنه ـ حليّ كسرىٰ وزيّه فـي المـباهاة ـ وكانت له عدّة أزياء لكلّ حالة زيّ ـ قال:

ـ «عليّ بمحلّم.»

وكان أجسم عربيّ يومئذ بالمدينة، فألبس تاج كسرى عـلى عـمودين مـن خشب وصبّ عليه أوشحته وقلائده وثيابه، وأجلس للـناس. فـنظر إليـه عـمر والناس، فرأوا أمراً عظيماً من أمر الدنيا وفتنتها. ثم أقيم عـن ذلك، وألبس زيّـه الآخر، فنظروا إليه، ثم كذلك فى غير نوع حتى أتى عليها كلّها، ثم ألبسه سلاحه، وقلّده سيفه، فنظروا إليه فى ذلك.

فقال عمر:

ـ «إنّ أقواماً أدّوا هذا لذوو أمانة.»

قال: «أحمق بامرئ من المسلمين غرّته الدنيا، هل يبلغنّ مغرور منها إلّا دون هذا؟ وما خير امرئ مسلم سبقه كسرىٰ فيما يضرّه ولا ينفعه. إنّ [396] كسرىٰ لم يزد على أن تشاغل بما أوتي عن آخرته، فجمع لزوج امرأته، أو زوج ابنته، أو امرأة ابنه، ولم يقدّم لنفسه، فقدّم أمرؤ لنفسه، ووضع الفضول مواضعها تحصل له، وإلّا حصلت للثلاثة بعده، وأحمق من جمع لهم أو لعدوّ جارف.»

وقعة جلولاء

ثمّ إنّ سعداً أتاه الخبر بأنّ مهران قد عسكر بجلولاء[1] وخندق عليه، وأنّ أهل

---

١. فى الأصل وفى مط وفى بعض أبيات الشعر بالقصر أى بدون الهمزة فصححنا الأصل استناداً إلى ياقوت والطبرى (٥ : ٢٤٥٦). جلولاء بالمدّ: طسوج من طساسيج السواد بينها وبين خانقين سبعة ←

الموصل قد عسكروا بتكريت. وكتب إلى عمر بذلك. فكتب إليه عمر:

ـ «قدّم هاشماً إلى جلولاء في اثنى عشر ألفاً من وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن ارتدّ، ومن لم يرتدّ. واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو.»

وكان الفرس لما انتهوا بعد الحرب من المدائن إلى جلولاء، رأوا الطريق يفترق بأهل آذربيجان والباب وبأهل الجبال وفارس. فتذامروا، وقال بعضهم لبعض:

ـ «يا معشر الفرس، إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً. هذا مكان يفرّق بيننا. فهلمّوا، فلنجتمع للعرب به، ولنقاتلهم بجميع عزائمنا. فإن كانت لنا فهو الذى نريد، وإن كانت الأخرى، [397] كنّا قد أبلينا العذر.»

فاحتفروا الخندق، واجتمعوا فيه، على مهران، ونفذ يزدجرد إلى حلوان، ورماهم بالرجال، وخلّف فيهم الأموال. فأقاموا في خندقهم وقد أحاطوا به الحسك من الخشب إلّا طرقهم.

فلمّا قدم هاشم أحاط بهم، وطاولهم أهل فارس، وكانوا لايخرجون إلّا إذا أرادوا. وزاحفهم المسلمون بجلولاء ثمانين زحفاً كلّ ينصر المسلمون، ويغلب المشركون، حتى غلبوهم على حسك الخشب، فاتخذوا حسك الحديد، وتركوا للمجال وجهاً. فخرجوا على المسلمين منه، واقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله ولا ليلة الهرير، إلّا أنّه كان أكمش وأعجل، ولم ير المسلمون ولا المشركون مثله في موطن قطّ حتى أنفذوا النبل، وقصفوا الرماح، وصاروا إلى السيوف والطبرزينات. فكانوا بذلك إلى بين الصلاتين، وصلّى الناس إيماءاً.

ثمّ خنست كتيبة للمشركين وجاءت أخرى، فوقفت مكانها، ثمّ كذلك، فكسر المسلمين ما رأوا.

فقال القعقاع بن عمرو:

← فراسخ (يا). كان فتح جلولاء في ذى القعدة سنة ١٦ في أوله. بينها وبين المدائن تسعة أشهر (الطبرى ٥: ٢٤٧٠).

ـ «أيها الناس، أهالتكم [398] هذه؟»

فقالوا: «وكيف لا يهولنا ونحن مكلّون وهم مريحون.»

فقال القعقاع: «إصبروا إلى الساعة، فإنّي حامل عليهم، فاحتملوا معي ولا يكذّبنّ[1] أحد حتى يحكم الله بيننا.»

ثمّ حمل، وحمل معه الناس، وانتهى بالقعقاع وجهه الذى زاحف فيه إلى باب خندقهم، فأخذه. وأمر منادياً فنادى:

ـ «يا معشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل الخندق وأخذ به، فأقبلوا إليه، ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله.»

وإنّما أمر بذلك ليقوّى المسلمين به، ولئلّا يتحاجزوا. فحمل المسلمون ولا يشكّون إلّا أنّ هاشماً في الخندق. فلم يقم لحملتهم شيء، حتى انتهوا إلى باب الخندق فإذا هم بالقعقاع قد أخذ به. والمشركون يمنة ويسرة على المجال الذى بحيال خندقهم. فهلكوا فيما أعدّوا للمسلمين من الحسك، وعُقرت دوابّهم وعادوا رجّالة، ويتّبعهم المسلمون. فلم يفلت إلّا من لا يعدّ، وقتل منهم يومئذ مائة ألف أو يزيدون، فجلّلت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه، فسمّيت: «جلولاء الوقيعة». [399]

واقتسم الناس في جلولاء مثل ما اقتسموا في المدائن. ويقال: إنّهم اقتسموا على ثلاثين ألف ألف، [٣٠،٠٠٠،٠٠٠] وكان الخمس منه ستة ألف ألف [٦،٠٠٠،٠٠٠]. واقتسم السبايا، فاتخذن، وولدن في المسلمين.

استيذان عمر في الإنسياح

ولما بلغت الهزيمة يزدجرد، سار من حلوان نحو الجبل، وقدم القعقاع حلوان.

---

١. لا يكذّبنّ أحد: لا يحجمنّ عن الحملة هيبة. كذّب عن أمر: أحجم عنه هيبة. وفي مط: لا يكذّين. وأيّد قراءتنا للأصل ما في الطبرى (٥: ٢٤٦٢).

وكوتب عمر بفتح جلولاء ونزول القعقاع حلوان، واستأذنوه في اتّباعهم، فقال:

ـ «وددت أن بين السواد وبين الجبل سدّاً من نار لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم. حسبنا من الريف السواد. إني قد آثرت سلامة المسلمين على الأنفال.»

وبعث بالأخماس مع جماعة فيهم زياد بن أبي سفيان، وكان هو الذي يكتب للناس ويدوّنهم.

فلمّا قدموا على عمر، كلّم زياد عمر فيما جاء له من الإستيذان في التقدّم، ووصف له الحال.

فقال عمر: «هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلّمتني به؟»

فقال: «والله، ما على الأرض شخص أهيب في صدري منك، فكيف لا أقوىٰ [400] على هذا من غيرك!»

فقام في الناس بما أصابوا، وبما صنعوا، وبجميع ما يستأذنون فيه من الإنسياح في البلاد.

فقال عمر: «هذا الخطيب المصقع.»

وقال: «إنّ جندنا بالفعال أطلقوا ألسنتنا بالمقال.»[١]

ثمّ إنّ عمر لما نظر إلى الأخماس المحمولة من جلولاء قال:

ـ «والله، لا يُجِنّنّه سقف بيت حتّى أقسمه.»

فبات عبدالرحمان بن عوف، وعبدالله بن الأرقم يحرسانه في سقف المسجد. فلمّا أصبح جاء في الناس، فكشف عنه الأنطاع. فلمّا نظر إلى ياقوته، وزبرجده، وجوهره، بكىٰ.

فقال له عبدالرحمان:

ـ «ما يبكيك يا أميرالمؤمنين؟ فوالله، إنّ هذا لموطن شكر وسرور.»

---

١. وفي الطبري: إنّ جندنا أطلقوا بالفعال لساننا (٥: ٢٤٦٦).

فقال عمر: «ماذا يبكيني؟ والله، ما أعطى الله هذا قوماً إلّا تحاسدوا، وتباغضوا. ولا تحاسدوا إلّا وقع بأسهم بينهم.»

ولما فرض عمر العطاء، قال قائل:

ـ «يا أميرالمؤمنين، لو تركت في بيوت الأموال عُدّة لكون إن كان.»

فقال: «كلمة ألقاها الشيطان على فيك، وقاني الله [401] شرّها، وهي فتنة لمن بعدي. بل أعدّ لهم ما أعدّ الله ورسوله. طاعة الله ورسوله، فهما عدّتنا التي بها أفضينا إلى ما ترون.»

ما عامل به عمر خالد بن الوليد

وفي سنة سبع عشرة، أدرب[١] خالد بن الوليد وعياض، وكان خالد على قنّسرين من تحت يد أبي عبيدة، فأصابوا أموالاً عظيمة. فانتجع خالداً رجال. وكان الأشعث بن قيس فيمن انتجع خالداً بقنّسرين، فأجازه بعشرة آلاف، وكان عمر لا يخفى عليه شيء في عمله، فكتب إليه بخروج من خرج من تلك الغزاة من الشام، وبجائزة من أجيز.

فدعا البريد وكتب معه إلى أبي عبيدة:

أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمكم من أين أجاز الأشعث: أمن ماله، أم من إصابة، فإن زعم أنّها من إصابة أصابها، فقد أقرّ بخيانة، وإن زعم أنّها من ماله، فقد أسرف، فاعزله على كلّ حال، واضمم إليك عمله.

١. أدرب القوم: دخلوا أرض العدوّ.

فكتب أبو عبيدة إلى خالد، فقدم عليه. ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر، فقام [402] البريد، فقال:

ـ «يا خالد! أمن مالك أجزت بعشرة آلاف، أم من إصابة؟»

فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً.

فقال بلال بعد أن قام إليه:

ـ «إنّ أميرالمؤمنين أمر بكذا وكذا.»

وتناول عمامته فنقضها[١]، لا يمنعه سمعاً وطاعة. ووضع قلنسوته، ثم أقامه، فعقله بعمامته وقال:

ـ «ما تقول، أمن مالك، أم من أصابة؟»

قال: «لا. بل من مالى.»

فأطلقه، وأعاد قلنسوته، ثمّ عممه بيده وقال:

ـ «نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخّم ونخدم موالينا.»

وأقام خالد متحيّراً لا يدرى: أمعزول أم غير معزول. وجعل أبو عبيدة يكرمه ويزيده تفخيماً ولا يخبره. فلمّا طال على عمر أن يقدم خالد، ظنّ الذى كان.

فكتب إليه بالإقبال.

فأتىٰ خالد أبا عبيدة، فقال:

ـ «رحمك الله، ما أردت إلى ما صنعت؟ كتمتنى أمراً كنت أحبّ أن أعرفه قبل اليوم.»

فقال أبو عبيدة:

ـ «إنى والله ما كنت لأروعك: ما وجدت بدّاً، وقد علمت أنّ ذلك يروعك.»

فرجع [403] خالد إلى قنّسرين فخطب أهل عمله، وودّعهم، وتحمّل، ثم

---

١. فى الأصل: فنقضها. وصححناه بما فى مط.

خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر، فشكاه، وقال:

ـ «لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله، إنّك فى أمرى غير مجمل يا عمر.»

فقال له عمر:

ـ «من أين هذا الثراء؟»

قال: «من الأنفال والسُّهمان.»

ثمّ أخذ منه عشرين ألف درهم، فأدخلها بيت المال. ثمّ قال:

ـ «يا خالد، والله إنّك علىّ لكريم، وإنّك إلىّ لحبيب، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شيء.»

وكتب عمر فى الأمصار:

ـ «إنّى لم أعزل خالداً عن سخط ولا خيانة ولكنّ المسلمين فتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا [به][١] وأحببت أن تعلموا أنّ الله هو الصانع، وألّا نكون بعرض فتنة.»[٢]

وحجّ عمر فى هذه السنة، وبنى المسجد الحرام، ووسّع فيه، وأقام بمكة عشرين ليلة، وهدم على أقوام أبوا أن يبيعوا، ووضع أثمان دورهم فى بيت المال حتى أخذوها.

علاء بن الحضرمي وعاقبة عصيانه

وكان علاء بن الحضرمي بالبحرين والياً من قبل أبى بكر ثمّ من قبل عمر [404] وكان يبارى[٣] سعداً. فطال[٤] العلاء على سعد فى الردّة بالفضل. فلمّا

---

١. تكملة من الطبرى.
٢. راجع الطبرى (٥: ٢٨ ـ ٢٥٢٦).
٣. الكلمة مطموسة فى الأصل وأثبتناها كما فى مط والطبرى (٥: ٢٥٤٦).
٤. كذا فى الأصل ومط: فطال، وفي الطبرى: فطار.

ظفر سعد بالقادسيّة، وأزاح الأكاسرة، وأخذ حدود ما يلي السواد وغيرها، واستعلىٰ، وجاء بأعظم مما كان العلاء جاء به؛ أحبّ العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم، ورجا أن يدال كما قد أديل.

ولم ينظر العلاء في ما بين فضل الطاعة والمعصية بجدّ. وكان عمر لما ولّاه نهاه عن البحر، فلم يفكّر في الطاعة والمعصية وعواقبهما، وطمع في فارس من جهته.

فندب أهل البحرين إلى فارس، فتسرّعوا إلى ذلك، وفرّقهم أجناداً: على أحدها الجارود بن المُعلّىٰ، وعلى الآخر السوار بن همّام، وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى، وخليد على جماعة الناس. فحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر. فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا في إصطخر وبإزائهم أهل فارس وعلى أهل فارس الهربذ، اجتمعوا عليه، فحالوا بين المسلمين وبين سفنهم.

فقام خليد في الناس فقال:

ـ «أمّا بعد، فإنّ الله إذا قضىٰ أمراً جرت به المقادير [405] حتى يصيبه، وإنّ هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم، وإنّما جئتم لمحاربتهم والأرض والسفن لمن غلب، فاستعينوا بالصبر والصلاة.»

فأجابوه إلى ذلك وصلّوا الظهر، ثم ناهدوهم في موضع يقال له: طاؤوس. فقتل جماعة من المسلمين فيهم السوار والمنذر بن الجارود. وترجّل خليد بن

المنذر وارتجز:

يالَ تـميمٍ[١] جـمّعوا النـزول قد كاد[٢] جيش عـمرٍ يـزولُ
وكلّكم يعلمُ ما أقولُ

ـ «وانزلوا!»

فنزلوا، فقاتلوا القوم، فقتل أهل فارس مقتلة لم يقتلوا مثلها، وهزم الباقون. ثم خرجوا يريدون البصرة، فغرقت سفنهم ولم يجدوا إلى الرجوع سبيلاً. فـوجدوا سُهرَك[٣] قد أخذ على المسلمين بالطرق، فعسكروا وامتنعوا فى نشوبهم ذلك.

وبلغ عمر ما صنع العلاء من بعثه ذلك الجيش فى البحر، فألقى فى روعه نحو من الذى كان. فاشتدّ غضبه على العلاء، وكتب إليه بعزله، وتوعّده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، وقال له:

ـ «إلحق بسعد بن أبى وقّاص فى من قبلك، فهو [406] أمير عليك.»

فخرج بمن معه نحو سعد.

وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان:

ـ «إنّ العلاء بن الحضرمى حمل جنداً من المسلمين، فأقطعهم أهل فارس وعصانى، وأظـنّه لم يـرد الله بـذلك، فـخشيت عـليهم ألّا ينصروا، وأن يغلبوا، وينشبوا. فاندب إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يجتاحوا.»

---

١. الطبرى: «يال تميم أجمعوا». (يال = يا آل). وفى الأصل: يالتميمِ.

٢. الطبرى: «وكاد» (٥: ٢٥٤٨).

٣. كذا فى مط: سهرك. وفى الطبرى: شهرك، سهرك (٥: ٢٥٤٨).

فندب عتبة الناس إليهم وأخبرهم بكتاب عمر. فانتدب عاصم بن عمرو وعرفجة وجماعة يجرون مجراهم كالأحنف بن قيس، وسعد بن أبي العرجاء، وصعصعة بن معاوية، فخرجوا في اثنى عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم. فسار أبو سبرة بالناس وساحَلَ لا يلقاه أحد ولا تعرّض له حتى التقىٰ مع خليد، بحيث أخذ عليهم الطريق غبّ وقعة القوم بطاؤوس، وإنّما كان ولي قتالهم أهل إصطخر والشذّاذ من غيرهم، وقد كان أهل إصطخر حيث أخذوا بالطرق على المسلمين وأنشبوهم، استصرخوا أهل فارس كلهم، فضربوا إليهم من كلّ وجه وكورة.

فالتقوا هم وأبو سبرة بعد طاؤوس وقد توافت إلى [407] المسلمين أمدادهم، وإلى المشركين أمدادهم، وعلى المشركين شُهرك. فاقتتلوا، ففتح الله على المسلمين، وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا، وهي الغزاة التي شرفت فيها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار، ثم انكفأوا بما أصابوا. وكتب إليهم عتبة بالحثّ وقلّة العرجة، فانضمّوا إليه بالبصرة، وقبل ذلك فتح عتبة الأهواز، وقاتل فيها الهرمزان حتى ظفر به بتستر بعد وقعات أسر في آخرها الهرمزان وأعطى بيده على الرضا بحكم عمر. وقتل الهرمزان بيده البراء بن مالك[١] ومجزأة بن ثور.

إرسال الهُرمُزان إلى المدينة

ووفد أبو سبرة وفداً فيهم أنس بن مالك، والأحنف بن قيس. فأرسل الهرمزان معهم فقدموا[٢] مع أبي موسى البصرة، ثم خرجوا نحو المدينة.

---

١. في الأصل: ثور، وهو خطأ، وما أثبتناه يؤيده مط والطبري (٥: ٢٥٥٦).

٢. كذا في مط: فقدموا. والأصل غير واضح.

فلما دخلوها هيّأوا الهرمزان في هيأته[١]، وألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب، ووضعوا على رأسه تاجاً يدعى الـ «آذين» مكلّلاً بالياقوت، وعليه حليته كي ما يراه عمر والمسلمون. ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله، فلم يجدوه. فسألوا عنه. [408] فقيل لهم: «جلس[٢] في المسجد.» ولم يروه. فلمّا انصرفوا، مرّوا بغلمان من أهل المدينة يلعبون.

فقالوا لهم:

ـ «ما تلدّدكم[٣]، تريدون أميرالمؤمنين؟ فإنّه نائم في ميمنة المسجد، متوسّد بُرْنُسَه.[٤]»

وكان عمر جلس لوفد الكوفة في بُرْنُسٍ. فلمّا فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه، نزع بُرْنُسَهُ، ثمّ توسّده فنام.

فانطلقوا ومعهم النظّارة، حتى إذا رأوه جلسوا دونه، وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره، والدرّة في يده معلّقها[٥].

فقال الهرمزان: «أين عمر؟»

قالوا: «ها هو ذا!»

وجعل الوفد يشيرون إلى الناس: أن اسكتوا عنه. وأصغى الهرمزان إلى الوفد.

فقال: «أين حرسه وحجّابه عنه؟»

قالوا: «ليس له حاجب ولا حارس ولا كاتب ولا ديوان.»

---

١. وفي الأصل: هيآته. وما أثبتناه يؤيده مط الطبري.

٢. كذا في مط والطبري (٥ : ٢٥٥٧)، والأصل مطموس.

٣. مط: ما تلدّدهم، والطبري: ما تلدّدكم. والأصل غير واضح، وما أثبتناه عن الطبري: تلدّد: تلفّت يميناً وشمالاً.

٤. قلنسوة طويلة كانت تلبس في صدر الإسلام. كلّ ثوب يكون غطاء الرأس جزءاً منه متّصلاً به.

٥. كذا في الأصل ومط. وفي الطبري: والدرّة في يده معلّقة. والدرّة: السوط يضرب به.

قال: «فينبغى أن يكون نبيّاً.»

فقالوا: «لا، ولكنّه يعمل عمل الأنبياء.»

وكثر الناس وكلامهم، فاستيقظ عمر بالجَلَبة[١]، فاستوىٰ جالساً. ثم نظر إلى الهرمزان،

فقال: «الهرمزان؟»

فقالوا: «نعم!»

فتأمله، وتأمّل ما عليه، ثم قال:

ـ «أعوذ بالله من النار، الحمد لله الذى أذلّ بالإسلام هذا وأشياعه. يا معشر المسلمين! تمسّكوا بهذا الدين، واهتدوا [409] بهدى نبيّكم، ولا تبطرنّكم الدنيا، فإنّها غرّارة.»

فقال الوفد: «هذا ملك الأهواز، فكلّمه!»

قال: «لا، حتي لا يبقى عليه من حليته شيء.»

فرُمى عنه بكلّ شيء إلّا ما يستره، فألبسوه ثوباً صفيقاً.

فقال عمر: «هى يا هرمزان! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟»

فقال: «يا عمر! إنّا وإيّاكم فى الجاهلية كان الله خلّى بيننا وبينكم، فغلبناكم، إذ لم يكن معنا ولا معكم؛ فلمّا صار معكم غلبتمونا.»

فقال عمر: «إنّما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرّقنا.»

ذكر خديعة للهرمزان وحيلة له حتى آمنه عمر

ثم قال عمر: «ما عذرك وما حجّتك فى انتقاضك مرّة بعد مرّة؟»

فقال: «أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك.»

---

١. كذا فى الطبرى. وفى الأصل ومط غموض. الجلبة: اختلاط الأصوات والصياح.

قال: «لا تخف ذلك.»

واستسقى ماءاً، فأتى به في قدح. فقال:

ـ «لو متّ عطشاً لم أستطع الشرب في مثل هذا.»

فأُتى به في إناء يرضاه. فجعلت يده ترعد؛ وقال:

ـ «إنّي أخاف أن أُقتل وأنا أشرب.»

فقال له عمر: «لا تخف، فلابأس عليك حتى تشربه.»

فألقاه. فقال عمر:

ـ «أعيدوا عليه، ولا [410] تجمعوا عليه القتل والعطش.»

فقال: «لا حاجة لى في الماء، إنّما أردت أن أستأمن به.»!

فقال له عمر: «إنّي قاتلك.»

قال: «قد آمنتني.»

فقال: «كذبتَ.»

فقال أنس: «صدق يا أميرالمؤمنين»!

فقال: «ويحك! أنا أومن قاتل مجزأة والبراء؟ لتأتينّي[1] بمخرج ما قتلتَ!»

قال: «قلتَ له: لا بأس عليك حتى تخبرني. وقلتَ: لا بأس عليك حتى تشربه.»

وقال جلّة الصحابة ممن حوله مثل ذلك.

فأقبل على الهرمزان وقال: «تكلّم بحجّتك.»

قال: «كلام حيّ أم كلام ميّت؟»

قال: «بل كلام حيّ.»

قال: «قد آمنتني ثالثة.»

---

١. وفي الطبري: «والله لتأتينّ بمخرج، أو لأعاقبنّك. قال: قلت له..» (٥ : ٢٥٥٩).

قال عمر: «خدعتني! لا والله، لا أومنك إلّا أن تُسلم.»
فقيل له: «أسلم! وإلّا قُتلت.»
فأسلم، ففرض له على ألفين، وأنزله المدينة.

عمر واللغة الفارسية

وكان المغيرة بن شعبة يترجم بينهما إلى أن حضر الترجمان.
فقال عمر للمغيرة: «سله: من أيّة أرض أنت؟»
فقال المغيرة: «أز كُدام أرضيه؟»
فقال: «مهرجانيّ.»
وكان المغيرة يفقه شيئاً [من الفارسيّة][1].
فقال له عمر: «ما أراك حاذقاً بها. ما أحسنها منكم أحد إلّا خبّ[2]، وما خبّ إلّا دقّ. إيّاكم وإيّاها[3]، فإنّها تنقص[4] الإعراب.»
وأقبل زيد بعد ذلك، فجعل يترجم بينهما. [411]

ذكر رأي صحيح للأحنف بن قيس

وقال عمر للوفد: «لعلّ المسلمين يفضون إلى أهل الذمّة بأذىً، أو بأمور لها ما ينتقضون بكم.»
فقالوا: «ما نعلم إلّا حسن ملكة.»
قال: «فكيف هذا؟»

---

١. ما في [ ] تكملة من الطبري (٥: ٢٥٦٠).
٢. وفي الطبري: خبّ، وفي حواشيه: حبّ.
٣. مط: أباكم وأباهم!
٤. كذا في مط. وفي الطبري: فإنّها تنقض الإعراب. وفي حواشيه: فإنّها تنقص الاعراف (٥: ٢٥٦٠).

فلم يجد عند أحد ما يشفيه ويبصر به مما[١] يقولون، إلّا ما كان من الأحنف فإنّه قال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، أخبرك أنّك نهيتنا عن الإنسياح[٢] فى البلاد، وأمرتنا بالإقتصار على ما فى أيدينا، وأنّ ملك فارس حىّ بين أظهرهم، وأنّهم لايزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان حتى يفنى أحدهما صاحبه. وقد رأيت أنّا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلّا بانبعاثهم مرّة بعد مرّة، وأنّ ملكهم هو الذى يبعثهم. ولا يزالون هذا دأبهم حتى تأذن لنا فنسيح[٣] فى بلادهم، حتى نزيله عن بلادهم، ونخرجه من مملكته وعزّ أمّته[٤]. فهناك ينقطع رجاء أهل فارس ويُضربوا[٥] جأشاً.»

فقال عمر: «صدقتنى والله، وشرحت لى الأمر عن حقّه.»

فكان هذا سبب إذنه لهم فى الإنسياح.

يزدجرد يمضى إلى إصطخر وسياه يشترط للاسلام

ومضىٰ يزدجرد بمشورة الموبذ إلى إصطخر فينزلها، لأنّها دار المملكة [412] ويوجّه الجنود. فلمّا بلغ إصبهان أقام أياماً وقدم سياه لينتخب من كلّ بلدة مرّ بها

---

١. مط: «ينتصر ما يقولون». فى الأصل: «وينصر به ما يقولون» وكلاهما تحريف، فأثبتنا العبارة حسب الطبرى: «ويبصر به مما يقولون» (٥: ٢٥٦٠).

٢. مط: الانسباح.

٣. وفى الطبرى: فلنَسح (٥: ٢٥٦١). مط: فنسيح. ونقطتا الياء مطموستان فى الأصل.

٤. كذا فى الطبرى أيضاً. وفى حواشيه: «وعرامته»، «وعن أمته» (٥: ٢٥٦١).

٥. فى الأصل: «يَضربوا» وهو خطأ. وأضرب جأشاً لأمر كذا: وطّن نفسه عليه (مد).

من أحبّ. فمضى سياه واتبعه يزدجرد حتى نزلوا بإصطخر، ووجّه سياه[1] إلى السوس. ولم يزل كذلك حتى قدم عمار بن ياسر وأبو موسى يومئذٍ بتُستر.

سياه يرىٰ الدخول في الإسلام

فدعا سياه الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه من إصبهان، وقال:

ـ «قد علمتم أنّا كنّا نتحدّث أنّ هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس، سيغلبون على هذه المملكة، وتروث دوابّهم في أبواب إصطخر ومصانع الملوك، ويشدّون خيلهم بشجرها، وقد غلبوا على ما رأيتم، وليس يلقون جنداً إلّا فلّوه، ولا ينزلون بحصن إلّا فتحوه. فانظروا لأنفسكم.»

قالوا: «رأينا رأيك.»

قال: «فليكفني كلّ رجل منكم حشمه والمنقطعين إليه، فإنّي أرىٰ أن ندخل في دينهم.»

ووجّهوا شيرويه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى يأخذ لهم شروطاً على أن يدخلوا في الإسلام.

فقدم شيرويه على أبي موسى فقال:

ـ «إنّا قد رغبنا في دينكم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم [413] العرب؛ وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منهم،

١. وصرف الاسم في بعض الأصول فقيل: «سياهاً»، و«سياه». أنظر الطبري ٥: ٢٥٦٢.

ونتزل حيث شئنا، ونكون فى من شئنا منكم، وتلحقوننا بأشرف[١] العطاء، يعقد لنا بذلك الأمر، الذى هو فوقك.»

فقال أبو موسى: «لكم ما لنا، وعليكم ما علينا.»

قالوا: «لا نرضىٰ.»

وكتب أبو موسى إلى عمر بذلك. فقال: «أعطهم ما سألوك.»

فكتب لهم أبو موسى فأسلموا، وشهدوا معه حصار تستر. فلم يكن أبو موسى يرى منهم جدّاً ولا نكاية.

فقال لسياه: «يا أعور، ما أنت وأصحابك كما كنّا نرى قبل اليوم!»

قال: «لسنا مثلكم فى هذا الدين، ولا بصائرنا كبصائركم، وليس لنا فيكم حرم نحامي عنهنّ، ولم تلحقونا بأشرف العطاء، ولنا سلاح وكراع وأنتم حسّر.»

فكتب أبو موسى في ذلك إلى عمر. فكتب إليه عمر أن:

ـ «ألحقهم على قدر البلاء فى أفضل العطاء، وأكثر شيء أخذه أحد من العرب.»

ففرض لمائة منهم فى ألفين ألفين، ولستّة منهم فى ألفين وخمسمائة: لسياه وخسرو ـ ولقبه مقلاص ـ وشهريار، وشيرويه، وسارويه، وأفريذون[٢]. [414]

ذكر مكيدة فى فتح حصن

فأمّا سياه فمشى إلى حصن. ويقال: إنّه تُستر فى زىّ العجم، حتى رمىٰ بنفسه

---

١. وفي الطبرى: بأشراف العطاء.

٢. في الطبرى: «شهرويه وأفروذين» بدل «سارويه وأفريذون». وفيه أيضاً:

[و] لما رأى الفاروق حسن بلائهم   وكان بما يأتي من الأمر أبصرا
فسنّ لهم ألفين فرضاً، وقد رأى   ثلاث مئين فرضَ عكّ وحِميرا

إلى جنب الحصن ونضح[1] ثيابه بالدم. فأصبح أهل الحصن، فرأوا رجلاً في زيّهم صريعاً، فظنّوه منهم أصيبوا به، ففتحوا باب الحصن ليدخلوه، فثار وقاتلهم حتى خلّوا عن باب الحصن وهربوا. ففتح الحصن وحده، ودخله المسلمون. وأمّا خسرو فمشى إلى حصن آخر حاصروه، فأشرف عليه رجل رئيس منهم، فكلّمه، ثمّ رماه خسرو بنشّابة فقتله.

ذكر حيلة قوم في الحصار خرجوا بها من حصارهم وسياسة لعمر

وأما جنديسابور فإنّ أبا سبرة لمّا فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل عليها، وحاصرهم أيّاماً يغادونه ويراوحونه القتال. فرمى إليهم بأمان من عسكر المسلمين وفتح بابها. فلم يفجأ المسلمين إلّا أبوابها[2] تفتح. ثم خرج السرح[3] وخرجت الأسواق وانبثّ أهلها.

فأرسل المسلمون [415] أنْ: «مالكم؟»

قالوا: «رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم بالجِزىٰ على أن تمنعونا.»

فقالوا: «ما فعلنا.»

فقالوا: «ما كذبنا.»

فتساءل المسلمون بينهم، فإذا عبد يدعى مُكنفاً كان أصله منها هو الذى كتب لهم.

فقالوا: «إنّما هو عبد.»

فقالوا: «نحن لا نعرف حرّكم من عبدكم، قد جاءنا أمان، فنحن عليه، قد

١. وفي الطبري: «نضخ»، «نضح» (٥ : ٢٥٦٤). وكلاهما صحيح، فهما مشتركان في المعنى الملائم هنا: نضح البيت بالماء: رشّه، نضح الجلد: بلّه كي لا يتكسّر؛ ونضخ الشيء: رشّه. بلّه.

٢. وفي الطبري: إلّا وأبوابها. إلّا بأبوابها.

٣. السرح: الماشية.

قبلناه ولم نبدّل. فإن شئتم فاغدروا.»

فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر. فكتب إليهم:

ـ «لم تكونوا أوفياء، حتى تفوا على الشكّ، أجيزوهم و فُوا لهم.»[١]

ثم عمل عمر برأى الأحنف، وعقد الألوية للأمراء والجنود من أهل الكوفة وأهل البصرة. فكان لواء الأحنف على خراسان.

يوم نهاوند: فتح الفتوح

ولما خرج يزدجرد من الجبل، وصار إلى مرو، وكاتب الجيوش بالأطراف، فكتب إلى أهل الجبال، ممّن بين الباب والسند وخراسان وحُلوان، فتحرّكوا وتكاتبوا وركب بعضهم إلى بعض، فأجمعوا أن يوافوا نهاوند، ثمّ يبرموا فيها أمورهم. فتوافى إليها من بين حلوان [416] وخراسان ومن بين الباب وحلوان، ومن بين سجستان إلى حلوان، فاجتمعت حَلبة فارس والفهلوج وأهل الجبال وهم مائة وخمسون ألفاً.

ثم تآمر الرؤساء عند الفيرزان وكان عليهم، فقالوا:

ـ «إنّ محمداً الذى جاء العرب بالدين[٢] لم يعرض عرضنا[٣]. ثم ملكهم أبو بكر من بعده، فلم يعرض عرض[٤] فارس إلّا فى غارة تعرض[٥] لهم فيها، وإلّا فى ما يلي ديارهم. ثمّ ملك عمر فطال ملكه وعرض[٦] حتى تناولكم، وأخذ السواد كلّه، والأهواز. ثم لم

---

١. انظر الطبرى (٥ : ٢٥٦٨). ٢. مط: الكلمة ساقطة من مط.

٣. مط: «عرضاً» وفى الطبرى: «لم يغرض غرضنا».

٤. وفى الطبرى: «فلم يغرض غرض فارس». ٥. كذا فى الطبرى: تعرض.

٦. كذا فى الطبرى: وعرض (٥ : ٢٦٠٨). والأصل غير مشكول فى كلّ ذلك.

يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة في عقر دارهم وهو آتيكم إن لم تأتوه. وقد أخرب بيت مملكتكم، واقتحم بلاد ملككم، وليس بمنته حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده، وتقطعوا[1] هذين المصرين وتشغلوه في بلاده وقراره.»

فتعاهدوا وتواثقوا، وكتبوا بينهم على ذلك كتاباً، وتمالأوا[2] عليه.

وبلغ الخبر سعداً، وخرج إلى عمر ليشافهه بذلك، ولأنّ قوماً من جنده شغبوا عليه، وسعوا به إلى عمر، فاستخلف عبدالله بن عبدالله بن عتبان، فكتب [417] عبدالله بن عبدالله إلى عمر أنّه:

«قد تجمّعت الفرس مائة وخمسين ألفاً مقاتلة مستميتين، فإن جاؤونا قبل أن تبدرهم الشدّة ازدادوا جرأة وقوّة، وإن نحن عاجلناهم كان ذلك لنا عليهم.»

وكان الرسول بذلك قريب بن ظفر. ولما قدم الرسول بالكتاب على عمر وبالخبر قرأه، وسمع منه، وقال:

ـ «ما اسمك؟»

قال: «قريب.»

قال: «ابن من؟»

قال: «ابن ظفر.»

فتفأّل بذلك وقال:

ـ «ظفر قريب، إن شاء الله، ولا قوّة إلّا بالله.»

---

١. كذا في مط: تقطعوا، وفي الطبري: تقلعوا. (٥: ٢٦٠٩).

٢. في الأصل ومط: «تمالوا»، وفي الطبري: «تمالئوا».

ذكر آراء صحّ منها واحد

ونودى في الناس: «الصلاة جامعة.»

فاجتمع الناس ووافاه سعد فقال:

ـ «إلىّ سعد بن مالك!»

وقام عمر على المنبر خطيباً، فأخبر الناس الخبر، واستشارهم، وقال:

ـ «هذا يوم له ما بعده، فاسمعوا لى، ثمّ أجيبونى، وأوجزوا، ﴿ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلُوا، وتَذْهبَ رِيحُكُم﴾[۱]، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ لكم الأمور، ويلتوى عليكم الرأى، إنّى قد رأيت أن أسير [418] فى من قبلى[۲] ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً من هذين المصرين وسطاً، ثم أستنفرهم، ثم أكون لهم ردءاً، حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب.»

فقام طلحة بن عبيدالله فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، قد أحكمتك التجارب، وأنت وشأنك ورأيك.»

فى كلام طويل يشبه هذا، ثم جلس.

فعاد عمر فقال:

ـ «هذا يوم له ما بعده من الأيام، فتكلّموا.»

فقام عثمان بن عفّان، فتشهّد، وقال:

---

۱. س ۸ الأنفال: ٤٦.

۲. تكرّرت: «قبلى» فحذفنا احداهما.

ـ «أرى ـ يا أميرالمؤمنين ـ أن تكتب إلى أهل اليمن، فيسيروا من يمنهم، وإلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وتسير أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة، فتلقى جميع المشركين بجميع المسلمين، فإنّك إذا سرت بمن معك وعندك، قلّ في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم، وكنت أعزّ عزّاً. يا أميرالمؤمنين، إنّك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية، ولا تمتنع[1] من الدنيا بعزيز، ولا تلوذ منها بحريز. إنّ هذا يوم له ما بعده من الأيام [فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه][2]. فتكلّموا.»

فقام عليٌّ عليه السلام فقال:

ـ «أما بعد، فإنّك [419] إن أشخصت أهل الشام من شامهم، سارت الروم إلى ذراريّهم؛ وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم، سارت الحبشة إلى ذراريّهم؛ وإنّك إن أشخصت أهل الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى تكون ما تدع وراءك، أهمّ إليك مما بين يديك من العورات والعيالات. أقرر هؤلاء في أمصارهم، واكتب إلى أهل البصرة، فليفترقوا ثلاث فرق: فلتقم فرقة في أهل عهدهم لئلّا ينتقضوا عليهم؛ ولتَسِرْ فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم، لأنّ الأعاجم إن ينظروا إليك ويقولوا: هذا أمير العرب وأصل العرب؛ كان أشدّ لكلبهم، وألّبتَهم عليك. فأمّا ما ذكرت من مسير القوم، فإنّ الله هو أكره لمسيرهم منك، ولهو أقدر على تغيير ما

---

١. كذا في مط: تمتنع. وفي الطبري: لا تمنع، لا تمتنع (٥: ٢٦١٢).

٢. ما بين [ ] تكملة عن الطبري.

يكره؛ وأمّا ما ذكرت من عددهم، فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، ولكنّا كنّا نقاتلهم بالنصر.»

فقال عمر:

ـ «أجل، هذا الرأى. والله أين سرتُ لينتقضنّ علىّ الأرض من أطرافها وأكنافها، ولئن نظرت [420] إلىّ الأعاجم لا يفارقوا العرصة وليُمدّنّهم من لم يُمدّهم، وليقولُنّ: هذا أصل العرب، فإن اقتطعتموه فقد اقتطعتم أصل العرب. فأشيروا علىّ برجل أولّه ذلك الثغر، واجعلوه عراقيّاً.»

فقالوا: «أنت أعلم يا ـ أميرالمؤمنين ـ بجندك وأهل عراقك، فقد وفدوا عليك، ورأيتهم وكلّمتهم.»

ابتداء وقعة نهاوند

وكان النعمان بن مقرّن على كسكر، ولّاه سعد الخراج بها. فكتب إلى عمر:

ـ «إنّ مَثلي ومثل كسكر مثل رجل شابّ إلى جنبه مؤمسة تلوّن له وتعطّر، فأنشدك الله لمّا عزلتني وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين.»

فلمّا كان هذا اليوم الذى خطب فيه عمر، وجرى ما جرى مما كتبتُه، قال عمر:

ـ «أما والله لأولّينّ أمرهم رجلاً ليكوننّ أول الأسنّة إذا لقيها غداً.»

فقيل: «من، يا أميرالمؤمنين؟»

فقال: «النعمان بن مقرّن».

قالوا: «هو لها.»

فكتب إليه عمر أن: «إئتِ نهاوند، فأنت على الناس بها.»

فلمّا التقوا كان أول قتيل. وسنحكى خبره فى موضعه.

وردّ عمر [421] قريب بن ظفر، وردّ معه السائب الأقرع وكان السائب يومئذ مندوباً للأمانة وقسمة الفيء، لأنّه كان كاتباً حاسباً، كما كان محمد بن مسلمة مندوباً لتتبع العمال والطواف عليهم.

وقال عمر للأقرع:

ـ «إن فتح الله عليكم فاقسم ما أفاء الله عليهم، ولا تخدعنى، ولا ترفع إليّ باطلاً، وإن نُكب القوم، فلا تراني ولا أراك، فبطن الأرض خير لك من ظهرها.»

فقدما الكوفة بكتاب عمر بالإستحثاث. وكان أسرع أهل الكوفة إلى ذلك الروادف، ليبلوا فى الدين، وليدركوا حظّاً[1].

ذكر خديعة للهرمزان لم تتمّ له وما جرى بعد ذلك

كان عمر بن الخطّاب استدعى الهرمزان حين آمنه، فقال:

ـ «انصح لى فقد آمنتك.»

قال: «نعم، إنّ الفُرس اليوم رأس وجناحان.»

قال: «فأين الرأس؟»

قال: «بنهاوند مع بندار، ومعه أساورة كسرىٰ وأهل إصبهان.»

قال: «فأين الجناحان؟»

فذكر مكاناً. قال الهرمزان:

ـ «فاقطع الجناحين يهن [422] الرأس.»

---

١. أنظر الطبرى ٥: ٢٦١٦.

فقال عمر: «كذبت ياعدوّ الله بل أعمد إلى الرأس، فأقطعه، فإذا قطعه الله لم يقبض عليه الجناحان.»

فكتب إلى أبي موسى أن: سر بأهل البصرة، وإلى حذيفة أن: سر بأهل الكوفة. وبعث بعثاً من المدينة فيهم ابنه عبدالله بن عمر، وفيهم المهاجرون والأنصار، وقال:

ـ «إذا التقيتم فأميركم النعمان بن مقرّن.»

فخرج حذيفة بن اليمان بالناس ومعه نُعيم بن مقرّن حتى قدموا على النعمان بالطزر[١] وجعلوا بمرج القلعة خيلاً عليها النُّسير، وقد كتب عمر إلى سلمى بن القين وحرملة وزِرّ بن كليب وقوّاد المسلمين الذين كانوا بين فارس والأهواز أن:

ـ «اشغلوا فارس عن إخوانكم، وحوطوا بذلك أمّتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود ما بين الأهواز وفارس حتى يأتيكم أمري.»

وبعث مجاشع بن مسعود السلميّ إلى الأهواز، وقال له: انصُل منها على ماه. فلما صار بغُضى شجر ناحية مرج القلعة، أمره النعمان أن يقيم بمكانه [423] ونصل سُلَميّ وحرملة وزرّ، فكانوا فى تخوم إصبهان وفارس، فقطعوا بذلك عن نهاوند الأمداد من فارس.

وورد على النعمان، وهو بطزر، كتاب عمر:

ـ «إنّ معك حدّ العرب ورجالهم فاستعن بهم وبرأيهم، وسل طليحة وعمراً، ولا تولّهم شيئاً».

فبعث من بطزر طليحة وعمراً، وعمرو بن أبي سلمى ليؤاتوه بالخبر. فأما عمرو وعمرو فإنّهما رجعا من الطريق آخر الليل.

فقال طليحة: «ما الذى يرجعكما؟»

١. كذا بالأصل والطبرى (٥: ٢٦١٦)، وفى مط وحواشي الطبرى: الطرز.

قالا: «سرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً، وخفنا أن يؤخذ علينا بالطريق.»

ولم يحفل بهما[١]. ومضى طليحة حتى انتهى إلى نهاوند، وبينها وبين الطزر بضعة وعشرون فرسخاً.

فقال الناس: «إرتدّ الثانية.»

فلما علم طليحة علم القوم، رجع، حتّى إذا انتهى إلى الجمهور كبّر الناس.

وقال: «ما شأن القوم؟»

فأخبروه بالذى خافوا عليه.

فقال: «والله لو لم يكن [دين][٢] [424] إلّا العربية فقط، ما كنت لأجزر هذه العرب العاربة لهذه العجم الطماطمة.»

فأتى النعمان، فدخل إليه، وأخبره أن ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه.

فنادى النعمان بالرحيل وعبّأهم، وجعل على المجرّدة القعقاع بن عمرو، وكذلك جعل على ميمنته وميسرته ومقدمته أهل النجدات.

إرسال المغيرة بن شعبة إلى الفُرس

فلما اجتمعوا بنهاوند أرسل إليهم الفرس أن: أرسلوا رجلاً نكلّمه. فأرسلوا المغيرة بن شعبة.

فلما رجع سألوه عما جرى.

فقال: وجدت العلج قد استشار أصحابه:[٣]

ـ «بأى شيء تأذنون لهذا العربيّ، بالشارة والبهجة أو بتقشّف له؟»

فاجتمع رأيهم على أفضل ما يكون من الشارة والعدّة. فتهيّأوا بها. فلمّا أتيناهم كادت تلك الحراب والنيازك يلتمع منها البصر، وإذا هم على رأسه مثل الشياطين،

---

١. كذا في مط والطبرى (٥: ٢٦١٧)، وما في الأصل: لهما.

٢. تكملة عن الطبرى.

٣. أنظر الطبرى ٥: ٢٦٤٢.

وإذا هو على سرير من ذهب، على رأسه التاج.

قال: فمضيت كما أنا، ونكّست رأسي. فدُفعت، ونُهيت.

فقلت: «الرسل لا يُفعل بهم هذا!» [425]

فقالوا: «إنّما أنت كلب.»

فقلت: «معاذ الله، لأنا فى قومى أشرف مَن فى قومه».

فانتهرونى وقالوا:

ـ «اجلس!».

فأجلسونى، ثم قال ـ وتُرجم لى قوله ـ:

ـ «إنكم معشر العرب أبعد الناس من كلّ خير، أطول الناس جوعاً، وأشقاهم شقاءاً، وأقذرهم قذراً، وأبعدهم داراً، وما منعني أن آمر هؤلاء الأساورة حولى أن ينتظموكم من النشاب بمثل شوك القنفذ، إلّا تنجّساً لجيفكم، فإنّكم أرجاس. فإن تذهبوا تـخلّ عـنكم، وإن تأبوا، نُركم مصارعكم.»

قال: فحمدت الله وأثنيت عليه، ثمّ قلت:

ـ «والله، ما أخطأتَ من صفتنا شيئاً. إن كنّا لكذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً، فوعدنا النصر فى الدنيا، والجنّة فى الآخرة. فوالله مازلنا نتعرّف من ربّنا، منذ جاء رسوله، الفتح والنصر حتى أتيناكم. وإنّا والله لانرجع إلى ذلك الشقاء أبداً، حتى نغلبكم على ما فى أيديكم، أو نُقتل بأرضكم.»

فقال: «والله لقد صدقكم الأعور ما فى نفسه.»

فقمت [426] وقد أرعبت العلج. فأرسل إلينا العلج:

ـ «إمّا أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم.»

فقال النعمان: «اعبُروا».

وكانوا قد انتهوا إلى الإسبيذهان وهم وقوف دون وادى خُرد على تعبيتهم، وأمرُهم إلي الفيرزان، وقد جعل بهمن جاذويه مكان ذى الحاجب، فهو على مجنبته. وقد توافىٰ إليه كلّ من غاب عن القادسية والأيّام من أهل الثغور، وأمرائها، وأعلامهم. وأنشب النعمان بعدما حطّ الأثقال وضرب الفسطاط القتال، فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس وهم كأنّهم جبال الحديد، وقد تواثقوا ألّا يفرّوا من العرب وألقوا حسك الحديد خلفهم وقالوا: من فرّ منّا عقره حسك[١] الحديد.

فقال المغيرة حين رأى كثرتهم:

ـ «لم أر كاليوم فشلاً، إن عدوّنا يتركون يتأهّبون لا يعجلون، أمَ والله لو أنّ الأمر إليَّ لأعجلتهم».

وكان النعمان رجلاً ليّناً، فقال:

ـ «قد كان الله يُشهدك أمثالها، فلا يُخزيك. إنّه والله ما منعني من المناجزة إلّا شيء شهدته [427] من رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ إذا غزا فلم يقاتل أول النهار، ولم يعجل حتى تحضر الصلاة وتهبّ الأرواح ويطيب القتال، فما منعنى إلّا ذلك. اللهمّ إنّى أسألك أن تُقرّ عيني بفتح يكون فيه عزّ الإسلام وذلّ الكفار، ثمّ اقبضنى إليك على الشهادة. إيمنوا[٢] يرحمكم الله.»

فأمنّا وبكينا. ثمّ أقدم بعد الصلاة للقتال.

قال: ولمّا كان يوم الجمعة انجحروا[٣] فى خنادقهم، وذلك لما رأوا صبرنا أنّا لا نبرح العرصة فصبروا معنا. ثمّ إنّهم لم يصبروا، فحصرهم المسلمون، فأقاموا عليهم ما شاء الله، والفرس بالخيار لايخرجون إلّا إذا أرادوا. فاشتدّ ذلك على

---

١. الحسك: الشوك.

٢. فى الأصل: أمنوا. وفى مط: وامنوا.

٣. من قولهم: انجحر الضبّ أو السبع: دخل جحره.

المسلمين حدّاً، وخافوا أن يطول أمرهم.

ذكر آراء صحّ أحدها على طريق المكيدة

حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع، تجمّع أهل الرأى من المسلمين، فتكلّموا، وأتوا النعمان، وقالوا:

«نراهم بالخيار والقوّة»[١].

وهو يروّى فيما روّوا فيه. فقال:

ـ «على رسلكم، لا تبرحوا».

وبعث إلى من بقى من أهل النجدات [428] والرأى في الحرب، فتوافوا إليه. فتكلّم النعمان فقال:

ـ «قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن، وأنّهم لايخرجون إلّا إذا شاؤوا، ولا يقدر المسلمون على إنغاضهم وابتعاثهم قبل مشيئتهم، وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق الذى هم فيه وعليه من الخروج. فما الرأى الذى به نحمشهم[٢] ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل؟»

فتكلّم عمرو بن أبي سلمى وكان أسنّ القوم، فقال:

ـ «التحصّن أشدّ عليهم من المطاولة عليكم، فدعهم ولا تُحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم.»

فردّوا جميعاً رأيه، وقالوا:

ـ «إنّا على يقين من إنجاز ربّنا وعده لنا.»

وتكلّم عمرو بن معدى كرب، فقال:

---

١. كذا في مط، وفي الأصل: «ألقوه» وهو تصحيف.

٢. أي: نغضبهم ونهيجهم.

ـ «ناهِدْهم ولا تخف وكاثرهم.»

فردّوا جميعاً عليه رأيه، وقالوا:[١]

ـ «إنما نناطح الجدران.»

وتكلّم طُليحة فقال:

ـ «قد قالا ولم يصيبا تفسير ما أرادا. فأمّا أنا فأرىٰ أن تبعث خيلاً مؤدية[٢] فيحدقوا بهم، ثمّ يرموهم ليُنشبوا القتال ويحمشوهم، فاذا استحمشوهم واختلطوا بهم [429] وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطراداً، فإنّا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم إلى اليوم، فإنّهم إذا أرادوا ذلك طمعوا في هزيمتنا ولم يشكّوا فيها، وخرجوا، فجادّونا، وجاددناهم حتي يقضى الله بيننا.»

فأمر النعمان بن عمرو، وكان على المجرّدة بذلك، ففعل، وأنشب القتال بعد احتجاز من العجم، وأنغضهم. فلمّا خرجوا نكص، ثم نكص، واغتنمها العجم. ففعلوا كما ظنّ طليحة، وقالوا: «هي، هي»[٣]. فخرجوا، فلم يبق أحد إلّا من يقوم لهم على الأبواب، وجعلوا يركبونهم حتى أرز القعقاع إلى الناس وانقطع القوم عن حصنهم بعض الإنقطاع والنعمان بن مقرّن والمسلمون على تعبئتهم.

وفي يوم جمعة وفي صدر النهار، وقد عهد النعمان عهده وقال: إن أصبت ففلان، فإن أصيب ففلان. وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم. ففعلوا واستتروا[٤] بالحَجَف[٥] من الرمي، وجعل المشركون يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات، وشكا بعض الناس ذلك [430] إلى بعض ثم قالوا للنعمان:

---

١. في الأصل: «قال» فصححناه كما في مط.

٢. في الأصل ومط: موذنة. آذن فلاناً: أعلمه. وآذن الولد: عرك أُذنه. وما أثبتناه عن الطبري (٥ : ٢٦٢١) وهو الصحيح. آدىٰ إيداءاً: قوي وتهيأ، أو: تسلح بشكّة السلاح (متن اللغة) أي بالسلاح التامّ.

٣. كذا في الأصل، وما في الطبري غير مشكول، وفي حواشيه: «هي هيه» (٥ : ٢ ـ ٢٦٢١).

٤. مط: واستقرّوا.

٥. والحجفة : المجنّ.

ـ «ألا ترى ما نحن فيه؟ ائذن لنا في الحملة.»

فقال لهم النعمان: «رويداً رويداً.»

قالوا ذلك مراراً، فأجابهم بمثل ذلك.

فقال المغيرة: «لو إليّ هذا الأمر، علمت ما أصنع.»

فقال: رويداً، ترى[١] أمرك وقد كنت تلي الأمر فتُحسن، فلا يخذلنا الله ولا إيّاك، ونحن نرجو في المكث مثل ما ترجو في الحثّ.»

وانتظر النعمان أحبّ الأوقات كان إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه.

فلمّا كان قريباً من تلك الساعة وهي الزوال، سار فوقف على الرايات، ومدحهم، وحضّهم. ثمّ عاد إلى موقفه[٢]، وكبّر الأولى والثانية والثالثة والناس على غاية السمع والطاعة. وحمل النعمان والناس معه، فالتقوا بالسيوف، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون بوقعة قطّ كانت أشدّ منها، لا يوم القادسية لا غيرها مما تقدّم، قتلوا فيها من الفرس فيما بين الزوال والإعتام ما طبّق أرض المعركة وما يزلق فيه الناس والدواب، وزلق بالنعمان فرسه وصرع، فأصيب. وتناول [431] الراية أخوه نُعيم بن مقرّن، وسَجّى النعمان بثوب، وأتي[٣] حذيفة بالراية، وكان عهد إليه بعده، فأقام اللواء. وقال المغيرة:

ـ «اكتموا مصاب أميركم حتى تنظروا ما يصنع الله فينا لكيلا يهن الناس، واقتتلوا.»

فلما أظلم الليل انكشف المشركون، وتركوا قصدهم، وأخذوا نحو اللّهب[٤] الذي كانوا نزلوا دونه بإسبيذهان. فوقعوا فيه، وجعل لا يهوى فيه أحد إلّا قال:

---

١. مط: نرى. وفي الطبري أيضاً: ترى (٥: ٢٦٢٢).

٢. كذا في مط: موقفه. والميم في الأصل مطموسة.

٣. ما في الأصل ومط غير واضح، فأثبتناه حسب الطبري (٥: ٢٦٢٥).

٤. اللهب: الفرجة والمهواة بين الجبلين أو الصدع في الجبل.

«واى خُرد»[١]، فسمّى بذلك «وايه خُرد» إلى اليوم. فمات فيه منهم نحو مائة ألف، وقتل فى المعركة أعدادهم، ولم يفلت إلّا الشريد. ونجا الفيرزان من الصرعىٰ فى المعركة، فهرب نحو همذان فى ذلك الشريد، فاتّبعه نعيم بن مقرّن، وقدّم القعقاع قدّامه. فأدركه حين انتهى إلى ثِنية همذان، وكانت الثنية مشحونة من بغال وحمير موقّرة عسلاً، فحبسته الدوابّ على أجله. فلما غشيه القعقاع وهو لا يجد طريقاً فتوقّل[٢] فى الجبل، وتوقّل القعقاع في أثره حتى أخذه، ومضى الفُلّال حتى انتهوا إلى مدينه همذان والخيل [432] فى آثارهم، فدخلوها. وسمّيت الثنية: ثنية العسل، وقال المسلمون:

ـ «إنّ لله جنوداً من عسل.»

واستاقوا العسل وما خالطه من سائر الأحمال.

دخول نهاوند

ودخل المسلمون بعد هزيمة الفرس نهاوند،[٣] واحتووا على ما فيها، وجمعوا الأسلاب إلى صاحب الأقباض السائب الأقرع. فبيناهم كذلك، أقبل الهربذ صاحب بيت النار على إتان، فأبلغ حذيفة؟

فقال: «أتؤمنني على أن أخبرك بما أعلم؟»

قال: «نعم!»

فقال: «إنّ النخيرجان وضع عندى ذخيرة كسرىٰ، وأنا مخرجها لك على أمانى وأمان[٤] من شئتُ.»

---

١. وفي الطبري: «وايه خُرد» (نفس الصفحة).

٢. مط: «فتوغل» وهو خطأ. توقل فى الجبل: صعّد فيه.

٣. والعبارة فى الطبرى: «ودخل المسلمون بعد هزيمة المشركين يومَ نهاوند، مدينة نهاوند (٥: ٢٦٢٦).

٤. وفى الطبرى: أمان، أتان (٥: ٢٦٢٧).

سفطان ملؤهما اليواقيت واللؤلؤ

فأعطاه ذلك، وأخرج له الذخيرة سفطين عظيمين ليس فيهما إلّا اليواقيت واللؤلؤ. فلمّا فرغ السائب من قسمة الأموال اجتمع رأى المسلمين على دفعهما[١] إلى عمر.

قال السائب: فأصاب سهم الفارس ستة آلاف، والراجل ألفان. فلمّا فرغت قدمتُ على عمر ومعى السفطان، فقال:

ـ «ماوراءك يا سائب!»

فقلت: «خير، يا أميرالمؤمنين، فتح الله عليك ـ فأعظم الفتح ـ واستشهد النعمان بن مقرّن.» [433]

فقال عمر: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾[٢].

ثم بكى فنشج[٣] حتى إنّى لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتده[٤]».

قال: فلمّا رأيت ما لقىَ قلتُ:

ـ «يا أميرالمؤمنين، ما أصيب بعده رجل يعرف وجهه.»

فقال: «المستضعفون من المؤمنين، لكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم، وأنسابهم، وما يصنعون بمعرفة ابن أمّ عمر.»

ثم قام ليدخل، فقلت:

ـ «إنّ معى مالاً عظيماً جئت به.»

ثمّ أخبرته الخبر عن السفطين، فقال:

ـ «أدخلهما بيت المال حتى ننظر فى شأنهما، والحقّ بجندك.»

قال: فأدخلتهما بيت المال، وخرجت سريعاً إلى الكوفة، وبات تلك الليلة التى

١. وفى الأصل: دفعها.
٢. س ٢ البقرة: ١٥٦.
٣. نشج الباكي: غصّ من غير انتحاب.
٤. الكتِد والكتَد: مجتمع الكتفين من الانسان.

خرجت فيها. فلما أصبح بعث أثري رسولاً، فـوالله مـا أدركـني حـتى دخـلت الكوفة، فأنخت بعيري، وأناخ بعيره على عرقوبي بعيري، وقال:

ـ «إلحق بأميرالمؤمنين، فقد بعثني في طلبك ولم أقدر عليك إلّا الآن.»

قال: قلت: «ويلك! ولماذا؟»

قال: «لا أدري والله.»

فركبت معه حتي قدمت عليه. فلما رآني قال:

ـ «مالي ولابن أمّ السائب، بل ما لابن السائب وما لي!»

قال: قلت: [434]

ـ «وما ذاك يا أميرالمؤمنين؟»

قال: «ويحك! والله، إن هو إلّا نمت في تلك الليلة التي خرجتَ فيها، فباتت ملائكةَ الله تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً، يقولون: لنكـوَينّك بـهما؛ فأقول: إنّي سأقسمهما بين المسلمين. فخذهما عنّي لا أباً لك، فالحقْ بهما، فبعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم.»

قال: فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة وغشيني [التجار[1]] فابتاعهما منّي عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف [٢،٠٠٠،٠٠٠] درهم، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعها بأربعة آلاف ألف [٤،٠٠٠،٠٠٠] درهـم. فمازال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد.

وقسم حذيفة لأهل المسالح جميعاً في نهاوند، مثل الذى قسم لأهل المعركة، لأنّهم كانوا ردءاً للمسلمين لئلّا يؤتوا من وجه من الوجوه، وكان خلّف قوماً على قلاع يحاصرون من فيها لئلّا ينزلوا فيؤتى المسلمون من قبلهم، فقسم لهم أيضاً.

وسمّي يوم نهاوند فتح الفتوح[2] ولم تكن للفرس بعد قائمة.

---

١. في الأصل: النجار وما أثبتناه عن مط.

٢. أفتتحت مدينة نهاوند أول سنة ١٩ لسبع سنين من إمارة عمر (الطبرى ٥: ٢٦٣٢).

ومن عجيب ما مرّ في حصار نهاوند أنّ رجلاً [435] يقال له: جعفر بن راشد، قال لطليحة:

ـ «لقد أخذتنا خلّة[١]، فهل بقي من أعاجيبك شيء تنفعنا به؟»

فقال: «كما أنتم، حتى أنظر.» فأخذ كساءاً، فتقنّع به غير كثير، ثم قال:

ـ «البيان، البيان، غنم الدقّان[٢] في البستان، مكان أرونان[٣].»

فدخلوا البستان، فوجدوا الغنم مسمنة.

ثم جاء دينار إلى حذيفة، فصالحه عن ماه، فنسب إليه ماه[٤]. فكان يوافي الكوفة كل سنة. فقدم الكوفة في إمارة معاوية، فقام في الناس جميعاً، فقال:

ـ «يا معشر أهل الكوفة، إنّكم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس، فغبرتم بذلك زمان عمر وعثمان، ثم تغيّرتم وفشت فيكم خلال أربع: بخل، وخِبّ[٥]، وغدر، وضيق، لم تكن فيكم واحدة منهنّ. فنظرت في ذلك، فإذا ذلك في مولّديكم، فعلمت من أين أتى، فإذا الخبّ من قبل النبط، والبخل من قبل فارس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز.»

فتح الريّ

ثم إنّ نُعيم بن مقرّن فتح همذان، وسار إلى الريّ، وكان بالريّ يومئذ سياوخش ملكاً عليها وهو سياوخش [436] بن مهران بن بهرام شوبين. [فاستمدّ][٦] أهل دنباوند، وطبرستان، وقومس، وجرجان، وقال:

١. الخلّة: الجوع والفقر.

٢. في مط: «الدفّان» بالفاء. وفي الطبري (٥: ٢٦٣٠): «الدهقان»، وفي حواشيه: «الدوان»، «الربان».

٣. لا إعجام في الأصل إلّا في النون الأخيرة. في مط: أروبان بالباء الموحدة. في الطبري: «أرونان» وفي حواشيه: «اونان». والأرونان: الصعب الشديد من كلّ شيء.

٤. فقيل: «ماه دينار» (الطبري ٥: ٢٦٢٨).

٥. الخبّ: الخدعة والغشّ.

٦. فاستمدّ: مطموسة في الأصل، فأخذناه عن مط.

ـ «قد علمتم أنّ هؤلاء إن حلّوا بالريّ إنّه لا مقام لكم.»

فاحتشدوا له. فناهده سياوخش، فالتقوا في سفح جبل الريّ إلى جنب مدينتها، فاقتتلوا به. وكان الزينبيّ متوحّشاً من سياوخش، فكاتب نعيم بن مقرّن، وصالحه وعاونه، وكان الزينبيّ قال لنعيم:

ـ «إنّ القوم كثير وأنت في قلّة، فابعث معي رجلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لايشعرون به، وناهدهم أنت، فإنّهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتوا لذلك.»

فبعث معه خيلاً من الليل عليها ابن أخيه المنذر بن عمرو. فأدخلهم الزينبيّ المدينة ولا يشعر القوم، وبيّتهم نعيم بياتاً، فشغلهم عن مدينتهم، فاقتتلوا، وصبروا حتى سمعوا التكبير من ورائهم. ثم إنّهم انهزموا فقُتلوا مقتلة عظيمة، فأفاء الله على المسلمين بالريّ نحواً من فيء المدائن، وصالحه الزينبيّ على أهل الريّ ومرزبه[١] عليهم. [437] وكتب نعيم بالفتح وبعث بالأخماس إلى عمر.

توجّه بُكير إلى آذربيجان

وكان بكير بن عبدالله قد توجه إلى آذربيجان، فأمدّه نعيم بعد فتح الريّ بسماك بن خرشة الأنصاري.

مردانشاه يراسل نُعيماً في الصلح

فأما المصمغان ـ وهو مردانشاه صاحب دنباوند والخزر والأرز والسرو[٢] ـ فإنّه راسل نعيماً في الصلح على شيء يفتدي منه به، من غير أن يسأله النصر والمنعة. فقبل منه، وكتب على غير نصر ولا معونة على أحد، فجرىٰ ذلك لهم.

---

١. مرزبه: جعله عليهم مرزباناً.

٢. مط: السرد.

فتح قومس

وقدّم سويد بن مقرّن أخاه بأمر عمر إلى قومس، فلم يقم له أحد، وأخذها سلماً، وكتب لهم أماناً، وقبل جزيتهم.

فتح جرجان وطبرستان وآذربيجان

ثم كاتب ملك جرجان رزبان[١] صول. ثم صار إليها، فبادره بالصلح، وتلقّاه، فدخل معه جرجان، وعسكر بها، وجبى إليه الخراج، وسمّى له فروجها، فسدّها بترك دهستان. فرفع الجزئ عمن أقام بمنعتها، وأخذ الخراج من باقي أهلها، وكتب بينهم كتاباً[٢] بالأمان وقبول الجزية ما نصحوا وقروا المسلمين، وعلى أنّ من سبّ مسلماً [438] بلغ جهده، ومن ضربه حلّ دمه. وراسله الإصبهبذ في الصلح أن يتوادعا ويجعل له شيئاً على غير نصر ولا معونة على أحد. فكتب له بذلك كتاباً على ألّا يؤوا للمسلمين بغية[٣]، ولا يسلّوا لهم[٤] إلى عدوّ، ولا يُدخل

١. في الأصل ومط: ررمان، من دون نقط. وما أثبتناه عن الطبري (٥ : ٢٦٥٨).

٢. والكتاب كما جاء في الطبري (٥ : ٣٦٥٨):

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من سويد بن مقرّن لرزبان صول بن رزبان [روزيسان، رزبار، رربان؟] وأهل دهستان، وسائر أهل جرجان؛ أنّ لكم الذمّة، وعلينا المنعة، على أنّ عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم، ومن استعنّا به منكم، فله جزاءه في معونته عوضاً من جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم، وأموالهم، ومللهم، وشرائعهم، ولا يغيّر شيء من ذلك، هو إليهم ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل، ونصحوا، وقروا المسلمين، ولم يبد منهم سل، ولا غل، ومن أقام فيهم، فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه؛ وعلى أنّ من سبّ مسلماً بلغ جهده، ومن ضربه حل دمه. شهد سواد بن قُطبة وهند بن عمرو وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهّاس. وكُتب في سنة ١٨.» وأضاف الطبري: «وأما المدائني فإنّه قال في ما أنبأنا أبو زيد عنه: فتحت جرجان في زمن عثمان سنة ٣٠».

٣. مط: تبعة.

٤. مط: بهم.

عليه إلّا بإذنه، وكذلك سبيلهم.

وكان بكير سار حين بعث إلى آذربيجان حتى إذا طلع بجبال خرشدان[١] طلع عليهم اسفندياذ بن الفرّخزاذ مهزوماً من واج‌رود. فكان أول قتاله لقيه بآذربيجان، فاقتتلوا، فهزمه، وأخذ بكير اسفندياذ أسيراً.

فقال له اسفندياذ:

ـ «الصلح على آذربيجان أحبّ إليك أم الحرب؟»

قال: «بل الصلح.»

قال: «فأمسكني عندك. فإنّ أهل آذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجئ لم يُقيموا، وجلوا إلى الجبال التي حولها من القبج والروم. ومن كان على التحصن تحصّن إلى يوم ما.»

فأمسكه عنده، فأقام وهو في يده، وصارت البلاد إليه إلّا ما كان من حصن. وقدم عليه سماك بن خَرَشة، وقد صار اسفندياذ في إساره. [439] وفتح عتبة بن فرقد من جهته مايليه.

فقال بكير لسماك بن خرشة كالممازح:

ـ «ما الذي أصنع بك وبعتبة؟ أريد أن أمضي قدماً فأخلّفكما، فإن شئت فاذهب معي، وإن شئت أتيتَ عتبة، فقد أذنت لك.»

وكاتب عمر في ذلك. فكتب إليه في الإذن على أن يتقدم نحو الباب، وأمره أن يستخلف على عمله. فاستخلف عتبة على ما افتتح. ومضى قدما، وقدّم إسفندياذ إلى عتبة، وأقرّ عتبة سماك بن خرشة، وليس بأبي دُجانة، على عمل بكير الذي كان افتتح.

١. مط: «خرشدن»!

وجمع عمر آذربيجان كلّها لعتبة، وقد كان بهرام بن الفرّخان أخذ بطريق عتبة بن فرقد، وأقام له في عسكره حتى قدم عليه عتبة، فهزمه عتبة وهرب بهرام.

فلما بلغ خبر هزيمته إسفندياذ وهو في الإسار عند بكير، قال:

ـ «الآن تمّ الصلح وطفئت الحرب وعادت آذربيجان سلماً.»

فبعث بالأخماس. وكان بكير سبق عتبة بفتح ما ولي، وتمّ الصلح بعدما هزم عتبة بهرام. فكتب عتبة بينه وبين أهل آذربيجان كتاباً ـ حيث جمع له عمل بكير إلى عمله ـ [440] بالأمان وشروط الجزية وقِرَى المسلمين وغير ذلك.

فتح الباب والفتوح التي كانت بعده

وأنفذ عمر سراقة بن عمرو ـ وكان يكنّى ذاالنون[١] ـ إلى الباب وجعل على مقدّمته عبدالرحمن بن ربيعة، وسمى لإحدى مجنّبتيه حذيفة بن أسد، وسمى للأخرى بكير بن عبيدالله الليثي، وهو الذى كان بإزاء الباب قبل قدوم سراقة عليه. فلمّا قدم سراقة قدّم بكيراً في أداني الباب، فدخل بكير بلاد الباب والملك يومئذ شهربراز[٢] الذى أفسد بني إسرائيل وأعرى[٣] الشام منهم.

فكاتب عبدالرحمن شهربراز، واستأمنه على أن يأتيه. ففعل، فأتاه، فقال له:

ـ «إني بإزاء عدوّ كَلِب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب، وليس ينبغي لذى الحسب والعقل أن يعين هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب[٤] والأصول، وذوالحسب قريب ذى الحسب حيث كان، ولست من الأرمن في

---

١. في الطبرى (٥ : ٢٦٦٣): ذاالنور.

٢. وزاد في الطبرى: رجل من أهل فارس، وكان على ذلك الفرج، وكان أصله من أهل شهربراز [كذا] (٥ : ٢٦٦٣).

٣. في مط: أغز. في الطبرى أيضاً: أعرى. وفي حواشيه أغرى، أغزى.

٤. في الأصل: ذووالحسب. فصححناه.

شيء ولا من القَبَق[١]، وإنّكم قد غلبتم على بلادى وأمّتى، وأنا اليوم منكم، ويدى مع أيديكم، وصفوى معكم، وجزيتنا إليكم، والنصر لكم، والقيام بما تحبّون، فلا تذلّونا بالجزية [441] فتوهنونا لعدوكم.»

فقال عبدالرحمن: «فَوْقى أمير قد أظلّك، فسر إليه.»

فجوّزه فسار إلى سراقة، فلقيه بمثل ذلك.

فقال سراقة: «قد قبلت ذلك ممن كان معك على هذا ما دام عليه، ولابدّ من الجزئ ممن يقيم ولا ينهض.»

فقبل ذلك، وكتب سراقة إلى عمر بن الخطّاب بذلك، فأجازه، وحسّنه، وصارت سنّة فيمن يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزئ أن يستنفروا، ثمّ يوضع عنهم جزئ تلك السنة.

ووجّه سراقة بعد ذلك بكير بن عبدالله، وحبيب بن مسلمة، وحذيفة بن أسد، وسلمان بن ربيعة إلى الجبال المطيفة بأرمينية، ووجه بكيراً إلى موقان، وحبيباً إلى تفليس، وحذيفة إلى جبال اللّان، وسلمان إلى الوجه الآخر، وكتب سراقة بالفتح وبمن وجّه من هؤلاء النفر. فأتئ عمر بن الخطّاب أمر لم يكن يرئ أنّه يستمر بتلك السرعة بغير مؤونة. فلما استوسق الأمر بتلك الناحية واستحلوا عدل الإسلام مات سراقة واستخلف عبدالرحمن بن ربيعة.

فأقرّ عمر عبدالرحمن على فرج الباب، وأمره بغزو الترك. فخرج [442] عبدالرحمن بالناس حتى قطع الباب.

فقال له شهربراز: «ما تريد أن [تصنع][٢]؟»

قال: «أريد بَلَنْجَر.»

قال: إنّا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب.»

---

١. فى الطبرى: القبج.

٢. بياض فى الأصل، وما أثبتناه عن مط.

قال: «لكنّا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم. والله إنّ معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الروم.»

قال: «وما هم؟»

قال: «قوم صحبوا رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ ودخلوا في هذا الأمر بنيّة، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرّمهم، فلايزال هذا الأمر دائماً لهم، ولايزال النصر معهم حتى يغيّرهم أمر، أو يلفتوا عن حالهم بمن يغيّرهم.»

فغزا بَلَنْجَر ـ غزاه في زمن عمر ـ لم تئم فيها امرأة، ولا يتم فيها صبيّ. وبلغت خيله البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بلنجر، ثم غزا فسلم أيضاً، وغزا [غزوات][1] في زمن عثمان، وأصيب عبدالرحمن حين تبدّل أهل الكوفة في إمارة عثمان، لما استعمل من كان ارتدّ واستعان بهم، فسادَ من طلب الدنيا، وعضّلوا بعثمان حتى كان يتمثل:

وكنت وعمراً[2] كالمسمّن كلبَهُ فخدّشه أنيابه وأظافرهُ [443]

وكان عبدالرحمن بن ربيعة لما غزا الترك، قالوا:

ـ «ما اجترأ علينا هذا الرجل إلّا ومعهم الملائكة يمنعهم من الموت».

فتحصّنوا منه، وهربوا. فرجع بالغنم.

فلمّا كان بعد ذلك غزا تلك الغزوات الأخر على تلك العادة، حتى إذا كان في زمن عثمان بعد السنين الستّ منه، غزا غزوة. وكان من الترك طائفة في الغياض مختفين، فرمىٰ رجل منهم مسلماً على غرّة، فقتله وهرب عنه أصحابه، فتجاسروا

---

١. تكملة من الطبري.

٢. في الأصل: وكنت وعمرو. في مط: وكتب عمروا فصححناه كما في الطبري (٥: ٢٦٦٨).

بعد ذلك وتنادوا.

فأمّا عبدالرحمن فقتل، واشتدّ القتال، وأخذ الراية سلمان بن ربيعة، وخرج بالناس على جيلان إلى جرجان، واجترأ الترك بعدها، ولم يمنعهم ذلك من اتخاذ جسد عبدالرحمن، فهم يستسقون به حتى الآن.

ما جرى بين يزدجرد وآبان جاذويه في الريّ

ولما انتهى يزدجرد في مسيره بعد جلولاء إلى الريّ كان عليها آبان جاذويه، فوثب عليه، فأخذه فقال:

ـ «يا آبان جاذويه، تغدر بي؟»

قال: «ولكنّك تركت ملكك وصار في يد غيرك وأريد أن أكتتب على ما كان لي من شيء، وما أردت من غير ذلك[1].»

وأخذ خاتم يزدجرد [444] وكتب الصكاك على الأدُم، وسجّل السجلّات بكل ما أعجبه، ثم ختم عليها، وردّ الخاتم. ثمّ أتىٰ بعدُ سعداً فردّ عليه كلّ شيء في كتابه. واستوحش يزدجرد من آبان وكرهه. فخرج هارباً إلى اصبهان ومعه النار[2]، وأراد كرمان. ثم عزم على خراسان ليستمدّ الترك والصين وهو قريب منهم. فأتى مرو، فنزلها، وبنى للنار بيتاً، واطمأنّ في نفسه.

غزو خراسان وهزيمة يزدجرد في بلخ

وخرج عبدالله بن عامر من البصرة في هذه السنة، وهي سنة إحدى وثلاثين، غازياً إلى خراسان. ففتح نيسابور وطوس ونسّا، حتى بلغ سرخس، وعلى مقدّمته الأحنف بن قيس. فلقيه الهياطلة، وهم أهل هراة، فهزمهم الأحنف، فبعثه

---

١. وفي مط: من غيرك.

٢. وفي الطبري (٥: ٢٦٨٢): فأراد أن يضعها في كرمان.

ابن عامر إلى طخارستان. فلمّا دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد نحو مرو الروذ، فنزلها، ونزل الأحنف مرو الشاهجان، وكتب يزدجرد إلى خاقان من مرو الروذ يستمدّه، وكتب إلى ملك الصغد يستمدّه. فخرج رسوله إليهما، وكتب إلى ملك الصين يستعينه.

وخرج الأحنف [445] من مرو الشاهجان، واستخلف عليه بعدما لحقته الأمداد من أهل الكوفة قاصداً مرو الروذ. فلمّا بلغ مسيرُه يزدجرد خرج إلى بلخ. ونزل الأحنف مرو الروذ، وقدم أهل الكوفة، فساروا إلى بلخ، واتبعهم الأحنف، فالتقىٰ أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ، فهزم يزدجرد، وتوجّه فى أهل فارس إلى النهر، فعبر، ولحق الأحنف بأهل الكوفة وقد فتحوا بلخ، وعاد الأحنف إلى مرو الروذ.

وكتب عمر إلى الأحنف:

«أمّا بعد، فلا تجوزوا النهر، واقتصروا على ما دونه.»

وبلغ رسولا يزدجرد خاقان وعارك[١]، فلم يستتبّ لهم[٢] إنجاده، حتّى عبر إليهم النهر مهزوماً. فأنجده خاقان، فأقبل فى الترك، وحشر أهل فرغانة والصغد، حتّى خرج بهم راجعاً إلى خراسان. فعبر إلى بلخ، وعبر معه خاقان، فأرز أهل الكوفة إلى مرو الروذ، إلى الأحنف.

ذكر رأى صحيح فى وقت شدّة

فاستشار الأحنف المسلمين. فاختلفوا، فبين قائل يقول: «نرجع إلى أَبَرشهر»[٣] [446]؛ وقائل يقول: «نقيم ونستمدّ.» وقائل يقول: «نناجزهم.»

---

١. مط: عادل. فى الطبرى (٥ : ٢٦٨٥): «غوزك» وفى حواشيه: عورك، على زل.

٢. فى الطبرى: لهما.

٣. قرأنا ما فى الأصل «أبرشهر» مع غموض فيه. وما فى مط: «ايرانشهر». وهما أى: أبـرشهر Abarshahr

وخرج المشركون من بلخ حتّى نزلوا على الأحنف مرو الرّوذ. وكان الأحنف حين بلغه عبور خاقان نهر بلخ غازياً له، خرج في عسكره ليلاً يتسمّع: هل يسمع برأي ينتفع به؟ فلمّا خرج مرّ برجلين ينقّيان علفاً، إمّا تبناً، وإمّا شعيراً، وأحدهما يقول لصاحبه:

ـ «الرأي للأمير أن يلقى العدوّ حيث لقيهم أوّلاً، فإنّه أرعب لهم.»

فقال له صاحبه:

ـ «أخطأت الرأي، إن لقى العدوّ مصحراً في بلادهم لقي جمعاً كثيراً بعدد قليل، فإن جالوا جولة اصطلمونا. ولكنّ الرأي للأمير أن يسندنا إلى هذا الجبل، ليكون النهر بيننا وبين عدونا خندقاً، وكان الجبل في ظهورنا، نأمن أن نؤتى من خلفنا، وكان قتالنا من وجه واحد، [و][1] رجونا أن ينصرنا الله.»

فرجع، واجتزأ بها. وذلك في ليلة مظلمة. فلما أصبح جمع الناس، ثم قال:

ـ «إنكم قليل، وعدوّكم كثير، فلا يهولنّكم: ﴿فكَمْ من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ، واللهُ مَعَ الصَّابرينَ﴾[2]. إرتحلوا من مكانكم، فاستندوا إلى هذا الجبل، فاجعلوه [447] في ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم، وقاتلوه من وجه واحد.»

ففعلوا، وقد أعدوا ما يصلحهم في عشرة آلاف من أهل البصرة، وأهل الكوفة نحو منهم. وأقبلت الترك ومن اجتلبت من الصغد وغيرهم حتى نزلوا بهم. فكانوا يغادونهم ويراوحونهم ويتنحّون عنهم بالليل ما شاء الله.

وطلب الأحنف علم مكانهم بالليل. فخرج ليلة بعد ما علم علمهم طليعة لأصحابه حتى كان قريباً من عسكر خاقان، فوقف. فلما كان في وجه الصبح خرج فارس الترك بطوقه، وضرب بطبله، ووقف من العسكر موقفاً يقفه مثله.

→ وايرانشهر اسمان كانا يطلقان على نيسابور في أوائل الاسلام (لسترنج: ٤٠٩).

١. تكملة اقتضاها السياق. ٢. س ٢ البقرة: ٢٤٩.

فحمل عليه الأحنف، فاختلفا طعنتين سبقه الأحنف، فقتله. قال الأحنف: فارتجزتُ:

إنّ على الرئيس حقّاً حقّاً أن يخضبَ الصعدةَ أو تندقّاً

ثم وقف موقف التركى، وأخذ طوقه، وخرج آخر من الترك، ففعل فعل صاحبه، فحمل عليه الأحنف، فقتله. ثم وقف موقف التركيّ الثانى. [448] قال الأحنف: فارتجزتُ:

إنّ الرئيس يرتبى ويطلع ويمنعُ الخِلاءَ[1] إمّا أربعُوا

وأخذ طوق التركيّ، ثم خرج ثالث، ففعل فعل الرجلين، ووقف دون الثانى منهما، فحمل عليه الأحنف، فقتله، قال: وارتجزتُ:

جَرْىَ الشموسِ ناجزاً بناجزِ محتفلٍ فى جَرْيِهِ[2] مشارزِ

ثم انصرف إلى عسكره ولا يعلم بذلك أحد. وكان من شيمة الترك أنّهم لايخرجون حتى يخرج ثلاثة من كبراتهم وفرسانهم يضربون بالطبول، ثم يخرجون بعد خروج الثالث. فخرجت الترك ليلتئذٍ بعد الثالث على فرسانهم مقتّلين. فتشاءموا، وتشاءم خاقان وتطيّر وقال:

ـ «قد طال مقامنا وأصيب هؤلاء القوم بمكان لم يُصَب بمثله أحد منّا. مالنا

---

١. كذا فى الأصل: الحلاء. فى مط: الحلا. وفى الطبرى: الحلّاء، وفى حواشيه: الجلّاء.
٢. فى الطبرى (٥ : ٢٦٨٧): محتفلاً فى جريه، وفى حواشيه: محتفل بحربه.

فى قتال هؤلاء القوم من خير، انصرفوا بنا.»

فكان وجوههم راجعين، وارتفع النهار للمسلمين ولا يرون شيئاً. وأتاهم الخبر بانصراف خاقان إلى بلخ، وقد كان يزدجرد [449] ترك خاقان بمرو الروذ، وخرج إلى مرو الشاهجان فتحصّن منه حارثة بن النعمان خليفة الأحنف، فحصرهم واستخرج خزائنه من موضعها وخاقان ببلخ ينتظره مقيم له.

فقال المسلمون: «نحن نتبع خاقان.»

فقال: «بل أقيموا مكانكم.»

ولما جمع يزدجرد ما كان في يديه مما وضع بمرو وأعجل عنه، وأراد أن يستقلّ منها، حاول أمراً عظيماً من خزائن أهل فارس، وكان أراد اللحاق بخاقان.

فقال أهل فارس: «ما تريد أن تصنع؟»

قال: أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين.»

فقالوا له: «مهلاً، فإنّ هذا رأى سوء. إنّك إنّما تأتى قوماً فى مملكتهم وتدع أرضك وقومك، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم، فإنّهم أوفياء وأهل دين، وهم يلون بلادنا، وإنّ عدوّاً يلينا فى بلادنا أحبّ إلينا من عدوّ يلينا فى بلاده، ولا دين لهم، فلا ندرى ما وفاءهم.»

فأبىٰ عليهم، فأبوا عليه. قالوا:

ـ «فدع خزائننا نردّها إلى بلادنا ومن يليها، [450] لا تُخرجها من بلادنا إلى غيرها.»

فأبى. فقالوا: «فإنّا لا ندعك.»

فاعتزلوا وتركوه في حاشيته. ثم اقتتلوا، فهزموه، وأخذوا الخزائن واستولوا عليها، ونكبوه، وكتبوا إلى الأحنف بالخبر. فاعترضهم المسلمون والمشركون بمرو، فقاتلوه، وأصابوه فى آخر القوم، وأعجلوه عن الأثقال ومضىٰ حتى قطع النهر إلى فرغانة والترك، فلم يزل مقيماً زمان عمر كلّه يكاتبهم ويكاتبونه إلى

زمان عثمان.

فأقبل أهل فارس إلى الأحنف، فصالحوه، وعاقدوه، ودفعوا الخزائن والأموال، وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم، على أفضل ما كانوا في زمان الأكاسرة. فكانوا كأنّهم في ملكهم. إلّا أنّ المسلمين أوفىٰ لهم وأعدل عليهم.

وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهم الفارس يوم القادسية.

ولما سمع خاقان ما لقي يزدجرد وخروج المسلمين مع الأحنف من مرو الروذ نحوه، ترك بلخ وعبر النهر، وأقبل الأحنف حتى نزل [451] بلخ، وأنزل أهل الكوفة في كورها الأربع، ثم رجع إلى مرو الروذ. فنزل بها، وكتب بفتح خاقان ويزدجرد إلى عمر، وبعث إليه بالأخماس. ووفد الوفود إليه.

حوار بين خاقان ورسول يزدجرد

ولما عبر خاقان النهر، وعبر معه حاشية آل كسرى مع يزدجرد لقوا رسول يزدجرد الذي كان نفذ إلى ملك الصين، فسألوه عما وراءه.

فقال: لما قدمتُ عليه بالكتاب والهدايا كافأنا بما ترون. ـ وأراهم هديته وجوابه عن كتاب يزدجرد إليه ـ قال لي:

ـ «قد علمتُ أنّ حقّاً على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم، فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإنّي أراك، تذكر قلّة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف [منكم[1]] معما أسمع من كثرتكم إلّا بخير عندهم وشرّ فيكم.»

فقلت: «سلني عما أحببت أخبرك.»

قال: «أيوفون بالعهد؟» [452]

---

١. في الأصل: معكم، فصححناه بما في الطبري (٥: ٢٦٩١)؛ وفي مط: بدون «منكم».

قلت: «نعم.»

قال: «وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟»

قلت: «يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة، أو المنابذة.»

قال: «فكيف طاعتهم أمراءهم؟»

قلت: «أطوع قوم لمرشدهم.»

قال: «فما يحرّمون وما يحلّون؟»

فأخبرته.

قال: «أفيحلّون[1] ما حُرّم عليهم، أو يحرّمون[2] ما حُلّل لهم؟»

قلت: «لا.»

قال: «فإنّ هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يبدّلوا.»

ثم قال: «أخبرني عن لباسهم». فأخبرته، «وعن مطاياهم» فقلت:

ـ «الخيل العراب.» ووصفتها.

فقال: «نعمت الحصون هذه.»

ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها.

فقال: «هذه صفة دوابّ طوال الأعناق.»

وكتب معه إلى يزدجرد:

«إنّه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوّله بمرو، وآخره بالصين، الجهالة بما يحق عليّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم، لو يحاولون الجبال لهدّوها، ولو خلّى سَربُهم أزالوني

١. في مط: أفتحلّون.

٢. في مط: أفتحرّمون.

ماداموا على ما وصف، فسالمهم وارضَ منهم بالمساكنة، ولا تُهجهم مالم يهيجوك.» [453]

وأقام يزدجرد وآل كسرى بفرغانة معهم عهد بخاقان. ثم جرى ما جرى من قبل عمر، رضى الله عنه.

ذكر كُتّاب عمر وجمل من سياسته

□ كان يكتب لعمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الأرقم، وعبدالله بن خلف الخزاعى أبو طلحة الطلحات على ديوان البصرة، وأبو حبيرة بن الضحّاك الأنصارى على ديوان الكوفة. فأمّا زيد بن ثابت فإنّه كان كاتب النبىّ ـ صلّى الله عليه ـ فكان يخلو به عمر. فقال له يوماً:

ـ «إنّى استصحبتك لكتب أسرارى الذى رأيت رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ يفعله بك. فأخبرنى عن كتبه كيف كانت إلى الملوك وغيرهم.»

فقال زيد: «أعفنى يا أميرالمؤمنين.»

فقال له: «ممّ ذاك؟»

قال زيد: «إنّ رسول الله (ص) قال لى: يا زيد! إنّى انتخبتك. فاحفظ أسرارى، واكتم ما استحفظتك. فضمنت له ذلك.»

فأمسك عمر عن معاودته، لكن كان يملى عليه ويستعين برأيه. وكان زيد ذا رأى [454] ونفاذ.

□ وكان عمر يقول لكتّابه ويكتب إلى عمّاله:

ـ «إنّ القوة على العمل أن لا تؤخروا عمل اليوم لغد، فإنّكم إذا فعلتم ذلك تداكّت الأعمال عليكم، فلا تدرون بأيّها تبدأون، وأيّها تؤخّرون.»

تدوينه الدواوين

□ وكان عمر أول من دوّن الدواوين من العرب. وكان سبب ذلك أنّ أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال، فلقی عمر. فقال له عمر:

ـ «ماذا جبيتَ؟»

قال: «خمسمائة ألف درهم.»

فقال عمر: «أتدری ما تقول؟»

قال: «نعم، مائة ألف، ومائة ألف، ومائة ألف، ومائة ألف، ومائة ألف.»

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنی عليه، ثم قال:

ـ «أيها الناس، قد جاء مال عظيم، فإن شئتم كلنا كـيلاً، وإن شـئتم أن يـعدّ عددنا.»

فقام رجل فقال: «يا أميرالمؤمنين، هؤلاء الأعاجم يضبطون هذا بالديوان.»

قال: «فدوّنوا الدواوين.»

وكان عمر بعث بعثاً بعد أن آمن الفيرزان[١] وحضره فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، هذا البعث قد أعطيتَ أهله الأموال، فإن تخلّفَ منهم رجل وأخلّ [455] بمكانه ما يدری صاحبك به؟»

وأشار عليه بالديوان وفسّره له، فوضع عمر الديوان.

□ وكان أبو موسى الأشعری كتب إلى عمر رضی الله عنه:

ـ «انّ المال كثر وكثر من يأخذه، فلسنا نحصيه إلّا بالأعاجم، فاكـتب إلينـا برأيك.»

فكتب إليه عمر: «لا تُعِدْهم فی شیء سلبهم الله إياه، أنزلوهم حيث أنزلهم الله

١. كذا فی الأصل: الفيرزان. فی مط: الهرمزان. لم نجده عند الطبری. أنظر (٥: ٢٧٤٩).

وتعلّموا.»

فاستكتب أبو موسى زياداً، وكتب عمر إلى أبي موسى يستقدمه. فاستخلف زياد عمران بن حصين وقدم عليه. فقال عمر:

ـ «لئن كان أبو موسى استخلف حدثاً لقد استخلف الحدثُ كهلاً.»

ثمّ دعا بزياد وقال: «أكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به.»

فكتب إليه كتاباً ودفعه إلى عمر. فنظر فيه، ثم قال: «أعد». فكتب غيره، ثم قال: «أعد». فكتب الثالث.

فقال عمر بعد ذلك:

ـ «لقد بلغ ما أردتُ في الكتاب الأول، ولكنّي ظننت أنّه قد روّىٰ فيه؛ ثم بلغ في الثاني ما أردت، فكرهت أن أعلمه ذلك لئلا يدخله العجب، فوضعت منه [456] لئلّا يهلك».

□ وكان عمر يُملي على كاتب بين يديه وزياد حاضر. فكتب الكاتب غير ما قال عمر.

فقال له زياد: «يا أميرالمؤمنين، إنه يكتب غير ما قلتَ له.»

فقال عمر: «أنّى علمتَ هذا.»

فقال: «رأيت رجع فيك وخطّه؛ فرأيت ما أجارت كفه غير ما رجعت به شفتيك.»

فاستحسنه عمر.

□ ثم قال له يوماً: «يا زياد، هل أنت حامل كتابي إلى أبي موسى في عزلك عن كتابته؟»

قال: «نعم، يا أميرالمؤمنين. ولكن أعن عجز أم خيانة؟»

قال: «لا عن واحد منهما، ولكنّي أكره أن أحمل فضل عقلك على الرعيّة.»

وضعه التأريخ

□ وكان عمر أول من كتب التاريخ من الهجرة، لأنّ أبا موسى كتب إليه أنه: «تأتينا منك كتب ليس فيها تاريخ.» ـ وكانت العرب تؤرّخ بعام الفيل. فجمع عمر الناس للمشورة.

فأشار بعضهم: أن يؤرّخ بمبعث النبى ـ صلّى الله عليه،

وقال بعضهم: «بمهاجرته.».. فأرّخ به. وكان ذلك فى سنة سبع عشرة، أو ثمانى عشر من الهجرة.

ثم قالوا: «بأىّ الشهور نبدأ؟» [457]

فقال بعضهم: «بشهر رمضان.»

فقال عمر:

ـ «بل بالمحرّم، فهو منصرف الناس من حجّهم، وهو شهر حرام.»

فأجمعوا على المحرّم.

□ ودخل كاتب لعمرو بن العاص على عمر، فحاوره فأحسن الكلام، فقال عمر:

ـ «ألست ابن القين بمكة؟»

فقال: بلى.

فقال عمر: «لا يلبث القلم، أو يبلغ بصاحبه.»[1]

□ وكان عمر إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار واشترط عليه ألّا يركب برذوناً، ولا يأكل ما لا يقدر عليه أوساط رعيّته، ولا يلبس رقيقاً، ولا يتّخذ باباً دون حاجات الناس.

---

١. كذا فى مط. وفى الأصل غموض.

أنتم المؤمنون وأنا أميركم

□ وهو أول من خوطب بـ«أميرالمؤمنين» وذاك أنّ أبا بكر خوطب بـ«خليفة رسول الله» ـ صلّى الله عليه ـ فلما خلف عمر خوطب بـ«خليفة خليفة رسول الله».

قال عمر: «أمر يطول. إذا جاء خليفة آخر قلتم: «خليفة خليفة خليفة رسول الله»، بل أنتم «المؤمنون» وأنا «أميركم».

□ وهو أول من جمع الناس على إمام [يصلّي بهم التراويح][1] [458] في شهر رمضان، وكتب به إلى البلدان وأمرهم بذلك، وزاد في مصابيح المساجد.

□ وهو أول من حمل الدرّة وضرب بها.

فمن ذلك ما رويناه أنّ عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ أُتي بمال، فجعل يقسمه بين الناس، فازدحموا عليه. فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه، فعلاه عمر بالدرّة، وقال:

ـ «إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الأرض. فأحببتُ أن أعلمك أنّ سلطان الله لا يهابك.»

□ ورأت الشفاء بنت عبدالله قوماً يقصدون في المشي، ويتكلّمون رويداً.

فقالت: «ما هذا؟»

قالوا: «نسّاك.»

فقالت: «كان والله عمر إذا تكلّم أسمع، وإذا مشىٰ أسرع، وإذا ضرب أوجع. هو والله الناسك حقّاً.»

□ وذكر قوم رجلاً بين يدي عمر، ووصفوه وقالوا:

١. كذا في مط، والأصل مطموس.

ـ «هو فاضل لايعرف الشرّ.»

قال: «أجدر له أن يقع فيه.»

□ واستعمل عمر عتبة بن أبى سفيان على كنانة، فقدم عليه بمال. فقال عمر:

ـ «ما هذا يا عتبة؟»

قال: «هذا مال خرجتُ به معى فتجرتُ فيه.»

قال: «ومالك تُخرج المال معك فى هذا الوجه، فصيّره فى بيت المال.»

فلمّا ولى عثمان [459] قال لأبى سفيان:

ـ «إن طلبتَ ما أخذ عمر من عتبة رددته عليك.»

فقال أبو سفيان: إنّك إن خالفت صاحبك الذى تقدّمك ساء رأى الناس فيك، إياك أن تردّ على من قبلك فيردّ عليك من يجىء بعدك.

كان معجباً بسياسات ملوك العجم

□ وكان عمر يكثر الخلوة بقوم من الفرس يقرأون عليه سياسات الملوك وسيّما ملوك العجم الفضلاء، وسيّما أنوشروان؛ فإنّه كان معجباً بها، كثير الإقتداء بها. وكان أنوشروان مقتدياً بسيرة أردشير آخذاً نفسه بها، وبعهده الذى كتبناه فيما مضى، مطالباً به غيره. وكان أردشير متبعاً لبهمن وكورس، مقتدياً[1] بهما. فهؤلاء جلّة ملوك الفرس وفضلاؤهم الذين ينبغى أن يقتدىٰ بأفعالهم وسيرهم وتتعلّم سياساتهم ويُتشبّه بهم.

□ وروينا عن عمران بن سوادة أنه قال: دخلت على عمر، فذكرت أشياء مما عابه[2] بها الناس فأصغىٰ إلىّ: وضع رأس درّته فى ذقنه، ووضع أسفلها على فخذه يستمع إلى ما أقول، إلى أن قلت:

---

١. فى مط: مقيداً.

٢. عابت أمتك فيك أربعاً ... (الطبرى ٥: ٣ ـ ٢٧٧٢).

ـ «وإنّ الرعيّة يشكون منك عنف السياق.»

فشرع الدرّة، ثم مسحها حتى أتى على آخرها، ثم قال:

ـ «أمَ والله، إنّي لأُرتع فأُشبع، وأسقي فأُروى، وأنهز[١] [460] العروضَ وأُوَدّب[٢] (أؤرب؟) قدرى، وأزجر اللقوف[٣]، وأسوق خطرى[٤]، وأضمّ الهيوب[٥]، وألحق العطوف[٦]، وأكثر الزجر، وأُقلّ الضرب، وأشهر العصا، وأدفع باليد[٧].»

فبلغ ذلك معاوية بعد، فقال: «كان والله عالماً برعيّته.»



١. مط: أنهر. في الطبرى: أنهز اللفوت.
٢. مط: أؤرب قدرى. في الطبرى: أذبّ قدرى.
٣. مط: أزجر اللفوت.
٤. مط كذا في مط: أسوق خطري. في الطبرى: أسوق خطوى.
٥. في الطبرى: أضمّ العنود.
٦. في الطبرى: وألحق القَطوف.
٧. وزاد في الطبرى: «لولا ذلك لأعذرت.»

خلافة عثمان بن عفّان

ذكر ما يجب ذكره من حديث الشورىٰ وما يليق منه بهذا الكتاب

لما قُتل عمر بن الخطّاب ـ رضى الله عنه ـ قيل له حين طُعن:

ـ «استخلف.»

فأبى أن يسمّى رجلاً بعينه وقال:

ـ «عليكم هؤلاء الرهط الذين توفّى رسول الله، صلّى الله عليه، وهو عنهم راض: علىّ، وعثمان ابنا عبد مناف، وعبدالرحمان، وسعد خالا رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ والزبير بن العوام حوارىّ رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وابن عمّته، وطلحة الخير. فليختاروا رجلاً منهم، وليشاوروا ثلاثة أيام، وليصلّ بالناس صهيب، ولا يأتينّ اليوم الثالث إلّا وعليكم أمير منكم. ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً، ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم فى الأمر. فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم.» [461]

وقال لأبى طلحة الأنصارى: «إنّ الله تعالى طال ما أعزّ الإسلام بكم، فاختر

خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحثّ هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً.»
وقال لصهيب:

ـ «صلّ بالناس ثلاثة أيام، وأدخل عليّاً، وعثمان، والزبير، وسعداً، وعبدالرحمان بن عوف، وطلحة ـ إن قدم ـ وأحضر عبدالله بن عمر، ولا شيء له من الأمر، وقم على رؤوسهم. فإن اجتمع خمسة ورضوا واحداً منهم وأبىٰ واحد فاشدخ رأسه واضرب رأسه بالسيف؛ وإن اتّفق أربعة فرضوا واحداً وأبىٰ اثنان فاضرب رؤوسهما؛ وإن رضى ثلاثة منهم رجلاً واحداً وثلاثة رجلاً منهم فحكّموا عبدالله بن عمر، فأيّ الفريقين حكم فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمان بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس.»

فخرجوا من عنده، فقال لعليّ قوم كانوا معه من قريش[1]: «ما ترى؟»
فقال عليّ: «إن أطيع فيكم قومكم، لم تؤمّروا أبداً.»[2]
وتلقّاه العباس، فقال له عليّ: «عُدلتْ عنّا».
قال: «وما علمك؟»[3] قال:

ـ «قرن بي عثمان وقال: كونوا مع الأكثر، فإن رضى رجلان

١. في الطبري (٥ : ٢٧٨٠): «من بني هاشم.»
٢. كذا في الطبري أيضاً: «إن أطيع فيكم قومكم، لم تؤمّروا أبداً.»
٣. كذا في الأصل: «وما علمك» والضبط في الطبري: «وما علّمك».

رجلاً[١] [462] ورجلان رجلاً، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمان بن عوف. فسعد لا يخالف ابن عمه عبدالرحمان، وعبدالرحمان صهر عثمان لا يختلفون: فيولّيها عثمان أو يولّيها عثمان عبدالرحمان، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني، بله أنّي لا أرجو إلّا أحدهما.»

فقال العباس:

ـ «لم أدفعك في شيء إلّا رجعت إليّ مستأخراً بما[٢] أكره، أشرتُ عليك عند وفاة رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ أن تسأله فيمن هذا الأمر، فأبيتَ، ثمّ أشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر، فأبيتَ، ثمّ أشرت عليك حين سمّاك عمر في الشورى ألّا تدخل معهم، فأبيتَ. احفظ عنّي واحدة: كلّما عرض عليك القوم، فقل: لا، إلّا أن يولّوك، واحذر هؤلاء الرهط، فإنّهم لايبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به غيرنا، وأيم الله، لا نناله إلّا بشرّ لاينفع معه خير.»

فأجابه عليٌّ بما سُمع بعضه ولم يسمع بعضه، وتمثّل بأبيات[٣]. والتفت، فرأى أبا طلحة، فكره مكانه. فقال أبو طلحة:

---

١. «فقال له عليّ... فإن رضي رجلان رجلاً»: سقطت من مط.

٢. في الأصل: لما. والتصحيح من الطبري.

٣. في الطبري (٥ : ٢٧٨١):

حلفتُ بربِّ الراقصاتِ عشيّةً ... غدونَ خفافاً فابتدرنَ المحصّبا

ليختلينْ رهطُ ابن يعمر مارئاً ... نجيعاً بنو الشدّاخِ ورداً مُصلّبا

ـ «لم تُرَعْ[١] أباالحسن».

وكان خلع عبدالرحمان نفسه، ورضوا أن يكون هو الذى يختار للمسلمين، [463] وقد كان جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والقوم فى البيت يتشاورون، فجلسا بالباب فحصبهما[٢] سعد وأقامهما.

ولما كان اليوم الرابع صعد عبدالرحمان المنبر فى الموضع الذى كان يجلس فيه رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ ثم قال:

«أيّها الناس، إنّى قد سألتكم سرّاً وجهراً عن إمامكم، فلم أجدكم تعدلون بأحد الرجلين: إما علىٌّ وإما عثمان. فقم إلىّ يا علىّ!»

فوقف تحت المنبر، وأخذ عبدالرحمان بيده، فقال:

ـ «هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبى بكر؟»

قال: «اللّهم لا، ولكن على جهدى وطاقتى.»

قال:

فأرسل يده، ثم نادىٰ: «قم يا عثمان!»

فأخذ بيده وهو فى موقف علىٍّ الذى كان فيه، فقال:

ـ «هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنّة نبيّه وفعل أبى بكر؟»

قال: «اللّهم نعم.»

فرفع رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان، ثم قال:

ـ «اللّهم اسمع واشهد، اللّهمّ اسمع واشهد: إنّى جعلت ما فى رقبتى من ذاك فى رقبة عثمان.»

فازدحم الناس يبايعون عثمان، وكان عبدالرحمان [464] قعد مقعد النبىّ ـ صلّى الله عليه ـ من المنبر، وأقعد عثمان على الدرجة الثانية.

---

١. الأصل والطبرى: لم ترع. فى الأصول الأخرى: لن ترع، لن تراع.

٢. حصبهما: رماهما بالحصباء.

قال:

وجعل الناس يبايعونه، وتلكأ عليّ، فقال عبدالرحمان: ﴿وَمَنْ[1] نَكَثَ، فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمٰا عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَنُؤْتِيْهِ أَجْراً عَظِيماً.﴾

فرجع عليّ يشقّ الناس حتّى بايع عثمان وهو يقول:

ـ «خدعة وأيّما خدعة».

ذكر هذه الخدعة

كان سبب قول عليّ: «خدعة.» أن عمرو بن العاص كان لقى عليّاً في ليالى الشورى فقال:

ـ «إنّى أحبّك وأريد نصحك: إنّ عبدالرحمان رجل مجتهد، ومتىٰ أعطيته العزيمة كان أزهد له فيك. فلا تظهر كلّ الرغبة، ولا تبذل له من نفسك إلّا الجهد والطاقة، ولا تضمن له كلّ ما يسألك وأوْمِ إلى التواضع.»[2]

ثمّ أتىٰ عثمان، فقال له:

ـ «إنّ عبدالرحمان ليس والله يبايعك إلّا بالعزيمة. فاقبل ما يعطيك، وأعطِه ما يسألك.»

فلذلك قال عليّ: «خدعة.»

وقد قيل: إنّ عليّاً قال ذلك لأجل ما ذكرناه من اقتران عثمان وعبدالرحمان.

قال: ثمّ انصرف عثمان [465] إلى بيت فاطمة بنت قيس، والناس معه، فقام المغيرة بن شعبة خطيباً، فقال:

ـ «يا أبا محمد، الحمد لله الذى وفّقك. ما كان لنا غير عثمان ـ وعليّ جالس.

فقال عبدالرحمان:

---

١. فى الأصل، مط، والطبرى: ومن نكث، وفى التنزيل، فمن نكث... (س ٤٨ الفتح: ١٠).

٢. لم نجد الرواية فى الطبرى.

ـ «يابن الدبّاغ، ما أنت وذاك، والله ما كنت أبايع أحداً من هؤلاء إلّا قلت فيه هذه المقالة.

وكان أول ما كتبه عثمان إلى أمراء الأجناد في الفروج:

«أما بعد، فانّكم حماة المسلمين، وذادتهم، وقد وضع عنكم عمر ما لم يغب عنّا، بل كان عن ملأ منّا، فلا يبلغنّي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغيّر الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم.»

وكتب إلى عمّال الخراج كتاباً يحضّهم فيه على العدل، وكتاباً إلى العامّة يأمرهم فيه بالطاعة والاقتداء وترك الإبتداع.

مقتل يزدجرد وما تمّ عليه من الاتفاقات الطريفة

إنّ يزدجرد لما وقع إلى أرض فارس بقي سنين. ثم أتىٰ كرمان، فأقام بها مثل ذلك. فطلب إليه دهقان كرمان شيئاً، فلم يجبه إليه، فطرده عن [466] بلاده. ثم أجمع أن ينزل خراسان، فأتىٰ سجستان، فأقام بها، ثم سار إلى مرو، ومعه الرهن من أولاد الدهاقين، ومعه من رؤسائهم فرّخزاد.

فلمّا قدم مرو، واستغاث منها الملوك، وكتب إليهم يستمدّهم مثل صاحب الصين، وملك فرغانة، وملك كابل، وملك الخزر، كان الدهقان بمرو ماهويه، وكان له ابن يسمّى نزار، فوكّل ماهويه ابنه نزار[١] بمدينة مرو، وتقدّم إليه وإلى أهل المدينة ألّا يفتحوا الباب ليزدجرد، وقال لهم:

ـ «ليس هذا لكم بملك لأنّه قد سلّم بلاده وجاءكم مفلولاً مجروحاً، ومرو لاتحتمل ما تحتمل غيرها من الكور. فإذا جئتكم غداً فلا تفتحوا الباب.»

فلمّا أتاهم فعلوا ذلك.

---

١. الأصل هنا: من دون نقط وفي المواضع الأخرى: نزار. مط: بزاز. وفي الطبري (١: ٢٨٧٦) وابن الأثير (٣ـ ١٢١ـ ١٢٣): براز ـ ولعلّه هو الصحيح ـ وفي حواشيهما: نزار، بران، بزاز.

وانصرف [فرّخزاذ][١]، فجثا بين يدي يزدجرد وقال:

ـ «استصعبت عليك مرو، وهذه العرب قد أتتك.»

قال: «فما الرأى؟»

قال: «أن تلحق ببلاد الترك، فتقيم بها، حتى يتبيّن لنا أمر العرب. فإنّهم لايدعون بلدة إلّا دخلوها.»

قال: «لست أفعل، ولكن أرجع عودى على بدئى.»

فعصاه ولم يقبل رأيه. فسار يزدجرد، [وأتى نزار دهقان مرو][٢]، وأجمع على صرف الدهقنة عن [467] ابنه نزار إلى سنجان[٣] ابن أخيه.

فبلغ ذلك ماهويه وهو أبو نزار وعمل فى هلاك يزدجرد، وكتب إلى نيزك طرخان يخبره أن يزدجرد وقع إليه مفلولاً، ودعاه إلى القدوم عليه، ليكون أيديهما معاً فى أخذه والاستيثاق منه، فيقتلوه، ويصالحوا عليه العرب، وجعل له فى كلّ يوم ألف درهم، وسأله أن يكتب إلى يزدجرد مماكراً له لينحّى عامّة جنده، ويحصل فى طائفة من خواصّه، فيكون أضعف لركنه وأهون لشوكته، وقال:

ـ «تعلمه فى كتابك إليه الذى عزمت عليه فى مناصحته ومعونته على العرب: أن يشتقّ لك اسماً من أهل الدرجات بكتاب مختوم بالذهب، وتعلمه أنك لست قادماً عليه حتى تنحّى عنه فرّخزاد.»

فكتب نيزك بذلك إلى يزدجرد. فلمّا ورد عليه كتابه بعث إلى عظماء مرو، فاستشارهم.

فقال له سنجان: «لست أرى أن تنحّى عنك أصحابك ولا فرّخزاد لشيء.»

---

١. فى الأصل ومط: خرّزاذ، حرزاذ، وما أثبتناه يؤيده السياق والطبرى (١ : ٢٨٧٧).

٢. التكملة من الطبرى.

٣. الطبرى: سنجان، سنحان (٥ : ٢٨٧٧). وهو قريب الى الصحة. وفى موضعين من الأصل: صنجان، وفى سائر المواضع: سنجان فوحّدنا الضبط.

وقال نزار: «بل أرى أن تبايعه[١] يعنى نيزك ـ وتجيبه إلى ما سأل.»

فقبل رأيه، وفرّق عنه جنوده، وأمر [468] فرّخزاد [أن يأتى][٢] لأجمة سرخس، فصاح فرّخزاد، وشق جيبه وتناول عموداً بين يديه يريد ضرب نزار به، وقال:

ـ «يا قتلة الملوك. قتلتم ملكين، وأظنّكم قاتلى.»

هذا، ولم يبرح فرّخزاذ. حتى كتب له يزدجرد كتاباً بخطّ يده، نسخته:

«هذا كتاب لفرخزاذ: إنك قد أسلمت يزدجرد وأهله وولده وحاشيته وما معه، إلى ماهويه دهقان مرو.»

وأشهد عليه بذلك.

فأقبل نيزك إلى موضع من مرو يقال له حلبندان[٣]. فلما أجمع يزدجرد على لقائه والمسير إليه، أشار عليه أبو نزار ألّا يلقاه فى السلاح فيرتاب به وينفر عنه، ولكن يلقاه بالملاهى والمزامير. ففعل، وسار إليه كذلك، وتقاعس عنه أبو نزار، وكردس نيزك أصحابه كراديس.

فلما تدانيا استقبله نيزك ماشياً ويزدجرد على فرس له. فأمر لنيزك بجنيبة من جنائبه، فركبها، فتوسط عسكره، فتواقفا.

فقال له نيزك فى ما يقول: «زوّجنى إحدى بناتك لأناصحك وأقاتل معك عدوّك.»

فقال له يزدجرد: «علىّ تجترئ يا كلب!»

فعلاه نيزك بمخفقته. وصاح يزدجرد: [469]

ـ «غدر الغادر.»

---

١. كذا فى مط: «أن تبايعه»، وفى الأصل طموس.

٢. كذا فى مط: «أن تأتى»، وفى الأصل طموس.

٣. مط: خلسدان. والأصل مهمل إلّا فى النون. وكذلك الطبرى (٥ : ٢٨٩٧) وفى حواشيه. حلبندار.

وركض منهزماً، ووضع أصحاب نيزك سيوفهم فيهم، فأكثروا القتلى.

يزدجرد والطحّان

وانتهى يزدجرد في هزيمته إلى مكان من أرض مرو، فنزل عن فرسه، ودخل بيت طحّان، مكث فيه ثلاثة أيام.

فقال له الطحان: «أيها الشقيّ، اخرج فاطعم شيئاً فإنّك جائع منذ ثلاث.»

قال: «لست أصل إلى ذلك إلّا بزمزمة.»

وكان رجل من زمامة مرو قريباً منه، فأتاه الطحّان، وسأله أن يزمزم[١] عليه ليأكل. ففعل ذلك. فلما انصرف إلى مرو سمع أبا نزار يذكر يزدجرد ويطلبه، فأتاه، فسأله وأصحابه عن حليته. فوصفوه. فأخبرهم أنّه رءاه في بيت طحان وهو رجل جعد مقرون حسن الثنايا مقرّط مسوّر.

فوجه إليه رجلاً من الأساورة، وأمره أن يخنقه بوَتر ويطرحه في نهر مرو. فلقوا الطحان، فضربوه ليدلّ عليه، فلم يفعل وجحدهم أن يعرف أين يتوجّه. فلما أرادوا الانصراف عنه. قال رجل منهم:

ـ «إني أجد ريح المسك فلو تتبّعته.»

فنظر إلي طرف ثوب من ديباج في الماء، فاجتذبه إليه، فإذا هو يزدجرد، فسأله ألّا يقتله ولا يدلّ عليه: [470] ويجعل له خاتمه وسواره ومنطقته.

فقال: «أعطني أربعة دراهم[٢] وأخلّي عنك.»

قال: «ويحك! خاتمي لك وثمنه لايحصىٰ!»

فأبى عليه.

---

١. زمزم المغني: ترنّم. زمزم العلوج: تراطنوا عند الأكل وهم لايستعملون اللسان ولا الشفة في كلامهم لكنه صوت يديرونه في خياشيمهم وحلوقهم فيفهم بعضهم عن بعض.

٢. وفي الأصل أربعة درهم.

قال يزدجرد: «قد كنتُ أُخبرت أنّى سأحتاج إلى أربعة دراهم، وأُضطرّ إلى أن يكون أكلى أكل الهرّ، فقد عانيته.»

ثمّ انتزع أحد قرطيه، وأعطاه الطحّان مكافأة لكتمانه عليه، ودنا منه كأنّه يكلّمه بشيء، فأنذر الرجل أصحابه، وأتوه، فطلب إليهم يزدجرد ألّا يقتلوه، وخوّفهم ما عليهم من دينهم من ذاك[١]. وقال:

ـ «آتوني الدهقان أو سرّحوني إلى العرب، فإنّهم يستحيون مثلى من الملوك.»

فأخذوا ما كان عليه من الحليّ، فجعلوه في جراب، وختموا عليه، ثمّ خنقوه بوتر، وطرحوه في نهر مرو، فجرىٰ به الماء حتّى انتهى إلى فوهة الدريق[٢]، فتعلّق بعود، فأُخذ من هناك. ثم تفقّد أبو نزار أحد قرطيه، فأخذ الذى دلّ عليه، فضربه حتّى أتى على نفسه، وبعث بما أُصيب له إلى الخليفة يومئذ، فأغرم الخليفة الدهقان قيمة القرط المفقود.

رواية أخرى فى ذلك

وقد حُكي فى رواية أخرى: أنّ نزار وسنجان كانا متباغضين [471] متحاسدين، وخصّ به نزارً فحسده سنجان، فظهر ذلك لنزار، فجعل يوغر صدر يزدجرد ويسعىٰ فى قتله، ولم يزل يُغري يزدجرد بسنجان حتّى عزم على قتله، وأفشىٰ ما كان عليه عزم من ذلك إلى امرأة من نسائه كان نزار واطأها. فأرسلت إلى نزار[٣] تبشّر بإجماع يزدجرد على قتل سنجان، وفشا الحديث وبلغ سنجان. فجمع جموعاً وتوجّه نحو القصر الذى فيه يزدجرد، وبلغ ذلك نزار، فنكص عن سنجان لكثرة جمعه، وأرعب ذلك يزدجرد. فخرج ذاهباً على وجهه راجلاً ينجو

١. أنظر الطبرى (٥ : ٢٨٨١).

٢. مط: الدريو. وفى الطبرى: الرزيق، وفى حواشيه: الزريق (٥ : ٢٨٨١).

٣. الأصل: نزاراً، فمنعناه من الصرف، كما فى سائر المواطن من الأصل.

بنفسه، فمشىٰ نحواً من فرسخين حتى وقع إلى رحى من ماء، فدخل بيت الرحىٰ، فجلس فيه كالاًّ لغباً. فرآه صاحب الرحىٰ ذا هيئة، وطرّة، وبزّة كريمة. ففرش له وأتاه بطعام. فطعم ومكث عنده يوماً وليلة. فسأله صاحب الرحىٰ أن يأمر له بشيء، فبذل له منطقته، وكانت مكلّلة بجوهر. فأبىٰ صاحب الرحىٰ أن يقبلها وقال:

ـ «إنما يُرضيني من هذه المنطقة أربعة دراهم آكل بها وأشرب».

فأخبره ألّا ورق معه، فتملّقه صاحب الرحىٰ حتى إذا [472] أغفىٰ، قام إليه بفأس، فضرب بها هامته، فقتله، وأخذ ما كان عليه من ثياب وحُليّ، وألقى جيفته في النهر وبقر بطنه، فأدخل فيه من أصول طرفاء كانت نابتة على النهر ليحبس[1] جثته في الموضع الذي ألقاها فيه، فلا ينتقل[2] فيُعرف ويُطلب وما أخذ من سلبه، وهرب على وجهه.

وبلغ قتل يزدجرد رجلاً من الأهواز كان مطراناً على مرو يقال له: إيليا، فجمع من كان قِبَله من النصارىٰ، وقال:

ـ «إنّ ملك الفرس قتل وهو ابن شهريار بن كسرىٰ وإنّما شهريار ولد شيرين المؤمنة التي عرفتم حقّها وإحسانها إلى أهل ملّتها وكانت بنت قيصر. ثم لهذا الملك عنصر في النصرانية مع ما نال النصارىٰ في ملك جدّه من الشرف، حتى بنى لهم البيع، وشدّ[3] ملّتهم، فينبغي أن نجزى هذا الملك بقدر طاقتنا من الكرامة، وقد رأيت أن أبنى له ناووساً وأحمل جثّته في كرامة، حتى أجعلها فيه.»

فقال النصارى: «أمرنا لأمرك تبع.»

فأمر المطران، فبُني له في جوف بستانه بمرو ناووس، ومضى بنفسه ومعه نصارى [473] مرو حتى استخرج جثّة يزدجرد، وكفّنها في تابوت، وحمله ومن

---

١. مط: فحبس.

٢. الطبري: فلا يسفل (٥: ٢٨٨٣).

٣. الطبري: سدّد (٥: ٢٨٨٣).

كان معه من النصارى على عواتقهم حتى أتوا به الناووس، ووأروه فيه، وردموا بابه.

وقيل: بل حمله إلى إصطخر فوضع في الناووس هناك. وذلك في سنة إحدى وثلاثين للهجرة.

وكان مُلك يزدجرد عشرين سنة منها أربع سنين في دعة وستّ عشرة سنة في تعب من محاربة العرب إيّاه، ومحنته بهم، وغلظتهم عليه. وكان آخر ملك ملك من آل أردشير بن بابك، وصفا المُلك بعده للعرب.

ما جرىٰ في خلافة عثمان مما تستفاد منه تجربة

وقد كنّا ذكرنا ما يجب ذكره من خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ وما تمّ منه على الوجه الذي اقتصصناه.

ثم جرىٰ بعد ذلك مما تستفاد منه تجربة أنّ قوماً من المسلمين أنكروا منه أشياء، فكانوا يتذاكرونها بينهم، وذلك بالعراق خاصّة وبالمدينة دون غيرهما. ثم انتشر منهم طائفة في سائر الأعمال ينعون[١] على عثمان أموراً ويشنّعون عليه. فسيّر عثمان منهم نفراً إلى الشام ليذلّهم بمعاوية، وجرى لهم معه خطب طويل. ثم تكاتبوا [474] بعد ذلك، وجميع ذلك شبيه بالسرّ[٢].

إلى أن شرب الوليد بن عقبة، وهو وال على الكوفة خمراً وشهد عليه به من لم يمكن ردّ شهادته. فاستقدمه عثمان المدينة وجلده الحدّ، وردّ مكانه سعيد بن العاص، فورد سعيد، وأمر بغسل المنبر من مقامه، فكلّمه في ذلك قوم من قريش، فأبىٰ عليهم، وغسل الموضع وداری الناس، فلم يتمّ له ما أراد، وشغّب عليه الناس.

---

١. النعى على الرجل: إظهار عيبه وتشهيره. ٢. مط: بالستر.

ثم أجمع رأى الناس على أن يبعثوا إلى عثمان رجلاً يكلّمه ويخبره بأحداثه. فأرسلوا إليه عامر بن عبدالقيس التيمى، وكان يعدّ من النسّاك. فأتاه فدخل عليه فقال:

ـ «إنّ ناساً من المسلمين اجتمعوا ونظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً، فاتق الله، وتب إليه، وانزع عنها.»

فقال عثمان: «انظروا إلى هذا، فإنّ الناس يزعمون أنه قارئ، ثم يجئ فيكلّمنى فى المحقّرات[1] ويزعم أنها عظائم. فوالله ما يدرى أين الله.»

قال عامر: «أنا لا أدرى أين الله؟»

قال: «نعم، والله لاتدرى أين الله.»

قال عامر: «بلى والله، إنى لأدرى أنّ الله لك لبالمرصاد.»

فأرسل عثمان إلى معاوية [475] بن أبي سفيان، وإلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وإلى سعيد بن العاص، وإلى عمرو بن العاص وأمثالهم، فجمعهم يشاورهم ويخبرهم بما بلغ منه. فلما اجتمعوا عنده قال:

ـ «إنّ لكل امرئ وزراء نصحاء، وإنّكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى، وقد صنع الناس ما رأيتم، وطلبوا إليّ أن أعزل عمّالى وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبّون. فاجتهدوا لى رأيكم ثم أشيروا علىّ.»

فقال عبدالله بن عامر:

ـ «رأيى لك يا أميرالمؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمّرهم فى المغازى حتى يذلّوا لك، فلا تكون همّة أحدهم إلّا نفسه، وما هو فيه من دَبر دابّته وقمل فروته.»

ثم أقبل على سعيد بن العاص فقال: «ما رأيك؟»

---

١. أنظر ابن الأثير ٣: ١٤٨، والطبرى ٦: ٢٩٣١.

قال: «يا أميرالمؤمنين، إن كنت تريد رأينا فاحسم عنّا الداء، واقطع ما تخاف من الأصل، واعمل برأيي.»

قال: «وما هو؟»

قال: «إنّ لكلّ قوم قادة متى تهلك تفرّقوا ولا يجتمع لهم أمر.»

فقال عثمان: «إنّ هذا الرأى لولا ما فيه.»

ثم أقبل على معاوية، فقال: «ما رأيك؟»

قال: «رأيي يا أميرالمؤمنين أن تردّ عمّالك على [476] الكفاية لما قِبَلهم، وأنا ضامن لما قِبَلي.»

ثم أقبل على عبدالله بن سعد، فقال: «ما رأيك؟»

قال: «يا أميرالمؤمنين، الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم.

ثم أقبل على عمرو بن العاص، فقال: «ما رأيك؟»

قال: «أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعتزل، فإنّك قد ولّيت الناس بنى أميّة وحملتهم على أرقابهم، فاعتزل، فإن أبيت فامض قدماً.»

فقال له عثمان: «مالك، قمل فروك مذ عزلتك، أهذا الجدّ منك؟»

فسكت عنه عمرو حتى إذا تفرّق القوم قال عمرو:

ـ «لا والله يا أميرالمؤمنين، لأنت أعزّ عليّ من ذلك، ولكن قد علمت أنّ الناس قد علموا أنّك جمعتنا لتستشيرنا، وسيبلغهم قول كلّ رجل منّا. فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا[١] بى لأقودَ إليك خيراً، وأدفع عنك شرّاً.»

فردّ عثمان عمّاله على أعمالهم، وأمرهم بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير[٢] الناس في البعوث، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه.

---

١. مط: فيثقوني.

٢. كذا في الطبري: بتجمير الناس (٦: ٢٩٣٤) مط: بتجهيز الناس وكذلك ابن الأثير: بتجهيز الناس (٣:

وردّ سعيد بن العاص أميراً على الكوفة.

أهل الكوفة يردّون سعيد بن العاص

فخرج أهل الكوفة [477] عليهم السلاح يقدمهم مالك بن الحارث الأشتر، فتلقّوه وردّوه وقالوا:

ـ «لا، والله، لا تلي[١] علينا حُكماً، ولا تدخلها علينا ما حملنا سيوفنا.»

فرجع سعيد وقال للناس:

ـ «أما اختلفتم إلّا لي؟ إنّما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أميرالمؤمنين رجلاً وتضعوا لي رجلاً، وهل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل؟»

ومضى سعيد حتى قدم على عثمان فأخبره الخبر.

فقال عثمان: «ما يريدون، أ خلعوا يداً[٢] عن الطاعة؟»

قال: «أظهروا أنّهم يريدون البدل.»

قال: «فمن يريدون؟»

قال: «أبا موسى.»

قال: «أثبتنا أبا موسى عليهم، والله لا نجعل لأحد منهم عذراً، ولا نترك لهم حجّة، ولنصبرنّ كما أُمرنا حتى يبلغ الله ما يريد.»

وكان يزيد بن قيس لما استغوى[٣] الناس على سعيد بن العاص، خرج منه ذكر قبيح[٤] لعثمان. فأقبل إليه القعقاع بن عمرو حتى أخذه.

← ١٥٠). والأصل غير واضح.

١. مط: إن تلي. وفي الطبري: لا يلي... ولا يدخلها (٦: ٢٩٣٤).

٢. مط: ما تريدون اخلعوا أبداً!

٣. كذا في الأصل ومط. استغوى: أضلّ. وفي الطبري: استعوى: استغاث. نعق بهم إلى الفتنة.

٤. في مط: ذكر فتح لعثمان. وقد جعل عنواناً وبحرف أحمر. الطبري: ذكر لعثمان، بدون «قبيح» (٦: ٢٩٣٥).

فقال: «ما تريد يا قعقاع، ألك علينا فى أن نستعفى سبيل؟»
قال: «وهل إلّا ذاك؟» قال: «لا.»
وإنما قال ذلك لما لم يتمّ له جميع ما يريد ـ فقال له [478] القعقاع:
ـ «فأمسكْ عن الكلام واستعفِ كيف شئتَ.»

كثر الناس على عثمان وكلّموا عليّاً فيه

فلما كانت سنة أربع وثلاثين كتب أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ بعضهم إلى بعض أن: «اقدموا، فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد.» وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد، وأصحاب رسول الله يرون ويسمعون، ليس منهم أحد يذبّ ولا ينهىٰ.

فاجتمع الناس فكلّموا علىّ بن أبي طالب، عليه السلام. فدخل علىٌّ على عثمان فقال:

ـ «إنّ الناس ورائى، وقد كلّمونى فيك، ووالله ما أدرى ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلّك على أمر لا تعرفه، إنّك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلّغكه وما خصصنا بأمر دونك. قد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ ونلت صهره، وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحقّ منك، ولا ابن الخطّاب بأولىٰ بشيء من الخير منك وأنت أقرب إلى رسول الله، صلّى الله عليه، رحماً. فالله الله فى نفسك. فإنّك والله ما تبصّر من عمىً ولا تعلّم من جهل، [479] وإنّ الطريق لواضح بيّن، وإنّ أعلام الدين لقائمة. تعلم يا عثمان، أنّ أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدى وهَدىٰ، واستقام وأقام سنّة معلومة، وأمات بدعة

معلومة. فوالله إنّ كلّاً لبيّن، وإنّ السنن لقائمة لها أعلام، وإنّ البدعة لقائمة لها أعلام. وإنّي أحذّرك الله وسطوته ونقماته، وأحذّرك أن تكون إمام هذه الأمّة الذي سمعنا به، فإنّه كان يقال:[١] يقتل في هذه الأمّة إمام يُفتح[٢] به عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويَلبس عليهم أمورهم، ويتركهم شيعاً لا يبصرون الحق لعلوّ الباطل، يموجون فيها موجاً.»

قال عثمان: «قد والله علمت أنّك تقول [الذي قالوه][٣] أما والله لو كنت بمكاني ما عنّفتك، ولا أسلمتك، ولا عبت عليك، وإنّي ما جئت منكراً[٤] إن وصلت رحماً، وسددت خلّة، وأويت ضائعاً، وولّيت شبيهاً بمن كان يولّي عمر. أنشدك الله يا عليّ، هل تعلم أنّ مغيرة بن شعبة ليس هناك؟

قال: «نعم.»

قال: «فتعلم أنّ عمر ولّاه.»

قال: «نعم.»

قال: «فلِمَ تلومني أن [480] ولّيت عبدالله بن عامر في رحمه وقرابته؟»

قال عليّ: «سأخبرك. إنّ عمر كان كلّ من ولّى فإنّما يطأ على صماخه، إن بلغه حرف خلعه[٥]، ثم بلغ أقصى الغاية، وأنت لا تفعل. ضعفت ورققت على أقربائك.»

١. مط: بدون «يقال».

٢. مط: يفتح الله به. انظر الطبري ٦: ٢٩٣٨. والكامل ٣: ١٥١.

٣. الذي قالوه: غير واضحة في الأصل فصححناها بمقتضى السياق وما في الطبري. في مط: الذي قلت.

٤. إني ما جئت منكراً: العبارة غير واضحة في الأصل، فقرأناها في ضوء ما في مط والطبري.

٥. الطبري: جلبه، (٥: ٢٩٣٩).

قال عثمان: «هم أقرباؤك أيضاً.»

قال عليّ: «أجل. لعمرى إنّ رحمهم منّى لقريبة، ولكن الفضل فى غيرهم.»

قال: هل تعلم أنّ عمر ولّى معاوية خلافته كلّها، فقد ولّيته.»

قال علي: «أنشدك الله، هل تعلم أنّ معاوية كان أخوف من عمر، من يرفأ غلام عمر، منه؟»

قال: «نعم.»

قال عليّ: «فإنّ معاوية يقطع الأمر[١] دونك، وأنت تعلم؛ فيقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك، فلا تغيّر على معاوية.»

ثمّ خرج عليّ من عنده وخرج عثمان على أثره، فجلس على المنبر، فقال:

أما بعد، فإنّ لكلّ شيء آفة ولكل أمر عاهة، وإنّ آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيّابون طعّانون يُرونكم ما تُحبون ويُسرّون ما تكرهون، يقولون لكم ويقولون، أمثال النعام يتبعون أول ناعق، أحبّ مواردها إليها البعيد، لا يشربون [481] إلّا تبرّضاً[٢] ولا يردون إلّا عكراً، لا يقوم لهم رائد، قد أعيتهم الأمور، وتعذّرت عليهم المكاسب. ألا! والله عبتم عليّ بما أقررتم لابن الخطّاب بمثله، ولكنّه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنت لكم، ووطّأت لكم كنفى، وكففت يدى ولسانى، فاجترأتم عليّ. أما والله، لأنا أعزّ نفراً، وأقرب ناصراً، وأكثر عدداً وأقمن. إن قلتُ: هلمّ، أُتى إليّ،[٣] ولقد أعددت لكم

---

١. الطبرى: يقتطع الأمور.

٢. وفى الطبرى: نغصاً، بعضاً. تبرّض الماء: ترشّفه. نغصه: حرّكه.

٣. الأصل: هلمّ إليّ، إليّ. مط: هل إليّ إليّ! وما أثبتناه يؤيده الطبرى (٦: ٢٩٤٠)، وكذلك ابن الأثير (٣:

أقرانكم، وأفضلت عليكم فضولاً، وكثرت لكم عن نابى، وأخرجتم [منّى][١] خُلقاً لم أكن أحسنه، ومنطقاً لم أنطق به. فكفّوا عليكم[٢] ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فقد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلّمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا. ألا، فما تفقدون من حقّكم. والله ما قصّرت في بلوغ ما كان يبلغ مَن قبلي، ومن لم تكونوا تختلفون عليه. فضل فضلٌ من مال. فمالي لا أصنع في الفضل ما أريد، فلِمَ كنتُ إماماً؟»

فقام مروان بن الحكم فتكلّم، فقال عثمان:

ـ «اسكتْ لا سكتّ[٣]، [482] دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا، ألم أتقدّم إليك ألّا تنطق بحرف؟»

فسكت مروان ونزل عثمان.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين

فيها كان ظهور السبائيّة[٤] وخروج أهل مصر إلى المدينة لقتل عثمان

وكان سبب ذلك أن عبدالله بن سبا كان يهوديّاً من أهل صنعاء، وأمّه سوداء. فأسلم أيام عثمان، ثم تنقّل في بلدان المسلمين يحاول بدعة. فبدأ بالحجاز، ثم بالبصرة، ثم بالكوفة، ثم بالشام. فلم يجتمع له أمر على ما يريد، فمضى نحو مصر.

← ١٥٢).

١. التكملة من الطبري (٦: ٢٩٤٠).

٢. في الأصل والطبري (٦: ٢٩٤٠): عليكم. وفي حواشي الطبري: عنّي.

٣. في الطبري: لا سكّتّ. لا أسكتّ (٦: ٢٩٤١).

٤. أنظر الطبري (٦: ٢٩٤١). وابن الأثير (٣: ١٥٤).

فلمّا أتاها، قال لأهلها في ما يقول:

ـ «أنا أعجب ممن يصدّق بأنّ عيسى يرجع، ويكذّب بأنّ محمداً لا يرجع، وقد قال الله: «إنّ الذى فرض عليك القرآن لرادُّكَ إلى معاد.»[1] فمحمد أحقّ بالرجوع.» فوضع لهم الرجعة.

ثم قال: «ما من نبيٍّ إلّا وله وصيّ، وعليٌّ وصيّ محمّد.

ثم قال: «من أظلم ممن لم يُجز وصيّة رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ ووثب على حقّ ليس له، وتناول [أمر][2] الأمة؟»

ثم قال: «هذا عثمان قد غصب عليّاً، وغيّر وبدّل، وكان وكان، فانهضوا [483] في الأمر، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واطعنوا على أمرائكم تجدوا مقالاً، وادعوا إلى هذا الأمر.»

وبثّ دعاة في الأمصار، وكاتب من استفسده فى الأمصار وكاتبوه. ودعوا فى السرّ إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، وتكاتب أهل الأمصار، حتى أوسعوا الأرض إذاعة، وتناولوا المدينة.

فدخل قوم على عثمان، فقالوا:

ـ «يا أميرالمؤمنين، أيأتيك ما يأتينا؟»

قال: «لا، ما جاءنى إلّا السلامة.»

قالوا: «فإنّا قد أتانا كيت وكيت.»

قال: «فأشيروا عليّ.»

قالوا: «نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.»

فدعا جماعة من وجوه الصحابة فيهم عمار بن ياسر، فأرسل أحدهم إلى

---

١. س ٢٨ القصص: ٨٥.
٢. تكملة من الطبرى.

الكوفة، وأرسل آخر إلى البصرة، وأرسل عماراً إلى مصر، وأرسل ابن عـمر إلى الشام، وفرّق الباقين في البلاد. فرجعوا جميعاً قبل عمار فقالوا:

ـ «أيها الناس، ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين، ولا عوامّهم، والناس ساكتون [484] قارّون.»

فاستبطأ الناس عمّاراً، فلم يفجأهم إلّا كتاب من عبدالله بن أبي سرح يُخبرهم: أنّ عماراً قد استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا إليه، مـنهم: عـبدالله بـن السـوداء، وسودان بن حمران، وفلان وفلان.

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار:

«أما بعد، فإنّي آخذ العمّال بموافاتي في كلّ موسم، فاقدموا عليّ.»

فقدم عليه عبدالله بن عامر، ومعاوية، وعبدالله بن سعد، وأدخل في المشورة سعداً وعمراً. فقال:

ـ «ويحكم! ما هذه الشكاة، وما هذه الإذاعة؟ إنّي والله لخـائف أن تكـونوا مصدوقاً عليكم، وما يُعصب هذا إلّا بي.»

فقالوا: «لا والله، ما صدقوا ولا برّوا، ولا يجلّ الأخذ بها، والإنتهاء إليها.»

قال: «فأشيروا عليّ.»

قالوا: «هذا أمر يصنع في السرّ، ثم يلقى إلى غـير ذي المـعرفة، فـيخبر بـه، فيتحدّث به الناس في مجالسهم.»

قال: «فما دواء ذلك؟»

قالوا: «طلب هؤلاء القوم، ثم قتل الذين يخرج هذا من عندهم.»

وقال معاوية: «ولّيتني، فولّيت قوماً لا يأتيك عنهم إلّا الخير.»

قال: «فما الرأي؟»

قال: «حسن الأدب.»

قال: «فما ترى [485] يا عمرو؟»

قال: «أرى أنك قد لنت لهم، وأرخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرىٰ أن تصنع كما كان يصنع عمر.»

فتكلّم عثمان بكلام ليّن ونقر، فشخص معاوية وعبدالله بن سعد، ورجع ابن عامر وسعيد معه، وردّ سائر الأمراء إلى أعمالهم.

وكان معاوية قد قال لعثمان غداة ودّعه:

ـ «يا أميرالمؤمنين، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإنّ أهل الشام على الأمر، لم يزولوا.»

فقال: «أنا أبيع جوار رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وإن كان فيه قطع خيط عنقي؟»

قال: «فأبعثُ إليك جنداً منهم يقيم بين ظهرانيّ أهل المدينة لنائبة إن نابت.»

قال: «أنا أقتّر على جيران رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ الأرزاق بجند يساكنهم وأضيّق على دار الهجرة والنصرة!»

قال: «والله يا أميرالمؤمنين لتُقاتلنّ[١]، ولتُغزينّ.»

قال: «حسبي الله ونعم الوكيل.»

فقال معاوية: «يا أيسار الجزور، وأين أيسار الجزور!»

ثم خرج.

ثمّ إنّ السبائية كاتبوا أهل الأمصار أن يتوافوا المدينة لينظروا في ما يريدون، وأظهروا [486] أنهم يأمرون بالمعروف، ويسألون عثمان عن أشياء لتطير[٢] في الناس، ولتحقّق عليه. فتوافو المدينة، وأرسل عثمان رجلين فقال:

ـ «انظرا[٣] ما يريدون، واعلما علمهم.»

فأتياهم وداخلاهم حتى أمنوهما، فأخبروهما بما يريدون، فقالا:

١. الطبري: لتغتالنّ ولتغزينّ (٦: ٢٩٤٩). ٢. مط: لتظهر.

٣. وفي الأصل: انظروا.

ـ «من معكم من أهل المدينة؟»

قالوا: «ثلاثة نفر.»

قالا: « [فهل إلاّ؟]»(١)

قالوا: «لا.»

قالا: «فكيف تريدون أن تصنعوا؟»

قالوا: «نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنقول: إنّا قرّرناه بها. فلم يخرج منها ولم يتب(٢)، ثم نخرج بعد ذلك كأنّا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنختلعه، فإن أبىٰ قتلناه فكانت إيّاها.»

فرجعا إلى عثمان بالخبر، فضحك وقال:

ـ «اللّهم سلّم هؤلاء النفر(٣). أما عمّار فحمل عليّ ذنب غيرى وعركه(٤) بى، وأمّا محمد بن أبى بكر، فإنه رجل مُعجب يرىٰ أنّ الحقوق لا تلزمه، وأما ابن [سهله](٥) فإنّه يتعرض للبلاء.»

ثم خطب عثمان، فجمع أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة، وخبّرهم بما جاء به الرجلان، واعتذر مما تجنى الناس عليه، واستشارهم. فأشار قوم بقتلهم، ولان عثمان، فأبىٰ أولئك إلّا قتلهم، وأبىٰ إلّا تركهم. [487]

فرجعوا إلى بلادهم وفى نيّاتهم أن يغزوه مع الحُجّاج كالحُجّاج. فتكاتبوا وقالوا: موعدهم في ضواحى المدينة في شوال. فلمّا كان ذلك الوقت اجتمعوا، فنزلوا قرب المدينة ـ وذلك سنة خمس وثلاثين ـ وعدّتهم ألفا رجل، ينقصون

---

١. الأصل غير واضح وما أثبتناه هو من الطبرى (٦: ٢٩٥٠). مط: فهل قالوا لا. قال فكيف تريدون.

٢. كذا. وما أثبتناه يؤيده الطبرى. مط: ولم يثبت.

٣. وزاد فى الطبرى:فإنّك إن لم تسلّمهم شقوا (٦: ٢٩٥١).

٤. مط: وغدر بى. وفى الطبرى: وأما عمار فحمل على عباس بن عتبة بن أبى لهب وعركه (٦: ٢٩٥١).

٥. غير واضحة فى الأصل. مط: سار. وفى بعض الأصول: ساره، وما أثبتناه من الطبرى.

قليلاً أو يزيدون، من أهل البصرة والكوفة. وخرج أهل مصر ومعهم ابن السوداء، وكنانة بن بشر، وسودان بن حمران، وفي أهل الكوفة زيد بن صوحان، والأشتر النخعي، وفي أهل البصرة حكيم بن جبلة وبشر بن شريح وأميرهم حرقوص بن زهير، ثم تلاحق بهم الناس.

فأمّا أهل مصر فإنّهم كانوا يشتهون عليّاً، وأمّا أهل البصرة فإنّهم كانوا يشتهون طلحة، وأما أهل الكوفة فإنّهم كانوا يشتهون الزبير[١]. وكان خروجهم جميعاً، وقلوبهم شتىٰ في من يختارون، ولا تشكّ فرقة إلّا أنّ الفلج معها، حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث، تقدّم ناس من أهل البصرة، فنزلوا ذا خشب، وناس من أهل الكوفة، فنزلوا الأعوص، وجاءهم ناس من أهل مصر وتركوا عامّتهم [488] بذى المروة، وقالوا:

ـ «لا تعجلوا ولا تُعجلونا! حتى ندخل المدينة ونرتاد، فإنّه بلغنا أنّهم قد عسكروا لنا. فوالله إن كان أهل المدينة استحلّوا قتالنا، وهم لم يعلموا علمنا[٢] لهم إذا علموا علمنا أشدّ، وإنّ أمرنا هذا لباطل، وإن لم يستحلّوا قتالنا، ووجدنا الذى بلغنا باطلاً لنرجعنّ إليكم بالخبر.»

قالوا: «فاذهبوا!»

فدخل رجلان، فلقيا أزواج النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ وطلحة، والزبير، وعليّاً، وقالوا:

ـ «إنّما نؤمّ هذا البيت، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمّالنا، ما جئنا إلّا لذلك.»

[واستأذناهم][٣] للناس بالدخول، فكلّهم أبىٰ ونهىٰ[٤].

---

١. أنظر الطبري (٦: ٢٩٥٥). ٢. مط: علمنا لهم. والطبرى: علمنا فهم...

٣. فى الأصل ومط: فاستأذنوهم. وما أثبتناه عن الطبرى.

٤. وزاد فى الطبرى: وقال بيض ما يفرخنّ (٦: ٢٩٥٦).

فاجتمع قوم من أهل مصر، فأتوا عليّاً، ونفر من أهل البصرة، فأتوا طلحة، ونفر من أهل الكوفة، فأتوا الزبير.

فأما المصريّون فانّهم لما أتوا عليّاً وجدوه في عسكر عند أحجار الزيت[١]. فسلّم المصريّون على عليّ وعرّضوا، فصاح بهم، وطردهم، وقال:

ـ «ارجعوا لا صحبكم الله.»

فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى إلى حيث [489] هو، وقد أرسل ابنيه إلى عثمان. فسلّم البصريّون عليه، وعرّضوا له، فصاح بهم وطردهم، وقال قريباً مما قال عليّ.

وأتى الكوفيّون الزبير وهو في جماعة وقد سرّح ابنه عبدالله إلى عثمان، فسلّموا عليه، وعرّضوا له، فصاح بهم وقال مثل ما قال صاحباه.

فانصرف القوم إلى عساكرهم وهي على ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة، ثم يكرّوا راجعين. فافترق أهل المدينة وكرّوا راجعين. فلم يفجأ أهل المدينة إلّا والتكبير في نواحي المدينة، فنزلوا في مواضع عساكرهم. وأحاطوا بعثمان وقالوا:

ـ «من كفّ يده فهو آمن.»

وصلّى عثمان بالناس أياماً، ولزم الناس بيوتهم، ولم يمنعوا أحداً من الكلام. فأتاهم الناس فكلّموهم وفيهم عليّ. فقال:

ـ «ما ردّكم بعد ذهابكم؟»

قالوا: «أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا.»

---

١. وزاد في الطبري: عليه حلّة أفواف معتم بشقيقة حمراء يمانية متقلّد السيف، ليس عليه قميص وقد سرّح الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع إليه، فالحسن جالس عند عثمان وعليّ عند أحجار الزيت. فسلّم عليه المصريّون... (٦: ٢٩٥٧).

وأتاهم طلحه، فقالوا له مثل ذلك. وأتاهم الزبير فقالوا له مثل ذلك. وأجمعوا على أن يعتزل عثمان، وهو فى ذلك يصلّى بهم، وهم يصلّون خلفه، ويغشى [490] عثمان من شاء وهم فى عينه أدقّ من التراب.

وكتب إلى أهل الأمصار يستمدّهم، ويشكو ما يلقى، بكتاب[١] بليغ. فأتاهم الكتاب، وخرجوا على الصعب والذلول. فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهرى، وبعث عبدالله بن سعد معاوية بن حديج السكونى، وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو.

وكان بالكوفة جماعة يحضّضون على إغاثة أهل المدينة مثل حنظلة بن الربيع وأشباهه من أصحاب النبىّ ـ صلّى الله عليه ـ فكانوا يطوفون على مجالسها ويقولون:

ـ «يا أيها الناس، إنّ الكلام اليوم وليس به غداً، وإنّ النظر يحسن اليوم ويقبح غداً، انهضوا إلى نصرة خليفتكم.»

وقام بالبصرة عمران بن الحصين وأنس بن مالك فى أمثالهما من أصحاب النبىّ ـ صلّى الله عليه ـ يقولون مثل ذلك؛ وقام بالشام عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء فى أمثالهما من أصحاب النبىّ ـ صلّى الله عليه ـ يقولون مثل ذلك؛ وقام بمصر خارجة فى أشباه له.

ولما جاءت الجمعة التي [على][٢] أثر [نزول][٣] المصريّين مسجد الرسول [491] خرج عثمان، فصلّى بالناس، ثم قام على المنبر، فقال:

ـ «الله الله يا معشر الغُزّى[٤]! فامحوا الخطأ بالصواب.»

---

١. أنظر الطبرى (٦: ٢٩٥٨).

٢ و ٣. الكلمتان من الطبرى (٦: ٢٩٦٠)، والعبارة فى الأصل ومط: التي أثر فيها نزول المصريين.

٤. كذا فى الأصل. وفى مط: العزى. الطبرى: العدى، العذى، الغزا، الغزّاء (٦: ٢٩٦٠). وفى الكامل: يا هؤلاء (٣: ١٦١).

فقام محمد بن مسلمة فقال: «أنا أشهد بذلك.»

فأخذه حكيم بن جبلة، فأقعده.

فقام زيد بن ثابت، فقال: «أبغني[١] الكتاب.»

فثار إليه محمد بن أبي بكر فنتره[٢] وأقعده وقال: «اقطع!»

وقام الناس بأجمعهم ثائرين بأهل المدينة، فحصبوهم، حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشيّاً عليه، فاحتمل وأدخل داره.

وكان المصريّون لا يطمعون في مساعدة أحد من أهل المدينة إلّا في ثلاثة فإنّهم كانوا يراسلونهم: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، وعمار بن ياسر.

وسار ناس مستقتلين منهم: سعد بن مالك، والحسن[٣] بن عليّ، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت، فبعث إليهم عثمان بعزمه لما انصرفوا؛ فانصرفوا.

وأقبل عليٌّ وطلحة والزبير حتى دخلوا على عثمان يعودونه [492] من صرعته، ثم رجعوا إلى منازلهم. وكان الناس قبل ذلك وافقوه على أشياء وجد فيها اعتذاراً، وعلى أشياء لم يجد فيها مقالاً[٤]، فقال:

ـ «أستغفر الله وأتوب إليه.»

وأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطاً، وأخذ عليهم ألّا يشقّوا عصاً، ولا يفارقوا جماعة ما قام لهم بشرطهم.

ثم قالوا: «نريد ألّا يأخذ أهل المدينة عطاءاً، فإنّما هذا المال لمن قاتل عليه، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب محمد.»

---

١. الطبري: إبغني الكتاب.

٢. في الطبري: محمد بن أبي قتيرة فأقعده وقال فأقطع وثار القوم. (نفس الصفحتين). نتره: جذبه بشدّة.

٣. وفي بعض الأصول: الحسين بن علي (حواشي الطبري ١: ٢٩٦١).

٤. لم تكن العبارة واضحة تماماً في الأصل. انظر الطبري ٦: ٢٩٦٤.

فرضوا، وأقبلوا معه حتى خطب عثمان، وقال:

«ألا من كان له زرع فليلحق بزرعه، ومن كان له ضرع فليحلب، ألا! إنّه لا مال لكم عندنا، إنما هذا المال لمن قاتل عليه، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب محمد، صلّى الله عليه.»

فغضب الناس وقالوا:

ـ «هذا مكر بنى أميّة.»

راكب له شأن

ورجع وفد المصريين راضين، فبيناهم فى الطريق إذا هم براكب يتعرّض، فمرّة يرونه، ومرّة يغيب عنهم، فقالوا: «إنّ لهذا الرجل لشأناً.»

فأخذوه، وقرّروه، فقال: «أنا رسول أميرالمؤمنين إلى عامله بمصر.»

ففتشوه فإذا هم بكتاب [493] على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامله بمصر، قد جعل في إداوة [يابسة][1] يأمر بأن يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم، أو يصلبهم.

فأقبلوا حتى قدموا المدينة، فأتوا عليّاً، فقالوا:

ـ «ألم تر إلى عدوّ الله! إنّه كتب فينا بكذا وكذا، بعد الميثاق الذى بيننا وبينه، وإنّ الله قد أحلّ لنا دمه، قم معنا إليه.»

قال: «والله لا أقوم معكم!»

قالوا: «فلِمَ كتبت إلينا؟»

قال: «والله ما كتبت إليكم كتاباً قطّ.»

فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قال بعضهم لبعض:

---

١. الكلمة غير واضحة فى الأصل.

ـ «ألهذا تقاتلون؟ أم لهذا تغضبون؟»

فخرج عليٌّ من المدينة إلى قرية، وانطلق القوم حتى دخلوا على عثمان، فقالوا:

ـ «كتبت فينا بكذا وكذا.»

فقال عثمان: «إنّما هما ثنتان: إمّا أن تقيموا عليَّ رجلين من المسلمين، أو يميني بالله، الذى لا إله إلّا هو، ما كتبت، ولا أمللت، ولا علمت. وقد علمتم أنّ الكتاب يكتب على لسان الرجل، وينقش الخاتم على الخاتم.»

فقالوا: «لئن كنت كاذباً في يمينك فقد أحلّ الله دمك، ولئن كنت صادقاً لقد ضعفت عن الأمر، حين لا تضبط [494] من أمرك هذا المقدار.»

وقد حاصروه، وقد ذكر الناس فى هذه الروايات أشياء شنعة لم نذكرها.

وقد كان عثمان لما أحسّ بانصراف المصريين إليه من الطريق، أتى عليّاً فى منزله، فقال:

ـ «يا ابن عمّ! إنّه ليس منزل، وإنّ قرابتى قريبة، ولى حقّ عظيم عليك، وقد جاء ما ترىٰ من هؤلاء القوم، وهم مصبّحيّ، وأنا أعلم أنّ لك عند الناس قدراً، وأنّهم يستمعون منك، فأنا أحبّ أن تركب إليهم، فتردّهم عنّى. فإنّى لا أحبّ أن يدخلوا عليَّ، فإنّ تلك جرأة منهم عليَّ، ويسمع بذلك غيرهم.»

فقال عليٌّ: «عليَمَ أردّهم؟»

قال: «على أن أصير إلى ما أشرتَ به علىَّ، ورأيته لي، ولست أخرج من يديك.»

فقال عليٌّ: «إنّى قد كنت كلّمتك مرّة بعد مرّة، وكل ذلك تخرج فتتكلّم وتقول وتقول، وذلك كلّه فعل مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص وعبدالله بن عامر، ومعاوية، تطيعهم وتعصينى.»

قال: وأمر الناس المهاجرين والأنصار، فركبوا معه. وأرسل عثمان إلى عمار

بن ياسر، فكلّمه أن يركب مع عليّ، فأبىٰ. ومضى عليّ فى [495] المهاجرين والأنصار، وهم ثلاثون رجلاً. فكلّمهم عليّ ومحمد بن مسلمة حتى رجعوا.

فلما رجع عليّ إلى عثمان وأعلمه أنهم رجعوا، وكلّمه عليّ كلاماً كان فى نفسه، وخرج إلى بيته، مكث عثمان ذلك اليوم حتى إذا كان الغد جاءه مروان بن الحكم، فقال له:

ـ «تكلّم، وأعلم الناس أن أهل مصر علموا أنّ ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً، وقد رجعوا، فإنّ خطبتك تسير فى البلاد قبل أن يتحلّب[١] الناس عليك من أمصارهم، فيأتيك أمر لا تستطيع دفعه.»

[فأبىٰ][٢] عثمان، ولم يزل به مروان حتى خرج، فجلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

ـ «أما بعد، فإنّ هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر، فلما تيقّنوا أنه باطل رجعوا إلى بلادهم.»

فقال له عمرو بن العاص:

ـ «إتق الله يا عثمان! فإنّك قد ركبت نهابير[٣] وركبناها معك، فتبْ إلى الله نتبْ معك.»

فناداه عثمان: «وإنّك هناك يا ابن النابغة قملت جبّتك منذ عزلتك عن العمل.»

فنودى من ناحية أخرى: «أظهر [496] التوبة يا عثمان يكفّ الناس عنك.»

ونودى من ناحية اخرى بمثل ذلك.

فرفع عثمان يده واستقبل القبلة، فقال:

ـ «اللّهمّ إنّى أول تائب إليك.»

---

١. كذا فى الطبرى (٦: ٢٩٧٢). وفى مط: يجتلب.

٢. الأصل مطموس في هذه الكلمة، فأخذناها من مط.

٣. جمع مفرده نهبور ونهبورة: المهلكة.

ورجع إلى منزله.

ثمّ إنّ عليّاً جاءه، فقال له:

ـ «تكلّم كلاماً يسمعه الناس عامّة ويشهد الله على ما فى قلبك من النزوع والإنابة، فإنّ البلاد قد تمخّضت عليك، فلا آمن ركباً آخر يقدمون من الكوفة أو البصرة، فتقول لى: اركب إليهم، فلا أركب، ولا أسمع لك عذراً، وتراني قد قطعت رحمك واستخففت بحقّك.»

فخرج عثمان، فخطب الخطبة المشهورة التى يقول فيها:

ـ «إني نزعت وتبت مما فعلت، إذ التوبة خير من التمادى فى الهلكة، والله أيها الناس، لئن ردّنى الحق عبداً، لأذلّنّ ذلّ العبد، ولأكوننّ كالمرقوق الذى إن مُلك صبر، وإن عتق شكر. فليأتنى وجوهكم. فوالله لأنزلنّ عند رأيكم، ولأنتهينّ إلى حكمكم.»

فرقّ له الناس وبكىٰ من بكىٰ منهم، وعلت الأصوات بالنشيج.

فقال له سعيد بن زيد:

«إتقِ الله [497] يا أميرالمؤمنين فى نفسك، وأتمم على ما قلت.»

فلما نزل عثمان وجد فى منزله مروان، وسعداً، ونفراً من بني أميّة لم يشهدوا الخطبة.

قال مروان: «يا أميرالمؤمنين، أتكلّم، أم أصمت؟»

فقال بعض أهله: «لا، بل اصمت، فأنتم والله قاتلوه، إنّه قال مقالة مشهورة لا ينبغي أن ينزع عنها.»

فأقبل عليها[1] مروان بكلام قبيح إلى أن سكّتها عثمان. ثم قال مروان: «أتكلّم، أم أصمت؟»

---

١. فى الأصل ومط: عليه. فصححناها بالطبرى.

قال: «بل تكلّم.»

فقال مروان: «بأبي وأمّي، لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع، وكنتُ أول من رضي بها، وأعان عليها، ولكنّك قلت حين بلغ الحزام الطبيين، وحين أعطى الخطّة الغليظة[١] الذليل، والله لإقامة على خطيئة تستغفر منها، أجمل من توبة تجبر عليها، وقد اجتمع بالباب مثل الجبل من الناس.»

فقال عثمان: «فاخرج إليهم، فكلّمهم، فإنّي أستحي أن أكلّمهم.»

فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً، فقال:

ـ «ما شأنكم؟ [498] قد اجتمعتم كأنّكم جئتم لنهب، كلّ إنسان آخذ[٢] بأذن صاحبه، شاهت الوجوه، ألا، من أريد؟ جئتم أن تنزعوا مُلكنا من أيدينا؟ اخرجوا عنّا، أما والله لئن رمتمونا لتلقون ما لا يسرّكم ارجعوا، فوالله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا.»

فرجع الناس إلى عليّ يشكون إليه. فجاء عليّ مغضباً حتى دخل على عثمان، فقال:

ـ «أما رضيت من مروان ولا رضي منك، إلّا بإخراجك عن دينك وعقلك، مثل جمل الظعينة، يقاد حيث شاء ربّته[٣]؟. والله ما مروان بذي رأي في دينه، ولا في نفسه، وإنّي لأراه سيوردك ولا يصدرك، وما أنا بعائد بعد هذا لمعاتبتك، فقد أكثرت وأكثرت. أذهبت[٤] شرفك وغُلبت على أمرك.»

فلما خرج عليّ دخل إليه بعض أهله فقال:

ـ «إني سمعت قول عليّ لك، وإنه ليس يعاودك. فقد خالفته مراراً وأطعت مروان.»

---

١. وفي الطبري: الخطة الذليلة الذليل.
٢. كذا في الطبري (٦: ٢٩٧٥).
٣. في الطبري حيث يسار به (٦: ٢٩٧٦). مط: «حيث ساريته». والظعينة: الهودج، أو المرأة التي فيه.
٤. في الطبري: أذهبت.

قال: «فما أصنع؟»

قال: «تتقي الله وحده وتطيعه يرشدك، فإنّ مروان ليس له [499] عند الناس قدر، ولا هيبة، ولا محبّة، وأراه سيقتلك. فأرسل إلى عليّ واستصلحه، فإنّه يعطف عليك ولا يُعصىٰ، وقوله مقبول.»

فأرسل عثمان إلى عليّ، فأبىٰ أن يأتيه وقال:

ـ «قد أعلمته أنّي غير عائد إليه.»

ومكث عثمان لا يخرج ثلاثة أيام حياءاً من الناس. ثم ذهب عثمان بنفسه حتى أتى عليّاً في منزله ليلاً، وجعل يقول:

ـ «إنّي غير عائد، وإنّي فاعل، وإنّي فاعل[1].»

فقال له عليّ: «أبعدما تكلّمت به على منبر رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وأعطيت من نفسك، وبكيت حتى اخضلّت لحيتك بالدمع، وأبكيت الناس، ودخلت منزلك. وخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك، ويتلقّاهم بما يكرهونه؟»

وانصرف من عند عليّ، ولم يزل عليّ متنكّباً عنه، لا يفعل ما كان يفعل، إلّا أنّه لما منع الماء وحصر امتعض له وغضب غضباً شديداً، وكلّم طلحة وغيره حتى دخلت الروايا إلى عثمان.

ولما رأى عثمان ما نزل به وما قد انبعث عليه من الناس كتب إلى معاوية، وهو بالشام. يسأله أن يبعث له مقاتلة الشام على كلّ صعب وذلول. [500] فلما جاء معاوية كتابه تربّص، وكره إظهار مخالفة أصحاب النبي ـ صلّى الله عليه ـ فلمّا أبطأ نصره على عثمان كتب إلى أهل الشام يستنفرهم، ويعظّم حقّه، ويذكر

---

١. التكرار من النص في «وإنّي فاعل». ويضيف الطبري هنا: وهو يقول: قطعت رحمي، وخذلتني، وجرّأت الناس، فقلت: [والقائل عليّ] والله إنّي لأذبّ الناس عنك، ولكني كلما جئتك بهنة أظنها لك رضىً جاء بأخرى، فسمعت قول مروان عليّ واستدخلت مروان (٦: ٢٩٧٩).

أمر الخلفاء، وما أمر الله به من طاعتهم ويقول:

ـ «والعجل، العجل، فإنّ القوم معاجليّ.»

فقام قوم يحضّضون على نصره، وانتدب خلق كثير.

وكتب عثمان إلى عبدالله بن عامر بالبصرة: أن اندب إليّ أهل البصرة؛ وكتب إلى أهل البصرة نسخة كتابه إلى الشام. فقامت الخطباء من أهل البصرة بحضرة عبدالله بن عامر يحضّون على نصر[1] عثمان، وعلى المسير إليه، فيهم مجاشع بن مسعود، وهو يومئذ سيّد قيس في البصرة. فتسارع الناس، وكان أشار مروان على عثمان بمقاربة من حوله من أهل مصر وغيرهم حتى يقوى، وقال له:

ـ «أعطهم ما سألوك، وطاولهم ما طاولوك، وأرسل إلى عليّ يكلّمهم.»

فراسل عليّاً وقال:

ـ «إنّ الأمر بلغ القتل، فاردد الناس عنّي، فإن الله لهم أن أُعتبهم من كلّ ما يكرهون؛ وأعطيهم الحقّ من نفسي وغيري، وإن كان في ذلك سفك دمي.»

فراسله عليّ بأنّ:

ـ «الناس إلى عدلك! أحوج منهم [501] إلى قتلك، وإنّي لأرىٰ قوماً لا يرضون إلّا بالرضا، وقد كنت أعطيتهم في المرة الأولى من العهود ما نقضته، ولم تفِ به لهم.»

فقال عثمان: «أعطهم اليوم ما يحبّون، فوالله لأفينّ.»

فخرج عليّ إلى الناس، فقال:

ـ «أيها الناس! إنّكم إنّما طلبتم الحقّ وقد أُعطيتموه. إنّ عثمان يزعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره، وراجع عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه.»

قال الناس:

---

١. نصر: سقطت من مط.

ـ «قد قبلنا، فاستوثقْ لنا، فإنّا لا نرضىٰ بقول دون فعل.»

فقال عليّ: «ذلك لكم.»

وأخبر عثمان الخبر، فقال عثمان: «إضرب بيني وبينهم أجلاً تكون لي فيه مهلة، فإنّي لا أقدر على ردّ ما كرهوا في يوم واحد.»

فقال عليّ: «ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب، فأجله وصول أمرك.»

قال: «نعم، ولكن أجّلني في ما في المدينة ثلاثة أيام.»

فقال عليّ: «نعم.»

فخرج عليّ، وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً على الأجل، شرط فيه أن يردّ كل مظلمة، ويعزل كلّ عامل كرهه المسلمون، ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد أو ميثاق، وأشهد ناساً من وجوه المهاجرين والأنصار. [502] فكفّ المسلمون عنه، ورجوا أن يفي لهم بما أعطاهم.

يوم الدار

فجعل يتأهّب للقتال، ويستعدّ بالسلاح، وكان اتّخذ جنداً عظيماً من رقيق الخمس. فلمّا انقضت الأيام الثلاثة، وهو على حاله، لم يغيّر شيئاً مما كرهوه، ولا عزل عاملاً ثار به الناس وهجموا. فدخلوا يومئذ وما سلّموا عليه بالخلافة، وقالوا:

ـ «سلام عليكم.»

فقال من حضره: «عليكم السلام.»

فتكلّم الناس، وذكروا ما صنع عبدالله بن سعد بمصر من استيثاره بغنائم المسلمين، وتحامله عليهم وعلى أهل الذمّة. فإذا قيل له في ذلك، قال:

ـ «هذا كتاب أميرالمؤمنين.»

ثم ذكروا ما أحدثه بالمدينة وأطالوا، وقالوا:

ـ «إنّا رحلنا من مصر، لا نريد إلّا دمك أو تنزع الخلافة. فردّنا عليّ ومحمد بن مسلمة، وضمنّا له[١] النزوع عن كل ما تكلّمنا فيه.. (ثم أقبلوا على محمد وقالوا: «هل قلت[٢] لنا ذلك؟» قال محمد: «نعم»).. فرجعنا إلى بلادنا حتى إذا كنّا بالبويب، أخذنا غلامك على راحلة من صدقات المسلمين ومعه كتابك وخاتمك إلى عبدالله بن سعد تأمره فينا بجلد ظهورنا والمثلة بنا بالقطع والحبس الطويل، [503] وهذا كتابك، ثم فعلت وفعلت.»

فحمد الله عثمان وأثنى عليه وقال: «والله ما كتبتُ ولا أمرتُ ولا شوورتُ[٣].»

قالوا: «فمن كتبه؟»

قال: «لا أدرى.»

قالوا: «فيُجترأ عليك، ويُبعث بغلامك، وجمل من صدقات المسلمين، ويُنقش[٤] خاتمك، ويُكتب إلى عاملك في إعلام المسلمين بهذه العظائم وأنت لا تعلم! ليس مثلك[٥] من يلي الخلافة. إخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعك الله منه.»

فأبىٰ وقال: «لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله، ولكنّي أتوب من كلّ ما تكرهون.»

قالوا: «قد فعلت ذلك وكذبت، وقد وقعت عليك التهمة مع ما بلونا منك في مرات كثيرة، من الجور في الحكم والأثرة في القسم، والعقوبة لمن أمر بالمعروف، وإظهارك التوبة مرة بعد مرة، ثم رجوعك إلى كلّ منكر. ولقد كنّا رجعنا عنك وما كان لنا أن نرجع حتى نخلعك ونستبدل بك من نرضاه، ومن لم نجرّب عليه ما جرّبناه عليك، فاردد خلافتنا.»

---

١. كذا في الأصل: ضمنّا له. وما في مط: ضمنا لنا. ولكلا الضبطين وجه من الصحة.

٢. في مط: هل أنت قلت.

٣. في مط: ولا شاورت.

٤. في مط: فيفتق.

٥. في مط: منك.

فأجابهم عثمان بجوابه الأول، فآذنوه[١] بالحرب، وشدّدوا عليه الحصار. فصعد بعض عبيد [504] عثمان إلى سطح داره، فدلّى منه حجراً، فقتل رجلاً يقال له: دينار.

فأرسلوا إلى عثمان أن:

ـ «أمكنّا من قاتله.»

فقال عثمان: «والله ما أعرف قاتله[٢].»

فباتوا تلك الليلة. فلمّا أصبحوا، وهو يوم الجمعة، أحضروا ناراً ونفطاً، ودخلوا من ناحية الحرم[٣]، فأضرموا جوانب الدار، فاحترقت.

فقال عثمان لأصحابه:

ـ «ما بعد الحريق شيء، فمن كانت لي عليه طاعة فليمسك يده، فإنّما يريدنى القوم، ولو كنتُ في أقصاكم لتخطّوكم إليّ، ولو وجدونى فى أدناكم ما تخطّونى إليكم.»

فأبى مروان وقال: «والله لا وصلوا إليك وفيّ روح.»

وخرج إلى الناس بسيفه وعليه درع. فناوشوه القتال. ثمّ خرج إليه غلام شابّ طوال، فضربه مروان على ساقه، وضرب الغلام مروان على رقبته، فسقط لا ينبض منه عرق، وقتل المغيرة بن الأخنس، وجرح عبدالله بن الزبير، وانهزم من فى الدار، وخرجوا هراباً فى طرق المدينة، وخُلص إلى عثمان، فقتل قبل أن يلحقه الغوث من الأمصار.

أسماء كتّاب عثمان [505]

كتب له مروان بن الحكم، وكتب له عبدالملك بن مروان على ديوان المدينة،

---

١. فى مط: فأذنوه بالحرب.

٢. فى مط: ما أعرف قاتل (!)

٣. مط: من ناحية إلى الحرم.

وأبو جبيرة على ديوان الكوفة، وعبدالله بن الأرقم على بيت المال، وكتب أهيب مولاه[١]، وكتب له حُمران مولاه، فأنكر عليه شيئاً، فنفاه إلى البصرة، فلم يزل بها حتى قتل عثمان.

سبب سقوط هذا الكاتب من عين عثمان

وكان سبب نفيه إيّاه أنّ عثمان اشتكى شكاة، فقال له:

ـ «اكتب العهد بعدي لعبدالرحمان بن عوف.»

فانطلق حُمران إلى عبدالرحمان بن عوف فقال له:

ـ «البشرىٰ!»

فقال: «لك البشرىٰ، فماذا؟»

فأخبره الخبر. فصار عبدالرحمان إلى عثمان، فأخبره بما قال حمران، فقلق عثمان، وخاف أن يشيع، فنفاه لذلك.

ذكر تدبير تمّ لعثمان بمعاونة عليٍّ رضي الله عنه[٢] ورأيه لما حصر عثمان الحصار الأول

كان عليّ بخيبر، فلمّا قدم أرسل إليه عثمان. فذهب إليه، فكلّمه عثمان، وأذكره بحقّه من الإسلام والقرابة والصهر، وماله في عنقه من العهد. ثم قال له:

ـ «ولو لم يكن من هذا شيء، ثم كنّا نحن [506] في جاهليّة، لكان عيباً على عبد مناف أن يبتزّهم أخو بني تيم ملكهم[٣]».

يعني طلحة، وقد كان اجتمع إلى طلحة قوم وطمع فيها.

فتكلّم عليٌّ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

---

١. وكتب أهيب مولاه: سقطت من مط.

٢. في الأصل: رضي الله عنه، وفي مط بدونها.

٣. في الأصل: مالهم. ولعلّه تصحيف. في مط: ملكهم.

ـ «أما بعد، فكلّ ما ذكرت من حقّك عليّ كما ذكرت، وأما قولك: لو كنّا فى جاهلية لكان عيباً على عبد مناف أن يبتزّهم أخو بنى تيم؛ فصدقت وسيأتيك الخبر.»

ثم خرج فدخل المسجد، فرأى أسامة جالساً، فدعاه، واعتمد عليه، وخرج يمشى إلى طلحة، فلمّا دخل عليه، وجد داره ممتلئة بالرجال، فقام عليه وقال:

ـ «يا طلحة! ما هذا الأمر الذى وقفت فيه؟»

فقال: «ياباحسن، أ بعد ما مسّ الحزام الطبيين؟»

فسكت عليٌّ وانصرف حتى أتىٰ بيت المال، فقال:

ـ «افتحوا هذا الباب.»

فلم يقدر على المفاتيح، وتأخّر عنه صاحب المفاتيح، فقال:

«اكسروه.»

فكسر باب بيت المال، وقال:

ـ «أخرجوا المال.»

وجعل يعطى الناس. فبلغ الذين فى دار طلحة ما صنع عليّ، فجعلوا يتسلّلون إليه، حتى تُرك طلحة وحده، وبلغ الخبر عثمان، فسُرّ به، ثم أقبل طلحة [507] عامداً إلى دار عثمان. فقال بعض الصحابة:

ـ «والله لأنظرنّ ما يقول هذا.»

قال:

فتبعته، فاستأذن على عثمان. فلمّا دخل عليه، قال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، أستغفر الله وأتوب إليه. أردت أمراً، فحال الله بينى وبينه.»

فقال عثمان:

ـ «إنّك والله، ما جئت تائباً، ولكنّك جئت مغلوباً. الله حسيبك يا طلحة.»


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

خلافة الإمام عليّ

ذكر بيعة عليّ بن أبي طالب عليه السلام

لمّا قُتل عثمان اجتمع عامة المهاجرين والأنصار على عليّ[١]، فأتوه، فتأبىٰ عليهم، وقال:

ـ «أنا وزيراً خير لكم منّي أميراً[٢].»

فارتدّ الناس عنه وأتوا طلحة والزبير فتكلّما في قتل عثمان بما ظنّوه توعّداً، فقالوا لطلحة والزبير:

ـ «إنّ كلامكما لوعيد.»

ثم انصرفوا عنهما وقال بعضهم لبعض:

ـ «إن رجع الناس إلى أمصارهم بقتل عثمان ولم يقم بعد قائم بهذا الأمر، لم نأمن اختلاف الناس وفساد الأمة.»

فعادوا إلى عليّ وخاطبوه. فأخذ الأشتر بيد عليّ، فقبضها عليّ.

فقال الأشتر: «ما لك تتحسّر، [508] وأنت ترىٰ ما فيه الناس؟»

فقال عليّ: «أ بعد ثلاثة؟»

---

١. في الأصل: رضى الله عنه، وفي مط: عليه السلام.

٢. في الأصل ومط: «أنا وزير خير لكم من أمير.» وفي الطبري (٦: ٣٠٦٦): «إنّي أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً.»

فقال له الأشتر: «أما والله لئن تركتها لتعصرنّ عينيك عليها حيناً.» فبايعوه.

وفي ما رواه صاحب التاريخ، قال:

اجتمع أهل الأمصار وقالوا:

ـ «دونكم يا أهل المدينة، فقد أجّلناكم ثلاثاً[1]. فوالله لئن لم تفرغوا لنفعلنّ ولنفعلنّ.»

فغشى الناس عليّاً وقالوا:

ـ «ترىٰ ما نزل بالناس وما ابتلينا به من بين تلك القرى؟»

فقال عليّ: «دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه. لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول.»

فقالوا: «ننشدك بالله. ألا ترى ما نرى؟، ألا ترى الفتنة؟ أما تخاف الله؟»

قال: «اعلموا أنّي ـ إن أجبتكم ـ ركبت بكم[2] ما أعلم، وإن تركتموني فإنّما أنا كأحدكم، ألا، إنّي أسمعكم، وأطوعكم لمن ولّيتموه.»

فافترقوا على ذلك، واتّعدوا لغد، وتشاور الناس في ما بينهم، وقالوا:

ـ «إن دخل طلحة والزبير فقد استقامت.»

فبعث المصريّون بصريّاً إلى الزبير وقالوا: «احذر لا تحابه.[3]» ـ وكان رسولهم حكيم بن جبلة في نفر ـ فجاؤوا يحدونه بالسيف. وبعثوا إلى طلحة [509] كوفيّاً وقالوا: «احذر لا تحابه.» وبعثوا بنفر، فجاؤوا يحدونه بالسيف. وبعثوا الأشتر إلى عليّ، وأهل الكوفة وأهل البصرة شامتون بصاحبيهم، وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل المدينة، وقد صار أهل الكوفة والبصرة كالأتباع، وهم جشعون.

فلما أصبحوا يوم الجمعة حضر الناس المسجد. وجاء عليّ حتى صعد المنبر،

---

١. كذا في مط، وفي الأصل شطب واضطراب في الرسم.

٢. مط: رأيت ما بكم!

٣. مط: لا تخافه (وكذلك في الموضع الآتي).

فقال:

ـ «يا أيها الناس، عن ملأ وإذن، إنّ هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلّا من رضيتم وأمّرتم، وقد افترقنا بالأمس علي أمر، فإن شئتم قعدت لكم، وإلّا فلا أحد على أحد.»

قالوا: «نحن على ما افترقنا عليه بالأمس.»

وقام الأشتر، فقدّم طلحة، وقال له:

ـ «بايع.»

فقال: «أمهلني أنظر.»

فجرّد سيفه وقال: «لتبايعنّ، أو لأضعنّه بين عينيك.»

فقال طلحة: «وأين المذهب[١] عن أبي حسن.»

فصعد المنبر، فبايعه. فنظر رجل من بعيد يقتاف، فقال:

ـ «إنّا لله، أول يد[٢] بايعت أميرالمؤمنين يد شلّاء، لا يتمّ هذا الأمر أبداً.»

وكان طلحة وقى رسول الله بيده حين رأى سهماً أقبل نحو وجهه، فأصاب السهم يده، وشلّت يده.

ثم قدّم الزبير، [510] فبايع، وفي الزبير خلاف، ثم تتابع الناس بالبيعة لا يكرهها أحد، وذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين.

وخطب علي ـ رضي الله عنه ـ خطبته المشهورة[٣]؛ واجتمع إلى عليّ عدة من الصحابة فيهم طلحة والزبير، فقالوا:

ـ «يا عليّ، إنّا اشترطنا إقامة الحدود، وإنّ هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل، وأحلّوا[٤] بأنفسهم.»

---

١. وفي الطبري (٦: ٣٠٦٩): «أين المهرب منه.» وفي مط: «فقال طلحة واذهب (!) عن أبي حسن.»

٢. يد: سقطت من مط.

٣. أنظر الطبري ٦: ٣٠٧٨.

٤. كذا في الأصل والطبري: «وأحلّوا» بالهاء المهملة وفي مط: «وأخلّوا» بالخاء المعجمة.

فقال لهم: «يا إخوتاه، إنّي لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم. ها هم هؤلاء، وقد ثارت معهم عبيدكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم، يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟»

قالوا: «لا.»

قال: «فإنّي والله لا أرىٰ إلّا رأياً ترونه، إلّا أن يشاء الله. إنّ الناس من هذا الأمر ـ إن حرّك ـ على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة لا ترى ما ترون، وفرقة لا ترى لا هذا ولا هذا، حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق. فاهدأوا[١] عنّي، وانظروا ماذا يأتيكم، ثم عودوا.» [511]

ثمّ إنّ بنى أمية تهاربت وخرجت عن المدينة. فاشتدّ عليّ ـ عليه السلام ـ على قريش وحال بينهم وبين الخروج على حالها تلك.

ثم خرج عليّ فى اليوم الثانى فقال:

ـ «يا أيها الناس، أخرجوا عنكم الأعراب.» وقال:

ـ «يا أيها الأعراب، إلحقوا بمياهكم.»

فأبت السبائية، وأطاعهم الأعراب. ودخل عليّ بيته، ودخل عليه عدة من أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ فيهم طلحة والزبير.

فقال لهم عليّ: «دونكم ثأركم، فاقتلوه.»

فقالوا: «قد عسوا[٢] عن ذلك.»

فقال لهم: «هم والله بعد اليوم أعسى[٣].» وتمثّل:

وَلَو أَنَّ قَومِي طاوعَتْنِي سَراتُهُمْ أَمَرتُهُمْ أَمراً يُديخُ الأَعادِيَا

---

١. مط: فاهدوا.

٢ و ٣. كذا فى الأصل، وفى مط: عصوا، أعصى. وفى الطبرى: عتوا، أعتىٰ (٦: ٣٠٨١). عسى: جفّ وغلظ.

وقال طلحة: «تدعني، فآتي البصرة، فلا يفجأوك إلّا وأنا في خيل.»
وقال الزبير: «آتي الكوفة، فلا يفجأوك إلّا وأنا في خيل.»
فقال: «حتى أنظر.»
وسمع المغيرة بذلك المجلس.

ذكر رأى جيّد للمغيرة

فجاء المغيرة حتى دخل على عليّ ـ عليه السلام ـ فقال:
ـ «إنّ حولك من يشير ويرى، ولك عليّ حقّ الطاعة، وأنّ النصح رخيص، وأنت بقية الناس، [512] وأنا لك ناصح. واعلم أنّ الرأى اليوم تحوز[١] به ما في غد، وأن الضياع اليوم يضيع به ما في غد. أقرر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، واردد عمّال عثمان عامك هذا، واكتب بإثباتهم على أعمالهم، فاذا بايعوا لك واطمأنّ الأمر عزلت من أحببت، وأقررت من أحببت.»
فقال عليّ: «والله، لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيى[٢]، ولا ولّيت أمثال هؤلاء [ولا مثلهم يولّى[٣]]، وما كنت متخذ المضلّين عضداً[٤].»
فقال المغيرة: «فإن قد أبيت فاترك معاوية، فإنّ له جرأة، وأهل الشام يطيعونه، ولك حجّة في إثباته، كان عمر بن الخطّاب قد ولّاه الشام كلّها.»
فقال عليّ: «لا والله لا أستعمله يومين.»
فقام المغيرة وانصرف، ثم عاد إليه بعد ذلك، فقال:

---

١. وفي الأصل ومط: تحور. وفي الطبري: تحرز (٦: ٣٠٨٢) فأعجمنا الحرف الأخير بأمارة ما في الطبري.
٢. مط: رأياً.
٣. تكملة تطلّبها السياق وهي من الطبري ٦: ٣٠٨٣.
٤. س ١١ الكهف: ١٨.

ـ «إنّي أشرت عليك أول مرة بالذى أشرت، وخالفتني. ثم رأيت بعد ذلك رأياً، وأنا الآن أرىٰ أن تصنع الذى رأيت، فتنزعهم، وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله أمرهم، وهم أهون شوكة من ذاك.»

رأى لابن عباس وما أشار به على علىّ

وخرج المغيرة، وتلقّاه ابن عباس خارجاً. فدخل إلى علىّ، فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، أخبرنى [513] عن شأن المغيرة، ولِمَ خلا بك؟»

قال: «إنّه جاءنى بعد مقتل عثمان بثلاثة أيام وقال: أخلني. ففعلت. فقال: كيت وكيت. فأجبته بكيت وكيت. فانصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنّه يرى أنّي مخطئ. ثم عاد إلىّ الآن، فقال: كيت وكيت.

فقال ابن عباس: «أمّا فى المرة الاولى فقد نصحك، وأمّا فى المرة الأخرى فقد غشّك.»

قال له: «وكيف نصحنى؟»

قال ابن عباس: «لأنّك تعلم أنّ معاوية وأصحابه أهل دنيا. فمتى تثبتهم، لا يبالون من ولى هذا الأمر؛ ومتى تعزلهم، يقولوا: أخذ الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا؛ وحمّلك ما قدر عليه من الذنب، فتنتقض عليك الشام. ولا آمنُ طلحة والزبير أن يكرّا عليك.»

فقال علىّ: «أما ما ذكرت من إقرارهم، فوالله ما أشكّ أنّ ذلك خير فى عاجل الدنيا لإصلاحها، وأما الذى يلزمنى من الحق، والمعرفة بعمّال عثمان، فوالله لا أولّى منهم أحداً أبداً، فإن أقبلوا فذلك خير، وإن أدبروا بذلت لهم السيف.»

قال ابن عباس: «فأطعنى، وادخل دارك، والحقْ بما لك بينبع، وأغلق بابك، فإنّ العرب تجول [514] جولة وتضطرب، ولا تجد غيرك. فإنّك والله لو نهضت مع هؤلاء القوم ليحمّلنّك الناس غداً دم عثمان.»

فأبى عليّ وقال لابن عباس:

ـ «سر إلى الشام، فقد ولّيتكها.»

فقال ابن عباس: «ما هذا والله برأى. معاوية رجل من بنى أمية، وهو ابن عمّ عثمان، وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقى بعثمان، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكّم علىّ.»

قال عليّ: «ولِمَ تظنّ ذلك؟»

قال: لقرابة ما بينى وبينك، ولأنّ كلّ ما عليك فهو علىّ؛ ولكن اكتب إلى معاوية، فمنّه، وعِدْهُ.»

فقال عليّ: «إنّ هذا ما لا يكون أبداً.» وتمثّل:

فما ميتةٌ، إن متُّها غيرَ عاجزٍ بعارٍ، إذا ما غالتِ النفسَ غُولُها

فقال ابن عباس: «أنت ـ يا أميرالمؤمنين ـ رجل شجاع، ولست بأربٍ فى الحرب. أما سمعت رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ يقول: الحرب خدعة؟»

قال: «بلىٰ.»

قال ابن عباس: «أنا والله، لئن أطعتني لأصدرنّ بهم بعد ورد، ولأتركنّهم ينظرون فى دُبر الأمور، ولا يعرفون ما كان وجهها، فى غير نقصان عليك ولا إثم لك.» [515]

فقال عليّ: «يابن عباس، لست من هُنيّاتك وهُنيّات[1] معاوية فى شيء، تشير علىّ وأرى، فإذا عصيتك فأطعنى.»

فقال ابن عباس: «أفعل، إنّ أيسر ما لك عندى السمع والطاعة.»

---

١. والضبط فى الطبرى (٦ : ٣٠٨٦): «هنيآتك وهنيآت معاوية» والأصل واحد. وفى مط: «هيئاتك وهيئات معاوية».

عليّ يفرّق عمّاله على الأمصار

وفرّق عليّ ـ عليه السلام ـ عمّاله فى سنة ست وثلاثين. فبعث عثمان بن حنيف على البصرة، وعُمارة بن شهاب على الكوفة، وعبيدالله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد على مصر، وسهل بن حنيف على الشام.

فأما سهل، فإنّه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل.

فقالوا: «من أنت؟»

قا: «أمير[1] على الشام.»

فردّوه، ولم يدعوه يتجاوزها.

وأما قيس بن سعد، فإنّه لما انتهى إلى أيلة، لقيته خيل.»

فقالوا: «من أنت؟»

فقال: «من فالّة عثمان، أطلب من آوى إليه، وأنتصر به.»

قالوا: «فمن أنت؟»

قال: «قيس بن سعد.»

قالوا: «امض.»

فدخل مصر فافترق الناس: فبعضهم دخل في الجماعة وكانوا معه، وفرقة اعتزلت وقالت:

ـ «إن قُتل قتلة عثمان [فنحن معكم][2]، وإلّا فنحن على جديلتنا.»

وأمّا عثمان بن حنيف، فإنّه سار، ولم يردّه أحد عن دخول البصرة، ولم يوجد لابن عامر فى ذلك رأى ولا تدبير، [516] وافترق الناس بالبصرة كما افترقوا بمصر.

---

١. ويضيف الطبرى هنا: قالوا: على أىّ شىء؟ قال: ... (٦ : ٣٠٨٧).

٢. تكملة أوردناها عن الطبرى ٦ : ٣٠٨٨.

وأما عمارة، فلمّا صار بزبالة، لقيه طليحة بن خويلد، وكان خرج يطلب بدم عثمان. وقال له:

ـ «ارجع، فإنّ الناس لا يريدون بأميرهم بدلاً، وإن أبيت ضربت عنقك.»

فرجع وهو يقول: «أحرز الخطر ما تماسّك الشرّ خير من شرّ منه»[1] ـ فصار مثلاً.

وعلقه عمار بن ياسر إلى أن قُتل.

وانطلق عبيدالله بن عباس إلى اليمن. فجمع يعلى بن أميّة كلّ ما كان جباه، وخرج وسار على حاميته إلى مكة، فقدمها بالمال.

فدعا عليّ طلحة والزبير فقال:

ـ «إنّ الذى كنت أحدّثكم به قد وقع، وإنّما هى فتنة كالنار، كلما سُعّرت ازدادت واستنارت.»

فقالا له: «إئذن لنا نخرج من المدينة.»

فقال: «سأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بدّاً فآخر الداء الكيّ.»

وكتب إلى أبى موسى، وهو بالكوفة، وإلى معاوية، وهو بالشام. فأمّا أبو موسى فكتب إليه بطاعة أهل الكوفة، وبيّن الكاره منهم لما كان، والراضى بما كان، حتى كان عليّ على الواضحة[2] من أمر أهل الكوفة. [517]

وأمّا معاوية فلم يكتب بشىء، ولم يُجب الرسول، وجعل يردّده. وكان كلّما تنجّزه تمثّل بشعر[3] لا يحصل منه على بيّنة، حتى أحكم أمر نفسه، وواطأ من أراد. وأتى على الرسول ثلاثة أشهر. ثم دعا بأحد ثقاته، ووصاه، ودفع طوماراً مختوماً إليه، عنوانه: «من معاوية إلى عليّ.»

---

١. وفى الطبرى: إحذر الخطر ما يماسّك الشرّ خير من شرّ منه (٦: ٣٠٨٨).

٢. كذا فى مط: الواضحة، وفى الطبرى (٦: ٣٠٨٩): «المواجهة».

٣. تجد الشعر عند الطبرى (٦: ٣٠٩٠).

وقال: «إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ليقرأ الناس العنوان.»

ثم أوصاه بأشياء يفعلها، ويقولها، وسرّح رسولَ عليّ معه.

فلما دخلا المدينة رفع رسول معاوية الطومار، فتفرّق الناس إلى منازلهم وقد علموا أنّ معاوية ممتنع، ومضى الرسول حتى دخل على عليّ، فدفع إليه الطومار، ففضّ خاتمه، فلم تجد في جوفه كتاباً.

فقال للرسول: «ما وراءك؟»

قال: «آمنٌ أنا؟»

قال: «نعم، لعمرى إنّ الرسل لآمنة.»

قال: «ورائى أنى تركت قوماً لايرضون إلّا بالقَوَد.»

قال: «ممن؟»

قال: «من خيط رقبتك، ولقد تركت ستين شيخاً يبكى تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق.»

فقال: «منى يطلبون دم عثمان، ألست موتوراً [518] كترة عثمان؟ اللّهمّ إنّى أبرأ إليك من دم عثمان، نجا والله قتلة عثمان إلّا أن يشاء الله، فإنّه إذا أراد أمراً أمضاه، اخرج.»

قال: «وأنا آمن؟»

قال: «وأنت آمن.»

فخرج وصاحب السبائية واقف، فقالوا:

ـ «هذا الكلب وافد الكلاب، اقتلوه.»

فنادى: «يا آل مضر، يا آل قيس[1]، الخيل والنبل! أحلف بالله ليردّنّها عليكم أربعة آلاف خصيّ، فانظروا كم الفحولة والركّاب.»

---

١. وضبط في الطبرى: يال مضر، يال قيس (= يا آل مضر، يا آل قيس) وفي الأصل: يالمضر، يالقيس، فأرجعنا الرسم إلى أصله.

فتغاووا[١] عليه، ومنعته مضر، وجعلوا يقولون له:
ـ «اسكت لا أبأ لك.»
فيقول: «والله، لا أسكت، فلقد أتاهم ما يوعدون.»
فيقولون له: «أسكت.»
فيقول: «لقد حلّ بهم ما يحذرون، انتهت والله أعمارهم، ذهبت والله ريحهم.»
ولم يزل بذلك حتى تبيّن الذلّ فيهم، وتمّ لمعاوية تدبيره هذا.

عليّ يدبّر لقتال أهل الفرقة بالشام

واستأذن طلحة والزبير فى العمرة، فأذن عليّ لهما، فلحقا بمكة، وأحبّ أهل المدينة [أن يعلموا][٢] ما رأى عليّ فى معاوية وانتقاضه، ليعرفوا بذلك رأيه فى قتال أهل القبلة، أيقدم عليه، أم يجزع منه. وكان بلغهم أنّ الحسن ابنه دخل عليه، وحذّره، ودعاه إلى القعود وترك الناس. فدسّوا [519] زياد بن حنظلة التميمى، وكان منقطعاً إلى عليّ، فدخل عليه وجلس إليه ساعة. ثم قال له عليّ:
ـ «يا زياد، تيسّر.»
قال: «لأيّ شيء؟»
قال: «لغزو الشام.»
قال زياد: «الأناة والرفق أمثل»، وقال:

ومن لا يُصانع فى أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثّل عليّ وكأنه لا يريده:

١. فى مط وفى الطبرى: تعادوا. وفى الكامل (٣: ٢٠٣): تعاونوا.
٢. الأصل ومط بدون «أن يعلموا» والتكملة من الطبرى (٦: ٣٠٩١).

متىٰ تجمع القلبَ الذكيَّ وصارِماً وأنــفاً حـميّاً تـجتنبكَ المـظالمُ

فخرج زياد على الناس وهم ينتظرونه، فقالوا:

ـ «ما وراءك؟»

قال: «السيف يا قوم.»

فعرفوا رأى علىّ.

ودعا علىّ محمد بن الحنفية، فدفع إليه اللواء، وولّـى عـبيدالله بـن عـباس، ميمنته، وعمر بن أبى سلمة ميسرته، وجعل على مقدمته عمر بن الجرّاح ابن أخى أبى عبيدة بن الجراح، ولم يولّ أحداً ممن خرج على عثمان.

واستخلف على المدينة قُثم بن العباس، وكتب إلى أبى موسى، وإلى قيس بن سعد، وإلى عثمان بن حنيف أن يندبوا الناس إلى الشام، وأقبل يتجهّز، وخطب الناس، فدعاهم [520] إلى النهوض، وحضّهم على قتال أهل الفرقة.

ابتداء وقعة الجمل

طلحة والزبير يريدان البصرة للاصلاح

فبينا هو على ذلك، إذ أتاه من مكة عن عايشة أمّ المؤمنين وطلحة والزبير شيء آخر بخلاف ما هو فيه، ثم أتاه عنهم أنّهم يريدون البصرة للاصلاح. فقال:

ـ «إن فعلوا فقد انقطع نظام المسلمين، ومـا كـان عـليهم فـى المُـقام [فـينا مؤونة][1] ولا إكراه.»

فتعبّأ[2] للخروج نحوهم، وخطب وندب الناس، فتثاقلوا.

ولما رأى زياد بن حنظلة تثاقل الناس على علىّ انتدب وقال:

١. التكملة من الطبرى (١: ٣٠٩٣).

٢. مط: فتبعا.

ـ «من تثاقل عنك يا أميرالمؤمنين، فإنّا نقاتل معك ونخفّ بين يديك ما حملت أيدينا سيوفنا.»

وأجابه رجلان من أعلام الأنصار.

عايشة تريد طلحة

ولمّا هرب بنو أمية لحقوا بمكّة، فاجتمعوا إلى عايشة، وكانوا ينتظرون أن يلي الأمر طلحة، لأن هوىٰ عايشة كان معه، وكانت من قبل تشنّع على عثمان، وتحضّ عليه، وتخرج راكبة بغلة رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ ومعها قميصه وتقول:

ـ «هذا قميص رسول الله، صلّى الله عليه، ما بلي وقد بلى دينه، اقتلوا نعثلاً، قتل الله نعثلاً.»

فلما صار [521] الأمر إلي عليّ كرهته وعادت إلي مكة بعد أن كانت متوجّهة إلى المدينة، ونادت:

ـ «ألا، إنّ الخليفة قتل مظلوماً، فاطلبوا بدمِ عثمان.»

من استجاب لعائشة ومن اعتزل

فأوّل من استجاب لها عبدالله بن عامر، ثم قام سعيد بن العاص والوليد بن عُقبة وسائر بني أمية. وكان قدم عبدالله بن عامر قريباً، ويعلى بن أمية من اليمن، واجتمع رأيهم بعد نظر طويل، وخطاب كثير، على البصرة، وقالوا:

ـ «معاوية قد كفاكم الشام.»

وكان مع يعلى ستمائة بعير، وستمائة ألف درهم، فأنفقهما فى ذلك الوجه، وشتموا عبدالله بن عامر، وقالوا:

ـ «لا أنت مسالم ولا أنت محارب، هلّا أقمت بالبصرة فمنعت حوزتك كما

منع معاوية، أو هلّا أرفدتنا اليوم بمالك كما فعل يعلى بن أمية.»

فتكلّم بما لم يرضوه في جوابهم. وسأل الناس غير عايشة من أزواج النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ فأرادت حفصة الخروج، فأتاه عبدالله بن عمر بن الخطّاب، فطلب إليها أن تقعد، فقعدت. وبعثت أمّ الفضل بنت الحارث بن عبدالمطّلب رجلاً من جهينة، واستأجرته على أن يطوى ويأتى عليّاً بكتابها، فقدم من جهتها بالخبر على عليّ. [522]

فأما المغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص، فإنّهما خرجا من مكة مرحلة مع القوم، ثم تشاوروا. فقال المغيرة:

ـ «عندى أنّ الرأى لنا أن نعتزل الجميع، فأيّهم أظفره الله أتيناه وقلنا: كان هوانا معك وصغونا إليك.»

فاعتزلا وعادا إلى مكة ومعهما غيرهما.

موقف آخر لسعيد بن العاص

ويقال: إنّ سعيد بن العاص أتى طلحة والزبير فقال:

ـ «إن ظفرتما، لمن يكون الأمر؟»

قالا: «لأحدنا، أيّنا رضيه المسلمون.»

قال: «لا، بل اجعلوه لولد عثمان، فإنكم خرجتم تطلبون بدمه.»

قالا: لا والله، ما ندع مشايخ المهاجرين والأنصار ونجعل الخلافة فى أبنائهم.»

فقال: «ما أرانى أسعىٰ إلّا فى إخراجها من ولد عبد مناف.»

سؤال وتنازع حول الإمرة

فرجع مع من رجع، واستمرّ بالقوم المسير. فلما نزلوا ذات عرق أذّن مروان، ثم جاء حتى وقف عليهما، فقال:

ـ «على أيّكما أسلّم بالإمرة وأوذّن بالصلاة؟»

فقال ابن الزبير: «عليّ أبي.»

وقال ابن طلحة: «عليّ أبي.»

وتنازعا. فأرسلت عايشة إلى مروان:

ـ «ما لك يا مروان! تريد أن تفرّق جماعتنا. ليصلّ ابن أختي بالناس.»

فكان يصلّي بهم عبدالله بن الزبير حتى قدموا [523] البصرة. فكانوا يقولون:

ـ «لو ظفرنا لافتتنّا[1]. وما كان ليخلّي الزبيريّون الأمر لطلحة، ولا الطلحيون الأمر للزبير.»

وإنّ عليّاً تجهّز في من خفّ معه، يبادرهم ليعترض عليهم دون البصرة، وخرج معه تسعمائة رجل في التعبئة التي كان تعبّأ بها إلى الشام، حتى انتهى إلى الربذة، وبلغه ممرّهم وقد فاتوه. فأقام هناك يأتمر.

اتّفاق في ذلك الوجه

فمما اتفق في ذلك الوجه، أنّ صاحب الجمل ـ الذي يقال له: «عسكر» وخبره مشهور ـ حكي أنه: لما اشترى منه الجمل بحُكمه وركبته عايشة سألوه عن الطريق، وهل هو خِبر؟

قال، فقلت: «أنا أهدىٰ من القطا[2].»

فأعطوني دنانير، وتقدّمتهم، وكانوا يسألونني عن كلّ ماء، حتى نزلوا الحَوءَب[3]. فكان الحديث المشهور. فبينا نحن كذلك، إذا بابن الزبير يركض وينادي:

---

١. مط: لابتلينا. ابن الأثير: لاقتتلنا (٣: ٢٠٩).

٢. «أهدىٰ من القطا» مثل يضرب لمن يجيد معرفة الطرق والمسالك في المجاهل والمفازات. وتجد حكاية صاحب الجمل هذا عند الطبري ٦: ٣١٠٩.

٣. الحوءب، موضع في طريق البصرة وماء من مياههم (يا).

ـ «أدرككم عليّ بن أبى طالب، النجا النجا.»

وشتموني ورحلوا، وانصرفت. فما سرت إلّا قليلاً حتى لقيت عليّ بن أبى طالب ومعه ركب، فقال:

«عليّ بالراكب.»

فأتيته.

فقال: «أين لقيتَ الظعينة؟»

فقلت: [524] «مكان كذا، وقد بعتهم جملي وأعطوني ناقتها وهي هذه تحتي، وأعطوني كيت وكيت.»

قال: «وقد ركبْته؟»

قلت: «نعم. وسرت معهم إلى الحوءب وكان من أمرهم كذا وكذا، وارتحلوا وأقبلت.»

قال عليّ: «فهل لك دلالة بذي قار؟»

قلت: «نعم.»

قال: «سر معنا.»

عليّ يستشير الناس
والحسن يذكر له ما كان قد أشار به عليه قبل

فسرنا حتى نزلنا بذى قار. فأمر عليّ بجوالقين، فضمّ أحدهما إلى صاحبه، ثم جيء برحل، فوضع عليه، ثم صعد عليه، وخطب الناس وأعلمهم الخبر. ثم استشارهم، فقام الحسن، فبكى، وقال:

ـ «أشرت عليك فعصيتنى، فتقتل غداً بمضيعة[1] لا ناصر لك.»

---

١. كذا فى الأصل. وفى الطبرى: بمصبحة (٦: ٣١١٠). وفى الكامل: بمضبعة، بمعصية (٣: ٢٢٢).

فقال له عليّ: «إنّك لاتزال تحنّ[١] حنين الجارية، وما الذي أشرت به علـيَّ فعصيتك؟ تكلّم به ليسمعه الناس.»

قال: «كنتُ قلتُ لك يوم أحيط بعثمان: أن تخرج من المدينة فلا تشهد قتله فأبيتَ. وقلتُ لك يوم قتل: لا تبايع حتى يأتيك وفود العرب وبيعة أهل الأمصار، فأبيت. ثم قلتُ لك حين فعل الرجلان ما فعلا أن: تجلس في بيتك حتى يصطلح الناس، فإن كان فساد كان على يدى غيرك [525] فعصيتنى في ذلك كلّه.»

فقال: «أي بنيّ! أمّا قولك: لو خرجت من المدينة، فوالله لقد أحيط بـنا كـما أحيط به.

ـ «وأمّا قولك: انتظره حتى يأتيك الوفود وأهل الأمصار، فإنّ الأمر أمر أهـل المدينة، وعقدهم جائز على المسلمين، وكرهنا أن نُضيع هذا الأمر فتكون فتنة.»

ـ «وأمّا قولك حين خرج طلحة والزبير أن اجلس في بيتك، فإنّ ذلك كـان وهناً على أهل الإسلام لو فعلته. ووالله مازلت مقهوراً مـنذ ولدت، مـنقوصاً لا أصل إلى حقّى، ولا إلى شيء مما ينبغي لى.»

ـ «وأما قولك: اجلس فى بيتك، فكيف لى بما لزمنى؟ أتريد أن أكون كالضبع التى يحاط بها ويقال[٢]: دابِ دابِ، أمّ عامر ليست هاهنا، حتى يُحلّ عرقوباها. إذا لم أنظر فى ما لزمني ويعنيني فمن ينظر فيه.»

فكفّ عليك يا بنيّ إنّ النبيّ ـ صلّى الله عليه ـ قبض وما أرىٰ أحقّ بهذا الأمر منّي، فبايع الناس أبا بكر، فبايعت كما بايعوا. ثم هلك أبو بكر وما أرى أحقّ بهذا الأمر منّي، فبايع الناس عمر، فبايعت [526] كما بايعوا. ثم هلك عمر وما أرىٰ أحقّ بهذا الأمر منّي، فجعلنى سهماً من ستة أسهم. ثم عُدل عـنّي إلى عـثمان، فبايعت كما بايع الناس. ثم سار الناس إلى عثمان، فقتلوه، وأتونى طائعين غير

---

١. ابن الأثير: «تخنّ خنين (٣: ٢٢٢) والأصل يطابق الطبرى (٦: ٣١١٠).

٢. ابن الأثير: ويقال ليست هاهنا حتى يحلّ عرقوباها حتى تخرج (٣: ٢٢٣).

مكرهين، فبايعوني. فأنا مقاتل بمن اتبعني من خالفني حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.»

ولما قربت عائشة ومن معها من البصرة قدّمت عبدالله بن عامر وقالت:

ـ «أنت لك صنائع فاذهب إلى صنائعك، فليلقوا[١] الناس.»

وكتبت إلى رجال البصرة كالأحنف بن قيس وضبرة[٢] بن شيمان ووجوه الناس، وأقامت بالحفير تنتظر الجواب.

عثمان بن حنيف
يبعث رسولين إلى عائشة وطلحة والزبير

ولما بلغ الخبر البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن الحصين، وكان رجل عامة، وأبا الأسود الدئلي وكان رجل خاصّة وقال:

ـ «انطلقا إلى هذه المرأة واعلما علمها وعلم من معها.»

فانتهيا إليها والناس بالحفير، واستأذنا فأذن لهما. فسلّما وقالا:

ـ «إنّ أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك. فهل أنت مخبرتنا؟»

فقالت: «والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم، ولا يعثى[٣] لبنيه الخبر. [إنّ الغوغاء]، [527] ونزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله، ونالوا من قتل الامام، ما استحقّوا به لعنة الله، وفعلوا وفعلوا. فخرجتُ في المسلمين إلى هذا المصر، لأعلمهم ما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم بأن يأتوه من الإصلاح، وقرأت: لا

---

١. كذا في الأصل والطبري، وفي مط: فليقوا. ٢. كذا في الأصل. وفي الطبري (٦: ٣١١٥) صبرة.

٣. كذا في الأصل: «لا يعثى»، وما في القواميس: «مأى، مأياً» بفتح العين. والمأى: النميمة، الإغتياب، الفساد بين الناس، ضرب بعضهم ببعض، المبالغة في الشيء. وفي مط: ولا يمشى لبنيه الخمر، وفي بعض الأصول: «الحمر». وفي الطبري: «ولا يغطى لبنيه الخبر» (٦: ٣١١٦). وفي الكامل: «لا يعطى...» (٣: ٢١١).

خَيرَ فی كثيرٍ منْ نَجواهُمْ إلّا مَن أمرَ بصدقةٍ، أو إصلاحٍ بينَ النّاسِ[١]، فهذا شأننا، نأمركم بالمعروف ونحضّكم عليه، وننهاكم عن منكر، ونحثّكم على تغييره.»

فخرجا من عندها، وأتيا طلحة، فقالا ما قالا لعايشة وسألاه: ما الذی أقدمه؟

قال: «الطلب بدم عثمان.»

قالا[٢]: «ألم تبايع عليّاً؟»

قال: «بلى، واللُّجّ في عنقى، وما أستقيل عليّاً، إن هو لم يَحُلْ بيننا وبين قتلة عثمان.»

ثم أتيا الزبير، فقالا: «ما أقدمك؟»

قال: «الطلب بدم عثمان.»

قالا: «ألم تبايع عليّاً؟»

قال: «بلى، واللُّجّ فی عنقی، وما أستقيل عليّاً إن لم يحام على قتلة عثمان.»

ومضي الرجلان، حتى دخلا على عثمان بن حنيف. فبدر أبو الأسود عمران وأنشد:

يـا بـنَ حُـنيفٍ قـد أُتـيتَ فـانْفِرِ وطاعنِ القومَ وجالِدْ واصبِرِ [528]
وابرُزْ لَهُمْ مستلئماً وشَمِّرِ

فقال عثمان بن حنيف: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون[٣]. دارت رحى الإسلام وربّ الكعبة. فانظر أیّ زيفان تزيف.»

فقال عمران: «إی والله، لتعركنّكم عركاً طويلاً.»

قال: «فأشر علیّ يا عمران.»

---

١. س ٤ النساء: ١١٤.
٢. فی الأصل ومط: «قال» فصححناها.
٣. س ٢ البقرة: ١٥٦.

قال: «إنّي قاعد، فاقعد.»

قال: «بل أمنعهم حتى يأتي أميرالمؤمنين.»

فانصرف عمران، وقام عثمان في أمره، ونادئ في الناس، وأمرهم بالتهيؤ. فلبسوا السلاح، واجتمعوا في المسجد الجامع، وأقبل عثمان بن حنيف على الكيد.

كيد كاد به عثمان بن حنيف

فمما كاد به لينظر ما رأى الناس: أن دسّ رجلاً إلى الناس كوفيّاً قيسيّاً يقال له: قيس بن العقدية، فقام وقال:

ـ «أيها الناس، إنّ هؤلاء القوم الذين جاءوكم إن كانوا جاءوا خائفين، فقد جاءوا من مكان بعيد يأمن فيه الطير؛ وإن جاءوا يطلبون بدم عثمان، فما نحن بقتلة عثمان. أطيعوني في هؤلاء القوم، فردّوهم من حيث جاءوا.»

فقال الأسود بن سريع:

ـ «أو زعموا أنّا قتلة عثمان. إنما فزعوا إلينا [529] يستعينون[١] بنا على قتلة عثمان منّا ومن غيرنا.»

فتكلّم القيسيّ فحصبه الناس. فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً ممن معه. فكسره ذلك.

إنتهاء عائشة ومن معها إلى المِربَد

وأقبلت عائشة في من معها، حتى انتهوا إلى المِربَد[٢]، فدخلوا من أعلاه،

---

١. كذا في مط. وفي الطبري: يستعينوا (٦: ٣١١٨).

٢. المربد: مربد البصرة. كانت محلّة من محال البصرة، وهي اليوم كالبلدة المنفردة عن البصرة. بينهما ثلاثة أميال. كانت متصلة بها، فخرب ما بينهما، فصارت منفردة، وبها كانت مجالس الخطباء والشعراء (مع، يا).

ووقفوا حتى خرج عثمان في من معه، وخرج إليها من أراد أن يكون معها. واجتمع الناس بالمربد، وجعلوا يتوثّبون، واغتصّ المكان بالناس.

فتكلّم طلحة وهو في ميمنة المربد، وعثمان في زَهو[1] ميسرته، فأنصتوا، فذكر فضل عثمان، والبلد، وما استحلّوا منه، وعظّم ما أتى إليه، ودعا إلى الطلب بدمه، وقال في آخر كلامه:

ـ «إنّه حدّ من حدود الله، فإن فعلتم أصبتم، وعاد أمركم، وإن تركتم لم يقم لكم سلطان، ولم يكن لكم نظام.»

فقال من في ميمنة المربد: «صدقا وبرّا».

وقال من في الميسرة: «فجرا وغدرا. قد بايعا، ثم جاءا يقولان ما يقولان.»

وتحاصب الناس، وتكلّموا. فتكلّمت عايشة. وكانت جهيرة الصوت، فحضّت [530] على الطلب بدم عثمان والأخذ بالكتاب الذى يدعون إليه. وأقبل جارية بن قدامة السعدى، فقال:

ـ «يا أمّ المؤمنين، لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك عرضة للسلاح. فقد كان لكِ من الله ستر وحرمة: فهتكت سترك، وأبحتِ حرمتكِ، إنّ من رأى قتالكِ فهو يرىٰ قتلكِ. فإن كنتِ خرجتِ طائعة فارجعي إلى بيتكِ، وإن خرجت كارهة فاستعيني بالناس.»

وخرج رئيس كل طائفة، فتكلّم فقال بعضهم:

ـ «أمّا أنت يا زبير، فحواريّ رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ؛ وأمّا أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك، وأرىٰ أمّكما معكما، فهل جئتما بنسائكما؟»

قالا: «لا.»

قال: «فما أنا منكما.»

---

١. في مط والطبرى (٦: ٣١١٨) والكامل (٣: ٢٠٦): «في ميسرته»، (بدون «زهو»).

واعتزل.

قتال وتوادع

وأقبل حكيم بن جبلة فأنشب القتال، فاقتتلوا إلى الليل، وقتل خلق. ثم إنهم توادعوا على أن يكتبوا إلى المدينة، ويستعلموا[١] الناس: هل بايعا مكرهين؟ فإن بايعا مكرهين خرج عثمان بن حنيف، وإن كانا بايعا طائعين خرج طلحة [531] والزبير.

فجرىٰ خطب طويل بالمدينة لما ورد الرسول من البصرة. ليس لذكره وجه في ما نحن بسبيله.

وكان الناس كتبوا بينهم كتاباً شرط فيه ألّا يضارّ أحد بأحد في سوق ولا طريق إلى أن تعود الرسل. إلّا أن محمد بن طلحة قام يوماً في المسجد مقام عثمان بن حنيف، فتعرض له عثمان، وجاء بعض الحرس، فنحّاه، وظنّ أنه جاء في شرّ.

ووصل كتاب عثمان بن حنيف إلى عليّ بما كان من الناس. فكتب عليّ ـ رضي الله عنه ـ يعجّزه ويقول:

ـ «ما أُكرها على فرقة، وإنّما أُكرها على جماعة، فإن كانا يريدان الخلع، فلا عذر لهما.[٢]»

ما جرى على عثمان بن حنيف

فقدم الكتاب على عثمان، واتّفق أن تأخّر ابن حنيف عن الصلاة، فقدّما

١. مط: ويستعظمون!

٢. وزاد في الطبري: وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا (٦: ٣١٢٥). وانظر أيضاً الكامل (٣: ٢١٥).

عبدالرحمان بن عتّاب، فشهر الزطّ[1] السلاح ومنعوه. ثمّ اقتتلوا في المسجد، وصبر الرجّالة لهم، فقتلوهم عن آخرهم وهم أربعون رجلاً. وأدخلوا الرجال على عثمان؛ فما وصل إليه إلّا بعد أن لحقه مكروه عظيم. [532]

وأرسلوا إلى عائشة يستشيرونها في أمره. فأمرت بقتله، فناشدها قوم فيه، وأذكروها بصحبته رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ فأشار مجاشع بن مسعود بضربه فضربوه أسواطاً، ونتفوا شعر لحيته ورأسه حتى حاجبيه وعينيه، وأشفار عينيه. ثم حبسوه. فغضب له قوم، وثار حكيم بن جبلة، واصبح بيت المال والحرس في يدي طلحة والزبير.

وقال حكيم بن جبلة: «لست أخاف الله إن لم أنصر عثمان بن حنيف.»

فجاء في جماعة من عبدالقيس وبكر بن وائل، فأتى ابن الزبير في مدينة الرزق، فقال:

ـ «ما لك يا حكيم، ما تريد؟»

قال: «أن نرتزق من هذا الطعام، وأن تُحلّوا عثمان، فيقيم في دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم عليٌّ. وأيم الله لو اجد أعواناً لألحقنّكم بمن قتلتم. فقد أحلّ الله لنا دماءكم بمن قتلتم من إخواننا. أما تخافون الله، بِمَ تستحلّون سفك الدماء؟»

قال: «بدم عثمان.»

قال: «فالذين قتلتموهم قتلة عثمان! أما تخافون [533] الله ومقته وعقوبته؟»

فقال ابن الزبير: «لا نرزقكم من هذا الطعام، ولا نخلّي سبيل عثمان بن حنيف حتى نخلع عليّاً.»

قال حكيم: «اللّهمّ إنّك حكم عدل.»

ثم قال لأصحابه: «إنّي لست في شكّ من قتال هؤلاء القوم.»

---

١. وفي الطبري وابن الأثير الزطّ والسيابجة (نفس الصفحتين).

قتال شديد ضرب فيه رجل ساق حكيم

فاقتتلوا قتالاً شديداً. وضرب رجل ساق حكيم، فقطعها. فأخذ حكيم ساقه ورماه بها، فأصاب عنقه، فصرعه. ثم حبا إليه فقتله واتكئ عليه، فانتهى إليه رجل وقال له: «من قتلك؟» قال: «وسادتى.» وقتل سبعون رجلاً من عبدالقيس. وقال حكيم حين قطعت رجله:

يا فَخْذِ لَن تُراعِى إنَّ معى ذِراعِى
[أحمى بها كُراعِى][1]

فاحتمل الرجل حكيماً وضمّه في ستين من أصحابه. فتكلّم يومئذ وإنّه لقائم على رجل ـ وإنّ السيوف لتأخذهم ـ لا يتعتع:

ـ «إنّا خلّفنا هذين، وقد بايعا عليّاً، وأعطياه الطاعة، ثم أقبلا مخالفين يطلبان بدم عثمان، وهما كاذبان؛ وإنّما أراغا[2] المال والإمرة.»

وأخذته السيوف، فأنيم، وأنيم أصحابه، وأفلت حرقوص بن زهير وحده.

ونادئ منادى عايشة:

ـ «ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا [534] المدينة، فليأتنا بهم.»

فجيء بهم كما يُجاء بالكلاب، فقتلوا. فما أفلت منهم غير حرقوص. فخشّنوا صدور بني سعد، وإنهم لعثمانية، حتى انفردوا. وغضب عبدالقيس لمن قتل منهم بعد الوقعة، ثم أمرا للناس بأعطياتهم، وفضّلا أهل السمع.

فخرجت عبدالقيس وكثير من بكر بن وائل. فبادروا إلى بيت المال، وركبهم

---

١. تكلمة من الطبري (٦: ٣١٣٠)، وله رواية أخرى أيضاً. أنظر (٦: ٣١٣٦).

٢. مط: أرادا المال. أراغا: أرادا بالمكر والحيلة.

الناس، وخرجوا حتى نزلوا على طريق عليّ، وأقام طلحة والزبير بالبصرة ليس معهما مخالف.

وكتبوا إلى أهل الشام بما صنعوا، وقصّوا القصة وأطالوا، وذكروا أنّهم أقاموا حدّ الله، وأنهم قد أعذروا، وقضوا ما عليهم، فنناشدكم الله في أنفسكم إلّا نهضتم بمثل ما نهضنا به. وكتبوا إلى أهل الكوفة بمثل ذلك، وإلى أهل اليمامة بمثله.

وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة كتاباً بليغاً طويلاً تحضّهم على إقامة كتاب الله، وتذكر لهم ما صنعوا بالبصرة. وكتبت إلى رجال بأسمائهم وقالت:

ـ «ثبّطوا الناس عن نصرة هؤلاء القوم، والزموا بيوتكم».

ولما قتلوا حكيماً وأصحابه همّوا بقتل عثمان بن حنيف [535] فقال لهم عثمان:

ـ «ما شئتم، إن أخي سهلاً بالمدينة مع عليّ، وهو والٍ بها، فإن قتلتموني انتصر.»

فخلّوا عنه، وصلّى بالناس عبدالله بن الزبير.

وكتبت عايشة بنت أبي بكر إلى زيد بن صوحان:

«من عايشة أم المؤمنين وحبيبة الرسول إلى ابنه الخالص زيد بن صوحان.

أمّا بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم وانصرنا على أمرنا، فإن لم تفعل فخذّل الناس عن عليّ بن أبي طالب.»

فكتب إليها زيد بن صوحان:

«إلى عايشة بنت أبي بكر. أمّا بعد، فأنا ابنك الخالص إن اعتزلتِ من هذا الأمر، ورجعتِ إلى بيتك، وإلّا فأنا أوّل من نابذكِ.»

وقال: «رحم الله عايشة. أُمرت أن تلزم بيتها، وأمرنا أن نقاتل، فتركت ما أمرت به، وأمرتنا به، وصنعت ما أُمرنا به ونهتنا عنه.»

وكان عليّ ـ عليه السلام ـ حين انتهىٰ إلى الربذة، أقام، وأرسل إلى أهل

الكوفة، وكاتبهم، واستدعىٰ من المدينة ما أحبّ من سلاح وغيره. وقدم عثمان بن حنيف الربذة على عليّ منتوف شعر الوجه كلّه، وقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين [536] بعثتني ذا لحية، وجئتك أمرد.»

قال: «أصبت خيراً وأجراً. اللّهم احلل ما عقدا، ولا تُبرم ما أحكما، وأَرِهِما المساءة في ما عملا.[١]»

ماذا جرى في الكوفة؟

فأمّا أهل الكوفة، فلمّا انتهى إليهم رسول عليّ استشاروا أبا موسى. فقال لهم:

ـ «إنما هما أمران: القعود سبيل الآخرة، والخروج سبيل الدنيا.»

وجعل يثبّط الناس. إلى أن أنفذ عليّ ـ عليه السلام ـ ابن عباس والأشتر، فلم يغنيا، وكان بعث بهاشم بن عتبة إلى أبي موسى يستنفر الناس. فكتب إليه هاشم:

ـ «إني قدمتُ على رجل مشاقّ ظاهر الغلّ.»

فبعث عليّ الحسن وعماراً، وكتب إلى أبى موسى:

ـ «أما بعد، فكنت أرى أن بُعدك من هذا الأمر الذى لم يجعل الله لك فيه نصيباً سيمنعك من ردّ أمرى. وقد بعثت الحسن بن عليّ، وعمار بن ياسر، وبعثت قرظة بن كعب والياً. فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً.»

فقدم الحسن بن عليّ وعمار بن ياسر. فلطف الحسن وقال:

ـ «أيها الناس! أجيبوا أميركم، وسيروا إلى إخوانكم. فإنّه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه. فوالله أن يليه أهل [537] النهىٰ أمثل فى العاجلة، وخير فى العاقبة، فأجيبوا دعوتنا، وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم.»

فقام زيد بن صوحان فقال:

١. أنظر الطبرى ٦: ٣١٤٤.

ـ «يا قوم! سيروا إلى أميرالمؤمنين وسيد المسلمين، وانفروا إليه أجمعين.»

فقام القعقاع بن عمرو، فقال:

ـ «أيها الناس! إنّي لكم ناصح وعليكم شفيق، ولأقولنّ لكم قولاً هو الحق، إنّه لابدّ لنا من إمارة تنظم الناس، وتردع الظالم، وتعزّ المظلوم؛ وهذا عليّ ولى ما ولى، وقد أنصف فى الدعاء، وإنما يدعو إلى الإصلاح، فانفروا، وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع.»

ثم تكلّم سيحان، وقال مثل قول القعقاع، وتكلّم عديّ بن حاتم في قومه لمّا بلغه كلام الحسن وجواب الناس وقال:

ـ «قد بايعنا هذا الرجل، ودعانا إلى أمر جميل، ونحن سائرون.»

وتكلّم هند بن عمرو، وحجر بن عديّ، والأشتر، وقالوا مثل ذلك. وقال الحسن:

ـ «أيها الناس! إنّي غاد، فمن شاء منكم أن يخرج معى على الظهر، ومن شاء فليخرج فى الماء.»

فنفر معه تسعة آلاف رجل، وروى أيضاً أنهم كانوا اثنى عشر ألفاً، [538] وأُخرج أبو موسى من القصر، وشدّد عليه الأشتر.

عليّ يرسل القعقاع إلى أهل البصرة

فلمّا وردوا على عليّ ذاقار، تلقّاهم عليّ، فرحّب بهم، وأثنى عليهم. ثم دعا القعقاع بن عمرو، فأرسله إلى أهل البصرة، وقال:

ـ «القَ هذين الرجلين، فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظّم عليهما الفرقة.»

ووصاه بما أراد.

ثم قال له:

«كيف أنت صانع فى ما جاءك منهم مما ليس عندك وصاة منّى؟»

قال: «نلقاهم بالذى أمرت به. فإذا جاءنا أمر ليس عندنا منك فيه وصاة اجتهدنا الرأى، وكلّمناهم على قدر ما نسمع منهم ونرىٰ أنّه ينبغى.»

قال: «أنت لها.»

فخرج القعقاع حتى قدم البصرة. فبدأ بعايشة، فسلّم عليها، ثم قال:

ـ «أى أمّه! ما أشخصكِ. وما أقدمكِ؟»

قالت: «أى بنيّ! الإصلاح[١] بين الناس.»

قال: «فابعثى إلى طلحة والزبير، حتى تسمعى كلامى وكلامهما.»

فبعثت إليهما، فجاءا. فقال: سألت أم المؤمنين: ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد؟ فقالت:

ـ «الإصلاح[٢] بين الناس.»

[فقلت]: «فما تقولان أنتما: متابعان، أم مخالفان؟»

قالا: «متابعان.»

قال: [539] فأخبرانى ما وجه هذا الصلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنُصلحنّ[٣]، وإن أنكرناه لا نُصلح.»[٤]

قالا: «قتلة عثمان. فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن، وإن عمل به كان إحياءاً للقرآن.»

قال: «قد قتلتم بالبصرة من زعمتم أنهم قتلة عثمان، وأنتم كنتم قبل قتلهم أقرب إلى الإستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة إلّا رجلاً فغضب لهم ستة آلاف، فاعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم ذلك الواحد الذى أفلت ـ يعنى

---

١. فى الأصل: صلاح. ٢. فى الأصل: لصلاح.

٣. فى الأصل: ليصلحنّ.

٤. فى الأصل لا يصلح. وما أثبتناه يوافق الطبرى (٦: ٣١٥٦) والكامل (٣: ٢٣٣).

حُرقوص بن زهير ـ فمنعه ستة آلاف وهم على رجل[1]. فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوا فأديلوا عليكم، فالذى حذِرتم وقوّيتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون؛ وإن أنتم أحميتم مضر وربيعة من أهل هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهـؤلاء، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير.»

قال: أقول: «إنّ هذا الأمر دواؤه التسكين، فإذا سكن احتلجوا. فإن أنتم تابعتمونا فعلامة [540] خير، وتباشير رحمة، ودرك بثأر هذا الرجل، وعافية لهذه الأمة. وإن أبيتم إلّا مكاثرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شرّ، وذهاب هذا الثأر، وفناء هذه الأمة. فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم تكونون، ولا تتعرّضوا للبلاء ولا تتعرض له فيصرعكم ويصرعنا. إنّ هذا الأمر الذى أنتم فيه، أمر ليس يُقدّر، وليس كالأمور، ولا كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة الرجل.»

فقالوا: «إذا أحسنت وأصبت المقالة. فارجع، فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر.»

فرجع إلى عليّ، فأخبره الخبر، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كرهه من كرهه، ورضيه من رضيه. وأقبلت وفود البصرة نحو عليّ حين نزل بذى قار. فجاء وفد تميم وبكر قبل رجوع القعقاع لينظروا ما رأى إخوانهم من أهل الكوفة وعلى أىّ حال نهضوا [إليهم][2] وليعلمو[3]هم أنّ الذى عليه رأيهم الإصلاح، ولا يخطر قتالهم على بالهم.

فلما لقوا عشائرهم [541] من أهل الكوفة بالذى بعثهم فيه عشائرهم من أهل

١. مط: دخل. وضبطه الطبرى «رِجل» (٦: ٣١٥٧). وضبط فى الأصل «رَجل».

٢. تكملة من الطبرى (٦: ٣١٥٨).

٣. فى الأصل ومط: وليعلمهم. فصححنا حسب الطبرى.

البصرة، وقالوا لهم مثل مقالتهم، فأدخلوهم إلى عليّ، فأخبروه بخبرهم. فسأل عليّ جرير بن شرس عن طلحة والزبير، وعن نياتهما، فأخبره بدقيق أمرهما وجليله، وحتى تمثّل له [طلحة][١]:

ألا أبلغْ بني بكرٍ رسولاً فليس إلى بني كعبٍ رسولُ
سيُرجع ظلمُكم منكم عليكم طويلُ الساعدين لهُ فضولُ

فتمثّل عليّ عندها:

ألم تعلم أبا سمعان أنّا نردُّ الشيخ مثلكَ ذا الصُداعِ
ونُذهلُ عقلَهُ بالحربِ حتىٰ يقومَ، فيستجيبَ بغير[٢] داعِ
فدافعَ عن خُزاعةَ جمعُ بكرٍ[٣] وما بكَ يا سُراقةُ من دفاعِ

وتحدّث الناس بهذه الأبيات، وتداولوها، لأنّ طلحة كان يديم إنشاد البيتين الأوّلين.

ورجع القعقاع من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير بمثل رأيهم. فجمع عليّ الناس، ثم قام على الغرائر، فخطب، وذكر الجاهلية وشقاءها [542] والإسلام والسعادة، وإنعام الله على الأمة بالجماعة، وحضّ الناس على الألفة. ثم قال:

ـ «إنّ قوماً حسدوا هذه الأمة التي أفاء الله عليها ما أفاءه على الفضيلة، وأرادوا ردّ الأمور على أدبارها، والله مصيب أمره، وبالغ ما أراد. ألا وإنّي راحل

---

١. تكملة من ابن الأثير ٣: ٢٣٤.
٢. وفي الطبري: لغير.
٣. وضبط المصراع في الطبري أيضاً: فدافع عن خزاعة جمع بكر (٦: ٣١٥٨) وما في الأصل: «فدافِعَ.. جمعَ..».

غداً. فارتحلوا. ولا يرحلنّ أحد أعان على عثمان بشيء، في شيء من أمور الناس، وليُغن سفهاؤهم عنّي أنفسهم.»

ذكر السبب في نقض ما أشرف عليه القوم من الاصلاح

فاجتمع نفر منهم: علباء بن الهيثم، وعديّ بن حاتم، وشريح بن أوفى، والأشتر، وغيرهم من طبقتهم ممن سار إلى عثمان، أو رضي بسير من سار. وجاءهم ابن السوداء، وخالد بن ملجم، ومعهم المصريّون، فتشاوروا.

ذكر آراء هؤلاء، وما تقرّر عليه الرأى في ما اجتمعوا عليه، ودبّوا[1] له من الحيلة في نقض الصلح

فقال القوم: «هذا والله عليّ، وهو أعلم وأبصر بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان، وأقربهم إلى العمل بذلك، وهو يقول ما يقول، ولم ينفر إليه إلّا هم، والقليل من غيرهم. [543] فكيف به إذا شامّ القوم وشامّوه، ورأوا قلّتنا في كثرتهم. أنتم والله ترادون، وما أنتم بأنجى[2] من شيء.»

فقال الأشتر:

ـ «أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما. وأما عليّ فلم نعرف أمره حتى كان اليوم، ورأى الناس فينا واحد، وإن يصطلحوا مع عليّ فعلى دمائنا. فهلمّوا نتوثب على عليّ[3] فتعود فتنة يُرضى منا فيها بالسكوت.»

فقال عبدالله بن السوداء:

---

١. في مط: «ذبّوا» بالذال المعجمة.

٢. في مط: وماأنتم فتعود ما يحي! وفي الطبري أيضاً بأنجى (٦: ٣١٦٣). وفي الكامل: بالحقّ (٣: ٢٣٥).

٣. وفي الطبري (٦: ٣١٦٤) وفي الكامل أيضاً: «على عليّ فنلحقه بعثمان» وفي بعض الأصول: «على عليّ وطلحة ونلحقهما بعثمان» (٣: ٢٣٥).

ـ «بئس الرأى رأيت. أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفة بذى قار ألفان وخمسمائة. وهذا ابن الحنظليّة فى خمسة آلاف بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلاً فارق[١] على ظَلْعك.»

وقال علباء بن الهيثم:

ـ «إنصرفوا بنا ودعوهم، فإن قلّوا كان أقوى لعدوّهم عليهم، وإن كثروا كان أحرىٰ أن يصطلحوا عليكم، ارجعوا فتعلّقوا ببلد من البلدان، وامتنعوا من الناس.»

فقال ابن السوداء:

ـ «بئس ما رأيت، ودّ ـ والله ـ الناس أنكم على جديلة، ولم تكونوا مع قوم برءاء، ولو كان ذلك الذى تقول لتخطّفكم كلُّ شيء.»

فقال عدىّ بن حاتم:

ـ «والله ما رضيت، ولا كرهت. ولقد عجبت [544] من تردّد من تردّد عن قتله فى خوض الحديث. فأما إذا وقع ونزل من الناس بهذه المنزلة، فإنّ لنا عتاقاً من خيول، وسلاحاً محمولاً. فإن أقدمتم أقدمنا، وإن أمسكتم أمسكنا.»

فقال ابن السوداء: «أحسنت.»

وقال سالم بن ثعلبة:

ـ «من كان أراد بما أتى الدنيا، فإنّى لم أرد ذلك. والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى شيء[٢]، ولئن طال بقائى إذا أنا لاقيتهم لا يزدْ على جزر جزور[٣]. وأحلف بالله، إنكم لتفرقون السيف فرق قوم لا تصير أمورهم إلّا إلى السيف.»

فقال ابن السوداء: «قد قال قولاً.»

---

١. إرق (أو إرقأ، أو: إربع) على ظلعك: إنته عما لا تطيقه. أو: لا تجاوز حدّك فى وعيدك وأبصر نقصك وعجزك، واسكت على ما فيك من العيب.

٢. فى الطبرى: إلى بيتى. وفى حواشيه: إلى شيء (٦: ٣١٦٥).

٣. فى الطبرى: لا يزد على جزر جزور (نفس الصفحة). وفى الأصل: لا يردّ علىّ.

وقال شريح بن أوفىٰ:

ـ «أبرموا أموركم، ولا تؤخّروا أمراً ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجّلوا أمراً ينبغى لكم تأخيره. فإنّا عند الناس بشرّ المنازل. فلا أدرى ما الناس صانعون غداً إذا هم التقوا.»

وتكلّم عبدالله بن السوداء فقال:

ـ «يا قوم، إنّ عزّكم فى خُلطة الناس، فصانعوهم. وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال، ولا تفرّغوهم للنظر الطويل. فإنّ من أنتم معه لا يجد بدّاً من أن يمتنع ويشغل الله عليّاً وطلحة والزبير، ومن رأىٰ رأيهم، عما تكرهون. [545] فأبصروا الرأى وتفرّقوا عليه والناس لا يشعرون.»

وأصبح علىّ على ظَهر. فمضىٰ ومضى الناس حتى انتهى إلى عبدالقيس فنزل بهم والناس يتلاحقون به وقد قطعهم. ولما بلغ أهل البصرة نزول علىّ حيث نزل اجتمعوا إلى طلحة والزبير، وأشاروا عليهما أن يبعثا خيلاً فتُبيّتَ[1] عليّاً قبل أن يجتمع الناس إليه.

فنهى الزبير وقال:

ـ «نرجو الصلح، وقد رددنا وافدهم ـ يعنى القعقاع ـ على أمر، وأرجو أن يتمّ.»

فقام ضبرة بن شيمان إلى طلحة فقال:

ـ «يا طلحة! أيتهزّأ بنا هذا الرجل؟ إنّ الرأى فى الحرب خير من الشدّة.»

فقال:

ـ «يا ضبرة! إنّا وهم مسلمون، وهذا أمر حدث، ولم يكن قبل اليوم، ولسنا ننتظر نزول قرآن فيه، ولا فيه من رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ سنّة، وهو علىّ

---

١. فى الطبرى: فيمسّوا هذا الرجل ويصبّحوه قبل أن يوافى أصحابه (٦: ٣١٦٥).

ومن معه.»

فأمّا أصحاب عليّ فتحركوا. وقام[1] عليّ فقال:

ـ «إنّ الذى ندعو إليه من إقرار هؤلاء هو شرّ، وهو خير من شرّ منه وهو كامن، وقد كاد يبين لنا، وجاءت الأحكام من المسلمين بإيثار أعمّهما منفعة وأحوطهما.»

وأقبل [546] كعب بن سور، فقال:

ـ «ما تنتظرون يا قوم بعد تورّدكم أوائلهم؟ اقطعوا هذا من العنق.

فقالوا:

ـ «يا كعب! إنّ هذا أمر بيننا وبين إخواننا، وهو أمر ملتبس، وإنّ الشيء يحسن عندنا اليوم، ويقبح عند إخواننا. فإذا كان من الغد قبح عندنا وحسن عندهم، وإنّا لنحتجّ عليهم بالحجة، فلا يرونها حجة، ثم يحتجون بها على أمثالنا. ونحن نرجو الصلح إن أجابونا إليه، وإلّا فإنّ آخر الداء الكيّ.»

ذكر فتوى

لعليّ بن أبى طالب عليه السلام فى تلك الحال

وقام إلى عليّ ـ عليه السلام ـ جماعة من أهل الكوفة يسألونه عن إقدامهم على القوم، وسألوه: ما الذى يرى.

فقال عليّ: «الإصلاح وإطفاء النائرة. لعلّ الله يجمع شمل هذه الأمة بنا، ويضع حربهم. فقد أجابونى.»

قالوا: «فإن لم يجيبوا؟»

قال: «تركناهم ما تركونا.»

---

۱. فى الأصل: قاموا عليّ! فصححناه.

قالوا: «فإن لم يتركونا؟»
قال: «دفعناهم عن أنفسنا.»
وقام إليه أبو سلامة الدلآني[١] فقال:
ـ «أترى لهؤلاء القوم حجّة [547] في ما اجتمعوا له وطلبوه من هذا الدم؟»
قال: «نعم.»
قال: «فترى لك حجّة بتأخيرك ذلك؟»
قال: «نعم، إنّ الشيء إذا كان لا يدرك، فالحكم فيه أحوطه وأعمّه نفعاً.»
فقال: «ما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً؟»
قال: «إنّي لأرجو ألّا يقتل أحد منّا ومنهم تقيّ[٢] قلبه لله بما يصنع، إلّا دخل الجنة.[٣]»

عليّ يخطب سائلاً كفّ الألسن والأيدي

وقام عليّ فخطب وقال:
ـ «أيها الناس! كفّوا ألسنتكم عن هؤلاء وأيديكم، فإنهم إخوانكم، وإياكم أن تسبقونا. فإنّ المخصوم من خصم اليوم.»
ثم ارتحل على تعبئة، حتى إذا أطلّ على القوم بعث إليهم:
ـ «إن كنتم على ما فارقتم القعقاع بن عمرو، فكفّوا حتى ننزل وننظر في هذا الأمر.»

---

١. وفي مط: الدلاى (الدلامي؟)، وفي الطبري: الدألاني (٦: ٣١٦٧)، كما في الكامل (٣: ٢٣٧). وفي الأصل إهمال وقد أعجمنا النون بإمارة ما في الطبري.
٢. في الطبري: نقى قلبه (٦: ٣١٦٧).
٣. وأضاف الطبري هنا: وقام إليه مالك بن حبيب، فقال: ما أنت صانع إذا لقيت هؤلاء القوم؟ قال: قد بان لنا ولهم أنّ الإصلاح الكفّ عن هذا الأمر. فإن بايعونا فذلك. فإن أبوا وأبينا إلّا القتال، فصدع لا يلتئم. قال: فإن ابتلينا فما بال قتلانا؟ قال: من أراد الله عزّوجلّ نفعه ذلك وكان نجاءه (٦: ٣١٦٧).

فأقاموا ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال.

قال:

فكنّا نرسل إليهم وندعوهم. وبعث عليّ تلك العشيّة عبدالله بن عباس إلى طلحة والزبير. وبعثا هما من العشيّ محمد بن طلحة إلى عليّ وأن[١] يكلّم كل واحد صاحبه.

فأرسل عليّ إلى رؤساء أصحابه ما خلا أولئك الذين ساروا إلى عثمان، وأرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما [548] وباتوا على الصلح بليلة لم يبيتوا بمثلها سروراً بالعافية مما أشرفوا عليه. وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة باتوها قطّ. قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إمضاء ما كانوا همّوا به من إنشاب[٢] الحرب في السرّ، واستسرّوا به خوفاً من أن يفطن لهم. فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم. فانسلّوا انسلالاً وعليهم ظلمة. فخرج مضريّهم إلى مضريّهم، وربعيّهم إلى ربعيّهم، ويمانيّهم إلى يمانيّهم، فوضعوا فيهم السلاح، فتنادىٰ أهل البصرة، وثار كلّ قوم في وجوه أصحابهم الذين نهنهوهم.

وخرج طلحة والزبير، ووجوه الناس من مضر، وبعثا إلى الميمنة والميسرة فعبّوهما، وقالا:

ـ «ما هذا؟»

قالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلاً.

فقالا: «قد علمنا أنّ عليّاً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحلّ الحرمة، وأنه لن يطاوعنا.»

---

١. كذا في الطبري: وان يكلم.. (٦: ٣١٦٧).

٢. في الأصل: إنشاء. والتصحيح من الطبري (٦: ٣١٨٢).

ورجعا بأهل البصرة [وقصف أهل البصرة أولئك][(١)] حتى ردّوهم إلى عسكرهم. فسمع عليّ وأهل الكوفة الصوت. وقد كان ابن السوداء، والأشتر، وأصحابهما قد وضعوا رجلاً قريباً [549] من عليّ، ووصّوه بما يريدون. وقالوا:

ـ «إذا سمعت عليّاً يسأل عن الخبر، فتقدّمْ وقل كيت وكيت.»

فلما قال علي: «ما هذا؟» قال ذلك الرجل:

ـ «ما فجئنا إلّا وقوم منهم قد بيّتونا، فرددناهم من حيث جاؤوا، فوجدنا القوم على رجل فركبوا وثار الناس.»

وقال عليّ لصاحب ميمنته: «إيت الميمنة.» وقال لصاحب ميسرته: «إيت الميسرة.»

وقال: «فلقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدم ويستحلّا الحرمة، وأنهما لن يطاوعانا.»

والسبائية لا تفتر [إنشاباً][(٢)].

فنادىٰ عليّ: «يا أيها الناس كفّوا، فلا شيء!»

وكان يحبّ أن يبدأ لتكون الحجّة على القوم.

وخرج الأحنف بن قيس وبنو سعد مشمّرين قد بعثوا حرقوص بن زهير إلى عليّ، فقال:

ـ «يا عليّ، إنّ قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً، إنّك تقتل رجالهم وتسبى نساءهم.»

فقال: «ما مثلي يُخاف هذا منه. فهل أنت مغن عني قومك؟»

قال: «نعم. واختر مني واحداً من اثنين: إما أن آتيك، فأكون معك بنفسي، وإما أن أكفّ عنك عشرة آلاف سيف.»

---

١. تكملة من الطبري (٦: ٣١٨٢).

٢. تكملة من الطبري (٦: ٣١٨٣) وهي ساقطة من الأصل ومط.

قال: «بل اكفف عنّي عشرة آلاف سيف.»

فرجع، [550] ودعا قومه إلى القعود والكفّ، ففعلوا.

ما جرىٰ بين عليّ وطلحة والزبير من حديث

ثم إن الزبير خرج على فرس له، على سلاح، فقيل لعليّ:

ـ «هذا الزبير.»

قال: «أما إنه أحرى الرجلين إن ذكّر بالله أن يذكر.»

وخرج طلحة، فخرج إليهما عليّ، ودنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابّهما فقال عليّ:

ـ «لعمرى لقد أعددتما سلاحاً، وخيلاً، ورجالاً إن كنتما أعددتما عذراً عند الله فاتقيا الله، ولا تكونا ﴿كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً﴾ [١] ألم أكن أخاً لكما في دينكما تحرّمان دمي وأحرّم دمكما؟ فهل من حدث أحلّ لكما دمي؟»

قال طلحة: «ألّبت علىٰ عثمان.»

قال عليّ: ﴿يومئذ يوفّيهم الله دينهم الحقّ، ويعلمون أنّ الله هو الحقّ المبين﴾ [٢]. يا طلحة، تطلب بدم عثمان، فلعن الله أشدّنا كان عليه. يا زبير! أتذكر يوم مررت مع رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ في بني غنم، فنظر إليّ وضحك وضحكت إليه، فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه؛ فقال لك رسول الله: مه! إنّه ليس كذلك، ولتقاتلنّه وأنت له ظالم؟»

فقال: «اللّهم نعم. ولو ذكرت، ما سرت مسيري هذا. والله لا أقاتلك أبداً.» [551]

فانصرف عليّ، وحكى ذلك لأصحابه. ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها:

---

١. س ١٦ النحل: ٩٢.

٢. س ٢٤ النور: ٢٥.

ـ «ما كنت فى موطن مذ عقلت وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا.»

قالت: «ما تريد أن تصنع؟»

قال: «أريد أن أدعهم وأذهب.»

قال له ابنه عبدالله: «جمعتَ هذين الغارّين حتى إذا جرّد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب. أحسستَ رايات بن أبى طالب وعلمت أنها فتية أنجاد.»

فغضب الزبير حتى أرعد، ثم قال:

ـ «ويحك! إنّى قد حلفت ألّا أقاتله.»

قال: كفّر عن يمينك.

فدعا غلاماً له يقال له: مكحول، فأعتقه. فقال عبدالله بن سليمان التيميّ:

لم أرَ كـاليومِ أخـا إخـوانٍ   أعـجبَ مـن مكـفّرِ الأيـمانِ

بالعتق فى معصية الرحمانِ

وإنّما حكينا هذه الحكاية، لأنّ فيها تجربة تستفاد، وإن ذهب ذلك على قوم، فإنّا ننبّه عليه، وذلك أنّ المحنق ربما سكّن بالكلام الصحيح، والساكن ربما أحنق بالزور من الكلام، وذلك بحسب تأتّى من يريد ذلك، وإتيانه من وجهه. [552]

ما يُحفظ من كلام الأحنف فى الإعتزال وحضّ الناس عليه

إنّه لما رجع من عند عليّ لقيه هلال بن وكيع، وهو سيّد رهطه، فقال:

ـ «ما رأيك؟»

قال: «مكاتفة أمّ المؤمنين. أفتدعنا؟ وتعزل عنّا؟ وأنت سيّدنا؟»

قال: «إنّما أكون سيدكم غداً إذا قُتلتَ وبقيتُ.»

فقال هلال: «سبحان الله، تقول هذا وأنت شيخنا؟»

فقال: «أنا الشيخ المعصيّ وأنت الشابّ المطاع.»

ولما ابتدأ القتال قال عليّ لأصحابه:

ابتداء القتال

ـ «أيكم يعرض عليهم هذا المصحف ويدعوهم إلى ما فيه، فإن قطعت يده أخذه بيده الأخرى، فإن قطعت أخذه بأسنانه؟»

فقال فتىً شابّ: «أنا.»

فطاف على أصحابه يعرض ذلك عليهم، فلم يقبله إلّا ذاك الفتىٰ.

فقال له عليّ:

ـ «إعرض عليهم هذا وقل: هو بيننا وبينكم من أوّله إلى آخره. فالله الله في دمائنا ودمائكم.»

فحمل القوم على الفتىٰ وبيده المصحف، فقطعت يداه، فأخذه بأسنانه حتى قتل. فقال عليّ لأصحابه:

ـ «قد طاب لكم الضراب.»

فقاتلوهم، فالتحمت الحرب، واشتدّ القتال إلى العصر. ثم انهزم أصحاب الجمل وعائشة يومئذ في هودجها على الجمل الذي يقال له: [553] «عسكر». وانهزم الزبير نحو وادي السباع، وتشاغل الناس عنه، واتبعه قوم. فلما رأى الفرسانَ تتبعه، كرّ عليهم. فلما عرفوه رجعوا عنه، وتركوه. وكان عليّ وصّاهم ألّا يتبعوا مدبراً، ولا يجهزوا على جريح.

وأصاب طلحة سهم، فشكّ ركبته بصفحة الفرس، فامتلأ موزجه دماً وضعف. فانتهى إلى القعقاع في نفر وهو يقول:

ـ «إليّ عباد الله! الصبر الصبر.»

فقال له:

ـ «يا با محمد! إنك لجريح، وإنك عما تريد لعليل، فادخل الأبيات.»

فقال: «يا غلام! أدخلني، وأبغني مكاناً.»

فأدخل ومعه غلام ورجلان. واقتتل الناس بعده، وأقبل الناس في هزيمتهم. فلما انتهوا إلى الجمل، عادوا قلباً كما كانوا حيث التقوا؛ وعادوا في أمر جديد، ووقفت الميمنة والميسرة.

وقالت عائشة لكعب بن سور وهو آخذ خطام الجمل:

ـ «يا كعب: خلّ عن البعير، وتقدّم بكتاب الله، فادعهم إليه.»

ودفعتْ إليهم مصحفاً. فاستقبلهم بالمصحف.

وكانت السبائية أمام الناس يخافون أن يجرى الصلح. فاستقبلهم كعب بالمصحف، وعليّ يزعهم، ويأبون إلّا إقداماً. فرشقوا كعباً رشقاً [554] واحداً. فقتلوه، ورموا الهودج. فجعلت عائشة تنادي:

ـ «البقية، البقية يا نبيّ الله!»

فيأبون إلّا إقداماً.

أول ما أحدثته عائشة

فكان أول ما أحدثته عائشة حين رأت الناس يأبون إلّا قتالها أن قالت:

«أيها الناس! العنوا قتلة عثمان وأشياعهم.»

وأقبلت تدعو، وضجّ أهل البصرة بالدعاء. وسمع عليّ الدعاء، فقال:

ـ «ما هذه الضجّة؟»

قالوا: «عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان.»

فأقبل عليّ يدعو ويقول:

ـ «اللّهمّ العن قتلة عثمان وأشياعهم.»

وذمرت[١] عائشة الناس لما رأت أنّ الناس لا يريدون غيرها ولا يكفّون. فازدلفت مضر البصرة، فقصفت مضر الكوفة حتى زوحم علىّ. فكانت الحرب صبيحة هذا اليوم مع طلحة والزبير، فلما انهزم الزبير، وأصيب طلحة، وذلك بعد الظهر، صارت الحرب مع عائشة.

قال محمد بن الحنفية: دفع أبي إليّ اللواء، وقال:

ـ «احمل!»

فحملت حتى لم أر موضعاً لحملة ـ وقد كان زوحم علىّ.

فنخس علىّ قفا محمد، وقال: «تقدّم!»

وقال: فلم أجد متقدماً إلّا على سنان فقلت:

ـ «لا أجد متقدّماً.» [555]

فتناول الرمح من يدى متناول لا أدرى من هو. فنظرت، فإذا أبي بين يدىّ. و [اقتتلت][٢] المجنّبتان حين تزاحفتا قتالاً يشبه مافيه القلبان، وارتجز الفرسان، وكثر القتلىٰ وتنادى الكماة فى عسكر علىّ وعسكر عائشة، لما رأوا الصبر الشديد:

ـ «يا أيها الناس! طرّفوا إذا فرغ الصبر ونزع النصر.»

فجعلوا يتوخّون[٣] الأطراف: الأيدي والأرجل، فما رأيت وقعة قطّ قبلها ولا بعدها، ولا سُمع بها، أكثر يداً مقطوعة ورجلاً مقطوعة منها، لا يدرىٰ صاحبها. فكان الرجل من هؤلاء، وهؤلاء إذا أصيب بشيء من أطرافه استقتل [إلى أن يقتل][٤].

---

١. مط: وبرت.

٢. مط والأصل: وأقبلت. وما أثبتناه يؤيده الطبرى (٦: ٣١٩٣).

٣. فى الطبري: يتوجّون (٦: ٣١٩٤).

٤. فى الأصل: إلّا أن لا يقتل. وفى مط: إلى أن لا يقتل. وصححناه حسب الطبرى (٦: ٣١٩٥).

ونادت عائشة من هودجها بصوت عال فيه كسرة[١]:

ـ «إيه، لله أنتم. جالدوا جلاداً يتفادى منه، بخٍ بخٍ، سيوف أبطحية، وسيوف قرشية.»

ونادت بنو ضبّة: «ويهاً جمرة الجمرات.»

وأحدقوا بجملها حتى أسرع فيهم القتل ورقّوا. وكانت عائشة تقول:

ـ «مازال رأس الجمل معتدلاً حتى قُتلت بنو ضبّة حولي.»

وضربوا ضرباً ليس بالتقدير، حتى إذا كثر القتلىٰ وظهر فى العسكر التطريف كره بعضهم بعضاً، وارتدّت [556] المجنّبتان، فصارتا في القلب. ثم تلاقوا جميعاً بقلبيهم. فأخذ ابن يثربي برأس الجمل، وارتجز وادّعىٰ قتل عِلباء بن الهيثم، وزيد بن صوحان، وهند بن عمرو، فقال:

أنا لمن يُنكرني ابنُ يثربي قاتلُ عِلباء وهندِ الجملِ
وزيد صوحانٍ علىٰ دين عليٍّ

فناداه عمار: «لقد لُذتَ بحريز وما إليك من سبيل، فإن كنت صادقاً فاخرج من هذه الكتيبة إليّ.»

فترك الزمام، وبرز حتى كان بين صفّ عائشة وصفّ عليّ، وأقبل إليه عمار، وهو يومئذ ابن تسعين سنة وقد شدّ وسطه بحبل، وعليه فرو. فضربه ابن يثربي فنحا[٢] له دَرَقَتَه، فنشب السيف فيها، وأسفّ عمار لرجليه، فضربه فقطعما، فوقع على إسته، وحماه[٣] أصحابه فارتثّ[٤] بعد، فأتى به عليّ بن أبي طالب. فقال:

---

١. مط: كدرة.

٢. في الطبري: فنحي له درقته (٦: ٣١٩٩). والدرقة: الترس إذا كان من جلد. في رواية أخرى من الطبري: فاتقاه عمار بدرقته (٦: ٣١٩٦).

٣. في الطبري: وحمله أصحابه (٦: ٣١٩٧).

٤. حمل من المعركة رثيثاً أي جريحاً.

ـ «استبقنى يا أميرالمؤمنين.»

فقال: «بعد ثلاثة تضرب وجوههم بسيفك؟»

وأمر به، فضربت عنقه.

وتتابع الناس على زمام الجمل حتى قتل أربعون رجلاً يرتجزون ويأخذون [557] الخطام فيُقتلون.

فحدّث عبدالله بن الزبير قال:

أمسيت يوم الجمل وبى سبع وثلاثون جراحة من طعنة وضربة، وما رأيت مثل يوم الجمل قطّ. ماينهزم منّا أحد وما يأخذ بخطام الجمل أحد إلّا قتل. فأخذتُ بالخطام، فقالت عائشة:

ـ «من أنت؟»

قلت: «ابن الزبير.»

قالت: «واثكل أسماء.»

ومرّ بى الأشتر، فعرفته، وعانقته، وسقطنا جميعاً، وناديت:

ـ «أقتلونى ومالكاً.»

فجاء ناس منّا، فقاتلوا عنّا حتى تحاجزنا، وضاع منّى الخطام. فسمعت عليّاً وهو ينادى:

ـ «إعقروا الجمل، فإنّه إن عُقر تفرّقوا.»

فضربه رجل، فسقط، فما سمعت قطّ أشدّ من عجيج الجمل.

وفى رواية أبى بكر بن عيّاش عن علقمة أنه قال:

قلت للأشتر: «قد كنت كارهاً لقتل عثمان، فما أخرجك بالبصرة؟»

قال: «إنّ هؤلاء بايعوه، ثم نكثوا، وكان ابن الزبير هو الذى هزّ عائشة على

الخروج، فكنت أدعو الله أن يلقّينيه، فلقيني كفّة لكـفّة[١]. فـما رضـيت لشـدّة ساعدي أن قمت في الركاب، فضربته ضربة على رأسه فصرعته.»

قلت: «فهو القائل: اقتلوني ومالكاً؟»

قال: «لا. ما تركته وفي نفسي منه شيء. [558] ذاك عبدالرحمان بن عتّاب بن أسـيد، لقـيني، فـاختلفنا ضـربتين، فـصرعني وصـرعته، فـجعل يـقول: نـحن مصطرعون، أقتلوني ومالكاً، والناس لا يعلمون من مالك، فلو يعلمون لقتلوني.»

ثم قال أبو بكر بن عيّاش: «هذا كأنك شاهده.»[٢]

وتحدّث عوف بن أبي رجاء قال: رأيت رجلاً قد اصطلمت أُذنه فقلت:

ـ «أخلقة، أم شيء أصابك؟»

قال: «أحدّثك: بينا أنا امشي بين القتلى يوم الجمل، فإذا رجل يفحص برجله، وهو يقول:

لقد أوردَتْنا حومةَ الموتِ أُمُّنا ولم ننصرف إلّا ونحنُ رِواءُ[٣]

قال: قلت: «يا عبدالله قل: لا إله إلّا الله.»

قال: «أدن منّي، ولقّنّي، فإنّ في أذني وقراً.»

قال: فدنوت منه، فقال لي:

ـ «ممن أنت؟»

قلت: «رجل من أهل الكوفة.»

قال:

---

١. مط كفة كفة. وفي الطبري أيضاً: كفة لكفة (٦: ٣٢٠٠).

٢. في الطبري: «هذا كتابك شاهده!» (٦: ٣٢٠٠). وفي مط: مشاهده.

٣. كذا في مط والطبري. ولكن الأصل يشبه أن يكون «رداء».

فوثب عليَّ، واصطلم أذني كما ترىٰ وقال:
ـ «إذا رجعت إلى أمّك، فأخبرها أن عمير بن الأهلب الضبّى فعل بك هذا.»
وتمام أبيات عمير بن الأهلب:

أطعنا بنى تيم بن مُرّةَ شَقوةً وهل تيمٌ إلّا أعبدٌ وإماءُ
لقد كان عن نصر ابن ضبّةَ أمّةُ وشيعتَها مندوحةٌ وغَناءُ [559]

وروى عن الصعب بن عطيّة قال: كان منّا رجل يدعىٰ الحارث، قال يومئذ:
ـ «يا آل مضر، علامَ نقتل بعضنا بعضاً؟»
فنادوا: «لا ندري، إلّا أنّا إلى قضاء.»
وما يكفّون.

وقال القعقاع بعد ذلك: ما رأيت شيئاً أشبه بشيء من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفّين. لقد رأيتنا ندافعهم بأسنّتنا، ونتكئ على أزجّتنا[1]، وهم مثل ذلك، حتى لو أنّ الرجال مشت عليها لاستقلّت بهم.

وقال عبدالله بن سنان الكاهلي: لما كان يوم الجمل ترامينا بالنبل حتى [فنيت][2] وتطاعنّا بالرماح حتى تشبّكت في صدورنا وصدورهم، حتى لو سيّرت عليها الخيل لسارت. ثم قال عليّ:
ـ «السيوف يا أبناء المهاجرين.»

قال الشيخ: فما دخلت دار الوليد بالبصرة وسمعت صوت القصّارين يضربون إلّا ذكرت ذلك اليوم، وما شبّهت هودج عائشة إلّا بالقنفذ.

---

١. جمع مفرده الزجّ: الحديدة التى فى أسفل الرمح، ويقابله السنان، أو: نصل السهم. أو: الرمح من باب تسمية الكل باسم الجزء.
٢. كذا فى مط. والأصل غير واضح.

حمل الهودج من بين القتلىٰ

ثم أمر عليّ عليه السلام، بحمل الهودج من بين القتلى. وقد كان القعقاع وزفر بن الحارث أنزلاه عن ظهر البعير، فوضعاه إلى جنب البعير. فأقبل محمد بن أبى بكر ومعه عمّار حتى احتملاه، وأدخل محمد يده.

فقالت: [560] «من أنت، ويلك؟»

قال: «أنا أخوكِ محمد.»

قالت: «بل مذمّم!»

قال: «يا أخيّة! هل أصابكِ شيء؟»

قالت: «ما أنت من ذاك؟»

قال: «فمن إذاً الضُّلّال؟»

قالت: «بل الهداة.»

وانتهى إليها عليّ فقال: «كيف أنتِ أمّه؟»

قالت: «بخير.»

قال: «يغفر الله لكِ.»

قالت: «ولك.»

وأما الزبير فإنه تبعه ابن جرموز فقتله. وأما الأحنف فقصد عليّاً ومعه ابن جرموز.

فقال عليّ للأحنف: «تربّصت.»

فقال: «ما كنت أرانى إلّا قد أحسنت، وبأمرك كان أميرالمؤمنين، فارفق، فإنّ طريقك الذى سلكت بعيد، وأنت غداً أحوج منك أمس، فاعرف إحسانى،

واستصف مودّتي، ولا تقولنّ مثل هذا. فإنّي لم أزل لك ناصحاً.[١]»

وحملت عائشة إلى دار عبدالله بن خلف الخزاعي. وكان عبدالله هذا قتل يوم الجمعة مع عائشة، وقتل عثمان أخوه مع عليّ. وأما الجرحى فإنهم انسلّوا في جوف الليل، ودخلوا البصرة من كان يطيق الإنبعاث.

وسألت عائشة عن عدة ممن كانوا معها وممن كانوا عليها. فكلّما نعي واحد منهم قالت: «رحمه الله.» فأما عليّ فصلّى على قتلى هؤلاء، وجمع الأسلاب إلى [561] المسجد بالبصرة، ونادىٰ: «من عرف شيئاً فليأخذه، إلّا سلاحاً كان في الخزائن عليها سمة السلطان.»

وصلّى عليّ في المسجد، ثم دخل البصرة، فأتاه الناس. ثم راح إلى عائشة على بغلته، وهي في دار عبدالله بن خلف، وهي أعظم دار بالبصرة. فوجدوا النساء يبكين على عبدالله وعثمان ابني خلف، وصفيّة بنت الحارث مختمرة تبكي، فلمّا رأته قالت:

ـ «يا عليّ، يا قاتل الأحبّة، يا مفرّق الجمع، أيتم الله منك بنيك كما أيتمت ولد عبدالله.»

فلم يردّ عليها شيئاً، ولم يزل على حاله، حتى دخل على عائشة. فسلّم عليها، وقعد عندها. ثم قال:

ـ «جبهتنا صفيّة. أما إنّي لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم.»

فلما خرج عليّ أقبلت عليه، فأعادت عليه الكلام. فكفّ بغلته ثم قال: «لهممت ـ وأشار إلى باب من أبواب الدار ـ أن أفتح هذا الباب وأقتل من فيه، ثم هذا، وأقتل من فيه.»

وكان ناس من الجرحىٰ لجأوا إلى عائشة. فأُخبر عليّ بمكانهم فتغافل عنهم.

---

١. أنظر الطبري ٦: ٣٢١٨.

فسكتت صفيّة، وخرج عليّ.

فقال له رجل من الأزد: «ما تُفلتنا هذه المرأة.»

فغضب وقال: «مه! لا تهتكنّ ستراً، [562] ولا تدخلنّ داراً، ولا تهيجنّ امرأة بأذىً وإن شتمن أعراضكم، وسفّهن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهنّ ضعاف. ولقد كنّا نؤمر بالكفّ عنهنّ وهنّ مشركات، وإنّ الرجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضرب، فيعيّر به عقبه من بعده. فلا يبلغنّي عن أحد عرض لامرأة. فأنكّل به شرار الناس.»(١)

ومضى عليّ، فلحق به رجل فقال: «يا أميرالمؤمنين، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمضّ لك شتيمة من صفيّة.»

قال: «ويحك، لعلّها عائشة!»

قال: «نعم.»

فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب. فأقبل بمن كان عليه. فأحالوا على رجلين.

فقال: «أضرب أعناقهما..»

ثم قال: «بل أُنهكهما عقوبة..»

ثم قال: «لا، بل أضربهما مائة أُخرجهما من ثيابهما.»

ثم بايع أهل البصرة حتى الجرحىٰ والمستأمنة. فلما فرغ من بيعتهم نظر في بيت المال، فاذا فيه ستمائة ألف. فقسمها على من شهد معه. فأصاب كلّ رجل منهم خمسمائة.

فقال لهم: «لكم إن أظفركم الله بالشام، مثلها إلى أعطياتكم.»

فخاض في ذلك السبائية وطعنوا على عليّ من وراء وراء.

---

١. أنظر الطبري ٦: ٣٢٢٥.

سيرة عليّ في من قاتل يوم الجمل

وكان من سيرة عليّ ألّا يقتل مدبراً، ولا يذفّف على جريح، ولا يكشف ستراً، [563] ولا يأخذ مالاً.

فقال قوم يومئذ:

ـ «ما يُحلّ لنا دماءهم، ويُحرّم علينا أموالهم؟»

فقال عليّ: «القوم أمثالكم. من صفح عنّا فهو منّا ونحن منه؛ ومن لجّ حتّى يصاب فقتاله منّي على الصدر والنحر، وإنّ لكم في خمسه لغنىً.»

فيومئذ تكلّمت الخوارج.

وكتب كتاب البشارة إلى عامله بالمدينة. وكان زياد بن أبي سفيان ممّن اعتزل. فلمّا انجلت الحرب، ذكره عليّ، واستبطأه. فقال ابن أخيه عبدالرحمان بن أبي بكرة، وكان ورد مستأمناً:

ـ «هو مستأمن يا أميرالمؤمنين.»

فقال: «إمشِ أمامي، فاهدني إليه.»

ففعل. فلمّا دخل عليه قال: «تقاعدتَ وتربّصتَ.»

فاعتذر زياد. فقبل عذره، واستشاره في من يولّيه البصرة، وأراده عليها.

فقال: «يا أميرالمؤمنين، رجل من أهل بيتك يسكن إليه الناس، فإنّه أجدر أن يطمئنّوا إليه. وسأكفيه وأُشير عليه.»

فافترقا على ابن عبّاس، وولّى زياداً الخراج وبيت المال.

السبائيّة ترتحل بغير إذن عليّ

وأعجلت السبائية عليّاً عن المقام، وارتحلوا بغير إذنه. فارتحل على آثارهم ليقطع عنهم أمراً إن كانوا أرادوه. وقد كان له مُقام لولاهم. [564]

وكان عدّة القتلىٰ يوم الجمل عشرة آلاف من الفريقين.

وتحدّث الناس:

إنّ أهل المدينة علموا بيوم الجمل يوم الخميس قبل أن تغرب الشمس، وفيه كان القتال، وذلك من نسر مرّ بماء حول المدينة معه شيء متعلّق، فتأمّله الناس، فوقع، فإذا كفّ فيها خاتم نقشه: «عبدالرحمان بن عتّاب». ثم جعل من بين مكة والمدينة ممن قرب من البصرة أو بعد، قد علموا بالوقعة مما تنقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام.

تجهيز عليّ عائشة

وجهّز عليّ عايشة لغرّة رجب سنة ستّ وثلاثين بكلّ شيء ينبغي لها، وأخرج معها كلّ من نجا ممن خرج معها إلّا من أحبّ المقام. واختار من نساء البصرة المعروفات أربعين امرأة، وأمر أخاها محمداً بالخروج معها، وخرج في تشييعها أميالاً، وسرّح بنيه معها يوماً.

ما جرى بين معاوية وقيس

وكان عليّ بن أبي طالب ولّىٰ قيس بن سعد بن عبادة مصر لما قتل عثمان، فسار إليها، وبايع أهلها لعليّ بن أبي طالب، وداری الناس. فاستجاب له أهل مصر إلّا أهل قرية يقال لها: «خَرِنبا[1]»، فإنّ أهلها أعظموا قتل عثمان، وكانوا نحو عشرة آلاف رجل من الوجوه الفرسان [565] فكره قيس أن يهيّجهم، فراسلهم قيس وراسلوه يقولون:

ـ «إنّا لا نقاتلك، فابعث عمّالك، فالأرض أرضك، ولكن دعنا على حالنا حتى

١. مط: حرنبا. وفي الطبري: خربتا (٦: ٣٢٣٨).

ننظر إلى ما يصير أمر الناس.»

فأمسك عنهم، وأرسل إليهم عمّاله، فجباهم، ثم توثّب عليه قوم بمصر، فداراهم، وكان قيس ذا حزم ورأى، فجبى الخراج لا ينازعه أحد.

وخرج أميرالمؤمنين إلى أهل الجمل وهو على مصر، ورجع إلى أرض الكوفة من البصرة وهو بمكانه. فكان أثقل خلق الله على معاوية لقربه من الشام مخافة أن يُقبل إليه علىّ فى أهل العراق ويقبل إليه قيس فى أهل مصر فيقع معاوية بينهما.

فكتب إليه معاوية وعلىّ بن أبى طالب بالكوفة يومئذ، يعظّم عليه قتل عثمان، ويذكر له أنّ صاحبه أغرى به الناس، وحملهم على قتله، ويحمل قيساً على متابعته، ويضمن له سلطان العراقين إذا ظهر، ما بقى[1]، ويشترط له سلطان الحجاز يولّيه من شاء من أهله، ويقول له بعد ذلك:

ـ «وسلنى غير هذا مما تحبّ، فإنّك لا تسألنى شيئاً إلّا أجبتك إليه.»

فأجابه قيس بالإعتذار من قتل عثمان، وأنّه لم يشهده [566] ولا صاحبه أميرالمؤمنين، ولا رضيه، واستمهله مما عرض عليه من متابعته، وقال:

ـ «لى فيه نظر ورأى.»

فلما نظر فى كتابه معاوية وقرأه لم يره إلّا مباعداً[2]، ولم يأمن أن يكون مكائداً، فكتب كتاباً آخر يقول له:

ـ «لم أرَك تدنو فأعدّك سلماً، ولم أرَك تباعد فأعدّك حرباً، وليس مثلى من يُصانع بالخداع[3] ومعى أعنّة الخيل، وعدد الرجال.»

فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لا يقبل منه المدافعة[4]، أظهر له ذات نفسه

---

١. فى كتاب معاوية: «... ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت...» (الطبرى ٦: ٣٢٣٨ ـ ٣٢٣٩).

٢. فى الطبرى: مقارباً مباعداً (٦: ٣٢٤٠).

٣. فى الطبرى: من يصانع المخادع (نفس الصفحة).

٤. فى الطبرى: المدافعة والمماطلة.

وكتب إليه:

ـ «العجب من اغترارك بي وطمعك فيَّ واستسقاطك رأيي، تسومني الخروج من طاعة أولي الناس بالإمارة، وأقولهم بالحقّ، وأقربهم إلى الرسول، وأهداهم سبيلاً، وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم بالزور، وأضلّهم سبيلاً، وأبعدهم من الله ورسوله وسبيله، ولد ضالّين مضلّين، طاغوت من طواغيت إبليس، فأما قولك: إنّي مالئ عليك[١] خيلاً ورجلاً، فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهمّ إليك، إنّك لذو جَدّ والسلام.» [567]

فلما أتي معاوية كتاب قيس بن سعد هذا. يئس منه، وثقل عليه مكانه، وأخذ في طريق الحيلة عليه، والمكيدة له.

ذكر مكيدة معاوية لقيس وما تمّ له عليه

فأخذ معاوية يكيد قيساً من قبل عليّ، فيظهر مرة كتاباً يفتعله من قيس إليه بأنه: منكر لقتل عثمان، تائب إلى الله منه، وأنّ هواه وميله معه، في أشياء تشبه هذا الكلام، ومرة يظهر رسولاً يزعم: أنّه من قبله ويلقّنه وما يقوّي به قلوب شيعته من أهل الشام؛ ومرة يقول لثقاته: لا تسبّوا قيس بن سعد، فإنّه لنا شيعة[٢] تأتينا نصيحته سرّاً، ألا ترون ما يفعل بإخوانكم من أهل حزبنا يُجرى عليهم أرزاقهم، ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم؟

فسمع جواسيس أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب وعيونه ذلك، فكتبوا إليه به. ولم يزل معاوية بأمثال هذا المكائد حتى اتهم عليّ قيساً، وجمع ثقاته، وقال لهم ما كتب إليه من أمر قيس، فقالوا:

ـ «يا أميرالمؤمنين [568] ما يريبك إلى ما لا يريبك[٣]. إعزل قيساً، وابعث

---

١. عليك مصر... (الطبري ٦: ٣٢٤١).

٢. كذا في مط.

٣. سقط من مط: «إلى ما لا يريبك».

بثقتك مكانه.»

فقال عليّ: «إنّي والله ما أصدّق هذا على قيس.»

فقال عبدالله بن جعفر: «إعزله يا أميرالمؤمنين، فوالله، لئن كان هذا حقّاً لا يعتزل لك.»

فبينا هم كذلك إذ جاء كتاب من قيس بن سعد يخبره:

ـ «إنّ رجالاً قد سألوني أن أكفّ عنهم وأدعهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويروا، فرأيت أن أكفّ[١] عنهم، وألّا أتعجّل حربهم، فلعلّ الله يعطف بقلوبهم[٢].»

فقال عبدالله بن جعفر: «يا أميرالمؤمنين، ما أخوفني أن يكون هذا ممالأة منه لهم. فمره بقتالهم.»

فكتب إليه عليّ:

ـ «أما بعد، فسر إلى القوم الذين ذكرت، فإن دخلوا في ما دخل فيه المسلمون، وإلّا فناجزهم، والسلام.»

فلما أتى قيس بن سعد الكتاب، لم يتمالك أن كتب:

ـ «أما بعد، يا أميرالمؤمنين، فقد عجبت لأمرك بقتال قوم كافّين عنك مفرّغيك لقتال عدوّك، وإنك متي حاربتهم ساعدوا عليك عدوّك. فأطعني يا أميرالمؤمنين، واكفف عنهم، فإنّ الرأى تركهم.»

فلما أتى عليّاً كتاب قيس قرأه على أصحابه. فقال عبدالله بن جعفر:

ـ «ابعث محمد بن أبي بكر [569] على مصر يكفك، فقد بلغني عن قيس هنات وأقوال.»[٣]

يعني ما كان يشيعه معاوية عنه.

فكتب عليّ عهد محمد بن أبي بكر على مصر. فلما قدم محمد مصر، خرج

---

١. وفي الأصل: «أن أكفف»! وفي مط: «أن أكفّهم».

٢. تجد نص الكتاب عند الطبري (٦: ٣٢٤٤). ٣. أنظر نفس المصدر.

قيس، فلحق بالمدينة. فأخافه مروان والأسود بن البختری حتی إذا خاف أن يقتل، ركب راحلته وطمر[١] إلى عليٍّ. وبلغ ذلك معاوية، فكتب إلى مروان والأسود يتغيّظ عليهما ويقول:

ـ «أمددتما عليّاً بقيس بن سعد ورأيه ومكانته، والله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لی من إخراجكما قيس بن سعد إلى عليّ.»

ولما قدم قيس على عليّ وباثّه، ثم جاءهم قتل محمد بن أبی بكر، عرف أنّ قيس بن سعد كان يداری أموراً عظاماً من المكاره، وأنّ من كان يحمله على عزل قيس لم يكن ينصح له. فأطاع عليّ قيس بن سعد بعد ذلك فی الأمر[٢] كلّه.

ابتداء وقعة صفّين

قميص عثمان وأصابع نائلة

وكان أهل الشام قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان الذي قتل فيه مخضّباً بدمه، وبأصابع زوجته «نائلة»، مقطوعة البراجم[٣]: إصبعان منها مع شیء من الكفّ، وإصبعان مقطوعتان من أصولهما، ونصف [570] الإبهام. فكان معاوية يضع القميص على المنبر، ويعلّق منه الأصابع، ويشنّع به، ويكاتب الأجناد. فثاب إليه الناس وبكوا سنة والقميص بتلك الحال. وآلیٰ رجال من أهل الشام ألّا يأتوا النساء، ولا يمسّهم الماء للغسل إلّا من الإحتلام، ولا يناموا على الفرش، حتى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض[٤] دونهم بشیء، أو تفنیٰ أرواحهم.

---

١. فی مط: ظهر. وفی الطبری: ظهر، طمر، وتصحيفات شتی (٦: ٣٢٤٦). طمر: وثب. ظهر: سار فی الظهيرة.

٢. كذا فی مط. وفی الطبری: «فی الأمر» (نفس الصفحة).

٣. البراجم: جمع مفرده البرجمة: مفاصل الأصابع أو العظام الصغار فی اليد والرجل.

٤. مط: يعرض.

خروج عليّ بن أبي طالب إلى صفّين

وبلغ عليّاً خبر معاوية وما يصنعه، فبعث إليه برسل، وخرج من الكوفة، فعسكر بالنخيلة، وقدم عليه عبدالله بن عباس، بمن نهض معه من البصرة، وتهيّأ منها إلى صفّين، واستشار الناس. فأشار عليه قوم أن يبعث الجنود ويقيم، وأشار آخرون بالمسير، فأبىٰ إلّا المباشرة. فجهّز الناس.

وبلغ الخبر معاوية، فدعا عمرو بن العاص واستشاره.

فقال: «إذا بلغك أنه يسير فسر بنفسك ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك.»

قال معاوية: «فجهّز الناس.»

فخرج عمرو إلى الناس، وحضّضهم وضعّف عليّاً وأصحابه وقال:

ـ «إنّ أهل العراق قد فرّقوا جمعهم، وأوهنوا شوكتهم [571] وقطعوا حدّهم. ثمّ إنّ أهل البصرة مخالفون لعليّ وقد قتلهم، ووترهم، وتفانت صناديدهم يوم الجمل، وإنما سار عليّ في شرذمة قليلة، منهم من قتل خليفتكم، فالله في حقّكم أن تضيّعوه، وفي دمكم أن تبطلوه.»

وبعث عليّ بن أبي طالب زياد بن النضر طليعة في ثمانية آلاف و [بعث معه][١] شريح بن هانئ، ووجّه من المدائن معقل بن قيس في ثلاثة آلاف، وأمره أن يأخذ على الموصل حتى يوافيه، وسار بنفسه حتى انتهى إلى الرقّة، وقال لأهلها:

ـ «اجسروا لي جسراً حتى أعبر من هذا المكان إلى الشام.»

فأبوا. وكانوا ضمّوا إليهم السفن. فنهض عليّ من عندهم ليعبر من جسر منبج، وخلّف عليهم الأشتر، ورحل ليمضي بالناس ويعبر بهم.

---

١. تكملة من الطبري (٦: ٣٢٥٩).

فنادى الأشتر: «يا أهل هذا الحصن، إليَّ، إنّي أقسم بالله، لئن مضىٰ أميرالمؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم جسراً حتى يعبر، لأجرّدنّ فيكم السيف، ثم لأقتلنّ الرجال، وأخربنّ الديار، ولأنهبنّ الأموال.»

فلقي بعضهم بعضاً، فقالوا: «هو الأشتر، ويفي بما حلف عليه، ويأتي بما هو شرّ منه.»

فنادوه: «نعم، إنّا ناصبون لكم جسراً، فأقبلوا.»

فجاء عليّ، فنصبوا له الجسر، فعبر عليّ بالأثقال [572] والرجال. ثمّ أمر عليّ الأشتر، فوقف في ثلاثة آلاف فارس حتى لم يبق من الناس أحد إلّا عبر، ثم عبر آخر الناس رجلاً.

فأما زياد بن النضر وشريح بن هانئ، فسارا أمام عليّ ـ كما ذكرنا ـ من الكوفة، آخذين على شاطئ الفرات من قبل البرّ مما يلى الكوفة، حتى بلغا عانات، فبلغهما [أخذُ عليٍّ] على طريق الجزيرة[1]، وإنّ معاوية قد أقبل من دمشق في جنود أهل الشام، فقالا:

ـ «والله ما هذا لنا برأى: أن نسير وبيننا وبين المسلمين وأميرالمؤمنين هذا البحر، ومالنا خير فى أن نلقىٰ جنود الشام بقلّة من معنا منقطعين من المدد.

فذهبوا ليعبروا من عانات، فمنعهم أهل عانات، وحبسوا عنهم السفن. فأقبلوا راجعين حتى عبروا من هيت[2]، ثمّ لحقوا عليّاً، فقال عليه السلام:

ـ مقدّمتى تأتينى من ورائى!»

فتقدّم إليه زياد وشريح، وأخبراه بما رأيا. فقال: «سُدّدتما.»

---

١. في الأصل ومط: «فبلغهما عليّ آخذاً على طريق الجزيرة» وهي مضطربة، فأثبتناها كما في الطبرى (٦: ٣٢٥٩).

٢. هناك ثلاثة مواضع مسماة بـ«هيت»: الأول: بلدة على الفرات من نواحي بغداد. والثاني: دحل تحت عارض جبل باليمامة. والثالث: من قرى حوران من ناحية اللوى من أعمال دمشق (يا).

ثم مضىٰ. فلما عبر الفرات قدّمهما أمامه. وأرسل معاوية أبا الأعور السُّلَمى فى جند عظيم من أهل الشام، فأرسلا إلى علىّ:

ـ «إنّا قد لقينا أبا الأعور السُّلَمى فى جمع من أهل الشام ودعوناهم، فلم يجبنا منهم أحد، فمرنا بأمرك.»

وكان علىّ أمرهما ألّا يبدءا بقتال حتى يدعوا إلى الحقّ، ويكون مبدأ القتال من غيرهما. [573] فأرسل علىّ عليه السلام الأشتر، فقال:

ـ «يا مال، إنّ زياداً وشريحاً أرسلا إلىّ أنهما لقيا أبا الأعور السلمى فى جمع من أهل الشام، وأخبرنى الرسول أنهم متواقفون، فالنجا إلى أصحابك النجا. فإذا قدمت عليهم فأنت عليهم، وإياك أن تبدأهم، ولا يجرمنّك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم مرة بعد مرة، ولا تدن منهم دنوّ من يريد أن يُنشب الحرب، ولا تباعد منهم بُعد من يهاب الناس، حتى أُقدم عليك، فإنّى حثيث[1] السير فى أثرك إن شاء الله.»

وكتب إلى زياد وشريح بالسمع له والطاعة. فخرج الأشتر، والتقىٰ مع القوم، وكفّ عن القتال إلى أن حمل أبو الأعور. فثبتوا له. ثم انصرف أهل الشام فى تلك الليلة لما أدركهم المساء[2]، وأقبل من الغد، وجاء الأشتر من المكان الذى كان فيه، ولم يزل يزحف حتى وقف فى المكان الذى كان فيه بالأمس أبو الأعور.

فقال الأشتر لسنان بن مالك:

ـ «انطلق إلى أبى الأعور، فادعه إلى المبارزة.»

فقال: «إلى مبارزتى، أو إلى مبارزتك؟»

فقال الأشتر: «لو أمرتك بمبارزته فعلتَ؟»

قال: «نعم، والله لو أمرتني أن أعترض صفّهم بسيفى، ما رجعت حتى أضرب

---

١. مط: خشيت!   ٢. مط: الماء!

فيهم بسيفي.»

فقال له الأشتر: «يا ابن أخي، أطال الله بقاءك، [574] قد ـ والله ـ ازددت فيك رغبة. لا، ما أمرتك بمبارزته، وإنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي. إنّه لا يبرز إلّا لذوي الأسنان والكفاءة والشرف، وأنت ـ ولربّك الحمد ـ من أهل الشرف والكفاءة، غير أنك في حدث السنّ. وليس [هو] بمبارزٍ الأحداث، ولكن ادعه إلى مبارزتي.»

فأتاه ونادىٰ: «آمنوني، فإني رسول.»

فأومن حتى جاء إلى أبي الأعور.

قال: فدنوت منه وقلت «إنّ الأشتر يدعوك إلى المبارزة.»

قال: فسكت عنّي طويلاً ثم قال: «إنّ خفّة الأشتر، وسوء رأيه حمله على إجلاء عمّال عثمان بن عفّان من العراق، ومن خفّة الأشتر أن سار إلى بن عفّان في داره حتى قتله في من قتله، فأصبح متبعاً[1] بدمه. ألا، لا حاجة لي في مبارزته.»

قال: قلت له: «إنّك قد تكلّمت، فاسمع منّي أجبك.»

قال: «لا حاجة لي في الإستماع منك ولا في جوابك، اذهب عنّي.»

وصاح بي أصحابه، فانصرفت عنه، ولو سمع إليّ لأجبته بحجّة صاحبي. فرجعت إلى الأشتر، فأخبرته أنه قد أبى المبارزة. فقال:

ـ «لنفسه نظر.»

القتال على الماء

وأقمنا متحاجزين يوماً ونتحارس ليلتنا. فلما أصبحنا نظرنا فإذا القوم قد

---

١. أهملت الثانية والثالثة من الكلمة في الأصل، وهي في مط: «متبعا» والضبط في الطبري: «متّبعاً».

انصرفوا من تحت ليلتهم، ويصبّحنا عليّ غدوة. فقدّم الأشتر في من كان معه في [575] تلك المقدمة. وجاء عليّ في أثره حتى لحق بالأشتر وانتهى إلى معاوية.

قال: فلمّا انتهينا إلى معاوية وجدناه قد عسكر في موضع سهل أفيح، قد اختاره قبل قدومنا، إلى جانب شريعة الفرات، ليس في ذلك الصقع كلّه شريعة غيرها، وجعلها في حيّزه، وبعث عليها بأبي الأعور يمنعها ويحميها.

قال: فارتفعنا على الفرات رجاء أن نجد شريعة غيرها نستغني بها عن شريعتهم، فلم نجدها.

قال: فأتينا عليّاً، فأخبرناه بعطش الناس، وقال له الأشتر:

ـ «إنّ القوم قد سبقوك إلى الشريعة وإلى سهولة المنزل[1]، فإن رأيت سرنا حتّى نجوزهم إلى القرية التي خرجوا منها، فننزل في منزلهم، فإنهم يشخصون في إثرنا، فإذا لحقونا نزلنا فكنّا [نحن][2] وهم على السواء.»

فكره ذلك عليّ وقال: «ليس كل الناس يقوىٰ على المسير.»

ونزل بهم، فقال عليّ: «قاتلوهم على الماء.»

وبعث إلى معاوية برسول يقول:

ـ «إنّا سرنا إليك، ونحن رأينا الكفّ، إلى أن تنظر لنفسك، وننظر، وامتنعنا من قتالك، فبدأتنا، وهذا الماء تمنعنا منه، فخلّ بين الناس وبين الشريعة حتى ننظر[3]، وإن كان الأعجب إليك أن نترك ما جئنا له، ونترك الناس يقتتلون على الماء، حتى [576] يكون الغالب هو الشارب.»

فقال معاوية لأصحابه: «ما ترون؟»

فأما أكثر الناس قال: «ولا نعمى عين، نمنعهم الماء كما منعوه عثمان؛ فإن رجعوا كان ذلك فلّاً لهم.»

---

١. في الطبري: إلى سهولة الأرض وسعة المنزل (٦: ٣٢٦٤).

٢. تكملة من الطبري (٦: ٣٢٦٤).

٣. مط: حتى تنظروا فان كان..

فقال عمرو: «خلّ بينهم وبين الماء، فإنّ القوم لن يعطشوا [وأنت ريّان][١] ولكن بغير الماء، فانظر في ما بينك وبينهم.»

فارتفع الصياح من كل جانب:

ـ «إمنعوهم الماء، منعهم الله يوم القيامة.»

وكان الرسول صعصعة بن صوحان، فقال صعصعة:

ـ «إنما يمنعه الله يوم القيامة الكفرة، والفسقة شربة الخمر: ضربكم من الناس.»

فتوثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه.

فقال معاوية: «كفّوا عن الرجل فإنه رسول.»

قال صعصعة: «فخرجت من عنده ومن رأيه منع الماء. فما انتهيت إلى عليّ حتى رأيت الخيل تسرّب إلى أبي الأعور ليكفّنا عن الماء. فأبرز [نا][٢] عليّ إليهم وقال:

ـ «قاتلوهم على الماء.»

فارتمينا، ثم اطّعنّا، ثم تجالدنا بالسيوف، إلى أن انهزموا، وصار الماء في أيدينا.

قال: فقلنا: «لا والله، لا نسقيهموه بعد أن غلبنا عليه بالسيف.»

فأرسل إلينا عليّ أن: «خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخلّوا عنهم، فإنّ الله قد نصركم عليهم ببغيهم وظلمهم.»

ثم أقبل عليّ يأمر [577] ذا الشرف من الناس، فيخرج ومعه جماعة، ويخرج معاوية إليه مثله، فيقتتلان في خيلهما، ثم ينصرفان، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجميع [أهل][٣] العراق أهل الشام لما يتخوّفون أن يكون في ذلك من

---

١. تكملة من الطبري.
٢. تكملة من الطبري (٦: ٣٢٦٤).
٣. تكملة عن مط.

الإستيصال والهلاك، إلى أن [تقضّى شهر ذى][١] الحجة.

فلما دخل المحرّم توادع علىّ ومعاوية إلى انقضائه طمعاً فى الصلح، وتردّدت الرسل، وطال الكلام بينهما، فما استقام بينهما الصلح. وانقضىٰ المحرّم فأمر علىّ مرثد بن الحارث الجشميّ، فنادىٰ أهل الشام عند غروب الشمس:

ـ «ألا، إنّ أميرالمؤمنين يقول لكم: إنّى استدمتكم[٢] لتراجعوا الحقّ وتنيبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، فلم تناهوا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى حقّ، وإنى قد نبذت[٣] إليكم على سواء، إنّ الله لا يحبّ الخائنين.»

ففزع[٤] أهل الشام إلى أمرائهم، وخرج معاوية وعمرو فى الناس يكتّبان الكتائب، ويعبّئان الناس، وأوقدوا النيران، وبات علىّ ليلته كلّها يعبّئ الناس، ويكتّب الكتائب، ويدور فى الناس، ويحرّضهم.

من وصايا علىّ لأصحابه يوم صفّين

وكان فى ما يوصّيهم:

ـ «إذا قاتلتموهم وهزمتموهم، فلاتقتلوا [578] مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، فإذا وصلتم إلى رجال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلّا بإذن، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلّا ما وجدتم فى عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهنّ ضعيفات القوىٰ».

كان هذا كلامه فى يوم الجمل، وصفّين، ويوم النهروان، وكان يحرّض فيقول:

ـ «عباد الله، غضّوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأقلّوا الكلام، ووطّنوا

---

١. مكان «تقضّى شهر ذى» بياض فى الأصل وما أثبتناه عن مط.

٢. مط: أستبدّ منكم!

٣. مط: نذرت. وفى الطبرى أيضاً: نبذت.

٤. فزع إليه. لجأ إليه واستغاثه.

أنفسكم على المنازلة والمبارزة، والمبالطة[١]، والمعانقة، واثبتوا، واذكروا الله كثيراً، لعلّكم تفلحون، ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب ريحكم، واصبروا إنّ الله مع الصابرين[٢]. اللّهمّ ألهمهم الصبر، وأنزل عليهم النصر، وأعظم لهم الأجر.»

اقتتلوا ولكلّ فئة أحد عشر صفاً

ولما أصبح عليّ في ميمنته وميسرته، ومعاوية في مثل ذلك، وبايع رجال من أهل الشام على الموت؛ فعقلوا أنفسهم بالعمائم. فكان المعقّلون[٣] خمسة صفوف، وكانوا يخرجون ويصفون أحد عشر صفاً، ويخرج أهل العراق أحد عشر صفاً. [579]

فخرجوا أول يوم من صفر، واقتتلوا، وعلى من خرج يومئذ من الكوفة الأشتر، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة، وذلك يوم الأربعاء، فاقتتلوا عامة نهارهم. ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض. فلما كان اليوم الثاني، خرج هاشم بن المرقال. وخرج إليه أبو الأعور السلمي في خيلهما ورجالهما، فاقتتلوا عامة نهارهم، وصبر بعضهم لبعض. وخرج اليوم الثالث عمار بن ياسر. وخرج إليه عمرو بن العاص في خيلهما ورجلهما فاقتتلوا كأشدّ ما يكون القتال، وكان مع عمار زياد بن النضر[٤] على الخيل، فأمره عمار أن يحمل، فحمل في خيله وصبر له الناس، وشدّ عمار في الرجال، فأزال ابن العاص عن موقفه، ثم انصرف كلّ واحد عن صاحبه وتراجع الناس.

وخرج اليوم الرابع محمد بن عليّ، وهو ابن الحنفية، فخرج إليه عبيدالله بن عمر في جمعين عظيمين، فاقتتلوا كأشدّ القتال:

---

١. المبالطة: التحارب بالسيوف.
٢. س ٨الأنفال: ٤٥، ٤٦.
٣. مط: معقولون.
٤. ما في الأصل غير واضح، فأثبتناه كما في مط والطبري (٦: ٣٢٨٤).

فأرسل عبيدالله إلى ابن الحنفية، أن: «اخرج إليّ!»

فقال: «نعم!»

وخرج يمشي. وبصر به عليّ، فقال: «من هذان المتبارزان؟»

فقيل له: «ابنك وعبيدالله بن عمر.»

فحرّك دابّته، [580] ثم نادى محمداً، فوقف له.

فقال: «أمسك دابتي!»

فأمسكها.

ثم مشىٰ إليه عليّ وقال: «أبرز [لك][١]، فهلمّ إليّ!»

فقال: «ليست لي في مبارزتك حاجة.»

قال: «بلىٰ، هلمّ!»

قال: «لا.»

فرجع ابن عمر، وأخذ محمد بن الحنفية يعاتب أباه في منعه، ثم خروجه بنفسه، إلى من ليس [كفؤاً له][٢] هو ولا أبوه. فجرىٰ بينهما كلام مذكور[٣]. ثم تحاجز الناس.

فلما كان اليوم الخامس خرج عبدالله بن العباس، وخرج إليه الوليد بن عُقبة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودنا ابن العباس من الوليد بن عقبة والوليد يشتم بني عبدالمطلب. فأرسل إليه ابن عباس أن: ابرز لي! فأبىٰ. وقاتل ابن عباس قتالاً

---

١. تكملة عن الطبري.

٢. في الأصل وفي مط: «هناك» فوجدته تحريفاً من: «كفؤاً له» وهذا مستنبط من المفاضلة الواردة في رواية الطبري التي أوردناها في الحاشية التالية.

٣. قال الطبري: «... فرجع ابن عمر، فأخذ ابن الحنفية يقول لأبيه: يا أبت لِمَ منعتني من مبارزته؟ فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله. فقال: لو بارزته لرجوت أن تقتله وما كنت آمن أن يقتلك. فقال: يا أبت، أوَ تبرز لهذا الفاسق؟ والله، لو أبوه سألك المبارزة لرغبت بك عنه. [أي: لفضّلتك عليه] فقال عليّ: يا بني، لا تقل في أبيه إلّا خيراً. (الطبري ٦: ٣٢٨٥). أنظر أيضاً ابن الأثير ٣: ٢٩٥.

شديداً، وغشى الناس بنفسه.

وخرج اليوم السادس قيس بن سعد الأنصارى، فخرج إليه ابن ذى الكلاع الحميرى، فاقتتلا قتالاً شديداً، ثم انصرفا، ذلك بعد قتل كثير فى الفريقين.

وخرج الأشتر فى اليوم السابع، وعاد إليه حبيب بن مسلمة، وذلك يوم الثلاثاء، فاقتتلا كأشدّ ما يكون من قتال، ثم انصرفا عند الظهر وكلّ غير غالب.

ثم إنّ عليّاً قال: «حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم [581] بأجمعنا؟»

فقام فى الناس عشية الثلاثاء ليلة الأربعاء بعد العصر، فخطبهم فقال:

ـ «الحمد لله الذى لا يبرم ما نقض، ولا ينقض ما أبرم، ولو شاء ما اختلف اثنان من خلقه، ولا تنازعت الأمة فى شىء من أمره ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار، فلفّت[1] بيننا فى هذا المكان، فلو شاء عجّل النعمة، وكان منه التغيير حتى يكذّب الظالم ويُعلم الحقّ أين مصيره؛ ولكنّه جعل الدنيا دار الأعمال، وجعل الآخرة هي دار القرار، ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى.[2] ألا، إنّكم لاقو[3] القوم غداً، فاطلبوا وجه الله بأعمالكم، وأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، وسلوا الله الصبر والنصر، والقوهم بالجدّ والحزم، وكونوا صادقين.»

فوثب الناس إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها. ومرّ بهم كعب بن جُعَيل التغلبى وهو يقول:

أصبحت الأمّةُ فى أمرٍ عَجَبْ — والمُلكُ مجموعٌ غداً لمن غَلَبْ
فقلتُ قولاً صادقاً غير كَذِبْ — إنّ غداً يهلكُ أعلامُ العرَبْ

١. فى الأصل ومط: فلف. والصحيح ما أثبتناه كما فى الطبرى (٦: ٣٢٨٦).
٢. س ٥٣ النجم: ٣٢.
٣. فى الأصل: لا قوا.

ولما كان من الليل، خرج عليّ يعبّئ الناس ليلته كلّها حتى إذا أصبح زحف الناس، وخرج إليه معاوية في أهل الشام. فجعل عليّ يقول: «من هذه القبيلة»، و«من هذه الكتيبة؟» [582] فتنسب له، حتى إذا عرفهم ورأىٰ مراكزهم، قال للأزد: «أكفوني الأزد.» وقال لخثعم: «أكفوني خثعم.» وأمر كلّ قبيلة أن تكفيه أختها، وإذا لم يجد لقبيلة منهم أختها سمّىٰ لها قبيلة أخرى. ثم تناهض الناس يوم الأربعاء، فاقتتلوا نهارهم كلّه، وانصرفوا عند المساء وكلّ غير غالب.

حتى إذا كان يوم الخميس، وهو التاسع، صلّى عليّ بغلس[1]، فيقال: إنه لم يغلّس أشدّ من تغليسه يومئذ. ثم خرج بالناس. وكان عليّ ـ عليه السلام ـ يبدأ القوم بالمسير إليهم. فاذا رأوه وقد زحف استقبلوه بوجوههم.

فلما صلّى عليّ، دعا دعاءاً كثيراً، وقال في آخر دعائه:

«اللّهمّ إن أظهرتنا على عدوّنا فجنّبنا البغي، وسدّدنا للحقّ. وإن أظهرتهم علينا فارزقني الشهادة، واعصم بقيّة أصحابي من الفتنة.»

ثم خرج وعلى ميمنته عبدالله بن بُديل، وعلى ميسرته عبدالله بن العباس وقرّاء أهل العراق مع ثلاثة نفر: مع عمار بن ياسر، ومع قيس بن سعد، ومع عبدالله بن بُديل، والناس على راياتهم وعليّ في القلب في أهل المدينة بين أهل الكوفة وأهل البصرة وأكثر من معه من أهل المدينة، الأنصار. ثم زحف إليهم بالجمع.

ورفع معاوية قبّة [583] عظيمة وقد ألقىٰ عليها الكرابيس، وبايعه عُظم أهل الشام على الموت، وبعث إلى خيل أهل دمشق، فأحاطت بقبّته، وزحف عبدالله بن بديل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة، فلم يزل يحوزه ويكشف خيله من الميسرة حتى اضطرّهم إلى قبّة معاوية عند الظهر، وحضّ عبدالله بن بديل

---

١. الغلس: ظلام أول الصبح.

أصحابه، وحرّضهم، وذكّرهم بالله، وأثنىٰ عليه، وعضّ من معاوية وسبّه، وقاتل قتالاً شديداً، وحضّ عليّ أصحابه.

خطبة فى حضّ على حرب ووصايا فيها

فقال:

ـ «إنّ الله قد دلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم[١]، وأخبركم أنه يحبّ الذين يقاتلون فى سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص[٢] فسوّوا صفوفكم، وقدّموا الدارع، وأخّروا الحاسر، وعضّوا على الأضراس، فإنه أنبىٰ للسيوف عن الهام، والتووا فى أطراف الرماح، فإنّه أمْوَرُ للأسنّة، وغضّوا الأبصار، فإنّه أربط للجأش، وأميتوا الأصوات، فإنّه أطرد للفشل، وأولىٰ بالوقار. راياتكم، فلا تميلوها، ولا تجعلوها إلّا بأيدى شجعانكم. أجزأ امرؤ [وقذ][٣] قرنة وآسىٰ أخاه بنفسه، ولم يكل قرنه إلى أخيه، فيكسب [584] به لائمة ودناءة، وكيف لا، وهذا يقاتل اثنين وهذا ممسك يده قائماً ينظر إليه؟ من يفعل ذلك، يمقته الله. قال الله لقوم: لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، وإذاً لا تمتّعون إلّا قليلاً[٤]، استعينوا بالصدق والصبر، فإنّ الله ينزل بعد الصبر النصر».

خطبة يزيد بن قيس الأرحبى

وخطب يزيد بن قيس الأرحبى، فقال بعد حمد الله:

---

١. س ٦١ الصف: ١١.
٢. س ٦١ الصف: ٤.
٣. ما بين [ ] تكملة من الطبرى ٦: ٣٢٩٠.
٤. س ٣٣ الأحزاب: ١٦.

ـ «إنّ هؤلاء القوم، والله، لا يقاتلوننا[١] على إقامة دين رأونا ضيّعناه، وإحياء حقّ رأونا أمتناه؛ ولن يقاتلونا[٢] إلّا على هذه الدنيا ليكونوا جبابرة فيها ملوكاً. فلو ظهروا عليكم ـ ولا أراهم الله ذلك ـ لزموكم بمثل سعيد، والوليد، وعبدالله بن عامر السفيه الضالّ، يُجيز أحدهم في مجلسه بمثل ديته ودية أبيه وجدّه، ثم يقول: «هذا لي، ولا إثم عليّ»! كأنّما أعطيَ تراثه عن أبيه وأمّه! وإنما هو مال الله أفاءه الله علينا. فقاتلوا ـ عباد الله ـ القوم الظالمين الحاكمين بغير ما أنزل الله؛ ولا تأخذكم في جهادهم لومة لائم، فإنّهم من عرفتم وخبرتم. والله ما ازدادوا إلى يومهم هذا إلّا شرّاً.»

ابن بديل ينتهي إلى قبة معاوية

وقاتلهم عبدالله بن بديل في الميمنة حتى انتهىٰ إلى قبّة معاوية. ثم إنّ الذين تبايعوا [585] على الموت، أقبلوا إلى معاوية، فأمرهم أن يصمدوا لابن بديل. وبعث حبيب بن مسلمة في ميسرته، فحمل بهم وبمن كان معه على ميمنة الناس، فهزمهم، وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة حتى لم يبق منهم إلّا ابن بديل في مائتين إلى الثلاثمائة من القرّاء قد أسند بعضهم على بعض ظهره، وانجفل الناس. فأمر عليّ سهل بن حنيف: فاستقدم في من كان معه من أهل المدينة، فاستقبلتهم جموع لأهل الشام عظيمة، فاحتملتهم حتى ألحقتهم بالميمنة إلى موقف عليّ في القلب، فمرّ عليّ ومعه بنوه نحو الميسرة.

قال[٣]:

فوالله، إنّي لأرى النبل يمرّ بين عاتقه ومنكبه، وما من بنيه واحد إلّا يقيه بنفسه، فيتقدّم فيحول بين اهل الشام وبينه، فيأخذه بيده إذا فعل ذلك فيلقيه بين

---

١. في الأصل: لا يقاتلونا. ٢. في الأصل: لن يقاتلوننا.

٣. والقول لزيد بن وهب الجهني نقله أبو مخنف. أنظر الطبري (٦: ٣٢٩٣).

يديه أو من ورائه. فبصر به أحمر مولى أبي سفيان أو عثمان، فعرفه.

فقال عليّ: «وربِّ الكعبة، قتلني الله إن لم أقتلك أو تقتلني.»

كلام بين عليّ والحسن أثناء القتال

فأقبل نحوه، وخرج إليه كيسان مولىٰ عليّ، فاختلفا ضربتين، فقتله مولى بني أمية، وينتهزه عليّ، فتقع يده في جيب درعه، فجبذه، ثم حمله على عاتقه. فكأني أنظر إلى رجليه تختلفان على عنق عليّ، ثم ضرب [586] بـه الأرض، فكسـر منكبه وعضده، وشدّ ابنا عليّ: الحسين ومحمد عليه، فضرباه بأسيافهما، حتى إذا قتلاه، أقبلا إلى أبيهما والحسن قائم معه.

قال له: «يا بنيّ، ما منعك أن تفعل كما يفعل أخواك؟»

فقال: «كفياني يا أميرالمؤمنين!»

ثم إن أهل الشام دنوا منه، فوالله ما يزيده قربهم منه سرعة في مشيه.

فقال له الحسن: «ما ضرّك لو سعيت حتي تنتهي إلى هؤلاء الذين قد صبروا لعدوّك من أصحابك؟»

فقال: «يا بنيّ، إنّ لأبيك يوماً لا يعدوه، ولا يبطئ به السعي، ولا يعجل به اليه المشي، وإنّ أباك لا يبالي: وقع على الموت، أو وقع عليه الموت[1].»

مالك يحضّ المنهزمين على الصمود

ولما أقبل عليّ نحو الميسرة، مرّ به الأشتر يركض نحو الفزع قِبَل الميمنة.

فقال له عليّ: «يا مالِ!»

قال: «لبيك يا أميرالمؤمنين!»

قال: «إئت هؤلاء، فقل لهم: أين فراركم من المـوت الذى لا تـعجزونه، إلى

---

١. في الطبرى (٦ : ٣٢٨٤): «أو وقع الموت عليه». والعبارة ساقطة من مط.

الحياة التى لا تبقىٰ لكم؟»

فمضىٰ، واستقبل الناس منهزمين، فقال لهم هذه الكلمات التى أمره عليٌّ بها. ثم قال: «إليّ، أيها الناس إليّ! أنا مالك بن الحارث..»

ثم ظنّ أنه بالأشتر أعرف فى الناس، فقال: «أنا الأشتر، إليّ، إليّ!»

فاقبلت طائفة إليه [587] وذهبت عنه طائفة، فقال:

ـ «عضضتم بهَنِ آبائكم[١]. ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم! يا أيها الناس، أخلصوا إليّ مذحجاً.»

فأقبلت مذحج، فقال:

ـ «عضضتم بصمّ الجندل، ما أرضيتم ربكم، ولا نصحتم له فى عدوكم، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب، وأصحاب الغارات وفتيان الصباح، وفرسان الطراد، وحتوف الأقران، ومذحج الطعان الذين لم يكونوا يُسبقون[٢] بثأرهم، ولا تُطَلّ دماؤهم، ولم تُعرفوا في موطن بخسف، فأنتم حدّ أهل مصركم، وما تفعلوا فى هذا اليوم فإنّه مأثور بعد اليوم، فاتقوا مأثور الحديث، واصدقوا عدوكم اللقاء، فإنّ الله مع الصادقين. فو الذى نفس مالك بيده، ما من هؤلاء ـ وأشار بيده إلىٰ أهل الشام ـ [رجل][٣] على مثل جناح بعوضة من محمد ـ صلّى الله عليه ـ إنكم ما أحسنتم القراع، فاجلوا سواد وجهى يرجع فى وجهى دمى. عليكم بهذا السواد الأعظم، فإنّ الله لو قد فضّه تبعه من بجانبيه كما تبع مؤخّر السيل مقدّمه.»

قالوا: «خذ بنا حيث أحببت.»

فصمد نحو عظمهم مما يلى الميمنة، وأخذ يزحف إليهم ويردّهم، ويستقبله

---

١. في بعض الأصول: بهن أمّكم. (الطبرى ٦: ٣٢٩٤). وفى الحديث: «من تعزّىٰ بعزاء الجاهلية فأعضّوه بهن أبيه ولا تكنوا»، أى، قولوا له: «إعضض بأير أبيك»، ولا تكنوا عن الأير بالهن تنكيلاً وتأديباً له. (لع ٧: ١٨٨ «عضض»).

٢. فى الأصل: يسبقوا.

٣. تكملة عن الطبرى (٦: ٣٢٩٥).

شباب من [588] همدان، وكانت همدان يومئذ ثمانمائة مقاتل. فانهزموا آخر الناس، وكانوا صبروا في الميمنة، حتى أصيب منهم مائة وثمانون رجلاً، وقتل منهم أحد عشر رئيساً يتتابعون على الراية. فمرّوا بالأشتر وهم يقولون:

ـ «ليت لنا عدّتنا من العرب يحالفوننا على الموت، ثم نستقدم نحن وهم، فلا ننصرف حتى نُقتل أو نظهر.»

فقال لهم الأشتر: «إليّ، أنا أخالفكم وأعاقدكم على أن لا نرجع أبداً حتى نظفر أو نهلك.»

فأتوه، فوقفوا معه، وزحف الأشتر، وثاب[١] إليه الناس، وأخذ لا يصمد لكتيبة إلّا كشفها، وبيده صفيحة يمانية إذا طأطأها خلت فيها ماءًا منصبّاً، وإذا رفعها كاد يغشى البصر شعاعها، وجعل يضرب بسيفه ويقول:

ـ «ألغمرات[٢] ثم ينجلينا.»

فبصر به الحارث بن جهمان والأشتر مقنّع في الحديد، فلم يعرفه. فدنا منه وقال:

ـ «جزاك الله خيراً منذ اليوم عن أميرالمؤمنين وجماعة المسلمين.»

فعرفه الأشتر فقال: «يابن جهمان، إنّ مثلك لا يتخلّف عن مثل مواطني هذا [الذي أنا فيه][٣].»

فعرفه ابن جهمان لما تكلّم، وكان من أعظم الرجال وأطولهم، فقال له:

ـ «جعلت فداك، لا والله، ما علمت بمكانك إلّا الساعة [589] ولا أفارقك حتى الموت.»

ورآه منقذ وحمير ابنا قيس الناعطيّان.

١. مط: وياءت.

٢. «الغمرات» مرفوعة في الطبري (٦: ٣٢٩٧) ومنصوبة في الأصل.

٣. تكملة من الطبري (٦: ٣٢٩٧).

فقال منقذ لحمير: «ما في العرب مثل هذا إن كان قتاله عن نيّة.»
فقال له حمير: «وهل النيّة إلّا ما تراه يصنع.»
قال: «إنّي أخاف أن يكون يحاول مُلكاً.»

وحمل الأشتر في بعض حملاته، فكشف أهل الشام حتى ألحقهم بصفوف معاوية، وذلك بين صلاة العصر والمغرب، وانتهىٰ إلىٰ عبدالله بن بديل، وهو في عصبة من القرّاء بين المائتين إلى الثلاثمائة، وقد لصقوا بالأرض كأنهم جثيّ، فكشف عنهم أهل الشام، فأبصروا إخوانهم قد دنوا منهم.
فقالوا: «ما فعل أميرالمؤمنين؟»
قالوا: «حيّ صالح يقاتل في الميسرة، ويقاتل الناس أمامه.»
فقالوا: «والحمد لله، قد كنّا ظننّا أن قد هلك وهلكتم.»

إبن بُديل يعصى مالكاً ويُقتل

وقال عبدالله بن بديل لأصحابه:
«استقدموا بنا، رحمكم الله!»
فأرسل إليه الأشتر أن:
«لا تفعل، أثبت للناس، وقاتل، فإنّه خير لهم، وأبقى لك ولأصحابك.»

فعصاه ومضى كما هو نحو معاوية، وحوله كأمثال جبال الحديد، وفي يده سيفان، وقد خرج. فهو أمام أصحابه. فأخذ كلما دنا منه رجل قتله، حتى قتل تسعة، ودنا من معاوية، فنهض إليه الناس [590] من كلّ جانب، وأحيط به حتى قتل ناس من أصحابه، ورجعت طائفة قد خرجوا منهزمين.

فبعث الأشتر ابن جهمان، فحمل على أهل الشام الذين يتّبعون من كان نجا من أصحاب ابن بديل، حتى نفّسوا عنهم، وانتهوا إلى الأشتر. فقال لهم:
ـ «ألم يكن رأيي خيراً لكم من رأيكم لأنفسكم؟ ألم آمركم أن تثبتوا مع

الناس؟»

وكان معاوية لما رأى عبدالله بن بديل يضرب قدماً، قال:

ـ «أترونه كبش القوم!»

فلما قتل أرسل إليه لينظر: من هو؟ فلم يعرفه أحد. فأقبل إليه حتى وقف عليه، فقال:

ـ «بلى، هذا عبدالله بن بديل، هذا والله كما قال»:

أخو الحرب إن عضّت به الحربُ عضّها وإن شمّرت يوماً له الحربُ شمَّرا

ثم إنّ الأشتر حمل حملة أزال أهل الشام عن موقفهم، حتى ألحقهم بالصفوف الخمسة المعقّلة بالعمائم حول معاوية، ثم شدّ عليهم شدّة أخرى، فصرع الصفوف الأربعة المعقّلين، حتى انتهوا إلى الخامس حول معاوية. فدعا معاوية بفرسه، فركبه.

وكان يقول:

ـ «أردت أن أنهزم فذكرت قول ابن الإطنابة: [591]

أبت لي عفّتي، وأبى بلائي[1] وأخذي الحمد بالثمنِ الربيحِ[2]
وإجشامي[3] على المكروهِ نفسي وإقدامي على البطلِ المُشيحِ[4]

١. في الطبري: أبت لي عفّتي وحياء نفسي (٦: ٣٣٠٠).

٢. المصراع للبيت الثاني عند الطبري.

٣. في الطبري: وإعطائي على المكروه مالي. وعند الأصمعي: وإقدامي على المكروه نفسي!

٤. عند الأصمعي: وضربي هامة البطل المشيح. والمشيح: المجدّ. والمصراع للبيت الأول عند الطبري.

وقولي كلّما جشأت وجـاشَت[١] مكانكِ، تُحمَدي، أو تستريحي[٢]

فمنعني من الفرار.»[٣]

[2,1] وإنّ عليّاً لما رأىٰ ميمنته قد عادت إلى مواقفها ومصافّها، وكشفت من

---

١. عند الأصمعي: جاشت وجاشت. ولعلّه من أخطاء المطبعة أو الكاتب.

٢. وزاد الأصمعي بيتاً آخر هو:

لأدفـعَ عـن مكـارمَ صـالحاتٍ وأحميَ، بعدُ، عن عِـرضٍ صحيحِ

٣. وزاد في الكامل (٣: ٣٠٢): «ونظر إليّ عمرو وقال: اليوم صبر، وغداً فخر. فقلت: صدقت.» وهذه الزيادة ليست لا في الأصل ولا في الطبري.

نهاية الجزء الأوّل
حسب تجزئة مخطوطة أياصوفيا

إلى هنا (أي إلى نهاية قوله: «فمنعني من الفرار.» ينتهي الجزء الأول من أجزاء تجارب الأمم الستّة، حسب تجزئة مخطوطة أياصوفيا (الأصل). ولما لم تكن التجزئة منطقيّة، أضفنا إلى الجزء الأول 43 صفحة من صفحات الجزء الثاني، ليكتمل بذلك، هذا الفصل الذي أصبح مبتوراًبتلك التجزئة. وأمّا عبارات الإتمام والفراغ التي سجّلت في نهاية الجزء الأول من المخطوطة، فنثبتها في ما يلي، ليكون ماهو بين يدي القارئ مطابقاً تماماً للأصل الذي اعتمدنا عليه:

«تمت المجلدة الأولى من كتاب تعاقب الهمم وتجارب الأمم، والحمد لله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلواته على محمد وآله أجمعين. ويتلوه في المجلدة الثانية: وإنّ عليّاً لما رأى ميمنته قد عادت إلى مواقفها ومصافّها، وكشفت من بإزائها أقبل حتي انتهي إليهم. الحمد لله ربّ العالمين، حمد الشاكرين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.»

«فرغ من انتساخه محمد بن عليّ بن محمد أبو طاهر البلخي في الربيع الأول سنة خمس وخمسمائة [٥٠٥ هـ] والحمد لله كثيراً.»

«فرغ من انتساخه محمد بن الحسن بخطّه في ذي الحجة سنة...» [هنا كلمة لا تقرأ].

ونتيجة لهذا، ننقل البسملة وعبارات الحمد والتصلية التي جاءت في أول الجزء الثاني للمخطوطة، إلى الحاشية لئلّا تخلّ بالسياق، وهي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله ربّ العالمين، حمد الشاكرين، وصلواته على محمد النبيّ، وآله الطاهرين.» (أنظر تصديرنا لهذه النشرة.)

بإزائها، أقبل حتى انتهى إليهم، فقال:

ـ «إنّي قد رأيت جولتكم، وانحيازكم عن صفوفكم، تحوزكم الجفاة الطغام[١]، وأعراب الشام، وأنتم لهاميم العرب، والسنام الأعظم، وعُمّار الليل بتلاوة القرآن، وأهل دعوة الحق إذ ضلّ الخاطئون. فلولا إقبالكم بعد إدباركم، وكرّكم بعد انحيازكم، وجب عليكم ما وجب على المولّي يوم الزحف دبره، وكنتم من الهالكين، ولكن هوّن وجدي، وشفىٰ بعض أُحاح[٢] نفسي أنّي رأيتكم بأخرة حزتموهم[٣]، كما حازوكم، وأزلتموهم عن مصافّهم كما أزالوكم، تحسّونهم[٤] بالسيوف، يركب أولاهم أخراهم، كالإبل المطرودة إليهم. فالآن، فاصبروا، نزلت عليكم السكينة وثبّتكم الله باليقين وإنّ الفارّ لا يزيد في عمره ولا يُرضي ربّه، [3] فموت المرء محقّاً قبل موجدة[٥] الله، والذلّ اللازم، والعار الباقي، واغتصاب الفيء من يده، وفساد العيش، خير من الرضا بالتأنيس[٦] لهذه الخصال، والإقرار عليها.»

فصبر القوم، وقُتل الفرسان من الجانبين. فقتل ذو الكلاع وعبيدالله بن عمر، وتنادت ربيعة ـ حيث انتهى إليها عليّ ـ بينها:

ـ «إن أصيب عليّ فيكم، وقد لجأ إليكم، افتضحتم آخر الدهر، وتشاءم بكم المسلمون.»

وقال لهم شقيق بن ثور:

ـ «يا معشر ربيعة، لا عذر لكم في العرب إن وصل إلى عليٍّ فيكم ومنكم

---

١. في مط: يحوزكم الجفاء الطعام! وفي الطبري (٦: ٣٣٠١): الطغاة الجفاة. والطغام (للواحد والجمع): أوغاد الناس.

٢. الأحاح: العطش، الغيظ.

٣. حزتموهم: سقتموهم.

٤. تحسّونهم: تقتلونهم باستئصال رؤوسهم، تبيدونهم. وفي مط: تحثونهم!

٥. الموجدة: الغضب.

٦. التأنيس: مهملة في الأصل ومط، فأعجمناها حسب الطبري (٦: ٣٣٠١).

رجل حيّ.»

فقاتل القوم قتالاً شديداً حين جاءهم عليّ، لم يكونوا قاتلوا مثلها. ففي ذلك قال عليّ عليه السلام:

لمن رايةٌ سوداءُ يخفقُ ظلُّها إذا قيل: قدِّمها حُضينُ، تقدَّما
يقدِّمها في الموت حتىٰ يردَّها[1] حياضَ المنايا تقطرُ الموتَ والدَّما
أذَقنا ابنَ هندٍ ضربَنا وطعانَنا بأرماحنا حتّى تولّى وأحجَما
جزى الله قوماً قاتلوا[2] في لقائهم لدى الموتِ، قوماً ما أعفَّ وأكرما[3] [4]

مقتل عمّار بن ياسر

قال:

وسمعت عماراً يقول:

ـ «والله، إنّي لأرىٰ قوماً يضربونكم ضرباً يرتاب منه المبطلون، وأيم الله، لو ضربونا حتى يبلّغونا سعفات هَجَر[4]، لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنّهم على الباطل.»

ثم حمل حتى وصل إلى عمرو بن العاص، فقال له:

١. كذا في الأصل ومط: يردّها، وفي الطبري (٦: ٣٣١٦): يزيرها.

٢. في هامش الأصل: «صابروا».

٣. ويضيف الطبري بيتين، هما:

وأطيبَ أعباراً، وأكرمَ شيمةً إذا كان أصواتُ الرِّجالِ تغمغماً
ربيعة أعني، إنهم أهل نجدة وبأسٍ، إذا لاقوا جسيماً عرمرَماً

تجد الأبيات في الديوان المنسوب إلى الإمام علي (ع) ثلاثة عشر بيتاً («ديوان الإمام علي (ع)» تحقيق وترجمة الدكتور أبوالقاسم إمامي، ص ٥٦٦).

٤. هجر: مدينة، وهي قاعدة البحرين، وربما قيل: «الهجر» بالألف واللام، وقيل ناحية البحرين كلها، وهو الصواب (ياقوت).

ـ «لقد قاتلتُ هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله ـ صلّى الله عليه ـ وهذه الرابعة، ماهي بأبّر ولا أتقى.»

قال:

ورأيت عماراً جاء إلى هاشم بن عتبة، وهو صاحب راية عليّ، فقال:

ـ «يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، اليوم، ألقى الأحبة، محمداً وحزبه.»

فحملا، ولم يرجعا.

ولما قتل عمار، قال عليّ لربيعة وهمدان:

ـ «أنتم درعي ورمحي.»

فانتدب له نحو من اثنى عشر ألفاً، وتقدّمهم عليّ على بغلته، فحمل وحملوا معه، حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صفّ إلّا انتقض، وقتلوا كلّ من انتهى إليه، حتى بلغوا معاوية.

عليّ يبارز معاوية

ثم نادى عليّ معاوية:

ـ «يا معاوية، لِمَ تقتل الناس بيننا؟ هلمّ أحاكمك إلى الله، فأيّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور.»

فقال له عمرو:

ـ «أنصفك الرجل.»

فقال معاوية:

ـ «ما أنصفت، وإنّك [5] لتعلم أنه لم يبارزه أحد قطّ إلّا قتله.»

فقال عمرو:

ـ «ما يجمل بك إلّا مبارزته.»

قال معاوية:

ـ «طمعت فيها بعدى.»

ما دبّره عليّ لإزالة كتيبة

ومرّ عليّ بكتيبة فرءاهم لا يزولون. فحرّض عليهم وقال:

ـ «إنّ هؤلاء لا يزولون[١] إلّا بضرب دراك[٢] يفلق الهام، ويطيح العظام، وتسقط منه المعاصم والأكفّ، وحتى تصدع جباههم بعمد الحديد، وتنتثر حواجبهم على الصدور. أين أهل الصبر وطلّاب الأجر؟»

فثابت[٣] إليه عصابة. فدعا ابنه محمداً، فقال:

ـ «إمش نحو أهل هذه الراية مشياً رويداً على هينتك[٤]، حتى إذا أشرعتَ فى صدورهم الرماح، فأمسك حتى يأتيك أمرى.»

ففعل، وأعدّ عليّ مثلهم. فلما دنا منهم محمد، فأشرع الرماح فى صدورهم، أمر عليّ الذين أعدّهم، فشدّوا عليهم، فنهض محمد بمن معهم فى وجوههم، فزالوا عن مواقفهم، وأصابوا منهم. ثم اقتتلوا بعد المغرب قتالاً شديداً. فما صلّى أكثر الناس إلّا إيماءً.

العالي من جعل المعركة خلف ظهره

وقتل عبدالله بن كعب المرادىّ. فمرّ به الأسود بن قيس المرادىّ، فقال:

ـ «يا أسود!»

فقال: «لبيك.» وعرفه، وكان بآخر رمق. فقال:

---

١. فى مط: لا يزلون.

٢. والضبط فى الطبرى (٦: ٣٣٢٧): بضرب دراك. والدراك: المتلاحق والمتصل.

٣. ثابت: ربما يكون ما في الأصل: تابت، وما في مط: ثابت؛ وكلاهما بمعنى واحد: رجعت.

٤. كذا في الأصل والطبرى: على هينتك، وما في مط: هيئتك.

ـ «عزّ [6] عليَّ بمصرعك[١]. أما والله، لو شهدتك لآسيتك، ولدافعت عنك.»

ثم نزل إليه وقال:

ـ «أما والله، إن كان جارك، ليأمن بوائقك. ولقد[٢] كنتَ من الذاكرين الله كثيراً، أوصني ـ رحمك الله.»

فقال:

ـ «أوصيك بتقوى الله، وأن تناصح أميرالمؤمنين، وتقاتل معه المحلّين حتى يظهر أو تلحق بالله. وأبلغه عني السلام، وقل له: قاتل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك، فإنّه من أصبح غداً والمعركة خلف ظهره، كان العالى.»

ثم لم يلبث أن مات.

فأقبل الأسود إلى عليّ، فأخبره، فقال:

ـ «رحمه الله، جاهد فينا عدوّنا فى الحياة، ونصح لنا فى الوفاة.»

واقتتل الناس تلك الليلة كلها حتى الصباح ـ وهي ليلة الهرير ـ حتى تقصّفت الرماح، ونفد[٣] النبل، وصار الناس إلى السيوف، وأخذ عليّ يسير فى ما بين الميمنة والميسرة، ويأمر كلّ كتيبة من القرّاء[٤] أن تُقدم على التى تليها، ولم يزل يفعل ذلك ويقوم بهم، حتى إذا أصبح كانت المعركة كلها خلف ظهره، والأشتر فى ميمنة الناس، وابن عباس فى الميسرة، وعليّ فى القلب، والناس يقتتلون من كلّ جانب، وذلك يوم الجمعة.

١. كذا فى الطبرى (٦: ٣٣٢٦): بمصرعك؛ وفى هامش الطبرى: لمصرعك؛ وفى مط: مصرعك.

٢. فى الطبرى: وإن كنت. فى مط: لقد كنت؛ كما فى الأصل.

٣. فى الأصل: نفذ، وما ضبطناه من مط والطبرى ٦: ٣٣٢٧.

٤. مط: القرى. وما فى الأصل يؤيده الطبرى.

الظفر يلوح للأشتر ومعاوية يلتمس حيلة

وكان عليّ يراسل الأشتر ويرفده، وكان الأشتر [7] تولّى القتال عشيّة الخميس وليلة الجمعة كلّها ويوم الجمعة إلى ارتفاع النهار، وقد كلّ الناس، وأخذ يقول لأصحابه:

ـ «إزحفوا قيد هذا الرمح.»

وزحف بهم نحو أهل الشام. فإذا فعلوا، قال:

ـ «ازحفوا قاب[١] هذاالقوس.»

فإذا فعلوا، سألهم مثل ذلك، حتى ملّ الناس الإقدام.

فلما رأى الأشتر ذلك، قال:

ـ «أعيذكم بالله أن ترضعوا الغنم سائر اليوم.»

ثم دعا بفرسه، وترك رايته مع حيّان بن هوذة[٢]، وخرج يسير في الكتائب ويقول:

ـ «من يشرى نفسه لله ويقاتل مع الأشتر، حتى يظهر، أو يلحق بالله؟»

فلايزال[٣] رجل من[٤] الناس قد خرج إليه وحيّان بن هوذة واقف بالراية. فلما اجتمع إليه ناس كثير، أقبل حتى رجع إلى المكان الذي كان فيه من الميمنة. ثم قال لأصحابه:

ـ «شدّة ـ فدىً لكم عمّي وخالي ـ تُرضون بها الربّ، وتعزّون بها الدين، إذا شددتُ، فشدّوا.»

---

١. القاب: المقدار، أو ما بين المقبض والسئة من القوس.

٢. في مط: حبان، وما في الأصل يطابق الطبري (٦: ٣٣٢٨).

٣. فلا يزال: الضبط في الأصل «يزال» بفتح الياء، وما في الطبري مضبوط بضم الياء: يُزال.

٤. «من» سقطت من مط.

ثم نزل فضرب وجه دابته وقال لصاحب رايته:

ـ «أقدم بها.»

ثم شدّ على القوم شدّة، وشدّ معه أصحابه. فضرب أهل الشام حتى انتهى إلى عسكرهم. ثم قاتلوه عند العسكر قتالاً شديداً، فقُتل صاحب رايته، ولاح له الظفر بما اضطرب من صفوف [8] معاوية. ونظر عليّ، فرأى الظفر من قِبَله، فأخذ يُمدّه بالرجال.

فالتفت معاوية إلى عمرو بن العاص، فقال:

ـ «أما ترى أهل العراق قد استعلوا؟»

فقال عمرو: «هذا الهلاك. فهلمّ حيلة.»

قال: «قل، ما عندك.»

ذكر مكيدة عمرو بن العاص

قال: «قد رأيت أمراً إن قبلته لا يزيدنا إلّا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلّا فرقة.»

قال: «نعم.»

قال: «نرفع المصاحف على الرماح، ثم نقول: ما فيها حكم بيننا وبينكم. فإن أبىٰ بعضهم إلّا القتال، وجدت فيهم من يقول: لا نقاتل حتى ننظر ما يحكم القرآن. فتقع بينهم الفرقة؛ فإن قالوا بأجمعهم: نقبل حكم القرآن؛ رفعنا هذه الحرب، ودافعناها[1] إلى أجل وحين.»

فرفعوا المصاحف بالرماح، وقالوا:

ـ «عباد الله! هذا كتاب الله بيننا وبينكم. من لثغور الشام بعد أهل الشام، من لثغور العراق بعد أهل العراق؟»

---

١. ما في الأصل ومط: «دافعناه» بتذكير ضمير المفعول، فأنثنا الضمير لأنه يرجع إلى «الحرب».

فلما رأى الناس المصاحف، وسمعوا هذا الكلام، رقّت قلوبهم، وقد كان مسّهم النصب والملال. فقالوا:

ـ «نجيب إلى كتاب الله.»

فلما رأى عليّ الفتور في أصحابه بعد الجدّ، صاح بهم:

ـ «عباد الله، امضوا على حقّكم، وصدقكم، وقتال عدوّكم. فإنّه معاوية، [9] وعمرو بن العاص، وابن أبي سرح، والضحّاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين وقرآن. أنا أعرف بهم منكم، وصحبتهم أطفالاً ورجالاً. ويحكم! والله[1]، إنهم ما رفعوا المصاحف. إنهم لا يعرفونها، ولا يعلمون ما فيها؛ وما رفعوها إلّا خديعة ومكيدة حين علوتموهم.»

فقالوا:

ـ «ما يسعنا أن نُدعىٰ إلى كتاب الله، فنأبىٰ أن نقبله.»

فقال لهم عليّ:

ـ «ويحكم! فإنّي إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم الله، ويعملوا بالقرآن، فإنّهم قد عصوا الله في ما أمرهم، ونبذوا كتابه، ونسوا عهده.»

القرّاء يهدّدون عليّاً ويطالبون ترك القتال

فقال له مسعر بن فدكي[2]، وزيد بن حصن الطائي، ثم السّنبِسيّ[3] في عصابة معهما من القرّاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك:

ـ «يا عليّ، أجب إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه، وإلّا دفعناك برمّتك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفّان. والله، لتفعلنّها، أو لنفعلنّها بك.»

---

١. والله: الواو في «والله» سقطت من مط.

٢. في مط: معر بن فدلي. والضبط في الطبري (٦: ٣٣٣٠) فدكي.

٣. في مط: البنبسي.

قال: «فاحفظوا عنّى مقالى، فإنّى آمركم بالقتال، وإن تعصونى، فافعلوا ما بدا لكم.»

قالوا له: «فابعث إلى الأشتر! إمّا لا[١]، فليأتك.»

فأمسك عليّ. فنزل قوم فأحدقوا به.

فبعث إلى الأشتر يزيد بن هانئ السبيعى: أن ائتنى. [10] فذهب، فأبلغه.

فقال: «إئته، فقل له: ليس هذه، الساعة، التي ينبغي أن تزيلنى فيها عنّ موقفى. إنّى قد رجوت أن يفتح الله لى، فلا تُعجلنى.»

قال:

فرجع يزيد بن هانئ إلى عليّ، فأخبره. فما هو إلّا أن انتهى إلينا، فارتفع الرهج[٢]، وعلت الأصوات من قبل الأشتر.

فقال له القوم: «والله ما نراك إلّا أمرته أن يقاتل.»

فقال عليّ: «من أين ينبغى أن تروا ذلك؟ رأيتمونى ساررته؟ أليس إنّما كلّمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟»

قالوا: «فابعث إليه بعزيمتك فليأتك، وإلّا ـ والله ـ اعتزلناك.»

قال: «ويحك يا يزيد! عد إليه فقل له: أقبل[٣] إلينا، فإنّ الفتنة قد وقعت.»

فأتاه، فقال له ذلك.

فقال الأشتر:

ـ «ألرفع المصاحف؟»

قال: «نعم، أما الله، لقد ظننت حين رفعت، أنها ستوقع اختلافاً وفرقة. إنّها مشورة ابن العاهرة. ألا ترىٰ أنّ الفتح قد وقع؟ ألا ترىٰ إلى ما صنع الله لنا؟ أينبغى أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم؟»

---

١. كذا فى الأصل والطبرى؛ وما فى مط: أمثالاً! ٢. الرهج: الشغب، الفتنة، الجلبة، الشرّ.

٣. أقبل: الكلمة مطموسة في الأصل، فأثبتناها كما في مط والطبرى.

قال يزيد بن هانئ: «أ تحبّ أنك قد ظهرت هاهنا وأميرالمؤمنين يقتل بمكانه، أو يسلّم إلى عدوّه؟»

فقال: «لا والله، سبحان الله!» [11]

قال: «فإنّهم قد قالوا: لترسلنّ إلى الأشتر، فليأتك، أو لنقتلنّك كما قتلنا ابن عفّان.»

مالك يضع القتال ويُقبل، بعد أن رأى النصر

فأقبل معي الأشتر حتى انتهى إليهم، فقال:

ـ «يا أهل العراق، يا أهل الذلّ والوهن! أ حين علوتم القوم ظفراً، وظنّوا أنّكم[1] لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟ وقد ـ والله ـ تركوا ما أمر الله به فيها، وسنّه من أنزلت عليه. فلا تجيبوهم، يا قوم، أمهلوني عَدْو الفَرس، فإنّي قد رأيت النصر.»

قالوا: «إذاً ندخل معك في خطيئتك.»

قال: «فحدّثوني عنكم، وقد قتل أماثلكم، وبقي أراذلكم، متى كنتم محقّين؟: أحين كنتم تقاتلون وخياركم يقتلون؟ فأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مبطلون، أم الآن أنتم محقّون؟ فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيراً منكم، في النار إذاً!»

قالوا: «دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله، وندع قتالهم لله. إنّا لسنا مطيعيك ولا صاحبك[2]، فاجتنبنا.»

فقال: «خدعتم والله، وانخدعتم، ودُعيتم إلى وضع الحرب بعد أن غلبتم، فأجبتم. يا أصحاب الجباه السود، كنّا نظنّ صلاتكم زهادة في الدنيا، وشوقاً إلى

١. في الأصل: بكم، وما أثبتناه من الطبري (٦: ٣٣٣١).

٢. كذا في الأصل، ولعلّه: ولا مطيعي صاحبك. في مط: لسنا بطاعتك ولا صاحبك.

لقاء الله! فلا أرىٰ فراركم إلّا إلى الدنيا من الموت. ألا [12] قبحاً[١] لكم. يا أشباه النيب[٢] الجلّالة! ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً. فابعدوا كما بعد القوم الظالمون.»

فسبّوه، وسبّهم، وضربوا وجه دابته بسياطهم، وأقبل يضرب وجوه دوابهم بسوطه، وصاح بهم عليّ، فكفّوا[٣].

قبول الناس التحكيم، واستعلام معاوية

وتنادى الناس:

ـ «قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبين هؤلاء القوم حكماً.»

فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ وقال:

ـ «ما أرى الناس إلّا قد رضوا، وسرّهم أن تجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن. فإن شئت أتيت معاوية فاستعلمته ما يريد، فنظرت فيه.»

قال: «إئته إن شئت، فسله.»

فأتاه وقال: «يا معاوية، لأيّ شيء رفعتم المصاحف؟»

قال: «لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله فيها، تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منّا رجلاً نرضىٰ به، نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه، ثم نتبع جميعاً ما اتفقا عليه.»

فقال له الأشعث: «هذا الحقّ.»

ثم انصرف إلى عليّ بما قال معاوية.

فقال الناس: «قد رضينا وقبلنا.»

---

١. قبحاً: كذا في الأصل والطبري (٦: ٣٣٣٢)؛ في مط: فتحاً وهو خطأ.

٢. النيب: جمع مفرده: الناب: الناقة المسنّة. والجلّالة: من الماشية: التي تأكل العذرة والجلّة، (أي: البعر والروث).

٣. فكفّوا: ما في الأصل غير واضح، وما أثبتناه يؤيده الطبري ومط.

قال أهل الشام:

ـ «فإنّا قد اخترنا عمرو بن العاص.»

وقال الأشعث وأولئك القوم الذين صاروا خوارج [13] بعد:

ـ «فإنّا قد رضينا بأبى موسىٰ الأشعرى.»

علىّ لا يرضىٰ بأبى موسى والناس يأبون إلّا إيّاه

قال علىّ: «فإنكم قد عصيتمونى فى أول الأمر، فلا تعصونى الآن. إنّى لا أرى أن أولّى أبا موسى.»

قال الأشعث وزيد بن حصن الطائى ومسعر بن فدكى[١]:

ـ «لا نرضىٰ إلّا به، فإنّه قد كان يحذّرنا ما وقعنا فيه.»

قال علىّ: «فإنه ليس لى بثقة، قد فارقنى، وخذّل الناس عنّى، ثم هرب منّى حتى آمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس، أولّيه ذلك.»

قالوا: «والله ما نبالى: أنت كنت، أم ابن عباس. ما نريد إلّا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء.»

قال علىّ: «فإنّى أجعله الأشتر.»

فقال الأشعث: «وهل سعّر الأرض غير الأشتر، وهل نحن إلّا فى حكم الأشتر؟»

قال علىّ: «وما حكمه؟»

قال: «أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيوف حتى يكون ما أردتَ.»

قال: «فقد أبيتم إلّا أبا موسى.»

قالوا: «نعم.»

---

١. فى مط: فدلى.

قال: «فاصنعوا ما بدا لكم.»

فبعثوا إليه وقد اعتزل القتال وهو يعرّض[1]. وأقبل الأشتر حتى جاء إلى علىّ فقال له:

ـ «ألزّنى[2] بعمرو بن العاص، فوالله الذى لا إله إلّا هو، لئن ملأت عينى منه لأقتلنّه.»

وجاء الأحنف بن قيس، فقال:

ـ «يا أميرالمؤمنين، إنّك رميت بحجر الأرض، [14] وبمن حارب الله ورسوله أنف الإسلام، وهذا الرجل ـ يعنى أبا موسىٰ ـ قد عجمته وحلبت[3] أشطره، فوجدته كليل[4] الشفرة[5]، قريب القعر، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلّا رجل يدنو منهم، حتى يصير فى أكفّهم، ويبعد، حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلنى حكماً، فاجعلنى ثانياً، أو ثالثاً، فإنّه لن يعتقد عقدة إلّا حللتها، ولن يحلّ عقدة إلّا عقدت لك أخرىٰ أحكم منها.»

فأبى الناس إلّا أبا موسى.

فقال الأحنف: «فإن أبيتم إلّا أبا موسى فادفئوا ظهره بالرجال.»

ثم كتبوا: «هذا ما تقاضىٰ عليه أميرالمؤمنين.»

فقال عمرو: «اكتبوا اسمه واسم أبيه. هو أميركم، فأما أميرنا، فلا.»

---

١. فى الأصل: يعرّض؛ وفى مط: يعرض؛ وما فى الطبرى (٦: ٣٣٣٤): بعرض. وعرض، بضم أوله، وسكون ثانيه: بلد فى بريّة الشام، من أعمال حلب، بين تدمر والرصافة (مع).

٢. ألزّ الشيء بالشيء: ألصقه، شدّه، قرنه به.

٣. حلب أشطره: جرّب أموره: خيرها وشرّها.

٤. كليل: ما فى الأصل غير واضح؛ وما أثبتناه يؤيده الطبرى ومط.

٥. فى مط: الشفر.

ذكر رأي للأحنف

فقال الأحنف: «لا تمح اسم أمارة أميرالمؤمنين، فإنّي أتخوّف إن محوتها، لا ترجع إليك، وإن قتل الناس بعضهم بعضاً.»

فأبىٰ عليّ مليّاً من النهار.

ثم إنّ أشعث بن قيس قال: «امح هذا الإسم، نزحه الله[1].»

فمحى، فقال عليّ:

ـ «الله أكبر، سنّة بسنّة، ومثل بمثل، والله، إنّي لكاتب رسول الله يوم الحديبيّة، إذ قالوا: لا نشهد لك [15] أنك رسول الله، فامح هذا، واكتب اسمك واسم أبيك. فكتبه.»

فقال عمرو بن العاص: «نشبّه بالكفار ونحن مؤمنون.»

فقال له عليّ: «يا ابن النابغة، ومتىٰ لم تكن للفاسقين وليّاً، وللمسلمين عدوّاً، وهل تشبه إلّا أمّاً دفعت بك؟»

فقام وقال: «لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم.»

فقال عليّ: «وإنّي لأرجو أن يطهّر الله مجلسي منك ومن أشباهك.»

فقال الأحنف:

ـ «أيها الرجل، إنّه ما لَكَ ما كان لرسول الله، وإنّا ـ والله ـ ما حابيناك ببيعتنا، ولو علمنا أحداً من الناس أحقّ بهذا الأمر منك لبايعناه، ثم قاتلناك، وإنّي أقسم بالله، لئن محوت هذا الإسم عنك، والذي بايعك الناس عليه وقاتلتَهم، لا يعود إليك أبداً.»

قال الحسن البصريّ:

---

١. نزحه الله: كذا في الأصل ومط؛ وفي الطبري (٦ : ٣٣٣٥): برّحه الله. وفي حواشيه: ترحه الله! نزحه الله. أي: أبعده؛ وبرّحه الله: أزاله الله.

وكان والله كما قال، وقلّ ما وزن رأيه برأى رجل إلّا رجح به.

مالك يأبىٰ أن يخطّ اسمه في صحيفة التحكيم

وكُتب الكتاب[١]، وشهد فيه نفر من أصحاب عليّ ونفر من أصحاب معاوية.

ودُعى له الأشتر، فقال:

ـ «لا صحبتنى يمينى، ولا نفعتنى شمالى إن خُطّ لى فى هذه الصحيفة اسم على صلح، ولا موادعة. [16] أولستُ على بيّنة من أمرى، ومن ضلال عدوّى؟ أولستم قد رأيتم الظفر، لولم تُجمعوا على الجور؟»

فقال له الأشعث بن قيس:

ـ «إنك والله ما رأيت ظفراً، ولا جوراً. هلمّ بك إلينا، فإنّه لا رغبة لك عنّا.»

فقال: «بلىٰ والله، الرغبة لى[٢] عنك فى الدنيا للدنيا، وفى الآخرة للآخرة. ولقد سفك الله بيدى دماء رجال ما أنت عندى خير منهم، ولا أحرم دماً.»

قال عُمارة:

فنظرت إلى ذلك الرجل، وكأنما قُصع على أنفه الحُمَمُ ـ يعنى الأشعث.

ثم خرج الأشعث بالكتاب يقرأه على الناس ويعرضه عليهم، حتى مرّ به عروة بن أُذيّه[٣] ـ وهو أخو بلال[٤] ـ فقرأه عليهم.

فقال عروة: «تُحكمون فى أمر الله الرجال؟ لا حكم إلّا لله.»

وشدّ بسيفه، فضرب عجز دابته ضربة خفيفة، واندفعت الدابة. فصاح به أصحابه: أن املك يديك. فرجع، وغضب للأشعث أصحابه وقومه. فمشىٰ إليه

---

١. نصّ الكتاب تجده فى الطبرى (٦: ٣٣٣٦) تحت عنوان: «رجع الحديث إلى حديث أبى مخنف.»

٢. فى الأصل: غير واضح، ويشبه أن يكون: الرغبة بى؛ وفى مط: الرغبة لى: وفى الطبرى: لرغبة بى.

٣. عروة بن أذيّه: كذا فى الأصل ومط. وفى الطبرى (٦: ٣٣٣٩): عروة بن أديّة، بالدال المهملة.

٤. وهو أخو بلال: كذا فى الأصل ومط؛ وما فى الأصل: أخو أبى بلال.

الأحنف بن قيس، ومسعود بن فدكى[١]، وخلق من بنى تميم، فتنصّلوا إليه واعتذروا. فقبل، وصفح.

ذكر خديعة أجازها معاوية على نفسه وتمّت له

[17] وكان أسر معاوية فى أسارئ كثيرين، رجلا من أود، يقال له: عمرو بن أوس، قاتل مع علىّ، فهمّ بقتل الجميع.

فقال له عمرو بن أوس: «إنّك خالى، فلا تقتلنى.»

وقامت بنو أود، فقالوا: «هب لنا أخانا.»

فقال: «دعوه. لعمرى، لئن كان صادقاً، ليستغنينّ عن شفاعتكم، ولئن كان كاذباً لتأتينّ شفاعتكم من ورائه.»

فقال له: «من أين صرتَ خالك، وما كان بيننا وبين أودٍ مصاهرة؟»

قال: «فإن أخبرتك[٢]، فهو أمانى عندك؟»

قال: «نعم.»

قال: «ألست تعلم أنّ أمّ حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبىّ ـ صلّى الله عليه ـ أمّ المؤمنين؟»

قال: «بلىٰ.»

قال: «فإنّى ابنها، وأنت أخوها، فأنت خالى.»

قال معاوية: «ماله لله أبوه، أما كان فى هؤلاء، من يفطن لها غيره؟»

ثم قال للأوديّين:

ـ «استغنى عن شفاعتكم، فخلّوا سبيله».

---

١. مسعود بن مذكى: كذا فى الأصل ومط؛ وما فى الطبرى مسعر بن فدكىّ (نفس الصفحة).

٢. فإن أخبرتك فهو أمانى عندك. كذا فى الأصل ومط؛ وما فى الطبرى: فإن أخبرتك، فعرفته، فهو أمانى عندك. (نفس الصفحة).

وتمّت لمعاوية، وخوطب: «خال المؤمنين.»
وكان عمرو بن العاص أسر أيضاً أسارىٰ كثيرة، فراسله معاوية:
ـ «خلّ سبيل أسرائك، فلولا الأودىّ لوقعنا فى قبيح من الأمور.»
فما شعر الناس إلّا بأسرائهم قد خلّى سبيلهم.

ما قاله عليّ لأصحابه

فأما عليّ بن أبي طالب فإنّه قال لأصحابه:
ـ «لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة، وأسقطت [18] مُنّة[١]، وأورثت وهناً وذلّة. ولما كنتم الأعلين، وخاب عدوكم، ورأى الإجتياح، واستحرّ بهم القتل، ووجدوا ألم الجراح، رفعوا المصاحف، ودعوكم إلى ما فيها ليفتؤوكم عنها، ويقطعوا الحرب في ما بينكم وبينهم، ويتربّصوا ريب المنون، خديعة، ومكيدة، فأعطيتموهم ما سألوكموه، وأبيتم إلّا أن تدهنوا وتجوروا[٢]. وأيم الله، ما أظنّكم بعدها توافقون رشداً، ولا تصيبون باب حزم.»[٣]

ذكر حيلة للمغيرة بن شعبة ليعلم: أيجتمع الحكمان، أم يفترقان

كان الحكمان ـ وهما أبو موسى وعمرو بن العاص، اتفقا على أن يجتمعا

---

١. المُنّة: القوّة.
٢. تجوروا: كذا في الأصل ومط؛ وما في الطبري (٦: ٣٣٤٠): تجوّزوا. وفي حواشيه عن الأصول الأخرى: «تدهنوا وتجيروا»، «تذهبوا وتحيروا» (مهملة).
٣. ولابن الأثير زيادة في أول هذه الرواية. ومن زيادته بيت أنشده عليّ ضمن كلامه قائلاً: وكنت كما قال أخو هوازن:

وهل أنا إلّا من غُزيّة إن غَوَت غويتُ، وإن ترشُد غُزيّةُ أرشُدِ

بأذرح[١] ويحضر وجوه أصحاب عليّ، ووجوه أصحاب معاوية، ويحضر عليّ ومعاوية في أربعمائة، ومدّة الأجل إلى أن يفصلا الحكم، ويرفعا ما رفع القرآن، وأن يختارا لأمّة محمد ـ صلّى الله عليه ـ في ثمانية أشهر، أوّلها النصف من صفر، وآخرها انقضاء شهر رمضان.

فلما اجتمع الحكمان، وافاهم المغيرة بن شعبة في من حضر، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، في رجال كثير [19] ووافي معاوية في العدّة المذكورة، وأبى عليّ أن يوافي.

فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الرأي من قريش:

ـ «هل ترون أحداً من الناس برأي يبتدعه، يستطيع أن يعلم: أيجتمع الحكمان، أم يفترقان؟»

قالوا: «لا نرى أحداً يعلم ذلك.»

قال: «فوالله، إنّي لأظنّ، [أنّي][٢] سأعلمه منهما، [حين][٣] أخلو بهما، وأراجعهما.»

فدخل على عمرو بن العاص، وبدأ فقال:

ـ «يا با عبدالله، أخبرني عما أسألك عنه: كيف ترانا معشر المعتزلة؟ فإنّا قد شككنا في الأمر الذي تبيّن لكم من هذا القتال، ورأينا أن نستأني ونتثبّت، حتى تجتمع الأمة.»

قال: «أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار، وأمام الفجار في سخط الله.»

فانصرف المغيرة، ولم يسأله عن غير ذلك. حتى دخل على أبي موسى، فقال له مثل ما قال لعمرو.

---

١. أذرح: بالذال المعجمة والحاء المهملة، اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة (ياقوت).

٢. في الأصل: بل. وما أثبتناه بين المعقوفتين من مط.

٣. في الأصل: حتى. وما أثبتناه بين المعقوفتين من الطبري ٦: ٣٣٤٢.

فقال أبو موسى: «أراكم أثبت الناس رأياً، فيكم بقية[١] المسلمين.»
فانصرف المغيرة، ولم يسأله عن غير ذلك. فلقي الذين قال لهم ما قال، من ذوى الرأى من قريش، فقال:
ـ «لا يجتمع هذان أبداً على أمر واحد.»
فلما اجتمع الحكمان وتكلّما [20] قال عمرو بن العاص:
ـ «يا با موسى[٢]، أرأيت أول ما تقضى به من الحقّ أن تقضى لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم.»
قال أبو موسى: «وما ذاك؟»
قال عمرو: «ألست تعلم أنّ معاوية وفىٰ، وقدم للموعد الذى واعدناه؟»
قال: «نعم.»
قال: «أكتبها.»
فكتبها أبو موسى.

ذكر الخديعة التى خدع بها عمرو أبا موسى

قال عمرو:
ـ «يا با موسى، أنت على أن تسمّى رجلاً يلى أمر هذه الأمة، فسمّ لى، فإنّى أقدر أن أتابعك منك، على أن تتابعني.[٣]»
قال أبو موسى:
ـ «أسمّى لك عبدالله بن عمر.»
وكان ابن عمر فى من اعتزله.

---

١. كذا في الأصل ومط والطبرى (نفس الصفحة): بقيّة المسلمين؛ وفى حواشى الطبرى عن بعض الأصول: بغية المسلمين.
٢. كذا: «يابا موسى».
٣. فإنّى أقدر... أن تتابعنى: كذا فى الأصل؛ وفى مط: فإنّى أقدر أن نبايعك، منك على أن تبايعنى. والعبارة فى الطبرى (٦: ٣٣٤٢): فإن أقدر على أن أتابعك، فلك علىّ أن أتابعك، وإلّا، فلى عليك أن تتابعنى.

فقال عمرو:

ـ «فأنا أسمّي لك معاوية بن أبي سفيان.»[١]

رواية أخرى في ذلك

وفي رواية أخرى: أنّ عمراً قال لأبي موسى:

ـ «ألست تعلم أنّ عثمان قتل مظلوماً؟»

قال: «أشهد.»

قال: «ألست تعلم أنّ معاوية وليّ دم عثمان؟»

فقال: «بلىٰ.»

قال: «فإنّ الله قال: ومَن قُتِلَ مَظلوماً، فقد جعلنا لِوليّه سُلطاناً.»[٢] فما يمنعك من معاوية وليّ دم عثمان، وهو من عرفت بيته في قريش، وهو الحسن السياسة، الصحيح التدبير، وهو أخو أمّ حبيبة، أمّ المؤمنين، وهو أحد الصحابة وكاتب الوحي.»

فقال له أبو موسى: «أما ذكرت من شرفه وبيته، فإنّ [21] هذا الأمر ليس بالشرف يولّاه أهله، ولو كان بالشرف، كان لآل أبرهة بن الصباح، إنما هو لأجل الدين والفضل.»

١. هنا، زاد في الطبري: فلم يبرحا مجلسهما حتى استبّا، ثم خرجا إلى الناس، فقال أبو موسى:

ـ «إنّي وجدت مثل عمرو، مثل الذين قال الله عزّوجلّ: «واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناهُ آياتنا فانسلخَ منها.» [س ٧ الأعراف، ١٧٤]

فلما سكت أبو موسى، تكلّم عمرو، فقال:

ـ «أيها الناس، إني وجدت مثل أبي موسى، كمثل الذين قال الله عزّوجلّ: «مثلُ الّذين حمّلوا التّوراة، ثمّ لم يَحمِلوها، كمثلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسفاراً.» [س ٦٢ الجمعة: ٥]

وكتب كلّ واحد منهما، مثله الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار. (أنظر الطبري ٦: ٣٣٤٣).

٢. س ١٧ الإسراء: ٣٣.

قال: «فاخلع صاحبك، حتى أخلع صاحبي، ثم نتّفق.»
فاجتمعا على ذلك، وخرجا إلى الناس، وقالا:
ـ قد اتّفقنا.
فقال أبو موسى لعمرو: «تقدّم، فاخلع صاحبك بحضرة الناس.»
فقال عمرو: «سبحان الله! أتقدّم عليك وأنت في موضعك وسنّك وفضلك؟ تقدّم أنت.»
فقدّمه، فقال أبو موسى:
ـ «إنّا ـ والله، أيها الناس ـ قد اجتهدنا رأينا، ولم نأل[١] الإسلام وأهله خيراً، ولم نر أصلح لهذه الأمة من خلع هذين الرجلين، وقد خلعت عليّاً ومعاوية كخلع خاتمي هذا.»
فقام عمرو، فقال:
ـ «لكنّي خلعت صاحبه عليّاً كما خلع، وأثبتُّ معاوية.»
فلم يبرحا حتى استبّا.

ذكر من خالف عليّ بن أبي طالب في رأيه، وأشار بالحرب عليه، وما كان من جوابه واعتذاره

لما انصرف عليّ بن أبي طالب من صفّين، كثر خوض الناس، وخالفه القوم الذين صاروا خوارج، وكانوا طول طريقهم يتدافعون، ويتضاربون بالسياط. فلما صاروا إلى النُّخيلة[٢] ورأوا سور الكوفة لقيه عبدالله بن وديعة الأنصاري، ودنا منه، وسلّم عليه، وسايره، [22] فقال له:
ـ «ما سمعت الناس يقولون في أمرنا؟»

١. لم نأل: لم نعط. وذلك من قولهم: «ألا (يألو، ألواً وأليّاً) فلاناً الشيء: أعطاه إيّاه».
٢. النخيلة (تصغير نخلة): موضع قرب الكوفة على سمت الشام (مع).

قال:

ـ «منهم المعجب به، ومنهم الكاره له، كما قال الله عزّوجلّ: ولا يزالونَ مُختلفينَ، إلّا مَن رَحِمَ ربُّكَ.[1]»

فقال له: «فما قول ذى الرأى فيه.»

فقال: «أما قول ذى الرأى فيه، فيقولون: إنّ عليّاً كان له جمع عظيم ففرّقه، وكان له حصن حصين فهدمه. فحتى متى يبنى ما هدم، وحتى متى يجمع ما فرّق. فلو كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه، فقاتل حتى يظهر، أو يهلك، كان ذلك الحزم.»

فقال عليّ:

ـ «أنا هدمت أم هدموا، أنا فرّقت أم فرّقوا؟ أما قولهم: إنّه لو كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه، فقاتل حتى يظهر، أو يهلك كان ذلك الحزم؛ فوالله ما غبى[2] ذلك عليّ، وإنّى كنت سخيّاً بنفسي عن الدنيا طيّب النفس بالموت. ولقد هممت بالإقدام على القوم، فنظرت إلى هذين قد ابتدرانى ـ يعنى الحسن والحسين ـ ونظرت إلى هذين قد استقدمانى ـ يعنى محمد بن عليّ وعبدالله بن جعفر ـ فعلمت أنه إن هلكا انقطع نسل محمد، فكرهت ذلك، وأشفقت على هذين أن يهلكا. وأيم الله، لئن لقيتهم بعد يومى هذا [23] لألقينّهم[3] وليس معى أحد منهم.»

---

١. س ١١ هود: ١١٨.

٢. غبى: مطموسة النقط فى الأصل ومط؛ والإعجام من الطبرى ٦: ٣٣٤٦؛ والعبارة في الطبرى: «فوالله ما غبى عن رأيى ذلك وإن كنت لسخيّاً بنفسي عن الدنيا...»؛ وفى بعض الأصول: «.. ما خفى هذا عنّى».

٣. فى مط: ألاقينهم؛ والعبارة فى الطبرى: «لألقينّهم، وليسوا معى فى عسكر، ولا دار.»

بكاء النساء على القتلىٰ
وما قاله عليّ لابن شرحبيل

ثم مضى غير بعيد، فمرّ بالشباميّين[١]، فسمع رجّة شديدة وبكاءًا كثيراً، فوقف، فخرج إليه حرب بن شرحبيل الشبامي، فقال له عليّ:

ـ «أيغلبكم[٢] نساؤكم؟ ألا تنهونهنّ عن هذا الرنين؟»

فقال: «يا أميرالمؤمنين، لو كانت داراً أو دارين، قدرنا على ذلك، ولكنّه قتل من هذا الحيّ مائة وثمانون قتيلاً، ليس دار إلّا فيها بكاء. فأما نحن معاشر الرجال، فإنّا لا نبكي، ولكننا نفرح، أمّا نفرح بالشهادة.»

فقال: «رحم الله قتلاكم وموتاكم».

فأقبل يمشي معه وعليّ راكب. فوقف وقال له:

ـ «إرجع، فإنّ مشي مثلك معي فتنة للوالي، ومذلّة للمؤمن.»

مروره بالناعطيّين، وما قاله فيهم

ثم مضىٰ، حتى مرّ بالناعطيّين، فسمع رجلاً منهم يقال له: عبدالرحمان بن مزيد، يقول لآخر:

ـ «والله ما صنع عليّ شيئاً. ذهب، ثم انصرف في غير شيء.»

فلما نظروا إلى عليّ أبلسوا[٣]، فقال: «وجوه ما رأوا الشام.»

ثم أقبل على أصحابه، فقال:

ـ «قوم فارقناهم آنفاً، خير من هؤلاء.»

---

١. في مط: الشامتين، بدل: الشباميّين.

٢. أيغلبكم نساؤكم: كذا في الأصل والطبري (٦: ٣٣٤٨)؛ وفي مط: أتغلبكم نساؤكم.

٣. أبلس: سكت الحيرة، أو انقطاع حجة.

ثم أنشد:

أخوكَ الذى إن أجرضَتْك[١] مُـلمّةٌ من الدهر، لم يبرحْ لبثّك واجمًا[٢]
وليس أخـوك بـالذى إن تشعَّبتْ عليكَ أمورٌ ظـلَّ يـلحاكَ دائـمًا[٣]

[24] ثم مضى، فلم يزل يذكر الله، حتى دخل القصر.

تشاتم القوم واضطرابهم بالسياط

ثم إنّ القوم الذين كانوا معه يتشاتمون طول طريقهم، ويضطربون بـالسياط، ويقول بعضهم لبعض:

ـ «أدهنتم فى أمر الله، وحكّمتم.»

ويقول قوم:

ـ «فرّقتم جماعتنا، وفارقتم إمامنا.»

مفارقة الخوارج عليّاً

نزولهم بحرورىٰ وعدم دخولهم الكوفة مع علىّ

لم يدخلوا معه الكوفة حتى أتوا حرورىٰ[٤]، فنزل بها منهم اثنا عشر ألفاً.

---

١. كذا فى الأصل والطبرى: أجرضتك؛ وفى مط: أجرصتك. أجرضتك ملمّة: جعلتك تجرض بـريقك أى تبتلع ريقك بالجهد على همّ وحزن.

٢. فى مط: لثبات واحماً. وهو خطأ؛ وما فى الأصل غير واضح. فأثبتناه فى ضوء مـا فـى الطبرى (٦: ٣٣٤٩)؛ والبثّ: الحزن الشديد.

٣. فى الطبرى: ويلحاك: يلومك ويعذلك. تجد البيتين فى ديوانه المنسوب (ص ٥٣٢).

٤. حرورىٰ: كذا فى الأصل ومط. وما فى الطبرى (٦: ٣٣٤٩): حروراء (بالمد): قـرية بـظاهر الكـوفة. وقيل موضع على ميلين منها (مع).

فنادىٰ مناديهم:

ـ «إنّ أمير القتال شبث بن ربعى، وأمير الصلاة عبدالله بن الكوّاء، والأمر شورىٰ بعد الفتح، والبيعة لله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.»

ما دار بين شيعة عليّ والخوارج عند دخوله الكوفة

ولما دخل عليّ الكوفة، وفارقته الخوارج، وثبت إليه شيعته وقالوا:

ـ «فى أعناقنا لك بيعة ثانية. نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت.»

فقال بقيّة الخوارج:

ـ «استبقتم أنتم وأهل الشام فى الكفر، كفرسى رهان، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبّوا وكرهوا، وبايعتم عليّاً [على][1] أنكم أولياء من والىٰ، وأعداء من عادىٰ.»

فقال لهم زياد بن النضر[2]:

ـ «والله يا قوم، ما بسط عليّ يده فبايعناه قطّ، إلّا على كتاب الله وسنّة نبيّه، ولكنّكم لما خالفتموه جاءته شيعته، فقالوا: نحن أولياء من واليت، [25] وأعداء من عاديت. ونحن كذلك، وهو هاد، ومن خالفه ضالّ.»

ذكر احتجاج الخوارج مع عليّ عليه السلام

أتىٰ عليّ بن أبى طالب رجلان من الخوارج: زرعة بن البُرج الطائى[3] وحرقوص بن زهير السعدى، فدخلا عليه، فقالا له:

---

١. على: سقطت من الأصل، وموجودة فى مط والطبرى ٦: ٣٣٥٠.

٢. فى مط: زياد بن النصر (بالصاد المهملة)؛ والأصل يوافق الطبرى.

٣. فى مط: زرعة بن مرج الطارئى؟ وهو خطأ. وما فى الطبرى (٦: ٦١ ـ ٣٣٦٠) يوافق الأصل.

ـ «لا حكم إلّا لله.»

فقال عليّ: «لا حكم إلّا لله.»

فقال حرقوص: «فتب من خطيئتك، وارجع عن قضيّتك، واخرج بنا إلى عدوّنا نقاتلهم، حتى نلقى ربنا.»

فقال عليّ: «قد أردتكم على ذلك فعصيتموني. وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً وشروطاً، وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا، وقد قال الله تعالى: وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتهم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إنّ الله يعلم ما تفعلون»[١]

فقال له حرقوص: «ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه.»

فقال عليّ: «ما هو ذنب، ولكنّه عجز من الرأى، وضعف فى العقل، وقد تقدّمت فنهيتكم عنه.»

فقال له زرعة: «أما والله، يا عليّ، لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله، لأقاتلنّك.»

فقال عليّ: «يوسى[٢] لك، ما أشقاك [25] كأنّي بك قتيلاً تسفى عليك الريح.»

قال: «وددت أن قد كان ذاك.»

فخرجا من عنده يحكّمان.

صياح أثناء خطبته

ثم إنّ عليّاً خطب ذات يوم. فإنّه لفى خطبته، إذ صاح صائح من جانب المسجد:

ـ «يا عليّ، لا حكم إلّا لله.»

---

١. س ١٦ النحل: ٩١.

٢. فى مط: بوس لك.

فقال عليّ: «الله أكبر، كلمة حقّ يراد بها باطل. إن سكتوا غممناهم[١]، وإن تكلّموا حججناهم، وإن خرجوا علينا قاتلناهم.»

فوثب يزيد بن عاصم المُحاربي، فقال:

ـ «الحمد لله، اللّهمّ إنّا نعوذ بك من إعطاء الدنيّة في ديننا. يا عليّ، أبالقتل تخوّفنا؟ أما والله، إنّي لأرجو أن نضربكم بها عما قليل، غير مصفّحات، ثم لنعلم أيّنا أولىٰ بها صليّاً.[٢]»

فقال عليّ:

ـ «أما إنّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا لا نمنعكم:»

□ «لا نمنعكم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.»

□ «ولا نمنعكم الفيء، مادامت أيديكم فيه مع أيدينا.»

□ «ولا نقاتلكم حتى تبدأونا.»

ثم رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته.

وخرج الرجلان يحكّمان، واجتمع معهم قوم. فبعث عليّ عبدالله بن العباس، وقال له:

ـ «لا تعجل إلى جوابهم حتى آتيك.»

ذكر ما جرى بينهم من الجدال ورجوعهم مع عليّ وهذه الدفعة الأولى من خروجهم

[27] فخرج ابن عباس إليهم، فأقبلوا يكلّمونه. فلم يصبر حتى راجعهم، فقال:

ـ «ما الذي نقمتم من الحكمين؟ وقد قال الله عزّوجلّ: فابعثوا حكماً من أهله

---

١. نقطة الحرف الأوّل غير واضحة في الأصل. ابن الأثير (٣: ٣٣٤): غممناهم. في الطبري (٦: ٣٣٦١): عممناهم.

٢. وفي التنزيل: «ثم لنحن أعلم بالذين هم أولىٰ بها صليّاً». س ١٩ مريم: ٧٠.

وحكماً من أهلها إن يُريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما[١]؛ فكيف بأمّه محمد، صلّى الله عليه؟»

فقالت الخوارج: «أمّا ما جعل حكمه إلى الناس وأمرهم بالنظر فيه والإصلاح له، فهو إليكم كما أمر به، وأمّا ما حكم فأمضاه، فليس للعباد أن ينظروا فيه. حكم في الزاني مائة جلدة، وفي السارق بقطع يده، وليس لأمثال هذا أن ينظر فيه مخلوق.»

قال ابن عباس: «فإنّ الله يقول: يحكُم به ذوا عدلٍ منكم.[٢]»

فقالوا له: «أو تجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها، كالحكم في دماء المسلمين؟»

وقالت الخوارج: «قلنا له، فهذه الآية بيننا وبينك. أعدل عندك ابن العاص، وهو يقاتلنا، ويسفك دماءنا؟ فإن كان عدلاً فلسنا عدلاً، وقد حكّمتم في أمر الله الرجال، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا. ثم كتبتم بينكم وبينهم كتاباً جعلتم نيّهكم الموادعة والاستفاضة، وقد قطع الله تعالى الاستفاضة [28] والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب، إلّا من أقرّ بالجزية.»

ثم خرج عليّ حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عباس، فقال:

ـ «إنته عن كلامهم! ألم أنهك ـ رحمك الله؟»

ثم تكلّم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

ـ «اللّهمّ، إنّ هذا مقام، من فلج[٣] فيه، كان أولى بالفلج[٤] يوم القيامة؛ ومن

---

١. س ٤ النساء: ٣٥. ٢. س ٥ المائدة: ٩٥.

٣. فلج: نقطة الجيم زائلة في الأصل. فأثبتناها كما في الطبري ٦: ٣٣٥٢، والكامل ٣: ٣٢٨. فلج بحجته: أحسن الإدلاء بها وغلب خصمه. ويقال: فلجت حجته.

٤. أيضاً في الأصل: الفلح، بالحاء المهملة. فاعجمناها كما في مط والطبري والكامل.

نطف[١] فيه، أو وعث[٢]، فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلّ سبيلاً[٣].»

ثم قال: «من زعيمكم؟»

قالوا: «ابن الكوّاء.»

قال عليّ: «فمن أخرجكم علينا.»

قالوا: «حكومتكم يوم صفّين.»

قال: «أنشدكم الله، هل تعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف، فقلتم: نجيبكم[٤] إلى كتاب الله؛ قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم، إنّهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً. امضوا على حقكم وصدقكم. فلما رفع القوم لكم المصاحف خديعة ودهناً[٥] ومكيدة، فرددتم عليَّ رأيي وقلتم: لا بل نقبل منهم؛ فقلت لكم: اذكروا قولي ومعصيتكم إيّاي. فلما أبيتم إلّا الكتاب اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيى القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن. فإن حكما حكم القرآن [29] فليس لنا أن نخالف حكمه، وإن أبينا، فنحن[٦] منه برءاء».

فقالوا له: «فخبّرنا: أتراه[٧] عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟»

فقال: «إنّا لسنا الرجال حكّمنا، إنّما حكّمنا القرآن، وهذا القرآن إنّما هو خطّ مسطور بين دفّتين لا ينطق، إنما يتكلّم به الرجال.»

قالوا: «فخبّرنا عن الأجل: لِمَ جعلته في ما بينك وبينهم؟»

---

١. نطف: كذا في الأصل ومط. نطف: أتّهم بريبة. وفي الطبري: نطق. وهو تصحيف.

٢. كذا في الأصل: وعث. وفي مط: أرعث. وعث المتكلّم: عجز عن الكلام، خلّط.

٣. «فهو... سبيلاً»: اقتباس من س ١٧ الاسراء: ٧٢.

٤. كذا في الأصل: فقلتم نجيبكم. وفي مط والطبري: فقلت نجيبهم.

٥. كذا في الأصل والطبري: دهناً. وما في مط، وابن الأثير: وهناً.

٦. كذا في الأصل: منه. وفي مط: بدون «منه». وما في الطبري (٦: ٣٣٥٣): فنحن من حكمهما برءاء.

٧. في مط: فخبرنا اتراه. وهو خطأ.

قال: «ليعلم الجاهل، ويثبت العالم. ولعلّ الله يصلح فى هذه المدة هذه الأمة، ادخلوا مصركم، رحمكم الله.»

فدخل القوم من عند آخرهم.

ابتداء يوم النهر

ثم اجتمعوا بالكوفة، وتذاكروا أمرهم، وكاتبوا إخوانهم بالبصرة، وتواعدوا ليوم يخرجون فيه إلى المدائن، ومنها إلى النهر. ففعلوا ذلك، واستعرضوا الناس، وقتلوا عبدالله بن خبّاب بن الأرتّ[١]، وبلغ ذلك عليّاً، فسار إليهم. ثم لما اجتمعوا كلّمهم واستعطفهم. فأبوا إلّا قتاله، وجرت بينهم مخاطبات تركت ذكرها.

ثم تنادوا أن:

ـ «دعوا مخاطبة عليّ وأصحابه، وبادروا إلى الجنة.»

فصاحوا:

ـ «الرواح الرواح إلى الجنة!»

عليّ يعبّئ ويرفع راية أمان

فعبّى عليّ ـ عليه السلام ـ أصحابه، ورفع راية أمان مع أبى أيوب [30] الأنصارى، فناداهم أبو أيوب فقال:

ـ «من جاء هذه الراية منكم، ممن لا يقتل ولا يستعرض، فهو آمن؛ ومن انصرف منكم إلى الكوفة، أو المدائن، وخرج من هذه الجماعة، فهو آمن. إنه لا

١. فى مط: حباب بن الأدت (بالدال المهملة). فى الأصل: حباب بن الأرت. وفى الأصول: خبّاب بن الأرتّ (بتشديد الباء والتاء). ذبحته عصابة من الخوارج على ضفة النهر قرب النهروان، وبقروا بطن امرأته، وهى حبلى، كما قتلوا ثلاث نسوة من طىّء، وقتلوا أمّ سنان. (أنظر الطبرى ٦: ٣٣٧٤، وابن الأثير ٣: ٣٤٠).

حاجة لنا ـ بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم ـ في سفك دمائكم.»

فقال فروة بن نوفل الأشجعي:

ـ «والله ما أدري: على أيّ شيء، أقاتل عليّ بن أبي طالب.»

فانصرف في خمسمائة فارس. وخرج إلى عليّ منهم نحو ذلك. وكانوا أربعة آلاف، ورئيسهم عبدالله بن وهب الراسبي.

وكان عليّ قدّم الخيل دون الرجال، وصفّ الناس وراء الخيل صفّين، وصفّ المرامية أمام الصفّ الأول، وقال لأصحابه:

ـ «كفّوا عنهم حتى يبدأوكم، فإنّهم لو قد شدّوا عليكم وخلفهم رجال[1]، لم ينتهوا إليكم إلّا لاغبين[2]، وأنتم له قارّون حامّون[3].»

فأقبل الخوارج وهم يتنادون:

ـ «الرواح الرواح إلى الجنّة.»

وشدّوا، فلم تثبت خيل عليّ لشدّتهم، وافترقت الخيل فرقتين: فرقة نحو الميمنة، وفرقة نحو الميسرة. وأقبلوا نحو الرجال، فاستقبلت المرامية [31] وجوههم بالنبل، وعطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فما لبّثوهم أن أناموهم عن آخرهم.

قال حكيم بن سعد:

ما هو إلّا أن لقينا أهل النهر، فما لبّثناهم، كأنّما قيل لهم: موتوا! فماتوا.

ولم يقتل من أصحاب عليّ إلّا سبعة، واستخرج ذو الثديّة، على الحكاية المعروفة، وخبره مشهور. وانصرف عليّ إلى معكسره بالنخيلة من ظاهر الكوفة، وأمر الناس أن يسيروا على تعبئتهم إلى الشام.

---

١. كذا في الأصل ومط: وخلفهم رجال. وفي الطبري (٦: ٣٣٨١): وجلّهم رجال.

٢. كذا في الأصل والطبري: لاغبين. وفي مط: لاعتين.

٣. كذا في الأصل ومط: وأنتم له قارّون حامّون. وما في الطبري: رادّون حامون.

استبدال الشام بالنهر

وقد كان عليّ همّ بالخروج إلى الشام قبل. فلما عظمت الشوكة من الخوارج، وأخذوا في الاستعراض، وقتلوا الصالحين، قال الناس:

ـ «يا أميرالمؤمنين، علام تخلّف هؤلاء المارقة وراءنا، يخلفوننا فی أبنائنا ونساءنا بالقتل، فنبدأ بهم.

ولما انصرف إلى معسكره بالنخيلة، أمرهم أن يوطّنوا أنفسهم على الجهاد، وأن يسيروا إلى عدوهم. فتسلّلوا من معسكرهم، فدخلوا إلّا رجالاً قليلاً من وجوه الناس، وترك المعسكر.

فلما رأى ذلك عليّ، دخل الكوفة، وانكسر عليه [32] رأيه في المسير، وذلك في سنة ثمان وثلاثين.

ثم جرت بين عليّ وأصحابه خطوب ومخاطبات يستنهضهم ويأبون[١]، ويخطب فيهم ويستمدّهم، ويستدعى نصرهم، ويستبطئهم، فيتثاقلون، وخطبه مشهورة معروفة.

إلى أن طمع معاوية في العراق، وبثّ دعاته سرّاً وجهراً إلى البصرة يطلب دم عثمان، وسرّب خيله في أطراف عليّ ـ عليه السلام ـ فأنفذ النعمان بن بشير فی ألفی رجل إلى عين التمر، وبها مالك بن كعب في ألف رجل من قبل عليّ. فلما سمع القوم به، تسلّلوا إلى الكوفة حتى بقى مالك فی مائة رجل، وكتب إلى عليّ يخبره، واستمدّه.

فخطب عليّ، وأمرهم بالخروج، فتثاقلوا. فواقعهم مالك فی من تبعه، وأمر أصحابه أن يجعلوا حيطان المدينة في ظهورهم ويقاتلوا. وكتب إلى مخنف بن

---

١. ويأبون... ... ويستبطئهم: سقطت من مط.

سليم أن يمدّه وهو قريب منه وقاتلهم ابن كعب في العصابة التي معه أشدّ قتال يكون.

اتفاق جيّد
وقع لمالك حتى هزم النعمان ومن معه

[33] ووجّه محنف ابنه إليه، عبدالرحمان[١]، في خمسين رجلاً. فانتهوا إلى مالك وأصحابه وقد كسروا جفون سيوفهم واستقتلوا. فلما رءاهم أهل الشام، وذلك عند المساء، ظنّوا أنّ لهم مدداً، فانهزموا، واتبعهم مالك، فقتل منهم ثلاثة نفر، ومضوا على وجوههم. فأما غيره من سرايا معاوية، فإنّهم كانوا يظفرون ويقتلون ويغنمون وينصرفون.

وأما من حصل من قبلُ بالبصرة لأجل التضريب بين الناس، فإنّه بلغ ما أراد، ووقعت الفتنة والعصبية، فطمع أهل فارس، وكرمان في عمّال عليّ، فغلب أهل كلّ ناحية على ما يليهم، فأخرجوا عمّالهم.

فاستشار عليّ أصحابه في من يضبط به فارس وكرمان. فقال ابن عباس:

ـ «أدلّك على رجل صليب الرأى عالم بالسياسة، كاف، وليّ.»

قال: «من هو؟»

قال: «زياد.»

قال: «هو لها.»

فتوجّه ابن عباس إلى عمله بالبصرة. وكان زياد يخلفه بها. فضمّ إليه أربعة آلاف رجل، وولّا فارس، فدوّخها حتى استقاموا. [34]

١. كذا في الأصل ومط: ابنه إليه عبدالرحمان.

ذكر سياسة زياد لهذا الوجه

حدّث قوم من أهل فارس قالوا:

ورد زياد نواحي فارس، وهي تضطرم. فلم يزل يبعث إلى رؤسائها، يعد من نصره ويمنّيه، ويخوّف من خالفه ويوعده، ويضرّب بعضهم ببعض، ويداري من يرىٰ مداراته، حتى دلّ بعضهم على عورة بعض، وهربت طائفة، وأقامت طائفة، يقتل بعضها بعضاً، حتى صفت له فارس، فلم يلق فيها جمعاً، ولا حرباً، ولم يقف موقفاً واحداً للقتال. وفعل مثل ذلك بكرمان حتى صفت أيضاً له.

فقال الناس:

ـ «ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان، من سيرة هـذا العـربيّ، فـي اللين، والمداراة، والعلم بما يأتي.»

دخول بسر بن أرطاة المدينة ومكة وهروب عمّال عليّ

ثم كثرت غارات معاوية على أطراف عليّ، ووجّه بسرَ بن أرطاة إلى الحجاز. فدخل المدينة ومكة، وهرب عمال عليّ، وقتل شيعةَ عليّ. ومضى نحو اليمن، وكان على [35] اليمن عبيدالله بن العباس. فهرب إلى الكوفة، واستخلف عبدالله بن عبدالمدان، فأتاه بسر[١]، فقتله، ولحق ثَقَل[٢] عبدالله وفيه ابنان له صغيران، فقتلهما، وبلغ ذلك عليّاً، فوجّه جارية بن قدامة في ألفين، ووهب بن مسعود في ألفين.

---

١. في مط: بشر.

٢. كذا في الأصل: ثَقَل عبدالله. وفي الطبري (٦: ٣٤٥٢): ثقل عبيدالله. والثَقَل: المتاع، والشيء النفيس الخطير. وفي مط: قفل عبيدالله. والقفل: القافلة.

فسار جارية حتى أتى نجران، وقتل خلقاً من شيعة عثمان، وهرب بسر منه، وتبعه حتى دخل مكة والمدينة، وأرجف الناس بموت عليّ. فأخذ الناس ببيعة الحسن بن عليّ، فأبوا، ثم خافوه، فبايعوه، فأقام[١] مدة، ثم انصرف إلى الكوفة.

العراق لعليّ، والشام لمعاوية

ثم جرت مكاتبات كثيرة بين عليّ ـ عليه السلام ـ وبين معاوية، استقرّ آخرها على وضع الحرب بينهما، ويكون لعليّ العراق، ولمعاوية الشام، لا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش، [ولا غارة][٢] ولا غزوة، وأن يضعا السيف، ولا يريقا دماء المسلمين، فتراضيا على ذلك.

تحالف الخوارج
لقتل عليّ، ومعاوية، وعمرو بن العاص

واجتمع بعد ذلك نفر ممن يرىٰ رأى الخوارج، فتذاكروا أصحاب النهر، وترحّموا عليهم، وعابوا ولاتهم، وقالوا:

ـ «ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فلو قتلنا أئمة الضلال، لرجونا الأجر والثواب.»

فتحالف عبدالرحمان بن ملجم، والبرك بن عبدالله، [36] وعمرو بن بكر التميمى أن يأتى كلّ واحد منهم واحداً من الأئمة الثلاثة يعنون: عليّاً، ومعاوية، وعمرو بن العاص، فيغتالونهم.

فأمّا ابن ملجم فقال: «أنا أكفيكم عليّ بن أبى طالب.» وكان من أهل مصر.

وقال البُرَك بن عبدالله: «أنا أكفيكم معاوية.»

وقال عمرو بن بكر: «أنا أكفيكم عمرو بن العاص.»

---

١. فى الأصل ومط: فأقاموا. والعبارة فى الطبرى (٦ : ٣٤٥٢): فبايعوه، و«أقام» يومه، ثم خرج منصرفاً إلى الكوفة..

٢. ما فى [ ] تكملة من الطبرى ٦ : ٣٤٥٣.

فتعاهدوا، وتواثقوا، وأخذوا أسيافهم وسمّوها، واتّعدوا لسبع عشرة من شهر رمضان، أن يثب كلّ واحد منهم على صاحبه الذى توجّه له.

ما جرىٰ بين ابن ملجم وقَطامِ فى الكوفة وتعاونهما على قتل علىّ

فأما ابن ملجم، فإنّه دخل الكوفة، ورأى امرأة يقال لها: قَطامِ، وكان علىّ قتل أباها وأخاها يومِ النهر، وكانت فائقة الجمال، فالتبست بعقله، ونسى حاجته التى جاء لها، فخطبها، فقالت[١]:

ـ «لا أتزوّجك حتى تشترط إلىّ.»

فقال: «ما شرطكِ؟»

قالت: «ثلاثة آلاف، وعبد، وقينة[٢]، وقتل علىّ!»

قال: «هو لكِ، ووالله ما وردت إلّا لقتل علىّ.»

قالت: «فأنا ألتمس لك من يساعدك على أمرك.»

فطلبت له رجلاً من قومها، والتمس عبدالرحمان آخر، فصاروا ثلاثة، وأخذوا أسيافهم فى الليلة [37] التى واعد عبدالرحمان بن ملجم أصحابه، وجلسوا مقابلى السدّة التى يخرج منها علىّ للصلاة.

فلما خرج، ضربه ابن ملجم، وأقرنه[٣]، وهرب، وتصايح الناس، فأُخذ ابن ملجم، وحُمل إلى علىّ.

فلما رءاه، قال: «أى عدوّ الله! ألم أحسن إليك؟»

---

١. فى الأصل: فقال (بالتذكير) وهو سهو من الكاتب. وفي مط: فقالت.

٢. القينة: الأمة، صانعة أو غير صانعة، وغلب على المغنّية. والقينة والمقيّنة: الماشطة التى تزيّن النساء.

٣. أقرنه: أقرنه، وقرنه أى: ضربه على قرنى رأسه، وقرن الرجل: حدّ رأسه وجانبه. والعبارة فى الطبرى (٦ : ٣٤٥٩): وضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف.

قال: «بلى.»
قال: «فما حملك على هذا؟»
قال: «شحذته أربعين صباحاً، فسألت الله أن يقتل به شرّ خلقه.»
فقال عليّ:
ـ «لا أراك إلّا مقتولاً به[١]، ولا أراك إلّا شرّ خلق الله.»
ثم مات عليّ بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ وذلك في شهر[٢] رمضان سنة أربعين.

قتل ابن ملجم وحرقه

وأحضر الحسن بن عليّ بن أبى طالب ـ عليهما السلام ـ ابن ملجم. فلما دخل عليه، قال:
ـ «هل لك فى خصلة[٣]؟ إنّي والله ما أعطيت الله عهداً إلّا وفيت به، وكنت أعطيت الله عهداً عند الحطيم[٤] أن أقتل معاوية وعليّاً، أو أموت دونهما، فإن شئت خلّيت بيني وبينه، ولك الله عليّ إن لم أقتله، أو قتلته ثم بقيت، أن آتيك حتى أضع يدي في يدك.»
فقال له الحسن:
ـ «أما والله، حتى تعاين النار فلا!»
ثم قدّمه، فضرب عنقه. ثم أخذه الناس، فأدرجوه في بواريّ[٥]، ثم أحرقوه

١. به: ليست فى مط. ٢. فى مط: شهر الله رمضان.
٣. الخصلة: خُلق فى الإنسان يكون فضيلة أو رذيلة.
٤. الحطيم: قال ابن عباس: الحطيم الجدار، بمعنى جدار الكعبة. ابن سيدة: الحطيم حجر مكة مما يلى الميزاب، سمّى بذلك لانحطام الناس عليه، وقيل: إنهم كانوا يحلفون عنده فى الجاهلية فيحطم الكاذب وهو ضعيف. الأزهرى: الحطيم: الذى فيه المرزاب، وإنما سمّى حطيماً، لأنّ البيت رفع، وترك ذلك محطوماً (لع).
٥. البواريّ: جمع مفرده البارى. والباريّ والبارية والبارياء والبوريا: الحصير. (فارسى معرّب).

بالنار.

ما كان من أمر برك ومعاوية

وأمّا البَرْك، فإنّه قعد لمعاوية، فلما [38] خرج للصلاة، ضربه بالسيف، فوقع في أليته[١]، فأُخذ فقال:

ـ «إنّ عندي خبراً أسرّك به، فإن أخبرتك، أينفعنى ذلك؟»

قال: «نعم.»

قال: «إنّ عليّاً قتله أخ لى في هذه الليلة.»

وحدّثه الحديث.

قال: «فلعلّه لم يقدر على ذلك.»

قال: «بلىٰ، إنّ عليّاً يخرج وحده، وليس معه من يحرسه.»

فأمر به معاوية، فضربت عنقه.

ما كان من أمر عمرو بن بكر، وعمرو بن العاص

وأمّا عمرو بن بكر، فجلس لعمرو بن العاص، وكان اشتكىٰ بطنه، فأمر خارجة بن أبي حبيبة، وكان على شرطه، ليصلّي بالناس. فخرج، وشدّ عليه ابن بكر، وهو يرىٰ أنه عمرو، فضربه فقتله. فأخذه الناس، فانطلقوا به إلى عمرو، وسلّموا عليه بالإمرة، فقال:

ـ «من هذا؟»

قالوا[٢]: «عمرو.»

قال: «فمن قتلتُ؟»

---

١. الألية: العجيزة، أو ما ركبها من شحم ولحم.

٢. في الأصل: قال. في مط: قالوا. فأثبتنا ما في مط.

قالوا: «خارجة.»

قال: «والله يا فاسق، ما ظننته غيرك.»

قال عمرو: «أردتني، وأراد الله خارجة.»

وقدّمه عمرو، وقتله.

ما قالته عائشة في قتل عليّ

ولما انتهىٰ إلى عائشة قتل عليّ، قالت:

فألقَت عصاها واستقرّت بها النّوىٰ كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ

وقالت: «من قتله؟»

قيل: «رجل من مراد.»

قالت: [39]

فإن يكُ نائياً، فلَقد نَعاهُ نُعاةٌ ليس في فيها التُّرابُ

أسماء كتّاب عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه

كتب له سعيد بن نمران الهمداني، وكان يكتب له عبدالله بن جعفر أيضاً، وعبيدالله بن أبي رافع.

وحكى عن عبيد الله أنه قال: كتبت بين يدى عليّ عليه السلام ـ فقال: ـ «ألق[١] دواتك، وأطل سِنّيْ قلمك، وفرّج بين السطور، وقَرمِطْ[٢] بين

١. ألق: من قولهم: ألاق الدواة: جعل لها ليقة، وأصلح مدادها. والليقة: صوفة الدواة.

٢. قرمط بين الحروف: جعلها متقاربة.

الحروف.»

وكنّا ذكرنا أنه استكتب زياداً على خراج البصرة وديوانها لمّا استخلف ابـن عباس عليها.

ولزياد سياسات يصلح أن تذكر فى هذا الكتاب، فإنّا إنما نذكر كتّاب الخلفاء لأجل ما عزمنا على ذكر سياستهم، ولم يمض إلى هذا الوقت أحد منهم عرفت له سياسة غير زياد، ونحن نذكر ذلك فى آخر أيّام معاوية، إن شاء الله.



بيعة الحسن بن عليّ

وبويع الحسن بالخلافة في سنة أربعين[١]، وأوّل من بايعه قيس بن سعد[٢]، وكان قيس على مقدّمة أهل العراق، ويقال: إنّهم كانوا أربعين ألفاً، بايعوا عليّاً على الموت.»

نزع قيس
وتأمير عبيدالله بن عبّاس

ولمّا قُتل عليّ، واستخلف [40] أهل العراق الحسن، كـان الحسـن لا يـريد القتال، ولكنّه يريد أن يأخذ لنفسه مـا اسـتطاع مـن مـعاوية، ثـمّ يـدخل فـي

---

١. أنظر الطبري (٧: ١)، والمسعودي (٢: ٤٢٦)، وابن الأثير (٣: ٤٠٢).

٢. في الطبري (٧: ١)؛ وقيل: إنّ أوّل من بايعه قيس بن سعد، قال له:

ـ «ابسط يدك أبايعك على كتاب الله، وسنّة نبيّه، وقتال المحلّين.»

فقال له الحسن ـ رضي الله عنه:

ـ «على كتاب الله وسنّة نبيّه، فإنّ ذلك يأتي من وراء كلّ شرط.»

فبايعه، وسكت، وبايعه الناس. وفي الطبري أيضاً: فطفق يشترط عليهم الحسن:

ـ «إنّكم سامعون، مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت.»

فارتاب أهل العراق في أمرهم، حين اشترط عليهم هذا الشرط، وقالوا:

ـ «ما هذا لكم بصاحب، وما يريد هذا القتال...» (٧: ٥).

الجماعة.[١] وعرف الحسن أن قيس بن سعد لا يوافقه على رأيه، فنزعه، وأمر عبيدالله بن عبّاس، وعلم عبيدالله بالذى يريد الحسن أن يأخذ لنفسه. فكتب إلى معاوية يسأله الأمان ويشترط لنفسه على الأموال التي أصاب، فشرط له ذلك معاوية.

ذكر مكيدة لمعاوية

يقال: إنّ معاوية دسّ إلى عسكر الحسن بن علىّ، حين نزل المدائن، وعلى مقدمته قيس بن سعد في اثنى عشر ألفاً، وذلك قبل أن ينزعه، وكان معاوية أقبل من الشام، فنزل مسكن[٢]، فدسّ معاوية من نادى في عسكر الحسن:

ـ «ألا إنّ قيس بن سعد قد قُتل، فانفروا!»

فنفروا بسرادق الحسن، حتّى نازعوه بساطاً كان تحته، وجرحوه، فخرج الحسن حتّى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن.

كتاب كتبه الحسن إلى معاوية في الصلح

وكتب حينئذ الحسن بن علىّ إلى معاوية يطلب الأمان، فقال الحسن للحسين وعبدالله بن جعفر:

ـ «إنّى كتبت إلى معاوية في الصلح.»

فقال له الحسين:

---

١. عن الطبرى (٧: ١).

٢. مسكن (على وزن: مسجد): أصله: موضع السكنى، وذلك يقال له أيضاً: مسكَن، (بفتح الكاف). قال: وهو موضع من أوانا على نهر دجيل عند دير جاثليق، به كانت الوقعة بين عبدالملك بن مروان، ومصعب بن الزبير، وقتل به مصعب، وقبره هناك. قلت [والقائل صاحب المراصد]: مسكن اسم للطسوج الذى منه أوانا من أعمال دجيل، والموضع الذى به قبر مصعب على جانب به الآن، وجبل به الآن قرية، ودير الجاثليق قريب منه (مع).

ـ «أنشدك الله أن تصدّق [41] أحدوثة معاوية، وتكذّب أحدوثة عليّ.»
فقال الحسن:
ـ «اسكت، فإنّى أعلم بالأمر منك.»
واشترط الحسن على معاوية:
□ على أن يجعل له ما فى بيت ماله.
□ وخراج دارابجرد.
□ وعلى أن لا يُشتم عليّ وهو يسمع.
وكان الذى فى بيت المال بالكوفة خمسة آلاف ألف. [٥,٠٠٠,٠٠٠]

ذكر حيلة واتّفاق طريف فى هذا الشرط

كان معاوية أرسل قبل أن ترد عليه صحيفة الحسن بالشرط، بصحيفة بيضاء مختوم[١] على أسفلها، وكتب إليه أن:
ـ «اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمت أسفلها ما شئت، فهو لك.»
ولمّا أتت الحسن هذه الصحيفة، اشترط فيها أضعاف الشروط التى كان سألها قبل ذلك، وأمسكها عنده، وأمسك معاوية صحيفة الحسن التى كان كتبها. فلمّا التقى معاوية والحسن، سأله الحسن أن يعطيه الشروط التى فى السجل الذى ختمه معاوية فى أسفله، فأبى معاوية أن يعطيه، وقال:
ـ «ما لك إلّا ما سألتنيه بخطّك.»
فاختلفا، وتنازعا، ولم ينفّذ للحسن من تلك الشروط شيئاً.

معاوية يُكايد قيس بن سعد

ثمّ إنّ الناس اجتمعوا إلى قيس بن سعد، وتعاقدوا [42] على قتال معاوية.

---
١. كذا فى الأصل ومط والطبرى (٧: ٥): مختوم. وفى حاشية الطبرى: مختومة.

فلمّا فرغ معاوية من عبيدالله والحسن، خلص إلى مكايدة رجل هو أهمّ إليه، وأبلغ مكيدة، ومعه أربعون ألفاً. فراسله يذكّره بالله، ويقول له:

ـ «على طاعة من تقاتل؟ قد بايعني الذى أعطيته طاعتك.»

وأبى قيس أن يلين له حتّى بعث إليه معاوية بسجلّ ختم فى أسفله، وقال:

ـ «أكتب ما شئت فى هذا السجل، فهو لك.»

واشترط قيس له ولشيعة عليّ الأمان، على ما أصابوا من الدماء، والأموال، ولم يسأل معاويةَ فى سجلّه ذلك مالاً. فأعطاه معاوية ذلك.

الدُّهاة الخمسة

وكان قيس يعدّ فى الدهاة، وكانوا خمسة يومئذ، وهم: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة ابن شعبة، وقيس بن سعد، وعبدالله بن بُديل. وكان قيس [و][1] عبدالله بن بديل مع عليّ، والمغيرة بن شعبة معتزلاً بالطائف، حتّى حُكّم الحكمان.

ما قاله الحسن بن عليّ فى خطبته بعد الصلح وقبل أن يغادر الكوفة إلى المدينة

ولمّا تمّ الصلح بين الحسن ومعاوية، قام الحسن فى الناس خطيباً بالكوفة[2]، فقال:

ـ «يا أهل العراق! إنّه سخّى[3] بنفسى عنكم ثلاث: قتلُكم أبى، وطعنُكم إيّاى،

---

١. فى الأصل: قيس بن عبدالله بن بديل، وهو سهو من الكاتب، وصححناه كما فى مط والطبرى (٧ : ٨).

٢. وأمّا حسب الطبرى (٧ : ٩) فإنّ الخطبة هذه، خطبها الحسن بمسكِن، حيث تمّ الصلح، ثمّ دخل الكوفة بمن معه، وبرأ هناك ثمّ تحوّل إلى المدينة.

٣. فى مط: نحّى بنفسه! وما فى الطبرى كما فى الأصل: سخّى بنفسي. سخّى نفسه، وبنفسه عن كذا:

وانتهابُكم متاعي.»

وبرأ الحسن من جراحته، فتحوّل إلى المدينة. وحال أهل البصرة بينه وبين خراج [43] دارابجرد، وقالوا:

ـ «فيئنا.[١]»

ولمّا دخل المدينة[٢]، تلقّاه الناس، فصاحوا:

ـ «يا مذلّ العرب!»



← حملها على تركه، وعدم النزوع إليه.

١. في الأصل ومط: فينا. والتصحيح من الطبري (٧: ٩).

٢. في الطبري (٧: ٩): فلمّا خرج إلى المدينة، تلقّاه ناس بالقادسية، فقالوا:

ـ «يا مذلّ لعرب!»

فهرس العناوين


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

MISKAWAYH
(932-1030)

TAJĀRIB AL-UMAM

(Experiences of Nations)

EDITED, ANNOTATED & INTRODUCED
by
A.Emāmi, Ph.D.

VOL. 1

Soroush Press
Tehran 2001

MISKAWAYH

(932-1030)

TAJĀRIB AL- UMAM

(Experiences of Nations)

EDITED, ANNOTATED & INTRODUCED

by

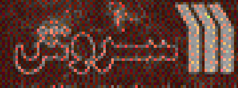
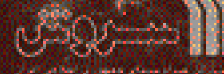
A. Emāmi, Ph. D.

vol. 1



Soroush Press

Tehran 2001

بها: شمیز ۳۲۰۰۰ ریال

گالینگور ۳۸۰۰۰ ریال

ISBN:964 - 435 - 592 - X   شابک: x - ۵۵۲ - ۴۳۵ - ۹۶۴

ISBN:964-435-331-5(7Vol SET)   شابک: ۵-۳۳۱-۴۳۵-۹۶۴(دوره ۷جلدی)